"منهاج النبوّة"

في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة

(من الاستضعاف إلى الاستخلاف)

"مِنْهاجِ النبوّة"

من الاستضعاف إلى الاستخلاف

"تأصيل وقواعد عامة"

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ **لَنُخْرِجَنَّكُم** مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ **فَأَوْحَىٰ** إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ **لَنُهْلِكَنَّ** الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ** الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ **ذَٰلِكَ** لِمَنْ **خَافَ مَقَامِي وَخَافَ** وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ إبراهيم

﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ** رُسُلَنَا وَالَّذِينَ **آمَنُوا** فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ غافر

﴿**وَعَدَ** اللَّهُ الَّذِينَ **آمَنُوا** مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ** فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ **وَلَيُمَكِّنَنَّ** لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ **وَلَيُبَدِّلَنَّهُم** مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ **يَعْبُدُونَنِي** لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ النور

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

و"الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً، قيماً.."
الحمد لله الرحمن، الذي خلق الإنسان، علمه البيان..
الحمد لله الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم..
والصلاة والسلام على الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحَى..

أمّا بعد:

يقول الله جلّ وعلا:

﴿.. قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦﴾ المائدة

" هذا هو **كتاب** الله.. وهو الذكْر الحكيم، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين..
وهو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه مِن جبّار قصمه الله، ومَنْ ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله..
فيه نبأ ما كان قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحُكْم ما بيننا..
وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه.."

﴿.. وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾ فصلت: ٤١ - ٤٢

ويشير الله جلّ شأنه، إلى كتابه الكريم ورسالته الخاتمة للناس:

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢٠ ﴾ الجاثية: ٢٠

"هذا القرآن الذي أنزلناه إليك - أيها الرسول - بصائر يبصر به الناس الحق من الباطل، ويعرفون به سبيل الرشاد، وهدى ورحمةٌ لقوم يوقنون بحقيقة صحته، وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم". **[التفسير الميسر]**

"فما أشدّها من حَسْرة، وما أعظمها من غُبنة، على مَن أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فَهِم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه" **[ابن القيم]**..

اللهم ربّنا انت وصفت كتابك وقرآنك، بالكريم والمجيد والحكيم، وبالروح والهدى والنور.. اللهم ربّنا فاجعله لنا نورا وهدى وآتنا به الحكمة.. واجعل لنا الحظ الأوفر من كل خير فيه.. وافتح لنا ما أُغلق منه علينا بسبب جهلنا ومعاصينا، وزدنا به علماً.. وأَحْينا به حياة طيبة في الدنيا والأخرة.. بفضلك وكرمك ورحمتك، يا ذا الجلال والإكرام..

والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمّد وآله الطاهرين..

والحمد لله ربّ العالمين..

وِجهةُ البحث..

"من المشاهّد أن الغرب في حربه على الإسلام والمسلمين، قد فشل باجتثاث الإسلام من النفوس، لكنّه نجح في تضليل المسلمين عن الإسلام الذي يخشاه، حيث أنّ الإسلام الذي ساد وظهرت معالمه في "الصحوة الإسلامية" - بشكل عام - بعيد عن الإسلام الذي يخشاه الغرب" !!

ورغم أن الأمّة كافحت وقدّمت الكثير من التضحيات تحت الشعارات الإسلامية طيلة القرن العشرين.. إلا أنها لم تصل إلى أن يكون دين الله الإسلام هو الذي يحكمها وينظم شؤون حياتها.. بل لا تزال هذه الأمّة تعيش على الهامش، ولا وزن لها ولا تأثير:

"كثير ولكن غثاء كغثاء السيل" !!..

ولكن، لماذا فشلت تلك الجهود؟.. وأين هي تلك الحيوية التي كانت موجودة في الإسلام، والتي استطاعت بناء أمة لها سلطان ودولة، استمرّت قوية ومنتشرة لمدّة تزيد عن اثني عشر قرناً من الزمان ؟!!

فهل أصبح الإسلام؛ دين الله الخاتم.. غير صالح لهذا الزمن ؟!.. حاشا لله..

أم أنّ المسلمين الآن، طال عليهم الأمد فبَعُدوا عن "روح الإسلام" التي تعطي تلك الحيوية والتأثير؟..

إن الإسلام الذي يخشاه الغرب وتخشاه كل مِلَل الكفر، هو "صراط الله المستقيم" الذي أقسم إبليس اللعين أنه سيقعد عليه ليَصْرِف الناس عنه.. وقد كانوا من أوليائه وأعانوه على ذلك.. و"صراط الله المستقيم" واضح وميسَّر.. ولَه أصل، هو "فحوى الرسالة" و "روح الإسلام" التي تعطي كل تلك الحيوية والتأثير:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ هود: ١ - ٢

أُحكِمَت آيات هذا الكتاب الكريم، ثم فُصِّلَت من لدنه **جلّ جلاله** الحكيم الخبير، بأنه:

﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ .. "أي، أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه وحده مخلصين له الدين، وأنه ﷺ نذير بعذاب الله لمَن أبى واستكبر، وبشير برحمة الله لمَن آمن واتبع"..(1)

---

1 - (ألّا: أن لا) (أنْ) تَفْسِيرِيَّةٌ لِما في مَعْنى ﴿أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود:١] مِنَ الدَّلالَةِ عَلى أقْوالٍ مُحْكَمَةٍ ومُفَصَّلَةٍ فَكَأنَّهُ قِيلَ: أُوحِيَ إلَيْكَ في هَذا الكِتابِ لأجل أن تخلصوا - أيها الناس - الدين كله لله، وأن لا=> تشركوا به شيئاً. فَهَذِهِ الجُمْلَةُ تَفْسِيرِيَّةٌ لِما أُحْكِمَ مِنَ الآياتِ، لِأنَّ النَّهْيَ عَنْ عِبادَةِ غَيْرِ الله وإيجابَ عِبادَةِ الله، هو أصْلُ الدِّينِ، وإلَيْهِ مَرْجِعُ جَمِيعِ الصِّفاتِ الَّتِي ثَبَتَتْ لله - تَعالى - بِالدَّلِيلِ، وهو الَّذِي يَتَفَرَّعُ عَنْهُ جَمِيعُ تَّفاصِيلِ الدين، ولِذَلِكَ تَكَرَّرَ الأمْرُ بِتَّوْحِيدِ الله والِاسْتِدْلالِ عَلَيْهِ في القُرْآنِ، وأنَّ أوَّلَ آيَةٍ نَزَلَتْ كانَ فِيها الأمْرُ بِمُلابَسَةِ اسْمِ الله لِأوَّلِ قِراءَةِ القُرْآنِ في قَوْلِهِ - تَعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١]. وجُمْلَةُ ﴿إنَّنِي لَكم مِنهُ نَذِيرٌ وبَشِيرٌ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمْلَةِ ﴿ألّا تَعْبُدُوا إلّا الله﴾ وجُمْلَةِ ﴿وأنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [هود:٣] الآيَةَ، وهو اعْتِراضٌ لِلتَّحْذِيرِ مِن مُخالَفَةِ النَّهْيِ والتَّحْرِيضِ عَلى امْتِثالِهِ.. فَإنَّ مَضْمُونَ البَشِيرِ والنَّذِيرِ هو جامِعُ عَمَلِ الرَّسُولِ ﷺ في رِسالَتِهِ). **[انظر تفاسير: ابن عاشور، السعدي، الطبري، الرازي، الميسّر].**

هذا هو "فحوى الرسالة"؛ رسالة الله الحكيم الخبير إلينا.. وهي "الروح" التي تشرّبها الجيل الأول من الأمة، وجعلَت فيهم كل تلك الحيوية والتأثير.. وهو أول تكليف له ﷺ من ربه الأكرم بتبليغ روح (أصل) الرسالة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ المدثر: ١ - ٢
بل وكان هو الوصف الثابت لبلاغ الرسالة: النذارة والبشارة..

نعم.. المشكلة فينا نحن.. فنحن السبب في ضعفنا وفي الضَّنك والذُّل الذي نتجرّعه كل يوم.. في طريقة تفكيرنا.. في طريقة نظَرِنا ورؤيتنا للحق المتمثّل بالرسالة وبيانها من السنة.. وفي غَفْلتنا عن "فحوى الرسالة"؛ رسالة الله الحكيم الخبير إلينا.. وعن "الروح" التي تشرّبها الجيل الأول من الأمة.. فقدْنا البوصلة.. فقدنا المنهجية الصحيحة في الفهم وترتيب الأولويات.. فالتصوُّر العام للإسلام في أذهان كثير مِنا فيه تشوّهات.. بين تقديم لقضايا وتأخير لأخرى.. أو تضخيم لقضايا وتهوين لقضايا أخرى.. كل ذلك باجتهادنا ورأينا.. ودُون العودة إلى قطعيات الوحي وأصله ومنهجه في الفهم.. بينما "فحوى الرسالة" و "روح الدين" نصَّ عليه ربُّنا بقوله **جلّ وعلا**:
﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ.. ۝٢ ﴾.. أي، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..

وفي المحصلة.. فإن السبب الرئيس لما نحن فيه الآن، يتمثل في أمرين:

الأول: عدم طَرَح الإسلام - كما طرحه رسول الله أول الأمر - أنه "الرسالة الخاتمة" من الله **عزّ وجل** إلى الإنسان، بوصفه إنساناً، أينما كان وفي أي زمان.. لتُخْرِجه من "عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد".. أي أنه لا إله إلا الله فاعبدوه:

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢ ﴾ إبراهيم

"هذا القرآن الذي أنزلناه إليك - أيها الرسول - بلاغ وإعلام للناس؛ لنصحهم وتخويفهم، ولكي يوقنوا - لما فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالدَّلَالَاتِ - أن الله هو الإله الواحد، فيعبدوه وحده لا شريك له، وليتعظ به أصحاب العقول السليمة".. **[انظر تفاسير: الطبري، السعدي، ابن كثير، الميسّر، الجلالين. وغيرهم]**
فالذي طُرِح - ولا يزال يُطْرَح - في سياق حمل الدعوة إلى الإسلام، هو أفهام واجتهادات لأحكام الإسلام وأفكاره أو بعضها.. وكل صاحب فَهْم يظن نفسه أنه هو الصواب فقط.. مما أدى إلى اختلاف الأمة وتفرّقها بين تلك الأفهام، ونشوء العداوات بين أبنائها..
وهذا **التفرُّق** مِنْ "سنن الله" في مَنْ طرَح دينَه طرْحاً مُجزّءاً أو أخذ جزءً وترَك أو نسي جزءً آخر.. وهي من السنن التي تبع فيها المسلمون اليهود والنصارى، كما قال رسول الله: {لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذّة بالقُذّة}؛ أي متابعة دقيقة.. **[صحيح.. والقُذّة: واحدة القُذَذ وهي ريش السهم. وله قذّتان متساويتان]..**
ويبيّن تلك السنة قوله جلّ وعلا:
﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١٤ ﴾
المائدة: ١٤

أي "بسبب أنهم تركوا كتاب الله، وعَصَوا رُسُلَه، وتركوا أمْر الله الذي أمرهم به، وضيَّعوا فرائضه وعطَّلوا حدوده.. كانت النتيجة أن ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء؛ أغرى بعضهم ببعض بالخصومات، والجدال في الدين واتباع الأهْواءَ المُخْتَلِفَةَ، وإعمالهم أعمال السوء.. ولو أخذ القوم كتاب الله وأمره ما افترقوا، ولا تباغضوا. فبسبب شِدَّةُ اخْتِلافِهِمْ في نِحَلِ الدِّينِ والتَّحاسُدِ عَلى السُّلْطانِ ومَتاعِ الدُّنْيا، ألقى الله العَداوَةِ والبَغْضاءِ بَيْنَهم عِقابًا لهم في الدُّنْيا". **[انظر تفاسير: الطبري، التحرير والتنوير، الدر المنثور، ابن كثير]**

فعندما لا يُطْرَح "الأمر الجامع" الذي يجمع الأمة فإن الأمة تتفرَّق..

فلا بد من أن يُطْرَح "روح الدين" و"فحوى الرسالة" وأصلها صافياً كما جاء في الرسالة من عند الله، وكما بيّنه رسول الله.. حتى تصبح قضية الإنسان مع الله جلّ وعلا:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ **أُحۡكِمَتۡ** ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ **فُصِّلَتۡ** مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ① **أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ** إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ② وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ③﴾ هود: ١ - ٣

﴿**قُلۡ** إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ **أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ** فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ⑪⓪﴾ الكهف: ١١٠

﴿**قُلۡ** إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ **أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ** فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ⑥﴾ فصلت: ٦

﴿**قُلۡ** إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ **أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ** فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ⑩⑧﴾ الأنبياء: ١٠٨

أي "قل يا محمد: ما يوحِي إلي ربي إلا أنَّه لا إله لكم يجوز أن يُعبد إلا إله واحد؛ هو الله، فلا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي ذلك لغيره. فأسلِموا له وانقادوا لعبادته. فصِيغَتِ العبارة - في الآيات السابقة - في صِيغَةِ حَصْرِ الوَحْيِ إلَيْهِ في مَضْمُونِ أنه لا إله إلا الله، لِأنَّ مَضْمُونَها هو أصْلُ الشَّرِيعَةِ الأعْظَمُ، وكُلُّ ما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الشَّرِيعَةُ مُتَفَرِّعٌ عَلَيْهِ، فالدَّعْوَةُ إلَيْهِ دعوة إلى إقامة الشَّرِيعَةِ كُلِّها.. فالمعنى، أن الوحي إليّ مقصور على أنه لا إله إلا الله، {فهل أنتم مسلمون}؟ أي، منقادون مخلصون العبادة لله سبحانه؟. والمراد بهذا الاستفهام؛ الأمر، أي أسلموا".

[انظر تفاسير: الطبري، ابن عاشور، صديق خان، الميسّر، الجلالين. وغيرهم].

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ① ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ② ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ④ **إِيَّاكَ** نَعۡبُدُ **وَإِيَّاكَ** نَسۡتَعِينُ ⑤ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ⑥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ⑦﴾ سورة الفاتحة

فعدم طرح الأمر الجامع؛ "روح الرسالة" في الأمة، هو السبب الأول ..

أمّا السبب الثاني: (وهو نتيجة طبيعية للسبب الأول).. عدم وجود **قيادة** واعية على "روح رسالة" الله **عزّ وجل** (الأمر الجامع)، ومُتمثِّلة بها.. **لتَتوجَّه** نحوها الأمة و**تلتَفَّ** حولها كقيادة

فكرية، روحها "فكرة الإسلام" الربانية؛ "لا إله إلا الله" كما جاءت من عند الله **تعالى**.. فكرةً وطريقة؛ خطاباً وأعمالاً.. والغاية جعلها حقيقة حية في حياة المسلمين.. ممثلين لها متمثّلين بها..

هذا هو السبب **الرئيس** في أن ما قدّمته الأمّة من تضحيات تحت عموم الشعارات الإسلامية.. لم تُؤتِ أُكُلها.. فأصل المشكلة يكمن في **الفكرة** المطروحة على الناس والمخاطَبين بها؛ أي "فكرة الدعوة".. والتي ينبغي أن يدور حولها - وعلى أساسها - الصراع مع الأفكار الخاطئة في المجتمع؛ وأن طبيعة الصراع؛ أنه "صراع **مرجعيات**".. مَنْ هو **الإله** الواجب الطاعة لأمره (عبادته).. صراع إيمان وكفر؛ هل الله **جلّ وعلا** هو الإله صاحب الأمر النافذ في المجتمع ؟.. أم الطاغوت بأشكاله وألوانه الحديثة والقديمة؟..

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[المائدة: ٥٠] [2]

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ آل عمران [3]

وليس كما يظن البعض، أن المشكلة كانت في **طريقة** العمل أو **الأُطر** التي كان يتم العمل من خلالها.. أو **بالأشخاص** الذين كانوا قائمين على العمل.. بل إن أصل الخلل يكمن في عدم الاهتداء إلى "**الفكرة**" التي ينبغي أن يقوم عليها العمل برمته؛ خطابه وأعماله، والتزكية والتعليم، والحركة في المجتمع.. الخ .. "الفكرة" التي تقوم عليها الأمة وبها.. وباقي الأخطاء إنما هي فروع لذلك الأصل.

وكما حدَّدت الرسالةُ "الفكرة" التي ينبغي أن تُحمَل للناس، كذلك حدَّدت الأعمال المبنيّة على هذه "الفكرة" وطريقة العمل؛ فبيّنت "كيفية الخطاب" بهذه الفكرة، وكيف يكون على أساسها بيان فساد الأفكار الخاطئة السائدة في المجتمع.. وأن **المرجعية** الحق التي ينبغي أن يتخذها المجتمع، هي؛ أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه (محمّد رسول الله)، وإلى الله المصير.. وبيّنت كيفية تزكية الأفراد والجماعة وبنائهم على أساس الفكرة نفسها، ليكونوا خير ممثلين لها - كما كان صاحب الرسالة ﷺ (كان خُلُقُه القرآن) - ليكونوا أعضاء فاعلين في جسد الأمة الواحدة التي ستَخْلُف رسول الله في عبادة الله وحمْل رسالته للعالمين.. (إخلاص الدين لله)..

فلا بد من العودة إلى القرآن الكريم - وبيانه من السنة - ودراسته "دراسة منهاجية" كرسالة من الله إلينا؛ دراسة بقصد فهم "منهاج العمل" على أساس "فكرة الرسالة" و روحها و "الأمر الجامع" فيها.. لبيان منهج "إعادة تأهيل الأمة" وطريقة إحيائها؛ ببث روح الرسالة فيها.. لتعود - كما كانت - قادرة على القيام بمهمَّتها التي وُجِدَت من أجلها..

---

2 - (﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثَمَّ إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني). **[تفسير السعدي]**

3 - (أي: أيطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يَحْسُن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن ديناً من دين الله ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها﴾ أي: الخلق كلهم منقادون بتسخيره مستسلمون له طوعا واختيارا، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، وكرها وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل). **[تفسير السعدي]**

ففي القرآن الكريم - رسالة الله إلينا - الهدى والنور للخروج من التيه.. من خلال بيان التشخيص الصحيح لواقعنا والعلاج اللازم:

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ ٢٠ ﴾ الجاثية: ٢٠

"أي، هَذا القُرْآنَ بيانٌ للأُمُورَ عَلى حَقائِقِها (بصائر)، لما فيه من بَراهِينُ قاطِعَةٌ، وأدِلَّةٌ ساطِعَةٌ، عَلى أنَّ الله هو المَعْبُودُ وحْدَهُ، وأنَّ ما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ هو الحَقّ..

وهو الدليل إلى طَرِيقِ الخير والرشاد ﴿هُدًى﴾.. فاتِّباعُهُ كالِاهْتِداءِ لِلطَّرِيقِ المُوَصِّلَةِ إلى المَقْصُودِ..

﴿ورَحْمَةٌ﴾ لِأنَّ في اتِّباعِ هَدْيِهِ نَجاحٌ وكَرامَةٌ للنّاسِ أفْرادًا ومجتمعات: في الدُّنْيا لِأنَّهُ نِظامُ مُجْتَمَعِهِمْ ومَناطُ أمْنِهِمْ، وفي الآخِرَةِ لِأنَّهُ سَبَبُ نَوالِهِمْ دَرَجاتِ النَّعِيمِ الأبَدِيِّ..

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، الإيقانُ: العِلْمُ الَّذِي لا يَتَرَدَّدُ فِيهِ صاحِبُهُ... والموقنون؛ أصحاب العِلْمُ الَّذِي لا تَرَدُّدَ فِيهِ، وهم الذين يهتدون بالقرآن إلى الحق في أصول الدين وفروعه، فيزيد به إيمانهم ويقينهم، وتزكو به نفوسهم، ويقيموا به الحُجَّة على مَنْ جحد وعانَد.. فتغشاهم رحمة الله".

وجَعَلَ البَصائِرَ لِلنّاسِ لِأنَّهُ بَيانٌ لِلنّاسِ عامَّةً، وجَعَلَ الهُدى والرَّحْمَةَ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ لِأنَّهُ لا يَهْتَدِي بِبَيانِهِ إلّا المُوقِنُ بِحَقِيقَتِهِ، ولا يُرْحَمُ بِهِ إلّا مَنِ اتَّبَعَهُ؛ المُؤْمِنُ بِحَقِّيَّتِهِ". **[انظر: تفاسير: السعدي ، ابن عاشور ، أضواء البيان ، الطبري] ..**

وبالاختصار المفيد، الذي يُبيِّن الأمر كله؛ المشكلة وكيفية الحل.. حديث رسول الله ﷺ:

(إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ [الله] حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ). **[رواه أحمد (4987) وأبو داود (3462)، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُما]**

أي؛ رسول الله يخاطبنا ويقول لنا: "إن الله تعالى سيعاقبنا بالذل والمهانة؛ فنصير أذلّة أمام الأمم، جزاءً لنا على ترك ديننا.. و"السبب" المباشر: حب الدنيا وتقديمها على الآخرة.. ثم ذكر علامات كبرى على ذلك: التحايل على التعامل بالربا، والانشغال بأعمال الدنيا، وترك الجهاد في سبيل الله.. وهذا هو حال الأمة الآن..

ولن يرفع الله جلّ وعلا هذا الذُّل (النتيجة) عنّا، حتى نُزيل نحن "السبب".. فقال ﷺ يخاطبنا: (حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ)، أي: "سيستمر هذا الذُّل علينا، حتى نقدّم الآخرة على الدنيا، ونعود إلى إقامة دين الله كما أراد الله عزّ وجل وكما بيّنه رسوله متمثلاً بالأمة الخاتمة؛ كما تركها ﷺ".

إذاً، فالمشكلة - كنتيجة حاصلة - هي أن الله عزّ وجل قد أوقع الذُّل على هذه الأمة.. و"السبب" هو تركها لدينها..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣ ﴾ الأنفال: ٥٣

وحل المشكلة؛ وتغيير واقعنا إلى واقع جديد.. شرطه إزالة "السبب" الموجِب لها؛ أي، (حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ):

﴿ ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ.. ١١ ﴾ الرعد: ١١

ومن هنا، فإن تحقيق الحل الصحيح للمشكلة في الواقع، يقتضي وجود أمرين، متلازمين؛ شرعاً وقدَراً:

- بيان المعالِم اليقينية لـ "الدين" الذي سَنرجع إليه؛ متمثلاً بـ "واقع الأمة المسلمة" الذي ترك رسول الله الأمة عليه عند وفاته ﷺ..
- ثم بيان كيفية (منهاج) رجوعنا إلى ذلك "الدين".. أي كيف تعود الأمة إلى التمَثُّل بدين الله، كما كان حالها - بخصائصها وموقوماتها - في أول أمرها؛ كما تركها رسول الله ﷺ..

ومن هنا، كانت هذه الدراسة.. فهي مساهَمة لبيان الحل الصحيح، على أساس بيان الأمرين السابقين.. ومن خلال البحث في القرآن الكريم (الكتاب) وبيانه من السنة المشرَّفة (الحكمة)، لفهم وتَجْلية "المنهاج العمليّ" الذي سار بحسبه رسول الله ﷺ في إيجاد "الأمة الخاتمة" أول الأمر.. فالحل يَكْمن في نفس "المنهاج" الذي سار بحسبه رسول الله.. "فلا يصلُح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها".. الأمة التي ستستمر من بعد رسول الله ﷺ، في عبادة الله وحده وحَمْل رسالته للعالمين، هدى ورحمة.. (إخلاص الدين لله).. حتى قيام الساعة.

ونرجوا من الله **ذي الجلال والإكرام**، أن يجعل في هذه الدراسة، الهداية إلى الوِجهة الصحيحة التي بها يَرضى هو عنّا ورسوله.. الوِجهة التي ينبغي أن تتجه إليها جهود المسلمين **للخروج** من هذا التشرذُم والذل والاستضعاف.. الخروج من هذا **التيه**.. **واستحقاق** النصر والتمكين والاستخلاف.. فتكون - هذه الدراسة - **توطئة** لدراسات وجهود تالية يقوم بها أهل الهِمّة والاهتمام بأمر الرسالة وأمر الأمة.. لبلورة الفهم وبيان الحق في **"منهاج النبوّة"** لـ **"إعادة تأهيل"** هذه الأمة الخاتمة المباركة، لتقوم بالمهمة التي أوجدها الله من أجلها - على يد رسوله الخاتم - وكرَّمها بحَمْلها..

لعلّ الله **جلّ شأنه** يبارك في تلك الجهود ويجعلها سبباً لإذكاء النار التي تحت الرماد.. فتتَّقِد وتتوهّج.. فتنبعث الحياة بحرارتها، وتتبدّد الظلمة الحالكة بنورها..

اللهم آمين.

نظرة عامة..

"منهاج النبوّة" [4] : هو **الطريقة العملية** المتعَبَّدون بها، التي التزمها رسول الله **الخاتم** ﷺ **في تلقّى** الرسالة **الخاتمة**، والسير بها **بلاغاً** وبياناً **عملياً**، بتنزيل أحكامها على الواقع الإنساني **لمعالجته**، حتى أصبحت حقيقة حيّة في الواقع ، متمثّلة في الأمّة المسلمة **الخاتمة**، كما كانت يوم انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقد أكملت دينها، أي أكملت عبوديتها لله (أخلصت الدين لله)، فكانت خير أمّة أُخرجت للناس.

و"منهاج النبوّة"؛ هو **المنهاج** نفسه الذي ينبغي على المسلمين **الآن** - وفي كل زمان - أن يسيروا بحسبه في **تلقي** الرسالة والقيام بها؛ بلاغاً وبياناً.. وتعليماً وتزكية ودعوة.. إن أرادوا أن يعودوا كما كانوا خير أمّة أخرجت للناس..

فلا بد - إذاً - من التوجّه إلى الوحي: القرآن وبيانه من السُّنة - ومنها السيرة النبوية - لدراسته "**دراسةً مِنْهاجيّة**" لاستخراج وبيان "منهاج النبوّة"، أي الطريقة العمليّة لتلقي القرآن الكريم والسير به - كرسالة من الله **عزّوجل** للناس - من أجل تحقيق الغاية منه في المجتمع.

و "الدراسة المنهاجية" للوحي لا بد أن تكون قائمة على أساس صحيح، لذلك لا بد - بداية - من تصحيح الرؤية للوحي (الدين)، وبيان زاوية النظر الصحيحة إليه عند البحث المنهاجي لاستخراج "المنهاج" الذي ينبغي أن يسير بحسبه المسلمون في **تلقي** الرسالة والقيام بها؛ تعليماً وتزكية ودعوة..

وتصحيح الرؤية للوحي، وبيان زاوية النظر الصحيحة إليه، يقوم على أساس **الوعي** لحقيقة الرسالة؛ **القرآن الكريم**..

و"**الوعي**" لأمر معيّن، هو الفهم العميق له وبشمولية.. والذي هو من مقتضيات الفهم الصحيح له [5].. فالوعي للأمر (على الأمر) المعيّن هو: الفهم المركّز له، والمنضبط بأسسه وغاياته.

4- (منهاج النبوة): أصل هذا الاصطلاح ورد في التعبير القرآني في قوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً.. (48)} **المائدة**. وَوَرد عن رسول الله ﷺ: (.. ثم تكون خلافة=> على منهاج النبوة..) **[صحيح الجامع للألباني]**. فالأمّة المسلمة الخاتمة، لها "شرعتها" و "منهاجها" الخاصان بها. ((والمنهاج، له ثلاثة ألفاظ تستعمل فيه: "النهج" و "المنهج" و "المنهاج"، وكلها يقصد بها الطريق، لكن "المنهج" أغلب استعماله في الطريق الفكري..

وأغلب استعمال "النهج" في الطريق مطلقا..

وأغلب استعمال "المنهاج" في الطريق العملي الذي له أصل فكري..

ولكن الذي هو في البؤرة في لفظة "المنهج" هو الطريق الفكري، أي الكيفية النظرية التي يتم وِفْقَها الوصول إلى حقائق معينة. وأما "المنهاج" فهو الطريقة العملية التي يُسار عليها للوصول إلى مقصد بعينه)).

[انظر (الهدى المنهاجيّ في القرآن الكريم). د الشاهد البوشيخي. وانظر معنى المنهاج والملة، في كتاب (قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ) - عبد الرحمن الميداني].

5 - الوعي لغة: له أصل واحد تدور حوله معانيه في استعمالاته اللغوية المختلفة، وهو: حفظ مع احتواء،بأن يُحفظ الشيء؛ بجعله في ضمن شيء آخر واستيلائه كالظرف، مادياً كان أو معنوياً. ومن مصاديقه حفظ العلم وجعله في القلب مستقراً، وحفظ المتاع في محلّ. وحفْظ الحديث بالحافظة. وحفْظ المال بالوعاء.. {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (12)} **الحاقة**. فيبرز في "الوعي" المعاني التالية: الفهم العميق=>

<u>والفهم المركّز</u>، يقتضي أن يكون النظر إلى الأمر من زاوية خاصة محددة..
<u>والانضباط بالأسس والغايات</u>، يُنـتج الشمولية في النظر إلى ذلك الأمر.. ويقابلها التجزيئية..

والوعي على القرآن الكريم، يقتضي أن تكون الزاوية الخاصة التي يكون من خلالها النظر في أي موضوع من مواضيعه، هي حقيقته وواقعه الذي جعله الله عليه؛ أن القرآن الكريم هو:

الرسالة الخاتمة من الله إلى البشرية؛ فهي محفوظة وهي الحق المبين،
ولها **فكرة** أساس يقوم عليها محتواها أو **موضوعها**،
ويُراد بها **غاية** لا بد من تحقيقها في حياة الناس،
وأن لها **منهاجها** (طريقتها) في تحقيق **الغاية** منها..

فهو وعيٌ على القرآن بوصفه **الرسالة الخاتمة** من الله **جلّ وعلا** للناس كافة.. وذلك بالنظر إليها نظرة عميقة وشاملة؛ <u>من حيث **الفكرة**</u>، و <u>من حيث **الغاية**</u>، و <u>من حيث **المنهاج**</u>؛ خطاباً وأعمالاً :

<u>**وفكرتها** الأساس</u>؛ هي الحقيقة اليقينية الكبرى **لا إله إلا الله**، وهي الركن الركين الذي بُنيت عليه الرسالة كلها.. أفكارها وأحكامها؛ **موضوعها**: إيمان وعمل صالح وتواصي بالحق وتواصي بالصبر.. (كما جمعتها سورة العصر).

<u>**والغاية** منها</u>؛ **بيان** شريعة الله - إيمان وعمل صالح ودعوة إلى الله - التي بها يحيى الناس حياة كريمة في مجتمعهم.. وذلك حين يرضوا أن يكونوا عباداً لله، عبودية كاملة شاملة.. أي "إكمال الدين لله" أو "إخلاص الدين لله" أو "أن يكون الدين كله لله" وأنّ "كلمة الله هي العليا"..
وهذه الغاية حتى تصبح حقيقة واقعة لا بد للرسالة؛ بأفكارها وأحكامها أن تتمثَّل ببشر.. ومن هنا كان لا بد من بعث رسول من الناس مع الرسالة، يتمثَّل بها فيكون "خُلُقُه القرآن"، وهكذا يوجَد العِلْم بالرسالة وتعلُّمها..

<u>**والغاية** من بعث **الرسول** بها</u>؛ هي تحقيق "الغاية من الرسالة" في واقع الناس ومعيشتهم.. وذلك بجَعْل "كلمة الله هي العليا" أو بـ "ظهور الإسلام على الدين كله". بمعنى جعل "فكرة الرسالة" وما بُني عليها من شريعة، حقيقة حية في الواقع الإنساني، كما **بيّنها** الرسول الخاتم بياناً عملياً، متمثلاً في "**الأمّة المسلمة**" - يوم تركها رسول الله - وقد أكمَلت دينها لله؛ بتطبيق الرسالة على نفسها وحَمْلها للناس كافّة هدىً ورحمةً، فكانت خير أمّة أُخرجت للناس..

لتكون **تلك الحالة** للأمة - بخصائصها ومقوماتها - هي المقياس والمعيار والمرجع الدائم **للحالة** التي **يجب** أن تكون عليها الأمة في كل زمان وعصر، أي هي "**الحالة المعيارية**" لمفهوم "تحقيق الغاية" من الرسالة الخاتمة.. كما بيّنها رسول الله بياناً عملياً..

<u>وأما **منهاجها**؛</u> فهو **الطريقة العمليّة** التي **التزمها** رسول الله الخاتم في:

تلقّي آيات الرسالة الخاتمة مفرّقة على مكث؛ "الترتيل"..

وفهم الرسالة، وطريقة **التفكير** على أساسها، **وإقامة** الحُجَّة البالغة على الحق،

والسير بها في المجتمع، بلاغاً وبياناً عملياً؛ أي **تنزيلاً** على الواقع الإنساني لمعالجته وتغييره،

والجمع والاستيعاب أو الشمول. وَعَى الأمرَ أَدْركه على حقيقته. **[أنظر (المعجم الوسيط)، و (معجم المقاييس) - ابن فارس. و(التحقيق في كلمات القرآن) - المصطفوي].**

حتى تحقّقت الغاية منها، ووُجدت "الأمّة المسلمة" الخاتمة بكامل **مقوماتها وخصائصها** التي أرادها الله لها.. أي، الوصول بالأمة إلى "**الحالة المعيارية**".

ومن **الوعي** على "المنهاج": أنه عند النظر إلى كل ما قام به رسول الله ﷺ من فعل أو قول.. من عمل أو خطاب.. من بداية سيره بالرسالة حتى حقق الله جلّ وعلا الغاية على يديه ﷺ.. **لا بد** من التفريق - وعلى أساس واضح - بين ما هو من "الأسلوب" وبين ما هو من "الطريقة".. بين ما ليس من العبادة وبين ما نحن مُتَعَبَّدون به..
بين ما هو "تاريخيّ"؛ متعلق بظرفه وأشخاصه وزمانه ومكانه.. وبين ما هو "منهاجيّ"؛ متعلق بالإنسان بوصفه إنساناً، وعلى أساس "السنن الكونية" و"السنن الشرعية" التي لا تتغير ولا تتبدّل..

والوعي على القرآن الكريم - بوصفة رسالة الله الخاتمة للبشرية - يقتضي **أيضاً**، أن تكون النظرة إلى أيٍّ من مواضيعه، نظرة شموليّة، وليست تجزيئية.. بمعرفة مكانه من دين الله، ومكانته وأولويته.. وذلك لا يتحقق إلا أن يكون النظر في أي موضوع من مواضيع القرآن في ضوء - أو على أساس - <u>فكرة القرآن، والغاية منه، ومنهاجه</u>..
فما أنزل الله عزّ وجل القرآن إلا لتحقيق الغاية منه؛ "إكمال الدّين" لله، وما جعل الله تعالى القرآن الحكيم هكذا في كامل خصائصه وتكوينه وتركيبه إلا لتحقيق الغاية منه؛ فكل ما في القرآن سواء من حيث المحتوى أم من حيث الأسلوب؛ من حيث الأفكار والأحكام والحقائق، أم من حيث الصياغة ووسائل البيان والتعبير.. فكل ذلك، إنما كان لتحقيق الغاية من القرآن الكريم؛ هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور..

والقابليّة والإمكانيّة **لتحقيق** الغاية من الرسالة الخاتمة، قائمة متى وأين أُريد بها ذلك.. فهي محفوظة كما أُنزلت على محمد، وكما بيّنها ﷺ.. وحتى قيام الساعة..

فعند تناول أي موضوع من مواضيع القرآن أو حكم من أحكامه أو أي فكرة فيه، ينبغي أن لا يكون منفصلاً عن قضايا القرآن الثلاث: فكرته وغايته ومنهاجه..
وخاصة عند تناول القضايا العامة المتعلقة بدين الله والأمة المسلمة.. مثل بحث "الدعوة إلى الله" أو "استئناف الحياة الإسلامية" أو "إقامة الدولة" أو "نهضة الأمة".. إلى غير ذلك من مثل هذه التسميات والمصطلحات..
لأن **التشخيص** الصحيح لواقع "الأمة المسلمة" وفهم درجة الانحراف أو البعد عن دين الله الحق، وبالتالي بيان المعالجات اللازمة وبيان كيفية العلاج الصحيحة.. كل ذلك **يقتضي** - بداية - الرؤية الصحيحة والشاملة لدين الله، والرؤية الصحيحة - شرعاً وقدراً - لواقع الأمة المسلمة؛ خصائصها، وظيفتها، الغاية من وجودها (مهمتها الأولى)..

الأمر الذي يتطلّب أن نتناول بعض الأفكار والمفاهيم اللازمة لتصحيح الرؤية للوحي ولواقع الأمة الشرعي، وبيان زاوية النظر الصحيحة إليهما..

ومن هنا، ستكون مواضيع هذه الدراسة في أربعة أبواب رئيسة، وفيها مباحث فرعية **(انظر الفهرس):**

الباب الأول : تمهيد وتأسيس لنظرة صحيحة وشاملة للرسالة الخاتمة..

حيث سنتناول بعض الأفكار والمفاهيم الأساس واللازمة لتصحيح الرؤية للوَحْيين - وخاصة القرآن الكريم لأنه هو الأصل - وبيان زاوية النظر الصحيحة إليه، من خلال بيان:
"الرسالة الخاتمة"؛ فكرتها وموضوعها وغايتها ومنهاجها.. و "الأمة الخاتمة"؛ طبيعتها ومهمتها..
وسائر الحقائق الأخرى التي من الضروري معرفتها ومراعاتها عند النظر والبحث في "منهاج النبوة".. مثل:
"التلقي المنهاجي" للرسالة، واعتماد المصطلحات الشرعية، وملاحظة "الجانب السنني القدري" الذي لا يقل أهمية عن "الجانب الشرعي"، وحقيقة "الفهم السياسي" للسيرة، وأن "الطاعة الواعية" **لأمر** الله و"الحِكْمة" في تنزيله على الواقع.. هو طريق النجاة والفوز في الدنيا والآخرة..

والتذكير بهذه الأفكار والمفاهيم، ليس من باب الازدياد من الثقافة الإسلامية أو المعرفة العامة، فأغلبها معلومة عند المسلمين.. بل من باب "النظرة الشمولية" لها، حتى تبرز أهميتها ومركزيّتها في فهم البناء الفكري العام لرسالة الله الخاتمة؛ القرآن.. أي **طبيعته** وتركيبه.. ثم التصور العام الشامل **لوظيفته** في حياة الناس **والغاية** من إنزاله، ومن بعث الرسول الخاتم ﷺ.. وبالتالي في فهم كيفية التحرّك به - كرسالة خاتمة من الله - حتى تحقيق الغاية منه: من البداية حتى يكون هو **الحاكم** على حياة الناس والضابط لحركة حياتهم.. (كلمة الله هي العليا).. وبعد ذلك، في كيفية **المحافظة** عليه كذلك، إلى قيام الساعة..

فهذه "النظرة الشمولية"؛ للرسالة الخاتمة والأمة الخاتمة.. تصلح أن تكون أساساً في تعيين "**زاوية** النظر" الصحيحة إلى القضايا العامة والمصيرية المتعلقة بنصرة دين الله وعزة الأمة المسلمة.. وتصوّرها التصوّر الصحيح.. وبالتالي معرفة المعالجات الصحيحة اللازمة؛ أعمالاً وخطاباً.. ومعرفة كيفية المعالجة..

فالاختلاف في زاوية النظر (وجهة النظر) هذه، هو السبب الرئيس في مساحة الاختلاف الواسعة الحاصل بين العاملين للإسلام؛ في تصوُّر للمشكلة وبالتالي تصوُّر للحل..
وإن الاتفاق على زاوية النظر الصحيحة، يضيّق مساحة الاختلاف إلى الحد الجائز فيه الاختلاف شرعاً..

فـ "النظرة الشمولية" هذه.. هدفها تعريف وبيان أسس وقواعد عامة، تصلح لأن تكون **ضوابط** لا بد من ملاحظتها عند البحث والنظر في القضايا العامة والمصيرية للأمة.. مثل بحث "منهاج النبوّة" (سبيل رسول الله) في "إعادة تأهيل" الأمة المسلمة الخاتمة، لتعود كما كانت؛ كما أراد الله منها أن تكون.. "فلا يصلح آخر أمر هذه إلا بما صلح به أولها"..

الباب الثاني : كيف نفهم ما حدث مع رسول الله في سيره بالرسالة..

بناء على ما سبق ذكره من الخطوط (القواعد) العامة، ننظر إلى ما حدث مع رسول الله في سيره بالرسالة؛ خطاباً وأعمالاً.. من البداية حتى حقَّق الله الغاية من الرسالة على يديه ﷺ..

الباب الثالث : كيف نتأسّى في رسول بما سبق بيانه مما حصل معه في سيره بالرسالة..

بمعنى بيان الضوابط لمعرفة ما هو مُلزِم لنا (سنة أو فرض)، وما هو غير مُلزِم (مباح)، من بين جميع ما قام به رسول الله من أقوال أو أفعال أو إقرارات.. من البداية حتى النهاية وتحقيق الغاية.. والذي - في حقيقة الأمر - هو بيان وفهم لـ "منهاج النبوّة" في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة.

الباب الرابع : تنزيل "منهاج النبوّة" على واقع الأمة الآن..

وبناء على جميع ما ذُكر، نبيِّن كيف سيكون التشخيص الصحيح لواقع "الأمة المسلمة" الآن.. ومن أي زاوية تكون النظرة الصحيحة لـ "القضايا العامة" المتعلقة بدين الله والأمة.. وبالتالي كيف يكون تنزيل "منهاج النبوّة" في حمل الرسالة الخاتمة على واقع الأمة الآن.. بقصد حملها والسير بها لتحقيق الغاية منها.

والحمد لله..

وختاماً، نبيِّن - باختصار - معاني المصطلحات الواردة في **عنوان** هذه الدراسة:

الاستضعاف: خلاف القوة، وقد ضعُف فهو ضعيف..

هو وصف لحال المؤمنين قبل القوة والتمكين.. و هُم في مكة المكرمة، قال تعالى:

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأنفال: ٢٦

الضعْف: خلاف القوة، وقد ضعف فهو ضعيف.

قال عزّوجل: {ضعف الطالب والمطلوب} [الحج/73]،

والضعف قد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال، وقيل: الضَّعف والضُّعف لغتان.

قال تعالى: {وعلم أن فيكم ضعفا} [الأنفال/66]،

قال: {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا} [القصص/5]،

واستضعفته: وجدته ضعيفا،

قال:{قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض} [النساء/97]،

{إن القوم استضعفوني} [الأعراف/150]،

وقوبل بالاستكبار في قوله: {قال الذين استضعفوا للذين استكبروا} [سبأ/33]،

[انظر ، مفردات القرآن - الأصفهاني]

النصر والنُّصْرة: هو العون والمدد والتأييد..

ومنه تأييد الله للمؤمنين المستضعفين لينجيهم من طغيان الملأ المكذبين، ويهيئ الأمر لتمكين المؤمنين وإنزال العذاب على المكذبين.. ومنه الانتصار في القتال [(6)].. قال تعالى:
{وإذا جاء نصر الله والفتح} [النصر/1]،
{وكان حقا علينا نصر المؤمنين} [الروم/47]،

ونُصرة الله للعبد ظاهرة، ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده، والقيام بحفظ حدوده، ورعاية عهوده، واعتناق أحكامه، واجتناب نهيه. قال تعالى:
{إن تنصروا الله ينصركم} [محمد/7]،
{كونوا أنصار الله} [الصف/14]

والانتصار والاستنصار: طلب النصرة
{وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر} [الأنفال/72]،
{فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} [القمر/10] وإنما قال: (فانتصر) ولم يقل: أنصر، تنبيها أن ما يلحقني يلحقك من حيث إني جئتهم بأمرك، فإذا نصرتني فقد انتصرت لنفسك.

---

6 - المعنى المحوري لـ "النصر": الإمداد بما فيه زيادةٌ مناسبةٌ وقوة: كما تمد النواصر الأوديةَ والتلاعَ بالماء، وكما يمد الغيثُ الأرضَ، والعطاء. =>

ومن ملحظ الإمداد بالزّيادة والقوة جاءت (النُصْرة - بالضم: حُسْنُ المعونة / إعانة المظلوم "وهذا - أعني المعونة - هو أَشْيَعُ معاني النصر. وليس الغَلْب من معاني التركيب الأصلية، وإنما يتأتى باللزوم للمعونة، وبمساعدة الاستعلاء في (على). تأمل الجمْع بينهما في {وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116)} [الصافات]، {وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ} [آل عمران: 160].

وتأمل كذلك: {وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [الحشر: 12] {إلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ} [التوبة: 40]، فلم تكن هنا حرب وغلب، وإنما هي الهجرة والمعونة عليها. وكذلك أيضًا مقابلتها بالخِذْلان في آية آل عمران. {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ} [الأنفال: 72]، أي استعانوكم.

ومن مجيئها بمعنى المعونة التي يترتب عليها الغلب: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيهِمْ} [التوبة: 14]. وسائر ما في القرآن من التركيب ومنه (نصر)، (ناصر)، (نصير) فهو بمعنى المعونة حالًا أو مآلًا.

ومن الإمداد المذكور استُعمل النصر بمعنى الإنقاذ أو الخلوص من العذاب - وهو سلامة وبقاء قوة، فهو من جنس المعونة التي هي تقوية، وذلك بمعونة التعدية بـ (من) - كما في قوله تعالى: {وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ الله إِنْ طَرَدْتُهُمْ} [هود: 30 وكذا ما في 63 منها، وما في المؤمنون 65، الزمر: 54]. وكل (يُنصَرون) وإن كان بعضها يحتمل معنى المعونة كما جاء (الانتصار) - بمعونة الصيغة - بمعنى الانتقام (أخذ حق النفس وهو عون لأنه إثبات قوة) {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ} [الشورى: 41]، {وَلَوْ يَشَاءُ الله لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ} [محمد: 4]، {وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} [الشعراء: 227] {فَانْتَصِرْ} [القمر: 10] {فَلَا تَنْتَصِرَانِ} [الرحمن: 35] فهي بمعنى الامتناع أي حفظ النفس من وقوع الشواظ عليها. فهي من باب إنقاذ النفس وحمايتها التي سلفت. وكذلك {يَنْتَصِرُونَ} [الشعراء: 93]، وكلمة (أنصار) جمع ناصر ونصير أصل معناها: مُعين. ثم صارت عَلَمًا بالغلبة على الأوس والخزرج لنصرتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم . وهي بهذا المعنى في [التوبة: 100، 117]. وأما النصارى فجوّز ابن بري أن تكون جمع نَصْرِى كمَهْرِيّ ومَهَارَى، وقال سيبويه هي جمع تكون بمعنى نصرانِيّ نسبة إلى قريتهم. وقال الخليل بهما. وأجوّز أن تكون نَصْرَان بمعنى مناصر كنَدْمان بمعنى مُنادِم. **[المعجم المؤصّل - محمد حسن حسن جبل] .**

والتناصر: التعاون.. قال تعالى: {ما لكم لا تناصرون} [الصافات/25]،
[انظر ، مفردات القرآن - الأصفهاني]

الغَلبة: القَهْر..

مفهوم "الغَلَبة" في القرآن وعلاقته بـ "النصر"..
[انظر (أضواء البيان - الشنقيطي)، وغيره. والتفصيل في رسالة (النصر والتمكين والاستخلاف)]..

"بيّنت الآياتُ القُرْآنِيَّةُ أنَّ النَّبِيَّ المُقاتِلَ غَيْرُ مَغْلُوبٍ بَلْ هو غالِبٌ، كَما صَرَّحَ تعالى بِذَلِكَ في قوله:
﴿كَتَبَ الله لَأَغْلِبَنَّ أنا ورُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١]،
وقالَ قَبْلَ هَذا: ﴿أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠]،
وقالَ بَعْدَهُ: ﴿إنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
حَقَّقَ العُلَماءُ أنَّ غَلَبَةَ الأنْبِياءِ عَلى قِسْمَيْنِ:
غَلَبَةٌ بِالحُجَّة والبَيانِ؛ إقامة الحُجَّة الرسالية، وهي ثابِتَةٌ لِجَمِيعِهِمْ..
وغَلَبَةٌ بِالسَّيْفِ والسِّنانِ، وهي ثابِتَةٌ لِخُصُوصِ الَّذِينَ أُمِرُوا مِنهم بِالقِتالِ في سَبِيلِ الله؛ لِأنَّ مَن لَمْ يُؤْمَرْ بِالقِتالِ لَيْسَ بِغالِبٍ ولا مَغْلُوبٍ؛ لِأنَّهُ لَمْ يُغالِبْ في شَيْءٍ..
وتَصْرِيحُهُ تعالى بِأنَّهُ كَتَبَ إنَّ رُسُلَهُ غالِبُونَ شامِلٌ لِغَلَبَتِهِمْ مَن غالَبَهم بِالسَّيْفِ، ذَلِكَ أنَّ أكثر مَعْنى الغَلَبَةِ في القُرْآنِ؛ الغَلَبَةُ بِالسَّيْفِ والسِّنانِ، كقوله تعالى:
﴿إنْ يَكُنْ مِنكم عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وإنْ يَكُنْ مِنكم مِائَةٌ يَغْلِبُوا ألْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال٦٥]،،
﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢].. وغيرها..
وشامِلٌ أيْضًا لِغَلَبَتِهِمْ بالحُجَّة والبَيانِ؛ إقامة الحُجَّة الرسالية، فَهو مُبِينٌ أنَّ نَصْرَ الرُّسُلِ المَذْكُورَ في قَوْلِهِ: ﴿إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا﴾ الآيَةَ [غافر:٥١]، وفي قَوْلِهِ:
﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنا المُرْسَلِينَ، إنَّهم لَهُمُ المَنصُورُونَ﴾ [الصافات:١٧١\ ١٧٢]،
أنَّهُ نَصْرُ غَلَبَةٍ بِالسَّيْفِ والسِّنانِ لِلَّذِينَ أُمِرُوا مِنهم بِالجِهادِ؛ لِأنَّ الغَلَبَةَ الَّتِي بَيَّنَ أنَّها كَتَبَها لَهم أخَصُّ مِن مُطْلَقِ النَّصْرِ؛ لِأنَّها نَصْرٌ خاصٌّ، والغَلَبَةُ لُغَةً القَهْرُ، والنَّصْرُ لُغَةً الإعانَةُ، فَيَجِبُ بَيانُ هَذا الأعَمِّ بِذَلِكَ الأخَصِّ.

النصر بمعنى الإعانَةُ:
ثابت من الله لجميع أنبيائه ورسله.. وهو على أنواع، منها: أن ينجيهم الله من ظلم قومهم، بأن ينزل عذابه عليهم.. وآخر: أن يقتل القوم رسولهم وقد أقام عليهم الحُجَّة الرسالية، فالله يَنْصُرُهُ بَعْدَ المَوْتِ، بِأنْ يُسَلِّطَ عَلى مَن قَتَلَهُ مَن يَنْتَقِمُ مِنهُ، كَما فَعَلَ بِالَّذِينَ قَتَلُوا يَحْيى وزَكَرِيّاءَ وشَعْيا مِن تَسْلِيطِ بُخْتُنَصَّرَ عَلَيْهِمْ، ونَحْوَ ذَلِكَ. وثالث: النصر بالسَّيْفِ والسِّنانِ: فهو ثابِتٌ لِخُصُوصِ الَّذِينَ أُمِرُوا مِنهم بِالقِتالِ في سَبِيلِ الله؛ وهو هنا بمعنى الغلبة - وعلى أساس حقيقتين:
﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران ١٤٠]
وأن (ٱلْعقبة لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ١٢٨]
قالَ تعالى: ﴿إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا﴾ الآيَةَ [غافر:٥١]،
وقَدْ نَفى تعالى عَنِ المَنصُورِ كَوْنَهُ مَغْلُوبًا نَفْيًا باتًّا، في قَوْلِهِ:

﴿إنْ يَنْصُرْكُمُ الله فَلا غالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٠].
والغَلَبَةِ في القُرْآنِ تأتي - غالباً - في سياق القتال..

أمّا **قتل** الأنبياء والرسل:
فقد صَرَّحَ تعالى بِأَنَّ ما وعَدَ بِهِ رُسُلَهُ لا يُمْكِنُ تَبْدِيلُهُ بِقَوْلِهِ **جلّ وعلا:**
﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وأُوذُوا حَتّى أتاهم نَصْرُنا ولا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ الله وَلَقَدْ جاءَكَ مِن نَبَإ المُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]،
ولا شَكَّ أنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿كَتَبَ الله لَأَغْلِبَنَّ أنا ورُسُلِي﴾،، مِن كَلِماتِهِ الَّتِي صَرَّحَ بِأنَّها لا مُبَدِّلَ لَها.. وقَدْ نَفى **جلّ وعلا** عَنِ المَنصُورِ أنْ يَكُونَ مَغْلُوبًا نَفْيًا باتًّا بِقَوْلِهِ:
﴿إنْ يَنْصُرْكُمُ الله فَلا غالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٠]،

والله تعالى قد جَعَلَ المَقْتُولَ قِسْمًا مُقابِلًا لِلْغالِبِ في قَوْلِهِ:
﴿وَمَن يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ الله فَيُقْتَلْ أوْ يَغْلِبْ﴾،

فالمَقْتُولَ غَيْرُ غالِبِ.. ومن هنا، فلَمْ يُقْتَلْ رَسُولٌ في جِهادٍ، كَما جَزَمَ بِهِ الحَسَنُ البَصْرِيُّ وسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، والزَّجّاجُ، والفَرّاءُ، وغَيْرُ واحِدٍ..
وذَكَرَ مُقاتِلٌ أنَّ سَبَبَ نُزُولِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿كَتَبَ الله لَأَغْلِبَنَّ﴾ الآيَةَ، أنَّ بَعْضَ النّاسِ قالَ: أيَظُنُّ مُحَمَّدٌ وأصْحابُهُ أنْ يَغْلِبُوا الرُّومَ وفارِسَ، كَما غَلَبُوا العَرَبَ زاعِمًا أنَّ الرُّومَ وفارِسَ لا يَغْلِبُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِكَثْرَتِهِمْ، وقُوَّتِهِم فَأنْزَلَ الله الآيَةَ، وهو يَدُلُّ عَلى أنَّ الغَلَبَةَ المَذْكُورَةَ فِيها غَلَبَةٌ بِالسَّيْفِ والسِّنانِ.. ويَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ قَبْلَهُ: ﴿أُولَئِكَ فِي الأذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠]، وقَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿إنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

هذا، وجَمِيعَ الآياتِ الدّالَّةِ عَلى أنَّ بَعْضَ الرُّسُلِ قَتَلَهم أعْداءُ الله، كُلُّها في قَتْلِ بَنِي إسْرائِيلَ أنْبِياءَهم، وفي غَيْرِ جِهادٍ ومُقاتَلَةٍ. وبِهَذا تَعْلَمُ أنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ جاءَ في القُرْآنِ أنَّهم قُتِلُوا كَقَوْلِهِ **تعالى:**

﴿أفَكُلَّما جاءَكم رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، لَيْسُوا مَقْتُولِينَ في جِهادٍ.. فالرَّسُولَ المَقْتُولَ يُحمَل عَلى الَّذِي لَمْ يُؤْمَرْ بالجهادِ، فَقَتْلُهُ وارد وممكن، وذلك لا يعارَض آيَةٍ واحِدَةٍ مِن كِتابِ الله؛ لِأنَّ الله حَكَمَ لِلرُّسُلِ بِالغَلَبَةِ، والغَلَبَةُ لا تَكُونُ إلّا مَعَ مُغالَبَةٍ، وهَذا لَمْ يُؤْمَرْ بِالمُغالَبَةِ في شَيْءٍ، ولَوْ أُمِرَ بِها في شَيْءٍ لَغَلَبَ فِيهِ.. لِقَوْلِهِ: (كَتَبَ الله لَأَغْلِبَنَّ أنا ورُسُلِي)..

وهَذا الكِتابُ العَزِيزُ ما أُنْزِلَ لِيَضْرِبَ بَعْضُهُ بَعْضًا، ولَكِنْ أُنْزِلَ؛ لِيُصَدِّقَ بَعْضُهُ بَعْضًا"..

التمكين: التثبيت في الأرض..

ويكون بعد النصر:
﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾ الحج: ٤١

المكان عند أهل اللغة: الموضع الحاوي للشيء، قال: {مكانا سوى} [طه/58]،
{وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا} [الفرقان/13]
ويقال: مكنته ومكنت له فتمكن، قال: {ولقد مكناكم في الأرض} [الأعراف/ 10]،

{ونمكِّن لهم في الأرض}[القصص/6].. **[انظر ، مفردات القرآن - الأصفهاني].**

والمعنى المحوري لكلمة التمكين: (رسوخ الشيء مُتجمّعاً (من دقائق) في باطن يلتئم عليه. مكّنه من الشيء، ومكّن له: جعل له عليه سلطاناً، وقدرة..{ مكّنّاهم في الأرض } (ألأنعام:6).. فيحمل معاني الرسوخ والثبات مع قدرة).

[أنظر (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمد حسن حسن جبل].

(التمكين أقوى من التقوية وإعطاء القدرة والسلطة وغيرها، فإنه يدل على استقرار وتثبّت وتحقّق مع القدرة:{ وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم }(النور:56)).

[أنظر (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) - حسن المصطفوي].

الاستخلاف: السيطرة على الأرض والانتشار فيها..

ويكون بعد الثبات عليها، أي التمكين فيها:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا **يَعْبُدُونَنِى** لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ النور: ٥٥

وخلف فلان فلانا، قام بالأمر عنه؛ إما معه وإما بعده، قال تعالى:

{ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون} [الزخرف/60]،

والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته؛ وإما لعجزه؛ وإما لتشريف المستخلف.
وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض، قال تعالى:

{هو الذي جعلكم خلائف في الأرض} [فاطر/39]،

{وهو الذي جعلكم خلائف الأرض}[الأنعام/165]،

وقال: {ويستخلف ربي قوما غيركم} [هود/57]،

[انظر (مفردات القرآن - الأصفهاني)]

والمعاني البارزة في الاستخلاف هنا: السيادة والقدرة على التصرّف، يبيّنه قوله تعالى:
{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ}...26} ص.
فالحكم بين الناس مترتب على كونه خليفة في الأرض أي ملكاً وسيداً عليها فله السلطة والحكم.
"فالخليفة عبارة عن المَلك النافذ الحكم، أي جعلناك أهل تصرّف نافذ الحكم في الأرض"..

[أنظر (روح البيان - الخلوتي)، و(أضواء البيان – الشنقيطي)].

فيأتي تمكين **الدين**، من خلال نصر وتمكين **المؤمنين** في الأرض؛ المؤمنين المستحقين لذلك؛ و هُم المؤمنون الذين يتمثَّل بهم الدين.. (كان خُلُقُه القرآن)..

ثم يستخلفهم الله في الأرض.. ويبقوا مستَخْلَفين ما قاموا بشرطه:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ.... **يَعۡبُدُونَنِي** لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ ﴾ النور: ٥٥

لتفصيل أكثر.. **انظر مبحث (النصر والتمكين والاستخلاف) - في كتاب (مصطلحات رسالية).**

والحمد لله رب العالمين

الباب الأول :

تمهيد وتأسيس

إن "القضايا العامة" المتعلقة بالرسالة والأمة، هي في أصلها قضايا شرعية، والأصل فيها أن تُبحَث بحثاً شرعياً.. فلا تؤخَذ إلا من الدليل الشرعي، وبدلالته نعرف حدود المسألة ومعالمها.. فالأصل في مثل هذه المسائل هو الاتباع للشرع في كل التفاصيل؛ سواء من حيث "الفكرة والخطاب" أم من حيث "الغاية" المطلوبة أم من حيث "الأعمال"..

فما كان حُكْمه مباح فهو المباح.. مثل الوسائل والأساليب..

وما كان حُكمه بدرجة أعلى فهو حُكْمه، ويُقام به بحسب حُكمه وبطريقته..

"جانب شرعيّ (تكليفي)، وجانب كونيّ (قَدَريّ/ سُنَنيّ)"

الأصل في بحث "القضايا العامة" المتعلقة بالرسالة والأمة، هو الاتباع للشرع؛ فتُبحَث بحثاً شرعياً... إلا أن لها بعداً سُنَنيّاً قد بيّنه الله **تعالى** لنا؛ من خلال السير العملي لرسول الله ﷺ بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني.. فهي كما أن لها جانباً نتناوله من جهة "المعالجات الشرعية"، فإن لها جانباً آخراً نتناوله من جهة "المعالجات السُنَنيّة" [7].. فهو متعلّق بـ "سنن الله" في الكون والحياة والإنسان فرداً ومجتمعاً وأمة.. ومنها السنن التي قدَّرها الله لضبط خصائص المجتمعات الإنسانية والسير فيها برسالات الله بقصد تغييرها.. والسنن الضابطة لخصائص أفراد الإنسان من حيث قناعاته وتأثيرها في سلوكه وأعماله.. وتصنيف الناس - بناء عليها - بحسب موقفهم من دين الله الحق وبحسب عقائدهم: مشركين، كافرين، منافقين، يهود، نصارى.. الخ

ومن هنا، فإن **المعالجات** للواقع الإنساني (المناط) الواردة في ديننا، جاءت على نوعين: **معالجات سُنَنيّة** (كونية، قدرية) و **معالجات شرعيّة..**

وذلك تأسيساً على أن الحقيقة اليقينية الكبرى؛ **لا إله إلا** الله، لها مظهران أو تجليّان:

الأول : أن الله **عزّوجل** هو وحده **الإله الحق** في الوجود صاحب **"الأمر القدريّ"**؛ خلقاً وتسوية، تقديراً وهداية، قيّوميّة واستمراراً، جزاء ومصيراً.. **متمثلاً ذلك**، بما **قدّره** الله **عزوجل** في **كل مخلوق** (شيء/كائن) من **خواص** و من **سنن** تضبطها وتحكمها.. سواء في الآفاق أم في الأنفس والمجتمعات والأمم..

﴿.. وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ الفرقان: ٢

﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ .. ١١﴾ الرعد: ١١

الثاني : وأن الله **عزّوجل** كما هو وحده **الإله الحق** في الوجود صاحب "**الأمر القدريّ**" خلقاً وتقديراً ومصيراً.. فهو وحده له "**الأمر الشرعيّ**" أمراً ونهياً، تشريعاً وتنظيماً للحياة الإنسانية

---

7 - "المعالجات الشرعية" هي: الأعمال (قول أو فعل) المطلوب شرعاً القيام بها، لمعالجة حدث حاصل فعلاً (المناط)، وتؤخذ من الدليل الشرعي؛ بفهمه حسب الأصول المعتبرة لغة وشرعاً، سواء في الإيمان أم => العمل الصالح أم الدعوة. فهي أعم من "الحكم الشرعي" المتعلق بأفعال العباد، ومتضمنة له، فهي تتعلق بالفكر أيضاً؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو، أم بالحكم على وجوده من عدمه، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعي.

أما "المعالجات السننيّة": فهي الأعمال (قول أو فعل) التي في أصلها مباحة، والمناسبة عقلاً وواقعا لمعالجة حدث حاصل فعلاً (المناط)، والتي ينبغي القيام بها، بناء على فَهْم طبيعة ذلك "المناط" فهماً شاملاً من منظور السنن الربانية في الآفاق والأنفس، وفي الأمم والمجتمعات، والرسل والرسالات؛ من حيث سبب حدوثه والحكمة من حدوثه، الدروس والعِبَر: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ **[فاطر]**. ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢ ﴾ **[الأحزاب]**. و"السُنن"، هي القوانين الدائمة والثابتة التي قدّرها الله تعالى لضبط الخصائص التي خلق عليها كل مخلوق، في نفسه وفي علائقه مع غيره. **انظر التفصيل، في كتاب (الإيمان بالقدر). على الرابط التالي:**

https://drive.google.com/drive/folders/1tpCO7iftgxkUMTCm8xQrvIyfViCzNrOc?usp=sharing

بجميع مجالاتها. **متمثلاً ذلك،** بما **أنزله** الله **تعالى** من **شريعة** ودين في رسالاته من لدن آدم حتى الرسول الخاتم محمّد ﷺ وشريعة الله الخاتمة في القرآن الكريم كما بينها الرسول الخاتم..

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة

فالأمر **القدريّ** والأمر **الشرعيّ** هما مَظْهرا الحقيقة اليقينية الكبرى؛ لا إله إلا الله، ومن مظاهر تجليات أسماء الله الحسنى، وآثار مشيئته وأفعاله **جلّ وعلا** في الآفاق والأنفس **(التفصيل فيما يلي من البحث):**

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا **لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ** ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الأعراف: ٥٤

فكما بيّن الله **جلّ جلاله** لنا في رسالته الخاتمة **أمره الشرعي،** بيّن لنا كذلك، كثيراً من **أمره القدريّ** في خَلقه وتقديره (مشيئته) **عزّ وجل،** للكون والإنسان والحياة.. في قيوميّته على الخلائق وهيمنته عليهم وتدبيره لشؤونهم.. وعلى هذا، جاءت **المعالجات** - بوصفها **أحكاماً** لله - إما **شرعيّة** أو **سُننيّة**.

ومن هنا، فإن فَهْم حقيقة "الواقع الإنساني" - خواصه وسننه الضابطة له - الذي تعمل فيه الرسالة أمر مطلوب شرعاً، سواء عند فهم المعالجات الشرعية أم عند تنزيلها على الواقع [8] أم عند فهْم كيفية السير في المجتمع بقصد تغييره.. ذلك أن الرسالة والشريعة ما جاءت إلا **لمعالجة** الواقع الإنساني **وتغييره وصياغته** حسب مراد الله **تعالى،** وهو أن يكون الدّين كله لله، وهذا يقتضي **فَهْم** طبيعة "الواقع الإنساني" - مجتمعاً وأمة وجماعات وأفراداً - من حيث خواصه وسُننه الإلهية التي تحكمه (مشيئة الله فيه)، **فَهْماً** يُمَكِّن حَمَلَة الرسالة من تلك **الصياغة للواقع**.. ومَثَلُ هذا كمثل الطبيب الحاذق الذي يعمل جاهداً - بما لديه من **عِلْم** - على تشخيص المرض الذي يعاني منه المريض، حتى يتمكّن من تحديد العلاج النافع الناجع وكيفية العلاج.. ليعود المريض سليماً مُعافَى.. فالتشخيص للواقع يكون على أساس من العلم الشرعي.

ومن أجل ذلك بيّن الله **تعالى** في القرآن الكريم **سننه** في حمل الرسالات مفصّلة باستفاضة وشمول، وعلى طول الطريق لإكمال الدّين لله **جلّ وعلا**.. ومنها السّنن المتعلقة بتغيير الواقع الإنساني بأبعاده المختلفة؛ الاجتماعية والفكرية والسياسية وغيرها.. وببيان طبائع وصفات "الفئات المجتمعية"

---

8 - وهو ما يعرف بـ "تحقيق المناط"، فكل "معالجة شرعية" للواقع مبنية على مقدمتين الأولى: "تحقيق المناط"؛ والمقصود منها فهْم الواقع المراد إصدار الحكم عليه. والثانية: فَهْم النصوص الشرعيةالمتعلقة بهذا الواقع. ثم؛ يكون تنزيل الثانية على الأولى. وبعبارة أخرى يُتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه، إلى معرفة حكم الله في ذلك الواقع.

المختلفة والمتنوعة؛ مؤمنين بدرجاتهم.. وكافرين ومنافقين وأهل كتاب.. وتكاد لا تجد سورة في القرآن تخلو من ذكر بعض تلك السنن أو الإشارة إليها [9]، إمّا من خلال ذكر القَصص وضرب الأمثال - وهو الأعم الأغلب - ثم بالتعقيب عليها والإشارة إلى سنة الله **تعالى** أو حكمته منها.. أو من خلال الإخبار والبيان المباشر.

هذا، والعلم بـ "السنن الإلهية" بهذا الشمول، يُعتبر من الهدى والحكمة التي أنزلها الله **تعالى** في كتابه، وقد راعاها وبيّنها رسول الله ﷺ في سيره وتطبيقه لأمر الله وشريعته في واقعه الإنساني ومجتمعه:

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ البقرة: ١٥١

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ الإسراء: ٣٩

وهذا العلم، ضروريّ وأساسيّ للأمة المسلمة الخاتمة في سَيْرها في العبودية لله **تعالى** وحَمْلها رسالته هداية ورحمة للإنسانية في أنحاء الأرض حتى قيام الساعة، وخاصة، عند "تحقيق المناط" وإنزال المعالجات الشرعية على الواقع الإنساني المتنوّع وكثير الاختلاف، لتحقيق الغاية من الرسالة فيه..

ومن هنا، يمكننا القول: إن العِلْم بـ "أمر الله الكونيّ" - ممثلاً بما جعل عليه الأمم والمجتمعات (القرى) من طبائع وخاصيات وبالسنن التي تحكمها (القدَر) - لا يقل أهمية عن العِلْم بـ "أمر الله الشرعي" (المعالجات الشرعيّة)، ذلك أن الله **عزّوجل** ما أنزل "أمره الشرعي" (الشريعة والدين) إلا لأجل أن يكون حاكماً ومُسيراً للواقع الإنساني الذي يحكمه ويضبطه - أصلاً - "أمره الكونيّ" (القدريّ).. لأنه لا إله إلا الله.. فـ "أمر الله الشرعيّ" التكليفي - في حقيقته - فيه الهداية للسير حسب "أمره الكونيّ القدريّ"؛ سنن الله في الكون والإنسان والحياة.. فيحيا الإنسان؛ فرداً ومجتمعاً، حياته الدنيا منسجماً مع قوانين الكون والحياة ونواميس الخَلْق والفطرة.. فلا يتصادم معها، فيحياها؛ فرداً ومجتمعاً في سعادة وهناء.. ويحيا الحياة الآخرة أيضاً - وقد حقق العبودية لله - في رضوان الله **تبارك وتعالى**، في جنة ونعيم دائم.

وفي المقابل إذا خرج الإنسان عن "أمر الله الشرعيّ"؛ شريعته ودينه، ضَل وتصادَم مع نواميس الخَلْق والفطرة في نفسه ومجتمعه وفي الكون من حوله - والتي لا يعلم منها إلا القليل القليل - وعندها تكون معيشته؛ فرداً ومجتمعاً في الحياة الدنيا، شاقة نكِدة.. وفي الآخرة يكون مقيماً في غضب الله وعذاب أليم..

وقد أعلم الله هذه الحقيقة للثقلين؛ الإنس والجن، عندما أهبطهم إلى الأرض، كما قال **تعالى**:

---

9 - انظر- مثلاً - مشروع كتاب (أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم) (كشّاف موضوعي) إعداد زينب عطية محمد، وقد صدر منه الجزء الأول في مجلدين كبيرين، وهو متعلق بـ (السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم).

هذا ولمشاهدة حقيقة أن "قدر الله" في الخلائق، يتمثل بخواصها وسننها الضابطة لها.. وأَنّه أثر لـ "مشيئة الله" العامة فيها، يرجى الرجوع إلى كتاب (الإيمان بالقدر)، مرجع سابق. هامش رقم 7.

﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧ ﴾ طه: ١٢٣ - ١٢٧

وأصل الأمر؛ أن الله جلّ وعلا قد جعل الإنسان - بوصفه إنساناً؛ مؤمناً أو كافراً - هو المخلوق المركزي في الأرض وفي السموات، بكونه **الخليفة** في الأرض؛ أي السيد المتصرّف فيها، وصاحب الصلاحيات الواسعة.. وجعَل مهام المخلوقات جميعها متناسقة - بشكل أساس - مع كون الإنسان هو الخليفة في الأرض، وهذا هو "التسخير":

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ ﴾ الجاثية

إلا أن ذلك التناسق والانسجام للإنسان مع الموجودات ، يتغيّر بحسب اختيار الإنسان.. فإن اختار أن يكون عبدا لله - منسجماً مع سائر الوجود - استجابت له سائر المخلوقات فلا يضل ولا يشقى وعاش الحياة "اليُسرى".. وإن اختار أن يكون عبداً للطاغوت - بأشكاله المختلفة - فيخرج حينئذ عن سياق الوجود في عبوديته لله، فيعيش في الظلمات فيضل عن الطريق الصحيح.. فيشقى لأنه سيعيش الحياة "العُسرى" والضنكى.. كما في آيات "سورة طه" السابقة.

والآن إلى شيء من التفصيل في ما يتعلّق بـ "الجانب الشرعيّ" و "الجانب السننيّ"..

المبحث الأول : الجانب الشرعيّ (الأمر الشرعي)

أولاً : الوحي هو المصدر الوحيد، والموَجّه دائماً لسير الرسول بالرسالة.

إن بحث "الدعوة إلى الله" أو "استئناف الحياة الإسلامية" أو "إقامة الدولة" أو "نهضة الأمة".. إلى غير ذلك من مثل هذه التسميات والمصطلحات.. فهذه - كما قلنا - في أصلها قضايا شرعية **والأصل** فيها أن تُبحَث بحثاً شرعياً.. فلا تؤخَذ إلا من الدليل الشرعي.. وهو الذي يدلنا على حدودها ومعالمها؛ فما هو منها حُكمه "مباح" فلنا اختيار في القيام به - فـ "المباح" حُكم شرعي يثبت بالدليل شرعي - وأمّا ما هو منها حُكمه أعلى درجة (مندوب أو فرض)، فليس لنا فيه اختيار.. فيُقام به بحسب درجة حكمه، وبكيفيّته الشرعية..

و**الوحي** الإلهي - القرآن والسنة - هو المصدر الوحيد للشريعة والدين، ونَصّ الوحي هو الدليل الشرعي، وهو الذي يدلنا إن هناك مصادر أخرى أم لا..

والقضايا العامة المتعلّقة بالأمة ودينها.. إنما هي غايات و أهداف شرعية، أي مطلوب شرعاً تحقيقها.. فلا مرجع لفهم حقيقتها وطريقة تحقيقها في الواقع إلا الوحي.

والوحيّ كان هو **المحرّك والموجّه** دائماً لسير وحركة **الرّسول** ﷺ لتحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة، وذلك:

- ✓ بوصفه **رسولاً مبلغاً** عن الله، حيث كان رسول الله الخاتم ﷺ يتلّقى الوحيّ، ويُبلّغ ما يأتيه من الله **تعالى**، ويُعالج الأمور بحسب الوحيّ ولا يخرج عن الوحيّ البتة:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ ﴾ الأحقاف: ٩

- ✓ وبوصفه **عبداً مسلماً** لله، فالرسول ﷺ **أول المسلمين**، وإمام المتقين **المخلصين** دينهم لله **جلّ ثناؤه**.. وفيه القدوة والأسوة:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣ ﴾ الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ ﴾ الزمر

ثانياً : القرآن هو الأصل، والسنة جاءت مبينة

إن القرآن الكريم هو الوحي الأصل والمصدر الأول.. وأن السنة النبوية الشريفة؛ متمثلة بأقوال رسول الله الخاتم محمد ﷺ وأفعاله وتقريراته.. هي الوحي الذي فيه البيان للقرآن:

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ **لِتُبَيِّنَ** لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤ ﴾ النحل

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ **لِتُخْرِجَ** ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ إبراهيم: ١

فالقرآن هو **الأصل** في التحريك والتوجيه من أجل تحقيق الغاية منه، **والسّنة** جاءت **المنفذة والمبينة**، قولاً وفعلاً وإقراراً.. حيث كانت الآية أو الآيات أو السورة من القرآن تُـنـزّل على قلب رسول الله ﷺ فيقوم **بتبليغها** تلاوة، ويقوم **بِبَيانها** بالاتباع العمليّ والتنفيذ الفعليّ – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة – **ويستقيم** الرسول والمؤمنون عليها، ويستمرّوا بالاستقامة عليها **حتّى** يُنزّل الله **تعالى** الآيات التي تليها، فيقوم الرّسول ﷺ مرة أخرى **بالبلاغ المبين؛ تلاوةً واتباعاً واستقامة،** ومعه المؤمنون.. وهكذا استمر الأمر.. حتى حقق الله **تعالى** الغاية من الرسالة على يد رسول الله؛ أمة تُكمل الدّين (العبودية) لله عزّوجل:

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝١٠٩ ﴾ يونس: ١٠٩

وعندما سُئلت عائشة **رضي** الله **عنها** عن خُلُق رسول الله، أي عن صفاته وطبائعه وتصرفاته.. أي حاله وواقعه.. قالت: { كان **خُلُقُه القرآن** } **[أخرجه النسائي]**.. فالقرآن متمثّل به ﷺ، فكان قرآناً يمشي على الأرض.

فكان **القرآن** نفسه هو الأصل في **توجيه** رسول الله في سيره وحمله القرآن، **والسّنة** كانت المبيّنة والمنفذة لجعله حقيقة في الواقع الإنساني.. سواء من حيث **الأعمال** والحركة أم من حيث **الخطاب**:

أما من حيث أعمال رسول الله **وحركته** بالرسالة في المجتمع:

فأول ما نُـزّل من القرآن في **حمل** رسالة الله **تعالى** إلى الناس، قوله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١ قُمْ فَأَنذِرْ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ٧ ﴾ المدثر: ١ - ٧

وبعد ذلك:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا.. ٩٢ ﴾ الأنعام

ثم نزل لاحقاً فيما بعد، قوله سبحانه:

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٤١ ﴾ النحل: ٤١

وبعد الهجرة.. كان التمكين.. والإذن بالقتال:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ **أُخْرِجُوا۟** مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن **مَّكَّنَّٰهُمْ** فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ٤١ ﴾ الحج

وبعد ذلك:

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠ ﴾ البقرة

ومن بعده:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٣ ﴾ التوبة: ١٢٣

وفي النهاية:

﴿.. وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ٣٦ ﴾ التوبة: ٣٦

ثم الاستخلاف في الأرض:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ **لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ** كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ **وَلَيُمَكِّنَنَّ** لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ **وَلَيُبَدِّلَنَّهُم** مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ **يَعۡبُدُونَنِي** لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ النور

فقام رسول الله **ببيان** كل ما أمره الله به: **تنفيذاً** في الواقع، **وبالكيفية** التي أمره بها، **وبالوقت** الذي أُمر به.

وأما بالنسبة **لخطاب** المجتمع:

فقد كانت **آيات القرآن** هي **الأصل** في **"خطاب"** الله **تعالى** للمجتمع؛ أفراده وملئه.. لبيان الحق وكشف زيف الباطل، **ملقناً** رسوله **الحُجَّة البالغة**، **مثبتاً** له على الحق، كما في مثل قوله **تعالى**:

﴿ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٩ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤١ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ٤٢ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٣ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ٤٥ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٧ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩ ﴾ الطور

.. **الخ**

وهذا كثير في القرآن الكريم كثرة مستفيضة. فالقرآن هو رسالة **الله تعالى** للبشرية، نزّله على رسوله لبيان مُراده من البشر ليحققوه في واقعهم، وبه أنذرهم وحمّلهم مسؤولية موقفهم منه:

﴿ .. وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ .. ١٩ ﴾ الأنعام: ١٩

فالقرآن هو رسالة الله إلى الناس، وهو الأصل في مخاطبتهم.. فكان هو **محور** "المجاهدة" الدائرة بين الحق والباطل، لذلك قال **الله تعالى** لرسوله:

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ **وَجَٰهِدۡهُم** بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢ ﴾ الفرقان: ٥٢

(الكُفّارُ يُرِيدُونَ أنْ يُطِيعَهُمُ الرُّسُلُ أوْ يَتْرُكُوهم عَلى ما هم عَلَيْهِ: ﴿فَلا تُطِعِ الكافِرِينَ﴾ أيْ: فَقابِلْ ذَلِكَ بِالثَّباتِ والِاجْتِهادِ في الدَّعْوَةِ وإظْهارِ الحَقِّ والتَّشَدُّدِ والتَّصَبُّرِ. ولا تُطِعْهم فِيما يُرِيدُونَكَ عَلَيْهِ.

﴿وجاهِدْهم بِهِ﴾ أيْ: بِالقُرْآنِ جِهادًا لا يُخالِطُهُ فُتُورٌ، بِأنْ تُلْزِمَهم بِالحُجَجِ والآياتِ، وتَدْعُوَهم إلى النَّظَرِ في أحوال الكائنات، لِتَتَزَلْزَلَ عَقائِدُهم، وتَسْمُجَ في أعْيُنِهِمْ عَوائِدُهم" (10)

وهكذا كانت آيات **القرآن** هي **الأصل** في **الخطاب** والتوجيه و**الحركة**، **والسّنة** جاءت المنفذة والمبيّنة، حتى تحقّقت الغاية؛ أي وُجِدَت الأمة المسلمة التي أكملت عبوديتها (دينها) **لله عزّوجل** واتّباعها لرسوله ﷺ (11)..

ثالثاً : الوعي على حقيقة الرسالة، وواقع الأمة الشرعي

الأصل في بحث مثل هذه القضايا العامة المتعلقة بالأمة المسلمة ودينها ورسالتها.. أن يكون مبنيّاً ومؤسساً على **الوعي** على الواقع الشرعي لـ "الأمة المسلمة".. وعلى حقيقة "الرسالة الخاتمة" وروحها الأصيلة.. ووظيفتهما في الحياة الإنسانية.. أي الرؤية الصحيحة لهما..

ومن أجل ذلك نورِد الأفكار الرئيسة التالية؛ بياناً وتذكيراً:

- فكرة الرسالة الخاتمة، والبناء الفكري الذي يقوم عليه محتواها وموضوعها..
- الغاية من إنزال رسالة الله الخاتمة للبشرية..
- الغاية من بعث الرسول الخاتم ﷺ بهذه الرسالة الخاتمة والدين الخاتم..
- وعليه، ما هي حقيقة الأمة المسلمة الخاتمة؟ تركيبها وتكوينها..
- وما هي الغاية من إيجادها؟ أي، ما هي الوظيفة المُناطة بها؟

فالقرآن الكريم هو **الرسالة الخاتمة** من الله **تعالى** للناس كافة..
لها "**فكرة**" أساس يقوم عليها محتواها أو "**موضوعها**"..
ويُراد بها "**غاية**" لا بد من تحقيقها في حياة الناس وواقعهم..
وأن لها "**منهاجها**" (طريقتها) في حمل "**فكرتها**" و "**موضوعها**" بقصد تحقيق "**الغاية**" منها..
ومن أجل **تحقيق** ذلك في الواقع **وبيانه** بياناً عملياً، بعث الله **تعالى الرسول** الخاتم محمد ﷺ..
وإليك شيء من البيان..

---

10 - (﴿فَلا تُطِعِ الكافِرِينَ﴾ أيْ: لا تُطِعْهم فِيما يُرِيدُونَكَ عَلَيْهِ. وأرادَ بِهَذا النَّهْيِ، تَهْيِيجَهُ وتَهْيِيجَ المُؤْمِنِينَ،=> وتَحْرِيكَهم. أيْ: إثارَةَ غَيْرَتِهِ وغَيْرَتِهِمْ. وإلّا فَإطاعَتُهُ لَهم غَيْرُ مُتَصَوَّرَةٍ. وقالَ أبُو السُّعُودِ: كَأنَّهُ نَهْيٌ لَهُ ﷺ عَنِ المُداراةِ مَعَهم، والتَّلَطُّفِ مَعَهم. أيْ: لِأنَّ في ذَلِكَ إضْعافًا لِلْحَقِّ وتَغْشِيَةً عَلَيْهِ. وطُولَ أمَدٍ في سَرَيانِهِ). **[(محاسن التأويل - القاسمي). باختصار]**

11 - وفي هذا السياق، وانسجاماً مع حقيقة أن القرآن هو الأصل في الأعمال و الخطاب وأن السّنة جاءت=> المنفذة والمبيّنة.. نستطيع أن نفهم ما حصل من أفعاله ﷺ، والتي اصطلح العلماء على تسميتها "خلاف الأَولى" فالرسول لا يفعل حراماً، فبالرغم من أن أفعاله ﷺ وأقواله ومواقفه تدور دائماً مع ما نُـزّل من القرآن وفي إطاره، تطبيقاً على الواقع المعيّن أثناء السير، خطوة بعد خطوة، حتى إكمال الدّين لله تعالى، إلا أنه حصلت منه ﷺ أفعال "خلافاً للأَولى" وحينئذٍ، نُـزّل قرآنٌ ليصحح الرّسول ويوجهه التوجيه المناسب في تلك الحادثة المعينة.. والحوادث تلك كانت قليلة، على طول فترة تبليغه الرسالة وسيره ﷺ بها لتحقيق الغاية منها، وهي معروفة: مثل الموقف من الأعمى (سورة عبس)، وما حصل في أنفال وأسرى غزوة بدر (سورة الأنفال)، والموقف من زيد بن حارثة وزوجه زينب (سورة الأحزاب)، والامتناع عن تناول طعام حلال (سورة التحريم)، والإذن للمعتذرين في غزوة العسرة (سورة التوبة).

1- فكرة الرسالة

الفكرة الأساس والركن الركين الذي تقوم عليها **الرسالة الخاتمة..** هي الحقيقة اليقينية الكبرى **لا إله إلا** الله..

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ الأنبياء

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ هود: ١ - ٣

فحقيقة **"لا إله إلا** الله"، جاءت هي الأساس الفكري لكل محتوى الرسالة، متمثلاً بالمواضيع **الرئيسة** أو **الكبرى** التالية:

الإيمان، والعمل الصالح، والدعوة إلى عبادة الله؛ الإله الحق وحمل رسالته للعالمين، مع **بيان الجزاء والمصير..** كما وردت في سورة العصر:

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ **إِلَّا**.. ٱلَّذِينَ :

ءَامَنُوا۟ ،،

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ،،

وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ،،

وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ العصر ..

فلا ينجو **إنسان** من الخسران في الدنيا والآخرة.. إلا مَن كان **مؤمناً**، ويعمل **صالحاً**، **ويُذكّر** الناس بالله؛ الإله الحق **ويدعو** إلى الله **تبارك وتعالى**، **ويصبر** على ذلك كله.. هذا هو فقط مَن يكون جزاؤه ومصيره الفوز والنجاة من الخسران.

فحقيقة **لا إله إلا** الله هي **"فكرة** الرسالة"، وهي الأساس الفكري لكل أمور **الدّين** أو **العبادة،** وزاوية النظر **الوحيدة** إليها في التلقي والتعليم والتطبيق والسير.. وسنبيّن ذلك من خلال تناول الحقائق والمفاهيم التالية:

- ✓ **معنى "لا إله إلا** الله"..

لا إله **إلاّ** الله**: نفي** عام أن يكون أحد أو شيء **إلهاً**، **واستثناء** لله **عزّوجل** وحده من عموم النفي. وأسلوب "النفي و الاستثناء" من أقوى أساليب الحصر والقصر في الّلغة، أي حَصر **الإلهية** بالله وحده **عزّوجل** وقصرها عليه وحده **سبحانه وتعالى** عن الشريك..

فالمعنى: أنّ الله هو وحده **الإله الحق** ولا إله غيره **عزّوجل.**

و" **إله** " في اللغة: على وزن "فِعال" و هو بمعنى "مفعول" أي: مألوه.

و"التألّه" هو التعبّد و التنسّك، و"التأليه": التعبيد، فالإله هو **المعبود** المُطاع أمره، فهو **صاحب الأمر المُطاع**، سواء أكان معبوداً بحق أم بباطل [12].

والأمْر: هنا هو التكليف، فمصدر **أمرته** إذا **كلفته** أن يفعل شيئاً، أو أن ينتهي عن فعل شيء.

و **العبودية**: إظهار التذلّل و الخضوع **للأمر، أي طاعة الأمر**. و يقال: طريق مُعبّد، أي مسلوك مُذلل. و"العبادة" أبلغ منها لأنها غاية التذلّل والخضوع. فالعبودية تعني الطاعة.

وعلى هذا يكون المعنى الذي تؤدّيه كلمة **"لا إله إلاّ الله"** هو: أنّ الله **تعالى** هو وحده الإله الحق، أي وحده صاحب **الأمر** والحكم، المستحق وحده غاية التذلّل والخضوع **لأمره** وحكمه، أي المستحق وحده **للعبادة** والطاعة.. والمستحق وحده **للتأله**؛ أي ذكره ودعاءه والاستعانة به والتوكّل عليه والخشية منه وحده **جلّ وعلا**.. أي، لا معبود بحق إلا الله وحده جل جلاله.. فهنالك إذاً:

- **إلهية** واحدة، إلهية الله الإله الحق **عزّ وجل**، وتعني أنه هو وحده صاحب الأمر المطاع و الحكم النافذ.. والذي لا يكون التألّه إلا له؛ دعاءً وتوكلاً واستعانة.
- **عبوديّة** يدين بها **كل** ما سوى الله، و يستسلم **لأمر** الله الإله الحق الواحد الأحد **عزّ وجل**. فلا أمر إلا أمر الله، ولا طاعة إلا لله وحده **تبارك وتعالى**.

و " **الإلهية** " و " **العبودية** " حتى يُفهَم مدلولهما ويُدرَك واقعهما بشكل صحيح لا بد من النظر إليهما ضمن **مجالين اثنين**، كما جاء في القرآن الكريم:

✓ المجال الأول الذي تُفهَم فيه دلالة "الإلهية" و "العبودية"؛ لا إله إلا الله

وهو المجال الذي تتمثّل فيه **إلهية** الله بأمره **القَدَري** أو **الخَلْقي** (التكوينيّ)، أي المتعلّق بالخَلْق والتقدير والقيوميّة، بأمره **جلّ شأنه** (كن):

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ النحل: ٤٠

الأمر المقتضي **للعبودية** من جميع الموجودات، بالطاعة والخضوع والاستسلام (العبوديّة) لأمر الله القدريّ (التكويني)؛ بأن تكون وتوجَد في الزمان والمكان والمقدار الذي يريده **جلّ وعلا**.. لا عن إرادة منهم أو اختيار بل بحكم الخَلْق والتكوين:

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ.. ﴿٦٣﴾ ﴾ الزمر

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الفرقان: ٢

---

12 - {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً } الفرقان43،، أي "انظر - أيها الرسول - متعجبًا إلى من كان في طاعة الهوى في دينه، يتبع هواه في كل ما يأتي ويذر، ولا يتبصّر دليلاً، ولا يصغي إلى برهان، فهو عابد هواه وجاعله إلهه. أفأنت تكون عليه حفيظًا حتى تردَّه إلى الإيمان؟". =>
{قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} الشعراء29،،، أي "قال فرعون حينئذ استكبارا عن الحق، وتماديا في الغي لموسى: لئن أقررت بمعبود سواي لأسجننك". **انظر (تفسير الطبري)، (المحرر الوجيز - ابن عطية)، (التفسير الميسر)، (الكشاف - الزمخشري).**

فكل شيء موجود (كائن) فقد وُجِد بخضوعه وانصياعه لأمر الله التكويني: "كن".. فكل شيء كائن،
هو عبد لله بحكم خضوعه للأمر بالخَلْق والتكوين.. وكل غير موجود، فهو كذلك لأن الله **جلّ وعلا** لم يأمر بوجوده..

وأمْر الله **القَدَريّ** (الخلْقيّ) يُمثّل **إرادة** الله و**مشيئته** العامة الشاملة لكل مخلوق وموجود، وأثر لها، والتي لا يخرج عنها شيء، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.. فليس هناك شيء **مستقل** بالتأثير سوى مشيئة الله **تبارك وتعالى**.. فلا يقع حدث في الوجود إلا من بعد إذنه و مشيئته أي حسب تقدير الله و سُننه **عزّ وجل**.. ولا يمتنع شيء عن الحدوث إلا لأن الله لم يأذن به ولم يشأه، وحسب تقديره و سُننه **عزّ وجل**..

فالموجودات كلها في عجز دائم؛ لا تتحرّك أو تسكن إلاّ بأمر الله ومشيئته ومن بعد إذنه، وبالقَدْر الذي وهبها الله إيّاه، فلا حول لها ولا قوّة إلاّ بالله، فالله **تعالى** هو وحده الذي له الخلق والأمر؛ فهو وحده الإله الحق:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ **أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ** تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الأعراف،، **[انظر كتاب (الإيمان بالقدر)، مرجع سابق. هامش رقم 7]**

ومن تجلّيات **إلهية** الله **تبارك وتعالى** الظاهرة على الخلائق والموجودات في مجال "الأمر الكوني"، تجلّيها في ما يلي:

الخلق والتسوية، التقدير والهداية:

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى **خَلَقَ فَسَوَّىٰ** ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى **قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴿٣﴾ ﴾ الأعلى: ١ - ٣

"فجعل التسوية من تمام الخلْق.. وجعل الهداية من تمام التقدير"..

القيام والاستمرار:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن **تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ** ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ الروم

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ **يُمْسِكُ** ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ فاطر: ٤١

المصير والجزاء:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ** فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ هود: ١٢٣

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ هود

السجود لله والصلاة له وتسبيحه وتحميده وذكره جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ **سُجَّدٗا لِّلَّهِ** وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨ **وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ** مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩﴾ النحل

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ **وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ** وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ الإسراء: ٤٤

﴿**وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ** وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾ الرعد: ١٣

أنه المالِك والمَلِك للخلق جميعاً، وهم له قانتون، أي طائعون مستسلمون:

﴿**وَلَهُۥ** مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ **كُلّٞ لَّهُۥ** قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ الروم: ٢٦

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ التغابن.

صدق الله العظيم

- ✓ **أين الإنسان من هذا كله ؟**

الإنسان مثل سائر المخلوقات؛ خاضع للخواص والسنن الضابطة لها، التي قدّرها الله **سبحانه**، على الإنسان وعلى الكون كذلك (الأمر القدري)، فلا يستطيع الخروج عنها، فتنطبق عليه قوانين وسنن الزمان والمكان والمُحيط الذي يعيش فيه (البيئة)، بِلا إرادة منه أو اختيار.. وهو بهذا الاعتبار من هذه الناحية **عبدٌ** لله كسائر المخلوقات جميعاً، عبوديّة بالخِلْقة والفطرة، خاضعاً مستسلماً لمشيئة الله **تعالى** وأمره القدريّ بغير اختيار منه أو إرادة، فكان مثل سائر المخلوقات مفطوراً على معرفة أنّ الله هو وحده ربّه وإلهه لا شريك له:

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ **أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ** قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ الأعراف

ولا يمكن لأي كائن- حتى الإنسان - الخروج عمّا قدّر الله فيه من خواص وسنن ضابطة لها، بأي حال من الأحوال فهو مقهور بها ومقهور عليها.. إلّا أن الله ميّز الإنسان بخواص وسنن كرّمه بها فجعله في أحسن تقويم: أبرزها العقل والإرادة، والتكوين الجسمي الخاص.. وأعطاه القدرة على التصرف بالموجودات (التسخير).. والتي هي من أهم خواصه الإنسانية ومقومات كونه الخليفة في الأرض.. فَمَكّنه الله من الأسباب لينتفع بنتائجها، أي التصرُّف بالأشياء والموجودات بحسب خواصها وسننها؛ أي بحسب أقدارها.. بمعنى أن الله **تبارك وتعالى** جَعَل الإنسان قادراً على أن يُغالِب

أقدار الله بأقدار الله.. فيستطيع - مثلاً - أن يُغالب قدَر الله في الظلمة والعتمة، بما قَدّره الله في النور من خواص وسنن، فعندما يضيء الإنسان شمعة يقهر الظلام، وهكذا الداء والدواء.. والحر والبرد.. الخ.

فيستطيع الإنسان أن ينتفع بالموجودات ويسخّرها لِمَا يشاء (إنفاذ مشيئته)، لكنّه محكوم لطبائعها وسننها (مشيئة الله فيها). فلا تنفذ مشيئة الإنسان في الواقع إلا أن يشاء الله؛ أي حسب خواص الأشياء وسننها التي قدّرها الله، والتي تمثّل مشيئة الله **تعالى:**

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ التكوير

فأقصى ما يستطيعه من الانتفاع بالأشياء، إنما هو بحسب خواصها وسننها.. أي، قَدَر الله ومشيئته فيها.. فهو لا يستطيع تحقيق مراده ومطلوبه إلا بأن "يُغالب أقدار الله بأقدار الله" وأن "يفرّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله". **[انظر كتاب (الإيمان بالقدر)، مرجع سابق. هامش رقم 7]**

وهذا بدوره يقودنا إلى المجال الثاني الذي تُفهم فيه دلالة **لا إله إلا الله**، وهو متعلّق فقط بالمخلوقَين الإثنين، الثقلان؛ الجن والإنس. وسنتعرّض لما يتعلق بالإنسان فقط.

- ✓ **المجال الثاني الذي تُفهم فيه دلالة "الإلهية" و "العبودية"؛ لا إله إلا الله**

وهو المجال المتعلّق بالإنسان؛ بالجانب الآخر من خِلْقته وطبيعته التي جعله الله عليها؛ بالدائرة الأُخرى للنشاط الإنساني.. التي أشرنا إليها آنفاً.. تمكينه من الأسباب وإعطاؤه القدرة على "مغالبة أقدار الله بأقدار الله" وأن "يفرّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله".. أي القدرة على الاختيار بين البدائل، وذلك بما وهبه الله وأعطاه من خواص: العقل والتعلّم، والإرادة والقدرة.. وما سخّر له في السماء والأرض من كائنات، ومكّنه منها كأسباب يستعين بما جعل الله فيها من قِوى وخواص.. في معيشته وحياته على الأرض..

و **إلهية** الله **سبحانه وتعالى**، المتعلقة بهذا الجانب من الإنسان، متمثّلة **بأمر** الله **وحكمه الشرعيّ** أو التكليفيّ؛ يعني شريعة الله ودينه.. في كلامه الذي أنزله في رسالاته.. فالله هو وحده صاحب الشريعة والقانون الواجب له **الطاعة والاتباع** في **تنظيم** جميع شؤون حياة الناس ومعيشتهم، أفراداً ومجتمعاً وأمةً.. فالله **عزّوجل** هو وحده **المعبود الحق** في تنظيم حياة الإنسان ومعيشته، فلا طاعة إلا لأمر الله الشرعي، ولا اتباع إلا لشريعته التي بعث بها رسله حتى خاتمهم محمَّد ﷺ.

أمّا **العبوديّة** لله في هذا المجال؛ فهي متمثّلة بخضوع الناس واستسلامهم - أفراداً ومجتمعاً وأمةً - لأمر الله الشرعي (دينه) عن رضا وحب واختيار، وذلك في كلّ ما رزقهم الله و وَهَبهم إياه ومكّنهم منه وسخّره لهم، فجعله تحت تصرّفهم وسيطرتهم وسيادتهم من أسباب وقدرات.. في أنفسهم والموجودات من حولهم.. فلا **يتصرّفون** بشيء من ذلك كله إلاّ بحسب أَمْر الله وحده وشريعته.. مخلصين الدين والطاعة لله وحده، فلا يشركوا معه غيره في الطاعة.. بل الطاعة والاتباع لا تكون إلا لله وحده..

كما في حالة العبد الصالح ذي القرنين:

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤﴾ الكهف: ٨٤ - ٨٥

فكل أسباب القوة التي مكنه الله منها، وظَّفها في إحقاق الحق والعدل وإبطال الباطل بين الناس، وفي الإصلاح والتعمير في الأرض لما فيه خير الناس..

هذه هي "**العُبوديّة الشرعيّة**" أو **التكليفيّة**، وهي خضوع وطاعة الإنسان - فرداً ومجتمعاً - عن رضا وحب لشرعة الله ودينه؛ بأن يَسير بحسبه في خلافته في الأرض.. فيكون دين الله هو "طريقة عيشه" و "منهاج حياته" التي يسلكها طول حياته على الأرض.

وباختيار الإنسان شريعة الله والقيام بها كطريقة عيش، **مخلِصاً** الدين والطاعة لله وحده بلا شريك.. يكون قد حقَّق **الحكمة** التي من أجلها خَلَقه الله بهذه الصورة وأنزله هذه المنزلة:

﴿وَمَا **خَلَقْتُ** ٱلْجِنَّ **وَٱلْإِنسَ** إِلَّا **لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ الذاريات [13]

حُجَّة الله على خلقه (الحُجَّة الرسالية)

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ .. ﴿١٤٩﴾ ﴾ الأنعام: ١٤٩

لله **الحُجَّة البالغة**، لأن الله هو الخالق والمالك للإنسان - والخلق جميعاً - والمتصرّف به والقيّوم عليه، والذي قدّر فيه وعليه خواصه والسنن التي تحكمها.. والذي وهبه ورزقه ملكاته وطاقاته، وسخّر له ما في الأرض والسماوات جميعاً منه.. فكرّمه بكل ذلك وأهّله ليكون **الخليفة في الأرض**، أي السيد المتصرّف فيها..

فحقُّ المستخلِف أن يطيعه المستخلَف في كل ما استخلفه عليه..

فمن حق الله على الإنسان - فرداً ومجتمعاً - أن **لا يُطيع** أحداً في شيء مما مكَّنه منه وسخّره له.. إلا الله **جلّ ثناؤه**، فلا يستعمل تلك الطاقات والإمكانات والأسباب ولا يوظّفها إلا **بالحق** وللإصلاح؛ أي فيما يحبه الله ويرضى.. أي حسب دين الله وشريعته وحده **جلّ وعلا**..

وهذا هو معنى "عبادة الله" وأن يكون الإنسان - فرداً ومجتمعاً - عبداً لله.. في هذا الجانب من خِلقته: أنّ المنهج الذي يُنظِّم "خلافة الإنسان" في الأرض لا بد أن يكون من الله وحده لا شريك له..

---

13 - الجن أيضاً مكلفون بالعبودية لله، حسب دينه وشريعته، وقد أعطاهم الله تعالى ما يلزم من => الخصائص والمقومات لأن يكونوا أهلاً للتكليف؛ من عقل وإرادة وقدرة على الاختيار، وتحمّل عاقبة اختياراتهم: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {179}) **الأعراف**. إلا أن الله تعالى كرّم الإنسان بمستوى أعلى من هذه الخصائص، أهّله بها ليكون هو الخليفة في الأرض، وليس أهلاً للتكليف فقط.. فالجن مكلفون مثل الإنس، لكن الله جعل الإنسان هو الخليفة في الأرض. فجعَل الله الإنسانَ - بوصفه إنساناً؛ مؤمناً أو كافراً - هو المخلوق المركزي في الأرض وفي السموات بكونه الخليفة في الأرض، وجعَل مهام المخلوقات جميعها متناسقة - بشكل أساس - ولا تُعارِض أو تعيق كون الإنسان هو الخليفة في الأرض (التسخير)، إلا بحسب اختيار الإنسان.

فالتشريع و سنّ القوانين؛ تحليلاً وتحريماً وما يصح وما لا يصح وكيفية التصرُّف.. لا بد أن يكون لله وحده بلا شريك.. فهو وحده مالك الملك وله وحده حق التصرّف في ملكه كيف يشاء..

بمعنى، أنه لا ينبغي للناس؛ أفراداً ومجتمعات ـ في تنظيم جميع شؤون حياتهم ـ أن **يتخذوا إلهاً** يتلقّون منه الأمر والحُكم أو الشريعة والقانون.. إلا الله وحده، **إلهاً** مطاعاً بلا شريك.. فذلك من حق الله وحده، لأنه وحده **الخالق** للوجود **والمالك** لِمَا خلق، فهو **مالك المُلك**؛ فهو المَلِك **جلّ وعلا**.. فهو وحده له **حق** التصرف والحكم في **ملكه** كيف يشاء.. فلا يحق لأي أحد كان، ولا لأية جهة كانت، التصرّف في أي شيء ـ صغُر أم كبُر ـ من تلك **الأمانة** العظيمة التي استخلَف الله فيها الإنسان، إلا من بعد أن **يأذن** الله الخالق **صاحب المُلْك**، كما **حكم** به ورضيه في شرعه ودينه، **جلّ وعلا**.. أي، أنه **لا إله إلا الله**:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ البقرة: ٢١ - ٢٢

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ غافر: ٦١ - ٦٢

.. الخ..

ومن هنا، فإن طاعة الناس لا ينبغي أن تكون إلا لله وحده بلا شريك.. باتباع شريعته ودينه.. وما ذلك إلا لأن الله **جلّ وعلا** هو وحده **الإله الحق** المعبود الخاضع لأمره الكوني كل كائن وموجود..

فالله هو وحده صاحب **الأمر** الكوني؛ خلقاً وتقديراً، قيّوميّة واستمراراً، مصيراً وجزاءً:

﴿ **أَفَغَيۡرَ** دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ **وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ** مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ **طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا** وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ آل عمران: ٨٣

وهذه هي حُجَّة الله على الخلق؛ "الحُجَّة الرسالية":

﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ ﴾ النساء: ١٦٥

عبودية اختيارية

وبما أن **عبوديّة** الإنسان ـ فرداً ومجتمعاً ـ لله **جلّ وعلا** في هذا المجال، "عُبوديّة **اختياريّة**"، فهي خضوع لـ "أمر تكليفيّ" (شرعيّ) وليس لـ " أمر تكوينـيّ" (قدريّ)، فبإمكان الإنسان إذاً ـ بما وهبه الله من قدرة على الاختيار ـ أنْ **يختار الطاعة** والخضوع والانقياد لأمر الله الشرعي ، فيكون بذلك عابداً لله محققاً لمراده منه والحكمة من خلقه.. أو أن **يختار رفض** الطاعة لأمر الله

الشرعي، فيكون بذلك اختار أن يكون عبداً لغير الله، **تعالى** وتقدّس عن الشريك.. وفي المقابل سيواجه الإنسان نتيجة اختياراته في الدنيا قبل الآخرة:

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ الكهف

وفي تقرير وبيان المجالين من العُبوديّة - القدَريّة والشرعيّة - يقول الله **تعالى**:

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ **يَسۡجُدُ** لَهُۥ **مَن فِي** ٱلسَّمَٰوَٰتِ **وَمَن فِي** ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ **وَكَثِيرٞ** مِّنَ ٱلنَّاسِۖ **وَكَثِيرٌ** حَقَّ عَلَيۡهِ **ٱلۡعَذَابُۗ** وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ الحج: ١٨

فكلّ ما في الوجود يسجد لله خاضعاً منقاداً.. وأمّا الناس فقال عنهم: (**كَثِيرٌ**)، أي يسجدون طائعين مختارين.. وقال عن الذين استحقّوا العذاب: (**كَثِيرٌ**)، أي آخرون أيضاً اختاروا أن يعصوا ولا يسجدوا.

وكذلك في الآيات التالية، يستنكر الله **تعالى** على مَن يبتغي غير الله إلهاً:

﴿ **أَفَغَيۡرَ** دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ **وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ** مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ **طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا** وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ آل عمران: ٨٣

﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ الأنعام: ١١٤

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الزمر: ٦٢ - ٦٤

ومن هنا، فإن الإنسان إنْ لم يختَرْ أن يكون عبداً لله، سقط - حتماً - في عبادة غير الله، **جلّ وعلا**:

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة: ٤٩ - ٥٠

أي؛ "فلا ثَمّ إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية: وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فمن أعرض عن الأول ابتُلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية. والموقن هو الذي يعرف ما في حكم الله من الحُسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلا وشرعا - اتباعه. واليقين هو: العلم التام الموجب للعمل". **[تفسير السعدي، باختصار]**

ويقول سبحانه:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٦

"**الطاغوت**"؛ هو اسم "لكل ذي طغيان على الله، فعُبد من دونه، إما بقهر منه لمن عَبَده، وإما بطاعة ممن عَبَده له، وإنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء... فتأويل الكلام إذا: فمن يجحد ربوبيّة كل معبود من دون الله، فيكفر به ويصدق بالله أنه إلهه وربّه ومعبوده، فقد تمسّك بأوثق ما يَتمسّك به مَنْ طلب الخلاص لنفسه من عذاب الله وعقابه".

فكل مَن طلب الطاعة والإتباع لنفسه مع الله أو من دون الله - سبحانه - فقد جعَل من نفسه نـداً لله، وأنّـى له ذلك.. وما هو إلا عبد مخلوق مملوك لله !! قد تجاوز حده وطغى!! وافترى الكذب على الله ربّه ومولاه !!. ومن ثَم، فقد وَسَمه الله **تعالى** في كتابه العزيز بـ "الطاغوت" وهي صيغة مبالغة من الطغيان، أي تجاوُز الحد.. "وهذا اللفظ من المصطلحات القرآنية" [14]...

ومَن أطاع "الطاغوت" باتباع شريعته، فقد اتخذه ربّـاً وإلهاً من دون الله:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ التوبة: ٣١

لذلك:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء: ٤٨

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ النساء: ١١٦

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ﴾ الحج: ٣١

وفي الجملة:

﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ لقمان: ١٣

فمن لم يَعبد الله وحده وقع في عبادة "الطاغوت"، فيجب ترك عبادة **كل ما سوى** الله **تعالى**، وهو "الطاغوت"، وعبادة الله وحده.. فالعبودية لله المطلوبة هي الخالصة أو الكاملة، فلا بد للمسلم من "**إخلاص الدين** لله" أو "**إكمال الدين** لله":

14 - تفسير الطبري باختصار، وانظر أيضا تفاسير: ابن كثير، السعدي، ابن عثيمين. ابن عاشور.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ.. ۝٣ ﴾ الزمر: ١ - ٣

﴿ .. ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا .. ۝٣ ﴾ المائدة [15]

وهذه هي الأمانة التي حَمَلها الإنسان، ومصيره في الدنيا والآخرة منوط بموقفه منها.. أن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله.. فالإنسان مؤتمن على ما استودعه الله من مَلَكات فطريّة، وعلى ما سخّر له من طاقات وإمكانيات وأسباب في السموات والأرض، مؤتمن على ذلك كلّه.. مؤتمن على مكانته الوجودية العليا ومكانه السامي المرموق.. بأن لا يُطيع أحداً بشيء منها إلاّ الله؛ خالقها ومالكها وواهبها له، فلا يستخدمها إلاّ بحسب شريعة الله ودينه، ولا يُوجِّهها إلاّ حيث يُحبُّ الله ويرضى جلّ وعلا:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٣ ﴾ الأحزاب: ٧٢ - ٧٣

فهي إذاً أمانة الاستخلاف في الأرض والصلاحيات الواسعة فيها.. أمانة تحقيق "العُبوديّة الاختياريّة" الخالصة (الكاملة) لله وحده وطاعته وحده [16]..

"وإنّها لأمانة ضخمة حملها هذا المخلوق، فقد أبت المخلوقات العظيمة أنْ يَحْمِلْنَها، وخِفْنَ أنْ لا يَقُمْنَ بأدائها.. وحمَلَها الإنسان والتزم بها، فإنْ لم يأخذ الأمانة بحقّها فإنّه يكون شديد الظُلم لنفسه، شديد الجهل بضخامة هذه الأمانة وبِعِظَم تَبِعَة خيانتها وضياعها"..

فحمْل هذه الأمانة، هي تكريم للإنسان، من جهة.. ومن الجهة الأخرى، هي مسؤولية كبيرة.. هي مسؤولية الإنسان عن اختياراته.. ومواجهته لعواقبها، في الدنيا والآخرة، إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشرّ:

---

15 - فمعنى إكمال الدين لله هو إكمال المسلمين خضوعهم و استسلامهم لله جلّ وعلا، أي إكمالُ تنفيذٍ => وتحقُّقٍ في واقعهم، وليس إكمال التشريع بمعنى انتهاء نزول الأحكام فقط، بل يقتضي معه أيضاً أن يكون السلطان للمسلمين، كما تُشير إليه الجملة الأولى: (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ)، ويبينه قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة33/الصف9،، فـ "إكمال الدين" لله هو: جعل العبادة كلها خالصة لله وحده (إخلاص الدّين لله). وله ركنان: إكمال التشريع، أن يكون السلطان للمسلمين.

16 - الخاصية التي ميَّز الله تعالى به الإنسان عن الجن والملائكة، أنه جعله الخليفة في الأرض؛ أي السيد=> المتصرِّف فيها وصاحب الصلاحيات الواسعة. الأمر الذي اقتضى تزويد الإنسان (بني آدم) بكل ما يلزمه - حسب تقدير الله - من قدرات وملكات عقلية ونفسية وجسدية وعلمية.. ومن تسخير لما في السموات والأرض له.. وسجود الملائكة له؛ في إشارة إلى مساعدته في خلافته.. كل ذلك حتى يتمكّن الإنسان من القيام بهذه المهمة الكبيرة والخطيرة؛ "الخلافة في الأرض".. وهي المؤتمن عليها بأن لا يستعمل ما آتاه الله من صلاحيات إلا في الإصلاح، أي في زيادة ما هو صالح وإعمار الأرض، وبحسب هدى الله وشريعته: (فإما يأتينَّكم مني هدى..).

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ الكهف: ٢٩ - ٣٠

﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ الزلزلة: ٧ - ٨

وهكذا، فإن حقيقة **"لا إله إلا** الله" بمجالَيْها الإثنين: **القدريّ** و **الشرعيّ**، وبوصفها "فكرة الرسالة"، هي الأساس الفكري والروحي لكل أمور **الدّين** أو **العبادة**؛ سواء ما بُني عليها من **أفكارٍ** (الإيمان) أو ما انبثق عنها من **أحكامٍ** وشريعة (الإسلام)، أو **دعوة** إلى عبادة الله أو **أمرٍ** بالمعروف **ونهي** عن المنكر، أو بيانٍ **لمصير** من آمن بها أو من أعرض عنها وأبى واستكبر..
فهي الأساس؛ لأن الإقرار بها يقتضي كل مجالات العبادة - الفردية والمجتمعية، أقوالاً وأعمالاً - من الإيمان والعمل الصالح والدعوة إلى الله؛ كما في سورة العصر.

فـ **لا إله إلا** الله هي الأساس في **تلقّي** الدّين: الرسالة مع بيانها من السنة، وفي **التعليم** والتزكية، **والتطبيق** وحمل الرسالة للناس، خطاباً وأعمالاً.. فهي زاوية النظر **الصحيحة** إلى رسالة الله ودين **الله تبارك وتعالى:**

﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ الأنبياء

أي "قُلْ أيها النبي لكل من تبلغه الرسالة: ما يوحَى إليّ من ربي إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد لا شريك له في مُلكه، ولا مناوئ له في سلطانه.. فأخلصوا العبادة لله على مقتضى الوحي"

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ ﴾ هود [17]..

17- إن الحقيقة اليقينية الكبرى؛ لا إله إلا الله هي الأساس لكل رسالات الله تعالى وشريعته التي أنزلها => على أنبيائه ورسله جميعهم، حتى خاتمهم محمّد، عليه وعليهم الصلاة والسلام، ذلك أن الله جلّ وعلا - وقد كرّم الإنسان - شاء له أن تكون قضيته المصيريّة ومحور وجوده وأساس حياته الدنيا؛ هي أن يُسيّر خلافته في الأرض وينظّمها بمنهاج الله وشريعته، فلا يقدّم العبودية والطاعة فيها إلاّ له وحده عزّ وجلّ: العبودية الشاملة والإسلام الكامل لله تبارك وتعالى (إخلاص الدين لله) - كما هي كل الكائنات - وهي الأمانة التي حَمَلها الإنسان، ومصيره في الدنيا والآخرة منوط بموقفه منها، فكانت حقيقة لا إله إلا الله هي الأساس لكل رسالات الله تعالى:{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ{92 }) **الأنبياء**،، {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ {52}) **المؤمنون**. أي: (وإنَّ دينكم - يا معشر الأنبياء - دين واحد وهو الإسلام، وأنا ربكم فاتقوني بامتثال أوامري واجتناب زواجري). {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء25.

الخلاصة من دلالة "لا إله إلا الله"..

[أغلب هذه الفقرة منقول بتصرف واختصار]

دلالة "لا إله إلا الله" في واقع الناس؛ أفراد ومجتمعات وأمم.. هي اعتقاد وحدانية الله لا شريك له في الخَلْق، والمُلْك، والسيادة، والحُكْم.. كما قال الله **تعالى**:

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ .. ﴿١٩﴾ ﴾ محمد: ١٩

ثم القيام بمقتضياتها من الطاعة والخضوع والتألّه؛ أي العبادة لله **تعالى** وحده؛ "إخلاص الدين لله".. كما في حديث رسول الله ﷺ لمُعاذُ ابن جبل:

(أَتَدْرِي ما حَقُّ الله علَى العِبادِ؟، قالَ: الله ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا به شيئًا، أتَدْرِي ما حَقُّهُمْ عليه؟، قالَ: الله ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: أنْ لا يُعَذِّبَهُمْ). **[صحيح البخاري 7373]**.

بمعنى تحرر الإنسان من الخضوع والطاعة لأي أحدٍ أو جهة كانت (الطاغوت).. والخضوع والاستسلام لله وحده؛ خالق الإنسان والحياة والأرض والسموات..

فأول واجب على الناس كافة ـ أفراداً ومجتمعات وأمماً ـ هو **العلم** بأنه "لا إله إلا الله" والقيام بما **يقضيه** من العمل (العبادة) وإخلاص العبادة: {فإياي فاعبدون.}.. وذلك، بإفراد الله وحده لا شريك له فيما يجب له وحده من الاستسلام والانقياد له **جلّ شأنه**، وذلك بدايةً؛ باعتقاد وحدانيته في القضايا الأساس التالية:

1- الخالقية كقوله **تعالى**: { ألا له الخلق والأمر.}

2- الربوبية: (ربّ العالمين.}

3- في أسماء الكمال والجلال: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}

4- المُلك: {ملِك الناس. إله الناس.}

5- الحُكم: {إن الحكم إلا الله.}

6- الطاعة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ}

7- الرهبة والخشية: {وإياي فارهبون}، {فلا تخشوا الناس واخشون.}

8- والأمر والولاية على خلقه؛ {ألا له الخلق والأمر}. ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ ﴾ الشورى: ٩

9- وأنه **جلّ شأنه** هو الوكيل: ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴿٢﴾ ﴾ الإسراء: ٢ ،،، ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ ﴾ المزمل: ٨ - ٩

فكما أوجب توحيده بكل ما سبق فقد حرم كذلك الإشراك به في كل ما سبق.

فكلمة "**إله**"، هي وصف يُطلق على كل **معبود** أو **يُتحاكَم إليه** أو **مُطَاع**.. سواء كان الله أو مَن هو مِن دون الله.. ومن هنا فكلمة "لا إله إلا الله" تعني: نفيٌ تام لكل هذه المعاني عن كل أحد وكل شيء (موجود).. وإثباتها لله وحده بلا شريك:

1- **المعبود؛**

{قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}..

وقد قال مشركو العرب حين تصدوا لدعوة الله: {أجعل الآلهة إلها واحدا.}

فكل معبود من دون الله سواء كان حجرا أو بشراً.. فهو إله من دون الله..

2- **المتبوع؛**

{اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين} أي المتَّبِعين غيره،

{اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء}،

{وتلك عادوا جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبّار عنيد}

والجبّار في لغة العرب المِلك والطاغية؛

{أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم}

فالقرآن سمّى الهوى إلهاً وذلك حين يتّبع الإنسان هواه، فقد جعل من نفسه إلها من دون الله.. فكل متبوع من دون الله سواء كان مِلكا أو عالِما أو هوى.. فهو إله من دون الله..

3- **المتحاكَم إليه؛**

{أفغير الله أبتغي حَكَما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا}، وقوله: {إن الحُكم إلا الله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه} ، وقوله: {يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِروا أن يكفروا به.}،

فالذي يُتَحاكَم إليه من دون الله، فهو إله من دون الله؛ أي "طاغوت"..

4- **المطاع؛**

{ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون}

والشِّرْك نقيض "إخلاص الدين لله"؛ والشياطين هنا هم شياطين البشر الذي يجادلون عن الباطل من الرؤساء و"العلماء"؛ فدل على وجوب إفراد الله وحده بالطاعة.. فكل مَن طلب الطاعة لنفسه من دون الله أو مع الله، فقد تعدّى حدّه وجعل من نفسه إلهاً.. أي "طاغوتاً"..

5- **الولي؛**

أي الناصر، والمتولّي للأمر والقائم به؛ والله جل شأنه مولى الخلق أجمعين، بمعنى أنه سيدهم ومالكهم وخالقهم ورازقهم ومعبودهم الحق، ومولى المؤمنين خاصة:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ الأنعام: ١٤

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ النساء: ١١٩

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الشورى: ٢٨

ومما يبيّن أن كلمة "**إله**" تطلق على "كل مَن تُبذَل له الطاعة، سواء بحق أم بباطل"، قول الله **تعالى** في قصة فرعون: {وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري}

وقال فرعون لموسى: {لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين}

وما أراد فرعون من موسى وبني إسرائيل إلا طاعته وعدم الخروج عن **سلطته** فكانت تلك هي "الإلهية" التي أرادها هذا الطاغية لنفسه؛ وهي الربوبية التي ادعاها في قوله: {أنا ربّكم الأعلى} أي هو السيد والمَلِك الذي له الطاعة عليهم، وهذه هي "العبودية" التي كان فيها بنو إسرائيل، كما في قول الملأ من قوم فرعون: {فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} أي خاضعون طائعون لا يخرجون عن سلطتنا..

فالإلهية التي ادعاها فرعون لنفسه، والربوبية التي انتحلها؛ هي **اتباع** أمره **وطاعته** وعدم الخروج عن **سلطانه**.. قال ابن جرير الطبري في تفسير: {فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون}، "يعنون أنهم مطيعون متذللون يأتمرون لأمرهم ويدينون لدينهم، والعرب تسمي كل من **دان** لملك **عابداً** له"..

فهذا هو معنى العبادة والعبودية في لغة العرب؛ فجاء الإسلام بإخلاص العبادة لله وحده، والكفر بعبادة كل ما سواه، ومن ذلك طاعة الهوى والشياطين؛ من الإنس والجن، والملوك والرؤساء ورجال الدين.. ووَصَمهم بـ "الطاغوت":

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ آل عمران

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ آل عمران: ٧٩ - ٨٠

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ التوبة: ٣٠ - ٣١

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ المائدة: ٥٩ - ٦٠

"وهنا نلفت الانتباه إلى أن هناك فرق بين معنى كلمة "الإله" و "الرَّب" عند اقترانهما أو افتراقهما في السياقات القرآنية المختلفة، إلا أنهما هنا يلتقيان بالمعنى؛ وهو السيد المُطاع أمره؛ المعبود"..

"وقد أكثر القرآن من تقرير وحدانية الله في مجاليها الاثنين: الخلْق والمُلْك، والحكْم والطاعة والسيادة والعبادة، وأن كل ما سوى الله مخلوق لله وعبد لله.. لبيان بطلان منازعة أي مخلوق، مثل الملوك والطغاة ورجال الدين.. له في شيء من خَلْقه، لشيوع هذا الشرك في المجتمعات الإنسانية كافة؛ ولهذا افتتح الله **تعالى** القرآن بقوله:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ **رَبِّ** ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ **مَٰلِكِ** يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ **نَعۡبُدُ** وَإِيَّاكَ **نَسۡتَعِينُ** ٥ ﴾ الفاتحة: ١ - ٥

كما ختمه بقوله:

﴿ قُلۡ أَعُوذُ **بِرَبِّ** ٱلنَّاسِ ١ **مَلِكِ** ٱلنَّاسِ ٢ **إِلَٰهِ** ٱلنَّاسِ ٣ ﴾ الناس: ١ - ٣

ليؤكد الحقيقة نفسها التي افتتح بها كتابه الكريم.. وإنما أكّد هذه المصطلحات الثلاثة: **رب، ملِك، إله**.. لِكَون الشرك فيها أظهر، والنزاع فيها أشهر، وآثارها على الإنسانية أشد وأخطر..

فقد كان وما زال الشرك في الربوبية والإلهية - عبادة الطاغوت - يتمثل في طائفتين:

الطائفة الأولى: الملوك والأغنياء الذي يدّعون مُلك الناس ويدّعون حق الطاعة عليهم وينازعون الله في هذا الحق.. وهُم الذين سماهم القرآن بـ "الملأ"..

الطائفة الثانية: "رجال الدين" من الأحبار والرهبان وعلماء السوء وسدنة السلطان؛ مراجع الباطل في كل ملة ونحلة..

ولطالما تحالف الفريقان في كل زمان ومكان".. مثل فرعون وقارون.. والملأ الذين كانوا يعارضون دائماً دعوة الرسل والأنبياء.. وكما في حالة الأباطرة ورجال الدين (الكنيسة) في أوروبا.. أما في العصر الحديث ففي أوروبا وأميركا أصبح أصحاب الشركات و رؤوس الأموال هم وحدهم الذين يدّعون مُلك الناس ويدّعون حق الطاعة عليهم، وينازعون الله في هذا الحق.. عن طريق "الدولة الحديثة" التي هي وسيلتهم لذلك..

لقد جاءت رسالة الله الخاتمة؛ القرآن الكريم.. لِتُبطل هذه الربوبية وتُقيم للناس الحنيفية السمحة، وتُعطّل الوثنية بكل أشكالها ورسومها وتُبطِل جاهليتها وعلومها.. الأمر الذي آمن به الجيل الأول المبارك من هذه الأمة الخاتمة، وعاشوه في حياتهم منهجاً، وحملوه للناس دعوةً لإنقاذ الإنسانية من الظلم والفساد.. كما قالها ربعي بن عامر **رضي** الله **عنه** مجيباً رستم قائد جيش الفرس في غزوة القادسية عندما سأله: ما جاء بكم؟

(قال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومَنْ أبى قاتلناه أبداً حتى نُفْضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى، والظفر لمَنْ بقي). **(البداية و النهاية ابن كثير /الجزء السابع).**

فـ لا إله إلا الله.. ولا ربَّ إلا الله.. ولا مَلِك إلا الله.. هذه الكلمات هي مفاهيم أساس، ولها دلالات في الواقع الإنساني وآثار.. ولبيان ذلك، نكمل استعراض ما بقي من مباحِث..

2- الغاية من إنزال الرسالة الخاتمة

إن الغاية الأصل التي من أجلها أنزل الله الرسالات كلها حتى الرسالة الخاتمة، هي **الهداية** للحق؛ أي إخراج الناس من الظلمات إلى النور.. من عبادة الطاغوت إلى عبادة الله وحده بلا شريك (إخلاص الدين لله):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ الحديد: ٩

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ... ﴿١٨٥﴾ ﴾ البقرة

أي، "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، هاديا للناس من الضلالة، وآيات واضحات مما يهدي إلى الحق من الأحكام، وبما يفرق بين الحق والباطل"..

وأصل الهدى؛ **العلم** بأنه **لا إله إلا** الله - كما بيّنا معناها بمجاليها الإثنين - مع بيان ما تقتضيه من الشريعة ومنهاج **العبودية** له وحده **عزّوجل**، أي بيان **الدّين** الذي رضيه الله **تعالى** للناس:

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ إبراهيم: ٥٢

أي "هذا القرآن الذي أنزلناه إليك -أيها الرسول- بلاغ وإعلام للناس؛ لكي يُنصَحوا ويُخَوَّفوا، ولكي يوقنوا - بِمّا ذُكِرَ فِيهِ مِنَ الأدِلَّةِ - أن الله هو الإله الواحد، فيعبدوه وحده لا شريك له، وليتعظ به أصحاب العقول السليمة"..

حتى يسيروا بحسبه في جميع مجالات حياتهم؛ بمعنى أن يمارسوا ويعيشوا **لا إله إلا** الله في حياتهم اليومية.. حتى "إخلاص الدين لله"..

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الجاثية

عندها يحقق الإنسان الحكمة من خلق الله له وتكريمه بجعله الخليفة في الأرض..

وقد أعلم الله **تعالى** هذه الحقيقة للثقلين؛ الإنس والجن، حين أهبطهم إلى الأرض:

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ البقرة

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ **يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى** فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الأعراف

فالهداية (الدلالة) إلى الحق متمثلةً بـ :

التذكير بأنه **لا إله إلا** الله؛ أي "لا معبود بحق إلا الله".. **وبيان** طريقة عبادته **جلّ وعلا**.. **وبيان** مصير مَن آمن واتبع ومصير مَن أبى واستكبر..

هي الغاية **الجامعة** والغاية **الأصل** لغيرها من الغايات من إنزال رسالات الله وكُتُبه للناس، بما فيها القرآن الكريم، إلا أن القرآن الكريم بوصفه رسالة الله الخاتمة للناس كافة حتى قيام الساعة.. خصّه الله **تعالى** بخواص على سائر كتبه ورسالاته، أبرزها:

- أن فيه الشريعة الكاملة، القادرة على تنظيم حياة الناس كافة، حتى قيام الساعة.
- أن الله **تعالى** تكفّل بحفظه بوصفه ذِكْراً؛ فالحفظ يشمل نصه وبيانه من سنة رسول الله.
- أنه هو نفسه الآية المادية (المعجزة) الدالّة على نبوة محمد ﷺ..

فالهداية إلى الله الحق، هي الغاية التي من أجلها جعل الله **تعالى** القرآن بجميع خواصه وأوصافه التي جعلها الله **تعالى** لكتابه وأطلقها عليه.

3- الغاية من إرسال الرسول الخاتم

أرسل الله **عزّوجل** رسوله الخاتم محمّد ﷺ، وجَعَل الحكمة من إرساله أن يكون رحمة للعالمين:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠٧

وهذه الرحمة تتنزّل على العالمين ويعيشونها فعلاً عندما تتحقق **الغاية من إرسال** الرسول الخاتم وإتمامه لمهمّته الأصل؛ المهمّة **الجامعة** لكل مهامّه وأعماله بوصفه رسولاً من الله **جلّ شأنه** [(18)] ألا وهي **تحقيق "الغاية** من الرسالة" في الواقع، أي؛ أن تكون عبودية الناس - أفراد ومجتمعات - خالصة لله وحده، وحسب شريعته الخاتمة؛ "إخلاص الدين لله":

﴿ الٓرۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلۡنَـٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ إبراهيم

واللام في "لتخرج" للغرض والغاية. والتعريف في "الناس" للجنس. والمعنى؛ "هذا القرآن كتاب أوحيناه إليك أيها الرسول، لتُخرج به البشر مما كانوا فيه؛ من الكفر والجهل **إلَى** ما صاروا إليه من الإيمان والعلم - بإذن ربهم وتوفيقه إياهم - **إلى** الإسلام الذي هو طريق الله الغالب المحمود في كل حال" **[انظر (فتح القدير) - الشوكاني]:**

---

18 - ومن مهام رسول الله في سياق تحقيق الغاية من بعثه: =>

- ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ الله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ [المائدة]
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الله فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧)﴾ [الأحزاب]
- ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)﴾ [النحل]
- ﴿..وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾ [النحل]
- ﴿لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾ [آل عمران].
- ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) ﴾ [النمل].

﴿.. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾ الطلاق

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ **مُصَدِّقٗا** لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ **وَمُهَيۡمِنًا** عَلَيۡهِۖ **فَٱحۡكُم** بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨ وَأَنِ **ٱحۡكُم** بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ المائدة

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ... ١٠٥﴾ النساء

فالغاية من **إنزال** الرسالة الخاتمة، ومن **إرسال** الرسول الخاتم بها، هي: إخراج الناس من الظلمات إلى النور.. من عبادة "الطاغوت" إلى عبادة الله وحده؛ وذلك بجعل الرسالة **الخاتمة** - فكرتها الأساس **لا إله إلا الله**، وما تقتضيه من أحكام **العبودية** لله؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة - حقيقة حية في المجتمع الإنساني وحاكمة عليه، كمنهاج حياة وطريقة عيش..

بمعنى، تعبيد الناس - أفراد ومجتمعات - لله وحده بجعل الطاعة والاستسلام له وحده بلا شريك، حتى يكون "الدين خالصاً لله"؛ أي عبودية **كاملة شاملة**: **كاملة**، بلا استثناء لأي حكم من أحكام الله.. **وشاملة**، لجميع مناحي الحياة الإنسانية:

﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ **فَٱعۡبُدِ** ٱللَّهَ **مُخۡلِصٗا** لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ **ٱلۡخَالِصُۚ**... ٣﴾ الزمر

﴿ فَاعْبُدِ اللهِ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾، أي (فاخشع لله يا محمد بالطاعة، وأخلص له الألوهة، وأفرده بالعبادة، ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكا، كما فَعَلَتْ عَبَدةُ الأوثان. ﴿ أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، أي (ألا لله العبادة والطاعة وحده لا شريك له، خالصة لا شرك لأحد معه فيها، فلا ينبغي ذلك لأحد، لأن كلّ ما دونه مُلْكه، وعلى المملوك طاعة مالكه لا مَنْ لا يملك منه شيئا). **[انظر تفاسير الطبري، السعدي، وابن كثير، والقرطبي].**

4- أمة خاتمة تخلف رسول الله الخاتم في مهمته

وبما أن القرآن هو **الرسالة الخاتمة** من الله إلى البشرية.. وأن محمّداً ﷺ هو **الرسول الخاتم**.. وقد توفاه الله تعالى وانتقل إلى الرفيق الأعلى..

فمَن يستمر بعده ﷺ في تحقيق الغاية من الرسالة؛ "إخلاص الدّين لله" أو "إكمال الدين لله"؛ أي جعل الطاعة والاستسلام لله وحده.. بأن يكون دين الله الخاتم؛ "الإسلام" هو منهاج حياة جميع

الناس وطريقة عيشهم.. أي أن "كلمة الله هي العليا" على الناس كافة.. مع الاستمرار ببلاغ رسالة الله الخاتمة إلى العالمين في كل زمان ومكان.. هدى ورحمة؟

إن **الطريقة العملية** - في تقدير الله **تعالى** - لجعل تلك **الغاية** من الرسالة **الخاتمة** حقيقة حيّة، والمحافظة عليها كذلك.. **هي**: إيجاد **أمة خاتمة**، تَخْلف رسول الله **الخاتم**، وتستمر من بعده في أداء مهمته الأساس؛ عبادة الله وحده وحمل رسالته للعالمين (إكمال الدين لله):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ الحج: ٧٧ - ٧٨

﴿ وَكَذَٰلِكَ **جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً** وَسَطًا لِّتَكُونُواْ **شُهَدَآءَ** عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ البقرة: ١٤٣

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ **أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران: ١١٠

هذا **ما كانت** عليه "أمّة المسلمين" يوم حُجَّة الوداع، **كما تركها** رسول الله ﷺ: على المحُجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.. وهي تمثِّل "**الحالة المعيارية**"، لمفهوم "إكمال الدين" أو "إكمال العبودية" لله (إخلاص الدين لله).. حيث يقول الله **تعالى**:

﴿ ..ٱلْيَوْمَ **يَئِسَ** ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ **أَكْمَلْتُ** لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ..﴿٣﴾ ﴾ المائدة

يبيّن الله **تبارك وتعالى** أن **إكمال الدّين**؛ هو **إكمال العبودية لله تعالى**، وحقيقة ذلك: أن الكفار قد **يئسوا** من تحوّل المسلمين عن عبادة الله **جلّ وعلا**؛ أي يئسوا أن يُطفئوا نور الله **تبارك وتعالى** والقضاء على دينه.. بإمارة أن دين الله **تعالى** قد **ظهَر** على الدّين كله؛ "كلمة الله هي العليا" في بقعة من الأرض؛ وهي جزيرة العرب، بحيث لا **يُحْتَكم** فيها إلا لشرع الله **تعالى**، وأن **كل** ما أمر الله **تعالى** به **نافذ** في حياة الناس.. تحقيقاً لوعد الله وسنته:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن **يُتِمَّ نُورَهُۥ** وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ **لِيُظْهِرَهُۥ** عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ

ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ التوبة [19]

ففي **اليوم** الذي **تمت** فيه الرسالة - أو كادت أن تتم - **وحياً** على قلب رسول الله، كانت قد **تحقّقت الغاية منها** وتمّت **وجوداً** في الواقع و**ظهوراً** على الدّين كله، و**كمُلت عبودية** المسلمين لله **تعالى**.. وذلك يوم حَجّ رسول الله ﷺ "حُجَّة الوداع" في السنة العاشرة للهجرة، وقد كانت أحكام الله **جلّ وعلا** النهائية التي بيّنتها آيات سورة التوبة والتي نزلت في موسم الحج السابق، أي في السنة التاسعة للهجرة، قد كانت - وسائر أحكام الشريعة - قيد **التنفيذ الفعلي** وعلى مستوى جزيرة العرب كلها، وكان منها **إنهاء ما تبقّى** من مظاهر الشرك في حياة الناس عامة.. وفي نُسك الحج خاصة.. وقد تحقّق ذلك فعلاً وواقعاً في السنة العاشرة للهجرة؛ في حُجَّة الوداع، فلم يحج مشرك ولم يَطُفْ بالبيت عريان.. إلخ.. ولم يجرؤ أحد من العرب على مخالفتها أو تحدّيها.. فقد يئسوا أن يُطفئوا نور الله **تبارك وتعالى** والقضاء على دينه.. وفي يوم عرفة من حُجَّة الوداع، نزل قول الله **تبارك وتعالى** واصفاً الحال الواقع:

﴿...ٱلۡيَوۡمَ **يَئِسَ** ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ **أَكۡمَلۡتُ** لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ...﴿٣﴾﴾ المائدة: ٣

فالمقصود بـ "**إكمال الدّين**" هو إكمال **خضوع** الأمّة **وعبوديتها** لله **جلّ وعلا**؛ أي إكمالُ **تنفيذٍ وتحقُّقٍ** للإسلام في واقعها؛ أي إكمال ظهور.. والذي من شروطه؛ إكمال التشريع، بمعنى **انتهاء**

19 - وجَعْل "كلمة الله هي العليا" أو "إظهار الدّين" أو "الدين كله لله" أو "إخلاص الدين لله" هي نفسها=> المهمة الأصل لجميع رسل الله حتى تكون العبودية لله تعالى حقيقة حاكمة لحياة الناس في جميع شؤونهم، يقول الله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ{25}) **الحديد**.
والمعنى باختصار من تفسير ابن كثير: ({لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات} أي: بالدلائل القاطعات {وأنزلنا معهم الكتاب} وهو: النقل المصدّق. {والميزان} وهو: العدل أو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة.. ولهذا قال في هذه الآية:{ليقوم الناس بالقسط} أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق. وقوله: {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد} أي: وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحُجَّة عليه؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة تُوحَى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد، وتبيان ودلائل فلما قامت الحُجَّة على من خالف، شَرَع الله الهجرة، وأمَرَهم بالقتال بالسيوف، وضَرْب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذّب به وعانده. وقد روى الإمام أحمد **[المسند (50/2)] وأبو داود [السنن برقم (4031)]** عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: {بُعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذِلّة والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبّه بقوم فهو منهم}. ولهذا قال تعالى:{فيه بأس شديد} يعني: السلاح كالسيوف والدروع.. ونحوها {ومنافع للناس} أي: في معايشهم كالفأس، والمنشار.. والآلات التي يُستعان بها في ما لا قِوام للناس بدونه، وغير ذلك. وقوله: {وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب} أي: مَنْ نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسله. {إن الله قوي عزيز} أي: هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض).

نزول الأحكام، فقد نزلت بعض الأحكام لاحقاً بعد نزول هذه الآيات، كما **ثبت** عند الطبري في الرواية عن ابن عباس [20]..

فمعنى إكمال الدين لله هو: إكمال الأمة دينونتها وعبوديتها لله، مع توفُّر الإرادة والقدرة على بلاغ رسالة الله للناس كافة.. ذلك ان إكمال العبودية لله، شرطه الأول: إتمام نزول أحكام الشريعة. والثاني: أن يكون السلطان والقوة للمسلمين على الأرض التي يستوطنونها (التمكين)، كما تُشير إليه الجملة الأولى: (ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ..)،

ويبينه الغاية من بعث الرسل بالرسالة؛ كما في قوله **تعالى:**

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الصف، التوبة

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ

﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ

بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ ﴾ الأنفال: ٣٨ - ٣٩

فـ "إكمال الدين" لله؛ هو: جعل العبادة كلها خالصة لله وحده (إخلاص الدّين لله):

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ **فَٱعۡبُدِ** ٱللَّهَ **مُخۡلِصٗا** لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ **ٱلۡخَالِصُۚ**... ﴿٣﴾ ﴾ الزمر

أي عدم الشرك بالله، فلا تكون الطاعة والإتباع إلا لأمر الله وحده بلا شريك في جميع شؤون حياة المسلمين وعلاقاتهم - وكذلك مَن هم تحت سلطانهم من غير المسلمين - كما بيّنها رسول الله على المستوى الفرد و المجتمع و الأمة:

﴿ إِيَّاكَ **نَعۡبُدُ** وَإِيَّاكَ **نَسۡتَعِينُ** ﴿٥﴾ ﴾ الفاتحة: ٥

أي - بوصفنا أمة مسلمة لك - نخصّك بالطّاعة والخُضوع، ونخصّك بالاستعانة على ذلك.

وعليه، فإن أخص خصائص أمة محمّد ﷺ - الخصيصة الجامعة - أنها "الأمة الخاتمة"، والمؤْتَمَنة على رسالة الله الخاتمة، والمكلّفة بالاستمرار في أداء المهمة الأصل لـ "الرسول الخاتم" الذي لا نبي بعده، ألا وهي: تحقيق العبودية الشاملة والكاملة لله وحده؛ "إخلاص الدين لله" من خلال **تطبيق** الرسالة على نفسها، **وحملها** للناس كافة بالجهاد؛ دعوة وقتالاً [21]..

---

20 - (وهذا الإكمال عند الجمهور هو: الإظهار واستيعاب معظم الفرائض والتحليل والتحريم) - ابن عطية. أنظر أيضا الطبري والبغوي والشوكاني. انظر كلام الطبري في هذا الجزء من الآية في تفسيره. وكذلك=> في الآية (3) من سورة الزمر.

21 - (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{39}) **الأنفال.** أي،(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا يكون شركٌ بالله، => وحتى لا يُعبد دونه أحدٌ، وتضمحلَّ عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكونَ العبادة والطاعة لله وحده دون غيره... وأما "الدين" الذي ذكره الله في هذا الموضع فهو العبادة والطاعة لله في أمره ونهيه.. عن الربيع:

فهذه هي **مهمة** "الأمة المسلمة" التي **وُجدت** من أجلها (الغاية من وجودها):

خلافة رسول الله في تحقيق "الغاية من الرسالة الخاتمة"..

وهذا **ما كانت** عليه "أمّـة المسلمين" يوم حُجَّة الوداع، **كما تركها** رسول الله ﷺ على المحُجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.. والتي - بخصائصها ومقوّماتها - تمثّل "**الحالة المعيارية**"، لمفهوم "إكمال الدين (العبودية) لله".. (إخلاص الدين لله)

ولكن ما هي خصائص "الأمة المسلمة" القادرة على تحقيق وصف "الحالة المعيارية" ؟.. وهل لها وصف شرعي منضبط؟

5- "الأمة المسلمة المكلّفة"

"الأمة المسلمة المكلّفة" هي: "الأمة المسلمة" **المخولة** شرعاً و**القادرة** على تطبيق جميع أحكام الإسلام - بما فيها الأحكام المتعلّقة بالسلطان - على جميع أفرادها؛ المسلمين ومَن هم في ذمتهم.. ولها مقومات لوجودها في الواقع؛ وهي أنها:

- ✓ أمة **مسلمة** لله وحده،
- ✓ **ممكَّن** لها على بقعة من الأرض، الأمر الذي **يقتضي**:

- أن لها **السلطان**، ومتمثلاً **بقيادة** عامة للأمة،

- وعندها **القوة الذاتية** الكافية لتحقيق ما سبق والمحافظة عليه.

وإليك البيان..

بداية ؛ إن المسلمين مكلّفون بجميع أحكام الإسلام (إخلاص الدين لله) إما بوصفهم **"أفراداً"** أو **"جماعة"** أو بوصفهم **"أمة"** كذلك.. إلا أن **أصل التكليف** بجميع أحكام الإسلام (إخلاص الدين لله) - سواء فروض الكفاية أو فروض الأعيان - يقع على عاتق الفرد المسلم الذي يُحقِّق شروط التكليف؛ من البلوغ والعقل والاستطاعة.. فالمسؤولية - في النهاية - هي "مسؤولية فردية":

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ الإسراء

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ مريم: ٩٥

وكما في حديث النبي ﷺ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

"ويكونَ الدِّينُ لله" يقول: حتى لا يُعبد إلا الله، وذلك "لا إله إلا الله"، عليه قاتل النبيُّ ﷺ وإليه دعا، فقال النبي ﷺ: "إنّي أمرتُ أن أقاتِل الناسَ حتى يَقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عَصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله"). **[تفسير الطبري (جامع البيان)، باختصار]**.

(أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) **[متفق عليه]**.

فالمسؤولية تقع على عاتق كل **فرد** من أفراد الأمة الإسلامية، هذا من حيث أصل **التكليف**..

أمّا من حيث **التنفيذ** في الواقع، فالأمر مختلف، فهناك أحكام مُنَاطٌ تنفيذها **بالفرد** (مثل الصلاة والصيام)..

وهناك أحكام مُنَاطٌ تنفيذها بـ "**الجماعة**" من المسلمين (مثل صلاة الجماعة وبعض فروض الكفاية) فإذا أقامه جماعة من المسلمين سقط عن باقي الأمة، وإذا لم تقم به جماعة أثمت الأمة جميعها.. حتى يُقام به..

وهناك أحكام أخرى (مثل إقامة الحدود، وأحكام النظام الاقتصادي) مُنَاطٌ تنفيذها بالأمة المسلمة.. لكن الأمة لا **يمكنها** تنفيذ مثل تلك الأحكام، ولا **يجوز** لها تنفيذها إلا بأن تكون **مُحقِّقة** لـ "شروط التكليف"، وهي الشروط التي تجعلها **مخوَّلة** شرعاً و**قادرة** على تنـفيذ جميع أحكام الإسلام والقيام بتطبيقها حتى "إكمال الدين لله"، والوصول إلى "الحالة المعيارية"..[(22)]

فكل **مُكلَّف** ـ الفرد والجماعة والأمة ـ له مجموعة (دائرة) معالجات وأحكام **أناطتها** الشريعة به، وهو **وحده** المسؤول عن تنفيذها.. ولا يُجزئ مُكلَّف عن آخر القيام بما هو مُنَاط به من أحكام ومعالجات شرعيّة إلا بدليل شرعيّ.. فلا يجوز للأفراد أو الجماعة من المسلمين القيام بتنفيذ الأحكام المناطة بالأمة؛ أي المناط **تنفيذها** بالأمة صاحبة السلطان.. إلا أن يحققوا كامل وصف "**الأمة المكلّفة**" بتنفيذها.. والوصف الشرعي لـ "الأمة المسلمة المكلّفة" له أركان يقوم عليها.. أو شروط له لا بد من توفّرها في المسلمين؛ وهي:

أولاً : أمة مسلمة لله وحده،

---

22 - ومن الأحوال والصفات للمسلمين التي لا يمكنهم تحقيقها إلا بوصفهم "أمة مكلَّفة" :

- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بالله..(١١٠)﴾ **[آل عمران]**
- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣)﴾ **[البقرة]**=>
- ﴿وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بالله هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾ **[الحج]**
- ﴿وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾ **[النور]**. والاستخلاف في الأرض للأمة لا يكون إلا بعد التمكين، أي بعد تحقيق وصف "الأمة المكلفة". المعاني البارزة في الاستخلاف هنا: السيادة، والقدرة على التصرّف، يبيّنه قوله سبحانه: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...{26}) **[ص]**. فالحكم بين الناس مترتب على كونه خليفة في الأرض أي ملكاً وسيداً عليها فله السلطة والحكم (التمكين). "فالخليفة عبارة عن المَلك النافذ الحكم، أي جعلناك أهل تصرّف نافذ الحكم في الأرض".

[أنظر (روح البيان) - الخلوتي، و(أضواء البيان) - الشنقيطي. وبحث (النصر والتمكين والاستخلاف.. للمؤمنين)].

"الأمة" هي: (كل جماعة يجمعهم أمر ما، إمّا دين واحد أو زمان أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر تسخيراً أم اختياراً) [23]..

فيُطلَق وصف **الأمّة** على الجماعة من الناس باعتبار **الأمر الجامع** لهم..

والأمر الجامع لجماعة المسلمين، هو كونهم مسلمين يحقّقون دلالات (مقتضيات) لا إله إلا الله في نظام حياتهم.. فهُم "أمة مسلمة لله".. فلا **تقبل** إلا **طاعة** الله وحده ولا تُشرك به شيئاً، ولا تتَّبع إلا الرسول الخاتم محمّد ﷺ في معيشتها وجميع شؤون حياتها؛ الداخلية والخارجية.. أي كونهم مسلمين "يخلصون الدين لله".. فـ "إخلاص الدين لله" مطلوب من كل المسلمين وهو من علامات الإيمان:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ البقرة

أي، "ادخلوا في الإسلام كله جميعًا لا تدعوا شيئًا من شعائره، وهذا هو المعنى الصحيح للآية، وهو الذي ينطبق على مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر.. لأن مقتضى الإيمان أن يقوم الإنسان **بجميع** الشعائر والأحكام، لا أن يأخذ ببعضها ويَدَع البعض) [24].

---

23 - المفردات - الراغب الأصفهاني. ويصدّقه قوله تعالى: (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم..{38}) الأنعام: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أمّة مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ{23}) القصص. => فالأمر الجامع الذي جعل من الجماعة الذين يسقون أمّة، هو كونهم رعاء. (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أمّة وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118}) هود. أي لم يكونوا أمّة واحدة، لأنهم ليسوا مجتمعين على دين واحد، وهو أصل الصفة الجامعة لهم. (وَمَا كَانَ النَّاسُ إلا أمّة وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا {19}) [يونس].. فلم يعودوا أمّة واحدة لاختلافهم في الأمر الجامع لهم؛ وهو هنا الملة أو الدين. لكنقد يكون هناك أمر جامع آخر لهم، عندها يوصفون أمة باعتباره، كاللغة أو اللون أو العِرْق أو القوم.. الخ: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ..(١٦٠)﴾ [الأعراف]. فكل سبط منهم أمة، مع أنهم باعتبار أبيهم إسرائيل عليه السلام، هم أمة بني إسرائيل.. أو يهوداً باعتبار آخر. فالأمة تُطلق على الجماعة باعتبار الأمر الجامع لهم.

24 - انظر تفاسير: ابن عثيمين، ابن كثير، القرطبي، والطبري حيث يقول - مختصراً: أي (ادخلوا في الإسلام كافة. فإن قال: فما وجه دعاء المؤمن بمحمد وبما جاء به، إلى الإسلام؟ قيل: الأمرُ له بالعمل بجميع شرائعه، وإقامة جميع أحكامه وحدوده، دون تضييع بعضه والعمل ببعضه. وإذا كان ذلك معناه، كان => قوله "كافة" من صفة "السلم"، ويكون تأويله: ادخلوا في العمل بجميع معاني السلم، ولا تضيعوا شيئًا منه يا أهل الإيمان بمحمد وما جاء به. فقد صرح عكرمة بذلك: من أن تأويل ذلك دعاء للمؤمنين إلى رَفض جميع المعاني التي ليست من حكم الإسلام، والعمل بجميع شرائع الإسلام، والنهي عن تضييع شيء من حدوده... فمعنى الآية: إن الله جل ثناؤه أمر الذين آمنوا بالدخول في العمل بشرائعالإسلام كلها، وقد يدخل في "الذين آمنوا" المصدِّقون بمحمد ﷺ وبما جاء به، والمصدّقون بمن قبله من الأنبياء والرسل، وما جاءوا به، وقد دعا الله عز وجل كلا الفريقين إلى العمل بشرائع الإسلام وحدوده، والمحافظة على فرائضه التي فرضها، ونهاهم عن تضييع شيء من ذلك، فالآية عامة لكل من شمله اسم "الإيمان"، فلا وجه لخصوص بعض بها دون بعض. وبمثل التأويل الذي قلنا في ذلك كان مجاهد يقول: (ادخلوا في الإسلام كافة، ادخلوا في الأعمال كافة)}. ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)﴾. أي: اعملوا

فالعبودية التي يريدها الله **تعالى** للناس، والتي يرضاها من الناس، ليست عبودية فرد أو أفراد (عبودية فرديّة) فقط، بل هي **"عبوديّة مجتمع"** و **"عبوديّة أمة"**، ذلك أن الناس لا يعيشون حياتهم الطبيعية أفراداً، بل قبائل وشعوباً ومجتمعات وأمماً.. بينهم علاقات دائمة ومتنوعة - اقتصادية واجتماعية وسياسية - ولهم قيادة مجتمعية، لها سلطان وبيدها قوة تُنظِّم حياتهم وعلاقاتهم بالنظام الذي ارتأوه لأنفسهم، وتَسيْر بهم - كمجتمع و كأمة - نحو تحقيق أهدافهم وغاياتهم وطموحاتهم المرجوة [25]..

هذه هي حقيقة حياة الناس على هذه الأرض وسنّة الله **تعالى** فيهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ..﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات: ١٣

فالضابط الأساس في وصف أي مجموعة من الناس، بالمجتمع هو: **العلاقات الدائمة** {لِتَعَارَفُوٓاْۚ} بين أفراد تلك المجموعة.

وعليه، فالعامل الرئيس الذي يُضفي على المجتمع المعيّن صبغته وصفته هو: **القوانين والتشريعات** التي **تنظّم** تلك **العلاقات** بين الناس بمجالاتها المتنوّعة، فهي التي تضبط حركة المجتمع وعلاقاته الداخلية والخارجية.. فينشأ المجتمع مطبوعاً بطابعها.. **فالقوانين** والتشريعات التي يتّبعها الناس ويخضعون لها هي **"الدين"** المُتّبع..

ومن هنا، فإن **"عبودية** المجتمع**"** تتمثّل **بخضوع** أفراده للقوانين والتشريعات النافذة **وطاعتهم** لها في تنظيم علاقاتهم وإدارة شؤونهم..

والجهة **المُطاعة** في المجتمع والتي تجعل القوانين نافذة وتعطيها الشرعية.. هي **الإله** المطاع **أمره** في هذا المجتمع:

﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ﴾ يوسف: ٧٦

(فِي دِينِ الْمَلِكِ): أي، لم يأخذ أخاه حسب شريعة الملك النافذة، أي حسب قانونه.. إنما أخذه حسب حكم شريعة الله المنزلة على يعقوب **عليه السلام**.. **[انظر مثلاً: تفسير الجلالين، و التفسير الميسّر]**

فالتشريعات التي **يُدين** لها الناس، أي يخضعون لها؛ هي **"الدين"** المُتّبع.. **والجهة** التي لها **الطاعة** هي **الإله**.

أيها المؤمنون بشرائع الإسلام كلها، وادخلوا في التصديق به قولاً وعملاً، ودعوا طرائق الشيطان وآثاره أن تتبعوها فإنه لكم عدو مبين لكم عداوته. وطريقُ الشيطان الذي نهاهم أن يتبعوه هو ما خالف حكم الإسلام وشرائعه، ومنه تسبيت السبت وسائر سنن أهل الملل التي تخالف ملة الإسلام).

25 - المجتمع هو: (منظومة مكونة من: الناس، والأفكار، والمشاعر، والقوانين، التي تتفاعل فيما بينها، وتوجهها القيادة المجتمعية في ضوء وجهة النظر في الحياة، نحو غاية كليّة تحددها وجهة النظر). **[أنظر "النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الاجتماعية والتربوية" د عبد القادر هاشم رمزي].** =>

وكلمة "مجتمع"، كمصطلح حديث، لم ترد في القرآن الكريم، إنما وردت كلمة أخرى مكافئة لها في المعنى، وهي القرية، وقد ترِد بصيغة الجمع: قُرى. وكذلك كلمة مدينة وهناك ألفاظ كثيرة وردت في القرآن الكريم تصف التجمّعات البشرية المختلفة؛ مثل: أمة، شعوب، قبائل، قوم، الناس، بني آدم، طائفة، فئة، حزب.. الخ.

وعليه، فـ "**عبودية المجتمع**" هي: **طاعة** مجموع أفراده و**خضوعهم** - في تنظيم علاقاتهم المتنوعة - لجهة أو مرجعية معينة، **فيتلقوا** منها؛ بوصفهم مجتمعاً، الأنظمة والتشريعات (**الدين**) لرعاية شؤونهم وتنظيم علاقاتهم الداخلية والخارجية.. فتكون تلك الجهة (المرجعية) هي "**الإله**" أو "**الربّ**" الذي يعبده المجتمع بطاعته واتباع أمره..

فإن كانت تلك الجهة (المرجعية) هي الله **جلّ شأنه وحده** بلا شريك، فالمجتمع - بوصفه مجتمعاً - **يُخلص** الدين لله **عزّ وجل**، فهو "مجتمع إسلاميّ".. وإن كان كثير من أفراده غير مسلمين..

أمّا إذا خضع المجتمع لأي "جهة" أخرى وتلقَّى أنظمته وتشريعاته (**دينه**) منها؛ من **دونَ** الله أو **مع** الله **جلّ شأنه**، فهو - بوصفه مجتمعاً - لا **يُخلِص** الدين لله **عزّ وجل**، فهو يعبد إلهاً غير الله أو يُشرك مع الله إلهاً آخر - **تعالى** الله عن الشريك - فهو "مجتمع جاهلي".. وإن كانت الغالبية العظمى من أفراده مسلمين.. لأن "**الكلمة العليا**" فيه ليست لله وحده بلا شريك.. "مرجعيته" ليست دين الله وحده.. أي أن الأمر النافذ فيه ليس أمر الله وحده **سبحانه وتعالى** عن الشريك.. فالعبرة في وصف المجتمع هو: الكلمة العليا، لمَن؟.. فإن كانت كلمة الله هي العليا، فهو مجتمع إسلامي [26].

وعليه، فالشرط الأَوليّ (الأساس) حتى يكون المسلمون "أمة مسلمة".. من حيث الأمر الجامع؛ هو أنهم لا **يقبلون** إلا **طاعة** الله وحده ولا يشركون به شيئاً.. ولا **يقبلون** إلا **اتباع** رسول الله الخاتم محمّد ﷺ في نظام حياتهم و**صياغة** أفكارهم ومشاعرهم، **ورعاية شؤونهم** كلها الداخلية والخارجية.. وأن هذا هو المعنى الحقيقي والواقعي لشهادة أنه "**لا إله إلا** الله **محمد رسول** الله".. والتي هي **راية** المسلمين **وشِعارهم..**

وهذا يقودنا مباشرة إلى الركن (الشرط) الثاني ومقتضياته..

ثانياً: أن تكون هذه "**الأمة المسلمة**" **ممكَّن** لها في الأرض، الأمر الذي **يقتضي**:

- ✓ أن لها **السلطان**، ومتمثلاً **بقيادة** عامة للأمة،
- ✓ وعندها **القوة الذاتية** الكافية لتحقيق ما سبق والمحافظة عليه.

---

26 - الحكم على "المجتمع" بأنه "إسلاميّ" أو "جاهليّ"، يكون حكماً عليه بوصفه مجتمعاً، وليس حكماً <= على أفراده. فلا يلزم من الحكم على المجتمع إطلاق نفس الحكم على الأفراد والأعيان من حيث إيمانهم وكفرهم، لا حكاماً ولا محكومين. ذلك أن "الجاهليّة" كما يُفهم معناها من القرآن والسنة، هي: وصف يُطلَق على كل نظام للحياة غير نظام الله، أي غير دين الله وشريعته، ودين الله الخاتم هو الإسلام، فأي نظام غيره هو الجاهليّة. لهذا فمصطلح "الجاهليّة"، يُطلق على كل فترة تسبق مبعث نبي من الأنبياء، حيث انحرف الناس عن دين الله وبعدوا عن شريعته؛ فالكلمة العليا ليست لله وحده جلّ وعلا، كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية) **[سنن الترمذي ٣١٦٨ - حسن صحيح]**. وفي الحديث الشريف: (أَلَا كلُّ شيءٍ مِن أمرِ الجاهليَّةِ تحتَ قدَميَّ موضوعٌ) من خطبة رسول الله في حُجَّة الوداع **[عن جابر - صحيح ابن حبان ٣٩٤٤]**. فالجاهليّة هي: كل نظام للحياة غير دين الله وشريعته الخاتمة؛ الإسلام. هذا، وعندما ننظر إلى "جاهلية الحضارة المعاصرة، فلن نجد كبيرةً واحدةً اقترفتها الجاهلياتُ القديمةُ واستحقت بسببها العذاب؛ إلا وتقترفها هذه الجاهليةُ المعاصرة أو تُقَنِنها أو تُجبر الناس عليها.. إنَّ الجاهليات القديمة لتتقاصرُ بشاعتُها عن بشاعة جاهليتنا هذه"!!

فلا بد أن يكون المسلمون - بوصفهم "أمة مسلمة" - **مُمَكّن لهم** في بقعة من الأرض [27].. وعلامة التمكين أن يكون لهم **سلطان** على تلك البقعة من الأرض، ومتجسّد في **"إمارة عامة"**.. وذلك بأن يبايعوا - بوصفهم مسلمين - مَنْ ينوب عنهم في رعاية شؤونهم كلّها بشريعة الله، وقيادتهم في حمل رسالة الله للعالمين بالجهاد؛ دعوة وقتالاً.. على أن يحقق الشروط الشرعية لتلك النيابة أو الوكالة، وهو "أمير المؤمنين" أو "الخليفة" أو "وليّ الأمر الشرعيّ".

وبـهما: **"الإمارة** العامة"، **والسلطان** على بقعة الأرض التي تعيش عليها **الأمة المسلمة**، تستطيع جعل **السيادة** لدين الله **تعالى** فيها (كلمة الله هي العليا)، ثم تكون **قادرة** على السير لـ "إكمال الدين" لله **عزّ وجل** (إخلاص الدين لله):

﴿ ٱلَّذِينَ إِن **مَّكَّنَّٰهُمۡ** فِي ٱلۡأَرۡضِ **أَقَامُواْ** ٱلصَّلَوٰةَ **وَءَاتَوُاْ** ٱلزَّكَوٰةَ **وَأَمَرُواْ** بِٱلۡمَعۡرُوفِ **وَنَهَوۡاْ** عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج

﴿ **هُوَ** ٱلَّذِيٓ **أَرۡسَلَ** رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ **لِيُظۡهِرَهُۥ** عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة: ٣٣

فبواسطة **الإرادة الجازمة**، الناشئة عن **اليقين** بالحقائق الكبرى؛ لا إله إلا الله محمد رسول الله واليوم الآخر والقدَر خيره وشره من الله **جلّ وعلا**..

و **بالقوة والقدرة الكافية**، الملازمة **للسلطان** المتمثّل بـ **"الإمارة العامة"**.. **بهما** معاً.. تستطيع الأمة جعْل **"كلمة الله هي العليا"**، حينئذ تحقِّق الأمة المسلمة شروط التكليف، فتوجَد **"الأمة المكلّفة"**..

وتلك **القوة** الكافية والملازمة **للسلطان**، لها مجالات اربعة:

- ✓ المجال **المادي** (الماليّ والعسكريّ): ينبغي أن تكون القوة المادية **ذاتية** في المسلمين؛ أي بقدراتهم الذاتية ودون مشاركة فعّالة من غير المسلمين، وهذا من لوازم التمكين، أي من لوازم كون المسلمين مُمَكّنين في الأرض:

﴿ **وَأَعِدُّواْ** لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ **تُرۡهِبُونَ** بِهِۦ **عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ** وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ.. ﴿٦٠﴾ ﴾ الأنفال

"فالمسلمون مكلّفون - بأقصى استطاعتهم - أن يكونوا أقوياء وأن يحشدوا من أسباب القوة، حتى يكونوا مَرْهُوبي الجانب من قِبَل أعداء الله الذين هم أعداء المسلمين في الأرض؛ سواء الذين يعلمهم المسلمون أو مَنْ وراءهم ممَّن لا يعرفونهم.. ولتكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله" [28].. وتحقيق هذه الأغراض المقصودة من إعداد القوة، تقتضي أن تكون القوة

---

27 - المعنى المحوري لكلمة التمكين: (مكّنه من الشيء، ومكّن له: جعل له عليه سلطاناً وقُدرة.. فيحمل معاني الرسوخ والثبات مع قدرة). {وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم} **[النور:56]. [أنظر (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمد حسن حسن جبل].**

28 - (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة).. "فهي حدود الطاقة إلى أقصاها. بحيث لا يقعد المسلمون عن إعداد سبب من أسباب القوة على اختلاف صنوفها وألوانها، يَدخل في طاقتهم. كذلك يشير النص إلى الغرض

اللازمة لجعل كلمة الله هي العليا وللمحافظة عليها كذلك، بقدرات المسلمين الذاتية ودون أي مشاركة فعّالة من غير المسلمين، لأن تلك القوة إذا كانت من جهة أخرى، فقد تمنعها عنهم، فلا تبقى كلمة الله هي العليا، وهذا لا يجوز شرعاً..

- ✓ المجال **الفكريّ** و**الرُوحيّ** (الوعي والبصيرة، ورضوان الله هو غاية الغايات): الأمر الذي ينتج عنه؛ العزيمة الثابتة، والهِمّة العالية.. والتطلّع إلى معالي الأمور.. مترافقة مع الوعي على دين الله؛ سواء من حيث الإيمان أو من حيث الشريعة لمعرفة "المعالجات الشرعية" اللازمة.. والوعي على الواقع والأحوال الموجودة بها الأمة؛ لمعرفة "المعالجات السننية" المناسبة.. واتخاذ المواقف على أساس "النظرة الإيمانية" للواقع..
  ومن هنا، فهذا المجال هو الأهم والأخطر؛ فهو الأساس الذي يقوم علي باقي المجالات.. فهو أصل **الإرادة** الجازمة والقوة الدفعة، لإيجاد **القدرة** اللازمة في باقي المجالات..
- ✓ المجال **المجتمعيّ** (أساسه الأخوة في الله)؛ تماسك الأمة كالبنيان المرصوص، "كمثل الجسد الواحد").. وولاؤهم لدينهم وأمتهم وقيادتهم الراشدة:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥ ﴾ النساء: ١١٥

- ✓ المجال **السياسي** : قيادة مؤهلة شرعاً وقدراً؛ واحدة قوية عالمة حكيمة..

وبعد ذلك.. فهذه "الأمة المكلّفة" ـ بخصائصها تلك، ومن خلال قيادتها ـ تستطيع السير نحو "**إكمال** الدين لله" أو "**إخلاص** الدين لله".. بتطبيق سائر أحكام الله.. حتى تصبح "أمة مسلمة" بكامل خصائصها ومقوماتها والوصول إلى "الحالة المعيارية"؛ أي تحقيق **الغاية** من الرسالة **والمحافظة** على ذلك حتى قيام الساعة، أي تحقيق خصائص ومقومات "الأمة المسلمة" كما تركها رسول الله ﷺ حين انتقل إلى الرفيق الأعلى..

الأول من إعداد القوة: (ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم).. فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء المسلمين في الأرض، سواء الذين يَعلَمهم المسلمون أو مَنْ وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم. وهؤلاء تُرهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد إليهم بالفعل". **[(في ظلال القرآن) - سيد قطب بتصرف].**
كما قال الله تعالى عن قارون: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا (٨٤) فَأَتۡبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾ **[الكهف]**،، أي، (ملّكه الله تعالى، ومكّنه من النفوذ في أقطار الأرض، وانقيادهم له. ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: أعطاه الله من الأسباب الموصِلة له لما وصل إليه، ما به يستعين على قهر البلدان، وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها على وجهها، فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادرا على السبب، فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقي والعمل به، حصل المقصود، وإن عُدِما أو أحدهما لم يحصل.) **تفسير السعدي.**
فكانت الأسباب؛ والتي هي القوة المادية.. مما آتاه الله، فقارون يملكها بيده، حينها استطاع تحقيق جميع أهدافه وغاياته.

وعليه، فالمسلمون بالنسبة **لتنفيذ جميع** أحكام الإسلام (إخلاص الدين لله)، من أحد الاحتمالين؛ إما أنهم **محققون** للوصف الشرعي لـ "الأمة المسلمة **المكلّفة**"؛ أي المخولة بتنفيذ جميع أحكام الاسلام.. أو أنّهم **غير محققين** ذلك:

فإنْ كانوا **غير محققين،** فـ "الأمة **المكلّفة"** غير موجودة، لذلك فإن جميع الأحكام الشرعيّة المُناط **تنفيذها** بها - وهي الأحكام المناطة بالسلطان - تبقى **معلّقة** دون تنفيذ في الواقع حتى يوجَد **المكلّف** بتنفيذها، أي حتى توجَد "الأمة المكلّفة" بوصفها الشرعي [29]..

وبما أن الفرض الأساس (الأوليّ) على المسلمين، هو "إخلاص الدين لله".. فيصبح الفرْض المطلوب أو "فرض الوقت" [30] في حق المسلمين هو أن يعملوا - في مجتمع ما - على تأهيل أنفسهم حتى يحققوا مقومات "الأمة المكلّفة" بوصفها الشرعي.. وبالطريقة الشرعية؛ أي حسب "منهاج النبوّة" لهذه المرحلة.. وهو فرض عين على كل "مسلم مُكلَّف" حتى يتحقَّـق الأمر في الواقع، أي أن توجد "الأمة" التي تحقق شروط التكليف..

وبعد أن توجَد "الأمة"، تبدأ في تنفيذ سائر أحكام الإسلام حتى تحقيق الغاية من الرسالة؛ إخلاص (إكمال) الدين لله والوصول إلى "الحالة المعيارية".

أما إن كان المسلمون **محققين** الوصف الشرعي لـ **"الأمة المكلّفة"**.. فيصبح الفرْض على المسلمين؛ أفرادا وجماعة وأمة، هو إكمال السير قُدُماً بوصفهم أمة - وبحسب "منهاج النبوّة" لهذه المرحلة، ودون أدنى تأخير - نحو تحقيق الغاية من الرسالة؛ "إكمال الدين لله" والوصول إلى "الحالة المعيارية".

---

29 - هذه المسألة تدخل في إطار مبحث: ضوابط "تعليق العمل بالحكم الشرعيّ" أو "وقف العمل بالحكم=> الشرعيّ" من أصول الفقه، انظر مثلاً كتاب: (الضوابط الشرعيّة لوقف العمل بنصوص القرآن والسنة) - د عزت روبي مجاور سليم الجرحي. ومن أهم تلك الضوابط: لزوم تحقق شروط وأسباب الحكم الشرعي، وانتفاء موانعه. ومنها ما هو متعلّق بالزمان (الوقت) أو بالمكان أو بوجود ذات المكلّف - فرداً أو جماعة أو أمة - أو متعلّق باستطاعته، أو بحاله أو صفته.. الخ. فهي - بشكل أساس - مما يدخل في "أحكام الوضع" (السبب، الشرط، المانع..). وفي سياق تنزيل الأحكام والمعالجات على الواقع المعيّن لا بد من الوعي والفهم العميق لـ "أحكام الوضع" من الخطاب الشرعي، لما له من تأثير مباشر على معالجة الأحداث والأعمال في وقتها ومرحلتها، المعالجة الصحيحة.

30 - فرض الوقت، هو("العبادة التي يحبها الله تعالى مقتضى الوقت المعيّن ووظيفته". فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، مِن صلاة الليل وصيام النهار، بل ومِن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن. والأفضل وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل. والأفضل في وقت السَّحَر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار).. **[انظر (مدارج السالكين) - ابن القيم].**

6- "الأمة المكلّفة" و "الدولة"

أركان "الأمة المكلّفة" أو مقومات وجودها في الواقع ـ كما بيّنا ـ هي، أنها:

- ✓ أمة **مسلمة** لله وحده،
- ✓ **ممكَّن** لها في الأرض، الأمر الذي يقتضي:
- ✓ لها **السلطان،** متمثلاً **بقيادة** عامة للأمة،
- ✓ وعندها **القوة** الذاتية والكافية لتحقيق ما سبق والمحافظة عليه.

و "**الدولة**" كمفهوم حديث، هو من مصطلحات الثقافة الغربية، وكان نتيجة الصراع الطويل والمرير الذي حصل في الغرب من بين "السلطة الروحية" وتمثلها سلطة الكنيسة متمثلة بـ البابا ورجال الدين.. والذين كان لهم تأثير كبير على "السلطة الزمانية" متمثلة بالملوك والأباطرة.. بل هي تعطيهم "الشرعية" للحكم.. وفي الجهة المقابلة، كان علماء الطبيعة والمفكرون والفلاسفة.. الذين كانوا يسعون للتحرر من عبودية الملوك ورجال الدين.. وذلك من خلال فصل سلطة الكنيسة أو "السلطة الدينية" عن "السلطة الزمانية".. وجعل الحُكم للشعب بعيدا عن الدين وعن الملوك.. أي "فصل الدين عن الحياة".. فخرجوا في النهاية بمفهوم "الدولة" أو "الدولة المدنية" على وجه التحديد في مقابل "الدولة الدينية" أو سلطة البابا والكنيسة، الذين يدَّعون بأنهم يحْكُمون أو يُعطون الشرعية لِحُكْم الملوك، بمقتضى التفويض الإلهي..

وفي المحصلة؛ فإن "الدولة" في اصطلاحهم لها ثلاثة أركان ـ بغض النظر عن الاختلافات في تعريفها عندهم ـ وهي:

- ✓ الشعب. (الأمة)
- ✓ الإقليم. (الأرض؛ البر والبحر والجو)
- ✓ السلطة السياسية. (الحكومة) [31]..

والأمة من الناس بالمفهوم اللغوي العام، هي **كيان اجتماعي** بين أفراده أمور مشتركة جامعة.. و"الأمة المسلمة" هي <u>كيان اجتماعي يجمعه الإسلام، كنظام حياة وطريقة في العيش</u>..

بينما "الدولة" ـ حسب بعض تعريفاتهم ـ هي **كيان اجتماعي وتنفيذي،** فهو يملك السلطة والقوة لتنفيذ التشريعات والقوانين على الشعب..

وعموماً، لا يوجد أمة أو شعب أو تجمُّع بشري إلا وله قيادة سياسية ـ بغض النظر عن تركيبتها وشكلها ـ تحرص على رعاية شؤون ذلك التجمُّع البشري (المجتمع) بالأعراف أو التشريعات السائدة بينهم بحسب مفاهيمهم ونظرتهم للحياة..

و"الدولة الإسلامية" هي مفهوم خاص من "الدولة" كمصطلح حديث..

---

31 ـ وهناك مفاهيم أخرى ناقشها مفكروا وفلاسفة الغرب والشرق، وهي متعلقة بمفهوم الدولة بشكل مباشر، مثل: السيادة (الكلمة العليا) ما تعريفها ولمن هي؟ وهل هي مطلقة أم مقيدة؟. الحكومة؛ وهل هي غير الدولة؟ ومَن له حق تشريع القوانين؟ مفهوم "الشعب" ومفهوم "الأمة".. الفصل بين السلطات في الدولة الديمقراطية.. إلخ من قضايا. **لتفصيل أكثر انظر مثلاً: (مبادئ علم السياسة) ـ أ. د حسن نافعة. و(مقدمة في علم السياسة والعلاقات الدولية) ـ د. هادي الشيب، د. رضوان يحيى .**

فيُمكِن التعبير عن التوصيف الشرعي لـ "الدولة الإسلامية": أنها **الأمة** المسلمة صاحبة **القوة والسلطان** على بقعة من **الأرض، والقادرة** على جعل كلمة الله هي **العليا**.. من خلال اختيار الأمة لـ "قيادة سياسية" ترعى شؤونها وتنفّذ إرادتها..

وحسب ألفاظهم: فإن "السيادة لدين الله" فقط.. و"الأمة المسلمة" هي صاحبة السلطان؛ "السلطان للأمة"..

فيمكن القول؛ بأن "الدولة الإسلامية"، هي: "**الأمة المسلمة** التي لديها **الإرادة** وعندها **القدرة** على تنفيذ ما ينبثق عن مفاهيم "الإيمان" وأفكاره من أحكام وتشريعات؛ "الإسلام"، من خلال اختيار "إمارة عامة" لها؛ الخليفة، ولي الأمر".

فالأمة المسلمة، هي صاحبة السلطان، وقد أعطته بالإنابة أو بالوكالة لمن رأته أهلاً ليرعى شؤونها بأحكام الله وشريعته.. أي، كقيادة عامة لها؛ تجعل **إرادة** الأمة موضع التطبيق.

فـ "**الأمة المكلّفة**" هي **المخولة** شرعاً بتنفيذ جميع أحكام الإسلام، وذلك: بأن يكون لها **سلطان** وقد تمثَّل ذلك السلطان **بقيادة سياسية**، هي "الخلافة" أو "إمارة المؤمنين".. والتي من خلالها تكون الأمة **قادرة** على القيام بمسؤوليتها تجاه "رسالة الله الخاتمة"؛ **بإنفاذ** جميع أحكام الإسلام على رعاياها؛ المسلمين ومَن هم في ذمتهم من أهل الأديان الأخرى.. وحمل رسالة الله بالجهاد؛ دعوة وقتالاً.. هدى ورحمة للناس كافة.. بل وللعالمين..

فأصل الأمر أن "**الأمة** المسلمة":

هي المكلّفة، و"المؤمنون" هم المخاطَبون بخطاب التكليف..

والأمة هي المسؤولة عن دين الله ـ ابتداءً ـ أمام الله **جلّ وعلا** عن دين الله، وتتحمّل النتائج في الدنيا والآخرة.. وهي صاحبة السلطان.. وليست "السلطة السياسة" أو "الحكومة" بوصفها "جهازاً تنفيذياً"..

و "السلطة السياسة" مسؤولة أمام الأمة وهي التي تحاسبها.. والجميع مسؤول أمام الله **عزّ وجلّ**..

لهذا، نجد أنه بعد "التمكين" للمسلمين والسلطان في المدينة المنورة، وإعلان رسول الله عن ميلاد "الأمة المسلمة"، أصبح الأصل في خطاب التكليف الإلهي (الأمر الشرعي) ـ لـ "أمة المؤمنين" ـ خطاباً لهم **بالوصف الجامع**؛ وصف الإيمان: (يا أيها الذين آمنوا..).. فهذا ليس خطاباً خاصاً بالقيادة السياسية أو الحكومة.. بل هو خطاب للمؤمنين بوصفهم "أمة من دون الناس"..

وكان هذا الخطاب هو الأصل في نشوء مفهوم "فرض الكفاية" عند أئمة الفقه..

فالأمة هي المكلّفة في الأصل، وليس "الخليفة أو أمير المؤمنين"؛ بوصفه السلطة السياسية، والوكيل عن الأمة، وهو مسؤول أمام "الأمة"؛ بوصفها صاحبة الوكالة.. والكل مسؤول أمام الله **جلّ وعلا**.. في الدنيا والآخرة.. وفي نهاية الأمر، فالمسؤولية "مسؤولية فردية"..

فواقع الخليفة والجهاز الإداري (السلطة السياسية) ما هم إلا وكلاء عن "الأمة المكلّفة"**: الأمة** المسلمة، **الممكَّن** لها في الأرض، وصاحبة **السلطان**..

فهُم يشكّلون "الجهاز التنفيذي" **لإرادة** الأمة.. وسلطانهم من سلطان الأمة، فما هم إلا وكلاؤها في تنفيذ أحكام الله عليها، ورعاية شؤونها بحسبها..

لذلك، لو أن مَن وكّلته **الأمة** (الخليفة، أمير المؤمنين) خالَف موضوع الوكالة: تنفيذ أحكام الله وشريعته على الأمة ورعاية شؤونها بحسبها، فمن **حق** الأمة بل من **واجبها** - إذا رأت كفراً بواحاً - أن تخلع هذا "الجهاز التنفيذي" وتضع غيره..

وقد تقرَّر أصل ذلك في ضمير الأمة المسلمة في عهد النبوّة.. أنه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" وفي "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وفي قول الحق "وأن لا يُخشى في الله لومة لائم"..

وفي عهد الخلافة الراشدة؛ أبو بكر رضي الله عنه ومَن بعده الخلفاء الراشدون، أكّدوا هذا المعنى وأظهروه، حيث قال الخليفة الأول لرسول الله في الأمة، في خطبته:

{..أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم}..

ومن هنا، فـ "الأمة **المكلّفة**" هي الأمة التي حققت "شروط التكليف" المذكورة آنفاً.. وهي وحدها **المخولة** شرعاً بتنفيذ **جميع** أحكام الإسلام؛ بما فيها الأحكام المتعلقة بالسلطان.. وذلك من خلال توكيل مَن تراه مناسباً ويحقق شروط الوكالة..

فـ "الأمة **المكلّفة**"؛ هي كيان اجتماعي تنفيذي، بما لديها من إرادة وقدرة..

إرادة نشأت عن مفاهيم الإيمان.. **وقدرة**؛ مادية وروحية.. أوجدت لها **سلطاناً** على الأرض.. وتمثّل هذا السلطان **بقيادة** سياسية..

و "دار الإسلام" هي الأرض والناس الخاضعون لسلطان الأمة الممكّنة في الأرض؛ أي "الأمة المكلّفة".. فهي الدار التي فيها كلمة الله هي العليا.. ويقابلها "دار الكفر" أو "دار الحرب"..

[لتفصيل أكثر ،انظر مثلاً، كتاب (العبرة بما جاء في الغزو والشهادة والهجرة) - صدّيق بن حسن القَنوجي]

ومن هنا، يمكن اعتبار **"الأمة المكلّفة"** كمصطلح، هو البديل الشرعي لمفهوم "الدولة" كمصطلح غربي؛ فهو مصطلح أكثر مناسبة وملائمة لأفكار الإسلام والثقافة الإسلامية.. وأكثر مطابقة للواقع الشرعي لـ "الأمة المسلمة" من حيث التكليف بالأحكام الشرعية وصلاحيات تنفيذها.. ومن حيث واقع الأمة ودينها؛ فلا يوجد في ديننا مفاهيم: "رجال الدين"، "الكهنوت"، "السلطة الروحية" أو "السلطة الزمانية".. ولا "الدولة الدينية" أو "الدولة المدنية".. وليس في ثقافتنا أي صراع بين "الدين" و "العلم".. الذي كان هو البيئة أو الأرضية التاريخية والثقافية لمفهوم "فصل الدين عن الحياة".. الذي تبلور في فكرة "الدولة المدنية".

فلا بد من ملاحظة خصوصية الإسلام في مصطلحاته، سواء الشرعية منها أو الفكرية عموماً.. والانتباه إلى خطورة المصطلحات الواردة من الثقافات الجاهلية (غير الإسلامية).. ومراعاة الدقة في تناولها وبيان مدى انسجامها مع ثقافتنا وديننا.. فهناك قاعدة جليلة قررها رسول الله ﷺ بقوله:

{من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو ردٌّ} (32)

---

32 - رواه البخاري ومسلمٌ عن عائشة، قال ابن حجر العسقلاني: (هذا الحديث معدود من أصول الإسلام، وقاعدة من قواعده، وقال: يصلح أن يسمى نصف أدلة الشرع). **[فتح الباري - 5/ 357 ح 2697]**. قال السعدي: (هذان الحديثان العظيمان يدخل فيهما الدين كله، أصوله وفروعه، ظاهره وباطنه، فحديث عمر: {إنما الأعمال بالنيات..} ميزان للأعمال الباطنة، وحديث عائشة ميزان للأعمال الظاهرة، ففيهما الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول، اللذان هما شرط لقبول كل قول وعمل، ظاهر وباطن، فمن أخلص أعماله =>

ومن هنا، ولِما في لفظة "الدولة" من إجمال أو إشكال سنعتمد - خلال هذا البحث - الألفاظ الواردة في القرآن أو السنة بدل منها، مثل ألفاظ: "السلطان" أو "الأمة المكلّفة"..

النتيجة: "الأمة المسلمة" هي الأصل في التكليف والتنفيذ، وأنها صاحبة السلطان.. وأن تكون "كلمة الله هي العليا" (السيادة لدين الله)..

وأن "السلطة السياسية" إنما هي "جهاز إداري"، مهمته؛ الوكالة عن الأمة المسلمة في تنفيذ "إرادتها"، بتطبيق شريعة الله عليها ورعاية شؤونها بحسبها..

أي، حتى تستطيع الأمة "إكمال الدين لله" و "إخلاص الدين لله":
بتطبيق جميع أحكام شريعة الله على رعاياها؛ المسلمين وأهل ذمتهم،
وحَمْل القرآن الكريم كرسالة من الله إلى العالمين؛ هدى ورحمة..

أي قيامها بالمهمة التي وُجِدَت من أجلها.. والوصول إلى "الحالة المعيارية".

رابعاً : كيف كان تلقي رسول الله الرسالة وسيره بها، حتى وُجِدَت "الأمة المكلّفة"، وتحقّقت الغاية من الرسالة؟

1- تنزيل القرآن على قلب رسول الله، كان مفرّقاً

تنزيل القرآن الحكيم على قلب الرسول الكريم كان على كيفية قدّرها الله؛ الحكيم العليم:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ ﴾ النمل: ٦

وقد كان تنزيل القرآن الكريم من الله **جلّ جلاله**، على كيفيتين اثنتين**:**

بدايةً، **أُنزل** القرآن الكريم جملة واحدة، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا..

والثانية، **تنزيله مفرقاً** شيئًا بعد شيء وعلى **مُكث** مقصود، من السماء الدنيا على قلب رسول الله ﷺ.. كما ثبت عند ابن كثير، حيث قال:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذلك في عشرين سنة، ثم قَرَأَ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾ **[الإسراء: 106]** هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ)) [33]..

وأخرج الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً عن ابن عباس قال:

(نزل القرآن **كله جملة واحدة** في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن

لله متبعاً في ذلك رسول الله ﷺ فهذا الذي عمله مقبول. ومن فقد الأمرين أو أحدهما فعمله مردود).
[(بهجة قلوب الأبرار - ص 13). المكتبة الشاملة].

33 - فضائل القرآن. وعلّق الناشر{مكتبة ابن تيمية} بقوله: (وأخرجه النسائي في "الفضائل" "14، 15"، وابن أبي شيبة "10 - 533"، والطبري في "تفسيره" "15/ 119، 30/ 166"، والحاكم "2/ 222" من طرقٍ عن داود بن أبي هند بسنده سواء. وقال الحاكم: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبيّ؛ وهو كما قالا).

يُحدث في الأرض شيئا **أنزله منه** حتى **جَمَعه)** **(34)**.

وقد فرّق الأداء القرآني بين تلكما الكيفيتين من خلال التعبير عن كل كيفية منهما بكلمة مختلفة عن الأخرى، وهما: كلمة (**أنـزل**) وتصريفاتها، وكلمة (**نَـزّل**) وتصريفاتها، فـ **الإنزال** غير **التنزيل** في التعبير القرآني في وصف نزول آيات القرآن الكريم **(35)**.. حيث جاء:

- **نزّل**، لِيدل على ما نزل مفرّقاً على دُفُعات، ومنه تنزيل القرآن على قلب الرسول.

- **أنزل**، ليدل على عموم التـنزيل، ومنه إنزال القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا.

فقوله **تعالى** في الآيات التالية :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾ القدر: ١

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ ﴾ الدخان: ٣

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ.. ۝١٨٥ ﴾ البقرة: ١٨٥

وردت تصريفات الفعل { **أنزل** } في الآيات الكريمة السابقة، للدلالة على أنه أُنزل جملة واحدة في ليلة القدر من رمضان، بقرينة الروايات السابقة عن ابن عباس، وبقرينة السياق كذلك، حيث (دلّ ظاهر هذه الآيات الثلاث أن القرآن الكريم أُنزل جملة في ليلة واحدة تُوصَف بأنها مباركة من شهر رمضان. وهذا وصف مغاير لصفة نزول القرآن الكريم على قلب رسول الله ﷺ، حيث إنه من المعلوم المقطوع به أن القرآن نُـزّل على قلبه منجماً مفرقاً في نحو ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث. فتعيّن أن يكون هذا النزول الذي دل عليه ظاهر الآيات، نزولاً آخر غير النزول المباشر على قلب النبي ﷺ) **(36)**.

فعندما يكون سياق الكلام في القرآن الكريم حول تنزيله على قلب الرسول الكريم **مفرّقـاً**، يرد الفعل { **نـزّل** } أو أحد تصريفاته للدلالة عليه، كما في قوله **تعالى:**

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ ﴾ الإسراء: ١٠٦

أي؛ وآتيناك - أيها الرّسول - قرآنًا بيَّناه وأحكمناه وفَصَّلناه **فارقًا** (فرقاناً) بين الهدى والضلال والحق والباطل؛ **لتقرأه** على الناس على مهل وتؤدة وتثبّت.

---

34 - أنظر (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) - حكمت بن بشير بن ياسين. وقال الزرقاني=> في مناهل العرفان: (وهي أحاديث موقوفة على ابن عباس غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ لما هو مقرر من أن قول الصحابي في ما لا مجال للرأي فيه، ولم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات، حكمه حكم المرفوع. ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة في السماء الدنيا، من أنباء الغيب التي لا تُعرف إلا من المعصوم، وابن عباس لم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات، فثبت الاحتجاج بها). هذا، ونذكّر أن بحثنا هنا لكيفية تنزيل القرآن، إنما هو من جهة دلالتها على المنهاج فقط، وليس كقضيّة إيمانيّة.

35- وكذلك في وصف نزول الملائكة. **أنظر التفصيل في (المفردات في غريب القرآن) . الراغب الأصفهاني.** وهذا في سياق الفهم الدقيق لدلالة ألفاظ القرآن الكريم.

36- (نزول القرآن والعناية به في عهد الرسول) لـ محمد بن عبد الرحمن الشايع.

(وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا) أي وكان الأمر أن نزّلناه على قلبك تنزيلاً، أي شيئًا بعد شيء، يعني مفرَّقًا لتتمكّن من قراءته على الناس على مكث [37].

وأيضاً في قوله تعالى:

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

النحل: ١٠٢

حيث جاءت الآية في سياق كشف تلبيس الكافرين والرد على شبهتهم حول تنزيل القرآن مفرقاً على قلب رسول الله، حيث لقّن الله **تعالى** رسوله أن يُبّين لهم قائلاً: إن القرآن من الله **جلّ وعلا**، وقد **نزّله مفرقاً على قلبي** الروح المقدّس الطاهر جبريل، ليحقق غاية عظيمة، ألا وهي:

{لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ }

فقال: (نزَّله) ولم يقل **أنزله** [38]، لأن سياق الكلام حول تنزيل القرآن على قلب الرسول الكريم ﷺ، مفرّقاً على دفعات كثيرة، والذي كان موضع شبهة الكافرين.

وهكذا عندما أوحى الله القرآن إلى رسوله ونزّله على قلبه، نزّله مفرّقاً على مكث، شيئاً بعد شيء في نحو ثلاث وعشرين عاماً، حسب الوقائع والأحداث.

2- **تنزيل القرآن على قلب رسول** الله، **كان "مرتلاً"**

التنزيل **المفرّق** للقرآن، على قلب رسول الله، كان له تنسيق وتنظيم مقصود؛ هو "**الترتيل**":

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ **وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا** ﴿٣٢﴾ ﴾ الفرقان

أي؛ وآتيناك أيها الرّسول ﷺ القرآن **كذلك**، أي **مفرقاً** وليس جملة واحدة، لنجعل قلبك **ثابتاً** على الحق **دائماً**.. (وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا) أي، وكان الأمر في تنزيل القرآن مفرقاً، أن رتّلناه ترتيلاً.. فجاء "الترتيل" **هيئةً** للتنزيل المفرق، فهو ليس أي **تفريق** بل هو **المرتّل**.. (وتنكير (تَرْتِيلًا) للتفخيم، أي كذلك نزّلناه ورتّلناه ترتيلاً بديعاً لا يُقادَر قدْره). **[أنظر تفسير أبو السعود]**

و الترتيل في اللغة؛ الأصل فيه: **التبيين**، بمعنى التميز وعدم الاختلاط، ويقتضي ذلك التنسيق والتنظيم وحسن التنضيد والتأليف.. ويكون ذلك في المُكوّن من أجزاء متفرقة..

كما جاء في لسان العرب لابن منظور (باختصار):

(رتل) الرتَلُ: حُسْن تَناسُق الشيء. وثَغْرٌ رَتَلٌ ورَتِلٌ حَسَن التنضيد مُستوي النباتِ وقيل المُفَلَّج وقيل بين أَسنانه فُروج لا يركب بعضها بعضاً..

ورَتَّلَ الكلامَ أَحسن تأْليفه **وأَبانَه** وتمَهَّلَ فيه.. وتَرَسَّل..

---

37 - (وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا): (التَّأْكِيدُ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنْزَلْنَاهُ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَلَوْ أَخَذُوا بِجَمِيعِ الْفَرَائِضِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ لَنَفَرُوا وَلَمْ يَطِيقُوا)، **[فتح القدير- الشوكاني. وأنظر تفسير ابن كثير، والسعدي، وغيرهما]**.

38 - و صيغة الفعل (نـزّل) تدل على التكثير، أي على دفعات كثيرة. كما سنبينه بعد قليل.

(ورتِّل القرآن ترتيلاً) بيّنه تبييناً عند قراءته، والتبيين لا يتم بأَن يَعْجَل في القراءة، وإنما يتم التبيين بأَن يُبَيِّن جميع الحروف ويُوفِّيها حقها من الإِشباع.. وفي صفة قراءة النبي ﷺ كان يُرَتِّل آية آية. وقوله **عزّ وجل** عن تنزيل القرآن: (وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا) أي **نزّلناه** على **الترتيل** وهو ضد العجلة، أي: التمكُّث فيه..

وفي المعجم الوسيط:
يقال [كصفة] رتَلُ الثغر أو الأسنان، منَضّد مستوي الأسنان..
(رتّل) الشيء؛ نسّقه و نظّمه. و(رتّل) الكلامَ أحسن تأليفه و جوّد تلاوته..

وعند أهل التفسير:
"المفسّرون مجتمعون على دلالة واحدة للترتيل في **التلاوة**، وهي: الترسّلُ والتبيين والتؤدة والتلبّث والتأنّي والتمهّل، وهي جميعها معانٍ متقاربة، والمقصود أنّ الترتيل ممارسة تُعين على تدبّر الآيات وحضور القلب أثناء التلاوة.. فربطوا معنى الترتيل هذا برسالة القرآن، فجعلوه وسيلة لتدبّر القرآن وتلقّي خطابه كما يليق به"..

فالترتيل: تنسيق وتنظيم وتنضيد المفرّق بشكل حسن، ليحقق غاية مُرادة..

فـ "الترتيل" في وصف **القراءة**، هو **هيئة** للقراءة، بأن تكون على مهل بأَن يُبَيِّن جميع الحروف والكلمات وتُوفِّى حقها من الإشباع : ﴿.. أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ **وَرَتِّلِ** ٱلۡقُرۡءَانَ **تَرۡتِيلًا** ﴿٤﴾﴾ المزمل

"فإنّ التَرْتِيلَ والتَّؤُدَةَ أَقْرَبُ إلى التوقير والاحترامِ، وأشَدُّ تأثيراً في القلبِ من الهَذرَمَةِ والاسْتِعْجَالِ.. فهو موجبٌ لتدبّر آياته فتُكشف له مهمّاته، وينجلي عليه أسراره وخفيّاته"

و"الترتيل" في وصف **تنزيل** آيات القرآن، هو **هيئة** للتنزيل المفرّق، فهو ليس أي تفريق بل هو **المرتّل**.. فـ **ترتيل** نزول القرآن، حقيقته: تنسيق وتنظيم تنزيله المفرّق بشكل حسن، ليحقق **غاية** مرادة:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا **نُزِّلَ** عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ **جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا** ﴿٣٢﴾﴾ الفرقان

وعليه، فإن **"الترتيل" في تنزيل** آيات القرآن هو**:**
الكيفية التي أرادها الله **جلّ وعلا** لتنزيل رسالته **مفرقة** على قلب رسوله الكريم، ليحقق غاية..
سنبيّنها في ما يلي.. ولكن قبل ذلك:

3- "ترتيل" نزول القرآن يعني "ترتيل" نزول الدّين.

ذلك أن "الترتيل" في تنزيل آيات القرآن يتبعه ـ بالضرورة الشرعيّة ـ "ترتيل السُّنة" لكونها بياناً للقرآن، وهذه بَدَهية شرعيّة.. فرسول الله ﷺ بوصفه **رسولاً** من الله **جلّ وعلا**، مأمور **بتبليغ وبيان** الذي **نُزّل** على قلبه من الرسالة، أولاً بأول:

﴿.. **وَأَنزَلۡنَآ** إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ **مَا نُزِّلَ** إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ النحل: ٤٤

فالرّسول ﷺ يُبيّن بالسّنة؛ قولاً وفعلاً وإقراراً، ما **نُزِّل** مفرّقاً على قلبه من القرآن **أولاً بأول**..

والبيان لا يكون إلا لِمَا تَـلقّى من الآيات؛ (مَا نُزِّلَ) على قلبه وليس لِمَا لمْ يُنـزَّل.. لذلك لم يقل: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ {ما أنزلنا}) أي جملة واحدة إلى السماء الدنيا.. فهو لا يعلمه فكيف يُؤمر ببيانه؟!

فرسول الله ﷺ لا يعلم من آيات القرآن إلا ما **نُـزّل** على قلبه، فيؤمر بتلاوتها على الناس وبيانها لهم، **ليعملوا** بما جاء فيها بعد أن يفقهوها ويعقلوها.

فأفعال **الرسول** وأقواله ومواقفه - أي السنّة ومنها السيرة - كانت **تدور** دائماً مع ما **نُـزّل من القرآن** وفي إطاره، تطبيقاً على واقعه الإنساني لمعالجته، **أولاً بأول**.. حتى **أكمل** الله دين (عبوديّة) الأمّة على يديه ﷺ.. فكانت أفعال **الرسول** وأقواله ومواقفه لا تتجاوز توجيهات آيات القرآن المباشرة أو إطارها العام، وحسب **ترتيل تلقيها** أثناء السير لتحقيق الغاية من القرآن، وإنْ حصل بعض منها "خلافاً للأَوْلى" نُـزّل قرآن ليصحّح ويوجّه.. فرسول الله أولى الناس بأن لا يخرج عمّا نُـزّل إليه من القرآن، بل هو أوّل المسلمين وإمام المتقين ﷺ.

ومن هنا، **فترتيل نزول** القرآن، **كان** يليه ويقترن به دائماً **ترتيلٌ للسنة** - قولاً وفعلاً وإقراراً - بحكم أنها بيانٌ له.. وهذا يؤدي بنا إلى حقيقة أخرى مفادها:

"إن ترتيل نزول **القرآن** هو ترتيل نزول **الدّين**"..

هذا، وبناء على هذه الحقيقة، يمكننا القول: إنه من **الخطأ المنهجي** النظر في السيرة النبوية ودراستها وفهمها مفصولة عن القرآن.. بمعنى أنه لا بد من الربط المتين والعضوي بين السيرة النبوية وبين القرآن الكريم عند البحث في طبيعة سير رسول الله بالرسالة وتتابعه السنني لمراحله وخطواته.. بل لا بد أن يكون القرآن هو الأصل في دراسة السيرة، وخاصةً عند محاولة فهم "منهاج النبوّة" وخط سير رسول الله في حمله رسالة الله ودعوته بقصد تحقيق الغاية من الرسالة في المجتمع..

ومن ذلك، ملاحظة سنن الله في الدعوة إليه وحمل رسالته إلى الناس، وطبيعة مواقف فئات المجتمع المختلفة من دعوة الله وحمَلَتها.. وأهمية معرفة وفهم أسباب النزول وربطها بالأحداث.. مع ملاحظة الحكمة من تتابع خطوات السير.. والوصول إلى معرفة ما هو ملزم لنا ومكلفين به من كل ما قام به رسول الله من قول أو فعل أو إقرار.. إلى غير ذلك ما ذكرناه في ثنايا مباحث هذا الكتاب.. ونذكّر أن هذا هو منهجنا الذي اعتمدناه هنا في البحث.

خامساً :"التلقّي المنهاجيّ" للآيات

أصبح من الواضح أن **تنزيل** آيات الرسالة - على قلب رسول الله - كان على هيئة "**الترتيل**".. وبالنظر في "ترتيل نزول الآيات" نرى أنه كان هو الطريقة التي تلقى بها رسول الله آيات القرآن الكريم، وبحسبها كان السير بها في المجتمع لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإيجاد أمة مسلمة لله وقد أكملت الدّين لله.. أي، أن "ترتيل نزول" الآيات كان يتضمَّن **طريقة** معالجة الأحداث والوقائع - شرعاً وقدراً - أثناء سير الرسول بالرسالة حتى **تحقيق** الغاية منها في الواقع الإنساني..

ومن هنا، فإن تحقيق **الغاية** من الرسالة ما كان إلا **بتلقي الآيات المُبيّنات مرتّلة**:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾ الحديد: ٩

فالفِعْلان المضارعان في (يُنَزِّلُ، لِيُخْرِجَكُمْ) يدلان على الاستمرارية، فباستمرار التنزيل المرتّل للآيات البيّنات، يستمر الخروج من الظلمات إلى النور.. أي أن مراد الله **تعالى** من التنزيل **المرتّل** لآيات القرآن على قلب عبده ورسوله، أن يخرجكم من الظلمات إلى النور..

لذلك لم يُنْزل الله **جلّ وعلا** على قلب رسول الله ﷺ القرآن (الدين) جملة واحدة، فذلك لا يحقق الغاية من إنزاله، في تقدير الله **تبارك وتعالى** وسُننه:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣ ﴾ الفرقان: ٣٢ - ٣٣

فبتلقي الآيات "**مرتلة**" كان تزكيةُ وتعليمُ الأفراد ليكونوا لَبنات صالحة في بناء الأمّـة المسلمة، خطوة بخطوة.. وفي نفس الوقت.. كان إزالة ما كان يستجدّ - أولاً بأوّل - من عوائق وعقبات فكريّة وماديّة، من شهوات وشبهات وكيانات، ومواقف "**المكر**" و "**الكيد**" (39) من الذين كفروا بأشكالهم وأنواعهم المختلفة:

(فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً). **[أخرجه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس]**

فـ "**الترتيل**" في نزول القرآن المجيد - في حقيقته - هو "تنسيق وتنظيم التنزيل المفرّق لآياته، لتلقيها وفهما، والسير بها، وحسب ضوابط معيّنة، وكل ذلك بقصد تحقيق الغاية من القرآن الكريم، والغاية من بعث الرسول به؛ إيجاد أُمّـة تَـعْبد الله وحده في جميع شؤونها، وتَحْـمل رسالته للعالمين.. أي، أمة "تُـكْمل دينها لله".. فـ "ترتيل نزول الآيات" هو تلقٍ لآيات الرسالة بشكل منهجي ليحقق غاية.. وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بـ "**التلقّي المنهاجيّ**" للآيات، وهو:

التلقي المفرَّق للآيات، حسب "**منهاج** السير" بالرسالة، بقصد تحقيق الغاية منها..

---

39 - (المكر): تدبير أمر في خفاء. فمجاله التخطيط، ومناقشة الأساليب والأعمال لاختيار الناجع منها.. كما=> في قوله تعالى في سورة **الأنفال**: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {30}) وكذلك الآيات من سورة النمل (48-52). وقد يكون المكر في الخير أو في الشر. فجاء وصف "المكر" في القرآن بأنه خير أو سيئ. وقد ذم الله تعالى المكر السيئ فقط، ولم يذم مطلق المكر، فقال تعالى في سورة **فاطر**: (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ{10}). (اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ..{43}).
أما (الكيد): مُعَالَجَة الشَيْءِ بشِدَّة. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْكَيْدُ، الْمُعَالَجَةُ (معجم مقاييس اللغة). فمَجاله التنفيذ أي القيام بالأعمال وتنفيذها في الواقع لتحقيق الغاية المرادة، وإلغاء تأثير (معالجة) المقاومة أو الممانعة التي تحُول دون تحقيق الغاية المرادة. فـ " الكيد " هو: القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تلجئ بها غيرك للخضوع لمرادك. كما في قوله تعالى عن إبراهيم الخليل: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ{57} فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ{58}) **الأنبياء**. لذلك وُصِف "الكيد" في القرآن - في إطار تحقيق المراد بأنه: متين، أو ضعيف، أو عظيم، أو أنه في تضليل أو في ضلال أي لم يحقق المراد. **[للتفصيل أنظر (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ) - حبنّكة الميداني. وانظر (الجزء الثالث) مصطلحات رسالية، مبحث (المكر والكيد)].**

فهذه هي الطريقة الوحيدة التي **تلقّى** بها الجيل الأول من الأمة المسلمة القرآن الكريم، وتعلّموه بها وفهموه (تعليم الكتاب)، وبها كان تزكيتهم وتعليمهم "الحكمة" وبناؤهم كأفراد ثم كأمة.. حيث أنهم أثناء سيرهم - مع رسول الله - بالرسالة في واقعهم حسب **"المنهاج"**، بلاغاً وبياناً واستقامة، كانت الآيات - أو السورة - تتنزّل لمعالجة الحدث (المناط) الحاصل معهم **فعلاً** في حينه وفي طوره ومرحلته.. حيث كان رسول الله ﷺ يُنـزّل تلك المعالجات على ذلك "المناط" ويعالجه بها.. فكان هذا التنزيل للآيات على "مناطها" حين حدوثه، هو البيان لتلك الآيات.. فهو "بيان عمَليّ".. فلم تكن هنالك حاجة لـ "التفسير" بمعنى الشرح والبيان بالكلام - بالشكل الذي عُرف لاحقاً - إلا في حدود ضيقة جداً، وبما يلزم لتحقيق "معالجة" الواقع وأحداثه (المناط) على الوجه الأكمل.. أي تغييره ليصبح كما يريد الله **تعالى**..

وهذا ما يعلل - بشكل رئيس - **ندرة** "الروايات التفسيرية" المرفوعة إلى رسول الله ﷺ، وكذلك **قلة** الروايات **الثابتة** المنسوبة للصحابة الكرام.. حتى المُكْثرين منهم كابن عباس وابن مسعود وابن عمر رضي الله **عنهم أجمعين**.. فلم يكن في زمانهم "تفسير للقرآن" بالكيف والكم الذي عُرف لاحقاً في القرون التالية للجيل الأول.. ذلك أن **"البيان العَمَليّ"** لِما كان يتنزّل من آيات الله أثناء السير بالرسالة حسب "المنهاج"، لمعالجة الواقع، بقصد تحقيق الغاية منها، كان هو **الطريقة الوحيدة** التي تَلقّى بها الجيل الأول من الأمة المسلمة القرآن الكريم، **والتي** تعلّموه بها وفهموه.. أي عن طريق **"التلقّي المنهاجيّ"** للآيات [40]..

وبـ **"التلقّي المنهاجيّ"** للآيات، كان تعليمهم "الحكمة": وهي **السنّة** الفعلية والقولية مع الأساليب والوسائل اللازمة.. بمعنى أنهم تعلّموا كيفية معالجة الواقع **بالكتاب**، أي كيفية تنزيل المعالجات الشرعيّة والسننيّة **اللازمة** على الواقع (المناط) **المعيّن**، وهذا هو تعليم الحكمة؛ وذلك في إطار عملية "التعليم والتزكية" الشاملة، التي هي من مهمات الرسول الأساس:

---

40 - قد يُقال هنا: إن معرفتهم باللغة عامل مهم جداً في هذا السياق، فَهُم أهل اللغة، والقرآن نزل بلسانهم=> فلا يحتاجون كثير شرح وتفسير. نقول: نعم، إن معرفة اللغة لها أهميتها، إلا أن عدم معرفة الكثير عن اللغة لا يشكّل عائقاً كبيراً يمنع من الاهتداء.. ذلك أن القرآن ميسّر للذكر، ففَهم ومعرفة الأفكار الأساس والمكونة للحُجَّة الرسالية: "أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه - كما بيّنها محمد رسول الله - وأن الجنة لمن آمن واتبع، والنار لمن كذّب وأعرض" فهذه ميسّرة تماماً للفهم مباشرة من النص القرآني.. وبدليل انتشار الإسلام الآن - رغم ضعف المسلمين وهوانهم - في بلاد غير الناطقين بالعربية مثل أوروبا وأميركا، فبمجرّد ترجمة بسيطة وحرفيّة لمعاني الآيات تحصل الهداية لمن كان يريد الهداية ويبحث عن الحق. وفي المقابل فإن كثيراً من العرب أصحاب اللغة سمعوا القرآن وأدركوا معانيه ولكنهم لم يؤمنوا، لأنهم لا يريدون الحق. فالقرآن مُيسّر الفهم لمن أراد التذكّر والموعظة: (هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ {138}) **آل عمران**. فالأصل هو منهج التلقي والبيان الصحيح ثم إرادة الهداية والبحث عن الحق: (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ {99}) **البقرة**، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ **[فصلت 44]**،، أي (الكَلامُ جارٍ عَلى طَرِيقَةِ الفَرْضِ كَما هو مُقْتَضى حِرَفِ لَوِ الِامْتِناعِيَّةِ. وهَذا إبانَةٌ عَلى أنَّ هَؤُلاءِ القَوْمَ لا تُجْدِي مَعَهُمُ الحُجَّة ولا يَنْقَطِعُونَ عَنِ المَعاذِيرِ؛ لِأنَّ جِدالَهم لا يُرِيدُونَ بِهِ تَطَلُّبَ الحَقِّ وما هو إلّا تَعَنُّتٌ لِتَرْوِيجِ هَواهم... وحاصِلُ مَعْنى الآيَةِ: أنَّها تُؤْذِنُ بِكَلامٍ مُقَدَّرٍ داخِلٍ في صِفاتِ الذِّكْرِ، وهو أنَّهُ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ بِلُغَتِكم إتْمامًا لِهَدْيِكم فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ وكَفَرْتُمْ وتَعَلَّلْتُمْ بِالتَّعَلّاتِ الباطِلَةِ فَلَوْ جَعَلْناهُ أعْجَمِيًّا لَقُلْتُمْ: هَلّا بُيِّنَتْ لَنا حَتّى نَفْهَمَهُ. **[انظر (التحرير والتنوير - ابن عاشور)]**.

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ **هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا** مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ الجمعة: ١ - ٢

ومن هنا، فإنه بـ **"التلقي المنهاجي"** لآيات القرآن الحكيم؛ أي بتلقيها **مفرَّقة** أثناء السير حسب "المنهاج"، وبتنزيلها **كمعالجات** للواقع.. كان بيانها وكان تعلُّمها وفهمها.. واستمر السير بها حتى تحقّقت الغاية من القرآن؛ وُجِدِت "الأمة المسلمة" التي تُخلِص دينها لله **جلّ شأنه**.

هذا، ولا تنتهي هذه الطريقة لتلقي الآيات عند تحقُّق الغاية من الرسالة، بل تبقى هي الطريقة في تلقي القرآن والتعليم والتزكية في الأمة، بقصد المحافظة على استمرار تحقُّق الغاية في واقعها حتى قيام الساعة، وذلك من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل الأمة، ومن خلال حمل الأمة الرسالة للناس كافة بالجهاد في سبيل الله؛ دعوة وقتالاً..

فيبقى القرآن (الكتاب) وبيانه العمليّ من سنة رسول الله (الحكمة) هما المرجع الوحيد لإيجاد الحلول والمعالجات - الشرعية والسننية - لِمَا ستواجهه الأمة من أحداث ومواقف ونوازل.. أثناء سيرها العملي لأداء مهمتها في هذه الحياة الدنيا؛ "إخلاص الدين لله": عبادة الله وحمل رسالته للعامين، هدى ورحمة.. والشهادة على الناس..

ويبقى **"البيان العَمليّ"** لآيات الله - بتنزيلها كمعالجات للواقع أثناء سير الأمة حسب "المنهاج"، بقصد أن تبقى الغاية من الرسالة محقَّقة - يبقى هو **طريقة تلقي** آيات الله وتعلّمها وفهمها في الأمة..

كما كان حال الجيل الأول من الأمة المسلمة مع القرآن الكريم [41].. :

---

41 - وننبه هنا، إلى أننا مدركون لحقيقة أن العلوم المتعلّقة بالقرآن لها "تطوّر طبيعي"، يتَواكَب ويتماشَى=> مع تطوّر أحوال الأمة وتغيّر احتياجاتها العَمليّة، من حيث الاجتهاد واستنباط الأحكام لِما كان يستجد من أحوال وأحداث ونوازل ناتجة عن حمل الأمة لرسالة الله بالجهاد في سبيل الله، وأهمها التوسّع الجغرافي والسكاني.. إنما الذي نقصده هنا هو ما شاب هذا "التطور الطبيعي" من شوائب غريبة عن منهجه الشرعي الذي أرساه رسول الله ﷺ عند الجيل الأول من الأمة، و مع مرور الزمن أصبحت تلك الشوائب - أو آثارها - جزءاً أصيلاً من ذلك المنهج، ومع تقدّم الزمن دخلت شوائب أخرى وأخرى.. حتى كادت معالم المنهج الحق الذي كان عليه رسول الله وأصحابه أن تختفي، لولا حِفْظ الله تعالى لهذا الدين. ومن أهم تلك الشوائب:

- "الأهواء" حيث بسببها تحوّل الخلاف السياسي والفكري (ما يجوز الخلاف فيه) إلى خلاف عَقديّ (ما لا يجوز الخلاف فيه) مما أدّى إلى تقسيم الأمة إلى طوائف وأحزاب وكل حزب بما لديهم فرحون..
- التأثّر بـ "مناهج تفكير" غريبة عن الوحي، مثل المنطق الأرسطي والفلسفة عموما..

وغيرها من الشوائب الدخيلة.. والتي زادت الطين بِلة، فترسّخ تقسيم الأمة وازداد. وليس هنا مجال التوسّع.. إنما المقصود أن نذكّر بالمنهج الأصل ونشير إلى معالمه الكبرى، التي تكاد أن تندرس وتُنسخ.. لولا حِفْظ الله عزّ وجلّ لِوَحْيه ودينه، والحمد لله ربّ العالمين.

عن ابن عباس قال: (نزل القرآن **كله جملة واحدة** في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن **يُحدث** في الأرض شيئا **أنزله منه** حتى **جَمَعه)** (42)**.**

فكان **"التلقي المنهاجي"** لآيات القرآن؛ بشكل **تدريجي** (على مُكْث) - ويتبعها بيانها من السنة - ليكون السير في المجتمع على بصيرة، وحسب منهاج محدد وواضح؛ **للعلم والعمل** بآيات القرآن، **والسير بها** خطوة بعد خطوة.. من نزول ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ..﴾ حتى نزول آخر آية.. وذلك لجعلها حقيقة في الواقع الإنساني، متمثلاً **بأمّة مسلمة** قد أكملت دينها (عبوديتها) لله **جلّ وعلا..** وذلك من خلال:

- ✓ **بيان** الطريق وكيفية السير بالرسالة في المجتمع؛ أعمالاً وخطاباً.. والذي يقتضي:
- ✓ **إزالة** العقبات..
- ✓ **التثبيت** على الطريق.

فهناك **منهاج** محدد وواضح، لكن فيه مجال لأن "يتفاعل" مع الواقع الإنساني **المعيّن** و"يتجاوب" معه **بحكمة** بقصد **تغييره** حتى تحقيق الغاية من الرسالة.. كما في الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: (فكان المشركون **إذا أحدثوا** شيئاً **أحدث** الله لهم جواباً).**[أخرجه ابن أبي حاتم]**

وذلك مثل حال الطبيب الذي يعالج المريض؛ فهو من جهة عنده **العلم** بالعلاج **وبكيفية** المعالجة (المنهاج)، لكنه في نفس الوقت يتعامل **بحكمة** مع الحالة المعينة (المريض) **بتعيين** العلاج **وكيفية** العلاج، **وأسلوب** العلاج الذي يلزم **لهذا** المريض حتى يشفى.. أي التفاعل مع الواقع بحكمة وحسب المنهاج؛ (فكان المشركون إذا **أحدثوا** شيئاً **أحدث** الله لهم جواباً).. فهي **الحكمة** في التعامل مع الواقع الإنساني؛ بأشخاصه وأحواله وزمانه ومكانه.. **لكنّها** مضبوطة ومحكومة لمنهاج السير بالرسالة؛ حسب مرحلة السير..

ومنه وعلى أساسه، يمكن استنباط **المنهاج** الملزِم لنا (المتعبَّد به) للسير بالرسالة بضوابطه، بقصد تحقيق الغاية منها في المجتمع.. حيث أن "ترتيل نزول" الآيات يمكن أن يدلنا على **كيفية** تحقيق الغاية من الرسالة (المنهاج الثابت)؟.. وذلك من ثلاث جهات، **(هذا بشكل عام والتفصيل في موضعه من البحث)** :

- ✓ **"تتابع** (ترتيب) **نزول"** آيات الرسالة، فيه **دلالة** على ترتيب الأولويات: بماذا نبدأ.. و مِن أين نبدأ؟.. **وتعيين** المعالجات للأحداث الحاصلة - في مرحلتها وطورها - أثناء السير بالرسالة.. يعني بيان الأحكام المتعلقة بالمرحلة المعينة وبالطور **المعيّن** من السير (مكيّ أو مدنيّ، قبل التمكين أو بعد التمكين).. (فيه دلالة على "أحكام الوضع"؛ السبب والشرط والمانع..)..
- ✓ **"نَصّ الآيات"؛** ألفاظها وجملها، فيه **دلالة** على الأفكار والأحكام.. وبناء الأفكار بشكل يقيم "الحُجَّة الرسالية" ويوجِد اليقين.. أي بيان "المعالجات **السننية**، و**الشرعية**؛ بشقيها "أحكام التكليف" (الفرض والمندوب والحرام..) و"أحكام الوضع" (السبب والشرط والمانع..)..

---

42 - أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً. **أنظر (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) - حكمت بن بشير بن ياسين.**

- ✓ "**أسلوب صياغة**" الأفكار (المعاني) في الآيات وتركيبها؛ فيه **دلالة** على "منهج **الخطاب**" أو "كيفية عرض" الأفكار والأحكام والمعالجات بشكل مؤثر؛ مُقنع للعقل وموافق للفطرة.. والمناسب لكل مستويات العقول ومختلف النفسيات.. وفي سياق "البشارة والنذارة"..

وبيان ذلك كله، كان من خلال "**ترتيل نزول**" آيات القرآن والسير العملي لرسول الله بها، كمعالجات لردود أفعال المجتمع وملئه من دعوة الله وحَمَلتها.. وذلك من نزول أول آية حتى النهاية.. والذي يتضمَّن تعليم الحكمة.. وهي كيفية التعامل مع الواقع المتغيّر لمعالجته حسب المنهج المحدد والواضح.. كما كان بالنسبة للجيل الأول من هذه الأمة المباركة.

سادساً: حقيقة ما يُسمَّى بـ "الفهم السياسي" للسيرة

بناء على ما سبق بيانه لمفهوم "التلقي المنهاجي" للآيات؛ أي التلقي المفرَّق للآيات في ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة، بقصد تحقيق الغاية منها.. فإن رسول الله ﷺ لم يكن يعلم من القرآن (الدين) إلا ما يوحَى إليه.. وهنا، يرِدُ **السؤال** التالي:
هل يعني هذا، أن خطوات السير بالرسالة؛ من البداية حتى النهاية، لم تكن معلومة مُسبقاً عند رسول الله ﷺ ؟
بمعنى، أنه لم يكن لديه ﷺ **رؤية** كاملة **مُسْبقة**، ولا **تخطيط استراتيجي** بعيد المدى كان يقوم بالخطاب والأعمال على أساسه؟ وإنما الوحي هو الذي كان يحرِّكه ﷺ أولاً بأول وخطوة بخطوة حتى أتم مهمته؛ تحقيق الغاية من الرسالة؟
الجواب: نعم..
إن ما قام به رسول الله ﷺ من **أعمال** (قول وفعل وإقرار) في سيره بالقرآن الكريم بقصد تحقيق الغاية منه، **لم تكن** أعمالاً على أساس **رؤية** كاملة **مُسْبقة** لدى رسول الله، أو عن **تخطيط** سياسي **استراتيجي** بعيد المدى عنده ﷺ لجميع خطوات السير؛ من البداية حتى النهاية..
نعم، لم يكن عند رسول الله ﷺ العلم بجميع أعمال وأحكام الدين، ومنه أحكام "منهاج السير" بالرسالة ومعالجاته.. بل كانت تلك الأعمال من رسول الله **اتّباعاً** للوحي - قرآناً وسنة، والقرآن هو الأصل - أولاً بأول وخطوة بخطوة..
وكان ذلك من خلال "الطاعة الواعية" لأمر الله الذي يأتي به الوَحْي، أولاً بأول - و"القرآن" هو الأصل - حيث كانت تنزل الآيات والمعالجات مرتلةً.. بحسب تتابع الأحداث وردود أفعال المجتمع:
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ﴾ الفرقان: ٣٢ - ٣٣
وكما في الرواية عن ابن عباس:
(فكان المشركون إذا **أحدثوا** شيئاً **أحدث** الله لهم جواباً). **[أخرجه ابن أبي حاتم]**
و"**الطاعة الواعية**" من رسول الله للأمر الشرعي، كانت كما يلي:

- **الفهم** الصحيح (السُنة) **لمراد الله تعالى** من كلامه (القرآن) [43]،
- والفهم الدقيق **للواقع** (المناط) المراد معالجته بالوحي،
- ثم **تنزيل** المعالجة على الواقع أو المناط (الحدث) الحاصل، بوعي وبصيرة (الحكمة).
- والثبات و**الصبر** على ذلك حتى يُحدِث الله بعد ذلك أمراً ؛ إمّا قدراً أو شرعاً..

وفي ما يلي بيان ذلك:

✓ رسول الله ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يعلم ما سيحدث معه.. إلا بما أعلمه الله **تعالى**:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ **وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ** وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ **إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ**... ﴿٥٠﴾ ﴾ الأنعام

﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ **وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ** وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٩﴾ ﴾ الأحقاف

(قال الضحّاك: {وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ} أي، ما أدري بماذا أُومر، وبماذا أُنهَى بعد هذا؟. وقال الحسن البصرى: ({وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ} أي: في الدنيا، أأُخرَج كما أُخْرجت الأنبياء قبلي؟ أم أُقتَل كما قُتلوا، ولا أدرى أيخُسف بكم أو تُرمَون بالحجارة؟ أما في الآخرة فمعاذ الله، قد عَلِم أنه في الجنة). وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة للآخرة، جازم أنه يصير إلى الجنة ومن اتّبعه).. **[تفسير ابن كثير، باختصار]..**

"{ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ } فما أتّبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه إلاّ وحي الله الذي يوحيه إليّ وتنزيله الذي ينزله عليّ، فأمضي لِوَحْيه وأئتَمر لأمره.. فما أنا إلا عبد الله ورسوله..

{ وَمَآ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } "ما أنا إلا رسولٌ من الله، **أبلّغكم** آيات الله وأثير في نفوسكم معانيها، **وأُنذركم** عقاب الله **تعالى** حسبمَا يُوحَى إليَّ، { مُّبِينٌ } بينُ الإنذارِ لا لبس فيه".

✓ رغم أن الله **تعالى** كان يُطلِع رسوله على **بعض** الغيب.. إلا أنه **عزّوجل**، **لم يكن ليُطْلع** الرّسول ﷺ على الغيب **بشكل مفصّل**، فذلك ليس من سنته **سبحانه وتعالى** في هذا الأمر:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٩

✓ رسول الله ﷺ لا يعلم من الوحي - قرآنا وسنة - إلا ما نُـزّل على قلبه:

﴿ .. **وَأَنزَلۡنَآ** إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا **نُزِّلَ** إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ النحل

43- بالنسبة للرسول هذا الفهم يأتيه وحيٌ من الله تعالى (السنة)، وليس اجتهاداً منه: ((ثم إن علينا بيانه) بالتفهيم لك). التفسير الميسر، وتفسير الجلالين.

فالرّسول ﷺ يُبيّـن بالسّنة؛ قولاً وفعلاً وإقراراً، ما **نُـزِّل** مفرّقاً على قلبه من القرآن **أولاً بأول**، فالبيان لا يكون إلا لِمَا تَـلقّى من الآيات؛ (ما نُـزِّل) على قلبه وليس لِمَا لمْ يُنـزَّل.. فرسول الله ﷺ لا يعلم من آيات القرآن إلا ما **يُنـزَّل** على قلبه.. أولاً بأول.. فيقوم بتلاوتها على الناس وبيانها لهم.. أولاً بأول.. **ليَعْمَلوا** بما جاء فيها بعد أن يفقهوها ويعقلوها..

فأفعال **الرسول** وأقواله ومواقفه - أي السنّة ومنها السيرة - كانت **تدور** دائماً مع ما **نُـزِّل من القرآن** وفي إطاره، تطبيقاً على واقعه الإنساني لمعالجته، **أولاً بأول**.. من بداية السير بالرسالة حتى وُجِدَت الأمة المسلمة، إلى اكتمال خصائصها و**إكمال** دينها (عبوديّتها) لله، على يديه ﷺ.. فكانت أفعال **الرسول** وأقواله ومواقفه (السنة) لا تتجاوز توجيهات آيات القرآن **المباشرة** أو **إطارها العام**، وحسب **ترتيل تلقيها** أثناء السير بها بقصد تحقيق الغاية من القرآن، بدليل أنه إذا حصل من بعض أفعاله ﷺ "خلافاً للأَوْلى" نُـزّل قرآن ليصحّح ويوجّه.. أو إذا حصلت مخالفات من بعض المؤمنين..

ومن هنا، فرسول الله ﷺ لم يكن يَعْلم ما هي الخطوة التالية للعمل.. لأنه لا يعلم ما سيكون عليه موقف قومه من دين الله.. فهو لا يعلم الغيب..
ولو حصل موقف جديد لهم، فهو أيضاً لا يعلم ماذا سيكون التكليف الجديد، يعني الأمر الشرعي لمعالجة موقف قومه ذاك.. فالله **تعالى لم** يُنـزّل **آيات** القرآن **جملة واحدة** على قلب الرّسول ﷺ، فهو لا يعلم من آيات الله إلا ما كان يُوحى إليه..
فهو ﷺ لم يكن يعلم ما سيحدث في الواقع من أحداث، ولم يكن يعلم المعالجات الشرعية لها.. إذْ لم تُوحَ إليه بعد..
بل إن الوحي هو الذي كان يُحدّد له الأفعال والأقوال كمعالجات لمواقف المجتمع حال حدوثها أثناء السير بالرسالة؛ أولاً بأول.. من البداية إلى النهاية.. **والقرآن** كان هو **الأصل** في ذلك:

﴿..إِنْ **أَتَّبِعُ** إِلَّا مَا **يُوحَىٰٓ** إِلَيَّ...﴾ الأنعام (50)، يونس (15)، الأحقاف (9)

(فكان المشركون إذا **أحدثوا** شيئاً.. **أحدث** الله لهم جواباً)..

وهذا أمر معروف وبديهيّ، وكثيراً ما حصلت مواقف مع رسول الله تدل على ذلك؛ أي توقّـفه ﷺ عن إصدار أحكام أو عن القيام بأعمال حتى يأتيه فيها أمر من الله: مثل الآيات التي وردت جواباً على استفتاء : (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ) (يسألونك.. قل).. وحادثة الإفك.. والمرأة المجادِلة في زوجها.. وغزوة بدر؛ كانت في البداية من أجل القافلة، ثم نزل أمر الله بأنها الحرب.. وصلح الحديبية؛ كان الأمر بداية أداء العمرة، ثم نزل أمر الله لاحقاً؛ بعقد الصلح ولا عمرة هذا العام.. وأنه ﷺ لم يكن يعلم مكان هجرته حتى قُبيل الهجرة بقليل [44] .. الخ.

---

44 - (كان الله سُبحانَه وتعالَى يُثبِّتُ قَلْبَ نَبيِّه ﷺ بالوَحيِ وبالرُّؤى الصَّادِقةِ الَّتي يَراها في مَنامِه، وقدْ أَراه الله سُبحانَه [قبل الهجرة] الأرضَ الَّتي سيُهاجِرُ إليها، وبيَّنَ له صِفتَها، وأَعْلَمَه بإشاراتٍ إلى ما سَيَقَعُ له ولأصْحابه في أرضِ الهجرةِ، ووقَعَت هذه الأحْداثُ بمُرورِ الزَّمنِ). كما في رواية أبي موسى الأشعري أن رسولُ الله ﷺ قال: (رَأَيْتُ في المَنامِ أنِّي أُهاجِرُ مِن مَكَّةَ إلى أرْضٍ بها نَخْلٌ، فَذَهَبَ وهَلِي [ظني] إلى أنَّها اليَمامَةُ [وسط جزيرة العرب] أوْ هَجَرُ [شرق الجزيرة]، فإذا هي المَدِينَةُ يَثْرِبُ، ورَأَيْتُ في رُؤْيايَ=>

فالأمر الذي كان يتحرّك رسولُ الله على أساسه هو ما أعلمه الله **تعالى** به وحياً؛ قرآناً أو سُنة.. خطوة بخطوة وأولاً بأول.. فهو ﷺ حتى اللحظة التي هو فيه، والعمل الذي يقوم به.. كان **متبعاً** لما أوحاه الله إليه من قَبْلُ فقط.. أما بعد ذلك.. وبعد تلك الخطوة، فهو لا يعلم ماذا سيَعْمل، بل يبقى **متبعاً** مستقيماً صابراً على الأمر الذي عنده حتى يأتيه **الأمر** (الحكم) التالي من الله: إما **قدراً**؛ بأن يغيّر الله الواقع والحال.. أو **شرعاً**؛ بأن يأتيه وحي جديد بتكليف جديد:

﴿ **وَٱتَّبِعْ** مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ **وَٱصْبِرْ** حَتَّىٰ **يَحْكُمَ** ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ يونس

وأمر الله وحكمه الذي يوحيه إلى رسوله ﷺ ؛ إما أن يكون وصفاً عاماً **أو** أمراً محدّداً:

- ✓ **الوصف العام**، أي أن يكون خَطاً عريضاً يتحرك ﷺ ضِمْنه في واقعه [45]..

هذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا، فانْقَطَعَ صَدْرُهُ فإذا هو ما أُصِيبَ مِنَ المُؤْمِنِينَ يَومَ أُحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ بأُخْرَى فَعادَ أَحْسَنَ ما كانَ فإذا هو ما جاءَ اللهُ به مِنَ الفَتْحِ، واجْتِماعِ المُؤْمِنِينَ...). **[صحيح البخاري ٣٦٢٢]. (الموسوعة الحديثية - الدرر السنية].** وفي الرواية التالية عن عائشة رضي الله عنها، رأى رسول الله دار الهجرة مرة أخرى، قُبيل الهجرة، وبوصف أدق فعلم أنها المدينة: ((..فقال رسولُ الله ﷺ للمُسلِمينَ: (أُريتُ دارَ هجرتِكم، أُريتُ سَبَخَةً ذاتَ نخلٍ بيْنَ لابتَيْنِ وهما حَرَّتانِ)، فهاجَر مَن هاجَر قِبَلَ المدينةِ **حينَ ذكَر** رسولُ الله ﷺ ذلك ورجَع إلى المدينةِ بعضُ مَن كان هاجَر إلى أرضِ الحبَشةِ مِن المُسلِمينَ. وتجهَّز أبو بكرٍ مُهاجرًا فقال رسولُ الله ﷺ: (على رِسْلِك يا أبا بكرٍ فإنِّي أرجو أنْ يُؤذَنَ لي) فقال: فِداكَ أبي وأمِّي أوَ ترجو ذلك؟ قال: (نَعم)..) **[صحيح ابن حبان ٦٢٧٧].**

45 - ومن ذلك، التهيئة والتحضير لأمور مطلوب إيجادها؛ كخطوة جديدة، مثل الأمر بإعداد القوة لإرهاب العدو الظاهر والخفي: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الله يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ{60} وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{61}) **الأنفال**. وذلك "**بعد** انتهاء معركة بدر وهزيمة المشركين فيها، وعودتهم إلى مكة وكُلهم تغيُّظ على المؤمنين، وفعلاً أخذ أبو سفيان يُعد العدة للانتقام. وما كانت غزوة أحد إلا نتيجة لذلك، هنا أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بالاستعداد بإعداد القوة وبذل ما في الوسع والطاقة حتى يرهَبهم أعداء الله من الكافرين والمنافقين فلا يفكروا في غزو المسلمين وقتالهم، وهذا ما يعرف بـ "السلم المسلَّح"، وهو أن الأمة إذا كانت مسلحة قادرة على القتال يرهبها أعداؤها فلا يحاربونها، وإن رأوها لا عدة لها ولا عتاد ولا قدرة على رد أعدائها أغراهم ذلك بقتالها فقاتلوها" **[أيسر التفاسير- أبو بكر الجزائري].** ومثل ما جاء به القرآن الكريم من مبشرات بالنصر في الدنيا، أثناء السير بالرسالة حسب "المنهاج"، وقد كانت في إطار تثبيت رسول الله والمؤمنين معه على الحق (منهج التثبيت)؛ وقد نزلت في أواخر المرحلة الأولى (قُبيل التمكين).. مثل قوله تعالى: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ {171} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ {172}وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{173} فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ{174}..) **الصافات**. (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ {51}) غافر..(فَلاَ تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ الله عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ{47}) **إبراهيم**.. فهو وعْد مؤكّد من الله بالنصر على أعدائه، لكن دون تحديد وقت معيّن، أما وقد اشتدّ الأذى على رسول الله والمؤمنين معه، فما عليهم إلا الصبر حتى يحكم الله، كما قال الله تعالى مُخاطِباً رسوله الكريم: (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ {77}) **غافر**،، (وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ {40}) **الرعد**،، وقد بيّن رسول الله ﷺ ذلك لخباب ومَنْ معه **رضي الله عنهم** وعاتبهم على استعجالهم: ((عن خباب بن الأرت: شَكَوْنا إلى رَسولِ الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ=>

✓ **الأمر المحدد**، مثل بعض الأحكام الشرعيّة [46]..

الخلاصة..

من حيث الأصل، لم يكن عند رسول الله ﷺ وفي علمه، رؤية مُسْبقة كاملة (استراتيجية) لجميع خطوات السير (المنهاج)، يقوم بالأعمال على أساسها.. من بداية تلقيه الرسالة (اقرأ).. ثم سيره بها (قم فأنذر).. حتى النهاية وتحقيق الغاية منها (اليوم أكملت لكم دينكم).. لأنه ﷺ لم يكن يعلم ما سيحدث في مجتمعه من أحداث ومواقف من الحق الذي جاء به، ولم يكن يعلم المعالجات الشرعية لها، إذْ لم تُوحَ إليه؛ قرآناً أو سُنة.. فقد كان عِلْمه ﷺ بالرسالة وبالمعالجات اللازمة، بمقدار ما علّمه الله فقط؛ أي بمقدار ما كان يُنزِّله الله **سبحانه وتعالى** على قلبه من الوحي مفرّقا أولاً بأول، وخطوة بخطوة.. وحسب "منهاج السير" بالرسالة؛ بضوابطه الشرعيّة والسننيّة، وحسب تتابع مواقف المجتمع..

فالله **جلّ وعلا** لم ينزِّل القرآن جملة واحدة على قلب رسول الله، **فلم يكن** عند رسول الله **علم** - منذ البداية - **بجميع** أحكام الدين والمعالجات، ولا بخطوات السير.. فكان الله **جلّ وعلا** - من خلال تنزيل آيات القرآن مفرّقة مرتّلة (التلقي المنهاجي) - يُعلِمُ رسوله بما له به **حاجة** فقط، من **معالجات** شرعيّة أو سُننيّة [47] للمواقف والأحوال (المناط) الحاصلة **فعلاً**.. أو **تهيئةً** وإعداداً لأمور يريدها منه في

بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: (قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتّى يَسِيرَ الرّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلّا اللَّهَ، والذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ). **البخاري**،، وفي نفس السياق، نفهم آيات سورة **العنكبوت** وما فيها من عتاب أو إنكار: (الم{1} أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ{2}..{7}). **انظر (تفسير ابن كثير)**. ونشير هنا، أنه في بداية تبليغ الرسالة للمجتمع كان ﷺ يقول للمؤمنين الذين تفتنهم قريش عن دينهم: (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة) **(صحيح السيرة) - إبراهيم العلي..** فكان الوعد بالجنة فقط، دون الإشارة إلى البشارات بالنصر في الدنيا. ومن هنا نلاحظ أن الربط بين النص ومناطه والأحوال التي كانت محيطة به (سبب النزول)، أصل في فهم النص الشرعي فهماً صحيحاً بدايةً. بعد ذلك نقول: "العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب".

46 - ومن ذلك الأحكام المتعلقة بأخلاق المؤمنين وطبائعهم.. مثل: =>

صفات" عباد الرحمن" في سورة الفرقان، والمؤمنون في سورة المؤمنون، وفي سورة الإسراء وهي من الحكمة التي أوحاها الله إلى رسوله..

أو عدم القتال والصبر في مرحلة "ما قبل التمكين": (لم نُـؤْمَر بذلك)..

أو كمعالجات لمواقف وأحداث حصلت فعلاً مع رسول الله والمؤمنين.

47- "المعالجات الشرعيّة" هي: الأعمال (قول أو فعل) المطلوب شرعاً القيام بها، لمعالجة الأحداث والمواقف (المناط)، وتؤخذ من الدليل الشرعي؛ بفهمه حسب الأصول المعتبرة لغة وشرعاً، سواء في الإيمان أم العمل الصالح أم الدعوة. فهي أعم من "الحكم الشرعي" المتعلق بأفعال العباد، ومتضمنة له، فهي تتعلق بالفكر أيضاً؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو، أم بالحكم على وجوده من عدمه، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعي. أمّا "المعالجات السننيّة": فهي الأعمال (قول أو فعل) التي في أصلها مباحة، والمناسبة عقلاً وواقعا لمعالجة حدث حاصل، والتي ينبغي القيام بها، بناء على فَهْم طبيعة الحدث الحاصل (المناط) فهماً شاملاً من منظور السنن الربانية في الآفاق والأنفس،=> وفي الأمم

المستقبل.. أو من **المبشّرات** في سياق تثبيت فؤاد رسول الله والمؤمنين معه على الحق.. (منهج التثبيت)..

هذا، ولم يكن من رسول الله ﷺ إلا **"الطاعة الواعية" لأمر الله عزّوجل (الكتاب)** وهي:

- ✓ **الفهم** الصحيح (السُنة) **لمراد الله تعالى** من كلامه (القرآن)،
- ✓ **والفهم** الدقيق للواقع (**المناط**) المراد معالجته..
- ✓ ثم "**اتباع**" الأمر المراد؛ بتنزيل تلك المعالجة على ذلك الواقع بوعي وبصيرة (**الحكمة**)..
- ✓ وأخيراً، الاستقامة و **الصبر** على ذلك حتى يُحدِث الله بعد ذلك أمراً ؛ إمّا قدراً أو شرعاً..

﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ يونس

وبهذا يحصل التأثير القوي للوحي في الواقع، نتيجة الكفاءة العالية في المعالجة؛ فهماً وتنزيلاً..

وهكذا، أصبح من الواضح أن سير رسول الله بالرسالة لتحقيق العبودية الكاملة لله بإيجاد الأمة المسلمة، خلال الثلاث والعشرين سنة، كان الوحي - ومن خلال التنزيل المرتّل لآيات القرآن الكريم (التلقي المنهاجي) - هو الذي يُسيّر الرسول ﷺ؛ خطوة بخطوة من البداية حتى النهاية.. فلم يُعلِم الله رسولَه - منذ البداية - بالرؤية الكاملة والشاملة لـ "منهاج السير"؛ أعماله وخطابه.. والذي كان ترتيل نزول آيات الرسالة لمعالجة الأحداث المتتابعة، بحسب ضوابطه؛ الشرعيّة التي أرادها الله **جلّ وعلا**.. بل كانت تلك الرؤية الكاملة لـ "المنهاج" في عِلْم الله **تعالى**، في اللوح المحفوظ، والله **سبحانه وتعالى** هو الذي كان يُسَيّر رسوله بحسبه؛ ويُعْلمه به من خلال ترتيل نزول الوحي، في كل خطوة كان يخطوها، أولاً بأول.. كمعالجات للأحداث بتتابع حصولها وتطوّر مواقف المجتمع من "دعوة الله" ورسالته..

وفي حال حصول خطأ من المؤمنين أو مخالفة لما هو أولى من رسول الله ﷺ.. كانت تُنَـزَّل آيات من القرآن لتُصحِّح وتوجِّه وتبيّن.. (مثل الأنفال في غزوة بدر).

صلح الحديبية، مثال..

أنظر مثلاً، إلى مواقف رسول الله ﷺ وأعماله في **صلح الحديبية**:

أصل الأمر أن رسول الله خرج لأداء العمرة بعد أن رأى رؤيا بذلك وبشّر الصحابة بها.. فلمّا وصل رسول الله والمؤمنون نواحي مكة، وأرادوا دخول المسجد الحرام لأداء العمرة ومعهم الهَدي، منعتهم قريش من ذلك.. فتحوّل الأمر؛ إما إلى اقتتال بين الفريقين أو صُلْح [48]..

والمجتمعات، والرسل والرسالات؛ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب:62]. "السُنن"، هي القوانين الدائمة والثابتة التي قدّرها الله تعالى لضبط الخواص التي خلق عليها كل مخلوق، في نفسه وفي علائقه مع غيره، سواء في الكون أم الإنسان؛ فرداً ومجتمعاً، أم في الحياة.

48 - حالة القتال - لغاية ذلك الوقت - كانت هي الحالة الأصل بين الأمة المسلمة بقيادة رسول الله، وبين قريش. وآخر معركة كانت قبل عام، هي غزوة الأحزاب، وكانت معركة حاسمة فاصلة، تحوّلت فيها=>

فتشاوَر رسول الله مع الصحابة، فكان الرأي تجنُّب القتال ما استطاعوا، إنما أتوا لأداء العمرة.. فغيّر رسول الله طريقه إلى مكة حتى لا يتصادم مع قريش: (وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بـ "الثنية" التي يهبط عليهم منها، بركت به ناقته القصواء، فقال الناس: حَلْ حَلْ.. خَلأت القَصْواء، مرتين. فقال النبي ﷺ: {ما خلأت وما ذلك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل}، ثم قال: {والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم خطة يعظّمون بها حُرمات الله إلا أعطيتهم إياها} [49] ... ثم زَجَرها فوثبت، فعَدَل عنهم حتى نزل بأقصى "الحديبية" على ثَمَد [عين ماء في حفرة] قليل الماء..)..

فبعد أن حُبِست الراحلة عن السير باتجاه المسجد الحرام، عَلِم رسول الله ﷺ أن الله **تعالى** لا يريد منه أن يدخل المسجد الحرام هذه المرة، بل يريد الصُّلح [50]..

وتم الصلح بالخط العام الذي أراده الله؛ كما نفَّذه رسوله.. وفي سبيل ذلك تغاضى الرسول ﷺ عن بعض التفاصيل في صياغة نص الصلح، وبعض شروطه.. التي لم تكن كما يريد.. في مقابل تحقيق أمر الله: "تعظيم حرمات الله"، أي تحقيق الصلح.

وبعض المسلمين - أيضاً - لم يكن راضياً عن شروط الصلح تلك، ومن أبرزهم عمر بن الخطاب، فلم يروا فيها مصلحة لدين الله.. فكان جواب رسول الله لهم: أنه عبد الله ورسوله وأنه لا يسعه إلا الاستقامة على أمر الله - (خطة يُعظّمون بها حرمات الله؛ الصلح) - بغض النظر عن الظروف والأحوال.. فالصلح أمر من الله ويجب تحقيقه، وأن الله ناصره..

موازين القوى لصالح أمة الإسلام ضد أمة الكفر في جزيرة العرب بقيادة الملأ من قريش؛ وقد اجتمعت وتحزّبت.

49- وحُرمات الله التي كانت تُعظّمها قريش وهم على شركهم، هي تلك المتعلقة بالأشهر الحُرُم وبالمسجد الحرام وبالرَّحم.. أي صلة الرّحم وعدم الاقتتال بين الأقرباء، لا في الحَرَم ولا في الأشهر الحُرُم،=> تعظيماً لتلك الحرمات، أي هو الصلح أو الهدنة من حالة القتال التي كانت بين أمة المسلمين وقريش. وهو الأمر الذي عرضه رسول الله وأكّده لمبعوثي قريش الذين أرسلوهم ليفاوضوا رسول الله ﷺ حيث َقالَ لهم: ((إنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أحَدٍ، ولَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وإنَّ قُرَيْشًا قدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ، وأَضَرَّتْ بهِمْ، فإنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، ويُخَلُّوا بَيْنِي وبيْنَ النَّاسِ... وإنْ هُمْ أبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ علَى أمْرِي هذا حتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، ولَيُنْفِذَنَّ الله أمْرَهُ)). **[انظر (صحيح السيرة) - إبراهيم العلي. و(الموسوعة الحديثية - الدرر السنية)].**

50- هذا الأمر صدر الآن من الله عزّ وجل، فهُم أصلاً ما جاءوا إلا للعمرة والتي كانت برؤيا صادقة لرسول الله، وهي ضرب من الوحي أيضاً. فمن الواضح أن الوحي هو الذي كان يسيّر رسول الله، فلم يكن => عنده "رؤية شاملة" مُسبقة كان يضبِط أعماله بحسبها.. إنما هي استقامة رسول الله على الأمر الحالي من الله جلّ وعلا (العمرة)، حتى أتى الأمر الذي يليه (الصلح)، فهي "الطاعة الواعية" لأمر الله تعالى: فَهْمٌ لمراد الله، ووعيٌ على الواقع لمعالجته بأمر الله بأكفأ صورة، مع الصبر حتى يحكم الله.. لاحظ كيف كان تعامله ﷺ لاحقاً، مع المفاوضين من قريش، فقد تعامل مع كل مفاوِض منهم بما يناسبه من الأحوال والأعمال والأقوال.. وفي تعامله ﷺ مع المؤمنين الذين لهم تحفظات على بعض بنود الصلح.

انظر التفصيل في (صحيح السيرة) إبراهيم العلي. وانظر أيضاً (المبحث السابق)، كيف وظّف رسول الله واقع المدينة قُبيل الهجرة، في نصرة دين الله تعالى، من خلال "الطاعة الواعية" لأمر الله في سورة الإسراء وسورة الحج.

كما في الحوار الذي دار بين عمر بن الخطاب ورسول الله ﷺ.. ثم بَيْنه وبين الصدّيق **رضي** الله **عنهما:**

(فقال عمرُ بنُ الخطَّابِ **رضوانُ** الله **عليه**: و**الله** ما شكَكْتُ منذُ أسلَمْتُ إلَّا يومَئذٍ فأتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ فقُلْتُ: ألَسْتَ رسولَ **الله** حقًّا ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: ألَسْنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطلِ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في دِينِنا إذًا ؟ قال: **(إنِّي رسولُ الله ولَسْتُ أعصي ربِّي وهو ناصري)** قُلْتُ: أوليسَ كُنْتَ تُحدِّثُنا أنَّا سنأتي البيتَ فنطوفُ به ؟ قال: (بلى، فخبَّرْتُك أنَّك تأتيه العامَ؟) قال: لا، قال: (فإنَّك تأتيه فتطوفُ به). قال: فأتَيْتُ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ **رضوانُ** الله **عليه** فقُلْتُ: يا أبا بكرٍ أليس هذا نبيَّ **الله** حقًّا؟ قال: (بلى) قُلْتُ: أولَسْنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطلِ ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في دِينِنا إذًا ؟ قال: أيُّها الرَّجلُ إنَّه رسولُ **الله** وليس **يعصي** ربَّه وهو **ناصرُه، فاستمسِكْ** بغَرْزِه حتَّى تموتَ فو**الله** إنَّه على الحقِّ، قُلْتُ: أوليس كان يُحدِّثُنا أنَّا سنأتي البيتَ ونطوفُ به ؟ قال: بلى قال فأخبَرك أنَّا نأتيه العامَ؟، قُلْتُ: لا. قال: فإنَّك آتيه وتطوفُ به) **(51)** .

وبعد ذلك، وأثناء رجوع المسلمين إلى المدينة، نزلت آيات سورة الفتْح، بيّن **الله تعالى** فيها للمسلمين حكمته ومراده من صلح الحديبية، وأنّـه فَتْحٌ من **الله تعالى**.. في قوله تعالى:

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الفتح

أي، (لقد صدق الله رسوله محمدًا رؤياه التي أراها إياه بالحق أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا تخافون أهل الشرك، محلِّقين رؤوسكم ومقصِّرين، فعلم الله من الخير والمصلحة (في صرفكم عن "مكة" عامكم ذلك ودخولكم إليها فيما بعد) ما لم تعلموا أنتم، فجعل مِن دون دخولكم "مكة" الذي وُعِدْتم به، فتحًا قريبًا، وهو هدنة "الحديبية" وفتح "خيبر"). **[التفسير الميسّر]**.

---

51 - انظر (صحيح السيرة) - إبراهيم العلي. واضح جداً أنه لم يكن عند رسول الله ﷺ رؤية مسبقة شاملة، كان يقوم بالأعمال بناء عليها.. فالله لم يُعْلمه بها.. إنما هي "الطاعة الواعية" لأمر الله الحالي، => والاستقامة عليه في معالجة الموقف الحاصل، مع الصبر حتى يُحدِث الله بعد ذلك أمراً.. فالنجاة لا تكون إلا بالثقة بالله والتوكل عليه والاستقامة على أمره ومراده. ويشبه هذا الموقف ما حصل مع أبي بكر الصّديق في موقفه من المرتدين: قتالهم وإنفاذ بعث أسامة، رغم معارضة بعض الصحابة لذلك، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب - **رضي الله عنهم أجمعين** - بناء على معطيات الواقع؛ وهي ارتداد أغلب عرب الجزيرة عن الإسلام، وتهديدهم للمدينة المنورة مَرْكز الإسلام.. إلا أن أبا بكر الصدّيق أصرّ على الاستمساك بأمر رسول الله بإنفاذ بعث أسامة، وقد عقد له اللواء، وأصرّ كذلك على مقاتلتهم بناء على دليله من كتاب الله بعدم جواز التفريق بين الصلاة والزكاة.. وأصرّ على موقفه رغم تلك الأحوال.. فكتب الله للأمة النجاة من تلك المحنة الكبيرة. وهكذا فالنجاة لا تكون إلا بالاستمساك بأمر الله وأمر رسوله، والاستقامة عليهما، والصبر على ذلك.. أي بـ "الطاعة الواعية" لأمر الله وأمر رسوله.

وبيّن - سبحانه - حِكمته كذلك، مما حدث خلاله من أحداث؛ بيعة الرضوان وعدم حصول الاقتتال..

بعد وُرود خبر مقتل عثمان رضي الله عنه:

(عن أنسِ بنِ مالكٍ، في قولِه تعالى : {إِنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح:١] أنَّها نزَلت على نبيِّ الله ﷺ مرجِعَه مِن الحُديبيةِ وأصحابُه قد خالَطهم الحُزنُ والكآبةُ قد حِيل بينهم وبينَ مسألتِهم، ونحَروا البُدْنَ بالحُديبيةِ. فقال رسولُ الله ﷺ: (لقد نزَلت علَيَّ آيةٌ هي أحَبُّ إليَّ مِن الدُّنيا جميعًا) فقرَأها عليهم إلى آخِرِ الآيةِ، فقال رجُلٌ مِن القومِ: هنيئًا مريئًا لك يا رسولَ الله قد بيَّن الله لك ماذا يفعَلُ بك فماذا يفعَلُ بنا ؟ فأنزَل الله {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الْأَنْهارُ} [الفتح:٥] إلى آخِرِ الآيةِ)) (52)

هذا، ومن خلال دراسة آيات سورة الفتح والتفكّر في صلح الحديبية، وما سبقه من أحداث وما تلاه من أحداث وبيان من الله للحكمة منه.. يستطيع الآن الباحث المسلم القول:

إن من حكمة توقيت الذهاب للعمرة في حينه، هو "توظيف سياسي للنصر العسكري الكاسح" الذي كان في غزوة الأحزاب. وذلك في سياق الاستمرار بالسير نحو تحقيق الغاية من الرسالة في "مرحلة التمكين"..

وهو شبيه لما حصل قبل ذلك، في "غزوة بدر"، حيث كان الأمر بخروج رسول الله ﷺ والمؤمنون لطلب قافلة قريش، لكن الله جل وعلا جعل الأمر هو قتال قريش وليس أخذ القافلة.. ورسول الله لم يعلم بذلك - وكذلك المؤمنون - إلا بعد أن جاءه الأمر بعد خروجه من المدينة:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ الأنفال: ٧

والله يريد بهذه المعركة إحقاق الحق وتثبيته في الأرض وإبطال باطل وإزالته؛ بنصر المؤمنين وإنزال العذاب بأيديهم على الملأ الذين كفروا من قريش.. لذلك يريد الله أن يكون هنالك إثخان في قتل المشركين تعذيباً لهم لكفرهم بالله ورسوله واليوم الآخر وقد استحقوه - حسب سنن الله - بعد إخراجهم الرسول والمؤمنين من مكة.. لكن المؤمنين لم يثخنوا بل اتخذوا أسرى.. فعاتب الله رسوله لعدم الإثخان:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ الأنفال: ٦٧

52- **صحيح ابن حبان (٣٧١). ورواه البخاري عن أنس. انظر الدرر السنية - الموسوعة الحديثية.** لاحظ قول رسول=> الله بعد نزول الآيات برداً وسلاماً على قلبه:(لقد نزَلت علَيَّ آيةٌ هي أحَبُّ إليَّ مِن الدُّنيا جميعًا)، وهذا دليل على أنه ﷺ لم يكن يعلم أبعاد صلح الحديبية، ولا ثماره الطيبة في المستقبل، إلا بعد أن أخبره الله تعالى بذلك في آيات سورة الفتح.. (وسياق الآيات يدل على ذلك أيضاً)، فزادته طمأنينة ويقين في ربّه عزّ وجلّ، وكذلك المؤمنين حيث جاءت الآيات بالجواب الشافي الكافي، وبالبشرى لهم برضوان الله عليهم لمواقفهم الدالة على قوة إيمانهم وتسليمهم لأمر الله وصدق إخلاصهم له جلّ وعلا.

وبعد النصر المؤزّر في بدر لأمة الإسلام، والذي كان آية ودليلاً على أنها على الحق وأن قريشاً على الباطل؛ وقد طلبوا الفتح من الله **تعالى** على لسان الملأ منهم وخاصة أبو جهل..

قام رسول الله بتوظيف هذه النصر العسكري لتحقيق نصر سياسي أيضاً، لإعلاء كلمة الله.. فخاطب يهود بني قريضة في المدينة وهددهم بعذاب من الله يصيبهم كما أصاب قريش.. عن ابن عباس:

«لمَّا أصابَ رَسولُ الله ﷺ قُرَيشًا يَوْمَ بَدْرٍ وقَدِمَ المَدينةَ جَمْعُ اليَهودِ في سوقِ بَني قَيْنُقاعَ، فقالَ: "يا مَعشَرَ يَهود، أَسْلِموا قَبْلَ أن يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَ قُرَيشاً"، قالوا: يا مُحمَّدُ لا يَغُرَّنَّك مِن نَفْسِك أنَّك قَتَلْتَ نَفَرًا مِن قُرَيشٍ كانوا غِمارًا لا يَعرِفونُ القِتالَ، إنَّك لو قاتَلْتَنا لَعَرَفْتَ أنَّا نحن النَّاسُ، وإنَّك لم تَلْقَ مِثلَنا، فأَنزَلَ الله **عَزَّ وجَلَّ** في ذلك: { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله [ببَدْرٍ] وَأُخْرَى كَافِرَةٌ.. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ(13)} [آل عمران]». **[الموسوعة الحديثية - الدرر السنية). وانظر كتاب (تبيان سور القرآن)].**

أمّا مَن بقي على الشرك في المدينة بقيادة ابن سلول، فقد اعتمدوا "النفاق" كطريقة عمل لهم، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر...

هذا، وما سبق - وغيره الكثير من أحداث السيرة - يؤكِّد على أن "الطاعة الواعية" من رسول الله والمؤمنين، والاستقامة على أمر الله، والصبر على ذلك كله.. كان هو السبب في تحقيق النتائج الإيجابية للأحكام والمعالجات الشرعية في واقع المجتمع والأمة.. حتى تحققت الغاية من الرسالة..

وبهذا، أصبح من الواضح الجلي بأن الذي كان يُسَيِّر رسول الله في كل مواقفه وأعماله وخطابه.. هو الله **تعالى**؛ بأن يوحي إليه القرآن وبيانه من السُنة، أولاً بأول؛ خطوة بخطوة.. دون أن يَعْلَم رسولُ الله بالخطوة التالية، فلم يوحِ الله **تعالى** إليه بشيء منها، فكيف يَعْلَمها؟!.. فيبقى ﷺ مستقيماً صابراً على أمر الله في الخطوة التي هو فيها (الطاعة الواعية)، حتى يأتيه الوحي يأمره بالتحرك بالخطوة التالية، فيقوم بها رسول الله مستقيماً صابراً (الطاعة الواعية).. وهكذا.. ورسول الله على ثقةٍ تامة بربّه **عزّوجل متوكّلاً** عليه، وعلى **يقينٍ** كامل بتحقيق وعده له..

فكل أعمال رسول الله ﷺ من البلاغ والبيان في تنزيل المعالجات؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً على الواقع الإنساني (المناط) - من البداية وحتى تحقيق الغاية - سواء فيما يتعلق **بفريق المؤمنين**، أم **بفريق الكافرين** بأشكالهم المختلفة، أم **بالعلاقة** بينهما.. تلك الأعمال قام بها رسول الله على أساس من "الطاعة الواعية" للأمر الشرعيّ - أولاً بأول - بفهم مراد الله، وبفهم الواقع (المناط) على أساسٍ من الفهم لـ "سنن الله" ولطبيعة الواقع الذي يتحرّك فيه.. مستقيماً وصابراً على الأمر الأول حتى يوحي الله إليه بالأمر الثاني.. وهكذا..

فكان رسول الله ﷺ ملتزماً بما يوحَى إليه - قرآناً وسنةً؛ والقرآن هو الأصل - ومنضبطاً به ولا يخرج عنه البتّة.. في كل خطوة يخطوها.. من خلال إعلامه بالمعالجات الشرعية وبالمعالجات السننية، ثم "الطاعة الواعية" منه ﷺ لأمر الله **جلّ وعلا** في تنزيله على الواقع (الحكمة).. فهو عبد الله ورسوله ولن يضيّعه الله..

وبما سبق، يتبيّن أن **الوحي** - والقرآن هو الأصل - كان هو المصدر لتلك الرؤية البعيدة (الاستراتيجية) والبصيرة التي كانت توجّه رسول الله، والتي كانت تقوده في سيره بالرسالة في

المجتمع.. والنور الذي كان ينير له الطريق حتى وصل لنهايتها.. فأوجد الله على يديه الأمة المسلمة المؤهَّلة لخلافته في حمل رسالة الله للعالمين؛ هدى ورحمة.. وقد أكملت دينها لله **جلّ وعلا**.

بناءً عليه..

حقيقة "أن رسول الله ﷺ لم يُعْلِمه الله **تعالى** - منذ البداية - بالخطة الشاملة (المنهاج) التي ينبغي أن يَضبط بحسبها أعماله وخطابه في سيره بالرسالة"، بل هي "الطاعة الواعية" لأمر الله الشرعي الذي كان ينزل في وقته وحينه.. هذه الحقيقة، **يترتّب** عليها ثلاثة أمور رئيسة:

الأول : من **الخطأ المنهجي** النظر في السيرة النبوية وفهمها مفصولة عن القرآن ؛ سواء فهماً عامّاً أم بقصد الوصول إلى فهم "منهاج النبوّة".. لأن القرآن هو الأصل؛ فأفعال **الرسول** وأقواله ومواقفه - أي السنّة ومنها السيرة - كانت **تدور** دائماً مع ما **نُـزِّل من القرآن** وفي إطاره، ورسول الله لم يكن يعلم من القرآن إلا ما نُزِّل على قلبه؛ وقد نُزِّل مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة.. فكانت السنّة - ومنها السيرة - هي التطبيق العملي للقرآن على الواقع الإنساني لمعالجته، **أولاً بأول..** (كان خُلُقُه القرآن).. من بداية السير بالرسالة حتى وُجِدَت الأمة المسلمة، إلى اكتمال خصائصها و**إكمال** دينها (عبوديّتها) لله، على يديه ﷺ (تحقيق الغاية).. فسنة رسول الله وسيرته، كان القرآن هو الأصل فيها، ولا تتجاوز توجيهات آيات القرآن **المباشرة** أو **إطارها العام**، وحسب "المنهاج" في **ترتيل تلقيها** (التلقي المنهاجي للآيات) للسير بها - بحسب مراحل السير - بقصد تحقيق الغاية من القرآن في الواقع، وإنْ حصل بعضٌ من أفعاله ﷺ "خلافاً للأَوْلى" نُـزِّل قرآن ليصحّح ويوجّه..
فالفهم الصحيح والشامل للسيرة النبوية - وخاصة عند بحث "منهاج النبوّة" - ينبغي أن يكون على أساس **القرآن** الكريم وما ورد فيه من معالجات شرعية وبيان لسنن الله في الرسالات والرسل والدعوة إلى الله.. الأمر الذي يقتضي الربط المتين والعضوي بين السنة والسيرة وبين القرآن الكريم؛ من حيث طبيعة السير والتتابع الشرعي والسنني لمراحله وخطواته.. مع استشعار الحكمة في ذلك التتابع.. وملاحظة أهمية فهم أسباب النزول والأحداث وربطها بآيات القرآن.. كل ذلك من أجل الفهم الدقيق لخط سير رسول الله بالرسالة بقصد تحقيق الغاية من الرسالة.. وكل ما سبق له أهميته الواضحة في فهم وتعيين ما هو ملزم لنا ومكلفين به، والفصل بينه وبين ما هو ليس بملزم لنا ولا مكلفين به، من كل الأعمال والخطاب والمواقف التي قام بها رسول الله في سيره بالرسالة في واقعه.. في ثلاث وعشرين سنة.. أي معرفة "منهاج النبوّة" في السير بالرسالة من الاستضعاف إلى التمكين وتحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني. (بيان ذلك في موضعه من البحث)

الأمر الثاني : إن ما يُسمّى بـ "الفهم السياسي" (التحليل السياسي) للسيرة النبويّة، ولأعمال رسول الله أثناء سيره بالرسالة في واقعه.. المبني على افتراض أن الله قد أعلم الرسول - مسبقاً - بالرؤية الكاملة للسير بالرسالة ومراحله (المنهاج)؛ من البداية وحتى النهاية.. وأن الرسول كان يضبط أعمال السير وخطواته وخطابه بحسب تلك الرؤية الكاملة المسبقة..
نقول: إن النظر لأعمال رسول الله - أقواله وأفعاله وتقريراته - من تلك الزاوية فيه الكثير من المبالَغة والمجانَبة للصواب.. ومن ثَمّ فَلَه تأثيران سلبيان:

1- يؤثِّر سلباً على صحة فهم أعمال رسول الله في سيره بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها.. لأن النظر من تلك الزاوية أساسه غير صحيح، فرسول الله ﷺ لم يكن يملك الرؤية الكاملة مسبقاً للسير بالرسالة؛ لأن الله **تعالى** لم ينزل القرآن كله جملة واحدة على قلبه ﷺ، فلم يكن يعلم من الوحي (الدين) إلا بقدر ما كان ينزّله الله على قلبه.. فكان الوحي هو الذي كان يُسيّره ﷺ وبحسب **ترتيل** نزول آيات القرآن، **وبالقدر** الذي كان يُنَزَّل منها على قلبه مفرقة، فيبلّغها للناس، ويبيّنها لهم **كمعالجات** للواقع، من خلال **اتباعه** إياها واستقامته عليها، ويبقى ﷺ **صابراً** على ذلك (الطاعة الواعية).. حتى يُنزّل الله **تعالى** على قلبه الآيات التي تليها.. سواء كانت تلك المعالجات: **وصفاً عاماً**، أي خَطاً عريضاً يتحرَّك ضِمْنه في واقعه ﷺ.. أو **أمراً محدداً**..

﴿ **وَٱتَّبِعۡ** مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ **وَٱصۡبِرۡ** حَتَّىٰ **يَحۡكُمَ** ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩ ﴾ يونس

واستمر الأمر هكذا، ثلاثاً وعشرين سنة.. حتى تحقّقت الغاية من الرسالة.

2- له تأثير سلبيّ على الاقتداء برسول الله ﷺ؛ ذلك أن **المبالغة** في بيان "عبقرية الرسول الشخصية" في الدقة العالية في اختياره للأعمال والأشخاص والمواقف.. وبيان البعد السياسي والاستراتيجي العميق لأعمال رسول الله ومواقفه.. كل ذلك يجعل الأمر في أذهان كثير من المتلقين لهذه التحليلات القول : ومن أين لنا مثل هذه العبقرية ؟ فهو رسول الله وقد أكرمه الله بها.. فكيف لنا أن نقتدي برسول الله في مثلها؟..

نقول: إن رسول الله محمداً ﷺ؛ بوصفه رسولاً خاتماً، وبوصفه أوّل "قائد عام" للأمة الخاتمة التي ستخلفه في حمل رسالة الله للعالمين.. فهذا الأمر يقتضي - ولا شك - أن الله **عزّوجل** قد جعل رسوله على قدرات عقلية ونسبة ذكاء ودماثة خُلق، تؤهله ليكون كذلك، وعلى أعلى مستوى.. هذا أمر لا نقاش فيه .. لكن في نفس الوقت كان رسول الله دائما في حاجة للوحي، في كل خطوة وكل مرحلة من السير.. فتوجيهات القرآن الكريم كانت مستمرة في توجيهه ﷺ ليثبّت فؤاده في المواقف العصيبة، وليشرح صدره ليستوعب ما كان يواجهه من عنت وصلافة وعناد وأذى ومكر وعداء من المشركين.. وليرقّيه أكثر: في مقام الرسالة، وفي مقام "القيادة العامة" للأمة.. في مثل قول الله **تعالى:**

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠ ﴾ الأنعام: ٩٠

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥ ﴾ الأحقاف: ٣٥

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ ﴾ القلم: ٤٨ - ٤٩

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ المائدة: ٦٧

.. إلخ..

هذا على مستوى الرسالة.. فكان محمّد ﷺ لائقاً لأن يكون خاتم الرسل وأكرمهم.. فقد اكتسب جميع فضائلهم فكان أكملهم عليه وعليهم الصلاة والسلام..

أما على مستوى "القيادة العامة" للأمة الخاتمة حاملة الرسالة من بعده.. وتعليماً للجيل الذي سيقود هذه الأمة من بعده.. في مثل هذه الآيات الكريمة:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٥٩

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ التوبة: ٤٣ - ٤٤

ومواقفه ﷺ كثيرة جداً ومتنوعة في السيرة النبوية الشريفة، في تعليم أصحابه كيف يكونوا قادة ويستوعبوا جهالات بعض الناس.. ووضع الناس في موضعهم.. وتعليمهم الحكمة والرفق في الأمر كله..

والمقصود التأكيد على أن ما كان عليه رسول الله من الوعي السياسي و"الاستراتيجي" على الواقع وعلى سنن الله وطبائع الناس.. كان **الوحي** هو الأصل فيه.. ولا شك.. وهو محفوظ كله.. القرآن الكريم وبيانه من السنة الشريفة..

وأن "الطاعة الواعية" من رسول الله والمؤمنين والاستقامة على أمر الله والصبر على ذلك.. كان هو السبب في تحقيق النتائج الإيجابية للأحكام والمعالجات الشرعية في واقع المجتمع والأمة.. حتى تم تحقيق الغاية من الرسالة..

وبالتالي فإن التعلُّم منه ﷺ الاقتداء به ممكن دائماً؛ في كل زمان ومكان، إلا ما كان خاصاً به ﷺ.

(تفصيل أكثر في المبحث التالي "المبحث الثالث")

ومن هنا، فـ "التحليل السياسي" لسير رسول الله بالرسالة، عى أساس أنه ﷺ كان يملك رؤية كاملة مسبقاً لأعمال وخطاب السير: غير صحيح.. لأن أساسه غير صحيح، فهو مبني على افتراض خاطىء.. فرسول الله ﷺ لم يكن يملك الرؤية الكاملة مسبقاً لأعمال السير وخطابه.. وأيضاً له آثار سلبية على المؤمنين من حيث إمكانية الاقتداء به ﷺ..

فَمَا اكْتمل عِلْم رسول الله - والمؤمنون معه - بأحكام الدين (الرسالة وبيانها) وبمنهاج السير إلا بعد أن وصلوا إلى آخر الطريق، ونزلت آخر آية، وخَطوا آخر خُطوة حسب المنهاج.. وقد تحقّقت الغاية من الرسالة في واقعهم؛ حيث وُجِدت "الأمة المسلمة" بكامل خصائصها: "أكملت دينها لله"، وأصبحت "كلمة الله هي العليا" وأصبح "الدين كله لله".. فجاءت البشارة من الله **تعالى** بأنه (اليوم أكمَلْتُ لكم دينَكم...) وقد (جاءَ نصرُ الله والفتح).. عندها عَلِم رسول الله ﷺ أن مهمته قد انتهت، وأن أجله قد حان.. وعندما جاءه ﷺ التخيير بين البقاء في الدنيا وبين الرفيق الأعلى، اختار الرفيق الأعلى.. وقد بلّغ الرسالة وأدى الأمانة.. فجزاه الله عنّا خيرَ ما يجزي رسولاً عن أمته ﷺ.

وإنما زاوية النظر الصحيحة، هي النظرة الشرعية والسننية لأعمال السير وخطابه.. أي من زاوية المعالجات الشرعية والمعالجات السننية.. ومن زاوية "أحكام الوضع"؛ الشرط والسبب والمانع والصحة والفساد.. والتي تعطي الفهم الدقيق للمعالجة الشرعية، للمناط المعين الحاصل في مرحلته وطوره.. والفصل بينها وبين الأسلوب في معالجة ذلك المناط المعين.

(تفصيل أكثر في موضعه من البحث)

الأمر الثالث : نحن مكلّفون بالسير بالرسالة وتحقيق الغاية منها، حسب "منهاج النبوّة".. والوحي - قرآناً وسنة - بين أيدينا بتمامه وكماله، فإذا أردنا الاقتداء برسول الله ﷺ في السير بالرسالة.. فلا بد لنا **بداية**، من العلم بـ "منهاج النبوّة"؛ أي العلم بتلك الرؤية الكاملة والشاملة (الاستراتيجية) - بضوابطها؛ الشرعية والسننية - التي كان **بحسبها** تنزيل الرسالة **مرتّلة**، وكان سير رسول الله بها **لمعالجة** الواقع الإنساني أول مرة.. من البداية حتى تحقيق الغاية.. وذلك من خلال **الدراسة** الشاملة للسيرة الشريفة **وفي ضوء** القرآن الكريم وبيانه لسنن الله في حمل رسالاته للناس..

فعبادة الله **جلّ وعلا** لا تصح إلا عن علم.. "ومن عَبَد الله على جهل فكأنما عصاه".. فلا يجوز لنا أن نتحرك بالدعوة إلى الله وبيان رسالته للناس، بدون **العِلْم** الكامل والشامل بـ **"منهاج النبوّة"**.. ابتداءً.. لأن السير بالرسالة في أي مكان وعصر يجب أن يكون بحسب "منهاج النبوّة" وضوابطه؛ بتنزيل الرسالة **على الترتيل** لمعالجة الواقع الإنساني حتى تحقيق الغاية منها (إكمال الدين لله).. وبهذا يكون سيرنا على بصيرة من أمرنا وفي طاعة ربّنا.

ومن هنا، فتلك الرؤية الشاملة الكاملة لـ "منهاج النبوّة" والتي يجب فيها الاقتداء برسول الله ﷺ واتّباعاً له في سبيله، تقوم على ثلاثة أركان (كما أشرنا):

الأول: العلم بـ "**منهج الترتيل**"؛ العلم بماذا نبدأ ؟ وبأي شيء نبدأ ؟.. أي، ترتيب أولويات الأعمال والخطاب.. من خلال بيان **ضوابط** الترتيل: الشرعية والسننية، والتي على أساسها يكون؛ بيان الأولويات في تلقي آيات الرسالة، والمخاطبة بها، وأعمال السير العملي بها - بمراحله وخطواته - في أي واقع إنساني، لمعالجته حتى تحقيق الغاية من الرسالة فيه.

الثاني: العلم **بالمعالجات** بنوعيها: **الشرعية**، التي تُعالَج بها الأعمال والأحداث والمواقف، سواء بالنسبة للمؤمنين حَمَلَة "دعوة الله" أو بالنسبة للمخاطبين؛ المجتمع وملئه.. وبما تقتضيه من "أحكام الوضع" من بيان الشرط والسبب والمانع والصحة والفساد..

والمعالجات **السننية**، وتكون بالنظر إلى الأعمال والأحداث والمواقف الحاصلة: كيف حصلت؟ وسبب حصولها؟ وما الحكمة من حصولها؟.. من خلال "السنن الإلهية" في الدعوات وحمل الرسالات.. و"النظرة الإيمانية" للواقع المجتمعي؛ من خلال مشاهدة آثار أسماء الله في تلك المواقف والأحداث.. وعموم مشيئة الله وحكمته.. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.. ومِن أن الله بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير، وأنه الحكيم العليم وبكل شيء محيط.. وأنه الرحمن الرحيم وهو اللطيف الخبير.. وأنه ولي المؤمنين وناصرهم، وأنه خاذل الكافرين ومعذّبهم.. الخ.

الثالث : العلم بـ "**منهج الخطاب**" ؛ وهو كيفية الخطاب الشرعي بالأحكام والأفكار بشكل مؤثر: يقيم "الحُجَّة الرسالية" على المكذبين، ويوجِد اليقين عند من يريد الإيمان، والدافعية للاتّباع والاستقامة على أمر الله جلّ وعلا.. [53]

وبناء على ما سبق، لا بد من الانتباه إلى الفرق بيننا الآن وبين رسول الله ﷺ في تلقي القرآن والسير به لتحقيق الغاية منه في الواقع، وهو: أن الله جلّ شأنه هو الذي كان ينزِّل آيات القرآن مفرّقة **مرتّلة** - في ثلاث وعشرين سنة - على قلب رسوله الكريم؛ فهو ﷺ لم يكن يعلم من الدين - المعالجات الشريعة والسننية - إلا ما كان يُنزّله الله على قلبه من الآيات؛ أولاً بأول وخطوة بخطوة.. من البداية حتى تحقيق الغاية.. فالرؤية الكاملة (الاستراتيجية) لخط السير بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها، كانت في علم الله.. فهي من الغيب بالنسبة لرسول الله.. وكان الله يُعْلِمه بها بما يوحيه إليه أولاً بأول وحسب "التلقي المنهاجي" للآيات.. وكانت "الطاعة الواعية" من رسول الله.. حتى اكتملت الرسالة وتحققت الغاية منها..

أما نحن الآن، والوحي؛ قرآناً وسنةً بتمامه وكماله محفوظ وبين أيدينا.. والحمد لله.. فلا بد لنا من فهمه ودراسته دراسة "منهاجيّة" لمعرفة تلك الرؤية الكاملة (الاستراتيجية) لخط السير بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها.. أي الفهم الكامل لـ "منهاج النبوّة"؛ "المنهاج" الذي بحسبه كان **تلقّي** رسول الله الرسالة **مرتّلة** وسيره بها؛ **بضوابطه** الشرعية والسننية.. **وبمعالجاته** الشرعية والسننية.. وبمنهج خطابه.. وبأولوياته؛ من البداية وحتى النهاية وتحقيق الغاية..
يعني لا بد العلم والوعي على "سبيل" رسول الله في حمل "دعوة الله" وبلاغ رسالته.. حتى نستطيع أن نتبّعه في "سبيله" ﷺ..

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ : أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ، أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف: ١٠٨

فلا بد من الفهم الكامل لـ "منهاج النبوّة" (العبادة) بدايةً، وقبل البدء بالسير **والعَمل** .. حتى يكون اتباعنا لرسول الله ﷺ.. صحيحاً ومقبولاً إن شاء الله.. فحتى يُقبَل العمل ويُحقق نتائج صحيحة في الواقع (معالجة صحيحة للواقع)، لا بد أن يكون خالصاً وصواباً..

وهذا الفرق الدقيق والمهم - بيننا وبين رسول الله ﷺ في تلقي آيات القرآن مرتّلة كمنهاج للسير - لا بد أن يكون في الذهن عند البحث والنظر في سيرة رسول الله، فلم تكن عند رسول الله رؤية شاملة مُسبقة، كان يضبِط أعمال سيره بالرسالة بحسبها.. بل ما كان عنده ﷺ إلا "**الطاعة الواعية**" لأمر الله جلّ وعلا.. الذي كان ينزله على قلبه أولاً بأول.. فهو ﷺ لم يكن إلا عبد الله ورسوله، ولن يُضَيّعه الله أبداً..
أمّا نحن الآن؛ فلا بد لنا من العلم بتلك الرؤية الشاملة لـ "منهاج النبوة" بدايةً، ثم تكون منّا "**الطاعة الواعية**" في السير بالرسالة وتنتزيلها على الواقع لمعالجته؛ وهي:

- الفهم الصحيح **لمراد** الله تعالى (الكتاب)،
- والفهم الدقيق **للواقع** (المناط)،

---

53 - وهو ما كان هذا البحث إلا من أجله: بيان "منهاج النبوة في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة".

- ثم **معالجة** الواقع؛ بتنزيل أمر الله الشرعي عليه، بوعي وبصيرة (الحكمة) - مقتدين برسول الله - لتغييره حتى يكون حسب أمر الله الشرعي..
- ثم الثبات **والصبر** على ذلك، حتى يُحدِث الله بعد ذلك أمراً ؛ إمّا قدراً أو شرعاً..

فهي **الثقة** المطلقة بالله **عزّ وجل**.. و**التوكّل** الكامل عليه **تبارك وتعالى**.. إضافة إلى **"الطاعة الواعية"** لأمر الله **جلّ وعلا**.. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ الأحزاب: ٢١.

صدق الله العظيم

سابعاً : اعتماد المصطلحات الشرعية

بما أن "القضايا العامة" المتعلقة بالرسالة والأمة في أصلها قضايا شرعية، فينبغي أن تُبحَث بحثاً شرعياً.. والأصل في "البحث الشرعي" استعمال الألفاظ والمصطلحات الشرعية، وتحديداً ما ورد منها في نص الوحي.. القرآن والسنة.. وعدم الحيد عنها للتعبير عن المفاهيم والمعاني الشرعية المراد الكلام عنها. والقضايا العامة **السابقة** توجَد لها تسميات (اصطلاحات) قرآنية بديلة لها، مثل: جعْل "كلمة الله هي العليا" و "إخلاص الدين لله" و "إكمال الدين لله".. وأن يكون "الدين كله لله"..

فالمصطلحات هي أوعية الأفكار، "وهي معاني كثيرة مُكَثَّفة في لفظة واحدة".. فتحرير مفاهيم المصطلحات أمر في غاية الأهمية لأي منظومة فكريّة، فكيف بالدين الحق؛ دين الله الخاتم؟!.. وخاصة أثناء الصراع مع الباطل..

فأن تكون مفاهيم "المصطلحات القرآنية" واضحة بيّنة، يُعتبر من العوامل المهمة جداً في **تفعيل** القوة الهائلة في التأثير والتغيير (الهداية) الكامنة في القرآن الكريم [54]..

وعليه، يمكننا القول **كقاعدة عامة**:

"إن أي **كلمة قرآنية** موضوعة للتعبير عن معنى أو مفهوم معيّن، فالأصل أن لا **نحيد** عن استعمالها في الخطاب أو أثناء التعليم والتزكية"..

لأن توظيف القرآن لتلك **الكلمة** وجَعْلها جزءاً من النسيج القرآني الكامل، يوجِد لها مخزوناً فكرياً وشعورياً، ورصيداً من "الطاقة الروحية"، الأمر الذي يجعل لتلك الكلمة دوراً مقدّراً ومؤثِّراً في الهداية وتحقيق الغاية من الرسالة.. وهذه هي حقيقة "المصطلح القرآنيّ" للكلمة.. وعند **تلاوة** تلك الكلمة أو **ذِكْرها** يُستدعَى كل ذلك المخزون من المعاني والمشاعر، والطاقة الروحية الدافعة لتقوى

---

54 - ومن ذلك، نَهْيُ الله تعالى عن استعمال ألفاظ بعينها كان يستعملها اليهود في مخاطبتهم رسول الله، وهم يقصدون بها (اصطلحوا لها) معاني غير المعاني الموضوعة لها والتي يعرفها العرب من لغتهم: => (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ{44} والله أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بالله وَلِيّاً وَكَفَى بالله نَصِيراً{45} مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{46}) **النساء**.

الله وعبادته. مثل كلمات: الجنة، النار، الجهاد، الشهادة في سبيل الله، الإيمان، التقوى، الكفر، النفاق، الفسوق، الفجور، الربا، النجس، الطاهر.. واستخدام **كلمات** بديلة عن "**الكلمات القرآنيّة**" في الخطاب والتعليم والتزكية - مثل استعمال كلمة "الآخر" للتعبير عن الكافرين، أو كلمة "الفائدة" بدل الربا - أو تغيير معناها الصحيح.. ينتج عنه **تعطيل** ذلك المخزون الفكري والشعوري، وتحييد تلك الطاقة المؤثّرة، وبالتالي إلغاء فاعليتها وتأثيرها في قلوب الناس.. والذي بدوره يؤدي إلى تعطيل - كليّ أو جزئيّ - لفاعليّة كلمات الله وآياته ودورها في هداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.. ومن عبادة العباد إلى عبادة الله؛ الربّ الحق.

ومما يخالف هذه القاعدة العامة: المصطلحات التي وُضحت لاحقاً وأصبحت جزءاً من "الثقافة الإسلامية" [55] عامة، ومن العلم الشرعي خاصة، والتي أصبحت بديلة للمصطلحات التي وردت في نص الوحي - وخاصة القرآن الكريم - وصار لها تأثيراً **سلبياً** على وضوح ودقة فهم دلالة (مفاهيم) مصطلحات وألفاظ الوحي.. وقد انتشرت مثل هذه المصطلحات بعد التأثر بالمنطق الأرسطي خاصة، والفلسفة الإغريقية عموماً.. وظهور ما عُرف بـ "علم الكلام" والذي أصبح هو الاسم الطاغي لأبحاث قضايا "الإيمان" و "أصول الدين".. ونتيجة للصراعات التي حصلت بين الفِرَق المختلفة برزت مصطلحات أخرى غير مصطلحات الوحي ومناهج بحث وتفكير مختلفة عن منهج الوحي.. بل وأصبحت هي البديل، وفي خط موازي لنصوص الوحي.. خاصة في أبحاث "الإيمان" وعند بحث "الإيمان بالله" و "الإيمان بالقدر".. فبعدت الشقة بين منهج القرآن في بحث وفهم قضايا "الإيمان" وبين المناهج الدخيلة عليه.. فزاد الانحراف عن الفهم الصحيح لمثل تلك القضايا..

وفي الزمن الحديث أصبحت الحرب على مستوى المصطلحات واضحة جداً حيث أن "الحضارة الغربية" الغالبة تحاول بكل طاقتها أن تفرض ثقافتها ومقاييسها على العالم من خلال مصطلحاتها الخاصة والتي تحتال بها على الثقافات الأخرى لتطويعها لها.. وخاصة الثقافة الإسلامية.. "فقد أصبحت المصطلحات من أبرز أدوات الصّراع الحضاري والفكريّ بين الأمم" .. بل إن مصطلحاً مثل "الإرهاب" كان مبرراً لأن تقوم من أجله الحروب.. وأن تُدمَّر دول ويُقتَّل ويُشرّد الملايين من المسلمين..

فحرب المصطلحات هي حرب حياة أو موت.. حياة مستمرة أو موت بطيء.. فلا بد من الانتباه إلى المصطلحات الحديثة والواردة من الثقافات الجاهلية.. وأن نكون - نحن المسلمون - حذرين جداً في التعامل معها وتداولها، حتى لا تكون هذه المصطلحات مطيَّة للثقافات الجاهلية لاختراق ثقافتنا الإسلامية لتمييعها وحرفها عن وظيفتها الأصلية.. وتلبيس الحق بالباطل..

ومن هذه المفاهيم المشكلة في سياق بحثنا.. المصطلحات التالية:

الدولة، الدولة المدنية، الحريات الإنسانية، حرية الاعتقاد، حقوق الإنسان، الديمقراطية، الاشتراكية، النهضة، التقدُّم، الأصولية، الإسلام السياسي، الثورة..

---

55 الثقافة الإسلامية هي: (طريقة الحياة التي يعيشها المسلمون في جميع مجالات الحياة وفقاً لوجهة نظر الإسلام وتصوراته؛ في المجال المادي الذي يسمى "المدنية" أو في المجال الروحي والفكري الذي يُسمى "الحضارة"). **[صالح هندي، في كتابه عن الثقافة الإسلامية].**

ويدخل في هذه الحرب.. استيراد مناهج دراسة المساقات الإنسانية المختلفة.. التاريخية والمجتمعية والأدبية وفَهْم النصوص.. والتي هي من نتاج الثقافات الجاهلية ..

والمقصود، أنه لا بد من وضع ضوابط لـ "التأثر" و "الانتفاع".. أي، لِمَا نأخذ ولِمَا ندَع، مما عند الثقافات الجاهلية الأخرى.. مع التفريق بين المساقات ذات البعد الفكري والثقافي والحضاري.. وبين المساقات ذات البعد العلمي الخالص (علوم الطبيعة).. مع التأكيد على أن لا نحيد عن استعمال مصطلحاتنا الخاصة؛ الشرعية أو القرآنية.. وأن لا نتساهل في هذا الأمر أبداً.. "فديننا وثقافتنا تتميّز بدقّة ألفاظها، وتحديد معانيها، وبناء الأحكام على ذلك، وليس هناك أمّة اعتنت بذلك كهذه الأمّة"..

وبهذا، تبرز أهمية وضرورة تجلية مفاهيم المصطلحات الشرعية - وخاصة القرآنية - وتنقيتها مما عَلِق بها من أفكار ليست منها، واعتمادها وعدم الحيد عنها في الخطاب والتعليم والتزكية.. وإخراجها من حالة الميوعة أو التلبيس عليها..
"فالمصطلحات الشرعية لها معان ودلالات، ويُبنى عليها أحكام وجزاءات، فإذا غُيرت المصطلحات فسَد الدين، والتبس الحق بالباطل"..
فلا بد من تغطية هذا الجانب في سياق "الوعي على الرسالة"، مما له الأثر الإيجابي والحسن على تلقي الرسالة الخاتمة والسير بها في المجتمع حسب "منهاج النبوّة".. حتى نستطيع بها أن نخرج من الظلمات إلى النور:

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ﴾ إبراهيم: ١ [56]

هذا، وهناك منهج عام معروف عند العلماء في فهم اللفظة القرآنية، وقد فصلنا فيه القول في مقدمة كتاب (الإيمان بالقدر)، وسنذكِّر به هنا مختصراً..

إن فهم دلالة الكلمة في القرآن الكريم أو المفردة، له عدة "مستويات".. ومن حيث درجة الأهمية والضرورة في فهم معنى الكلمة الواردة في القرآن الكريم، فهو الترتيب التالي لهذه المستويات:

1. **"الاصطلاح الشرعي"** : وهو أخص معنى للكلمة، وأول ما يُعتمد في فهم دلالة الكلمة أو معناها في النص القرآني (أو الحديث). وإذا لم يوجد للكلمة معنى اصطلاحي شرعي، أو وُجِدت قرينة تصرف معنى الكلمة عنه، نتّجه إلى المستوى الثاني.

2. **"العُرف القرآني"**: وهو دائرة معاني أوسع من "الاصطلاح الشرعي" وأضيق من التي في اللغة واللسان العربي وأكثر تحديداً، فهي نتيجة للدقة العالية لتوظيف القرآن للكلمة أو للمفردة. وهو عبارة عن المعنى المفهوم للكلمة، الناتج عن **"عادة القرآن"** في استعمال تلك الكلمة - أو مشتقاتها - في السياقات المختلفة التي وردت فيها. ومن هنا فلا بد من استقراء تلك السياقات

---

56 - نظراً لأهمية وضرورة وضوح مفاهيم المصطلحات، فقد خصصنا كتاباً مستقلاً نجمع فيه كثيراً من المصطلحات المهمة ولها تأثير على فهم رسالة الله لنا.. وسمه (مصطلحات رسالية).. ويعتبر هو "الجزء الثالث" المكمِّل لسابقَيْه من هذا البحث: (منهاج النبوة).

لمعرفة المعنى المراد للكلمة في "عُرف القرآن".. فالقرآن الحكيم لا اختلاف فيه بل يُصدِّق بعضه بعضاً ويفسِّر بعضه بعضاً.. مثل الفرق في استعمالات الألفاظ التالية: القراءة والتلاوة.. المكر والكيد.. أنزل ونزّل.. امرأته و زوجه.. وغيرها كثير.. فلا "ترادف" (57) في ألفاظ القرآن الكريم.

3. "**العُرف اللغوي**"، أي "اللسان" :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ ﴾ إبراهيم: ٤

و "العُرف اللغوي" أو "اللسان العربي" هو: عادات الخطاب السائدة - سواء في دلالة الألفاظ أو في أساليب الكلام - في فترة زمنية معينة. هذا، والمعتَبَر في فهْم دلالة الكلمة من القرآن، أو التركيب القرآني (الآية)، هو لسان **قوم** الرسول محمّد ﷺ، الذي كان سائداً زمن نزول القرآن، ويمثّله - بشكل أساس - لسان قريش.. "فلا يجوز أن يُحمل كلام الرسول ﷺ على عادات حدثت بعده في الخطاب لم تكن معروفة في خطابه وخطاب أصحابه، كما يفعله كثير من الناس، وقد لا يعرفون انتفاء ذلك في زمانه) (58).

وتغيّر "العُرف اللغوي"هو ما يُعرف الآن بـ "**تطوّر الدلالة**" لـ اللفظة أو الكلمة، وهي خاصية أو ظاهرة في "عادات الخطاب"لا بد من الانتباه إليها عند الرجوع إليها لفهم دلالة الكلمة القرآنية. فدلالة بعض مفردات اللغة، أو التركيب اللغوية يمكن أن تتأثر بالعرف السائد في زمن لاحق، لاختلاف استعمالاتها.. وهو بحث معروف في علوم اللغة واللسانيات (59).

4. "**الدلالة المحورية**" : وفي هذا السياق يبرز مستوى آخر لفهم دلالة الكلمة وهو "المعنى المحوري" أو "الدلالة المحورية" للكلمة.. وهو يشير إلى المعنى المُحْكم أو الأصل الذي تدور حوله دلالة "جذر" الكلمة أو أصلها، في مشتقاته واستعمالاته في السياقات المختلفة.. في اللسان والقرآن.. وهذه "**الدلالة المحورية**" للكلمة لا تتأثر بتطوّر الدلالة..

ومن أشهر المراجع في "الدلالة المحورية" للكلمة، كتاب "معجم المقاييس" لابن فارس، من العلماء القدماء.. وكتاب "المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم" لـ محمد حسن حسن جبل، من المحدثين.. ويمكن أن نُتبعهما بكتاب "مفردات القرآن" لـ الراغب الأصفهاني.

---

57 - الترادف لغة: التتابع. واصطلاحًا: "دلالة عدد من الكلمات المختلفة على معنى واحد". وفي ألفاظ القرآن فالأصل هو عدم الترادف، فالكلمات السابقة ليست مترادفة في استعمال القرآن الكريم لها بل هنالك فروق دقيقة بين معانيها. والترادف ممكن في اللغة ووارد في استعمالات الناس اللغوية، رغم اختلاف أهل اللغة في إثبات هذه الظاهرة أو إنكار وجودها في اللغة. **[للتفصيل انظر ملحق (الترادف في القرآن) في نهاية كتاب (الإيمان بالقدر). مرجع سابق. هامش رقم 7].**

58- ابن تيمية، انظر (واقعية ابن تيمية) - د أنور خالد الزعبي؛ الفصل الخامس: اللغة والتأويل. وانظر كتاب (الإيمان) - ابن تيمية، فصل: الحقيقة والمجاز.

59 - من الأمثلة على ذلك؛ كلمة "التأويل"؛ فمعناها في القرآن وفي العرف اللغوي هو التحقّق والحصول في الواقع، كما في قوله تعالى: (..وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً..{100}) **يوسف**. وفي رواية البخاري ومسلم عن عائشة: (كانَ النبيُّ ﷺ يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ في رُكُوعِهِ وسُجُودِهِ: "سُبْحَانَكَ=> اللهم رَبَّنَا وبِحَمْدِكَ اللهم اغْفِرْ لي"؛ يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ). أي: يَفْعَل ما أُمِر به فيه، أي: في قولِه تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} **[النَّصْر:3]. (انظر موقع "الدرر السنيّة")**. وعند أهل التفسير تأتي بمعنى التفسير، أي بيان المعنى الذي يرجع أو يؤول إليه الكلام. وعند أهل الكلام تأتي بمعنى صرف الكلام عن معناه الظاهر إلى معنى آخر. **[انظر(التعريفات - للجرجاني)].**

وإلى هنا نكون قد انتهينا من استعراض بعض الأفكار والمفاهيم والمتعلّقة بـ "الجانب الشرعي"، لتصحيح الرؤية للوَحيين - وخاصة القرآن الكريم لأنه هو الأصل - وبيان زاوية النظر الصحيحة إليه..

وهي - في أغلبها - معلومة معروفة.. إلا أن التذكير بها هنا يأتي في سياق تصوّر عام وشامل للرسالة الخاتمة.. ولمَا لها من **تأثير مباشر** على دقة فهم "القضايا العامة" المتعلقة بنصرة دين الله وعزة الأمة المسلمة.. والتصوّر **الصحيح** لها..

هذا، وإضافة إلى "الجانب الشرعي" و "المعالجات الشرعية"، فإن للقضايا العامة جانباً آخر ننظر إليها منه، وهو: جانب "المعالجات السُنَنيّة".. والذي أساسه فهم "سنن الله" في الإنسان والحياة والكون.. وقد بيّن الله **تعالى** لنا كثيراً مما يتعلّق بهذا الجانب، من خلال السير العملي لرسول الله ﷺ بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها في واقعه الذي واجهه رسول الله.. حيث كان العلم بها هو الأصل في إيجاد "الوعي السياسي" و "الاستراتيجي" على الواقع الإنساني.. والأرضية الصالحة لاتخاذ المواقف السليمة والقرارات الحكيمة..

وهذا ما سنتناوله في المبحث التالي.. وبالتفصيل الذي يسمح به المقام.

المبحث الثاني : جانب السنن الكونية (الأمر الكوني)

السُنة في اللغة لها أصل واحد وهو: "جريان الشيء واطراده " **[معجم المقاييس]**.

وفي الاصطلاح هي: "طريقة الله **جلّ وعلا** وعادته الدائمة المطَّردة في إنفاذ إرادته ومشيئته، متمثلة في أمره؛ (كن):

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ يس: ٨٢

فإن كان أمره - **عزّوجل** - متعلقاً بالخلق والتقدير والقيوميّة، فهذا هو الأمر القدريّ (الكوني)، فيكون بحسب **سنته القدريّة** (الكونية) في الآفاق والأنفس والأمم:

﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء: ٧٧

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الفتح: ٢٣

وإن كان أمره - **عزّوجل** - متعلق بالتكليف بالشريعة والدين، فذاك الأمر الشرعيّ، فيكون بحسب **سنته الشرعيّة**، أي دينه وطريقة عبادته التي أرادها ورضيها من المكلفين من عباده، فأوحاها إلى رسله وأنبيائه ليبيّنوها لهم.. والتي هي منسجمة ومتوافقة تماماً مع سنن الله في الخلق والتقدير (الفِطْرة) **[انظر المفردات - الأصفهاني]**:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ النساء: ٢٦ ""

و "**المعالجات السُّننيّة**".. هي الأعمال (قول أو فعل) التي في أصلها "مباحة" شرعاً، والمناسبة عقلاً وواقعا لمعالجة حدث حاصل فعلاً (المناط)، والتي ينبغي القيام بها، بناء على فَهْم طبيعة ذلك

"المناط" فهماً شاملاً من منظور السنن الربانية: في الآفاق والأنفس، وفي الأمم والمجتمعات، والرسل والرسالات؛ من حيث سبب حدوثه والحكمة من حدوثه، الدروس والعِبَر:

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ فاطر: ٤٣

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٢

فـ "السُنن القدرية"، هي **القوانين** الدائمة والمستمرة التي **قدّرها** الله لضبط الخواص [60] التي خلق عليها كل مخلوق، في نفسه وفي علائقه مع غيره.. سواء في الكون أم الإنسان؛ فرداً ومجتمعاً، أم في الحياة..

ومن هنا، فإن قِوام "المعالجات السُّننيّة"؛ أفعالاً وأقوالاً.. هو معرفة وفهم **"السُنَن الإلهية"**، أي فهم تلك القوانين الدائمة التي **قدّرها** الله **تعالى** **لضبط** الخواص التي خلَق عليها الإنسان والحياة والكون.. وأبرزها ما يتعلّق بالإنسان؛ الخليفة في الأرض.. فردا ومجتمعاً..

وهذا الفهم والعلم هو أساس "النظرة الإيمانية" للواقع الإنساني. **[انظر رسالة (التفكير الإيماني) مرجع سابق، هامش 64].**

وكلٍ من "الخواص" و"السنن"، **تمثل مشيئة الله تعالى** الدائمة في الخلق، فلا تتغيّر ولا تتبدل؛ أي: **أمر** الله أو **قضاؤه** أو **حُكْمه** أو **جَعْله** الكوني القَدَريّ (القدر):

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الفرقان: ١ - ٢

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ فصلت: ١٢

[التفصيل في كتاب (الإيمان بالقدر)، مرجع سابق. هامش رقم 7]

وقد استفاض القرآن الكريم في بيان سُنَن الله المجتمعية والإنسانية المتعلّقة بحَمْل الرسالات في المجتمعات.. فكما بيّن الله **جلّ وعلا**، لنا في رسالته الخاتمة **أمره الشرعي** ممثلاً بشريعته ودينه؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً.. بيّن لنا كذلك، الكثير من **أمره القدريّ**، متمثلاً بـ :

✓ **الخواص** المتعلقة بالواقع الإنساني بأبعاده المجتمعية المختلفة؛ الفكرية والسياسية وغيرها.. أمّة ومجتمعاً (أهل القرى)؛ أفراداً وملأً، أتباعاً ومتبوعين.. المؤمنين بدرجاتهم.. والكافرين بأشكالهم.. والمنافقين وطبائعهم.. ومنها سُنَن الهداية والضلال.. وطبيعة العقبات - الفكرية والمادية - التي يمكن أن يواجهها حَمَلَة الرسالات، ممثَّلين بأنبياء الله ورسله **عليهم الصلاة والسلام**..

60 - خاصيّة الشيء هي: ما يُعطيه الشيء نفسه وينتج عنه. مثل خاصية الإبصار في العين، والإحراق في النار، كالخواص الكيميائية والفيزيائية والحيوية .. في الكائنات المتنوعة.

- **والسُنَن** التي تضبطها وتحكمها، فكل خاصية في أي مخلوق جعل الله **تعالى** لها سُنَناً (قوانين) تضبطها من حيث المقدار والوصف..

وعند النظر في صيغة "سُنة الله" في القرآن الكريم، نجد أنها ترِد خاصة بالسُنَن المجتمعية (الإنسانية)، دون السُنَن الكونية، وهذا ما أشار إليه ابن تيمية رحمه الله، بعد استعراض الآيات التي ورد فيها لفظ سُنة، بقوله: "وهذه السُنَن كلها سُنَن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وليست هي السُنَن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات".

ومنها تلك المتعلقة بالإنسان بوصفه "الخليفة" في الأرض والسيد فيها، الذي سخّر الله له ما في السماوات والأرض جميعاً منه، ليتمكن من القيام بالخلافة في الأرض، والقيام بالأمانة الجليلة العظيمة المُناطَة به؛ "العبودية الخالصة لله".. كما بيّنها الله **تعالى** في رسالاته التي أنزلها على الناس، من لدن آدم حتى الرسول الخاتم ﷺ.. وقد وردت تلك السُنَن مفصّلة في رسالة الله الخاتمة، باستفاضة وشمول، وعلى طول الطريق لإكمال الدّين لله **جلّ وعلا**.. وتكاد لا تجد سورة من القرآن تخلو من ذكرٍ لبعض تلك السنن أو الإشارة إليها [61]، إمّا من خلال ذكر القصص وضرب الأمثال - وهو الأعم الأغلب - ثم بالتعقيب عليها والإشارة إلى سنة الله **تعالى** أو حكمته منها. أو من خلال الإخبار والبيان المباشر..

هذا، وسُنَن الله (قوانينه) الكونية في الوجود سواء منها المادية أو المجتمعية لها "خصائص عامة" لا تتغير، ومن أهمها:

1- أنها دائمة الجريان ومستمرة لا تتخلّف أبداً.. إلا أن يشاء الله غير ذلك؛ كما في معجزات الأنبياء والرسل عليهم السلام، فيُجْرِيها الله **تعالى** على سُنَن أخرى غير المعروفة والمعتادة للبشر.
2- أنها كلها تعمل معاً.. ضمن النظام العام للوجود..
3- أن "مخرجاتها" أو نتائجها **لا** تحصل ولا تكون ولا تقع **إلا** إذا **استكملت** جميع "مدخلاتها"؛ أي جميع مقدماتها؛ أسبابها أو شروطها.. **وانتَفَت** جميع موانعها [62].

وهذا واضح تماماً، في السُنَن المادية في الكون والإنسان والحياة وفي السُنَن الإنسانية والمجتمعية.. حيث جاءت بصيغ لغوية معروفة؛ منها صريحة ومباشرة مثل كلمة "سنّة"، أو غير صريحة فجاءت بصِيَغ لغوية متعددة، أبرزها: "الجُمْلة الشرطية". وأحرف السببية؛ ف، ب. والحرف؛ حتى.. وصِيَغ أخرى.. وكُلّها تفيد بشكل واضح لا لبس فيه، أن "مخرجات" السُنَن الإلهية **ونتائجها**، "مشروطة بـ" أو "متوقفة على" أو "مبنية على" أو "مُسَبَّبة عن".. مدخلاتها **ومقدماتها**.

[انظر الآيات التالية، مثلاً].

61 - **انظر- مثلاً- مشروع كتاب (أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم) (كشّاف موضوعي) إعداد زينب عطية محمد،** وقد صدر منه الجزء الأول في مجلدين كبيرين، وهو متعلق بـ (السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم).

62 - للتفصيل **انظر (خصائص السنن: خاصية الشمول، وما بعدها)، في كتاب (سنن الله في إحياء الأمم) - د حسين الشرفه.** ولمعرفة علاقة "سنن الله" بـ "قدّر الله" و "مشيئة الله" يمكن الرجوع إلى كتاب (الإيمان بالقدر). **[مرجع سابق. هامش رقم 7]**. وهو من الأبحاث المنهجية من "الجزء الثالث" (مفاهيم رسالية)، وهو مخصص لبيان مفهوم مصطلح "القدر" ومعه مصطلحات قرآنية أخرى ذات علاقة به، مثل: القضاء، السبب، علم الله، الكتابة في اللوح المحفوظ.. وفيه بيان حقيقة علاقة مشيئة الله بمشيئة الإنسان، حقيقة فاعلية الإنسان، قدرته على الاختيار، مسؤولية الإنسان عن أفعاله.. وغيرها من القضايا المهمة.

من أهم السنن التي ينبغي العلم بها - إن لم تكن الأهم - تلك المتعلقة بضبط وتسيير ما جعل الله في الإنسان، فرداً ومجتمعاً وأمّة، من خصائص بوصفه "الخليفة" في الأرض، والسيد فيها الذي سخّر الله له ما في السماوات والأرض جميعاً منه، ليتمكن من القيام بالخلافة في الأرض، والقيام بالأمانة المناطة به؛ إكمال (إخلاص) الدّين لله.. ومنها تلك المتعلقة ببيان طبيعة حمل الرسالات في المجتمعات (القرى).. كما أشرنا سابقاً..

وواضح أن مواقف الناس من **عبادة** الله **وحمل رسالته** لتحقيق الغاية منها، شأن إنساني؛ فهي سلوك **إنسانيّ** ناتج عن وعي واختيار.. فستكون مصبوغةً بالخواص الإنسانية، ومضبوطةً بالسنن التي تحكم الواقع الإنساني بوصفه إنسانياً؛ فرداً وأمّة ومجتمعاً.. وبغضّ النظر عن الزمان وتعاقبه، والمكان وتغيّره، والمستوى المدنيّ (التقنيّ) واختلافه.. سواء من جهة **"أمّة المسلمين"**؛ أهل الحقّ الذين رضوا بالله ربّاً وعبدوه وحده، من أنبياء الله ورسله مع من آمن بهم واتبعهم بإحسان، من لدن آدم حتى خاتم النبيين **عليه وعليهم الصلاة والسلام**.. أمْ مِن جهة أهل الباطل الذين كفروا بالله - الإله الحق - وعبدوا الطّاغوت وأطاعوه بأشكاله المتعددة، في الجاهليّات المختلفة على مر العصور، حتى قيام الساعة.. أم من جهة الصراع المصيريّ بينهما:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ **ٱلطَّٰغُوتُ** يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧ ﴾ البقرة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨ ﴾ البيّنة

ومن هنا، فإن جميع **مواقف** الذين كفروا وردود أفعالهم واختياراتهم، وباختلاف أنواعهم ودرجاتهم.. **لم يكن يحكمها** أمر الله **الشرعيّ**؛ فهم كفّار، بل كان يحكمها أمر الله **القدريّ** ومشيئته العامة، متمثّلة بما جعل الله **سبحانه وتعالى** في الأفراد والمجتمعات والرسل والرسالات، من **خواص وطبائع** ومن **سنن ضابطة** لها.. **فالقدرة على الاختيار** لدى الإنسان - مثل سائر قدراته - مخلوقة ومحدودة، ولها سننها الإلهية الضابطة لها.. **[انظر كتاب (الإيمان بالقدر)]**

وقد بيّن الله **تعالى** لنا في رسالته الخاتمة، كل ما يلزم الأمة العلم به، من خواص وطبائع كل شكل من أشكال الكفر - مشركين، أهل كتاب، منافقين، ملحدين.. - الذي يمكن أن تواجهه الأمة أثناء قيامها بالرسالة؛ تطبيقاً ودعوة. وكذلك بيّن لنا خواص وطبائع أهل الإيمان؛ متّقين مخبتين أبرار صالحين.. في سياق "المعالجات السننية".. وإحسان التعامل مع الواقع الإنساني لمعالجته..

وهذه أمثلة من آيات الله **تعالى**، تبيّن بعض سُنَن الله في السير بالرسالة في المجتمع (القرية) لإكمال الدّين لله **جلّ وعلا**.. سواء قبل أم بعد النصر والتمكين:

- ✓ ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ.. {١١}﴾ [الرعد: 11]
- ✓ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)﴾ [الأنعام]

- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم ٤٧]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة]
- ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)﴾ [آل عمران]
- ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾ [هود]
- ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنة الله فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنة الله تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾ [الأحزاب]
- ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ [العنكبوت]
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا الله كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾ [الأنفال]
- ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنة مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ [الإسراء]
- ﴿ .. ذَلِكَ بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)﴾ [الأنفال]
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا الله يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ الله فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ الله مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) ﴾ [محمد]

- ﴿..وَلَوْلَا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ الله كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج]
- ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)﴾ [فصلت]
- ﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة ٤٦]
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)﴾ [سبأ]

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾ [الأعراف]
- ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ الذاريات: ٥٢ - ٥٣
- .. الخ

فالعلاقات الإنسانية جعَلها الله بقدَر، أي بمقدار؛ فلها **خواصها** ولها **سننها** التي تحكمها وتضبطها، فلا بد عند **النظر والفهم** لما يقع من أحداث ومواقف (مناط) أثناء السير لتحقيق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني المعيّن، أن يكون ذلك من خلال تلك الخواص والسنن وفهمها في إطارها، لما لها من صفة الديمومة والثبات. ثم يكون التعامل معها بأن تُنـزّل عليها "المعالجات الشرعيّة" المتعلقة بها، مع اتخاذ كافة الأساليب والوسائل لتحقيق تلك المعالجات الشرعيّة في الواقع، على أساس قاعدة: "**مغالبة أقدار الله بأقدار الله**"، واعتماد **الحكمة** في معالجة الواقع.. **والصبر** على ذلك حتى يأتي الله بأمره.. كما في قوله سبحانه:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩ ﴾ العنكبوت: ٦٩

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦ ﴾ آل عمران: ١٤٦

.. الخ.

مصدر العلم بالسنن الكونية

إن دليل إثبات السُنَن الكونية (القدرية) - المجتمعية والإنسانية منها - وما يترتَّب عليها من "معالجات سننية".. يكون إما **شرعياً**؛ من القرآن والسنة، وهو الأصل، أو **عقلياً** بالتفكر في خلق الله في الآفاق والأنفس وأحوال الأمم أو بـ "الانتفاع" من التجارب والخبرات الإنسانية المتنوعة والمختلفة، فـ "الحكمةُ ضالةُ المؤمنِ فحيثُ وجدها فهوَ أحقُّ بها"..

حيث أن عِلْم رسول الله ﷺ بِجُمْلة الأمور الضرورية والمتعلّقة بطبيعة حركة الرسالات في المجتمعات وسننها؛ مثل - وحسب مصطلحات عصرنا :

- ✓ كيف يكون التأثير في الناس لتغييرهم ليشكّل منهم أمة متميّزة؟.. وكيف يؤثر فيهم ليأخذ قيادهم؟..
- ✓ الوعي على واقع جزيرة العرب والقوى المؤثرة فيها وعليها.. قبل وبعد "التمكين" في المدينة.. والاهتمام بالوضع "الإقليمي"؛ العرب الموالين للفرس والعرب الموالين للروم.. والوضع "الدولي" المحيط بجزيرة العرب؛ إمبراطورية فارس والروم.. والصراع بينهما.. (سورة الروم، سورة التوبة)

- ✓ فَهْم حقيقة "الأمة المسلمة" وكيفية قيادتها؛ فهي نوع جديد من الاجتماع البشري لم تعرفه العرب؛ اجتماع على فكرة، على دين، وليس على أساس قبَلي أو مصلحي.. فكان المسلمون من مختلف قبائل العرب، وكان منهم الحر والعبد والعربي والرومي والفارسي..
- ✓ وفَهْم طبيعة "قوى الشد العكسي" والتجاذبات الداخلية والخارجية التي كانت تُعيق تقدُّم سير هذه الأمة نحو تحقيق الغاية من الرسالة فيها؛ مثل اليهود وأوليائهم من المنافقين في المدينة وبقايا المشركين.. وقريش في مكة، والقبائل حول المدينة وفي جزيرة العرب.. (انظر سورة التوبة)
- ✓ .. الخ، من مثل هذه القضايا - - المتعلقة بعلوم الاجتماع والسياسة والإدارة وعلم النفس والتأثير في الرأي العام.. وطبيعة نشوء الأمم وزوالها..

كل ما سبق ذكره، كان رسول الله ﷺ على علم بما هو ضروري ولازم منه، وفي كل مرحلة من السير بالرسالة؛ من البداية حتى النهاية وتحقيق الغاية.. والمصدر الأكبر والأساس في ذلك العلم، هو **الوحي** قطعاً؛ فهو مصدر التلقي والتعلّم الوحيد لرسول الله.. متمثلاً بـ "عِلْم السنن الإلهية" الذي استفاض القرآن الكريم في بيانها وشرحها أثناء سير رسول الله - والمؤمنون معه - في حمل الرسالة؛ من بداية مرحلة "ما قبل التمكين" في مكة حتى نهاية مرحلة "التمكين" في المدينة.. من حيث بيان خواص أعداء الله وطبائعهم وكيفية تفكيرهم.. وبيان طبيعة العقبات والمعوقات التي يمكن أن يواجهها حامل الدعوة..

فالعِلْم بسنن الله، هو الدليل والهادي إلى القسم الآخر من المعالجات للواقع؛ "المعالجات السننية".. وهو الهادي إلى الأسلوب المناسب لتنزيل "المعالجات" بنوعيها على الواقع المعيّن، لمعالجته بشكل فعّال يحقق الغاية المرادة.. حيث كانت تتنزّل الآيات التي فيها بيان السنن اللازمة والضرورية، كمعالجات لما كان يواجهه فعلاً رسول الله من أشخاص ومواقف وأحوال.. أولاً بأول.. ومتوافقاً ومتزامناً مع تتابع خطوات سيره ﷺ **بالرسالة** والحركة بها في واقعه، بقصد تحقيق **الغاية** منها.. من مكة إلى المدينة ثم الجزيرة.. والتي هي "المهمة الأصل" الجامعة لمهامه كلها ﷺ.

هذا، وتكاد لا تجد سورة من القرآن تخلو من ذكرٍ لبعض تلك "السنن الإلهية" أو الإشارة إليها؛ إمّا من خلال ذكر القصص وضرب الأمثال - وهو الأعم الأغلب - ثم بالتعقيب عليها والإشارة إلى سنة الله **تعالى**.. أو من خلال الإخبار والبيان المباشر.. فالعلم بـ"السنن"، وفَهْم حقيقة الواقع الإنساني الذي تسير فيه الدعوة، وفهم الحكمة مما حصل، وأسباب ما حصل.. الخ.. يُعتبر هو الأساس في معرفة "المعالجات السننية" الازمة.. ويعتبر أصلاً في "**منهج تثبيت**" المؤمنين على سبيل الدعوة إلى الله [63].

والعِلْم بـ "السنن الإلهية" بهذا الشمول، يُعتبر من الهدى والحكمة التي أنزلها الله **تعالى** في كتابه، وقد راعاها وبيّـنها رسول الله في سيره وتطبيقه لأمر الله في الواقع الإنساني:

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ الإسراء

63 - ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ **[هود ١٢٠]** ،، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ **[الفرقان ٣٢]**.

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ **وَيُعَلِّمُكُمُ** ٱلۡكِتَٰبَ **وَٱلۡحِكۡمَةَ** وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ ﴾ البقرة: ١٥١

وهذا العِلْم ضروريّ وأساسيّ للأمة الخاتمة في سَيْرها في عبوديتها لله **تعالى** وحَمْلها رسالته هدى ورحمة للإنسانية في أنحاء الأرض حتى قيام الساعة، وخاصة، عند "تحقيق المناط" ومعالجة الواقع الإنساني بالمعالجات - الشرعية والسننية - الصحيحة، لتحقيق الغاية من الرسالة فيه بأقصر وقت وأقل التكاليف المادية والبشرية..

فالعلم بأمر الله الكوني - ممثلاً بما جعل الله عليه الأمم والمجتمعات (القرى) من طبائع وخواص وبالسنن التي تحكمها - لا يقل أهمية عن العلم بأمر الله الشرعي، ذلك أنه **عزّوجل** ما أنزل أمره الشرعي (الشريعة والدين) إلا لأجل أن يكون حاكماً ومُسيراً للواقع الإنساني الذي يحكمه ويضبطه أمره الكونيّ (القدريّ). فـ "أمر الله الشرعيّ" التكليفي - في حقيقته - فيه **الهداية** للسير حسب "أمره الكونيّ القدريّ"؛ سنن الله في الوجود، سنن الفطرة.. وعندما يخالف الإنسان أمر الله الشرعي (الهداية) يضل، فيتصادم مع سنن الكون وسنن الفطرة.. عندها تصبح معيشته "معيشة ضنكى".. وفي الآخرة ينال جزاءه الأوفى..

هذا، وإضافة للوحي؛ المصدر الأكبر والأساس للمعرفة بالواقع الإنساني وسننه، كانت هناك مصادر فرعية مساعدة للمعرفة بالواقع الإنساني زمن النبوّة، وكانت من أسباب تسهيل تحقيق الغاية من الرسالة زمن النزول الأول، أبرزها: شخصية رسول الله ﷺ المتكاملة، وخبراته الشخصية في حياته: حيث رعى الغنم واشتغل في التجارة، وكونه من بني هاشم القادة، ومن قريش سيدة مكة؛ أم القرى في جزيرة العرب، والمسؤولة عن المسجد الحرام.. ثم شخصيات الصحابة - من المهاجرين والأنصار - خاصة الكبار منهم الذين لازموا رسول الله وكانوا وزراءه ومستشاريه، فلكل شخصية منهم تميُّزها وتفرُّدها وبروزها في مجال من المجالات الحياة الإنسانية؛ من العلم بالأنساب وطبائع العرب وأشعارهم والخبرة القتالية والعسكرية والفصل في المشكلات.. وغير ذلك، مما يشمله قول الله **تعالى**:

﴿ ..ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ.. ١٢٤ ﴾ الأنعام

إلا أن المصدر الرئيس والأكبر والأهم - ولا شك - هو الوحي؛ وخاصة القرآن، من خلال العِلْم بـ "السنن الإلهية" الحاكمة لسير وحركة الرسالات في المجتمعات لتغييرها؛ من حيث طبيعة المجتمعات الجاهلية، وخاصة الملأ منهم، في مواجهة الدعوة إلى التغيير بجعل العبودية لله هي أساس المجتمعات، وأن الطاعة لا تكون إلا لله ولرسوله (إخلاص الدين لله).. وليس لأي جهة أخرى (الطاغوت)؛ لا الآباء ولا الملأ والسادة ولا سدنة الأصنام.. وبيان طبيعة مواقفهم.. وطبيعة إثارة الشبهات.. فالإنسان هو الإنسان؛ بخواصه وشهواته..

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ﴾ آل عمران

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة: ٢٤

والمجتمع الإنساني هو نفسه؛ بمقوماته الأساس.. إلا أن الوسائل والأدوات والأشكال هي فقط التي تختلف، من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر.. ولولا ذلك لمَا حصلت العبرة لرسول الله من قصص الرسل السابقين وما حصل معهم مع أقوامهم.. والتي استفاض القرآن في ذكرها وبيان سنن الله في الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل.. وهي الأصل لإيجاد العبرة الآن وفي كل زمان..

وذلك، لأن طريقة القرآن في تناول القصص والأحداث التاريخية والنظر إليها، هي من خلال السنن الإلهية الضابطة لها، وبغض النظر عن الزمان والمكان والأشخاص.. وذلك بعرض الحدث مقروناً بسننه الإلهية المؤثرة فيه وجوداً وعدماً، سبباً وشرطاً، غاية وحكمة.. لتحقيق العبرة.. فالأحداث التاريخية في حقيقتها أنها: "السنن الإلهية مطبّقة على واقع إنساني معين في زمانه ومكانه وأشخاصه"..

وهذا يختلف عن "النظرة التاريخية" للقصص أو رؤيتها ضمن "الإطار التاريخي". ويُتّبع فيها - عادة - الأسلوب السردي في ذكر الأحداث والوقائع التي حصلت، ويُراعى التتابع التاريخي التفصيلي في ذكر حدوثها، مع الاهتمام بالظروف التي حصلت فيها، من حيث الزمان والمكان والأشخاص، كما هي طريقة المؤرخين في سردهم التاريخ والسِّيَر وقصص الأنبياء.

ومن هنا، فإن ما ذُكر في القران الكريم من أسماء بعض الأشخاص أو الأماكن أو الأحداث.. المتعلقة بالواقع الذي نزل فيه القرآن أو بالزمان الذي قبله.. لم يُذكر للمعرفة التاريخية المجرّدة، بل هو **لتوثيقٍ سُننيّ مِنْهاجيّ**، فما ورد ذكره من ذلك الواقع الإنساني من أشخاص وأماكن وأحداث.. من خلال القصص القرآني وغيره.. يُعتبر نماذج عمليّة و **أمثلة تطبيقية** لسنن الله الدائمة الجريان في الإنسان، أفراداً وأمماً ومجتمعات.. أتباعاً ومتبوعين.. وبياناً لكيفية معالجتها بدين الله **تعالى** لتحقيق "العبودية الكاملة" لله (إخلاص الدين لله) في المجتمع، بغض النظر عن الزمان والمكان والأشخاص.. **(تفصيل أكثر في موضعه من البحث)**

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ **وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ** وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ يوسف: ١١١

فالقرآن الكريم هو رسالة الله **تبارك وتعالى** الخاتمة للإنسانية كافة.

فعِلْم "السنن الإلهية"، باب من أبواب العِلْم، وقد فصّل فيه القرآن كثيراً.. إلا أنه قد غفل عنه المسلمون، فلم يأخذ حقّه من الدراسة والبحث، رغم ضرورته وأهميته التي توازي العلم بـ "أمر الله الشرعي".. بحُكْم أن السنن من "أمر الله القدري".. وهما معاً ركنا العلم بأنه **لا إله إلا** الله..

[انظر كتاب (الإيمان بالقدر)، مرجع سابق. هامش رقم 7].

وتبرز أهمية هذا العلم وضرورته أكثر، عند البحث في كيفية "إعادة تأهيل" الأمة المسلمة لتعود - كما كانت - قادرة على القيام بمهمتها التي أُنشأت من أجلها: "إخلاص الدين لله"؛ عبادة الله وحده، وحمل رسالته للعالمين هدى ورحمة.

فوائد العلم بالسنن الكونية

بما أن الخواص والسُنن الإلهية المتعلقة بالواقع الإنساني تمثلان **تقدير** الله له، **ومشيئته** العامة فيه: فما شاء الله كان، وبحسب ما قدّر في الأشياء (الكائنات) من خواص وسنن ضابطة لها، وبعد تحقُّق شروطها وانتفاء موانعها..
وما لم يشأ لم يكن، وأيضا بحسب ما قدّر في الأشياء (الكائنات) من خواص وسنن ضابطة لها، إلا أنه لم تتحقق شروطها ولم تنتفِ موانعها ..

فإنّ فَهْم المؤمنين لتقدير الله للأشياء (الكائنات) ومشيئته فيها؛ بمعرفة خواصها والسنن الضابطة لها.. والنظر إلى الأحداث الحاصلة فعلاً بحسب سنن الله.. يترتّب عليه **فوائد** كبيرة ومتنوعة، إضافة إلى ما أشرنا إليه، تتمحور حول نقطة مركزية: تمكين المؤمنين من إدراك الواقع الإنساني الذي يتواجدون فيه إدراكاً صحيحاً ودقيقاً، وفَهْم ما يقع من أحداث (المناط)؛ وذلك - بشكل أساس - من زاوية "النظرة الإيمانية للواقع": لماذا وقعت؟ وكيف؟ وما الحكمة من وقوعها؟.. [(64)]
وهذا الفهم والنظر للأحداث الواقعة له تأثير إيجابي مباشر على طبيعة سير المؤمنين بالرسالة حتى تحقيق الغاية.. وهو جزء من "منهج التثبيت".. حيث أنه:

✓ يعطي المؤمنين مستوى عالٍ من الوضوح والفهم في التعامل مع الواقع الإنساني ومعالجته قدراً وشرعاً، وبالتالي القدرة على تحقيق مراد الله **تعالى** فيه بكفاءة عالية وبإحسان:

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الملك: ٢٢

✓ يقوّي من عزيمة المؤمنين ويُعِينهم على الثبات (منهج التثبيت) على الحق والصبر على ذلك حتى يحكم الله **تعالى** بينهم وبين أعدائهم.. فكل ما حدث ويحدث إنما هو بأمر الله القدري ومشيئته، أي حسب سننه، وأن لله وحده الحُكْم والقضاء في ذلك، وأن له وحده الأمر من قبل ومن بعد، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ الروم: ١ - ٥

---

64 - وهي تختلف عن "النظرة السياسية" للأحداث أو "التحليل السياسي لها".. بل المفروض أن تكون=> "النظرة الإيمانية" أصلاً وإطاراً عاماً "للتحليل السياسي" لأن أساسها المبنية عليه، هو الحقائق التي وردت في الوحي؛ القرآن الكريم والسنة الشريفة: "الحقائق الإيمانية"؛ أنه لا إله إلا الله، الموت والرزق بيد الله وحده، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، القدر خيره وشره من الله.. الخ.. و"الحقائق السننية"؛ المتعلقة بالفرد والمجتمع، طبائع فئات الناس المختلفة في موقفها من الحق، طبائع الملأ، طبائع الأتباع.. الخ.. من الحقائق الكثيرة المنوعة التي هي بمثابة المنارات التي تُنير طريق الدعوة وحمل الرسالة وتحدد معالمها، وفيها الهداية للوصول إلى الغاية. انظر رسالة (التفكير الإيماني) - من مجموعة "رسائل حول المنهاج". على الرابط:

﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤١ ﴾ آل عمران: ١٣٩ - ١٤١

✓ يوجد لدى المؤمنين بصيرة نافذة، وقدرةٌ على توقع ما يمكن أن يحدث، واستشرافا للمستقبل [65]، "فلا تصدمهم الأحداث بل تكون لديهم صلابة في الموقف، بخلاف مَنْ يجهل مصدر الأحداث وسببها والحكمة منها.. فإنه ليس لديه إلا الخوف والقلق":

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٦٥ ﴾ آل عمران: ١٦٥

﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝٢٥ ﴾ التوبة

.. إلخ

وهذا هو الأمر المشترك بين الرسل كلهم، بل والبشرية جمعاء، فالسنن هي السنن والبشر هم البشر:

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ ﴾ الذاريات: ٥٢ - ٥٣

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ۝١١٢ ﴾ الأنعام: ١١٢

وهو **مجال** الاقتداء بالرسل السابقين وإطاره، الذي أمر الله **تعالى** به الرّسول الخاتم ﷺ وأمته من بعده:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ **فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ** .. ۝٩٠ ﴾ الأنعام: ٩٠

من حيث اتباع الحق والثبات عليه.. و الصبر على المشاقّ.. ومضاء العزيمة.. وعدم اليأس:

﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٢٠ ﴾ هود: ١٢٠

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ ﴾ القلم: ٤٨ - ٤٩

---

65 - وهو أصلٌ في تكوين "التفكير الاستراتيجي" عند المسلم حامل الرسالة، أي النظرة بعيدة المدى للأمور والتخطيط للمستقبل القريب والبعيد.. وقد كان ذلك ظاهراً في قرارات وأعمال رسول الله ﷺ في قيادته=> للأمة، وعند الخلفاء الراشدين من بعده، وعند الكثير من قادة الأمة ورجالاتها على مدى تاريخها الطويل.

فاكتسب الرسول الخاتم محمّد ﷺ كمالات الأنبياء والرسل الذين سبقوه.. فكان أكملهم، عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم السلام.

وهكذا، وعلى مثل هذا كان **تلقي** رسول الله محمّد ﷺ والجماعة المسلمة والأمّة المسلمة، القرآن الكريم **وفَهْم** سنن الله **تعالى** الدائمة الجريان التي لا تتبدّل ولا تتغيّر، في عبوديتهم لله وتبليغ الرسالة وحمل الدعوة.. **وفَهْم** قصص الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام في **دعوة** أقوامهم **وتعبيدهم** لله **تبارك وتعالى**، ثم القدرة على توظيفها والاستفادة منها في تحقيق الغاية من القرآن في واقعهم (الحكمة).. رغم التباعد بينهم في الزمان والمكان، والاختلاف في المستوى المدنيّ والتقنيّ.. وما كان ذلك ليكون إلا بسبب أن الله **جلّ وعلا**، شاء وقدّر أن تكون خواص الإنسان وطبائعه العامة فردا ومجتمعاً والسنن الضابطة لها، دائمة ومستمرة:

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧ ﴾ الإسراء: ٧٧

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢ ﴾ الأحزاب: ٦٢

وعليه، فإن فَهْم حقيقة الواقع الإنساني الذي تعمل فيه الرسالة أمر مطلوب شرعاً، سواء عند فهم المعالجات الشرعية أم عند تنزيلها على الواقع [66] أم عند فهْم المنهاج وكيفية السير..
فالعلم بأمر الله الكوني - ممثلاً بما جعل الله عليه الأمم والمجتمعات (القرى) من طبائع وخواص وبالسنن التي تحكمها - لا يقل أهمية عن العلم بأمر الله الشرعي، ذلك أنه **عزّوجل** ما أنزل "**أمره الشرعي**" (الشريعة والدين) إلا لأجل **معالجة** الواقع الإنساني **وتغييره وصياغته** حسب مراد الله **تعالى**، وهو أن يكون الدّين كله لله.. فيكون حاكماً ومُسيراً للواقع الإنساني الذي يحكمه ويضبطه أمره الكونيّ (القدريّ). فـ "أمر الله الشرعيّ" التكليفي - في حقيقته - فيه **الهداية** للسير حسب "أمره الكونيّ القدريّ"؛ سنن الله في الوجود، سنن الفطرة.. وعندما يخالف الإنسان أمر الله الشرعي (الهداية) يضل، فيتصادم مع سنن الكون وسنن الفطرة.. عندها تصبح معيشته "معيشة ضنكى".. وفي الآخرة ينال جزاءه الأوفى..
فلا بد من فهم طبيعة الواقع الإنساني من حيث خواصه وسُننه الإلهية التي تحكمه - أساسه "النظرة الإيمانية" للواقع - فهماً يُمَكّن حَمَلَة الرسالة من تلك **الصياغة للواقع**..

66 - وهو ما يعرف بـ " تحقيق المناط " كما ذكرنا سابقاً من أن كل معالجة شرعية للواقع مبنية على مقدمتين الأولى: تحقيق المناط، المقصود منها فهْم الواقع المراد إصدار الحكم عليه. والثانية: فَهْم النصوص=> الشرعية المتعلقة بهذا الواقع. ثم؛ يكون تنزيل الثانية على الأولى. وبعبارة أخرى يُتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه، إلى معرفة حكم الله في ذلك الواقع.

المبحث الثالث : النجاة وتحقيق الأهداف، لا تكون بالاستقامة على أمر الله؛ إخلاصاً واتباعاً؛ (الطاعة الواعية)

بناء على ما بيّناه في المباحث السابقة، أصبح حقيقة واضحة؛ أن الله عزّوجل ما أنزل "أمره الشرعي" (الشريعة والدين) إلا لأجل أن يكون حاكماً ومُسيراً للواقع الإنساني الذي يحكمه ويضبطه - أصلاً - "أمره الكونيّ" (القدريّ).. لأنه لا إله إلا الله..
فـ "أمر الله الشرعيّ" التكليفي - في حقيقته - فيه **الهداية** للسير حسب "أمره الكونيّ القدريّ"؛ سنن الله في الكون والإنسان والحياة.. فيحيا الإنسان؛ فرداً ومجتمعاً، حياته الدنيا منسجماً مع قوانين الكون والحياة ونواميس الخَلْق والفطرة.. فيحياها؛ فرداً ومجتمعاً في سعادة وهناء.. ويحيا الحياة الآخرة أيضاً - وقد حقق العبودية لله - في رضوان الله تبارك وتعالى، في جنة ونعيم دائم..
أمّا إذا خرج الإنسان عن "أمر الله الشرعيّ"؛ شريعته ودينه، ضَل وتصادَم مع نواميس الخَلْق والفطرة (أمر الله القدري) في نفسه ومجتمعه وفي الكون من حوله - والتي لا يعلم منها إلا القليل القليل - وعندها تكون معيشته؛ فرداً ومجتمعاً في الحياة الدنيا، شاقة نكِدة.. وفي الآخرة يكون مقيماً في غضب الله وعذاب أليم.. ومصداق ذلك قوله تعالى:

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ طه: ١٢٣ - ١٢٧

ونؤكِّد هنا على أن العلاقة بين السبب (الإعراض عن الوحي) ونتيجته (المعيشة الضنكى) هي علاقة طردية تفاضلية.. فـ "الإعراض" هنا عام؛ فقد يصل إلى الكفر أو يكون مجرد المعصية من المؤمن.. بمعنى أن هذه الآية تنطبق على الكفّار بدركاتهم والمؤمنين بدرجاتهم.. فَضَنك المعيشة يتناسب طرديا مع الإعراض عن الوحي؛ فيزيد بازدياده وينقص بنقصانه.. كماً وكيفاً.. ويؤيده **عموم** قوله سبحانه:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ الزلزلة: ٧ - ٨

﴿ .. مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ النساء: ١٢٣ - ١٢٤

({من يعمل سوءاً يُجز به} في هذه الجملة ما ترجف له القلوب من الوعيد الشديد، وقد كان لها في صدور المسلمين عند نزولها موقع عظيم كما ثبت في صحيح مسلم [2574] وغيره من حديث أبي هريرة قال: {لما نزلت (من يعمل سوءاً يجز به)، بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً. فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسددوا ففي كل ما يُصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها} "..

فشرط النجاة - في الدنيا والآخرة - هو الاستقامة على أمر الله (الطاعة الواعية): الإيمان والعمل الصالح.. إخلاصاً واتباعاً.. هذه حقيقة وسنة ربّانية.. لها تأثير مباشر على حياة الناس..

وبديهياً، هذه الحقيقة تنطبق على أوامر الله من أحكام "المنهاج"؛ منهاج تلقي الرسالة وحمْلها والسير بها بقصد تحقيق الغاية في المجتمع.. وهو المنهاج الذي التزمه رسول الله وسار بحسبه حتى أكمل الله الدين وحقق الغاية على يديه ﷺ..

وعليه.. فبقدر ما يكون الالتزام بأحكام "منهاج النبوّة"؛ أي "الطاعة الواعية" لأمر الله الشرعي، بقدر ما يكون السير في المجتمع متوافق مع سنن الله (أمر الله القدري) - سواء علمنا به أم لم نعلم - وبالتالي يكون تحقيق النتائج؛ بتحقيق أمر الله الشرعي (دينه وشريعته) في الواقع وحياة الناس في المجتمع وتكون معيشتهم بحسب شريعة الله.. وأي مخالفة شرعية لأمر الله الشرعي، معناه التعارض مع سنن الله في الواقع المجتمعي وبالتالي التأخير في تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ المائدة: ٦٦

أي "ولو أن اليهود عملوا بما في التوراة، وأن النصارى عملوا بما في الإنجيل، وعملوا جميعًا بما أنزل عليهم من القرآن، لَبَسط الله تعالى عليه الرزق وأسبغ عليهم النعم ولأصبحوا في خيرات وبركات تحوطهم من كل جانب هذا ما وعدهم الله به.. وهو جواب الشرط (لو).. فإقامة الشريعة في كل زمانٍ سببٌ لكل خير؛ خير في الدنيا، وخير في الآخرة".. كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ **ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟** لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ **وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟** فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف: ٩٦

﴿ وَأَلَّوِ **ٱسْتَقَـٰمُوا۟** عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ **لَأَسْقَيْنَـٰهُم** مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ الجن: ١٦

"وأنه لو سار الكفار من الإنس والجن على طريقة الإسلام، ولم يحيدوا عنها لأنزلنا عليهم ماء كثيرًا، ولوسَّعنا عليهم الرزق في الدنيا"

فالشريعة منهج حياة واقعي وعملي؛ يقدِّم معالجات حقيقية للواقع الإنساني بعلاقاته الإنسانية المتنوعة والمتشعِّبة (**سبب** شرعي).. وفي حال تطبيقها واتباعها يجد الناس **نتائجها** الإيجابية في حياتهم، والتي هي المؤشّر على أن التطبيق كان صحيحاً، يعني أن تفعيل "السبب الشرعي" قد تَمّ بشكل صحيح..

والقاعدة العامة (القانون): أنه إذا لم تحققوا الأهداف ولم تصلوا إلى النتائج المطلوبة، فاعلموا أن هناك سبباً مباشراً لذلك، وهو عدم استيفاء كافة الشروط والأسباب أو عدم التخلّص من كافة الموانع.. وذلك إمّا **بمخالفة** "أمر الله الشرعي"؛ اتباعاً أو إخلاصاً.. أو **بمخالفة** "أمر الله القدري" أي السنن وطبائع الأشياء.. من وسائل وأساليب أو حتى طريقة..

لأن المعنى الواقعي (التداعيات والنتائج) **لمخالفة** "أمر الله"؛ الشرعي أو القدري.. هو تعطيل للأسباب الفاعلة في الوجود فلا تحصل النتائج المرادة والتي ينبغي أن تحصل وتوجَد .. فكل **مخالفة**

لأمر شرعيّ أو أمر سننيّ؛ إنما هي **معارَضة** لسنن الله (مشيئة الله)، فستكون مانعاً لتيسير الأمور وسبباً لحصول التعسير.. فلا وصول للنتائج إما كلياً أو جزئياً:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾ الشورى: ٣٠

(المصيبة هنا، الأَوْلى حَمْلها على العموم، كما يفيده وقوع النكرة في سياق النفي، ودخول "مِنْ" الاستغراقية عليها.. فهي كل **ما** يصيب الإنسان من مكروه أو سوء؛ صغُر أم كبُر.. من المصيبة، حتى الشوكة يشاكها المؤمن، حتى طَفْي السراج..

يقول: فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من الله لكم بما اجترحتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم..

(و يعفو عن كثير) أي، ويعفو الله عن كثير من المعاصي التي يفعلها العباد، فلا يُعاقِب عليها..

أو يعفو عن كثير من الناس مباشرة، فلا يعاجلهم بالعقوبة.. والكفار ليسوا أهلًا للعفو..

والعفو هنا، يصدُق على تأخير العقوبة، كما يصدق على محو الذنب ورفع الخطأ به.

وقال الواحدي: وهذه أرجى آية في كتاب الله، لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين، صنف كفَّره عنهم بالمصائب، وصنف عفا عنه في الدنيا وهو كريم لا يرجع في عفوه، فهذه سنة الله مع المؤمنين، وأما الكافر فإنه قد لا يُعجِّل له في الدنيا عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة..

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: (لا تصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر، وقرأ "وما أصابكم" الآية) **[أخرجه الترمذي وعبد بن حميد]**

وعن عمران ابن حصين أنه دخل عليه بعض أصحابه وكان قد ابتُلي في جسده، فقال: إنا لنَبْتَئِس لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتئس لما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية إلى آخرها). **(فتح البيان للقنوجي - صديق حسن خان).**

والمقصود التأكيد على حقيقة؛ أنه لا يصح إلا الصحيح.. وأن "المعالجات الشرعية" - بحكم أنها أسباب - لها تأثير مباشر في الواقع إمّا سلبي أو إيجابي.. عن ابن عباس قال: (نزل القرآن **كله جملة واحدة** في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن **يُحدث** في الأرض شيئا **أنزله منه**، حتى **جَمَعه)** [67]**.** أي حتى نزل جميعه.. فنزول آيات من القرآن كان بقصد إحداث التغيير في الأرض على يد رسول الله والمؤمنون معه: **(فكان الله إذا أراد أن يُحدث في الأرض شيئا أنزله منه)**، وذلك بأن يتمثّلوا بأنفسهم آيات الله (الطاعة الواعية)، وأن يجعلوها هي المعالجات لواقع المجتمع، بتغييره وجعله كما يُحب الله ويرضى..

لكنّ التأثير الإيجابي للأحكام والمعالجات الشرعية لا يتحقق إلا بشرطين (ركنين)، وهما: أن يتم القيام بها على وجهها الصحيح (الصواب)، ولا يُقصَد بها إلا وجه الله، أي: بالإخلاص والاتِّباع..

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾ الكهف: ١١٠

أي (فمن كان يأمل خيراً عند لقاء ربه فليعمل عملًا **موافقًا** لشرعه، **مخلصًا** فيه لربه، ولا يشرك

67 - أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً: **(موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور - حكمت بن بشير بن ياسين).** فالله **جلّ وعلا** ما بعث رسوله برسالته وشريعته إلا ليحدث تغييراً نحو الأصلح في حياة الإنسان؛ الخليفة في الأرض.

بعبادة ربه أحدًا). [ابن كثير]

الإخلاص (عمل قلبي)؛ إخلاص الدين لله، فلا شرك أصغر؛ رياء أو نحوه.. ومن باب أولى؛ لا شرك أكبر..

والاتِّباع (عمل الجوارح)؛ متابعة رسول الله في التزامه بمراد الله.. يعني كما بيّنه، مع ما يلزمه من "الحكمة".

فهذان شرطان حتى تُحدِث الأحكام والمعالجات الشرعية نتائجها الإيجابية (الغاية منها) في واقع الناس وحياتهم، أفراداً ومجتمعات:

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ الملك: ١ - ٢

(أي: قدَّر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه). [السعدي وابن كثير].. فلا يصح إلا الصحيح: وهو ما كان خالصاً وصواباً..

لذلك في حال حصول خلل أو تقصير في أيٍ من الشرطين السابقَين، فلا تحصل النتائج المرجوّة بل قد تحصل نتائج معاكسة:

- ✓ فالإخلاص وحده بدون اتباع.. لا يكفي؛ لا في قبول العمل ولا في حصول الثواب.. ولا في تحقيق النتائج في الواقع.. (في بعض الأحوال، قد يكون غير المتّبع معذوراً بالجهل؛ فلا يأثم).
- ✓ والإخلاص مع اتباع الأمر الشرعي المُستَنْـبَط بفهم غير صحيح (ضعيف، مرجوح).. يكفي في حصول الثواب (حسنة الأخرة)، ولكن لا يكفي لحصول النتائج في الواقع.. (اجتهد فأخطأ)..
- ✓ أمّا الإخلاص مع اتّباع الأمر الشرعي المُستَنْـبَط بالفهم الصحيح (الراجح، الصواب).. فهو - بإذن الله تعالى - سبب في حصول الأجر والثواب في الآخرة (حسنة الآخرة).. وسبب في حصول النتائج الإيجابية (المرجوّة) للأحكام والمعالجات الشرعية في واقع الناس وحياتهم (حسنة الدنيا).. (اجتهد فأصاب).. وبشرط إحسان التطبيق أو التنزيل على الواقع لمعالجته (الحكمة)..
- ✓ والعمل دون إخلاص لله وحده.. شرك أصغر ومردود على صاحبه.. والعياذ بالله..

فأي **خلل** في الشرطين (الركنين) للعمل المقبول، يمنع من الوصول إلى النتائج.. وبحسب أهمية الخلل ومقداره يكون مقدار البعد عن تحقيق النتائج:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ **مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا** يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ **مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا** يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ الزلزلة: ٧ - ٨

كما بيّن الله لنا ذلك - وللجيل الأول من الأمة أصالة - وأكده في مواقف عملية حقيقية كثيرة، منها:

1- قصة بني إسرائيل وموسى عليه السلام، حيث تأخّر عليهم تحقيق وعد الله **بتمكينهم** في الأرض المقدسة ليعبدوا الله وحده مخلصين له الدين.. رغم أن الله **تعالى** قد **نصرهم** على فرعون؛ حيث نجاهم من بطشه وأغرقه وجنوده في اليم..

وأن التأخير كان بسبب **مخالفتهم** لأمر الله الشرعي وعدم طاعة رسوليه موسى وهارون **عليهما السلام**.. فكان عقابهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة.. توفي خلالها رسول الله موسى وأخوه هارون دون تحقّق وعد الله له.. والقصة وردت في سورة المائدة : 20-26..

"لمّا امتنّ الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسْرهم واستعبادهم.. وأمرهم أن يذهبوا إلى الأرض المقدسة، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوهم من ديارهم. فوعظهم موسى **عليه السلام**؛ وذكّرهم بنعم الله الدينية والدنيوية عليهم ليُقدموا على الجهاد..

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ المائدة٢٠: ٢١

فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله:

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المائدة: ٢٢

وهذا من الجبن وقلة اليقين بوعد الله، وأن القوي مَن أعانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله..

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ المائدة: ٢٣

أي، قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ الله - وانعم عليهم باليقين وقول كلمة الحق - مُنهِضين لهم على قتال عدوهم لإخراجهم من الأرض المقدسة، فقالوا لقومهم: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون ﴿وَعَلَى الله فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.. فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين:

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ المائدة

فلما رأى موسى **عليه السلام** عتوهم عليه، دعى الله عليهم:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ المائدة

قال: يا رب لا سلطان لي على أحد إلا على نفسي وأخي هارون، فافصل بيننا وبين القوم الخارجين عن طاعتك وطاعة رسولك..

فقال الله مجيبا لدعوة موسى :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ﴾ المائدة

إن الله حرَّم دخول الأرض المقدسة على بني إسرائيل مدة أربعين سنة، يضلون هذه المدة في الصحراء حيارى لا يهتدون، فلا تأسف - يا موسى - على القوم "الفاسقين"؛ الخارجين عن طاعة الله، فإن ما يصيبهم من عقاب هو بسبب معاصيهم وذنوبهم.. لا ظلما منا.

إن "الهداية" الشرعية هي طريق "الهداية" إلى التمكين وسبب شرعي فيه.. فترْكُهم لها كانت نتيجته عكسية؛ دخولهم في التيه في الأرض.. فلم يشفع لهم وجود رسولَيْن لله بينهم.. فسنن الله نافذة ولا تحابي أحداً.. رغم أنه **جلّ وعلا** يعفو عن كثير..

فالمخالفة لـ "أمر الله الشرعي" معناه التعارض مع سنن الله في الواقع المجتمعي، وبالتالي التأخير في تحقيق النتائج.. أي تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع..

2- مثال على الخلل في الاتِّباع: المُصَاب الذي وقع على المؤمنين في غزوة أحد، نتيجة مخالفة **بعضهم** أمر رسول الله في البقاء على الجبل.. فلم يشفع لهم وجود رسول الله ﷺ بينهم.. وذلك ليتعلَّموا الدرس وتكون لهم عبرة بعد ذهاب رسول الله من بينهم.. وتكون كذلك عبرة لنا نحن أيضاً؛ حيث لم تشفع لهم صحبتهم لرسول الله ومكانتهم من نصرة دين الله.. فسنن الله نافذة ولا تحابي أحداً.. رغم أنه **جلّ وعلا** يعفو عن كثير.. وعندما تساءلوا من أين جاءت هذه المصيبة ، أتاهم الجواب من الله تعالى:

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ **أَنَّىٰ هَٰذَاۖ** قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ ﴾ آل عمران: ١٦٥

3- مثال على الخلل في الإخلاص؛ ما حصل للمؤمنين من مصيبة في غزوة حنين.. وذلك بسبب الشِّرك الأصغر (شِرك الأسباب)، بقول **بعضهم**: "لن نُغلَب اليوم من قِلة": ظنوا أن الكثرة ستكون **سبب** النصر، إلا أن ظنهم ذاك كان سبب مصيبتهم:

﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥.. ﴾ التوبة: ٢٥

فهذه المصائب (النتائج العكسية) التي تؤدي إلى ضنك وتعسُّر معيشة الإنسان.. وقعت بسبب الإعراض عن الوحي، إخلاصاً لله **عزّ وجلّ** أو اتّباعاً للصواب.. أي، بسبب ترك "الأسباب الشرعية".. أو بسبب "إساءة التطبيق" (عدم الطاعة الواعية)..

فالأسبابُ في الكون والحياة والإنسان، نوعان:

"أسباب شرعية" وهي **أمر** الله الشرعي؛ أي ما أنزله الله من أحكام ومعالجات لتنظيم حياة الناس أفراد ومجتمعات.. إيماناً وإسلاماً.. وما يلزمها من شرط إحسان المعالجة (الطاعة الواعية).

و "أسباب كونية" وهي **أمر** الله الكوني خلقاً وتقديراً، متمثلاً بالخواص والسنن الضابطة لها، التي جعل الله عليها الكائنات؛ كلٍ بحسبه..

هذا، والمصائب الحاصلة للمؤمنين نتيجة عدم إتيان (مخالفة) الأسباب الشرعية والقدرية.. تكون بمثابة منبهات للصحو من الغفلات.. حتى يراجعوا أنفسهم ويصحّحوا مسيرهم.. بالبحث عن **الأسباب** الشرعية أو الكونية.. لحصول تلك المصائب.. أو **الموانع** من حصول النتائج المرجوّة من الأعمال - أفعال وخطاب - التي تم القيام بها..

وكيف لا يراجع المؤمنون أنفسهم؟!! وقد قام - تعليماً لنا - خير خلق الله؛ رسول الله ﷺ المعصوم والمؤيَد بالوحي، بمراجعة نفسه بعد تعسُّر أمر الدعوة إلى الله وتأخُّر نزول النصر الموعود من الله.. وكان أشدها وأقساها على نفسه موقف أهل الطائف، فقال ﷺ بعدها **معتَذِراً** إلى الله راجياً له جلّ وعلا:

(اللهم إليكَ **أشكو** ضعفَ قوتِي وقلةَ حيلتِي وهوانِي على الناسِ، يا أرحمَ الرحمينَ إلى منْ تكلُنِي إلى عدوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أو إلى قريبٍ ملكتَهُ أمرِي، إنْ لمْ تكنْ ساخطًا عليَّ فلا أُبالِي غيرَ أنَ عافيتَكَ أوسعُ لي، **أعوذُ** بنورِ وجهِكَ الكريمِ الذي أضاءَتْ له السماواتُ والأرضُ وأشرقتْ لهُ الظلماتُ وصلُحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ، أنْ تُحِلَّ عليَّ غضبَكَ، أو تُنزِلَ عليَّ سخطَكَ، ولكَ العُتْبَى حتى تَرضَى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بكَ). **[أنظر (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي]**

4- وكما بيّن الله سبحانه وتعالى سنته تلك، في ما حصل مع أهل الحق الذين من قبلنا:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨ ﴾ آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨

هَذِهِ الآيات جاءَتْ في سياق مواساة المؤمنين بعد ما حصل معهم من قَرْح "يوم أُحُد".. يُؤَسّيهِمْ بِطَرِيقِ الصّالِحِينَ مِن قَبْلِهِمْ؛ ويُسَلِّيهِمْ بِأحْوالِهِمْ، وأن هذا أمر قد كان متقدماً، ولم تزل سنة الله جارية بذلك، والمعنى العام للآيات:

(وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ).. أي، وكم من نبي من أنبياء الله قاتل معه جماعات من أتباعه كثيرة.. فالجيش الذي خرج للمعركة قوامه رِبِّيون كثير؛ أي ربّانيون؛ من الأتباع الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، وهُم كثيرون.. وقيادة الجيش نبوة.. ونيّتهم كانت خالصة لله؛ فهُم لم يخرجوا إلا لله: (فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)..

فنتوقّع - بناء عليه - انتصاراً يزلزل الأرض.. وإذا بالآية تُفاجئك أنهم أصيبوا.. أصابهم قتْل وجراح وغير ذلك..

لكنّهم كانوا من الذين يقرأون الحدث بصورة صحيحة.. حسب "التفكير الإيماني".. فأعادوا قراءة الحدث، فقالوا: ما هو الخلل الذي أدى لعدم حصول النتيجة، بل حصل عكسها؟، فكان أول رد فعل لهم، أنهم:

(فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ).. **فالوَهَنُ** قِلَّةُ القُدْرَةِ عَلى العَمَلِ، وهو أقْرَبُ إلى خَوَرِ العَزِيمَةِ، ودَبِيبِ اليَأْسِ في النُّفُوسِ والفِكْرِ،

(وَمَا ضَعُفُواْ) من أن يراجعوا أنفسهم وأن يعيدوا المحاولة.. **والضَّعْفُ** بِضَمِّ الضّادِ وفَتْحِها ضِدُّ القُوَّةِ في البَدَنِ، وهو أقْرَبُ إلى الاِسْتِسْلامِ والفَشَلِ في المُقاوَمَةِ.

(وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ) من قوة الأعداء.. و**الِاسْتِكانَةُ** هي الخُضُوعُ والمَذَلَّةُ لِلْعَدُوِّ.. وقوة الأعداء هنا سبب مؤثّر، لكنّهم لم يعتبروه هو السبب في ما أصابهم.. بل هناك سبب آخر.. ما هو؟..

إنهم في مشوارهم هذا حصلت منهم ذنوب، وحصل منهم إسراف في بعض الذنوب.. والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حُرّم.. (ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا)..

ومِنَ اللَّطائِفِ أن تَرْتِيبُها في الذِّكْرِ جاء عَلى حَسَبِ تَرْتِيبِها في الحُصُولِ: فإذا خارَتِ العَزِيمَةُ (الوهن)، فَشَلَتِ الأعْضاءُ (الضعف)، وجاءَ الِاسْتِسْلامُ، فَتَبِعَهُ المَذَلَّةُ والخُضُوعُ لِلْعَدُوِّ (الاستكانة).. فنفى الله عنهم كل ذلك..

فما وهَنَت قلوبهم، ولا ضعفت أبدانهم، ولا ذلّوا لعدوّهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال سبحانه: (وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦).. ثم بعد ذلك..

(وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧)..

فعلموا أن **مخالفة** أمر الله الشرعي والاستمرار فيها (الإسراف) من أعظم أسباب الخذلان، وأن العودة إلى الصواب والحق من أسباب النصر.. فسألوا ربهم مغفرتها..

ومن الملاحَظ، أنهم لم يعتبروا أن قوة الأعداء هي السبب.. فكأنهم قالوا: فلتكن قوة الأعداء ما تكون، طالما أننا سنصحّح الأمر مع الله ونُعيد تفعيل "الأسباب الشرعية"، فلا يهمنا عدد الأعداء وقوّتهم.. بمعنى، رغم أنهم قاموا بتفعيل "الأسباب الكونية" (القدرية).. إلا أنهم عندما **شعروا** أنه حدث منهم تقصير في تفعيل **بعض** "الأسباب الشرعية".. **بقرينة** حصول النتيجة المعاكسة.. **بادروا** إلى تصحيح الأمر حتى تأتي معهم النتيجة المرجوّة على أكمل وجه..

ثم إنهم لم يتّكلوا على ما بذلوا من جهد، في الصبر ومراجعة أنفسهم.. بل اعتمدوا على الله.. فسألوه **سبحانه وتعالى** أن يثبّت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم.. يعني؛ أن ثقتنا ليست بأعدادنا ولا بأنفسنا.. إنما نستمد النصر منك يا ربّ..

فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم.. أي، إعادة تفعيل "الأسباب الشرعية"؛ المتعلّقة بالقلب وبالجوارح.. فماذا كانت النتيجة؟..

لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة:

(فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨)

ثواب الدنيا؛ من النُّصرة والغنيمة والعز وطيب الذِّكر..

وثواب الآخرة؛ الفوز برضا ربّهم، والنعيم المقيم الذي سلِم من جميع المنكّدات..

وما ذاك إلا أنهم أحسنوا العمل، فجازاهم الله بأحسن الجزاء.. وخصَّ ثواب الآخرة بالحُسن، للدلالة على فضله وتقدّمه، وأنه هو المعتدّ به عنده (68).

وهكذا، و"العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب".. عندما يسير المؤمنون بموجب إتيان الأسباب الكونية (القدرية) وصاحَب ذلك مخالفات شرعية؛ أي ترْكٌ لـ "الأسباب الشرعية"، فإن الله **سبحانه وتعالى** يُنبِّههم إلى هذه المخالفات، بأن لا تحصل النتائج على النحو الذي أرادوا.. بل قد تأتيهم نتائج معاكسة..

فعند تعسُّر السير وصعوبة الطريق، لا بد لِحَمَلَة "دعوة الله" من الانتباه، والقيام بمراجعة شاملة وتقويم دقيق لما مضى من خطوات السير، مع التجرّد الكامل والإخلاص التام لله **عزّوجل**، حتى لا يكون ذلك التعسّر.. أي عدم الوصول إلى النتائج.. عقوبة لهم من الله **تعالى**، بسبب **مخالفتهم** لأحكام "المنهاج"؛ سواء الكونية (السننية) أم الشرعية - الأعمال والخطاب - وما تقتضيه من الإخلاص لله وحُسن الفهم والتطبيق (الطاعة الواعية).. **وتستمر** المراجعة حتى يتحقّقوا **يقيناً** أن **المانع** من حصول النتائج، ليست **المخالفات** للأمر الشرعي ولا للأمر القدري (السنن).. أي، أن المانع ليس عدم ممارسة (ترْك) الأسباب الشرعية والكونية المحققة للنتائج المطلوبة..
ولا بد أن يقترن مع ذلك الجهد في البحث والمراجعة.. الإخلاص في الدعاء إلى الله والتذلل إليه **جلّ وعلا** وطلب الهداية للصواب والعَون وتيسير الأمور، وطلب التوفيق لما يُحب ويرضى.. كما هو شأن الصالحين.. وكما هي سنة إمامهم؛ رسولنا محمد ﷺ أسوتنا وقدتنا.. حتى نكون أتباعاً له ﷺ في سبيله، ألا وهي: "الدعوة إلى الله على بصيرة".. شرعاً وقدراً.

ولهذا، فمن شأن المؤمن أنه إذا أصابه خير رد الفضل إلى الله وقال: الحمد لله الذي بنعمته الذي تتم الصالحات، وإذا أصابه شر لم يَلُم إلا نفسه ولم يتهم إلا نفسه، قال **تعالى**:

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩ ﴾ النساء: ٧٩

كما في حديث النَّبيِّ ﷺ فِيما رَوَى عَنِ الله **تبارك وتعالى**، أنَّهُ قالَ:

(.. يا عِبَادِي، إنَّما هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فمَن وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ..). **[صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم 2577]**

لهذا تجد بعض الصالحين يقول: "إني لأعْصِي الله فأعرف ذلك في خُلق حماري وخادمي وامرأتي وفأر بيتي". **[نسبها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية للفُضَيل بن عياض، وأيضاً أبو نعيم في الحلية، وابن الجوزي في صفة الصفوة].**

---

68 - انظر تفاسير: الأمين الشنقيطي، ابن عاشور، السعدي، الزمخشري، المختصر في التفسير. وفيديو للشيخ محمد المقرمي - "الأسباب ومفاتيح الغيب".

فالأصل أن تكون حياة الإنسان المؤمن المستقيم على أمر الله، في انتظامها وسلاستها مثل انتظام وسلاسة سير الكون والحياة؛ بنظام دقيق لا اختلال فيه ولا فوضى ولا فساد [69].. لكنّ الإنسان بحكم أن الله قد أعطاه الشهوات كقوة وطاقة حيوية محرّكة له، وأعطاه العقل والإرادة والمشيئة كقوة ضابطة.. فهو يُمكِنه أن يخالف إرادة الله ومشيئته الشرعية (الأمر الشرعي).. فيتعارض بذلك مع سنن الفطرة والخلق وسنن الكون، فيُحدِث الفساد والفوضى في معيشته وحياته بل يصل إلى بيئته المحيطة به:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الروم: ٤١

أي "ظهر الفساد في البر والبحر، في معايش الناس بِنَقْصها؛ كالجدب وقلة الأمطار وكثرة الأمراض والأوبئة.. وذلك بسبب المعاصي التي يقترفها الناس، ليصيبهم بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ كي يتوبوا إلى الله - سبحانه - ويرجعوا عن المعاصي، فتصلح أحوالهم، وتستقيم أمورهم"..

فالفساد والاختلال الذي يقع في حياة الناس ومعيشتهم، هو **دليل** على خروج الإنسان عن أمر الله الشرعي (شريعة الله ودينه) واتباعه لهواه.. **فهو** بمثابة **المنبهات** للناس ليصحوا من غفلتهم وليعلموا أن هناك خطأ **ما** حصل منهم.. وهذا من رحمة الله بهم.. لأن الخروج عن الأمر الشرعي يعني التصادم مع السنن الكونية والنظام العام الخَلْقي القدري الضابط لسير الكون والإنسان والحياة؛ أي التعارض مع الخواص والسنن التي فَطَر الكائنات عليها.. وبالتالي حصول الفساد: صعوبة الحياة وتعسّرها والمعيشة الضنكى.. بمعنى عدم تحقيق النتائج المرجوّة:

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأعراف: ١٦٣

---

69 - الفساد: خروج الشيء عن الفطرة، وعن الغاية أو الحكمة التي خُلق من أجلها. وعن كونه مُنتَفع به.=> فالفساد: سوء حال الشيء ولحاق الضرّ به. ويضاده الصلاح وهو أن يؤدي المهمة التي خُلق من أجلها وكونه منتَفَع به. (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها{56}) **الأعراف**. والإصلاح إنماء الصالح وإكثاره وزيادة فاعليته ومنفعته. أو جعل الشيء صالحاً مرة أخرى بعد أن أُفْسِد، فالإصْلَاحُ: ضدّ الإفساد. وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال: (إِنَّ الله لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ{81}) **يونس**، فالمُفسِد يضادّ الله في فعله، فإنّه يفسد والله تبارك وتعالى يريد في جميع أفعاله الصَّلَاحَ، فهو إذن لا يُصْلِحُ عملَه. وقوبل الصلاح في القرآن بالفساد تارة، وبالسّيّئة تارة أخرى. قال تعالى: (خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً) **[التوبة 102]**، (وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها) **[الأعراف 56]**. والصُّلْحُ يختصّ بإزالة النّفار بين الناس، يقال منه: اصْطَلَحُوا وتَصَالَحُوا، قال تعالى: (أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) **[النساء/ 128]**، (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) **[الحجرات 10]**. ولهذا كان من أشكال الفساد قطع الرحم والصلات بين الناس: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) **[محمد 22]**. وقد ورد في القرآن الكريم أشكالاً متعددة من "الفساد". **أنظر مادة "فسد" في (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم). أنظر (تفسير الشعراوي). (مفردات القرآن الكريم) - الأصفهاني. وأيضاً (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - د محمّد حسن حسن جبل.**

(وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ) أي: إذا ذهب يوم السبت لا تَأْتِيهِمْ أسماكهم، أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئا (كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر)

وعموم المسلمين إذا خرجوا عن الأمر الشرعي، فسدوا وأفسدوا، بَدَل الوظيفة الأصل لهم كمسلمين، وهي: الإصلاح.. وإنْ لم يصلوا في خروجهم إلى حد الكفر.. فسيبتليهم ربهم بأعدائهم فيسلِّطهم عليهم حتى يعودوا إلى الله؛ كما هي سنة الله **جلّ وعلا** في الأمم حَمَلَة الرسالات:

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ الأعراف: ١٤١

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٦٨

(وقوله: "وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون"، يقول: واختبرناهم بالرخاء في العيش والخفض في الدنيا والدعة، والسعة في الرزق، وهي "الحسنات" التي ذكرها **جلّ ثناؤه**، ويعني بـ"السيئات"، الشدة في العيش والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال، "لعلهم يرجعون"، يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم وينيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه). **[الطبري]**

وهي نفس سنة الله التي وقعت بها "الأمة المسلمة الخاتمة".. فأصابها الذل وأُلبست لباس الخوف والجوع، بتسليط الله أمم الكفر عليها واستعلائها عليها.. وذلك بحسب سنن الله في الأمم حَمَلَة رسالة الله.. فلا مخرج لنا إلا بالعودة الحميدة إلى "منهاج النبوّة" وإعادة تفعيل أسباب النصر والعز والتمكين.. الشرعية منها والقدرية.. وبغير ذلك سيستمر البلاء علينا ويشتدّ حتى نصحو من غفلتنا..
ونسأل الله العلي العظيم أن يردُّنا إلى دينه رداً جميلاً، وأن يمُنَّ على المستضعفين من أهل الحق وحَمَلَة رسالته ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين [70]..

ومن هنا، فإن التعسر والشدة المستمرَّين وعدم تحقيق النتائج المرجوّة.. من دلائل وجود خطأ في السير ومخالفة لأمر الله، وهذا من رحمة الله بالناس فهو يحذرهم ويُنبّههم بحصول الشدائد والتعسّر في الحياة.. بأن سيرهم فيه خطأ ومخالفة للصواب وخروج عن الطريق الصحيح.. وكلما غفل الإنسان عن هذه الدلائل (المشاق والتعسّر والضنك) كلما تمادى في انحرافه.. وبالتالي

---

70 - {طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ **يُؤْمِنُونَ** (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ **نَمُنَّ** عَلَى الَّذِينَ **اسْتُضْعِفُوا** فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)} **القصص..**

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ=> الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)} **إبراهيم**

حصول زيادة في الأخطاء وتعقّدها أكثر.. مِنْ ثَمَّ سيكون ثمن المخالفات باهظاً جداً؛ سواء في الدنيا على مستوى تحقيق النتائج أم في الاخرة عند لقاء الله **عزّ وجل**.

هذا والجانب المقابل هو: أنّ النصر والغَلَبة - في النهاية - ستكون لِمَنْ يسير على "منهاج النبوّة" في تلقّي القرآن وتبليغه وبيانه.. ("الطاعة الواعية" لأمر الله).. كما قال الله **سبحانه وتعالى** مخاطباً موسى وهارون **على نبينا وعليهما الصلاة والسلام:**

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا **بِـَٔايَٰتِنَآ** أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا **ٱلْغَٰلِبُونَ** ٣٥﴾ القصص

أي (قال الله - **جلّ وعلا** - لموسى: سنقوّيك بأخيك، ونجعل لكما حُجَّة على فرعون وقومه فلا يصلون إليكما بسوء. أنتما - يا موسى وهارون - ومَن آمن بكما، **المنتصرون** على فرعون وقومه؛ **بسبب** آياتنا وما دلَّتْ عليه من الحق). **[انظر التفسير الميسر، تفسير السعدي]**

فالغَلَبة - في النهاية - لأولياء الله الذين معهم "آيات الله"، وسمّاها الله "آيات" لدلالتها على الله الحق؛ سواء المتلوّة (الحُجَّة الرسالية) منها أم المادية (المعجزات). والقرآن هو آية الله الخاتمة الخالدة، وفيه تجتمع الخاصيتان معاً؛ كونه آية متلوّة (حُجَّة رسالية) وكونه آية ماديّة (معجزة) (71).. فالغلبة تكون دائماً لِمَن يملك العِلْم بالمنهاج في تفعيل القوة الهائلة في التأثير والتغيير (الهداية) الكامنة في القرآن الكريم، بوصفه "آيات بيّنات".. ولِمَن يُحسِن توظيف تلك القوة من أجل تحقيق الغاية منه، كما حصل في أول أمر هذه الأمة على يد رسول الله ﷺ.. فالتأثير - على الحقيقة - إنما هو لآيات الله البيّنات بما فيها من حُجَّة بالغة ومن إعجاز و"منهاج" قويم، وما الرسول - بوصفه حاملاً الرسالة - إلا مبلّغ ومبيّن لآيات الله كما يريد الله، بمعنى أنه المُفَعّل للآيات البيّنات (فكرياً ومادياً)، وهو المعلّم والقدوة لنا في كيفية تفعيلها في واقع الناس لتؤدي دورها وأثرها في حياة الناس: الهداية إلى الحق، لمَن أراد الهداية.. وإقامة "الحُجَّة الرسالية" على مَن أبى واستكبر عن اتباع الحق البيّن.. وبالتالي استحقاق النتيجة الطبيعية؛ النصر والتمكين..

فالغَلَبة والنصر - الآن وفي كل زمان وعصر - لا تكون إلا لمن يسير على "منهاج النبوّة" في تلقّي القرآن وتبليغه وبيانه، أي يسير على "منهاج النبوّة" في تفعيل القوة التغييرية (الهداية وإقامة الحُجَّة) الكامنة في الرسالة، بوصفها آيات بيّنات (فكرياً ومادياً)، بقصد تحقيق الغاية منها.. **فيستَحِق** - عندها - أولئك السائرون على "منهاج النبوّة" (سبيل رسول الله) أن يكونوا من ورثة النبيّ، وأن يكونوا هم {الْغَالِبُونَ} بإذن الله.. فلا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ

71 - كما في حديث رسول الله: (ما من الأنبياءِ من نبيٍّ إلا قد أُعْطِيَ من **الآياتِ** ما مثْلُهُ آمنَ عليه البشرُ. وإنما كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحَى اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهُم تابِعًا يومَ القيامة). **[رواه الشيخان عن أبي هريرة، وهذه رواية مسلم: الصفحة أو الرقم 152 - الدرر السنيّة]**.

﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ الصافات: ١٧١ - ١٨٢

هذا، والعوامل المهمة جداً في تفعيل القوة الهائلة في التأثير والتغيير (الهداية وإقامة الحُجَّة) الكامنة في القرآن الكريم:

- منها ما يتعلّق "بحامل القرآن": أن يكون "خُلُقُه القرآن".. أن يكون متمثّلاً بالرسالة التي يحملها فيكون صورة عمليّة صادقة عنها.. كما كان رسول الله محمّد ﷺ.
- ومنها ما يتعلّق "بمنهج الفهم": أن تكون مفاهيم "المصطلحات القرآنية" [72] واضحة بيّنة، فالمصطلحات هي أوعية الأفكار، "وهي معاني كثيرة مُكَثَّفة في لفظة واحدة".. فتحرير مفاهيم المصطلحات أمر في غاية الأهمية لأي منظومة فكريّة، فكيف بالدين الحق؛ دين الله الخاتم؟!.. وخاصة أثناء الصراع مع الباطل.. كما أشرنا سابقاً.
- ومنها ما يتعلق "بمنهاج حمْل رسالة الله ودعوته" والسير بها في المجتمع؛ خطاباً وأعمالاً.. حتى تحقيق الغاية منها.. وذلك في إطار "البلاغ المبين"؛ بلاغاً موجِداً للعلم لمن أراد الهداية واتباع الحق.. ومقيماً لـ "الحُجَّة الرسالية" على مَنْ أبى واستكبر وجحد بالحق بعد تبيُّنه.

والحمد لله رب العالمين

72 - المصطلح القرآني هو: (ذلك اللفظ الذي أكسبه استعماله في القرآن الكريم دلالة خاصة زائدة على الدلالة له في اللسان العربي، فصار بذلك له مفهوم خاص ضمن الرؤية القرآنية الشاملة).

مُلخَّص لأفكار "التمهيد"..

في ما يلي تلخيص للأفكار الرئيسة التي سبق بيانها في المباحث السابقة..
والغاية من ذكر هذه الأفكار - كما قلنا ونؤكّد - لتكوين نظرة صحيحة وشمولية عن رسالة الله **جلّ وعلا**: طبيعة "الرسالة الخاتمة"؛ فكرتها، الغاية منها، منهاجها؛ خطاباً وأعمالاً.. مَن المسؤول عنها؟.. وعن طبيعة "الأمة المسلمة"؛ مقوماتها، وظيفتها.. لتكون هذه الأفكار أُسُساً وقواعد عامة (خطوط عريضة) ضابطة للبحث والنظر في القضايا العامة والمصيرية المتعلقة بالأمة المسلمة.

أولاً : لا بد من "دراسة منهاجية" للوحي، وأن تقوم على أساس صحيح

التوجّه إلى الوحي: القرآن وبيانه من السُّنة - ومنها السيرة النبوية - لدراسته "**دراسةً مِنْهاجيّة**"؛ أمر لا بد منه لاستخراج وبيان "**منهاج النبوّة**"، أي الطريقة العملية التي اتبعها رسول الله في الانتقال من حالة الاستضعاف إلى حالة التمكين للمؤمنين ولدين الله والاستخلاف في الأرض.. وهي نفسها الطريقة العمليّة لتلقي القرآن الكريم والسير به - كرسالة من الله **عزّوجل** إلى الناس - من أجل تحقيق الغاية منه في الواقع..

و "الدراسة المنهاجية" للوحي لا بد أن تكون قائمة على أساس صحيح، لذلك لا بد - بداية - من تصحيح الرؤية للوحي وأن تكون شمولية، لبيان زاوية النظر الصحيحة إليه عند البحث المنهاجي لاستخراج "المنهاج" الذي ينبغي أن يسير بحسبه المسلمون في **تلقي** الرسالة والقيام بها؛ تعليماً وتزكية ودعوة.. إن أردنا أن نعود كما كنا خير أمّة أخرجت للناس..

والرؤية الصحيحة للوحي تقوم على "**الوعي**" على حقيقة القرآن الكريم؛ بوصفه الرسالة الخاتمة.. وعلى حقيقة الأمة المسلمة؛ بوصفها أمة الرسالة الخاتمة:

<u>**والوعي** على القرآن الكريم</u>، يقتضي أن تكون الزاوية الخاصة التي يكون من خلالها النظر في أي موضوع من مواضيعه، هي حقيقته وواقعه؛ وهي كونه **الرسالة الخاتمة** من الله **تعالى** للبشرية، ولها **فكرة** أساس يقوم عليها محتواها أو **موضوعها**، ويُراد بها **غاية** لا بد من تحقيقها في حياة الناس، وأن لها **منهاجها** (طريقتها) في حمل "**فكرتها**"؛ خطاباً وأعمالاً بقصد تحقيق **الغاية** منها.. <u>كما بيّن ذلك كله رسول الله ﷺ</u>..
فهو وعي على القرآن - بوصفه **الرسالة الخاتمة** - من حيث **الفكرة**، و من حيث **الغاية**، ومِن حيث **المنهاج** :

<u>**وفكرتها** الأساس</u>؛ هي الحقيقة اليقينية الكبرى **لا إله إلا الله**، وهي الركن الركين الذي بُنيت عليه الرسالة كلها.. أفكارها وأحكامها، أي <u>**موضوعها** (محتواها)</u>؛ وهو بيان منهاج عبودية الناس لله؛ أفراداً ومجتمعاً وأمة: إيماناً وعملاً صالحاً وحمْل دعوة الله للناس.. مع بيان مصير من اتبع وآمن ومصير مَن أبى واستكبر..

<u>**والغاية** منها، ومن **بعث** الرسول الخاتم بها</u>؛ تعبيد الناس لله؛ عبودية كاملة شاملة (إخلاص الدين لله).. بجَعْل "كلمة الله هي العليا".. بان تصبح الرسالة - فكرتها وموضوعها - حقيقة واقعة في حياة الناس وحاكمة عليها؛ كمنهاج حياة وطريقة عيش.. وذلك من خلال إيجاد أمة مسلمة تتمثّل بها الرسالة؛ بأن تُكمل دينها لله؛ بتطبيقها على نفسها وحملها للناس كافّة هدىً ورحمةً، فتكون خير

أمّة أُخرجت للناس.. ولتكون **تلك الحالة** للأمة - بخصائصها ومقوماتها - هي المقياس والمعيار والمرجع الدائم **للحالة** التي **يجب** أن تكون عليها الأمة في كل زمان وعصر، أي هي "**الحالة المعيارية**" لمفهوم "تحقيق الغاية" من الرسالة الخاتمة.

وأما **منهاجها؛** فهو **الطريقة العمليّة** التي بيَّنها رسول الله الخاتم، من خلال التزامه بطريقة تلقيه الرسالة الخاتمة - فكرتها وموضوعها - أولاً بأول، مفرّقة على مكث (مُرتَّلة).. **وسَيْره** بها، بلاغاً وبياناً عملياً؛ أي **تنزيلاً** على الواقع الإنساني لمعالجته وتغييره؛ من البداية حتى تحقّقت الغاية منها، ووُجدت "الأمّة المسلمة" الخاتمة **بكامل مقوماتها وخصائصها** التي أرادها الله لها.. أي، وصول الأمة إلى "**الحالة المعيارية**".

أما **الوعي** على واقع "الأمة المسلمة":

فهو العِلْم بأن "الأمة المسلمة" هي الشكل العملي الواقعي **للغاية** من إنزال الرسالة وبعْث الرسول بها.. فبها تتجسّد الغاية من الرسالة الخاتمة (إخلاص الدين لله).. فهي **الطريقة العملية** التي أرادها الله **سبحانه وتعالى** - شرعاً وقدراً - لجعل **الغاية** من الرسالة **الخاتمة** حقيقة حيّة، والمحافظة عليها كذلك (إكمال الدين لله).. حتى قيام الساعة.. فهي **الأمة الخاتمة**، التي مهمتها؛ أن تَخْلف رسول الله **الخاتم**، وتستمر من بعده في أداء مهمته الأساس؛ عبادة الله وحده، وحمل رسالته للعالمين.. هدى ورحمة..

وهذه "الأمة المسلمة" المكلّفة بهذه المهمة الشريفة العالية.. لها مقومات مطلوب شرعاً تحقيقها.. حتى تكون **مُخولَّة** شرعاً **وقادرة** فعلاً على القيام بوظيفتها: تطبيق جميع أحكام الإسلام - ومنها الأحكام المتعلّقة بالسلطان - على جميع أفرادها؛ المسلمين ومَن هم في ذمتهم.. وحَمْل رسالة الله للعالمين؛ هدى ورحمة..

وهي مقومات "**الأمة المكلّفة**".. أي الأمة التي تحقق **شروط** التكليف كأمة.. والتي **هي** مقومات وجودها في الواقع؛ ألا وهي:

1- أنها أمة **مسلمة** لله وحده؛ فلا تقبل إلا شرع الله واتباع رسول الله في نظام حياتها ومعيشتها..
2- **وممَكَّن** لها في الأرض، الأمر الذي يقتضي:
3- أن لها **السلطان** على الأرض، ومتمثلاً **بقيادة** عامة للأمة،
4- وعندها **القوة الذاتية** الكافية لتحقيق ما سبق والمحافظة عليه.

ذلك أن المسلمين مكلّفون بجميع أحكام الإسلام (إخلاص الدين لله) إما بوصفهم "**أفراداً**" أو "**جماعة**" أو بوصفهم "**أمة**" كذلك.. إلا أن **أصل التكليف** بجميع أحكام الإسلام (إخلاص الدين لله) - سواء فروض الكفاية أو فروض الأعيان - يقع على عاتق الفرد المسلم الذي حقَّق شروط التكليف؛ من البلوغ والعقل والاستطاعة.. فالمسؤولية - في النهاية - هي "مسؤولية فردية".. وتقع على عاتق كل **فرد** من أفراد الأمة الإسلامية، هذا من حيث أصل **التكليف**..

أمّا من حيث **التنفيذ** في الواقع، فالأمر مختلف، فكل **مُكلَّف** - الفرد والجماعة والأمة - له مجموعة (دائرة) معالجات وأحكام **أناطتها** الشريعة به، وهو **وحده** المسؤول عن تنفيذها.. ولا يُجزئ مُكلَّف عن آخر القيام بما هو مُنَاط به من أحكام ومعالجات شرعيّة إلا بدليل شرعيّ.. فلا يجوز للأفراد أو

الجماعة من المسلمين القيام بتنفيذ الأحكام المناطة بالأمة؛ أي المناط **تنفيذها** بالأمة صاحبة السلطان.. إلا أن يحققوا وصف "**الأمة المكلّفة**" بتنفيذها.

هذا، والنتيجة المهمة التي نخرج بها في نهاية هذه الفقرة، هي:

إن **الوعي** على واقع "الأمة المسلمة" المطلوب شرعاً تحقيقه، وكونها الأمة الخاتمة.. هو جزء من **الوعي** على القرآن الكريم - بوصفه **الرسالة الخاتمة** من الله - من حيث **الفكرة**، و من حيث **الغاية**، و من حيث **المنهاج**.. كما بيّنها رسول الله الخاتم ﷺ بياناً **عملياً**..

ذلك أن "الأمة" هي الشكل العملي الواقعي **للغاية** من إنزال الرسالة وبعْث الرسول بها (إخلاص الدين لله).. فهي **الطريقة العملية** التي أرادها الله **سبحانه وتعالى** - شرعاً وقدراً - لجعل **الغاية** من الرسالة **الخاتمة** (إكمال الدين لله) حقيقة حيّة، والمحافظة عليها كذلك.. حتى قيام الساعة.. وذلك بأن تقوم تلك "الأمة الخاتمة" بخلافة رسول الله الخاتم وتستمر من بعده في تحقيق العبودية الشاملة لله (إخلاص الدين لله) وحمل رسالته للعالمين؛ هدى ورحمة.. حتى يكون "الدين" كله لله..

ثانياً : التلقي المنهاجيّ لآيات القرآن الكريم

ذكرنا أن من **الوعي** على **الرسالة الخاتمة**: هو الوعي على **منهاج** تحقيقها في الواقع.. والذي تَمثّل في التلقي **المرتَّل** لآيات الرسالة.. ذلك أن "**الترتيل**" في نزول القرآن المجيد - في حقيقته - هو "تنسيق وتنظيم التنزيل المفرّق لآياته، لتلقّيها وفَهْمها والسير بها - أولاً بأوّل - وحسب ضوابط معيّنة.. وكل ذلك بقصد تحقيق الغاية من القرآن الكريم في الواقع الإنساني، وذلك من خلال إيجاد أُمّـة تَـعْبد الله وحده في جميع شؤونها، وتَحْـمل رسالته للعالمين.. أي، أمة تُـكْمل دينها لله"..

فـ "ترتيل نزول الآيات"، هو تلقٍ لآيات الرسالة والسير بها في المجتمع على أساس منهاجيّ ليُحقِّق غاية.. بمعنى بيان الأولويات في تلقي "موضوع الرسالة"؛ أفكارها وأحكامها.. أيٍ منها يُتَلَقَّى أولاً ثم الذي يليه والذي يليه.. وهكذا.. حتى تحقيق الغاية منها.. وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بـ "**التلقّي المنهاجيّ**" للآيات، وهو:

التلقي المفرَّق للآيات وحسب "**منهاج** السير" بالرسالة (ترتيل نزول الآيات)، بقصد تحقيق **الغاية** منها، وفيه :

- ✓ **بيان لطبيعة** السير العملي بالرسالة في المجتمع؛ مراحله وأعماله وخطابه:
- ✓ بماذا **نخاطب** الناس (فكرة الدعوة) **وكيف** نخاطبهم (منهج الخطاب)..
- ✓ ما هي **الأعمال** المطلوب القيام بها.. وكيفية القيام بها، وما ترتيبها..
- ✓ **العقبات**؛ طبيعتها وكيفية إزالتها أو تحييدها..
- ✓ **الثبات** على الطريق أو "منهج التثبيت"..

فـ "**الترتيل**" في تنزيل الآيات، كان من أجل **تلقي** القرآن بشكل **تدريجي** (على مُكْث) ليكون السير به على بصيرة؛ أولاً بأول.. وحسب منهاج محدد وواضح؛ **للعلم والعمل به، والسير به** خطوة بعد خطوة.. من نزول ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ..﴾ حتى نزول آخر آية.. وذلك لجعله حقيقة في الواقع الإنساني، متمثلاً **بأمّـة مسلمة** قد أكملت دينها (عبوديتها) لله **جلّ وعلا**..

كما في الرواية عن ابن عباس: (نزل القرآن **كله جملة واحدة** في ليلة القدر في رمضان إلى السماء

الدنيا، فكان الله إذا **أراد** أن **يُحدث** في الأرض شيئا **أنزله منه**، حتى جَمَعه)[73]..

فإنزال آيات القرآن - بما فيها من بيان للمعالجات السننية والشرعية - كان من أجل إحداث تغيير في واقع الناس في الأرض.. فهناك "**منهاج**" واضح له خطوات منهجية.. وفي نفس الوقت "يتفاعل" **بحكمة** مع الواقع الإنساني.. حيث "يتجاوب" المنهاج - حسب ضوابطه - مع الواقع الإنساني بتنوّعه وتحوّله **بقصد تغييره** حتى تحقيق الغاية من الرسالة..
مثل حال الطبيب الذي يعالج مريضاً؛ فهو من جهة عنده **العلم** بالعلاج **وبكيفية** المعالجة (المنهاج)، لكنه في نفس الوقت يتعامل **بحكمة** مع **ذلك** المريض (الحالة **المعينة**) **بتعيين** العلاج **وكيفية** المعالجة وأساليبها ووسائلها التي تلزم للمريض حتى يشفى.
هكذا يكون التفاعل بحكمة مع الواقع الإنساني: (فكان المشركون إذا **أحدثوا** شيئاً **أحدث** الله لهم جواباً).. فهي **الحكمة** في التعامل مع الواقع الإنساني؛ بأشخاصه وأحواله وزمانه ومكانه.. **لكنّها** مضبوطة ومحكومة **لضوابط منهاج** السير بالرسالة؛ وحسب مرحلة السير..

والسؤال الذي يرِد الآن؛ كيف يمكن من "**ترتيل** نزول" الآيات، أن نفهم **كيفية** تحقيق الغاية من الرسالة (المنهاج)؟.. نقول: إن ذلك ممكن من ثلاث جهات:

- ✓ من جهة "**تتابع** (ترتيب) **نزول**" آيات الرسالة: فيه **دلالة** علـى ترتيب الأولويات: بماذا أبدأ؟.. أو من أين أبدأ؟.. خطاباً وأعمالاً..
- ✓ أمّا من جهة "**نَصّ الآيات**"؛ ألفاظها وجُملها: ففيه **دلالة** على الأفكار والأحكام.. أي بيان "المعالجات؛ **السننية** و**الشرعية**.. لمعالجة "المناط" الحاصل في مرحلته..
- ✓ وأمّا "**أسلوب القرآن**" في صياغة المعاني؛ تركيبها وبناء أفكارها في الآيات: ففيه **دلالة** على "منهج **الخطاب**" بالأفكار والأحكام والمعالجات بشكل مؤثر؛ مُقنع للعقل وموافق للفطرة.. يوجِد اليقين لمن أراد الهداية، ويُقيم الحُجَّة على مَن أبى واستكبر.. وذلك ضمن الإطار العام لـ "البشارة والنذارة"..

وكان بيان ذلك كله؛ من خلال "**ترتيل** نزول" آيات القرآن الكريم كمعالجات للواقع، والسير **العملي** لرسول الله **بحسبه** في المجتمع؛ من نزول أول آية حتى النهاية وتحقيق الغاية.. حيث كان تعليمه ﷺ للجيل الأول تعليماً **للحكمة**؛ وهي كيفية التعامل مع الواقع **المتغيّر** لمعالجته بالرسالة الخاتمة وحسب المنهاج **المحدد** والواضح.. بقصد تحقيق الغاية من الرسالة والمحافظة عليها كذلك..

ومن هنا، فتحقيق "**الغاية** من الرسالة" ما كان إلا بتلقي الآيات المُبيّنات **مرتّلة**.. أي بـ "**التلقّي المنهاجيّ**" للآيات..

لذلك لم يُنْزل الله **جلّ وعلا** القرآن (الدين) على رسول الله ﷺ جملة واحدة، فذلك لا يحقق الغاية من إنزاله، في تقدير الله **تبارك وتعالى** وسُننه:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢

---

73 - **أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً. (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور - حكمت بن بشير بن ياسين).** فما أنزل الله **عزّ وجلّ** القرآن، وبعث به محمداً ﷺ.. إلا ليُحدث تغييراً إلى الأحسن والأصلح في حياة الإنسان؛ الخليفة في الأرض.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان: ٣٢ - ٣٣

ثالثاً : الوعي على "الجانب السنني" لـ "منهاج الرسالة" في تحقيق الغاية منها

ما سبق ذكره في النقطتين السابقتين متعلِّق بـ "الجانب الشرعي" للوعي على واقع الأمة والرسالة الخاتمة.. لكن هناك جانباً آخر مطلوب شرعاً الوعي عليه، ألا وهو "الجانب السنني" أو "الجانب الكوني القدري".. وخاصة في ما يتعلَّق بـ "المنهاج"؛ منهاج الرسالة في تحقيق الغاية منها؛ التمكين لدين الله في الأرض.. سواء من جهة الخطاب أم الأعمال.. وسواء عند فهم "المنهاج" أم عند تنزيله على الواقع الإنساني المعيّن.. ومنه ما أشرنا إليه من تعليم رسول الله أصحابه "الحكمة" في معالجة الواقع بالرسالة..

وقد بيّن الله لنا هذا الجانب؛ من خلال "ترتيل نزول" القرآن الكريم، والسير العملي لرسول الله ﷺ بالرسالة بحسبه، بقصد تحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني (المجتمع) آنذاك..
فـ "المنهاج" كما أن الأصل في تناوله هو "المعالجات الشرعية"، إلا أنه عند تنزيل تلك "المعالجات الشرعية" على واقع إنساني (مجتمع) معين، فإنه لا بد من الانتباه إلى جانب آخر لـ "المنهاج" له معالجات تخصه، هي "المعالجات السُنَنيّة" [74].. وهذا الجانب؛ "تنزيل المعالجات الشرعية على الواقع (المناط) المعيّن".. يسبقه الوعي على "المناط" نفسه وفهم حقيقته؛ وهو ما يُعرف بـ "تحقيق المناط".. والذي أساسه الوعي على "سنن الله" في الإنسان والحياة والكون.. ومنها السنن التي قدَّرها الله لضبط خواص المجتمعات الإنسانية والسير فيها برسالات الله بقصد تغييرها.. والسنن الضابطة لخواص أفراد الإنسان من حيث قناعاته وتأثيرها في سلوكه وأعماله.. وتصنيف الناس - بناء عليها - بحسب موقفهم من دين الله الحق وبحسب عقائدهم: مشركين، كافرين، منافقين، يهود، نصارى.. الخ

ومن هنا، فإن **المعالجات** للواقع الإنساني (المناط) الواردة في ديننا، جاءت على نوعين: **معالجات سُننيّة** (أساسها سنن الله في الخلق والتقدير) و **معالجات شرعيّة** (مصدرها الدين والشريعة)..
وذلك تأسيساً على أن "الحقيقة اليقينية الكبرى"؛ **لا إله إلا الله**، لها مظهران أو تجليّان:

---

74 - "المعالجات السننيّة": فهي **الأعمال** (قول أو فعل) التي في أصلها مباحة، والمناسبة عقلاً وواقعا => لمعالجة حدَث حاصل فعلاً (المناط)، **والتي** ينبغي القيام بها، بناء على فَهْم طبيعة ذلك "المناط" فهماً شاملاً من منظور السنن الربانية في الآفاق والأنفس، وفي الأمم والمجتمعات، والرسل والرسالات؛ من حيث زمن حدوثه وسبب حدوثه والحكمة من حدوثه، الدروس والعِبَر: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٢ ﴾ **[الأحزاب]**. و "السُنن"، هي القوانين الدائمة والثابتة التي قدّرها الله تعالى لضبط الخواص التي خلق عليها كل مخلوق، في نفسه وفي علائقه مع غيره.
أمّا "المعالجات الشرعية" فهي: الأعمال (قول أو فعل) المطلوب شرعاً القيام بها، لمعالجة حدث حاصل فعلاً (المناط)، وتؤخذ من الدليل الشرعي؛ بفهمه حسب الأصول المعتبرة لغة وشرعاً، سواء في الإيمان أم العمل الصالح أم الدعوة.. وهي تتعلق بالفكر أيضاً؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو، أم بالحكم على وجوده من عدمه، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعي.
أما

1 : أن الله **عزّ وجل** هو وحده **الإله الحق** في الوجود صاحب "**الأمر الكوني**"؛ خلقاً وتسوية، تقديراً وهداية، قيّوميّة واستمراراً، جزاء ومصيراً.. **متمثلاً ذلك**، بما "**قدَره**" الله **عزّ وجل** في **كل مخلوق** (شيء/ كائن) من **خواص** و من **سنن** تضبطها وتحكمها.. سواء في الآفاق أم في الأنفس والمجتمعات والأمم..

﴿ .. وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ الرعد: ٨

﴿ .. وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾ الفرقان: ٢

﴿ .. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ .. ﴿١١﴾ ﴾ الرعد: ١١

2 : وبما أن الله **عزّ وجل** هو وحده **الإله الحق** في الوجود صاحب "**الأمر الكوني**" خلقاً وتقديراً ومصيراً.. فهو وحده الذي يجب أن يكون له "**الأمر الشرعيّ**" أمراً ونهياً تشريعاً؛ لتنظيم الحياة الإنسانية بجميع مجالاتها.. فهو الخالق وهو المالك فهو وحده والذي **يحق** له التصرُّف في خلْقه ومُلْكه والحُكم فيه بما يشاء وكيف ما يشاء.. **متمثلاً ذلك**، بما **أنزله** الله من **شريعة** ودين في رسالاته من لدن آدم **عليه السلام** حتى الرسول الخاتم محمّد ﷺ :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٢

وشريعة الله الخاتمة جاءت في القرآن الكريم، وكما بينها الرسول الخاتم..

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الجاثية: ١٨

فأمر الله **القدريّ** وأمره **الشرعيّ** هما مَظْهرا الحقيقة اليقينية الكبرى؛ **لا إله إلا** الله، ومن مظاهر تجليات أسماء الله الحسنى، وآثار مشيئته وأفعاله **جلّ وعلا** في الآفاق والأنفس:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ **ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ** تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الأعراف: ٥٤

فكما بيّن الله **جلّ جلاله** لنا في رسالته الخاتمة **أمره الشرعي** (سنن شرعية)، فقد بيّن لنا كذلك، كثيراً من **أمره القدريّ** في خَلقه وتقديره **عزّ وجل** (سنن قدَرية)، في الإنسان والحياة.. في قيوميّته على الخلائق وهيمنته عليهم وتدبيره لشؤونهم.. وعلى هذا، جاءت **المعالجات** - بوصفها **أحكاماً** لله - إما **شرعيّة** أو **قدَريّة**.

ومن هنا، فإن **فَهْم** حقيقة "الواقع الإنساني" الذي تعمل فيه الرسالة أمر مطلوب شرعاً، سواء عند فهم المعالجات الشرعية أم عند تنزيلها على الواقع [75].. أم عند فهْم كيفية السير في المجتمع بقصد تغييره.. ذلك أن الرسالة والشريعة ما جاءت إلا **لمعالجة** "الواقع الإنساني" **وتغييره وصياغته**

---

75 - وهو ما يعرف بـ "تحقيق المناط"، فكل "معالجة شرعية" للواقع مبنية على مقدمتين الأولى: "تحقيق=> المناط"؛ والمقصود منها فهْم الواقع المراد إصدار الحكم عليه. والثانية: فَهْم النصوص الشرعية المتعلقة بهذا الواقع. ثم؛ يكون تنزيل الثانية على الأولى. وبعبارة أخرى يُتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه، إلى معرفة حكم الله في ذلك الواقع.

حسب مراد الله تعالى، وهو أن يكون "الدّين كله لله"، وهذا يقتضي **فَهْم** طبيعة هذا "الواقع الإنساني" - مجتمعاً وأمة وجماعات وأفراداً - من حيث خواصه وسُننه الإلهية التي تحكمه (مشيئة الله فيه)، **فَهْماً** يُمَكِّن حَمَلَة الرسالة من تلك **الصياغة للواقع**.. ومَثَلُ هذا كمثل الطبيب الحاذق الذي يعمل جاهداً - بما لديه من **عِلْم** - على تشخيص المرض الذي يعاني منه المريض المعيّن، حتى يتمكّن من تحديد العلاج النافع الناجع وكيفية العلاج.. ليعود المريض سليماً معافى.

ومن أجل ذلك بيّـن الله لنا - في القرآن الكريم - **سننه** (إرادته ومشيئته الكونية) في حمل الرسالات مفصّلة باستفاضة وشمول، وعلى طول الطريق حتى إكمال الدّين لله **جلّ وعلا** بجعل كلمة الله هي العليا.. ومنها السّنن المتعلقة بتغيير الواقع الإنساني (المجتمع) بأبعاده المختلفة؛ الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية وغيرها.. وبيان طبائع وصفات "الفئات المجتمعية" المختلفة والمتنوعة؛ مؤمنين بدرجاتهم.. وكافرين ومنافقين وأهل كتاب.. والسادة المتنـفّذون (الملأ، والمترفون) والذين اتبعوهم.. وتكاد لا تجد سورة في القرآن تخلو من ذكر بعض تلك السنن أو الإشارة إليها، إمّا من خلال ذكر القَصص وضرب الأمثال ثم بالتعقيب عليها، مع الإشارة إلى سنة الله **تعالى** أو حكمته منها.. أو من خلال الإخبار والبيان المباشر.

رابعاً: اعتماد المصطلحات الشرعية والقرآنية فقط..

بما أن "القضايا العامة" المتعلقة بالرسالة والأمة في أصلها قضايا شرعية، فينبغي أن تُبحَث بحثاً شرعياً.. والأصل في "البحث الشرعي" استعمال الألفاظ والمصطلحات الشرعية، وتحديداً ما ورد منها في نص الوحي.. القرآن والسنة.. وعدم الحَيْد عنها للتعبير عن المفاهيم والمعاني الشرعية المراد الكلام عنها.. **فالمصطلحات** ليست مجرّد كلمات عادية يمكن استبدالها بغيرها دون تحفُّظ؛ في الخطاب والتعليم.. بل هي كلمات لها دلالة في الواقع، ولها تأثير على نفس الإنسان..
فالمصطلحات هي أوعية الأفكار، "وهي معاني كثيرة مُكَثّفة في لفظة واحدة".. فتحرير مفاهيم المصطلحات أمر في غاية الأهمية لأي منظومة فكريّة، فكيف بالدين الحق؛ دين الله الخاتم؟!.. وخاصة أثناء الصراع مع الباطل..
فأن تكون مفاهيم "المصطلحات القرآنية" [(76)] واضحة بيّنة، يُعتبر من العوامل المهمة جداً في **تفعيل** القوة الهائلة في التأثير والتغيير (الهداية وإقامة الحُجَّة) الكامنة في القرآن الكريم..
وعليه، يمكننا القول **كقاعدة عامة:**
"إن أي **كلمة قرآنية** موضوعة للتعبير عن معنى أو مفهوم معيّن، فالأصل أن لا **نَحيْد** عن استعمالها في الخطاب أو أثناء التعليم والتزكية"..
لأن أي كلمة وردت في القرآن وغدت جزءاً من النسيج القرآني الكامل، فهذا يجعل لتلك الكلمة دوراً مقدّراً ومؤثّراً في الهداية وتحقيق الغاية من الرسالة.. فقد أصبح لها مخزوناً فكرياً وشعورياً، ورصيداً من الطاقة الروحية.. وهذه هي حقيقة "المصطلح القرآنيّ" للكلمة.. فالحَيْد عنه أو تبديله يعني فقدان ذلك المخزون من الطاقة الروحية الفاعلة.. الأمر الذي يؤدي إلى تعطيل الهداية وإقامة

---

76 - المصطلح القرآني هو: (ذلك اللفظ الذي أكسبه استعماله في القرآن الكريم دلالة خاصة زائدة على=> الدلالة له في اللسان العربي، فصار بذلك له مفهوم خاص ضمن الرؤية القرآنية الشاملة). **[د الشاهد البوشيخي. انظر مبحث (الدراسة المصطلحية وموقعها في مناهج التجديد في تفسير القرآن الكريم). د محمد البوزي].**

الحُجَّة؛ أي تأخير تحقيق الغاية من الرسالة أو تعطيله؛ جزئيا أو كلّياً.

خامساً : النجاة وتحقيق الأهداف، لا يكون إلا بالاستقامة على الأمر؛ إخلاصاً واتباعاً؛ "الطاعة الواعية"

﴿... فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ طه: ١٢٣ - ١٢٤

إن العلاقة بين "الإعراض عن الوحي أو مخالفته" كسبب.. و"المعيشة الضنكى" كنتيجة له، هي علاقة طردية تفاضلية.. فـ "الإعراض" هنا عام؛ فقد يصل إلى الكفر - والعياذ بالله - أو قد يكون مجرد المعصية من المؤمن.. بمعنى أن هذه الآية تشمل الكفّار بدركاتهم، والمؤمنين بدرجاتهم.. فضَنك المعيشة يتناسب طردياً مع درجة الإعراض عن الوحي؛ فيزيد بازديادها وينقص بنقصانها.. كماً وكيفاً.. وعلى أقل مقدار.. كما في قوله سبحانه:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ الزلزلة: ٧ - ٨

وبديهياً، هذه الحقيقة تنطبق على أمر الله في أحكام "المنهاج"؛ منهاج تلقي الرسالة وحملها والسير بها بقصد تحقيق الغاية في المجتمع.. وهو المنهاج الذي التزمه رسول الله وسار بحسبه حتى أكمل الله الدين وحقق الله الغاية من الرسالة على يديه ﷺ..

وعليه.. فبقدر ما يكون الالتزام بأحكام "منهاج النبوّة" (أمر الله الشرعي)، بقدر ما يكون السير في المجتمع متوافق مع سنن الله (أمر الله القدري) - سواء علمنا بها أم لم نعلم - وبالتالي يكون تحقيق النتائج بتحقيق أمر الله الشرعي (دينه وشريعته) في حياة الناس في المجتمع فتكون معيشتهم بحسب شريعة الله.. فأقصر طريق إلى تحقيق النتائج هو الإخلاص لله **سبحانه وتعالى** والاستقامة على أمره الشرعي.. وهو ما أسميناه بـ **"الطاعة الواعية"** لأمر الله **عزّوجل** (الكتاب)، وهي عبارة عن:

- ✓ الفهم الصحيح **لمراد** الله **تعالى** (السُنة) (77)،
- ✓ والفهم الدقيق لـ **"المناط"** (الأحداث والمواقف والأشخاص..) المراد معالجته،
- ✓ ثم **التنزيل** المناسب لتلك المعالجات على ذلك الواقع (الحكمة)..
- ✓ ثم الاستقامة و**الصبر** على ذلك حتى يُحدِث الله بعد ذلك أمراً ؛ إمّا قدراً أو شرعاً..
- ✓ وكل ذلك على أساس اليقين المطلق بالله والثقة به **جلّ وعلا** والاستسلام التام لأمره..

فمن خلال "الطاعة الواعية" لأوامر الله - ومنها أحكام المنهاج - يحصل **التأثير** القوي **للوحي** في **الواقع**، بتغييره ليكون حسب مراد الله.. وذلك نتيجة "الكفاءة العالية" في المعالجة، بسبب

77- بالنسبة للرسول ﷺ هذا الفهم يأتيه وحيٌ من الله تعالى (السنة)، وليس اجتهاداً منه: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ {16} إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ {17} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {18} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ {19}} **القيامة**،، ((إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) إن علينا جَمْعه في صدرك... (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) بالتفهيم لك). **[التفسير الميسر، وتفسير الجلالين].**

"الطاعة الواعية" لأوامر الله (الوحي).. والتي هي **السبب الأصل** في حصول ما حصل مع رسول الله - في النهاية - من تحقيقٍ للنتائج.. وفي المقابل، فإن عدم طاعة الوحي (المخالفة الشرعية) هي المانع من حصول النتائج.. بل وحصول نتائج عكسية وتداعيات سلبية.. كما حصل مع الجيل الأول من هذه الأمة في "يوم أحد" و"يوم حنين".. وما حصل مع "الرِبّيّون الكثير" الذي قاتلوا مع أنبيائهم.. فهذه سنة ربانية دائمة الجريان لا تتخلّف.. من سنن الله في حمْل الدعوة إلى الله في المجتمعات..

وحقيقة ذلك، أنه بـ "الطاعة الواعية" لأمر الله **الشرعي**؛ إخلاصاً واتباعاً.. يكون تفعيل "**الأسباب** الشرعية".. والتي بواسطتها يكون تيسير وتسخير "**الأسباب** الكونية"؛ (أمر الله **القدري**) بالشكل الصحيح.. فتحصل **النتائج** المرجوّة بأحسن صورة..

وعند مخالفة "أمر الله الشرعي"، لا تحصل النتائج المرجوّة بل قد تحصل نتائج عكسية.. لأن مخالفة "الأمر الشرعي" معناه تعطيل فاعلية "الأسباب الشرعية" الذي ينتج عنه عدم الهداية إلى "سنن الله القدرية" المؤثرة في الواقع المجتمعي (تعطيل الأسباب الكونية) - والتي لا نعلم من حقائقها إلا القليل القليل، والكثير منها نظريات ووجهات نظر فردية - وبالتالي التصادم معها ومعارضتها، مما يعني تعطيل تحقيق النتائج أو التأخير في تحقيقها.. أي تعطيل أو تأخير تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع:

فهذا يونس عليه السلام.. عندما خرج مغاضباً، ضيَّق الله عليه الدنيا فحشره في بطن الحوت.. ولولا توبته واستغفاره، لما اجتباه ربه وأرسله إلى قومه مرة أخرى، وقد هداهم الله فلم يعذّبهم..
وكذلك ما حصل مع بني إسرائيل من تأخير في تحقيق وعد الله لهم بالتمكين في الأرض المباركة، ودخولهم في التيه في الأرض، وأنه كان بسبب رفضهم "الهداية" الشرعية والتي هي الطريق "للهداية" لسنن الله في التمكين.. فإعراضهم عن أمر الله ومعارضة رسولَيْ الله؛ موسى وهارون عليهما السلام هو سبب ضلالهم ودخولهم في التيه.. فلم يشفع لهم وجودهما بينهم.. فسنن الله نافذة ولا تحابي أحداً.. رغم أنه جلّ وعلا يعفو عن كثير.

ومن هنا، فلا نجاة ولا غلبة ولا نصر ولا تمكين إلا بالتمسك والاستمساك بحبل الله المتين: الوحي.. آيات الله البيّنات.. كما قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام:
﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا **بِـَٔايَٰتِنَآ** أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ القصص

فالغَلَبة - في النهاية - لأولياء الله الذين معهم "آيات الله"، وسمّاها الله "آيات" لدلالتها على الله الحق؛ سواء المتلوّة (الحُجَّة الرسالية) منها أم المادية (المعجزات)..
فعندما يجيء الحق متمثلاً **بالآيات** البينات، يزهق الباطل وشبهاته الفكرية.. وهذه سنة لله دائمة الجريان؛ فعندما ألقى موسى عصاه: آية الله المادية المعجزة، وهي الحق المبين.. زهق باطل السحرة وإفكهم.. وظهر الحق المبين، فخرّوا لله ساجدين:

﴿.. فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ **فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴿١١٨﴾ **فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ** ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ..﴾ الأعراف: ١١٦ - ١٢١

والقرآن هو آية الله الخاتمة الخالدة، وفيه تجتمع الخاصيتان معاً؛ كونه آية متلوّة (**حُجَّة** رسالية) وكونه آية ماديّة (معجزة)..

والغلبة ستكون لِمَن يملك العِلْم بالمنهاج؛ خطاباً وأعمالاً.. في تفعيل القوة الهائلة في التأثير والتغيير (الهداية وإقامة الحُجَّة) الكامنة في القرآن الكريم، بوصفه "آيات بيّنات"، ولِمَن يُحسِن توظيف تلك القوة من أجل تحقيق الغاية منه، كما حصل في أول أمر هذه الأمة على يد رسول الله ﷺ..

فالتأثير - على الحقيقة - إنما هو لآيات الله البيّنات بما فيها من حُجَّة بالغة ومن إعجاز، وما الرسول - بوصفه حاملاً الرسالة - إلا مبلّغ ومبيّن لآيات الله؛ بياناً عملياً، كما يريد الله عزّ وجلّ.. بمعنى أنه المُفَعّل للآيات البيّنات (فكرياً ومادياً)، وهو المعلّم والقدوة لنا في كيفية تفعيلها في واقع الناس؛ خطاباً وأعمالاً.. لتؤدي دورها وأثرها في حياة الناس: الهداية إلى الحق، لمَن أراد الهداية، وإقامة "الحُجَّة الرسالية" على مَن أبى واستكبر عن اتباع الحق البيّن..

ومن هنا، فإن الغَلَبة ستكون لمَن يسير على "منهاج النبوّة" في تفعيل "القوة التغييرية" الكامنة في القرآن، بوصفه آيات بيّنات؛ فكرياً ومادياً.. بقصد تحقيق الغاية منه.. فحُجَّة الله قائمة في آيات القرآن؛ بما فيها من أفكار وحقائق، وفي أسلوب عرضها الربانيّ البديع الفريد.. فما جعل الله القرآن هكذا في خصائصه المتنوعة إلا لإحقاق الحق وإبطال الباطل، أي لتحقيق الغاية منه في الواقع الإنساني: وذلك بهداية من أراد الهداية، وبالتالي استحقاقه للنصر والتمكين.. وبإقامة "الحُجَّة الرسالية" على مَنْ أبى، وبالتالي استحقاقه لعذاب الاستئصال (العذاب الأكبر) في الدنيا، ثم العذاب الأليم المقيم في الآخرة..

ولا يستحق أن يوصَف بأنهم من ورثة النبي ﷺ.. وأن يكونوا هم {الْغَالِبُونَ} بإذن الله.. إلا أولئك **السائرون** على "منهاج النبوّة" (سبيل رسول الله)..

"فلا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" .

والحمد لله رب العالمين

في ختام هذا الباب ..

ما سبق **ذِكْره** من أفكار ومواضيع شرعية؛ والتي استغرقت حوالي ربع الكتاب.. نرى **أنه** كان ضرورياً من أجل التذكير بنظرةٍ صحيحة وشمولية وواعية:

على القرآن المجيد بوصفه "الرسالة الخاتمة" من الله **جلّ شأنه** إلى البشرية جمعاء.. فكرتها و موضوعها و الغاية منها و منهاجها؛ خطاباً وأعمالاً..

وعلى طبيعة "الأمة المسلمة الخاتمة" ووظيفتها والسنن العامة الضابطة لها..

لتكون هذه "النظرة الشمولية"؛ للرسالة الخاتمة والأمة الخاتمة.. هي الأرضية الصالحة لتعيين **زاوية** النظر الصحيحة إلى القضايا العامة والمصيرية المتعلقة بالأمة وبالرسالة.. وبالتالي معرفة المعالجات الصحيحة اللازمة؛ أعمالاً وخطاباً.. ومعرفة كيفية المعالجة..

والهدف من هذه "النظرة الشمولية الواعية" أمران:

- ✓ تعريف وبيان لزاوية النظر الصحيحة، ولأُسس وقواعد عامة، تصلح لأن تكون **ضوابط** لا بد من ملاحظتها عند البحث والنظر في القضايا العامة والمصيرية للأمة.. مثل بحث "منهاج النبوّة" (سبيل رسول الله) في "إعادة تأهيل" الأمة المسلمة الخاتمة، لتكون كما أراد الله منها أن تكون.. "فلا يصلح آخر أمر هذه إلا بما صلح به أولها"..
- ✓ إن الاتفاق على زاوية النظر الصحيحة، يضيّق مساحة الاختلاف إلى الحد الذي يجوز فيه الاختلاف شرعاً.. لأن الاختلاف في زاوية النظر هذه، هو السبب الرئيس في توسيع مساحة الاختلاف الحاصل بين العاملين للإسلام؛ في تصورهم للمشكلة وبالتالي تصورهم للحل..

ومن هنا، فما سبق بيانه في "التمهيد" من حقائق حول "الرسالة الخاتمة"؛ فكرتها وموضوعها وغايتها ومنهاجها.. و "الأمة الخاتمة"؛ طبيعتها ومهمتها.. وسائر الحقائق الأخرى التي من الضروري مراعاتها عند النظر والبحث في "منهاج النبوة": "التلقي المنهاجي" للرسالة، واعتماد المصطلحات الشرعية، وملاحظة "الجانب السنني القدري" الذي لا يقل أهمية عن "الجانب الشرعي"، وحقيقة "الفهم السياسي" للسيرة، وأن "الطاعة الواعية" لأمر الله، و"الحكمة" في تنزيله على الواقع.. هو طريق النجاة والفوز في الدنيا والآخرة..

فهذه الحقائق - وغيرها - ستكون هي الأساس في النظر إلى ما تبقَّى من مباحث هذا الكتاب.. وهي المباحث الرئيسة التالية:

1- بيان ما حصل مع رسول الله ﷺ في تلقيه الرسالة مرتّلة، وسيره بها في واقعه حتى حقق الله **جلّ وعلا** الغاية منها على يديه، ووُجِدَت الأمة التي ستخلفة ﷺ في الاستمرار بتحقيق الغاية من الرسالة والمحافظة عليها.. حتى قيام الساعة

2- بيان ما هو ملزم لنا (المتعبدون به) وما هو غير ملزم، من كل ما قام به رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو إقرار، طول زمن سيره بالرسالة في واقعه حتى تحقيق الغاية من الرسالة..
أي فهم: ما معنى أن نقتدي في رسول الله؟.. وكيف نقتدي فيه ﷺ بكل ما قام به لتحقيق الغاية من الرسالة في ثلاثة وعشرين عاماً ؟.. أي فهم "منهاج النبوة" في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة.. خطاباً وأعمالاً..

3- وأخير، لا بد من بيان كيفية تنزيل "منهاج النبوة" على الواقع الإنساني المعين (واقعنا الآن).. بقصد تحقيق الغاية من الرسالة.. وجعل كلمة الله هي العليا..

والله المستعان..

والحمد لله رب العالمين

الباب الثاني:

فَهْم ما حصل مع رسول الله ﷺ

واقع "الأمة المسلمة الخاتمة"، أنها أمة تخْلُف رسول الله الخاتم في مهمّته؛ الاستمرار في تحقيق الغاية من رسالة الله في واقعها.. وذلك بقيامها بأعباء الرسالة؛ تطبيقاً على نفسها، وحَمْلاً لها للناس كافة بالجهاد؛ وهدى ورحمةً.

وكانت بداية نشأة هذه الأمّة، وبدء السير لتحقيق الغاية من الرسالة.. مع بداية تلقّي الرّسول الكريم ﷺ آيات القرآن الحكيم، فَحَدَث ذلك على **مُكْث**، وعلى **بصيرة**.. خلال ثلاثة وعشرين عاماً..

فالتلقي المفرّق للقرآن الكريم؛ كان تلقياً منهاجياً لآيات القرآن الكريم.. فكان هو طريقة البيان القرآنيّ لكيفية السير به حتى تحقّقت الغاية منه..

نظرة عامة

التلقي المفرّق على مكث (التلقي المنهاجي) للقرآن الكريم، كان فيه بيان القرآن لكيفية تلقيه والسير به - أولاً بأول وخطوة بخطوة - من أجل تحقيق الغاية منه.. كما ذكرنا سابقاً..
فكُلّما نُـزّلت مجموعة آيات أو سورة من القرآن المجيد، تلاها رسول الله على الناس وبيّـنها لهم وعلّمهم ما فيها مما أراده الله ربّ العالمين منهم.. تـلقّـفها المسلمون بِحُبّ وشَغف، وسارعوا إلى تحقيق ما أمرهم به ربّهم في واقعهم، عن رضا وتسليم.. فيتعلّمون شيئاً جديداً من دين الله، وتـتزكّى أنفسهم.. فتُضاف بذلك، لبنة أخرى في بناء الأمّـة.. وفي نفس الوقت كانت تُزال عقبة أو عائق من الطريق أثناء السير نحو إتمام البناء وتحقيق الغاية؛ أن يكون المسلمون أمّـة ذات خصائص معينة، تؤهّلها للقيام بمهمتها على أكمل وجه:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ التوبة: ١٢٤ - ١٢٥

فعن طريق التلقي المرتّل للآيات، وسير رسول الله العملي في المجتمع لثلاث وعشرين سنة؛ كان بيان "منهاج السير" بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها في المجتمع؛ وذلك ببـيان الحالة التي عليها الجماعة المسلمة من جهة، والمجتمع الجاهليّ من الجهة الأخرى.. أو الحالة التي عليها الأمّـة المسلمة والمجتمع الإسلامي.. و بيان **سُنَن الله الثابتة**، وبيان أين تقع تلك الحالة الحادثة منها.. فَيَضْرب لهم الأمثال ويقُصّ عليهم القَصص.. تعليماً وتثبيتاً.. (**المعالجات السننية**).. ويبيّن كذلك، **المعالجات الشرعيّة** [78] - إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة - والتي على الجماعة المسلمة (قبل التمكين) أو الأمّـة المسلمة (بعد التمكين) بقيادة رسول الله ﷺ الاستقامة عليها والتزامها في معالجة تلك الحالة (**المناط**) [79] التي هُمْ عليها أو التي يواجهونها فعلاً.. مُبيّناً لهم كيفيّة السّير - أولاً بأول - وعلى طول الطريق كلّها، من حالة **الاستضعاف** في مكة، حتى **"التمكين"** والإعلان عن تكوّن الأمة المسلمة في المدينة، وما بعد "التمكين" حتى **إكمال** الأمة دينها لله **سبحانه وتعالى** و**"الاستخلاف"** في الأرض.

هذا، وما أن تمّ - أو كاد أن يتم - نزول جميع آيات القرآن الكريم، واتّباعها والاستقامة عليها.. حتى تمّ خروج الأمة من الضلال، وكَمُل الدخول في الهدى كافة.. أي أن الأمّـة المسلمة قد أكملت عبوديتها (دينها) لله **عزّوجل**، واتباعها لرسوله.. وقد يئس الذين كفروا من إطفاء نور الله.. فأصبح

78- المعالجات الشرعيّة هي: الأعمال (قول أو فعل) المطلوب شرعاً القيام بها، لمعالجة حدث أو حالة => (المناط)، وتؤخذ من الدليل الشرعي؛ بفهمه حسب الأصول المعتبرة لغة وشرعاً، وهي أعم من "الحكم الشرعي" المتعلق بأفعال العباد، ومتضمنة له، فهي تتعلق بالفكر أيضاً؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو، أم بالحكم على وجوده من عدمه، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعي.

79 - المناط هو: ما أناط (علّق) الشارع الحكم به، وهو الواقع (الشيء أو الأمر أو الحدث) الذي جيء له بالحكم الشرعيّ أو المعالجة الشرعيّة. **[انظر (الواضح في أصول الفقه) - محمد حسين عبدالله].**

دين الله حقيقة واقعة على الأرض، متمثلاً بالأمة المسلمة - وقد كان كلاماً يُتلى ومكتوب في الصُحُف - ونزلت البشارة بذلك في حُجَّة الوداع، في السنة العاشرة للهجرة، في قوله **تعالى**:

﴿..ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ .. ﴿٣﴾﴾ المائدة [80]

وبهذا، فقد وصلت الأمّـة المسلمة الخاتمة إلى اكتمال النشأة والتكوين، وإلى حالة من تـَوَفُّـر **القدرة** و **الإرادة**، جَعَلتها على أتم الاستعداد للقيام بالمهمة التي أُنشأت من أجلها، والتي جعلها الله لها؛ أن **تخْلُف** رسول الله الخاتم في **مهمّته**، باستمرار تحقيق الغاية من رسالة الله في واقعها؛ **إكمال** (إخلاص) الدين لله.. بإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

هذا بشكل عام..

المبحث الأول : بيان خط سير رسول الله **بالرسالة**

بيان خط سير رسول الله ﷺ بالرسالة، بشيء من التفصل.. ينبغي أن يكون في ضوء ما تم تقريره سابقاً: إنه من **الخطأ المنهجي** النظر في السيرة النبوية وفهمها مفصولة عن القرآن.. لأن القرآن هو الأصل؛ فأفعال **الرسول** وأقواله ومواقفه - أي السنّة ومنها السيرة - كانت **تدور** دائماً مع ما **نُـزِّل من القرآن** وفي إطاره، **بياناً** له، بتنزيله على واقعه الإنساني لمعالجته، **أولاً بأول**.. (كان خُلُقُه القرآن).. من بداية السير بالرسالة حتى وُجدَت الأمة المسلمة، إلى اكتمال خصائصها و**إكمال** دينها (عبوديّتها) لله، على يديه ﷺ.. فكانت سنة رسول الله وسيرته لا تتجاوز توجيهات آيات القرآن **المباشرة** أو **إطارها العام**، وحسب **ترتيل تلقيها** (المنهاج) للسير بها بقصد تحقيق الغاية من القرآن في الواقع (الطاعة الواعية)، وإنْ حصل بعضٌ من أفعاله ﷺ "خلافاً للأَوْلى" نُـزِّل قرآن ليصحّح ويوجّه.. كما ذكرنا سابقاً..

فالفهم الصحيح والشامل لخط سير رسول الله بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها.. ينبغي أن يكون في ضوء ما ورد في القرآن الكريم من معالجات شرعية.. وبيان لسنن الله في الأمم، وفي حركة الرسل في مجتمعاتهم أثناء الدعوة إلى الله.. وفي مواقف المجتمعات الجاهلية من رسل الله.. الخ.. الأمر الذي يقتضي الربط المتين والعضوي بين طرَفي الوحي: السنة والسيرة من جهة وبين القرآن الكريم؛ من حيث طبيعة السير والتتابع الشرعي والسنني لمراحله وخطواته.. مع استشعار الحكمة في ذلك التتابع.. وملاحظة أهمية فهم أسباب النزول والأحداث وربطها بآيات القرآن.. كما قررنا سابقاً؛ من أن ترتيل نزول آيات القرآن هو "تلقٍ منهاجي" للآيات فيه دلالة على "منهاج النبوّة" لتحقيق الغاية من الرسالة..

وعليه، فبيان وفَهْم خط سير رسول الله ﷺ بالرسالة.. سيكون في خطوتين رئيستين:

---

80 - (وهذا الإكمال عند الجمهور هو: الإظهار واستيعاب معظم الفرائض والتحليل والتحريم). **[ابن عطية. أنظر أيضا الطبري والبغوي والشوكاني]**. فمعنى إكمال الدين لله ليس فقط إكمال الوحي وتنزيل الآيات، بل هو => إكمال تحقُّق في الواقع، وذلك بأن تُكْمِل الأمة دينونتها وعبوديتها لله، بقيامها بكافة أحكام الشريعة.

الأولى: بيان **الطبيعة السُنَنيّة** - بضوابطها - لتتابع الأحداث الذي حصل مع رسول الله في سيره بالرسالة الخاتمة في واقعه؛ بلاغاً وبياناً عملياً، من البداية حتى تحقيق الغاية.
وسنبدأ في هذا البيان في الفقرة التالية.

الثانية: وبعد ذلك، نشرع في **النظر** إلى **أحداث** ووقائع سير رسول الله بالرسالة بالتفصيل، **مقرونة** بمعالجاتها، كما جاءت في القرآن الكريم وكما بيّنها رسول الله تطبيقاً عملياً على الواقع، وذلك من خلال "**الفهم المنهاجيّ**" لسُوَر القرآن، أي من خلال النظر إلى كل سورة كـ "وحدة منهاجية" واحدة، تشكّل جزءاً من المنهاج، وفي مجموعها ثَمّ المنهاج كاملاً.
والتعريف بـ "الفهم المنهاجي" سيكون في ما يلي من البحث، أما التفصيل في بيانه وفي تطبيقه على جميع سور القرآن الكريم، سيكون في كتاب مستقل هو (تبيان سور القرآن). وهو الجزء الثاني والمكمّل لهذا الجزء (تأصيل وقواعد عامة) من البحث في "منهاج النبوة".

النظر إلى سير رسول الله بالرسالة من خلال "سنن الله" في حمل الرسالات في المجتمعات

وسيكون ذلك بالخطوات العملية التالية:

1- **بدايةً**، بيان الترتيب والتتابع السننيّ **العام** لحصول الأحداث والمواقف الذي واجهه **رُسل الله عليهم السلام** أثناء سيرهم بالرسالات في مجتمعاتهم، والذي كان حسب سنن الله العامة الدائمة الجريان التي لا يطرأ عليها التغيير أو التبديل، في تحقيق الغاية من رسالات الله **تعالى** في المجتمعات (القرى) المختلفة، بوصفها **مجتمعات إنسانية**.. بغض النظر عن الزمان والمكان والعُمران.. وقد بيّن الله **تعالى** ذلك كلّه في القرآن الكريم، وخاصةً عند ذكر قصص الأنبياء؛ حيث يُسلَّط الضوءُ على سنن الله تعالى وحكمته وعلمه وقدرته ورحمته ولطفه وعدله.. في تقدير الأمور وسير الأحداث فيها.. كما ورد في سُوَر عديدة.

2- **وبعد ذلك، مطابقة** "الترتيب السننيّ العام" المبيَّن في النقطة السابقة، مع ما ورد ذكره في القرآن الكريم من بيانٍ **لسير** رسول الله **الخاتم محمّد** ﷺ بالرسالة. بمعنى أن ما حصل مع الرسول الخاتم - مما ورد ذكره في القرآن - يُفهم في ضوء تلك السنن العامة، من حيث طبيعة السير والتتابع العام للأحداث، **ومواجهة** ما أوجده أعداء الله **تعالى** من شبهات وعقبات للصد عن سبيل الله، ومن "مكر" و "كيد".. **والصبر** على معالجة ذلك كله، قدراً وشرعاً.. والتوكل على الله، والثقة به **جلّ وعلا** وبتحقق وعده ونصره.. الخ:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ... ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ..﴿٩٠﴾ ﴾ الأنعام: ٨٩ - ٩٠

فرسول الله الخاتم محمّد ﷺ ليس بِدَعاً من الرسل، وسيره بالرسالة في واقعه الإنساني مضبوط بالسنن العامة نفسها التي ضبطت سير سائر الرسل من قبله، **عليهم الصلاة والسلام**.. وبيان ذلك هو موضوع هذه الفقرة:

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء: ٧٦ - ٧٧

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ ﴾ الذاريات: ٥٢ - ٥٣

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ۝٤٣﴾ فصلت .. الخ

فلا بد من فهم ذلك **القَدْر المشترك** بين الرسالات؛ من طبيعة الحمل والسير بها والسنن الضابطة له.. وهو موضوع الاقتداء بالرسل السابقين وأخذ العبرة.. لأنه لولا وجود التشابه في الأحوال والتطابُق بالمواقف لما أمكن أخذ العبرة والخبرة.. وما ذلك إلا لثبات أمرين:

الأول: ثبات الفكرة التي حملها جميع رسل الله؛ "لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير"، رغم اختلاف أزمان أقوامهم وأماكنهم، واختلاف أشكال معاصيهم وأمراضهم المجتمعية، وشكل انحرافهم عن حقيقة أنه لا إله إلا الله.. كما هو ظاهر في قصص الرسل في القرآن.

الثاني: ثبات ما قدَّره الله **جلّ وعلا** من الخواص الإنسانية في الأفراد والأمم والمجتمعات وسننها الضابطة لها، الدائمة الجريان، التي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل.. لكن الذي يختلف هو الأشكال والمظاهر:

﴿ .. وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ۝٤٣ ﴾ فاطر: ٤٣

﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝١١١﴾ يوسف: ١١١

أي (لَقَدْ كَانَ فِي خَبَرِ الْمُرْسَلِينَ مَعَ أَقْوَامِهِمْ، عِبْرَةٌ لأولِي الْعُقُولُ، وذلك لما فيه من البيان لسنن الله فيهم وبأقوامهم.. وهو خبر صدقٍ ووقع حقاً وليس كذباً أو مختلقاً.. {وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ} أي، وفي خبر المرسلين تفصيل كل شيء متعلق بحمل دعوة الله ورسالته والسير بها في القرى (المجتمعات)؛ من حيث سنن الله الدائمة فيها.. وثبات رسل الله وصبرهم ويقينهم بالله وبوعد الله.. وبيان طبيعة المجتمعات الجاهلية والملأ منهم، وبيان العقبات.. وكيف أن العاقبة للمتقين؛ حيث أَنْجَى الله الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ.. الخ.. "تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ" من سنن الله التي بيّنها الله لأخذ العبرة والخبرة، من خلال ذكر أنباء المرسلين:

﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ **حَتَّىٰٓ** أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ **وَلَا مُبَدِّلَ** لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣٤ ﴾ الأنعام: ٣٤

فَلِهَذَا كَانَ نبأ المرسلين فيه:

﴿.. وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝١١١﴾ يوسف١١١

أي، (إرشادًا لكل خير، ورحمة لقوم **يُصدِّقون** بالقرآن وأن ما فيه من **قصص** الرسل هو **الحق**، وهُم أَولَى من يأخذ منها العبرة ويدرك سنن الله في حمل دعوة الله وتبليغ رسالته؛ فهُم من أولِي

الألباب). [81]

ومن هنا، فما حصل مع الرّسول الخاتم - مما ورد ذكره في القرآن - **يجب** أن يُفهم في ضوء تلك السُّنن والخواص العامة، من حيث طبيعة السير بالرسالة، وعقباته، والتتابع العام للأحداث.. **لكن**، مع **الانتباه** إلى ما **خصّ** الله **تعالى** به **الرسالة** الخاتمة، **والرّسول** الخاتم، **والأمّة** الخاتمة، من **سنن** ومن **معالجات شرعيّة** في هذا السياق [82].

3- **وأخيراً**، نقوم بجمع ما هو **ثابت** من **سنة** الرّسول ومنها **سيرته** ﷺ وما فيها من تفاصيل لأحداث السير بالرسالة [83].. ثم نقوم بعملية **مقارنة ومطابقة** مع ما سبق معرفته من **"القَدْر المشترك** بين الرسل والرسالات؛ من طبيعة الحمل والسير بها والسنن الضابطة لها".. وذلك بقصد **الوصول** - قدر المستطاع - **للفهم السننيّ المفصّل** للأحداث والوقائع التي حصلت مع الرّسول الخاتم.. أي فهم السيرة في ضوء **سنن** الله في الرسل والرسالات كما بيّنها القرآن الكريم.

---

81 - **[انظر تفاسير: الطبري، ابن كثير، القرطبي، ابن الجوزي]**. "وهذا التوجيه الذي أثبتناه لآية سورة يوسف هو => الأولى من غيره، وذلك: بقرينة الآيتين السابقتين لهذه الآية، فالكلام فيها عن عموم رسل الله وليس يوسف فقط، حيث انتهى الكلام عن قصة يوسف قبلها. ومن ثَم، فالمُشارِ إِلَيْهِ في قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ما كانَ حَدِيثًا يُفْتَرى﴾ هو الحديث عن الرسل وسنن الله الدائمة فيهم - الذي هو موضوع الآيات الثلاثة وسياقها - لأخذ العبرة والخبرة. ولازم الكلام أن القرآن كله كذلك: ﴿ما كانَ حَدِيثًا يُفْتَرى﴾، لأن هذه القصص جزء من آياته، فلا فرق بين القرآن أو جزء منه؛ فكل جزء منه هو قرآن، كلام الله جلّ وعلا".

82 - يجب معرفة تلك الخصوصية عند فهم "المنهاج"، سواء في السنن التي تَحْكم تسلسل الأحداث => والمواقف وتطوّرها في العلاقة بين الجماعة المسلمة من جهة والمجتمع الجاهلي الذي ليست كلمة الله هي العليا فيه، في الجهة الأخرى، أي "قبل التمكين"، أم في السنن التي تحكم تسلسل الأحداث والمواقف وتطوّرها عندما يُمَكّن الله للمسلمين ويصيروا أمّـة من دون الناس. ومن الأمثلة على الخصوصية في مرحلة ما "قبل التمكين": أن تلك الجماعة المسلمة الأولى تُعتبر نواة للأمّة الخاتمة التي على رسول الله تكوينها وبناؤها وإعدادها بالوحي حتى تصبح قادرة على تحمّل أعباء رسالة الله الخاتمة من بعده، إكمال الدّين لله، تطبيقاً وحملاً لها للناس كافة إلى قيام الساعة: (.. وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ..{78} **الحج**. ومن الأمثلة في "مرحلة التمكين": سنن الله تعالى في نصر المؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين، حيث أن الأصل في عذاب الله لهم سيكون بأيدي المؤمنين - جند الله - بالقتل والأسر وأخذ الغنائم: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14)) **التوبة**. خلافاً لسنة الله تعالى العامة في مَنْ كفر من الأمم والأقوام السابقة، حيث كان يعذبهم بجنوده في السموات والأرض: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)) **العنكبوت**. كما في قول رسول الله الصحيح عند البخاري: (أُعطيتُ خمسًا، لم يُعطَهنَّ أحدٌ منَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شهرٍ، وجُعِلَتْ لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا، وأيُّما رجلٍ من أُمَّتي أدرَكَتْه الصلاةُ فلْيُصلِّ، وأُحِلَّتْ لي الغَنائمُ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومِه خاصةً، وبُعِثتُ إلى الناسِ كافةً، وأُعطيتُ الشفاعة).

83 - وقد جمع الشيخ ابراهيم العلي - رحمه الله - ما ثبت من روايات السيرة، على منهج أهل الحديث، بين=> دفتي مؤلَّف واحد أسماه: (صحيح السيرة النبوية). وقد أعيدت طباعته مرات عديدة. وهناك دراسات أخرى للسيرة النبوية مبنية على ما ثبت منها، على منهج أهل الحديث، مثل (السيرة النبوية الصحيحة) ـ د أكرم ضياء العمري.. وهناك غيرهما، بارك الله في جهود الجميع.

فالنظر في ما **ثبت** من **السنّة** و **السيرة** لفهم "المنهاج"، **يجب** أن يكون من خلال بيان القرآن للمنهاج وفي ضوئه، ذلك أن القرآن الكريم - كما بيّنا سابقاً - هو الأصل في **حركة** الرّسول ﷺ **وسيره** بالقرآن لتحقيق الغاية منه حسب ترتيل نزوله، والسنّة كانت هي **"البيان العمليّ"** (كان خُلُقُه القرآن) - بالقول والفعل والإقرار - من خلال تنزيل آيات القرآن - حسب ترتيل نزولها - على الوقائع والأحداث بقصد معالجتها.

وهكذا، وبعد الالتزام بالخطوات العملية السابقة، وكَثَمرة للنظرة **الشاملة والعميقة** لمَا ورد في سور القرآن الحكيم من بيانٍ لطبيعة سير رسول الله الخاتم، **وربطه** مع ما **ثبت** من روايات السّنة المطهّرة ومنها السيرة.. سيتكوّن لدينا **فهمٌ** - أقرب ما يكون إلى الصحة والشمول - **لما حصل** مع رسولنا محمّد ﷺ في سيره بالرسالة؛ من البداية حتى تحقيق الغاية، وبشقّيه القدريّ والشرعيّ، ومن منظور **سنن** الله في حمْل دعوة الله للناس وإبلاغ رسالته للناس.. وكما حصل مع رسول الله في واقعه ومجتمعه.. وبأكثر تفصيل ممكن؛ بقدر ما **ثبت** من روايات السنّة والسيرة..

بمعنى، أننا سنرى **أحداث** السيرة النبويّة - بمراحلها وأطوارها - وقد صُبّت في قالبها أو إطارها الأصل، إطارها الحاكم لها، ألا وهو **الإطار السُنَنيّ**، وكما **بيّنه القرآن** الكريم.

وهذا ما سنَشْرَع في عرضه وبيانه بإذن الله **تعالى**..

تنويه..

1- وننوه هنا إلى أن **ربط** السيرة بالقرآن - أو ربط القرآن بالسيرة - يقتضي بيان الأدلة أو القرائن الدالة على ارتباط السورة أو الآيات المعينة بذلك الطور في تلك المرحلة من سير رسول الله.. حتى يصح الاستدلال بها على طبيعة ذلك الطور أو تلك المرحلة أو على الأعمال أو الخطاب المتعلقة بهما.. وأن ذلك الارتباط أساسه سنن الله الضابطة لتتابع الأحداث والمواقف التي حصلت مع رسول الله..

ومن أهم تلك القرائن أو الأدلة: أسباب النزول.. والسياق العام للسورة؛ من خلال موضوعها وأسلوبها ونوع المواقف التي تعالجها (مناط السورة).. وغير ذلك.. وهذا كله تم مناقشته وبيانه بالتفصيل في كتاب (تبيان سور القرآن) - وهو الجزء الثاني والمكمّل لهذا الكتاب - من خلال بيان ما اصطلحنا عليه بـ "الفهم المنهاجي لسور القرآن الكريم".. بيان خصائصه، ونقاط التقائه أو افتراقه عن مناهج التفسير الأخرى؛ التفسير التجزيئي (التفصيلي) أو التفسير الموضوعي أو التفسير التاريخي.. (84)

2- وننوه إلى أن الذي حصل مع أغلب رسل الله - الذين أخبرنا الله عنهم، بما فيهم الرسول الخاتم - أن أقوامهم أصروا على الكفر حتى أصبح موقفاً نهائياً لهم، حتى استحقوا عذاب الدمار والاستئصال؛ أو ما سمّاه القرآن بـ "العذاب الأكبر" في الدنيا.. فلم يؤمنوا حتى رأو العذاب الأليم.. إلا ما كان من قوم يونس **عليه السلام** حيث آمنوا قبل أن ينزل به "العذاب الأكبر":

---

84 - وتجده على الرابط التالي، ومعه هذا الجزء (الأول):
https://drive.google.com/drive/folders/1ePqIMJL2U_axge4XJPALNuiK5q4Onl-t?usp=drive_link

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ ﴾ يونس: ٩٦ - ٩٨

"فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ بَعَثْنَا إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، بَلْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ، أَوْ أَكْثَرُهُمْ.. أي أَنَّهُ لَمْ تُوجَدْ قَرْيَةٌ آمَنَ أهلها بكَمَالِهَم وانتفعوا بإيمانهم حين رأوا العذاب، إلا قوم يونس، لمّا آمنوا رفع الله عنهم عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا، ومتّعهم إلى وقت انقضاء آجالهم". **[انظر تفسير ابن كثير، و"فتح البيان - صديق حسن خان"، السعدي، وغيرهم].**

فهذا دليل على أن ما أخبرنا الله عنه ممّا واجهَه أغلب رسل الله من أقوامهم، هو الحالة الأغلب والأعم في مواقف الأقوام من رسل الله.. وليست هي الحالة الوحيدة، فهناك حلات أخرى ممكن أن يواجهها حَمَلَة دعوة الله ورسالته في المجتمع، حسب سنن الله في الدعوات والمجتمعات، وبحسب اختيارات الناس - في ذلك المجتمع - لمواقفهم من الحق الذي بلغهم بلاغاً مبيناً.. كما في حالة قوم يونس عليه السلام..

هذا، ومن النظر في سنن الله وقصص الأنبياء والصالحين، وجدنا أن هناك حالتان ممكن حصولها أيضاً، فيصبح إجمالي الحالات ممكنة الحدوث؛ أي التي يمكن أن يواجهها حمَلَة رسالة الله ودعوته من الناس في المجتمع، هي أربع حالات.. وسنبينها بالتفصيل - بإذن الله - في موضعها من البحث: "الباب الثالث" و "الباب الرابع".

3- ونؤكِّد هنا، على أن ما واجهَه رسول الله الخاتم محمد ﷺ هو أقصى وأوسع ما يمكن أن يواجهه حمَلَة "دعوة الله" حتى قيام الساعة؛ من حيث السنن والمنهاج.. بمعنى أن ما واجهه رسول الله كما بينه القرآن الكريم، يستوعب - من حيث السنن والمنهاج - كل ما يمكن أن يواجهه حمَلَة "دعوة الله" حتى قيام الساعة.. من حيث طبيعة المواقف أو الأحداث أو نوعية الأشخاص.. فليس هناك موقف أو حدث أو حالة إنسانية (مناط).. إلا وله أصل أو مثل وله معالجة في الوحيين: القرآن الحكيم وبيانه من السنة الشريفة.

فَهْم تتابع الأحداث وتوالي المواقف الذي حصل مع رسول الله في واقعه، من زاوية "سنن الله" في الدعوات وحمل الرسالات

كان سير رسولنا محمّد ﷺ بالرسالة حتى تحقيق الغاية منها، في مرحلتين رئيستين، ولكل مرحلة أطوارها، ولكل طَوْر تفاصيله؛ خطاباً وأعمالاً.. حيث تتابعت فيها الأحداث وتوالت المواقف، وتنوّع الخطاب، حسب سنن الله وحسب اختيارات القوم.. وسنَذْكرها بشيء من التفصيل.. ملتزمين بالخطوات العملية السالفة الذكر..

أمّا ما هو مُلزِم لنا وما هو غير مُلزِم من سير رسول الله بالرسالة، وكيف يكون الاقتداء برسول الله.. سنبحثه في موضعه: في "الباب الثالث".

المرحلة الأولى:

وهي مرحلة **"ما قبل التمكين"** للمؤمنين في الأرض، ومن أبرز خصائصها؛ قلة عدد المؤمنين أهل الحق واستضعافهم.. حيث يكون المؤمنون؛ حَمَلَة "دعوة الله" ورسالته، مكلّفين بوصفهم أفراداً أو جماعة تعيش في "مجتمع جاهليّ"؛ وهو المجتمع الذي الكلمة العليا فيه، ليست لله وحده.

هذا، وأوّل ما بادأ به رُسُل الله أقوامهم ومجتمعاتهم - كما هي سنة لله - هو بلاغ الحق الذي جاؤوهم به من الله **تعالى**، الذي أساسه وروحه: دعوة الناس إلى عبادة الله وحده والكفر بما دونه، على أساس حقيقة أن الله هو وحده الإله الحق (لا إله إلا الله):

﴿..ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:59،65،73،85/ هود:50،61/ المؤمنون 23،32]

مع تحميل المخاطَبين **المسؤولية** عمّا بلغهم من الحق؛ ببيان مصير من آمن بالله واتبع رسوله.. عند الله.. ومصير من كفر وتولّى.. وهو محتوى "خطاب النذارة" (فكرة الدعوة)..

فهذه هي بداية دعوة جميع رسل الله **عليهم السلام** لأقوامهم، وقد جاؤوا **بالبيّنات** من ربّهم، كما بيّن الله **تعالى** ذلك في آيات عديدة:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ **إِلَّا** نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء

﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ **أَنذِرُوٓاْ** أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ النحل: ٢ - ٥

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ **أَنذِرۡ** قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ **نَذِيرٞ** مُّبِينٌ ﴿٢﴾ **أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ** ﴿٣﴾ **يَغۡفِرۡ لَكُم** مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ نوح.. [85]

---

85 - هذه الآيات الكريمة، من سورتي النحل ونوح ومثيلاتها، دليل على بيان معنى وصف كل رسول بالنذير، ووصف خطابه بـ "خطاب النذارة".. فبعد أن يُكلّف الله تعالى رسوله بإنذار قومه، يبيّن ويفسّر (أن=>

﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ الأعراف: ٨٥

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ ﴾ هود: ٦١

.. إلخ

وبعَثَ الله رسولَه الخاتم محمّداً ﷺ بشيراً ونذيراً.. على نفس ما بعث عليه رسله السابقين:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ سبأ: ٢٨

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ **إِنَّمَا** يُوحَىٰٓ إِلَيَّ **أَنَّمَآ** إِلَٰهُكُمۡ **إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ** فَهَلۡ أَنتُم **مُّسۡلِمُونَ** ﴿١٠٨﴾ فَإِن **تَوَلَّوۡاْ** فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ الأنبياء

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ **بَشَرٞ** مِّثۡلُكُمۡ **يُوحَىٰٓ** إِلَيَّ **أَنَّمَآ** إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ **يَرۡجُواْ لِقَآءَ** رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ الكهف: ١١٠

كما بيّن الله **تعالى** سنته في إرساله الرسل بالرسالات، بياناً جامعاً في آيات كثيرة من أبرزها آيات سورة إبراهيم، حيث ذكر أن رسل قالوا لأقوامهم قولاً واحداً.. وأن أقوام الرسل كان ردهم على رسلهم، قولاً واحداً - رغم اختلاف أزمانهم وأماكنهم وحضاراتهم وأمراضهم المجتمعية - وكأنهم يتواصون بذلك بينهم.. وهم ليسوا كذلك، بل هي السنن التي قدّرها في الناس؛ أمماً ومجتمعات.. فأهل الباطل لهم طبيعتهم، وأهل الحق الباحثين عنه لهم طبيعتهم.. ومن أي قوم كانوا وفي أي زمان.. فطبيعة أي فريق تشبه طبيعة نفس الفريق من أي قوم، وسننها هي هي.. رغم اختلاف الزمان والمكان.. حيث قال الله **جلّ شأنه** بخصوص ذلك في سورة إبراهيم، مخاطباً قريشاً:

﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ

التفسيرية) معنى كونه نذير: (..أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ{2} خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{3}..) النحل،،، (أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ{3} يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{4}) نوح.. انظر سائر الآيات في هذا السياق.. فمحتوى "خطاب النذارة" كما هو في القرآن الكريم وكما كُلّف به الرسول الخاتم (قم فأنذر): الطلب إلى الناس أن اعبدوا الله وحده، مع بيان مصير من آمن واتبع ومصير من أبى واستكبر.. وعلى أساس أنه لا إله إلا الله، وذلك ببيان آثار إلهية الله في الآفاق والأنفس والأمم (القرى).. كما في الآيات السابقة وغيرها. **[انظر ("المبحث الثالث" من هذا الباب - (منهج الخطاب)/ الركن الثالث)].**

إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ.. ﴿٩﴾ إبراهيم [86]

أي: "ألم يصلكم - أيها الكفار - خبر إهلاك الأمم المكذبة من قبلكم: قوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، والأمم الذين جاؤوا من بعدهم؟ أتتهم رسلهم بالدلائل الواضحات التي لا يلتبس أمرها على الإدراك السليم، على أن الله **جلّ وعلا** وحده المستحق للعبادة والطاعة لأمره"..

ففي الآيات السابقة لهذه - من سوَرة إبراهيم - بيّن الله **تعالى** للناس، ومنهم مشركي مكة، أصالة.. أنه قد أنزل كتابه على رسوله ﷺ لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وبيَّن - سبحانه - أن له ما في السموات وما في الأرض، وهدد الكافرين وأنذرهم بالعذاب الشديد..

وحتى يأخذ أولئك الكافرون العبرة بمن سبقهم، حكى الله **تعالى** ما قاله موسى لقومه من جزاء الشاكر لأَنْعُم الله وجزاء الكافر بها.. وأن ضرر كفرهم ونفع شكرهم يعود عليهم وحدهم.. وبعد ذلك، خاطب الله **تعالى** مشركي مكة - وكلّ مَنْ هو على شاكلتهم - فقال:

﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ..﴾..

"والمقصود هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين الذين كذبوا رسل الله، بناء على أن ما حصل معهم كان حسب سنن الله الدائمة.. التي لا تتغيّر ولا تتبدّل".

هذا، وقد سار رسول الله الخاتم ﷺ في البلاغ المبين لآيات الرسالة؛ تلاوةً وبياناً واستقامة، أولاً بأول.. وكانت أول آيات القرآن نزولاً على قلبه: الآيات الأولى من سوَرة العلق.. ثم بعد ذلك سوَرة الفاتحة.. ثم الآيات الأولى من سوَرة المدثر [87].. وهذا يعني:

من حيث الموضوع: محتوى "خطاب النذارة"؛ (قُمْ فَأَنْذِر).. أو "فكرة الدعوة" أي الفكرة التي تُحمَل إلى الناس ويُدعَى إليها.. وهي: "لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير".. أي، الدعوة إلى عبادة الله وحده على أساس "فكرة الرسالة"، مع تحميل المُخاطَبين - كل واحد منهم - المسؤولية عمّا سمعوه من الحق، ببيان مصير من آمن واتبع ومصير من أبى واستكبر (المسؤولية الفردية).

ومن حيث "منهج الخطاب": أن يكون على شكل "**بلاغ مبين**": بلاغاً بيّناً واضحاً، مُزيلاً للجهالة موجِداً للعلم، فرقاناً بين الحق والباطل، ليكون هداية لمن أراد الهداية، مُقيماً لـ "الحُجَّة الرسالية" على من أبَى واستكبر.. الحُجَّة التي ليس بعدها عذر: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ ﴾ النساء: ١٦٥

---

86 - وسنعتمد مجموعة الآيات (9 - 17) من سورة إبراهيم، أصلاً في بيان طبيعة هذه المرحلة وخصائصها العامة.

87 - **أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي**. والراجح أن سورة الفاتحة من أوائل ما نُزّل من القرآن - بعد => آيات سورة العلق - لقرائن كثيرة، منها: حديث الرسول بأنها هي السبع المثاني الواردة في سورة الحجر وهي مكيّة، وأن الصلاة كانت أول ما كُلّف به المسلمون من العبادة بعد الإيمان بالله ورسوله، ولا صلاة بغير الفاتحة.. **أنظر سوَر: (العلق، والمدثر، والفاتحة). في الجزء الثاني (تبيان سور القرآن) [الرابط هامش 84]**. ولمعرفة أهمية هذه السور في الدلالة على "منهج التزكية"، انظر كتاب (منهج التزكية والتعليم)، على الرابط:
https://drive.google.com/drive/folders/1sbgezIVBCdVfTWNhCrS31aZkI7dqupeu?usp=share_link

ويتحقق ذلك كله، **بتلاوة** آيات الله **تعالى** ذات العلاقة على الناس.. **وببيانها** - حسب **المقام** - كمعالجات للواقع.. كما قال **تعالى** على لسان رسولنا الكريم مخاطباً قومه:

﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ **أَعۡبُدَ** رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ **أَتۡلُوَاْ** ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ **ٱهۡتَدَىٰ** فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن **ضَلَّ** فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

النمل: ٩١ - ٩٢

أي، "وأُمرت أن أتلو القرآن عليكم تلاوة الدعوة إلى الإيمان، فمن اهتدى به فإنما يهتدي لأجل نفسه؛ فإن ثواب اهتدائه له، ومن ضل عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى، فأقول له: إنما أنا من المُخوّفين عذاب الله **تعالى** (المُنذِرين)، فليس عليّ إلا التبليغ".. فالإنذار هو: الإعلام (البلاغ) مع التخويف..

والتلاوة هنا ليس مطلق القراءة، بل هي قراءة مخصوصة بقصد الاتباع.. لأنّ "يتلو" تعني "يتّبع"، بمعنى قراءة الآيات لتنزيلها كمعالجات للواقع ليتبعها الناس لها ..

فالذي "يقرأها" عليهم؛ هو متّبع لها (يتلوها).. أي تلاها عليهم حتى هم يتّبعوها.. فهو حُجَّة عليهم..

ويؤيد ذلك قوله **تعالى** وهو يخاطب الكافرين يوم القيامة في معرض إقامة الحُجَّة عليهم: إنه لا عذر لهم وقد كانت آياته "**تُتلى**" عليهم، ولم يقل "تُقرأ" **(88)**:

﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي **تُتۡلَىٰ** عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ **..** ﴾ المؤمنون

هذا، وإلى هنا تكون الدعوة إلى عبادة الله وحده في إطار الإنذار وإقامة الحُجَّة، على أساس فكرة الرسالة، مجرّد البيان، دون التعرض لـ "طاغوت" المخاطبين بشكل مباشر، أي دون "كشف الطاغوت" **(89)**..

---

88 - ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة ١٢١]. يقول الطبري في تفسيره: (فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد - => وهو التوراة - فقرءوه واتبعوا ما فيه، فصدقوك وآمنوا بك، وبما جئت به من عندي، أولئك (يتلونه حق تلاوته) . بمعنى: يتبعونه حق اتباعه، من قول القائل: ما زلت أتلو أثره، إذا اتبع أثره، لإجماع الحُجَّة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله. أما قوله: ﴿ حق تلاوته ﴾، فمبالغة في صفة اتباعهم الكتاب ولزومهم العمل به، كما يقال:"إن فلانا لعالم حق عالم"، وكما يقال:"إن فلانا لفاضل كل فاضل"). **[تفسير الطبري - باختصار].**
وأنظر الآيات التي وردت فيها كلمة (تُتلى)، تجدها جاءت في سياق البلاغ والدعوة وبيان مواقف المخاطبين مما سمعوا من الآيات وإقامة الحُجَّة الرساليّة، يعني كمعالجات للواقع الإنساني. أما القراءة فتأتي في سياق عموم القراءة لآيات الله؛ في الصلاة وفي غيرها: (فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) المزمل، وفي سياق وجوب التزام القارئ للقرآن بالكيفية التي سمعه بها وتلقاه فيها دون زيادة أو نقصان: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} القيامة. أي نقل القرآن كما سمعه.

89 - الطاغوت هو: (كل ذي طغيان على الله الإله الحق، عُبد وأُطيع أمره مع الله أو من دون الله عزّ وجلّ، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنسانا كان ذلك المعبود أو شيطانا أو وثنا أو صنماً، أو كائنا ما كان من شيء). **[تفسير الطبري].** هذا، والأصل في دعوة الناس إلى عبادة الله ليس التعرّض لطاغوت المجتمع وكشفه ابتداءً، بل هو الدعوة إلى عبادة الله وحده مع بيان مصير مَن آمن ومصير مَن كفر=>

هذا هو الموقف الشرعي للرسول والجماعة المؤمنة في **بداية** بلاغ الرسالة..

أمّا أقوام رسل الله، حتى خاتمهم.. في هذه المرحلة، فقد كانت مواقفهم ممّا بلغهم من الحق - بقيادة الملأ - متشابهة ومتقاربة، حيث كانت متصاعدة في التكذيب، في أطوار ثلاثة أساس ومحطات بارزة.. حيث **اختاروا** - غالبيتهم - الإصرار على رفض الحق حتى جاءهم العذاب، وقد بلغهم بلاغاً مُبيناً.. ولكل طَوْر تفاصيله، خطاباً وأعمالاً. وهي كالتالي:

الطّوْر الأول :

نظرة مجملة لهذا الطّوْر.. كما في آيات سوَرة إبراهيم:

﴿..فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي الله شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.. (١٠)﴾ [إبراهيم]

أي، وبعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات - كما ذكرنا في النقطة السابقة - حرّك أقوامُ رسل الله أيديهم حركة في أفواههم تَنُمُّ عن رفضهم لقَبول الإيمان [90]، وقالوا لرسلهم: إنا لا نصدِّق بما جئتمونا به، وإنا لفي شكٍّ موجب للريبة، مما تدعوننا إليه من عبادة الله وحده وترك ما سواه.

وبعد موقف الرفض - على أساس من الشك والريبة - من أقوام الرسل لِما بلغهم من الحق.. وقد اتخذوه دون النظر في حُجَّة الرسل أو مناقشتها وبيان صحتها من عدمها.. بعد ذلك، قام رسل الله عليهم الصلاة والسلام بما يجب عليهم من الرد على أقوامهم بالجواب الشرعي (المعالجات):

(خطاب النذارة).. وتقوم تلك الدعوة على أساس تذكير الناس بالله جلّ وعلا وتلميسهم آثار إلهيته في الآفاق من حولهم وفي أنفسهم، حتى يشهدوا أن الله هو وحده الإله الحق الذي يستحق الطاعة والعبادة.. مع تحميلهم المسؤولية عمّا بلغهم من الحق؛ ببيان مصير من آمن بأنه في رضوان الله وجناته، ومصير من أعرض بأنه في غضب الله وعذابه. وبعد البيان الواضح الكافي فإن أصرّ الناس على طاغوتهم، طاعة واتباعاً ودفاعاً عنه.. ففي هذه الحال يصبح كشف باطل طاغوتهم مطلب شرعيّ وبيان فساد طاعته ضرورة، لأنه صار عقبة في طريق تحقيق الناس عبوديتهم لله الإله الحق عزّ وجلّ.. فيدخل رسلُ الله ومعهم المؤمنون في "مجاهدة بالقرآن" أو في "صراع فكري سياسي" مع المجتمع وملئه على أساس: أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير.. ويستمروا على ذلك ويصبروا.. حتى يؤمن الناس أو أن ينقسم المجتمع إلى فريقين اثنين: مؤمنين ومكذبين.. ويصبر المؤمنون على ذلك حتى يحكم الله تعالى بين الفريقين.. بنصر أوليائه وَخِزي أعدائه. وهذا ما كان مع الرسول الخاتم ورسل الله جميعاً عليهم الصلاة والسلام: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ الله وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ {36}) النحل.

90 - "اللعلماء في تفسير هذه الجملة (ردّوا أيديهم في أفواههم) آراء كثيرة، كلها تدور حول الإنكار والتكذيب=> والسخرية بالرسل". (ردّوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليُسمَع عن بعد، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهاباً وإياباً فيتموج الصوت ويُسمَع. يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك، وإفحاشهم في هذا الجهر، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق، إمعاناً منهم في الجهر بالكفر). **[في ظلال القرآن - سيد قطب]**

"فقالت لهم رسلهم منكرين عليهم: أفي إلهية الله وعبادته وحده.. ريب !!؟، وهو خالق السموات والأرض، ومُنشئهما من العدم على غير مثال سابق !!، وهو ـ سبحانه ـ يدعوكم إلى عبادته وحده ليغفر لكم ما أسلفتم من الشرك، ويدفع عنكم عذاب الاستئصال، فيؤخر بقاءكم في الدنيا إلى أجل قدَّره، وهو نهاية آجالكم، فلا يعذبكم في الدنيا !!".. "فهو- سبحانه ـ مع الدعوة للمغفرة لا يعجلكم بالإيمان فور الدعوة، ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب.. إنما يَمُنُّ عليكم مِنّة أخرى فيؤخركم إلى أجل مسمى؛ إمّا في هذه الدنيا وإمّا إلى يوم الحساب، ترجعون فيه إلى نفوسكم، وتتدبَّرون آيات الله وبيان رسلكم.. وهي رحمة وسماحة تُحْسَبان في باب النِّعم.. فهل هذا هو جواب دعوة الله الرحيم المنان؟!

موقف الملأ في مجتمع مكة:

كذلك، كانت مواقف الملأ من قريش فقد اتبعوا سنن أسلافهم من الجاهليين.. حيث اختار الملأ موقف **الرفض للحق** الذي بَلَغهم.. كما بيّن الله تعالى:

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت ٤٣]

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ{52} أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات 53].

فكانت مواقفهم تتمحور حول إظهار التعجب منه والتشكيك بصحته وأنه مثير للريبة، أي؛ أنه موضعٌ للاتهام وظن السوء.. والتهوين من شأنه وشأن أهله، وإظهار عدم الاهتمام واللامبالاة..

وكان ذلك من بداية البعثة حتى السنة الثالثة.

الموقف الشرعي لرسول الله والذين آمنوا معه:

وكان موقف رسول الله الخاتم والذين آمنوا معه: الاستقامة على ما أمر الله **عزّ وجل** به، والاستمرار في بلاغ وبيان ما يُنـزّل من الرسالة هدايةً للناس: فبالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً من الدعوة إلى عبادة الله وحده على أساس "فكرة الرسالة" البيّـنة الواضحة، وفي إطار "خطاب النذارة".. (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، وإليه المصير).. كانوا يقومون بسائر ما جاء في هذا الطّوْر من "أعمال صالحة" وتكاليف شرعيّة، وأبرزها الصلاة.. وكذلك تَدارُس وحِفظ ما كان يتنزّل من آيات القرآن وتدبُّـرها والتفكُّـر فيها كمعالجات لواقعهم، أي لتنزيلها كمعالجات للواقع (التعليم والتزكية).. وهي ـ في الأساس ـ معالجات فكرية، تقوم على **مشاهدة** آثار إلهيّة الله، الإله الحق في الآفاق والأنفس والتفكّر فيها.. حتى **يشهدوا** أن الله هو وحده الإله الحق للكون والإنسان ولجميع الخلق، المستحق وحده للعبادة؛ التألّه والطاعة لأمره.. مع التفصيل في بيان الجزاء والمصير في الآخرة لمن آمن واتبع، ولمن أبى وأعرض [91] .. وعيش اليوم الآخر كأنما يرونه رأي العين.

91- كما في قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمْ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ الله رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ الله حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ =>

هذا، والراجح في الصفات العامة للخطاب ولأعمال السير التي التزمها المؤمنون بقيادة الرسول الكريم في الطّوْر الأول هي:

- "فحوى الخطاب" في هذا الطّوْر، يدور حول "خطاب النذارة" (فكرة الدعوة).. أي فكرة أن الله **جلّ وعلا** هو وحده **الربّ** الحق الذي يجب أن يُعبد، **والإله** الأحد الذي تجب الطاعة لأمره، مع إنذار المكذّبين بعذاب الله في النار، وتبشير المؤمنين برضوان الله في الجنة.. دون التعرّض لـ "طاغوت" المجتمع بشكل مباشر، أي دُون "كشف الطاغوت".. وذلك من خلال تلاوة ما كان يتنـزّل من آيات الله على الناس مباشرة، وتسميعهم كلام الله ورسالته إليهم.. مع بيانها كمعالجات فكرية وأدلة وبيّنات عقلية وفطرية على الحق.
- العلانيّة والجهر في خطاب المجتمع - عامة الناس والملأ - بـ "خطاب النذارة"، والذي كان يُباشره - بشكل أساس، رسول الله ﷺ.
- السِرّيّة في التجمُّع واللقاء، لمَن آمن، للتعليم والتزكية. حيث كان المؤمنون يَـلْتقون مستَخْفين في شعاب مكة المكرّمة، لتعلّم ما كان يُنـزّل من آيات القرآن ومدارستها والتفكّر بها، وحفظها والصلاة بها [92].. و "تدبّرها" حتى **يشهدوا** أنه لا إله إلا الله **وعيش** اليوم الآخر كأنما يرونه رأي العين.. كما يشير إلى ذلك قول النبي ﷺ:

{ من سرّه أن **ينظر** إلى يوم القيامة **كأنه رأي عين** فليقرأ: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) و(إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ) و(إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ)} [93].

- الإنذار يكون بالمصير والجزاء في اليوم الآخر فقط، وليس في الدنيا. أي، بالتخويف من غضب الله وعذابه الأليم المقيم في النار.. والتبشير والترغيب في رضاه وثوابه في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. كل ذلك في اليوم الآخر، دون ذكر الجزاء والمصير في الحياة الدنيا، والذي ورد ذكره متأخراً في هذه المرحلة.

السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ الله ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ الله فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)) يونس... وما **شابهها** من الآيات. **[تفصيل أكثر في كتاب (منهج التزكية والتعليم) مرجع سابق، هامش (87)].**

92 - انظر (صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي). و(الرحيق المختوم - للمباركفوري). و(الجهاد والقتال في السياسة الشرعية - د محمّد خير هيكل). و(أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه - د علي بن نفيع العُلياني)، وقد فصّل القول في هدي رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، في الإسرار والجهر بالدعوة إلى الله. <=

93 - **[رواه الترمذي عن ابن عمر، (التاج الجامع للأصول) - ج 4 ص 252].** نقول: وهذا دليل على أن القرآن الكريم <= يرتقي في أسلوبه لدرجة أن يصيغ بالكلمات صوراً للأحداث وهي تجري وتتحرك، بحيث أن المتلقي وهو يسمع الكلام، كأنه يُشاهد بعينيه الأحداث حيّة تتحرك أمامه. وهذا من أهم خصائص النص القرآني، وهو دليل على لزوم جعل النص القرآني هو الأصل في خطاب الناس وفي التعليم والتزكية، مشفوعاً بالبيان اللازم، فالتأثير - على الحقيقة - إنما هو لكلمات الله؛ أي للنص القرآني. ومن العوامل المهمة لتأثير آيات القرآن هو تذوقها، أي تذوق جمال النص والتعود على أسلوب القرآن في عرض وبيان الحقائق.. الأمر الذي يجب مراعاته عند بيان الآيات، لردم الفجوة الحاصلة بين المتلقين الآن وبين الفهم المباشر لآيات الله، بسبب بعد عامة الناس في هذا الزمان عن تذوق اللغة العربية. **[تفصيل أكثر في كتاب (منهج التزكية والتعليم)].**

فالقرآن كان يتنزّل مفرّقاً (مرتّلاً) على قلب رسول الله **لبيان** المعالجات السننية والشرعية **لمواقف** المجتمع وملئه التي كانوا يتخذونها من دعوة الله لهم إلى أنه لا إله إلا الله فاعبدوه، مع بيان المصير.. (فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً).. **[أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس]**.

الطّوْر الثاني : (من مواقف المجتمع)

نظرة مجملة لهذا الطّوْر.. كما تُصوِّرها الآيات من سوَرة إبراهيم:

﴿..قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ الله يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم]

أي وبعد بيان رسل الله للحق - في الطور الأول - جواباً لقومهم على شكهم وريبهم من دعوة الله.. في هذا الطور.. فما كان من **أقوام** الرسل إلا أن **أصرّوا** على الباطل **وصعّدوا** من مواقفهم.. سواء بالجدال بالباطل، أو بالإيذاء اللفظي والمادي لرسل الله وأتباعهم..
"وبدلاً من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار، ويجعلونه مثار ريبة في الرسل المختارين ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم. ولا يسألون أنفسهم: لماذا يرغب الرسل في تحويلهم؟! وبطبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم: ما قيمته؟ ما حقيقته؟ ماذا يساوي في معرض النقد والتفكير؟!"..
فبَدَل أن يناقشوا ما طرحه رسل الله من الحق، ويردُّوا على الحُجَّة بالحُجَّة.. نقلوا الموضوع إلى أشخاص الرسل والدخول في نياتهم ومقاصدهم (موقف سياسي).. فقالوا لرسلهم: ما نراكم إلا بشراً صفاتكم كصفاتنا، لا فضل لكم علينا يؤهلكم أن تكونوا رسلاً.. تريدون أن تمنعونا من عبادة ما كان يعبد آباؤنا من الآلهة، ومن اتباع أعرافهم.. فأتونا بحُجَّة ظاهرة تشهد على صحة ما تقولون.. "وبطبيعة الجمود العقلي كذلك لا يفكرون في الدعوة الجديدة، إنما يطلبون خارقة تُرْغِمهم على التصديق".. فطالبوهم بحُجَّة مادية (معجزة) هروباً من مناقشة حُجَّة الرسل القاطعة المَبْنِية على الحس والعقل والفطرة (الحُجَّة الرسالية)..

وكان **محور** جواب رسلهم (المعالجات): "حقًّا ما نحن إلا بشر مثلكم كما قلتم، ولكن الله يتفضّل بإنعامه على مَن يشاء من عباده فيصطفيهم لرسالته [94].. وما طلبتم من البرهان المبين (آية مادية أو معجزة)، فلا يمكن لنا، ولا نستطيع أن نأتيكم به إلا بإذن الله وتوفيقه..

---

94 - (ويَذْكُر السياق لفظ «يَمُنّ» المِنّة على مَن يشاء مِن عباده. وهي مِنّة ضخمة لا على أشخاص الرسل وحدهم. ولكن كذلك على البشرية التي تشْرُف بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى؛ مهمة الاتصال والتلقي من الملأ الأعلى.. ثم هي المِنّة الكبرى على البشرية بإخراج الناس من الدينونة للعباد إلى الدينونة لله وحده بلا شريك، واستنقاذ كرامتهم وطاقتهم من الذُّل والتبدّد في الدينونة للعبيد.. الذُّل الذي يحني هامة إنسان لعبد مثله! والتبدّد الذي يسخِّر طاقة إنسان لتأليه عبد مثله!). **[في ظلال القرآن - باختصار]**

وعلى الله وحده يعتمد المؤمنون في كل أمورهم، وكيف لا نعتمد على الله، وهو الذي أرشدنا إلى طريق النجاة من عذابه باتباع أحكام دينه؟..

ولنصبرنَّ على **إيذائكم** لنا بألسنتكم وأيديكم، وعلى الله وحده يجب أن يعتمد المؤمنون في نصرهم وهزيمة أعدائهم. (95)

موقف الملأ في مجتمع مكة:

وكذلك ما كان من قريش، يشبه ما كان من أسلافهم الجاهليين.. حيث أصرّ الملأ - وتبعهم عامة الناس - على عدم إجابة **دعوة** الله **تبارك وتعالى** لعبادته، بطاعة أمره واتباع رسوله.. رغم البيان الواضح والحُجَّة الساطعة والنذارة بعذاب الله، والبشارة برضوانه وجنته.. حيث أخذوا في تصعيد موقفهم.. فبدأوا في إثارة الشبهات، والمجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق.. وإظهار الإيذاء النفسي للمؤمنين؛ ومنه التكذيب والاستهزاء وإطلاق الأوصاف الكاذبة على مَنْ كان يعبد الله ويدعو إليه؛ أصحاب لا إله إلا الله محمّد رسول الله:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) ﴾ [الكهف]

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾ [الأنعام]

ثم ما لبث أن تحوّل الأمر بين الطرفين؛ المؤمنين، والملأ في المجتمع.. إلى صراع ذي طابع فكريّ سياسيّ، أساسه ما نُـزّل من القرآن الكريم، سواء في فكرته وموضوعه أو في "منهج خطابه"، كما يبيّـنه قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾ [الفرقان]،،،

---

95 - (والقلب الذي يحس أن يد الله - سبحانه - تقود خطاه، وتهديه السبيل، هو قلب موصول بالله لا يخطئ الشعور بوجوده - سبحانه- وألوهيته القاهرة المسيطرة، وهو شعور لا مجال معه للتردد في المضي في الطريق، أياً كانت العقبات في الطريق، وأياً كانت قوى الطاغوت التي تتربص في هذا الطريق. ومن ثم هذا الربط في رد الرسل **صلوات الله وسلامه عليهم** بين شعورهم بهداية الله لهم وبين توكلهم عليه في مواجهة التهديد السافر من الطواغيت، ثم إصرارهم على المضي في طريقهم في وجه هذا التهديد.

وهذه الحقيقة؛ حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله وبين بديهية التوكل عليه، لا تستشعرها إلا القلوب التي تزاول الحركة فعلاً في مواجهة طاغوت الجاهلية والتي تستشعر في أعماقها يد الله - سبحانه- وهي تفتح لها كُوَى النور فتبصر الآفاق المشرقة وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة، وتحس الأنس والقربى.. وحينئذ لا تحفل بما يتوعّدها به طواغيت الأرض ولا تملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد وهي تحتقر طواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتنكيل. وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد؟! «وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا» .. «وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا».. لنصبرنّ لا نتزحزح ولا نضعف ولا نتراجع ولا نَهُن، ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرّط ولا نحيد.. «وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ»). **[في ظلال القرآن].**

أي، "جاهدهم بالقرآن جهاداً لا يُخالِطُهُ فُتُورٌ".. **[انظر تفسير الطبري وغيره]**.. والمجاهدة والجهاد بذل الجهد والطاقة والوسع في مدافعة العدو، وإذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم، وبيان حقائقه لهم لإبطال شبهاتهم وأراجيفهم، وإتمام حُججه عليهم، أي "الحُجَّة الرسالية" التي ليس بعدها عذر عند الله".. وهذه هي الخطوة الأولى في إقامة "الحُجَّة الرسالية"..

فكان "جهاداً بالقرآن" ذا طابع فكريّ سياسيّ، **الأصل** فيه؛ كلمات الله عزّ وجل ونَصّ آياته.. وموضوعه هو موضوع "خطاب النذارة": تعيين مَنْ هو **الربّ** الحق **والإله** الذي تجب له **الطاعة** لأمره في المجتمع؛ الله أم طاغوتهم؟؛ ممثلاً بأصنامهم ودين آبائهم، وأعرافهم وعاداتهم..

ومَنْ هو المستحِق **للاتباع** في المجتمع، رسول الله أم السادة والملأ؟..

مع بيان مصير من آمن بالله واليوم الآخر واتبع الرسول، ومصير من أبى واستكبر..

كما هي قولة رسل الله الكرام: ﴿فَاتَّقُوا اللَّه وَأَطِيعُونِ﴾ **(الشعراء 179،163،150،144،131،126،110، 108، آل عمران50، الزخرف63).**

وكما هي سنة الله جلّ وعلا:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّه.. (٦٤)﴾ [النساء]

لِمَن الطاعة والاتباع في المجتمع؟..

هذا هو محور الصراع - أو المجاهدة بالقرآن - الفكري والسياسي الذي كانت تدور رحاه في مكة، بين رسول الله والمؤمنون من جهة، والملأ والسادة ومَن تبعهم من الجهة الأخرى..

وبثبات رسول الله والمؤمنين معه على الحق، وقولهم: "ربُّنا الله".. وإصرار الملأ من قريش على رفض الحق:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّه تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) ﴾ [الجاثية]

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّه بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)﴾ [لقمان]

أخذ الملأ الذين كفروا من قريش في تصعيد موقفهم من الحق وأهله، والزيادة في **الإيذاء** النفسي والبدني للمؤمنين، بأشكال ودرجات مختلفة.. من تضييق وتعذيب وقتل.. حتى وصل الأمر بهم إلى سابقة لم يعهدها العرب؛ المقاطعة التامة والحصار الشامل للمؤمنين ومَن ناصرهم، في شِعب بني هاشم..

وقد حصلت أحداث هذا الطّوْر في الفترة ما بين السنة الرابعة وحتى العاشرة للبعثة..

الموقف الشرعي لرسول الله والذين آمنوا معه:

وأما رسول الله الخاتم - والمؤمنون معه - وفي خضم تلك الأحداث المتلاحقة والمتصاعدة في الشدة، كان لا بد من تزويدهم بالمعالجات؛ الشرعية والسننية بشكل دائم.. فكانت الآيات تتنزّل على قلب رسول الله وفيها المعالجات.. سواء في سياق " الخطاب" أم "الأعمال"؛ من **فضح**

مواقف أهل الباطل من الملأ وأتباعهم من قريش، **وكشف** شبهاتهم، وبيان تهافت حُجَجِهم باستحقاق "طاغوتهم" الطاعة والاتباع من دون الله.. **وتثبيت** المؤمنين وتعليمهم الصبر.. ومعالجة الأثر السلبي لمواقف قريش وملئها عليهم، وذلك على الصعيد الفكري والنفسي وصعيد الأعمال واتخاذ الإجراءات المناسبة.. (فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً)..

فتتابَع نزول القرآن بشكل مكثَّف، وكان البدء بـ "الصراع الفكريّ" أو "الجهاد بالقرآن" حول "كشف الطاغوت".. أي كشف الباطل الذي عليه طاغوتهم - بأشكاله المختلفة - وإزالة اللبس الذي عندهم بينه وبين الإله الحق، فما يعبدونه ليس إلهاً ولا يستحق الطاعة والاتباع.. وكل ذلك بالحُجَّة الدامغة، وبجرأة وصراحة، دون الخشية في الله لومة لائم.. وكل ذلك بالوحي، وبمنهج خطابه المؤثِّر.. بلاغاً مبيناً.. كما هو ظاهر في السور المكية..

أمّا في السور المدنية فهو على نفس المنهج لكنه - بشكل أساس - كان في مواجهة شكل آخر من أشكال الكفر.. كفر أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ.. (٤٥)﴾ [الأنبياء]

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ.. (١٩)﴾ [الأنعام]

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾ [ق]

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾ [إبراهيم] ،،، أي، هذا القرآن بلاغ للناس ونذارة لهم..

.. الخ

فهذا "الجهاد" لقريش ومَلَئِها.. بطابعه الفكريّ السياسيّ.. كان السلاح الرئيس والفعّال فيه ، هو ما كان **يُنزّل** من آيات القرآن الكريم - أولاً بأول - فكرةً وموضوعاً، كلماتٍ وطريقة خطاب:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس: 15]

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾ [الحج: 72]

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾ [القلم: 51-52]

وكان لا بد أيضاً - في أثناء ذلك الجهاد الفكريّ السياسيّ بالقرآن - من الأمر بالصبر والمصابرة على الأذى المعنوي والمادي من قريش وملئها.. **والتواصي** بالصبر.. كما ورد في العشرات من الآيات..

وكان اتخاذ إجراء "الموت والحياة" بالنسبة للاستقامة والثبات على سبيل الله ودعوته، والاستعداد لتقديم التضحيات المالية والبدنية.. مع القيام بالأعمال اللازمة، واتخاذ الإجراءات المناسبة لتخفيف الأذى عن المؤمنين وتثبيتهم على الحق.. كما تشير الروايات التالية **[انظر (صحيح السيرة – إبراهيم العلي)]:**

- ✓ اشتكت قريشٌ رسولَ الله ﷺ إلى أبي طالب، فناداه وقال له: (إنّ بني عمّك هؤلاء زعموا أنك **تؤذيهم** في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم. فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: (أترون هذه الشمس) قالوا: نعم، قال: {فما أنا بأقدر أن أَدَعَ ذلك منكم، على أن تشعلوا منه بشعلة}. وفي رواية: {والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار}) [96].
- ✓ وقال رسول الله ﷺ: (.. فما تظن قريش؟! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة) **يعني الموت** [97].
- ✓ الهجرة إلى الحبشة.. واتخاذ دار الأرقم للّقاء لكونها في مكان بعيد عن أعين قريش.. والدخول في جوار بعض السادة ذوي النفوذ من قريش..

هذا، وقد كان الأمر بـ **"كف اليد"** عن القتال وعن الأعمال المادية، أمراً ثابتاً في حق رسول الله والجماعة المؤمنة معه طوال هذه المرحلة بأطوارها الثلاثة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)﴾ [النساء]

كما في الرواية الثابتة عن ابن عباس: (أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له، أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا رسول الله! إنا كنا في عِزّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة! فقال: {إني أمرت بالعف، فلا تقاتلوا}. فلما حوّلنا الله إلى المدينة، أُمرنا بالقتال فكفّوا، فأنزل الله عزّ وجل: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ }). **[الألباني- صحيح النسائي - الصفحة أو الرقم (3086)]**

حتى أنّ تُهمة المؤمنين **الوحيدة** كانت أنهم يقولون: (ربُّنا الله).. كما قال أبو بكر الصدّيق لقريش مدافعاً عن رسول الله: (أتقتلون رجلا أن يقول: ربّي الله، وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم). **[صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم:(4815)]**

وكما في قوله **تعالى**:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بالله الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)﴾ [البروج: 8-9]

وكانت تلك هي النتيجة الطبيعية للالتزام الدقيق والصارم من قِبَل رسول الله ﷺ - والذين آمنوا

---

96 - **إسناده صحيح، رواه الحاكم والطبراني وأبو يعلي، (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.** والرواية التي تذكر أن=> رسول الله قال: (والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري..) هذه لم يثبت لها سند.

97 - صحيح، أخرجه البخاري. وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية. **(صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.** نقول: وإن كانت هذه الرواية في المدينة المنورة، إلا أنها تصف الموقف الدائم والثابت لرسول الله=> ﷺ في بلاغه الرسالة، منذ بداية بعثته حتى اختار الرفيقَ الأعلى، كما تشهد بذلك سيرته العطرة ﷺ. فجزاه الله تعالى عنّا خيرَ ما يجزي نبياً عن أمته.

معه - بالطرح الفكري السياسي موضوعاً ومَنهجاً.. في هذه المرحلة.. وبالصبر على أذى القوم.. يعني بما كُلّف به رسول الله من الاقتصار على مخاطبة الناس بـ "فكرة الدعوة" (خطاب النذارة): أي، الدعوة إلى عبادة الله وحده، على أساس "فكرة الرسالة" مع بيان المصير؛ نذارة وبشارة.. وكشف الشبهات وإزالة التلبيس على الحق.. بمعنى، قصْر مهمة الرسول ﷺ على كونه نذيراً وبشيراً، كما جاء في السور المكيّة في بضع عشرة آية.. في مثل قوله **تعالى**:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩)﴾ [الحج: 49]

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) ﴾ [فاطر: 23]

من أبرز سمات "الطّوْر الثاني" وأحداثه ومواقفه، إضافة لما سبق وتفصيلاً:

1- تعهّدت كل قبيلة بتعذيب من استجاب لدعوة الله من أفرادها - الذين كُشف أمرهم أو أظهروا إسلامهم - وفِتْنتهم عن دينهم، وخاصة الضعفاء والفقراء الذين ليس لهم مَنْ يحميهم.. ولم يستطع الرسول الكريم أن يُقدّم لهم الحماية.. بل كان يحثهم على **الصبر** مقابل الوعد **بالجنة**، في مثل قوله: (صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة) [98]..

وكما في الرواية عن عبد الله بن مسعود **رضي الله عنه**:

(أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمّار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم إنسان إلا وقد اتاهم على ما أرادوا إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأعطوه الوِلْدان وأخذوا يطوفون به شِعاب مكة وهو يقول: أَحَدٌ أَحَد). **[مسند أحمد - الصفحة أو الرقم 5/319 - أحمد شاكر : إسناده صحيح].**

واستمر الأمر على ذلك، ما شاء الله له أن يستمر.. **[أنظر، صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي].**

2- ثم أَمر رسولُ الله ﷺ المسلمين - من استطاع منهم - بالهجرة إلى الحبشة حمايةً لهم من الفتنة.. وأمّر عليهم **جعفر بن أبي طالب**، وأمّا مَنْ بقي في مكة فأخذ يلتـقي بهم سراً في دار الأرقم. وذلك في السنة السادسة للبعثة.. وقد بيّن الله **تعالى** للمؤمنين: إنْ كانوا في ضيق من إظهار الإيمان وعبادة الله وحده، فأرض الله واسعة فليهاجروا إلى حيث يعبدون الله وحده، ويتمكنون من إقامة دينهم، وأجرهم على الله **تبارك وتعالى**:

﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [العنكبوت]

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾ [الزمر]

---

98 - **حسن صحيح، (الألباني - فقه السيرة - الصفحة أو الرقم 103)**. نقول: هنا تبرز أهمية وضرورة "عيش اليوم=> الآخر" وكأنهم يرونه رأي العين.. في عملية تزكية المؤمنين.. وقبل القيام بخطاب الناس ودعوتهم لعبادة الله وحده. من باب إعدادهم لتحمُّل تبعات الدعوة وتعلّم الصبر: (ولربك فاصبر) المدثر. **انظر (منهج التزكية والتعليم)، مرجع سابق، هامش (87)**

وفي هذه الأثناء أسلم حمزة بن عبد المطلب ثم عمر بن الخطاب **رضي الله عنهما** فعمّ شعور بالأمان وقوة في العزيمة بين المسلمين، كما في الرواية عن عبد الله بن مسعود **رضي** الله **عنه**: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر).. **[صحيح البخاري (3684)]**

3- أدرك الملأ من قريش أن الإجراءات السابقة من "الكيد"، أي فتنة المسلمين وإيذائهم وتعذيبهم.. قد فشلت في وقف انتشار الدعوة إلى عبادة الله.. وخاصة بعد إسلام شخصيات بارزة في المجتمع بوزن حمزة وعمر **رضي الله عنهما**.. فأخذت قريش تُصعّد في **كيدها** ضد الذين استجابوا لدعوة الله **تعالى** وآمنوا به واتبعوا رسوله، فلجأ الملأ الذين كفروا منها إلى أسلوب تعبئة الناس وحشدهم ضد المؤمنين، بل ومَن يحميهم ويُآزرهم أيضاً، حتى اجتمعت قريش كلُّها على معاداتهم، وقرروا أن يُغالوا في استخدام القوة على الجماعة المؤمنة، والاستقواء عليهم واستضعافهم، وتوحيد الجهود ورصّ الصفوف في ذلك، حتى وصل الأمر بهم إلى سابقة خطيرة، وهي أن "قريشاً **تحالفت** مع بني كنانة على محاصرة النبي ﷺ ومَن اتّبعه من المؤمنين، بل ومَن أيّده وناصره من أقاربه، في شِعب بني هاشم، ومقاطعتهم جميعاً فلا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله.. وكتبت قريش بينهم كتاباً.. ودخل رسول الله وأهل بيته الشِّعب"..
وكانت البداية في السنة السابعة للبعثة، واستمرت ثلاث سنوات.. وهو ما يشير إليه تعبير "جمع الكيد" في القرآن الكريم كما في سوَرة طه (64)، أو كلمة "الجمع" في سورة القمر (44-45).. وأيضاً لفظتا "الجُند" و "الأحزاب" كما في سوَرة ص [99] وغيرها من السوَر **المكية**..
وقد وصف النبي ﷺ هذه المقاطعة بقوله: (تَقاسَموا على الكفر) [100] أي تحالفوا..
وهُمْ "**المقتسمون**" الذين جاء ذكرهم في سوَرة الحجر:

﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١ ﴾ الحجر: ٨٩ - ٩١

أي، أنذر قريشاً إنذاراً بيّناً واضحاً أنه سيصيبهم العذاب مرة أخرى، يعني يوم بدر.. كما أصابهم سابقاً، يعني القَحط والجَدب حتى باتوا يرون مثل الدّخَان.. حينما تقاسموا، أي تحالفوا على الكفر، وكذّبوا بالقرآن فَقَذفوه بالباطل، وقيلهم إنه شعر وسحر وما أشبه ذلك، يُصرِّفونه بحسب أهوائهم، ليصَدّوا الناس عن الهدى [101].

---

99 - أنظر سبب نزول الآيات (1- 7) في (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي. وحدث ذلك في مرض وفاة أبي طالب أثناء الحصار في الشِّعب. من السور التي وردت فيها كلمة "الأحزاب" في نفس السياق: غافر (5، 30)، هود (17).

100 - عن أبي هريرة: (قال النبيُّ ﷺ" "من الغدِ يومَ النحرِ، وهو بمنى: نحنُ نازلونَ غدًا بخَيْفِ بني كِنَانَةَ،=> حيثُ تقاسموا على الكفرِ". يعني ذلكَ المُحَصَّبِ، وذلك أنَّ قريشًا وكِنَانَةَ، تحالفتْ على بني هاشمٍ وبني عبدِ المطلبِ، أو بني المطلبِ: أن لا يُناكحوهم ولا يُبايعوهم، حتى يُسَلِّمُوا إليهمُ النبيَّ ﷺ). **[البخاري 1590 ومسلم 1314. أنظر(صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي]**. (وفي هذا الحديثِ أشارَ النَّبيُّ ﷺ لِلمكانِ الَّذي تَقاسَموا، أي تَعاهدوا فيهِ على إيذاءِ النَّبيِّ ﷺ وعلى الكُفرِ، فقالَ لهم في يومِ النَّحرِ في الحجِّ: نحن نازلون غدا بِخِيفِ بني كِنانةَ، والخِيفُ الوادي، وهذا المكانُ هو الْمُحَصَّبُ، وهو بَيْنَ مكَّةَ ومِنًى). **أنظر موقع الدرر السنية.**

101 - أنظر تفاسير (الطبري، أبو حيان، أبو السعود). وقد أجاد أبو السعود في تحقيق معنى "المقتسمين". الشرح والبيان في النقطة التالية.

4- بذلك **التصعيد** لموقف المكذّبين بالحق في العداء لأهل الحق، أي بالحصار والمقاطعة، دخلت قريشٌ وملؤها في **سُنّة** جديدة من سنن الله **تعالى** في السير بالرسالات في القرى (المجتمعات)، وهي: سنة "الأخذ بالبأساء والضراء" أو "**العذاب الأدنى**":

﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ الحجر

واستحقاق المجتمع وملئه لهذا العذاب - حسب سنة الله، بسبب إصرارهم على التكذيب بالحق - يُعتبر "الخطوة الثانية" في إقامة "الحُجَّة الرسالية" عليهم.. بعد عدم تأثرهم واستجابتهم للحق في "الخطوة الأولى": بالدليل والبرهان والمجاهدة بالقرآن، في إطار "البلاغ المبين" لرسالة الله للناس..

وهناك "خطوة ثالثة" وأخيرة، تأتي لاحقاً.

و"العذاب الأدنى" نوع من العذاب المادي غير مدمّر، يصيب به الله **عزّوجل** القرى بعد جحودها بالحق بعد عِلْمهم به، وقد بلغهم بلاغاً مبيناً.. **تأديباً** لهم لعلّهم يضّرعون إلى الله **عزّوجل** ويتوبون..

فإن وعدوا رسول الله بالرجوع إلى الله، دعى لهم الله **تعالى**، فيرفع الله عنهم العذاب..

فإن نكثوا وعْدَهم وعادوا إلى الكفر.. فقد أوقعوا أنفسهم في سنّة جديدة، هي سنّة "الإمهال" أو "الاستدراج"، حيث **يفتح** الله عليهم أبواب كل شيء من الدنيا **ليتمتّعوا** فيها زمناً قليلاً، وفي نفس الوقت، **ينذرهم** بعذاب أليم شديد سيصيبهم أثناء ذلك - وهو الذي ورد ذكره في آية سورة الحِجر - وهو عذاب استئصال ودمار في الدنيا، يأخذهم بغتة من حيث لم يحتسبوا، وهو "العذاب الأكبر" في الدنيا..

فإن تداركوا أنفسهم بالتوبة إلى الله واتّباع رسوله وإخلاص الدين لله.. لم يُصبْهم الله به..

أما إذا أصرّوا على اتباع الملأ منهم في جحودهم بالحق وصدّهم عن سبيل الله.. أنزله الله بهم فدمّرهم، وعندها لن ينفعهم إيمانهم إنْ آمنوا.. وهذه سُنةٌ لله **عزّوجل** دائمة جارية، يصيب بها كل الأقوام والأمم المكذّبة لرسلهم، حيث اكتملت إقامة "الحُجَّة الرسالية" عليهم:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف: ٩٤ - ٩٦

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنعام

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ السجدة: ٢١ - ٢٢

فإقامة "الحُجَّة الرسالية" التي ليس بعدها عذر للمكذبين، لها ثلاث خطوات؛ مرّ معنا اثنـتين:

الأولى: التذكير بأنه لا إله إلا الله، فاعبدوه.. بالحُجَّة والبرهان والمجاهدة بآيات الله القرآنية؛ المتلوّة (فكرة ومنهاجاً). وإذا أصروا على التكذيب، تأتيهم الثانية، وهي: إذاقتهم "العذاب الأدنى" (آيات الله المُحسَّة).. فإن أصروا على التكذيب بعد ذلك.. عندها تكون الثالثة: وهي "الصدع بالحق" بالمواجهة الصريحة والمكشوفة للمجتمع وملئه.. والصدع هو الشق بحيث يصبح الناس في المجتمع فريقين متمايزين متخاصمين في ربهما.. ثم إنذار المكذبين بعذابٍ من الله يدمِّرهم ويستأصلهم.. وهذا من خصائص "الطور الثالث"، سنبيّنه هناك.. بذلك تكتمل إقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع وبهذا ينقطع عذرهم فلا عذر لهم عند الله.. وهنا تأتي "سنة الفصل" بين أولياء الله وأعدائه، والحُكم بينهم: بنصر أوليائه؛ بأن ينجيهم من ظلم واستبداد أعدائه وأعدائهم؛ فيُنزل الله بهم "العذاب الأكبر"؛ عذاب الاستئصال..

5- **توضيح**: المكذبون برسالات الله لهم مستويين (درجتـين) من العذاب في الدنيا، كما بـيّـنته آيات سورتي الأعراف والأنعام السابقة:

الأول: الأخذ بـ "البأساء والضراء"، والحكمة منه "التأديب" ودفْع الناس الذين كفروا بالآيات البيّـنات إلى الهدى: (لَعَلَّهُمْ يضّرعون) **الأنعام، الأعراف**، وهو الفرصة الأخيرة لهم.

المستوى الثاني: "الأخذ بغتة" - وهو الذي أنذرهم به في آية سورة الحِجر - ويقع بهم إذا لم يرجعوا إلى الله تعالى ونسوا ما ذُكّروا به، رغم ما أخذهم الله بـه من "البأساء والضراء".. حينذاك يفتح الله عليهم الدنيا استدراجا وإملاءً فيفرحوا (يغتروا) بها ويزدادوا كفراً، وأثناء ذلك يأخذهم الله بغتة، أخذاً أليماً شديداً بعذاب استئصال ودمار: (فقُطع دابر القوم..) **الأنعام**. كما في الحديث الشريف المتفق عليه:
(إنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حتَّى إذا أخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. قالَ: ثُمَّ قَرَأَ {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} **[هود: 102]**).

فإذا نظرنا في ضوء ذلك، إلى آيتي سورة السجدة (21- 22). نرى أن هذه المفاضلة في الْعَذَابِ بين (الْأَدْنَى) و (الْأَكْبَر) هي مفاضلة بين درجتي عذاب الله للكافرين في الحياة الدنيا. بقرينة قوله تعالى: (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أي بعد "العذاب الأدنى"، فهو ليس عذاباً مدمّراً أو عذاب استئصال، لأنه يمكن بعده الرجوع والتوبة، فهو الأخذ (بالبأساء والضراء لعلهم يضّرعون) **الأنعام، الأعراف**.
أما "العذاب الأكبر" فهو الدرجة الثانية من عذاب الدنيا، أي الاستئصال والهلاك والموت:
(إنّا من المجرمين منتقمون) **السجدة**

فليس بعده إلا الآخرة وعذابها. كما في قوله تعالى:
(أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقُطع دابر القوم..) الأنعام.

هذا، وقد وردت لـ "العذاب الأكبر" في الدنيا تسميات أو أوصاف أخرى في السياقات القرآنية المختلفة، مثل "العذاب الأليم"، "عذاب الخزي"، "عذاب شديد"، "يوم الفتح"، وأنه يمثّل انتقام

الله جلّ جلاله من المجرمين.. الخ. هذا، وقد يرد في آيات أُخرى تعبير "العذاب الأكبر" وصفاً لعذاب الله للكافرين في الآخرة. وحسب السياق والقرائن يُرجّح المعنى المقصود. وفي ما يلي من البحث مزيد من البيان والتوضيح.

ومن الأمثلة الأكثر تكراراً في القرآن الكريم لمَنْ انطبقت عليه سنّة "العذاب الأدنى" ثم "العذاب الأكبر" - وقد ضربها الله **تعالى** عبرة لمن يعتبر - ما حصل مع فرعون ومَلَئه وجنده، وقد اتبعوه على كفره بالحق الذي جاء به موسى **عليه السلام**، حيث في البداية جادلهم موسى وبيّن لهم أن الله هو الإله الحق الذي لا تكون الطاعة والخضوع إلا لأمره، وليس فرعون.. وبعد أن استكبروا ورفضوا الحق المبين، أنزل الله **تعالى** بهم "العذاب الأدنى" لعلّهم يذّكّرون ويرجعون، وهي الآيات المفصَّلات؛ السنين والدّم والجَراد والقُمّل والضفادع.. الخ، فكلما أصابتهم واحدة، وعدوا بالرجوع إلى الله والتوبة، فيكشفها الله **تعالى** عنهم، إلا أنهم كانوا ينكثون، فيصيبهم الله بالأخرى.. ثم هم ينكثون.. وهكذا، حتى أصبح الكفر موقفاً نهائياً لهم، فاستحقوا "العذاب الأكبر".. فانتقم ربّ العالمين منهم فدمّرهم، وجعلهم عبرة لغيرهم:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ **يَطَّيَّرُوا۟** بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا **طَٰٓئِرُهُمْ** عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ **مِنْ ءَايَةٍ** لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ **ءَايَٰتٍ** مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ الأعراف [102]

---

102 - نَوَد هنا أن نلفت الانتباه إلى أن الله تعالى لم يُفصّل لنا كثيراً عن "العذاب الأدنى" لأقوام الأنبياء والرسل، برغم أن "العذاب الأدنى" من سنن الله الثابتة في **جميع** دعوات رسل الله كما في الآية: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ{94}) الأعراف،، (نبي) مفرد نكرة في سياق النفي والاستثناء، يفيد العموم، ومسبوق بـ (مِن) الاستغراق. وحتى أقوام الرسل الذين وردت قصصهم في سورة الأعراف لم يرد عنهم تفصيل، إلا في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهي الآيات البيّنات التسع. هذا ورغم عدم التفصيل، إلا أن النص القرآني قد ذكر لنا قرائن بيّنة تدل على وقوع "العذاب الأدنى" بالمكذّبين، منها:

- التطيّر، أي تشاؤم القوم من رسولهم بعد وقوع العذاب الأدنى عليهم: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ{130} فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{131}) الأعراف،، فحيث ما ذَكَر الله تعالى لنا في القرآن أن القوم تطيروا من رسولهم، فهذا يعني أنهم أصابهم "العذاب الأدنى" حسب سنة الله تعالى في القوم أو القرية عندما تكذّب رسول الله إليهم، فهو من خصائص هذا الطور (الثاني) في حمل الرسالات:=>

وقد جاء ذكر هذه الآيات (العذاب الأدنى) لفرعون وقومه في سوَر أخرى، منها: يونس [75 - 92]، النمل [9 -14]، الإسراء [101- 104]، الزخرف [46- 56].. فلم يؤمنوا - بسبب تكبّرهم وطغيانهم - حتى رأوا "العذاب الأكبر" في الدنيا، ألا وهو إغراقهم في اليم، وحينئذٍ لم ينفعهم إيمانهم، ولن ينفعهم:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ [103] ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ يونس: ٨٨ - ٩١

أما لو أنّهم تداركوا أنفسهم وتابوا وآمنوا قبل أن ينزل بهم "العذاب الأكبر"، لرفعه الله **تعالى** عنهم ولم يصبهم، ولنفعهم إيمانهم حينئذٍ، كما حصل مع قوم يونس **عليه السلام**:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾ يونس: ٩٦ - ٩٨

فليس لله **عزّ وجل** حاجة في تعذيب خلقه، بل هو الغني الحميد ذو الرحمة، الشاكر العليم، **جلّ ثناؤه**:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾ [النساء]

6- أما بالنسبة لقريشٍ وملئها، فقد كان "العذاب الأدنى" أو "الأخذ بالبأساء والضراء" هو إصابتهم بالقحط والجفاف، حيث دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسنيّ يوسف، أي أيام قحط وجدب لعلهم يرجعون إلى الله **جلّ شأنه**.. وقد أصابهم الله بذلك حتى باتوا يرون مثل الدُّخَان في السماء،

{قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } يس18
{قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ }النمل47.

- ومنها كذلك، قوله تعالى: (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ)، ورد في السور المكيّة إشارةً إلى "العذاب الأدنى"، كما في سور: الأعراف131، الروم36، الشورى48. والله تعالى أعلم.

103 - مثل قول الله تعالى لرسوله الخاتم: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هود]، الاستقامة والصبر حتى يأتي الله بالفتح والفصل من عنده.. حيث أمر الله موسى وقومه بالخروج باتجاه البحر، وهناك نجّى الله المؤمنين وعذب فرعون بإغراقه في البحر.

وهو "الدُّخَان" المذكور في سورة الدّخَان. كما في الرواية الصحيحة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه التي رواها الشيخان؛ البخاري ومسلم في عدة روايات متشابهة.. وهذه رواية لمسلم:

(جاء إلى عبدِ اللهِ [ابنَ مسعودٍ] رجلٌ فقال: تركتُ في المسجدِ رجلًا يُفسِّرُ القرآنَ برأيِه. يُفسِّرُ هذه الآية: {يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} [الدخان10] قال: يأتي الناسَ يومَ القيامة دُخَان فيأخذ بأنفاسِهم. حتى يأخذَهم منه كهيئةِ الزُّكامِ. فقال عبدُ اللهِ: مَن علِم علمًا فلْيَقُلْ به، ومن لم يعلمْ فلْيقُلْ: اللهُ أعلمُ. فإنَّ مِن فقه الرجلِ أن يقول، لما لا عِلْمَ له به: اللهُ أعلمُ. إنما كان هذا؛ أن قريشا لمّا استعصت على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسنِيّ يوسف فأصابهم قحط وجَهد، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدّخَان من الجَهد. وحتى أكلوا العظام. فأتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله! استغفر الله لمُضر فإنهم قد هلكوا. فقال: (لمضر؟! إنك لجريء) قال فدعا الله لهم. فأنزل الله عزّ وجل: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} { الدّخَان15}، قال فمُطروا. فلما أصابتهم الرفاهية، قال، عادوا إلى ما كانوا عليه. قال فأنزل الله عزّ وجل: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)﴾ [الدخان]. قال: يعني يوم بدر). **[أخرجه مسلم برقم: 2798. والبخاري برقم: 4822،1007. (صحيح أسباب النزول)، (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي].**

وجاء في رواية للبخاري:

(بينما رجلٌ يُحدّثُ في كِنْدَةَ فقالَ: يجيءُ دُخَان يومَ القيامة، فيأخذُ بأسماعِ المنافِقِينَ وأبصارِهِم، يأخذُ المؤمنَ كهيئةِ الزُكامِ، ففَزِعنَا، فأتيتُ ابنَ مسعودٍ، وكان متَّكئًا، فغضبَ، فجلسَ فقالَ: من علمَ فلْيقلْ، ومن لم يعلمْ فليقلْ: اللهُ أعلمُ، فإنَّ من العلمِ أنْ تقولَ لِمَا لا تعلمُ لا أعلمُ، فإنَّ اللهَ قالَ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)﴾ [ص]. وإنَّ قريشًا أبطأوا عن الإسلامِ، فدَعا عليهم النبيُّ ﷺ فقالَ: (اللهم أعنِّي عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسفَ). فأخذتْهُم سنةٌ حتى هلَكوا فيهَا، وأكلُوا المَيْتَةَ والعِظامَ، ويَرى الرجلُ ما بين السماءِ والأرض كهيئةِ الدّخَان، فجاءَهُ أبو سفيانَ فقالَ: يا محمّد، جئتَ تأمُرُنَا بِصِلةِ الرحمِ، وإن قومَكَ قدْ هَلَكُوا فادعُ اللهَ. فقرأَ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) - إلى قولِهِ - إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) ﴾ **[الدّخَان]**. أفَيُكشفُ عنهمْ عذابُ الآخرةِ إذا جاءَ ثمَّ عادوا إلى كفرهِم؟! فذلك قوله **تعالى**: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)﴾ يومَ بدرٍ، و (لِزَامًا) يومَ بدرٍ، (آلم غُلِبَتْ الرُّومُ - إلى - سَيَغْلِبُونَ). والرومُ قدْ مضَى) **(104)**.

---

104 - **البخاري - الصفحة أو الرقم 4774.** نقول: قريش لم تتحمّل العذاب، فطلبت من رسول الله أن يستغفر الله=> لهم قبل أن يُتمّوا السنين السبع، والأمر لم يتجاوز سنوات الحصار الثلاث، كما يُفهم من آيات سورة الحجر (89-91) أنظر نقطة 4 . وما صح من روايات السيرة. **أنظر (صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي - المبحث الثاني وما بعده من الفصل السادس).**

هذا، وكما أوقع الله تعالى في غزوة بدر "البطشة الكبرى" بقريش، فقد أوقع الله تعالى بأعداء أوليائه وأعدائه، من يهود ومنافقين "بطشة كبرى" خاصة بهم، فبعد كل ضربة لقريش كانت تأتي ضربة ليهود، من بعد بدر وأُحُد والأحزاب وبعد صلح الحديبية كانت غزوة خيبر، وهي آخرها.

وفي سوَر أخرى - بالإضافة إلى سوَرة الدّخَان - تناول القرآن الكريم حادثة الدّخَان أو "العذاب الأدنى" لقريش، وعالج موقفهم في هذه الفترة، إما تفصيلاً أو إجمالاً أو إشارة، أو بضرب الأمثال لهم بالأمم السابقة وقد دخلوا مثلهم في سنّة الأخذ بالعذاب الأدنى..

في مثل سوَر: النحل [53 -55]، والروم [33 -41/36 -51/42-53]، وهود [7-12]، والحجر [89-91]، والزمر [8/ 49-61].. الأعراف والأنعام والسجدة.. يونس والمؤمنون والطّوْر.. وغيرها. [انظر تفاسير (الجلالين، ابن كثير، الطبري)]:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) ﴾ [المؤمنون]

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) ﴾ [الروم]

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)﴾ [الطور]،،،

وهو الهلاك بعذاب الدنيا [105].

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾ [يونس: 21]

أي، "وإذا أذقنا كفار مكة مطراً وخصباً من بعد بؤس وجدب مسَّهم، بطروا، فاحتالوا لدفع آيات الله.. فليعلموا أن الله أسرع مجازاةً، وإن الحفظة من الملائكة يكتبون ما يمكرون" [106].. فإن لم يتداركوا أنفسهم؛ بأن يؤمنوا قبل نزول عذاب الاستئصال، لم ينفعهم إيمانهم إن آمنوا، ولن ينفعهم، كما هي سنّة الله تعالى الدائمة الجارية في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الطاغية والعاتية على أمر ربها.. مثل فرعون وعاد وثمود.. فلم ينفعهم إيمانهم بعد أن رأوا العذاب:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [غافر]

---

105 - عند المقارنة بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فلا شك أن عذاب الآخرة هو الأكبر وعذاب الدنيا مهما=> كان أليماً شديداً فهو الأدنى، كيفاً وكماً: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ {45} بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ {46}) القمر.. إضافة إلى ذلك، فإن العذاب ليس على درجة واحدة، فعذاب الدنيا منه ما هو أدنى ومنه ما هو أكبر، وكذلك عذاب الآخرة.. نعوذ بالله من جميع عذابه. لاحظ هنا عندما وصف الله تعالى عذاب الدنيا بـ(دون ذلك) لم يقل (لعلهم يرجعون)؛ إشارة إلى أن المقصود بهذا العذاب (دون ذلك) هو عذاب الهلاك والدمار والموت، الذي ليس بعده إلا الآخرة وعذابها الأكبر.

106 - أنظر تفسير(الجلالين)، (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز-الواحدي)، (الكشّاف- الزمخشري).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) ﴾ [السجدة]

فهذه السُنّة الربّانيّة أو الآية الربّانيّة (الدّخَان)، أصابت قريشاً ـ وقد تمادوا في غيهم وظُلمهم ـ بعد ما تعاهدوا (تقاسموا) على حصار رسول الله والمؤمنين ومن ناصرهم في شعب بني هاشم..

﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الحجر: ٨٩ - ٩٠

ثم رفعها الله تعالى عنهم بعد أن وعدوا بالتوبة وبعد استغفار رسول الله لهم ـ كما في الروايات عن ابن مسعود السابقة ـ وذلك ربما، قُبيل فك الحصار في السنة العاشرة من البعثة أو تزامن معه، حيث رفضت مجموعة من قريش هذه المقاطعة الظالمة ونقضوا الوثيقة، وانفكّ الحصار.. إلا أن الملأ من قريش بعد ذلك نكثوا وعدهم بالتوبة، ورجعوا إلى سابق عهدهم في معاداة الحق وأهله؛ رسولِ الله والذين آمنوا معه، بل وبصورة أشد وأعتى وبشكل مختلف، كما في الآيات السابقة من سوَر: الطّوْر والمؤمنون ويونس والدّخَان.. وخاصة بعد ذهاب نَصيريّ رسول الله ﷺ القويّيْن، في نفس العام: زوجه خديجة رضي الله عنها، وعمّه أبي طالب، حيث مات أبو طالب بعد فك الحصار بفترة وجيزة، وتوفيت خديجة رضي الله عنها، بعده بزمن قليل..

وعندها بدأ الملأ من قريش في التجاوز على إيذاء رسول الله بما لم يستطيعوه من قبل، فمنعوه أن يبلّغ رسالة الله عزّوجل، حتى أنّهم صدّوه عن المسجد الحرام.. ومن ثَمّ، فقد استحقّت قريش وملؤها انتقام الله منهم في الدنيا قبل الآخرة، بـ "العذاب الأكبر".. وسوف ينزل بهم بعد اكتمال إقامة "الحُجَّة الرسالية" عليهم.. فنزلت الآيات تنذرهم بـه، كما في الآيات التالية:

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)﴾ [الدخان: 15-16]

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)﴾ [الحجر: 89-90]

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾ [الشعراء] [107]

وبهذا، بدأ الطّوْر الثالث؛ والأخير من المرحلة الأولى؛ مرحلة الاستضعاف.. وفيه تكتمل إقامة "الحُجَّة الرسالية" على قريش.. وهو أشدّ طور وأثقله على رسول الله والمؤمنين معه.. وفي نهايته يأتي النصر والتمكين..

---

107 - لم ترد رواية **ثابتة** تربط بين نزول آيات سورة الشعراء وبين بداية الجهر بالدعوة وإنهاء السريّة. البيان في ما يلي من البحث عند الكلام بالتفصيل عن أحداث "الطور الثالث".

الطّوْر الثالث :

نظرة مجملة لهذا الطّوْر.. وبها تنتهي جولتنا مع مجموعة الآيات من سوَرة إبراهيم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ **ذَلِكَ** لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾ [إبراهيم]

"وهنا يسفر الطغيان عن وجهه؛ لا يُجادل ولا يُناقش ولا يفكِّر ولا يتعقَّل، لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة، فيسفر بالقوة المادية الغليظة التي لا يملك غيرها المتجبّرون":

"وقال الكفار لرسلهم: ما دمتم مُصرّين على التمسّك بدينكم الجديد، ليكوننّ أحد أمرين؛ إما أن نخرجكم من أرضنا، وإما أن تعودوا في ديننا..

"هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية.. إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها.. ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها.. وهي لا تُسالِم الإسلام حتى لو سالَمَها.. لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرَّد أن يكفّوا عن دعوتهم، ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم، وأن يندمجوا في مجتمعهم الجاهلي، وأن يذوبوا فيه فلا يبقى لهم كيان مستقل.. وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله؛ فإما أن يكون الناس عبيداً لله رب العالمين أو عبيداً للطاغوت".. وهو ما يرفضه الرسل ويأبونه.. فلا مرجعية للمسلم إلا دين الله وحده؛ الإسلام لله وحده..

وهنا يفصل الله **عزّوجلّ** بين أهل الحق وأهل الباطل وقد **تمايزوا**.. إلى فريقين:

فأوحى الله إلى الرسل قائلاً: لنهلكنّ الجاحدين الذين كفروا بي وبرُسُلي، ولنسكننَّكم - ومن تبعكم - الأرض من بعد إهلاكهم.. وذلك الإسكان (التمكين) للمؤمنين أمر **مؤكَّد** - نون العظمة ونون التوكيد - **لِمَن** استحضر عظمتي ومراقبتي له، وخاف إنذاري له بالعذاب..

"وهكذا تلتقي القوة الصغيرة الهزيلة؛ قوة الطغاة الظالمين.. بالقوة الجبارة الطامّة؛ قوة الله الجبّار المهيمن المتكبّر.. فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين و"الصدع" بالحق الذي يُميِّز المؤمنين من المكذبين.. ووقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صف، ووقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله - سبحانه - في صف، ودعا كلاهما بالنصر والفتح [108].. وكانت العاقبة كما يجب أن تكون": فاستجاب الله لهم؛ فنصر أولياءه (المؤمنين)، وهَلَك كل متكبِّر عن طاعة الله لا يقبل الحق ولا يُذْعن له، شديد العناد.. وقد استقبل الهزيمة في الدنيا، ومن ورائه في الآخرة عذاب جهنم، ويُسْقى فيها من ماء كريه، وهو كالصديد يسيل من أجسام أهل النار"..

---

108 - ({وَاسْتَفْتَحُوا..}. أي استنصرَت الرسلُ ربَّها على قومهم (قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة)، وقال ابن=> أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} **[الأنفال32]**، ويُحْتَمل أن يكون مُرادا، وهذا مُرادا، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر. وقال الله تعالى للمشركين: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} **[الأنفال19]). [أنظر مختصر تفسير ابن كثير - الصابوني].**

فالخط **العام** لهذا الطّوْر للرسل مع أقوامهم هو: **التهيئة** لـ "الفتح" أي الفصل والحُكْم بين الفريقين: **نصر** المؤمنين و **خـزي** الكافرين.. وذلك؛ لاستحقاق المؤمنين النصر.. لإكمالهم **شروطه** وأسبابه؛ الشرعية والقدرية، حسب سنن الله في سير الدعوة إلى الله في المجتمعات والقرى.. واستحقاق الملأ الذين كفروا ومَن تبعهم، "العذاب الأكبر" في الدنيا.. باكتمال شروطه وأسبابه.. وعلامة ذلك؛ إتمام "الحُجَّة الرسالية" على الذين كفروا من قريش؛ ملئها ومَن تبعهم.. كما سنبينه في ما يلي..

بإصرار الملأ الذين كفروا ومَن تبعهم من المجتمع، على التكذيب بالحق وقد مرت عليهم خطوتان في إقامة "الحُجَّة الرسالية" عليهم: بالحُجَّة والبرهان (الآيات المتلوَّة)، ثم بـ "العذاب الأدنى" (الآيات المادية).. (كما في قصة موسى **عليه السلام** وفرعون) ..

وبثبات المؤمنين على الحق **وصبرهم** على الأذى الشديد في سبيل الله.. فلم يقدِّموا أية تنازلات أو **مداهنات** على حساب قضيتهم المصيرية؛ "إخلاص الدين لله".. (نفي شرك الطاعة).. **وصَدْعِهم** بالحق كاملاً.. وأنّهم يرفضون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ نجّاهم الله منها.. فيكونوا بذلك قد وصلوا إلى مرحلة من "النُّضج الإيماني"؛ روحياً وفكرياً.. استحقوا به النصر والتمكين [109].. وحسب سنن الله، فإن النتيجة لثبات كل جهة على موقفها: ينقسم (ينصدع) الناس في المجتمع إلى **فريقين** (فُسْطاطَين) اثنين، متمايزَين ظاهرَين بارزَين؛ فلا نقاط التقاء بينهم في "قضية الصراع"؛ الطاعة والاتباع لمَن؟.. (تعيين المرجعية) .. فيكونوا فسطاط (فريق) **إيمان** لا كفر فيه، وفسطاط (فريق) **كفر** ونفاق لا إيمان فيه.. ولا لَبْس بينهما.. كما يبيّنه قوله **تعالى**:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ النمل: ٤٥ - ٤٧

---

109 - أنظر (تبيان سورة الأعراف) الآيات (138-158).. ولاحظ كيف أن وعد الله تعالى لقوم موسى=> **عليه السلام بالتمكين** واسكانهم مكان الذين ظلموا قد تأخّر كثيراً (بعد أربعين سنة في التيه) بسبب إخلالهم بشرط الله تعالى المذكور في الآية - طاعة الله وتعظيم أمره **جلّ وعلا** - متمثلاً بما عملوه من معاصي كبيرة بعد أن **نَصَرهم** الله **عزّ وجلّ** وأنجاهم من فرعون وأهلكه في البحر. وكذلك ما حصل مع رسول الله يونس **عليه السلام**، فلم يصبر على معاندة قومه ومعاداتهم فتركهم دون أن يأذن الله له، فضيَّق الله عليه، ثم برحمته اجتباه وبعثه ليكمل مهمته: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠ ﴾ **[القلم]** أيْ اصبر - أيها الرسول - لما حكَم الله به من إمْهالُهم وتَأْخِيرُ نُصْرَةِ رَسُولِ الله ﷺ عَلَيْهِمْ.. ولا تَكُنْ مِثْلَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلامُ، في الغَضَبِ والضَّجَرِ والعَجَلَةِ، حتى لا تَكُونْ حالُكَ كَحالِهِ وقْتَ نِدائِهِ، وهو مَمْلُوءٌ غَيْظًا وكَرْبًا.. فلَوْلا أنْ تَدارَكَته نِعْمَةٌ مِنَ الله؛ وهي تَوْفِيقُهُ لِلتَّوْبَةِ فَتابَ الله عَلَيْهِ.. لَأُلْقِيَ مِن بَطْنِ الحُوتِ عَلى وجْهِ الأرْضِ الخالِيَةِ مِنَ النَّباتِ.. فاسْتَخْلَصَهُ ربه واصْطَفاهُ واخْتارَهُ لِلنُّبُوَّةِ.. فَجَعَلَهُ من الكامِلِينَ في الصَّلاحِ وعَصَمَهُ مِنَ الذَّنْبِ، وقِيلَ: رَدَّ إلَيْهِ النُّبُوَّةَ وشَفَّعَهُ في نَفْسِهِ وفي قَوْمِهِ وأرْسَلَهُ إلى مِائَةِ ألْفٍ أوْ يَزِيدُونَ.. ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ٨٨ ﴾ **[الأنبياء]**.

والنتيجة الطبيعية لتمايز الفريقين المتخاصمَين في ربهما - حسب سنن الله - هي أن يقوم الملأ الذين كفروا بـ "المكر" برسول الله لهم، بالتخطيط والتدبير في الخفاء للقضاء عليه؛ إما بحبسه أو بقتله أو بنفيه (الإخراج) من القرية، بوصفه صاحب الدعوة إلى الله ورأسها.. للقضاء عليها أو أن يترك دعوته ويعود هو والمؤمنون في ملتهم الجاهلية ودين طاغوتهم والخضوع لسادتهم وكبرائهم (الملأ)..

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ النمل: ٤٨ - ٥١

أي (قال هؤلاء التسعة بعضهم لبعض: تقاسموا بالله بأن يحلف كل واحد للآخرين: لنأتينَّ صالحًا بغتة في الليل فلنقتلنَّه ولنقتلَنَّ أهله، ثم لنقولَنَّ لوليِّ الدم مِن قرابته: ما حضرنا قتلهم، وإنا لصادقون فيما قلناه)..

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾...﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ العنكبوت: ١٦ - ٢٤

وسنة الله هنا، أنه إذا حاول الملأ في المجتمع قتل رسولهم أو إخراجه والمؤمنين من أرضهم - وقد تمايزوا؛ فأصبحوا فريقين متخاصِمَين في ربهما - أنزل الله "العذاب الأكبر" على الكافرين ونَجَّى المؤمنين.

موقف الملأ في مجتمع مكة:

مثل أسلافهم الجاهليين، برغم أن الملأ الذين كفروا من قريش ومَنْ تبعهم على ضلالهم قد دخلوا سنة الله بأخذ القرى بـ "البأساء والضراء" (العذاب الأدنى).. ورأوا من آيات الله **تعالى** ما رأوا.. إلا أنهم أخلفوا وعدهم بالتوبة، وعادوا إلى سابق عهدهم في رفض الحق وإيذاء أهله، بل بأشدّ وأعتى، حتى منعوا رسول الله أن يبلّغ كلام ربّه **عزّ وجل**، وصدّوه عن المسجد الحرام، وتجرّؤوا على إيذائه بما لم يستطيعوه من قبل.. وبالتالي، فقد دخلوا في السُنّة التالية من سنن الله **تعالى** في السير بالرسالات، ألا وهي سنّة **"الفتح"**؛ أي الحُكم والفصل بين الذين آمنوا والذين كذّبوا.. كلٍ بما يستحق.. وذلك يقتضي - بدايةً - أن يتمايَّز المؤمنون عن الكافرين في المجتمع ، فيصبحوا **فريقين** متخاصمين في **ربّهما**.. حيث يحكم الله **عزّ وجل** ويَفْصِل بينهما؛ بنصر أوليائه وأحبّائه وبخزي أعدائه، بإنزال "العذاب الأكبر" في الدنيا عليهم.. ولا رادّ لأمر الله **جلّ وعلا**..

(إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ، وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ، نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{25}) الحج

فهُم استحقوا العذاب.. فإذا أصروا على الكفر جاحدين معاندين، وأخرجوا رسول الله من بينهم، عند ذلك يكونوا قد استكملوا كافة الأسباب وارتفعت كل الموانع.. عندها يُنزل الله "العذاب الأكبر" بهم قريباً، كما هي سنته عزّوجل:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ [الإسراء]

فهذه سنة لله عامة: "النُّصرة والغلبة تأتي على إثر الهجرة (الإخراج) عن قريب. حيث أن النُّصح والدّعوة والصّبر، ثم **البراءة** والهجرة، ثم **النّصر** حتى يَظهر الحق على الباطل.. ليس بأمر يَختصّ بمحمّد ﷺ، بل هذه سنّة الله برسله، وطريق عدله بخلقه":

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ **نَصْرُنَا** فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾ [يوسف]

"فعَلِمْنا أن الرسول - أي رسول - إذا هاجر اقترب للناس حسابهم، فيَنتصر دينُ الله وينكسر الكفر. وهذه هي سنة الله.. فإنك ترى مما جاء في قصص المرسلين؛ أن الإهلاك يأتي بعد الهجرة، ذلك أن الرسول أمان للأمّة ما دام فيهم، حتى إذا استيئس منهم وأُذن الله له بالهجرة فحينئذ يعلن الرسول بالبراءة ويهاجرهم [110].. عندها يكون قد اقترب الفتح والعذاب، فإن استدركوا على أنفسهم فاستغفروا وتابوا، رفع الله عنهم العذاب، كما حصل لقوم يونس.. وإن لم يتوبوا ويستغفروا وقع بهم العذاب، كما ذكر الله تعالى ذلك في سورة الأنفال" في الآيتين (33-34).

وفي هذا السياق، فقد **اختص** الله عزّوجل هذه الأمّة الخاتمة والرسول الخاتم بخصائص وسنن دون سائر الرسل والأمم:

✓ برغم استحقاق قريش وملئها "العذاب الأكبر"، إلا أن الله برحمته، وكرامةً لرسوله الخاتم، أمهل قريشاً وجعل لهم أمانَين من العذاب: فإما أن يستغفروا الله تبارك وتعالى ويعودوا إليه، فيؤمنوا بالله ويتبعوا الرسول.. أو أن يُبقوا رسول الله بينهم فلا يُخرجوه. كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللهمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ الله وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ [الأنفال]

✓ في ما يتعلق بطبيعة ونوع عذاب الكافرين المُكذّبين بالرسالة الخاتمة، فعذاب الله تعالى لهم ليس كالكافرين من الأمم السابقة، حيث عذّبهم بجنوده من السماء والأرض:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

بل **الأصل** في عذاب الكافرين المُكذّبين بالرسالة الخاتمة، أن يكون قتلاً وأسراً، بأيدي المؤمنين، فهم الآن من جنود الله في الأرض، وأُمنائه فيها:

---

110 - انظر مثلاً قصص الأنبياء في سورة الأعراف آية 79، 93. وأنظر تفسير سورة الكافرون، في كتاب (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) - عبد الحميد الفراهي.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾ [التوبة]

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة]

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤)﴾ [محمد]

لذلك، تأجّل نزول العذاب بقريش إلى ما بعد خروج رسول الله والمؤمنين من مكة والهجرة إلى المدينة، وبعد أن مكّنهم في الأرض وأصبحوا أمّة من دون الناس، فأصبح لهم دار وأنصار.. وذلك في يوم بدر؛ يوم "الفرقان"..

ومن هنا، فقد شاء الله **عزّوجل** البدء في التهيئةَ - قدراً وشرعاً - لأمر خروج المؤمنين وهجرتهم، فالنصر ثم التمكين.. ولكن حتى يحصل ذلك في الواقع الإنساني حسب سنن الله **تعالى** وتقديره، لا بد له من شروط وحيثيات ومقومات، ومن تهيئة وإعداد:

﴿..إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ [يوسف]

وهذا كله له سنن تضبطه (معالجات سننية)، وأحكام شرعية (معالجات شرعية) لا بد من القيام بها.. فـ "**سنّة الفتح**"، سنة عامة تندرج تحتها تفاصيل. وهذا الطّوْر - الثالث - من السير، هو الظرف الذي حدثت فيه تلك المقدمات القدريّة والشرعيّة، للتهيئة من أجل نصر المؤمنين وتمكينهم، ثم إنزال العذاب على الكافرين الجاحدين..

وقد وقعت أحداث هذا الطّوْر - الثالث - متسارعة في فترة زمنيّة قصيرة نسبياً: سنتين وبضعة أشهر، وهي ما بين بداية السنة الحادية عشر للبعثة وحتى الهجرة إلى المدينة المنورة، في بداية الثالثة عشر.

الموقف الشرعي لرسول الله والذين آمنوا معه:

الموقف الشرعي في الطور الثالث، يمكن إجماله في التكاليف الشرعيّة، التالية:

- ✓ **التأكيد** على **الصبر** على أذى قريش وفتنتهم، والصبر على أمر الله الشرعي والاستقامة عليه حتى يحكم الله بأمره؛ قدراً أو شرعاً:

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣) ﴾ [هود]،،
"الركون": الميل، ومنه المداهنة وقبول الحلول الوسط بين الإيمان والشرك، مع الملأ الذين أشركوا.. في قضية الصراع؛ "إخلاص الدين لله"..

✓ **التأكيد** على **كفّ اليد**، أي عدم الرد بأي عمل مادي - مطلقاً - على إيذاء قريش المتزايد:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)﴾ [النساء]

وقد أصبح الحال بين الفريقين الخصمين في غاية التوتّر، وقد يتحوّل في أية لحظة إلى اقتتال داخلي (حرب أهلية)، كما في الرواية الثابتة التي ورد فيها وصف عتبة بن ربيعة للحال بين الفريقين عندما أرسله الملأ من قريش ليتفاوض مع رسول الله ﷺ للوصول إلى حل وسط. حيث قال: (.. أما والله ما رأينا سخلة أشأم على قومها منك، فرّقتَ جماعتنا، وشتّتَ أمرنا، وعِبْت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أنّ في قريش ساحراً، وأنّ في قريش كاهناً، ما يُنتظر إلا مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى..). **[صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي]**

✓ **وفي إطار** الأمر السابق، وفي أثناء هذه الظروف المتوتّرة جداً.. جاء الأمر للمؤمنين **بضبط النفْس**، ودفع **الإساءة بالإحسان** إليهم، والاستعاذة بالله من **نَزْغ** [111] شياطين الإنس والجن:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾ [الأعراف: 199-202]

﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)﴾ [المؤمنون]

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت]

✓ **البحث عن بديل** لقريش خارج مكة - في إطار إكمال بلاغ الرسالة - دون تعيين لقبيلة أو قرية:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا..(٩٢) ﴾ [الأنعام]

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)﴾ [الشورى7]

فهو "خطاب النذارة" نفسه الذي خاطب به قريشاً.. لعل الله **سبحانه وتعالى** ييسّر لرسوله أن يجد مَنْ يحميه - وقد مات عمه أبو طالب - حتى يتمكّن من الاستمرار في بلاغ رسالة الله للناس.. أو أن يجد مَنْ يؤمن به وينصره، وقد أصرّ الملأ - وأغلب قريش تبع لهم - على التكذيب به ﷺ ومنْعه من بلاغ رسالة الله للناس.

---

111 - (النَّزْغ: دخولٌ في أمرٍ لإفساده. قال تعالى: {مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} [يوسف 100]).
[المفردات - الأصفهاني. وانظر سور: الإخلاص، الفلق، الناس، في (تبيان سور القرآن)، مرجع سابق].<==

من أبرز سمات "الطّوْر الثالث" وأحداثه ومواقفه، إضافةً لما سبق وتفصيلاً

وهي سمات متقاربة الحدوث ومتداخلة ومتلازمة، والعلاقة السببية واضحة في أغلب الأحداث بارتباطها ببعض..

1 - أَمَر الله **سبحانه وتعالى** رسولَه الكريم أن يُنذر قريشاً إنذاراً أخيراً **خاصاً بهم**، يُنذرهم بعذاب قريب مدمّر لهم في الدنيا، أي "العذاب الأكبر"، قبل عذاب يوم القيامة. وذلك حسب **سنة الله سبحانه وتعالى** في الأقوام السابقين الذين استكبروا، كما بيّنا آنفاً.. وجاء ذلك الإنذار في آيات سوَرة الشعراء: "فإمّـا التوبة إلى الله الرحيم أو إنزال العذاب الأليم بهم، من الله العزيز".. (يُرجى قراءة السوَرة كاملة):

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)﴾ [الشعراء].

[أنظر الروايات الثابتة حول هذه الآيات في (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي. و (الصحيح المسند) للوادعي].

وقام رسول الله بتنفيذ الأمر، كما في صحيح مسلم (207):

(لمّا نزلت: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، قال: انطلق نبيُّ الله ﷺ إلى رضمة من جبل. فَعَلا أعلاها حجراً ثم نادى: (يا بني عبد مناف إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله، فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف: يا صباحاه)..

وفي صحيح البخاري (4770) :

(لمّا نزلت: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: (يا بني فهر، يا بني عدي)، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تَغِير عليكم، أكنتم مصدقيّ). قالوا: نعم ما جَرّبنا عليك إلا صدقاً، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١).. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)﴾ المسد) [112] .. **[أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي]**

---

112 - وقول رسول الله: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) له أصل في كتاب الله، في قوله تعالى: => (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ{46}) سبأ. يقول **القرطبي في تفسيره:** ((قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ} تَمَّمَ الْحُجَّةَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، أَيْ قُلْ لَهُمْ يَا محمّد: {إِنَّما أَعِظُكُمْ} أَيْ أُذَكِّرُكُمْ وَأُحَذِّرُكُمْ سُوءَ عَاقِبَةِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ)). **وأنظر تفسير ابن كثير**. هذا، والقول بأن تلك الآيات من سورة الشعراء نزلت في سِنِي البعثة الأولى، تأمر بالجهر بالدعوة بعد أن كانت بالسر، لا يصح، وذلك:

- لم ترد رواية ثابتة - حسب علمنا - تربط بين نزول هذه الآيات وبين بداية الجهر بالدعوة وإنهاء السريّة، إلا كلام ابن اسحق في المغازي، وقوله ذاك لم يثبت له سند متصل. والروايات الثابتة - كالتي أوردناها - ليس فيها إشارة واضحة تربطها في بداية الجهر بالدعوة.
- إن العذاب الذي أنذرهم به في الدنيا، قريب جداً على وشك الوقوع، كما هو ظاهر الروايات: (..فخشي أن يسبقوه.. تريد أن تغير عليكم.. بين يدي عذاب شديد..)، وهذا لا يكون إلا بعد البلاغ والبيان الكافي =>

فهذه "**نذارة خاصة**" لقريش ـ العشيرة الأقربين ـ بالعذاب الشديد، أي "الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى" أو "العذاب الأكبر" في الدنيا، كما هي **سنة** الله **سبحانه وتعالى** في الأمم الجاحدة ..

وقد ورد ذكر هذه "النذارة الخاصة" في سوَر أخرى، مثل الدّخَان [10- 16]، والحجر [89-91]، ويونس [96-103]، والمؤمنون [73-77].. الخ.. كما ذكرنا سابقاً.

هذا، وقد بيّن الله **سبحانه وتعالى** أن يوم بدر هو اليوم الموعود، يوم الفرقان، يوم يحق الله الحق ويقطع دابر الكافرين، تحقيقاً لسنّته **سبحانه وتعالى** في الكافرين المستكبرين:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾ [الأنفال]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [113] (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾ [الأنفال]

وظهور موقف الكفر والجحود، وقد كان هذا قُبيل الهجرة للمدينة (الطور الثالث).. فكيف يكون الإنذار بالعذاب القريب في بداية الجهر بالدعوة وإظهارها لقريش؟! وقد كانت الدعوة سرية أصلاً ولم تُبلَّغ لقريش بلاغاً مبيناً.

- يُفهم من الروايات السابقة أن قريشاً كانت على عِلْم مسبق بما قاله رسول الله بخصوص لا إله إلا الله واليوم الآخر، وهذا لا ينسجم مع وصف السريّة.. لاحظ جواب أبي لهب: (ألهذا جمعتنا).. فهُم لم يستوضحوا حول هذا العذاب الذي أنذرهم به فجأة، كأن يسألوا لماذا العذاب؟!.. على أساس أن الدعوة كانت سراً.
- أمّا قول قريش لرسول الله: (نَعَم، ما جربنا عليك إلا صدقاً)، يتوافق مع قوله تعالى في سورة الأنعام: (فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ {33})، والتي نزلت في أواخر المرحلة المكيّة، فالرسول لا يزال عندهم الصادق الأمين، ولكنّهم يكذّبون ويجحدون بما جاء به من الحق. وقد بقي في نظرهم، الصادق الأمين حتى وقت هجرته إلى المدينة، كما في الرواية التالية: (فلما أراد رسول الله الهجرة كان عنده ودائع لهم، فأمر علياً أن يردها إلى أهلها). **[حسّنه الألباني في (إرواء الغليل)].**
- القول بنزول هذه الآيات في بداية الجهر بالدعوة لا يتوافق مع السياق العام لسورة الشعراء، فالسورة كلها تتحدّث عن الإنذار النهائي بعذاب الله في الدنيا لأقوام الرسل وقد جعلوا الكفر بالحق موقفاً نهائياً لهم. أنظر السورة في المصحف.
- إن كثيراً من أهل التفسير قد استشكل هذه الآية ـ على اعتبار أنها نزلت في أول الدعوة ـ من باب لماذا النص على إنذار عشيرته الأقربين مع العلم أنه نذير للعالمين: {قُمْ فَأَنذِرْ(2)}المدثّر؟ فحاولوا إيجاد مبررات مختلفة لذلك. وفي الحقيقة ما وُجد ذلك الإشكال إلا بسبب عدم وضع الآية في سياقها السننيّ الصحيح الذي بيّناه آنفاً. **وهناك تفصيل أكثر في ما يلي من البحث، وانظر تبيان (سورة الشعراء) في الجزء الثاني (تبيان سور القرآن). مرجع سابق**

113- يقول الطبري في تفسيره: (وأخذنا هؤلاء الذين كفروا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم وفعلنا => ذلك بهم، بأنهم غيّروا ما أنعم الله عليهم به من ابتعاثه رسوله منهم وبين أظهرهم، بإخراجهم إياه من بينهم وتكذيبهم له وحربهم إياه؛ فغيرنا نعمتنا عليهم بإهلاكنا إياهم).

2 - هذا، و بإصرار قريش على الكفر، و دُنوّ نزول العذاب بهم، وشعور رسول الله بعِظَم المسؤولية.. صار رسول الله يتألم من أجلهم شفقة عليهم ورحمة بهم، لعِلْمه بقرب نزول عذاب الله بهم، فجعل الله تبارك وتعالى، يواسي رسوله ﷺ ويخفف عنه حمله الثقيل ذاك.. في مثل قوله تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ ﴾ الكهف: ٦

﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠ ﴾ النمل: ٧٠

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨ ﴾ فاطر: ٨

وقمة هذه الحسرات كانت في أشدّ موقف وجده رسول الله ﷺ منهم، ألا وهو موقف أهل الطائف، ما جعل رسول الله - بعده - مهموماً مغموماً لا يشعر بنفسه حتى استفاق على نفسه ﷺ في "قرن الثعالب" [جبل بين مكة والطائف وهو أقرب إلى الطائف]، حيث ظنّ أنّ الله سبحانه وتعالى منزلٌ عذابه بهم.. لا محالة.. فما أن جاءه ملَك الجبال وأخبره أن الله سبحانه وتعالى يُخيّره بما يريد أن يفعل بهم، حتى طلب من الله أن يؤجّل نزول العذاب، راجياً منه - سبحانه - "أن يُخرِج من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً". فأعطاه الله ما أراد وأمهلهم ولم يعذّبهم، وبذلك أقر الله عين نبيّه وأزاح عن كاهله همّه الكبير، ووضع عن ظهره حمله الثقيل، وهو "الوزر" المذكور في سوَرة الشرح:
﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣)﴾ [الشرح]. **[انظر السورة في كتاب "تبيان سور القرآن"]**

3- ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة]،،

والظاهر أن استعجال رسول الله في تحفّظ وقراءة ما يُلقى إليه من القرآن خشية تفلته منه ونسيانه، كان في فترة معينة من سيره بالرسالة، وليس حالة عامة. ونحن نرجّح أنها في فترة اشتداد المواجهة وتأزّم العلاقات مع المجتمع الجاهليّ (قريش)، حيث زاد الضغط النفسي على رسول الله ﷺ بسبب شفقته بقومه وخوفه من إنزال العذاب عليهم، بعد إصرارهم على الكفر. وقد بدأ يظهر هذا واضحاً في المنتصف الثاني من الطور الثاني.. يعني في أجواء الحصار والمقاطعة، الأمر الذي استدعى أن تُنزَّل الآيات والسوَر من القرآن بكثافة أعلى مما كانت عليه قبل ذلك، لمعالجة ما كان يواجهه رسول الله والمؤمنون من أحوال صعبة وعسيرة.. تثبيتاً لهم وبصيرة.
ويؤيد هذا أن السوَر الأخرى - طه و الأعلى - التي ورد فيها طمأنة رسول الله على حِفظه للقرآن، متعلّقة في نفس الأجواء والأحوال.
ونميل إلى أن آيات سورة الأعلى كانت أوّلها نزولاً نظراً لأنها جاءت بالبشرى والطمأنة فقط:
﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧)﴾ [الأعلى]
وأن النهي جاء بعد أن حدث فعل الاستعجال من رسول الله ﷺ مرة أخرى:
﴿..وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾ [طه]
هذا، ونظراً لازدياد عدد الآيات والسوَر المنزّلة في أوقات متقاربة - بقصد معالجة تعسُّر أحوال

السير بالرسالة - شَعَر رسول الله أنه سيحتاج إلى جهد أكبر في تَحفّظ ما يتنزّل من القرآن وضبطه.. فازدادت خشيته ﷺ من تفلّت القرآن منه، لذلك جاءت آيات سورة القيامة مؤكّدة له ومطمْئنة بأن الله تعالى سيكفيه مشقة جمع القرآن الكريم في صدره الشريف، أي أن يحفظه ويضبطه، وسيكفيه مؤونة بيانه إذا أُشكل عليه شيء منه.. والحمد لله (114).

4 - وَصَف القرآنُ المؤمنين بـ (الذين استُضعِفوا) أو (المستضعفين) كما في سوَرة الأعراف والقصص والأنفال وغيرها.. وهي نفس الفترة التي أشار إليها القرآن بـ "الكرب العظيم" في سوَرتي الأنبياء والصافات.. وهي التي اشتد فيها أذى قريش على رسول الله وتجرّأوا عليه بما لم يستطيعوه من قبل، بعد وفاة عمه وزوجه خديجة، حتى صدّوه عن المسجد الحرام ومنعوه أن يبلّغ كلام ربه عزّ وجل.. فكانت أصعب فترة وأشدها عسرة على رسول الله ﷺ.. حيث كثرة الأعداء وقلة النصير.. كما جاء في سوَر؛ العلق، المسد، والفرقان:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧)﴾ [الفرقان].

[لاحظ الروايات الثابتة في أسباب النزول المتعلقة بالسور والآيات السابقة، في (صحيح أسباب النزول) - إبراهيم العلي].

وكما في الدعاء المعروف الذي دعا به رسول الله ربّـه **تبارك وتعالى**، بعد عودته من الطائف:

(اللهم إليكَ أشكو ضعفَ قوتِي وقلةَ حيلتِي وهوانِي على الناسِ، يا أرحمَ الرحمينَ إلى منْ تكلُني إلى عدوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أو إلى قريبٍ ملكتَهُ أمرِي، إنْ لمْ تكنْ ساخطًا عليَّ فلا أُبالِي غيرَ أنَ عافيتَكَ أوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجهِكَ الكريمِ الذي أضاءَتْ له السماواتُ والأرضُ وأشرقتْ لهُ الظلماتُ وصلُحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ، أنْ تُحِلَّ عليَّ غضبَكَ، أو تُنزِلَ عليَّ سخطَكَ، ولكَ العُتْبَى حتى تَرضَى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بكَ) (115) .

5 - في ظل هذه الظروف الصعبة والعسرة على رسول الله والجماعة المؤمنة معه، كان التنبيه والتحذير من الوقوع في شَرَك "الحلول الوسط" التي كان يقترحها الملأ، ويُقَلّبون القول لرسول الله ليقبل بها:

---

114 - أخرج البخاري ومسلم عن ابن عبَّاسٍ في قوله: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) قال: كان رسول الله=> ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه، فيشتد عليه، وكان يُعرف منه، فأنزل الله الآية التي في (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ): (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ) فإن علينا أن نجمعه في صدرك (وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ): فإذا أنزلناه فاستمع. (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) قال: إن علينا أن نُبَيِنَه. قال: وكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله). **[(المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية - خالد بن سليمان المزيني). أنظر كتاب (تبيان سور القرآن) - سورة الأعلى و سورة القيامة].**

115 - أنظر (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي. نقول: عند تعسُّر السير وصعوبة الطريق، لا بد => لحَمَلة "دعوة الله" من المراجعة الشاملة والتقويم الدقيق لما مضى من خطوات السير، مع التجرّد الكامل والإخلاص التام لله عزّ وجلّ، حتى لا يكون ذلك التعسّر والشدة والأذى عقوبة لهم من الله تعالى، بسبب مخالفتهم لأحكام "المنهاج"، سواء من حيث الأعمال أم الخطاب. ولا بد أيضاً من إخلاص الدعاء لله والتذلل له جلّ وعلا في الهداية للصواب وتيسير الأمور. فهذه هي سنة رسولنا محمد، وهو المعصوم المؤيّد من الله تبارك وتعالى.. فكيف بنا نحن؟!.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾ [الإسراء]

أي "وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحيناه إليك يا محمّد، لتأتي بغيره وتخالف تعاليمه. ولو فعلت ما أرادوا، لاتخذوك صاحباً وصديقاً. ولولا أن ثبّتناك على الحق بعصمتنا إياك، كدت تميل إليهم وتسايرهم على ما طلبوا، ولو ركَنْتَ إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة - فالذنب من العظيم جرمٌ كبير يستحق مضاعفة العذاب - ثم لا تَجِد من ينصرك منّا أو يدفع عنك عذابنا".. والآية نصٌ على أن رسول الله لم يركن للذين كفروا .. فالغرضُ من الآية بيانُ فضل الله على رسوله في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلى الله عن عصمته لمال إليهم بعض الشيء..

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ القلم: ٨ - ٩

أي: " فاثبت على ما أنت عليه - أيها الرسول - من مخالفة المكذبين ولا تطعهم.. وقد تمنَّوا وأحبوا لو تُلَايِنُهم، وتصانعهم على بعض ما هم عليه، فيلينون لك".

وفي هذه الأجواء تأتي سورة الكافرون جواباً حاسماً وحازماً لإنهاء فكرة "الحل الوسط" سواء للكافرين ؛ أنه لا لقاء معكم، لا الآن ولا في المستقبل.. أم للمؤمنين الذين ظنوا أن بعض التنازل في الموقف من عبادة غير الله (الحل الوسط) قد يؤدي إلى إيمان الملأ من قريش، وبالتالي إيمان قريش كلها.. فجاءت سورة الكافرون تأييساً لهم من ذلك؛ حيث تُقرر التمايز التام بين الإسلام والجاهلية، فلا لقاء بينهما:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ الكافرون

[انظر السورة في كتاب "تبيان سور القرآن"]

ومن هنا، كان **التركيز** واضحاً - في خطاب الله للمؤمنين - على وجوب **اتّباع** الوحي، **والصبر** على طاعة الله، **والصبر** عن معصيته، **والصبر** على أذى المشركين.. حتى يقضي الله بأمره؛ قدراً أو شرعاً، وهو **عزّوجل** خير الحاكمين، كما في قوله **سبحانه**:

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس: ١٠٩

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ **هود**: ١١٢ - ١١٥

وهي التي شيّبت الرسول ﷺ حيث قال: (شيبتني هود وأخواتها) [116].. للدلالة على ثقل التكليف هذا، وتثبيتاً لرسول الله - من "منهج التثبيت" - ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالأنبياء والرسل السابقين، عليهم وعلى نبيّنا الصلاة والسلام:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ .. (٩٠) ﴾ [الأنعام]

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) ﴾ [ص17]

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف ٣٥]

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)﴾ [القلم]

" أي، فَاصْبِرْ أيها الرسول الكريم لحكم ربك - القدريّ والشرعيّ - ولا يوجَد منك ما وُجِد من صاحب الحوت - يونس عليه السلام - من الضجر والغضب على قومه الذين لم يؤمنوا ففارقَهم دون أن يَأذن له ربُّـه بمفارقتهم.. حتى لا يكن حالك كحاله وقت ندائه لربِّـه عز وجل، وهو مملوء غيظا وكرباً (مكظوم) لِما حدث له مع قومه، ولِما أصابه من بلاء وهو في بطن الحوت".

وهذا يذكّرنا بموقف نبي الله يعقوب عليه السلام وهُوَ "كَظِيمٌ"، أي ممتلئ القلب حُزناً على ابنيه المفقودَين وهو لا يعلم عنهما شيئاً.. ورغم ذلك، فهو على ثقة تامّة بتحقق وعد الله سبحانه وتعالى - رؤيا يوسف بأن يكون سيداً وحاكماً - فقال لأبنائه:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى الله وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ الله إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف]

" أي لا أظهر همِّي وحزني إلا لله وحده، فهو كاشف الضرّ والبلاء، وأَعْلَم من وعد الله ومن صدق وقوعه، ما لا تعلمونه.. فدققوا في البحث عن يوسف وأخيه، ولا تقطعوا رجاءكم من رحمة الله، إنه لا يقطع الرجاء من رحمة الله إلا الجاحدون لقدرته، الكافرون به".

6 - وفي ما يتعلق باستخدام القوة والقتال في الدعوة إلى الله، كان الأمر الشرعي الثابت طوال هذه المرحلة هو "كف اليد"، أي المنع.. كما ذكرنا.. مع التأكيد عليه في هذا الطَّوْر، كما في رواية كعب بن مالك رضي الله عنه لأحداث بيعة العقبة الثانية؛ بيعة النُّصرة والحرب، حيث كان ممن شهدها وبايع رسول الله ﷺ.. فبعد أن انكشف أمرهم في الليل بعد عقد البيعة سراً، قال كعب: ((.. ثم قال رسول الله ﷺ: { ارفضوا إلى رحالكم}. قال: فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق؛ إن شئت لنميلنّ على أهل "مِنى" غداً بأسيافنا. قال: فقال رسول الله ﷺ: { لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم} قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا..)) [117].

116 - حسّنه ابن حجر العسقلاني - تخريج مشكاة المصابيح - الصفحة أو الرقم 5/74 ، كما قال في المقدمة.

117 - قال الهيثمي في المجمع: 6/42-45 رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرّح بالسماع. **أنظر باقي متن الرواية وتفصيل تخريج سندها في (صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي).**
يُعتَبر ابن إسحاق - رحمه الله - عند علماء الحديث "صدوق، مدلَّس من الدرجة الرابعة" فهو لا يكذب لكنه مدلّس يُسقط بعض الرواة من سنده، فلا تُقبَل روايته إلا إذا صرّح بالسماع.

فالأصل في هذه المرحلة - الأولى - كلها هو العفو وكف اليد والصبر على أذى قريش، حتى يحكم الله بأمره، إما شرعاً أو قدراً.. أي، إما تكليفاً بحكم شرعي جديد كالقتال مثلاً.. أو تيسيراً وفرجاً.. وقد حصل الاثنان معاً؛ بإيمان الأنصار والهجرة إلى المدينة، وبالإذن في القتال بعد الهجرة.. والحمد لله.

هذا، وعطفاً على الأمر بالعفو وكف اليد في هذا الطّوْر - وفي نفس المعنى - أمر الله **جلّ وعلا** رسوله والمؤمنين معه في موقفهم من المشركين، بالالتزام بما يلي:

الارتقاب: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾ [الدخان]

والصبر الجميل: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ الله ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)﴾ [المعارج]

والصفح الجميل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)﴾ [الحجر]
﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ [الزخرف]

والإعراض والانتظار: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ [السجدة]
﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلله غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾ [هود]

الصبر، والهجر الجميل: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)..﴾ [المزمل]

وفي سياق الأمر بالصفح والانتظار والصبر الجميل.. وحثّ المؤمنين على التجمّل به والاستقامة عليه - وهو السمة العامة لهذا الطور في انتظار أن يفصل الله بين الفريقين - يأتي تقرير حقيقة أن "الله **لطيف** لما يشاء"، بمعنى أن الله **سبحانه وتعالى** يُنـفِذ مشيئـته بلطف وبرفق ورَويّة وحِكمة، فوَعْـده متحقق قطعاً.. لكن في وقته الذي قدّره الله **سبحانه وتعالى** له.. كما ورد في سوَرة يوسف التي نزلت أثناء الحصار والمقاطعة في الشِعب وقُبيل أخذ قريش بالسنين والقحط؛ "الدُخَان" [118].. حيث قال الله **سبحانه** على لسان يوسف **عليه السلام**، مستعرضاً الأحداث التي وقعت بين أن رأى رؤياه تلك وبين "تأويلها"، أي تحقّقها في الواقع، وقد مرّت أعوام عديدة:
﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ [يوسف]

---

118 - حيث دعا رسول الله على قريش بقوله: (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف) **البخاري**. مما يعني=> أن نزول سورة يوسف وعِلْم رسول الله بقصة يوسف، كان قبل دعائه عليهم. **[انظر (الطور الثاني) رواية عبد الله بن مسعود عن الدخان].**

7- وفي الأجواء السابقة من الإعراض عن المشركين الجاهلين والانتظار.. أصبح عند المؤمنين فراغ طويل في النهار بسبب عدم الاحتكاك المباشر معهم.. فنزلت آيات سوَرة المزمّل [119] مؤكدة هذا الواقع، وتأمر رسول الله والمؤمنين معه بهجران قريش وإمهالهم حتى ينزل بهم العذاب.. والهجر فيه ترك وابتعاد.. أكثر من الإعراض.. قال **سبحانه وتعالى:**

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ [120] وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ [المزمل]

وجاء أيضاً الأمر بقيام الليل، أقلّه الثلث وأكثره الثلثين.. وبالتبتّل والانقطاع إلى الله **جلّ وعلا**.. وأن يجعل النهار للاستراحة والنوم وقضاء الحوائج، ففيه متسع من الوقت بعد الأمر بهجر المشركين وعدم الاحتكاك المباشر بهم:
﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) ﴾ [المزمل]

ثم نزلت آية التخفيف؛ آية [20] من سوَرة المزمّل، بعد اثني عشر شهراً أو أكثر كما صحت الروايات، كما عن عائشة **رضي** الله **عنها**: (.. فقالت [أي عائشة]: لست تقرأ يا أيها المزمّل؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله **عزّوجل** **افترَض** قيام الليل في أول هذه السوَرة فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حولاً. وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء. حتى أنزل الله في آخر هذه السوَرة، التخفيف. فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة..). **[جزء من رواية مسلم في صحيحه - رقم 746]**

ونزول أول سورة المزمل ـ في تقديرنا ـ كان قبل الهجرة إلى المدينة وقُبيل حادثة الإسراء، ونزلت آية التخفيف بعد عام؛ قُبيل الهجرة مباشرة، استعداداً لها.. وآيات سوَرة الإسراء التالية تُصوّر هذا الحال في "الطّوْر الثالث"، حيث بعد حادثة الإسراء فرَض الله الصلوات الخمس وأصبح قيام الليل تطوعاً.. وفي هذه الأثناء كان سعي رسول الله للخروج من مكة من خلال الاتصال بقبائل العرب في موسم سنة الهجرة والسنة التي قبلها.. للبحث عمّن ينصره ويؤويه:

---

119 - إن القول بأن هذه الآيات من أوائل ما نُـزّل من القرآن، لم تصح فيه رواية. **[أنظر (صحيح أسباب النزول - إبراهيم العلي). و(الصحيح المسند - مقبل الوادعي)].** بل إن الروايات الواردة وسياق السورة وقرائن أخرى=> عديدة تدل على صحة ما أثبتناه بأنها نزلت متأخرة. **[انظر (سورة المزّمّل) في الجزء الثاني (تبيان سور القرآن)].**

120 - {النَّعْمَةِ} بفتح النون: التنعم والترفّه. من سنة الله في الدعوة إلى الله، انتشار الكفر بين المترفين => حيث يعتدّون بالأموال والأولاد؛ وهُم أسياد المجتمع (الملأ) أو "الدولة العميقة" بالمصطلح الحديث؛ الذين يرفعون لواء العداء لدعاة الحق من رسل الله وأتباعهم:
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾ [سبأ]
﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف].
﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ٤٦﴾ [الواقعة]
﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥﴾ [المؤمنون]
﴿.. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء]

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ [الإسراء] [121]

وكما تشير آيات سورة الشعراء:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) ﴾ [الشعراء]

وآيات سورة الشرح:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾ الشرح،، **(انظر السورة في "تبيان سور القرآن")**

وبناء على القرائن السابقة وغيرها، فإن "القول الثقيل" الذي هيّأ الله المؤمنين لتلقيه - بفرض قيام أكثر من نصف الليل، ولمدة عام - هو "آيات الله" التي فيها الأحكام المتعلقة بالأمّة والسلطان - يعني استعداداً للهجرة والنصر والتمكين - ومنها آيات التكليف بالقتال والإنفاق في سبيل الله.. وذلك إشارة إلى ثِقل تلك الأحكام على النفوس..

وأصل التهيئة يكمن في تلاوة القرآن - أثناء الصلاة - في ساعات الليل؛ فهو أبين قولًا، وأقوى مواطأة للقلب أي أشد تأثيراً فيه.. لسكون الليل وفراغ القلب مِن مشاغل الدنيا **(انظر الطبري)**.. ومراجعة وتكرار تلاوة ما سبق نزوله من القرآن في مكة حتى تلك اللحظة.. فيه العيش مع كلام الله **جلّ وعلا** وما فيه من التذكير بالحقائق الإيمانية وأن الله له الأمر كله، وبيده مقاليد السموات

---

121 - عن عبدالله بن عباس: (كانَ النبيُّ ﷺ بمكَّةَ، ثمَّ أُمِرَ بالهجرةِ، فنزلَت علَيهِ: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ=> صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطانًا نَصِيرًا}).**(سنن الترمذي٣١٣٩ حسن صحيح)**. وفي تفسير ابن كثير: (نزلت في كفار مكة لما همّوا بإخراج رسول الله ﷺ من بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَتَوَعَّدَهُمُ الله بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَخْرَجُوهُ لَمَا لَبِثُوا بَعْدَهُ بِمَكَّةَ إِلَّا يَسِيرًا. وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ إِلَّا سَنَةٌ وَنِصْفٌ، حَتَّى جَمَعَهُمُ الله وإياه ببدرٍ على مِيعَادٍ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُمْ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم، ولهذا قال تعالى: {سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا}الآية، أَيْ هَكَذَا عَادَتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِنَا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب... وقال الحسن البصري: إِنَّ كُفَّارَ أَهْلِ مَكَّةَ لَمَّا ائْتَمَرُوا بِرَسُولِ الله ﷺ لِيَقْتُلُوهُ أَوْ يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهُوَ الَّذِي قَالَ الله عزّ وجلّ:{وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ}الآية... وهذا القول هو أشهر الأقوال، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقَوْلُهُ: {وَاجْعَلْ لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً} قال قتادة: إن نبي الله ﷺ، علم أن لا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ الله، وَلِحُدُودِ الله، وَلِفَرَائِضِ الله، وَلِإِقَامَةِ دِينِ الله.. وهو اختيار ابن جرير، لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مَعَ الْحَقِّ مِنْ قَهْرٍ لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ} **[الحديد25]**. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الله لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ». أَيْ لَيَمْنَعُ بِالسُّلْطَانِ عَنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْآثَامِ مَا لَا يَمْتَنِعُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالتَّهْدِيدِ الشَّدِيدِ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ)). **[أنظر (مختصر تفسير ابن كثير) - الصابوني]**.

والأرض وأن ما من دابة إلا هو عزّ وجل آخذ بناصيتها.. ثم الحياة مع يوم الدِّين الذي الله مالكه والمَلك فيه.. الحياة مع اليوم الآخر؛ أي مشاهدة الجنة ونعيمها وتنعُّم أهلها.. والنار وعذابها وتألُّم أهلها.. وتذكيرهم بسنن الله وأن الله ولي المؤمنين وناصرهم، وأنه سيخزي الكافرين.. وغير ذلك من الحقائق الإيمانية..

وذلك كله هو الذي يزوِّد المؤمنين بالطاقة الروحية ويمدّهم بالعزيمة اللازمة للصبر والثبات على أذى قريش ومحاربتها لله ورسوله، واستضعافها للمؤمنين.. هذا بشكل عام..

وبشكل خاص؛ وفي سياق تهيئة المؤمنين للهجرة؛ إيمانياً كتليف من الله ربّهم ومولاهم (القول الثقيل).. ولإمدادهم بالطاقة الروحية والقناعة الفكرية والرضى النفسي الأمر الذي يوجد العزيمة على القيام بالهجرة؛ التي هي نقلة نوعية للمؤمنين لِمَا فيها من تضحيات كبيرة يقدمها المؤمنون المهاجرون.. "فلم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص فحسب، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب، قد يَهْلَك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهَم، لا يدري ما يتمخّض عنه من قلاقل وأحزان".. والذهاب إلى أرضٍ - يثرب - لم يعهدوا العيش بها، وأناس لم يعايشوهم، وطبيعة معيشتهم وتفاصيل حياتهم تختلف عما اعتادوه في مكة.. لأجل ذلك كله ولأجل التهيئة لهذه النقلة النوعية كانت هناك إشارات لإمكانية الهجرة من أجل الحفاظ على الدين، كهجرة بعض المؤمنين التي حصلت فعلاً إلى الحبشة.. وما جاء في سورة الكهف من هجرة الفتية الذين آمنوا بربهم فراراً بدينهم.. وهجرة إبراهيم عليه السلام عندما أعلن أنه مهاجر إلى ربه وتارك قومه الذين أبوا أن يؤمنوا، فلم يؤمن له إلا لوط عليهما السلام..
والآن سورة المزمل كانت بداية التهيئة للهجرة الكبيرة هجرة النُّصْرة..
ثم نزلت آيات سورة الحج؛ نصفها الأول (المكي).. أثناء الهجرة لحث المؤمنين على التزام أمر الله بالهجرة؛ بأن الله ربهم ومولاهم ولن يضيعهم وأن في الهجرة النصر والتمكين لهم ولدين الله.. **(انظر سورة الحج في "تبيان سور القرآن").**

هذا، وإقامة الصلاة بشكل مكثَّف (تَبْتِيلاً)، كان نفس الأمر الذي كَلّف الله به موسى وهارون عليهما السلام، وأتباعَهما عندما كانت الدعوة إلى الله في نفس هذا الطّوْر وهذا الحال، أي قُبيل نصر المؤمنين وإنزال العذاب على الملأ الذين كفروا، كما في آيات سوَرة يونس:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى الله تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس] [122]

---

122 - (وعقب هذا التميّز، وفي فترة الانتظار بعد الجولة الأولى، وإيمان من آمن بموسى، أوحى الله إليه => وإلى هارون أن يتخذا لبني إسرائيل بيوتاً خاصة بهم، وَهِيَ غَيْرُ دِيَارِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَسْكُنُونَهَا، وذلك لفرزهم وتنظيمهم استعداداً للرحيل من مصر في الوقت المختار، وكلّفهم تطهير بيوتهم، وتزكية نفوسهم، والاستبشار بنصر الله). **[أنظر (في ظلال القرآن - سيد قطب)، (التحرير والتنوير - ابن عاشور)].**

ثم دعا موسى على فرعون بالهلاك، فاستجاب الله عزّ وجل له، فنجّى المؤمنين الذين اتبعوا موسى من بني إسرائيل، وأغرق فرعون وجنوده في اليـــم [123]..

8 - الصفة العامة لحال الملأ من قريش والذين اتبعوهم على كفرهم في هذا الطّوْر، هي البطر والعُجب بما فتح الله عليهم من الدنيا.. والتمتّع بما أمدهم به من أموال وبنين.. بعد أن رفع الله جلّ شأنه القحط والجدب (السنين والدّخَان) عنهم.. وهُم في حقيقة أمرهم - وقد نَسوا ما ذُكّروا به من الحق - واقعون تحت سنّة الله سبحانه وتعالى في: "الإمهال" و"الإنظار" أو "الاستدراج" و "الإملاء"..

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤)﴾ [الأعراف]

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾ [القلم] ،،

"أي، فإني سأقرّبهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم، بأن أسوق لهم النّعم وافتح عليهم الدنيا، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث لا يعلمون أنه استدراج، بل يزعمون أنّ ذلك إيثار لهم وتفضيل عن المؤمنين، مع أنه سبب هلاكهم":

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ [المؤمنون]

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) ﴾ [مريم]

هذه من سنن الله في الجاحدين، وهي أن يفتح الله تعالى عليهم أبواب كل شيء من الدنيا ويمدهم بها، حتى إذا اغترّوا بما آتاهم الله وأخذوا "يتمتّعون" به، أتاهم "العذاب الأكبر" بغتةً في وقته المقدّر، فدمّرهم:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ [الأنعام]

أي، "فلما أصروا على ترك آيات الله تعالى [وهي آيات القرآن البينات، وما فيها من حُجَّة وبرهان، وآية الدُّخَان بسبب الجفاف (السنين)].. معرضين عنها، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق استدراجاً منّا لهم - وقد رفعنا عنهم ما أصابهم من سنين ودُخَان - حتى إذا بطروا، وأُعجبوا بما أعطيناهم من الخير والنعمة أخذناهم بالعذاب فجأة، فإذا هم آيسون منقطعون من كل خير"
كما في قوله سبحانه:

---

123 - نقول: في مثل هذا الموقف العصيب دعا أُولو العزم من رُسُل الله - موسى ونوح.. عليهم السلام - => على الذين كفروا من قومهم بالعذاب، إلا رسولنا محمّد ﷺ دعا لهم بالهداية أو أن يُخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده.. فهو الرحمة المهداة ﷺ وما أرسله ربّنا جلّ جلاله إلا رحمة للعالمين. والحمد لله ربّ العالمين.. اللهم اجْزِه عنا خير ما تجزي نبياً عن أمته، وآته الوسيلة والفضيلة، والمقام المحمود الذي وعدته.. واللهم أحْيِنا على سنته، وتوفنا على ملته، واحشرنا في زمرته، واسقنا بيده الشريفة شربة ماء لا ظمأ بعدها.. اللهم آمين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾ [الأعراف]

هذا هو حال قريش؛ البطر والعُجب بما فتح الله عليهم من الدنيا.. والتمتّع بما أمدهم به من أموال وبنين.. بعد القحط والجدب (السنين والدّخَان).. وهم على الحقيقة، في حالة "استدراج" و "إمهال" و "إملاء".. حتى يحين اليوم الموعود لإنزال "العذاب الأكبر" أو "البطشة الكبرى" بهم بأيدي المؤمنين، يعني في غزوة بدر.. وهُم يظنون أنهم على خير وأن الله **سبحانه وتعالى** يكرمهم بما فتح عليهم من النعم لرضاه عنهم !! [124]..

وآيات سوَرة يونس:[82 -109] تُصوّر هذه الفترة بشكل دقيق، من خلال إيراد القصص والأحداث التي حصلت مع رسل الله السابقين في فترات مشابهة لهذه الفترة..
وكذلك آيات سوَرة النمل:[7- 14]، [45 - 58]، [67 -75]،
وانظر أيضاً آيات سوَرة الحج:[38–51]،
وسوَرة الزمر:[8-20]، [49-61]..

9 - وفي مقابل ما فتح الله به الدنيا على الكافرين وتمتّعهم بها، استدراجاً لهم وإملاءً حتى تأتيهم "البطشة الكبرى".. أبدى بعض المسلمين - الذين لم يدركوا حكمة الله **تعالى** - استياءهم، في البداية.. وذلك من باب القول: إننا على الحق، ونعيش في هذا الضيق والعسر في ديننا ودُنيانا !!.. بينما الكافرون أعداء الله **سبحانه وتعالى** وأعداء رسوله، يتمتّعون ويتنعّمون بزينة الحياة الدنيا وهم في زيادة !!. فنزل الكثير من الآيات تُعالج هذه الحالة في هذا الطّوْر، من جوانب مختلفة: فبيّنت للمؤمنين حكمة الله **سبحانه وتعالى** في هذا الأمر.. وأن الكافرين ليسوا بمعجزين الله، لكنه جعل لعذابهم موعداً.. وأن لا يغتر المؤمنون بما آتى الله المشركين من أموال وبنين.. وتأمرهم الآيات بالصبر، وتذكّرهم بما أنعم الله عليهم من الهدى، وأن العبرة بعواقب الأمور والفوز في الآخرة، وأن الدنيا لا قيمة لها عند الله **تبارك وتعالى**.. فليست هي الغاية، ولا ينبغي أن تكون "غاية الهمّ ومبلغ العلم".. كما في قوله **تعالى**:

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) ﴾ [الزخرف]

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ الله بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)﴾ [النحل]

---

124 - من السوَر التي عالجت هذه الحالة، سورة الفجر: (... فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ => فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ{17} وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{18} وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً{19} وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً{20}..) **الفجر.**
أنظر (سورة الفجر) في الجزء الثاني (تبيان سور القرآن).

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)﴾ [غافر]

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) ﴾ [طه]

أي، ولولا أن الله قد قضى بأن يمهل أعداءك من قومك لأجل مسمى عنده، لَلازمهم [125] الهلاك (البطشة الكبرى) عاجلاً، لأنهم استحقوه.. فاصبر على ما يقولونه في شأنك من سوء أو طلبهم للآيات المادية.. وسر في طريقك دون أن تلتفت إلى إيذائهم واستهزائهم.. ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يشرح صدره، ويجلو همه: أن أكثِر من الاتجاه إلى ربك إيها الرسول الكريم؛ من تسبيحه وتنزيهه ومن المداومة على الصلاة. وأن لا تُطلْ نظر عينيك بقصد الرغبة والميل إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أصنافاً (أَزْواجاً) مِنْهُمْ، وهم الملأ، فما رزقك الله إياه في هذه الدنيا من طيبات، وما ادخره لك في الآخرة من حسنات، خير وأبقى ممّا متّع به هؤلاء الكافرين من متاع سيتبعه العذاب الأليم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ﴾ [الحجر]

- .. الخ

وكما حصل مع أتباع أنبياء الله السابقين، وقد ساقهم الله للمؤمنين عامة، مثلاً وعبرة:

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) .. (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ

---

125 - أنظر رواية ابن مسعود السابقة، والتي تنص على أن "لزاماً" قد مضت وهي عذاب الله لقريش في=> غزوة بدر. كما في قوله تعالى:{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً} [الفرقان77]. أي، قل للكفار: لا يكترث بكم ربي فسوف يعذّبكم ويهلككم بسبب تكذيبكم بالحق، إلا أن تؤمنوا. أي، قل لهم حاثاً لهم على الإيمان: آمنوا بالله قبل أن يُهلككم. كما في قوله تعالى:{فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[يونس98].

تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ الله عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾ [القصص]

10 - وبسبب ما فتح الله عليهم من غنى وقوة، وظنّهم أنهم على خير؛ أن ما فتح الله **سبحانه وتعالى** عليهم من النِّعم، فهو علامة على إكرامه لهم ورضاه عنهم!!.. فليس هناك عذاب قادم.. بسبب ذلك أصابهم الغرور، ولهذا أخذوا يستعجلون - استهزاءً وتكذيباً - العذاب الذي أُنذروا به في الدنيا؛ "الفتح".. وهم لا يعلمون ما نوع العذاب.. كما في سوَر الرعد [6]، النحل [1]، النمل [72]، يونس [11، 50-51]، هود [8-11]، الأنعام [57- 58]، الحج [47 -48]، الأنبياء [37].. وغيرها:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ [السجدة]

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩)﴾ [الشعراء]

فأتاهم الله بالفتح الذي طلبوه، والعذاب الذي استعجلوه.. يوم بدر يوم الفرقان:

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ الله مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾ [الأنفال]

وما كان لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً.. فلم تغنِ عنهم آلهتهم المدعاة شيئاً:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣)﴾ [هود]

11 - وكان أيضاً - بسبب ذلك الظن والغرور - طلب الملأ من قريش لـ "الآيات المادية" (المعجزات) [126].. كما في سوَر الإسراء، وهود، والفرقان، وغيرها.. حيث **بدأ** الملأ الذين

---

126 - لم ترِد لفظة "المعجزة" في القرآن الكريم كوصف له، ولا حتى معناها أو مفهومها كمصطلح الذي وُضع لاحقاً، بل استَخدم القرآن كلمة "آية" و "آيات" أو "سلطان" أو "بيّـنة " و "بيّنات" لما فيها من معنى الحُجَّة والبرهان والدلالة على الحق لمن أراد الهداية، فتكون الحُجَّة له. وأمّا من جادل بالباطل وأنكر الحق=> المبين فستكون الحُجَّة عليه. وهذه المعاني والدلالات لا يمكن أن تعطيها لفظة "المعجزة". فمعناها لغة: عَجُزُ الإنسانِ: مُؤَخَّرُهُ.. والعَجْزُ أصلُهُ التَّأَخُّرُ عن الشيء، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مؤخّره، وصار في التّعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضدّ القدرة. **[انظر (مفردات الراغب)]**. فالمقصود من إنزال القرآن ليس إثبات عجْز الناس عن الإتيان بمثله، بل أن يكون حُجَّة ودليل إلى الحق (الهداية)، فمَن أخذ به اهتدى، فكانت الحُجَّة له ومعه. ومَن تركه ضل، فأصبحت الحُجَّة عليه. "فالإعجاز ليس هو المقصود من كلام =>

استكبروا بطلب "الآيات المادية"، **بعد** أن فتح الله عليهم أبواب كل شيء من الخيرات، وقد نكثوا وعدهم بالإيمان بعد أن رفع الله عنهم البأساء والضراء (العذاب الأدنى) ..

[انظر الآيات (123- 135) من سورة طه في الفقرة 9..]

وبيّن الله تلك السنّة في سوَرة الزخرف:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَاأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ** (٥٠) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) **فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ** (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا **انْتَقَمْنَا** مِنْهُمْ **فَأَغْرَقْنَاهُمْ** أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦) ﴾ [الزخرف]

وهو من "المكر في آيات الله" الذي يمارسه الملأ:

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ **آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ** فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لله فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ **رَحْمَةً** مِنْ بَعْدِ **ضَرَّاءَ** مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾ [يونس]

أي، " أرادوا آية من الآيات المادية (المعجزات) التي كانوا يقترحونها، وكانوا لا يَعْـتَـدّون بما نُـزّل على رسول الله من "الآيات القرآنية" العظام المتكاثرة التي لم يَنْــزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده **آيـة** باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات.. وجعلوا نزولها كـ لا نزول، وكأنه لم يَنْــزل عليه آية قط، حتى قالوا: لولا أُنزل عليه آية واحدة من ربه، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغيّ..

الله بل هو من لوازمه لكونه من عند الله، ألا ترى أنه في كل ما خَلَق الله - دَقَّ أو عظُم - معجزة، وليس الأمر في خلقها بقصد الإعجاز بل لحكمة الله في خلقه". هذا، والآية أو آيات الله، إما قرآنية:{تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} **[البقرة252]**. أو مادية وهي ما تُسمّى بالمعجزات: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً } **[الإسراء59]**. أو كونية:{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } **[فصلت53]**. وجميعها تشترك في كونها علامة ودليل (آية) على الحق المبين الذي أصله وأُسّه حقيقة "لا إله إلا الله" الحقيقة اليقينية الكبرى. كما في حديث رسول الله: (ما من الأنبياءِ من نبيٍّ إلا قد أُعْطِيَ من الآياتِ ما مثلُهُ آمنَ عليه البشرُ. وإنما كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحَى الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهُم تابعًا يومَ القيامة).**[رواه الشيخان عن أبي هريرة، مسلم: رقم 152]**. فكلمة المعجزة ليست لفظة قرآنية ولم يستخدمها القرآن كوصف له لأنها لا تُعبّر عن المراد منه، أي كونه فرقان وهدى ونور فهو "إما حُجَّة لك أو عليك"، كما قال ﷺ **[صحيح مسلم 233]**. ومن هنا يمكننا القول، كقاعدة عامة: إنه ما دام يوجد لفظة قرآنية للتعبير عن معنى أو مفهوم معيّن، فالأصل أن لا نحيد عنها. لأن توظيف القرآن لتلك اللفظة أو الكلمة، وجَعْلها جزءاً من النسيج القرآني المتكامل، يوجِد لها مخزوناً فكرياً وشعورياً، ورصيداً من الطاقة الروحية، الأمر الذي يجعل لتلك الكلمة دوراً مقدّراً ومؤثِّراً في تحقيق الغاية من الرسالة.

{إِنَّمَا الْغَيْبُ لله} أي هو المختص بعلم الغيب المستأثر به، لا علم لي ولا لأحد به.. يعنى أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مُغيّب لا يعلمه إلا هو..

{فَانْتَظِرُوا} نزول ما اقترحتموه {إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} لِمَا يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات"..

{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ}، أي إذا فتحنا عليهم الدنيا بعد ضراء مستهم؛ وهو "العذاب الأدنى".. تحايلوا في صرف دلالة الآيات إلى غير وجهتها الظاهرة..

حيث بيّن الله **سبحانه وتعالى** أن إِقْدَامهُمْ عَلَى طَلَبِ الْآيَاتِ الزَّائِدَةِ وَالِاقْتِرَاحَاتِ الْفَاسِدَةِ، إِنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ وَالْخَيْرَاتِ الْمُتَوَالِيَةِ بعد القحط والبؤس.. فهم إذا أخصبوا بطروا فاحتالوا لدفع آيات الله، ليصرفوها عن دلالتها على الحق، ليضلوا الناس عن سبيل الله.. " فسَمَّى تَكْذِيبَهُمْ بِآيَاتِ الله مَكْرًا، لِأَنَّ الْمَكْرَ عِبَارَةٌ عَنْ صَرْفِ الشَّيْءِ عَنْ وَجْهِهِ الظَّاهِرِ بِطَرِيقِ الْحِيلَةِ (تدبير أمر بخفاء)، وَهَؤُلَاءِ يَحْتَالُونَ لِدَفْعِ آيَاتِ الله الدالّة على أن الله حق، وأن اليوم الآخِر حق، وأن القرآن حق.. بِكُلِّ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ إِلْقَاءِ شُبْهَةٍ أَوْ تَخْلِيطٍ فِي مُنَاظَرَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْفَاسِدَةِ.. وَإِنَّمَا غَرَضُهُمُ الدَّفْعُ وَالْمَنْعُ وَالْمُبَالَغَةُ فِي صَوْنِ مَنَاصِبِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ".. "فقل لهم: إنّ الله **سبحانه وتعالى** دبّـر عقابكم وهو مُوقِعه بكم قبل أن تُدبّـروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام..

{ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} إعلام بأنّ ما تظنونه خافيا مطوياً، لا يخفى على الله وهو منتقم منكم" [127].

هذا، ومن سنّة الله **سبحانه وتعالى** في "الآيات المادية" أنه إذا أنزلها الله وكذّب بها القوم الذين طلبوها، أنـزل الله **عزّ وجل** بهم "العذاب الأكبر" مباشرة ودون إمهال، ليدمّرهم ويستأصل شأفتهم، ذلك أنهم برؤيتهم للآيات المادية الدالّة على صدق رسول الله، رأي العين.. وقد عاينوا من قبل "العذاب الأدنى".. قد أُقيمت عليهم "الحُجَّة الرسالية" **كاملةً**، فلا عُذر لهم بتكذيبهم بعد ذلك.

لهذا كان من سنّة الله **سبحانه وتعالى** في هذه الأمّة الخاتمة، أن لا يُنـزل "آية مادية" اقترحها المشركون، بل أن يُمهلهم حتى حين.. كما في الرواية الصحيحة عن ابن عباس **رضي الله عنهما** قال: (سأل أهلُ مكة النبيَّ ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن يُنحّي الجبال عنهم فَيَزْدَرِعوا. فقيل له: إن شئت أن **تستأني** بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلكوا كما أَهْلكتُ مَنْ قبلهم. قال: (لا بل أستأني بهم) فأنزل الله **عزّ وجل** هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾ [الإسراء]) [128].

---

127 - انظر (الكشّاف - الزمخشري). و(الوجيز - الواحدي). و (التفسير الكبير - الرازي)، وقد فصّل القول في بيان هذه السنّة، يرجى العودة إليه.

128 - (أحمد شاكر/ مسند أحمد - 4/96). **[أنظر (صحيح أسباب النزول - إبراهيم العلي)]**. نقول: لذلك لم يُحْدِث الله تعالى أي آية مادية على يد رسول الله الخاتم استجابة لطلب المشركين حتى القرآن الكريم، وإن كان فيه تحدٍ لهم إلا أنه كان من باب الدليل على أنه من الله تعالى وأنه آية على صدق الرسول، وليس استجابة لطلب المشركين.. مثل عصا موسى، وإحياء الموتى على يد عيسى، عليهما السلام. وأمّا ما ثبت حصوله من آيات مادية مع رسول الله كالإسراء، ونبع الماء من بين أصابعه، والبركة في الطعام.. كان من باب التكريم لرسول الله وتأييده وتثبيت المؤمنين. وفي هذا السياق يمكن أن يبرز إشكال في فهم آية "انشقاق=> القمر"

وفي هذا السياق يأتي قوله **تعالى**:

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم: 84]

(الْمُرَادَ هُنَا اسْتِعْجَالُ الِاسْتِئْصَالِ وَالْإِهْلَاكِ، وَهُوَ مُقَدَّرٌ كَوْنُهُ عَلَى يَدِ النَّبِيِّ ﷺ، أَيِ انْتَظِرْ يَوْمَهُمُ الْمَوْعُودَ، وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ. وَلِذَلِكَ عُقِّبَ بِقَوْلِهِ: {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}، أَيْ نُنْظِرُهُمْ وَنُؤَجِّلُهُمْ، وَلَسْنَا بِنَاسِينَ لَهُمْ كَمَا يَظُنُّونَ. وَقَدِ اسْتُعْمِلَ الْعَدُّ مَجَازًا فِي قِصَرِ الْمُدَّةِ، لِأَنَّ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ يُعَدُّ وَيُحْسَبُ. وَفِي هَذَا إِنْذَارٌ باقتراب استئصالهم). **(التحرير والتنوير - ابن عاشور).**

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

.. إلخ.

12 - أمَا وقد بقي الملأُ من قريش وأتباعهم **مُصرّين** على موقفهم من الحق؛ الكفر به ورفضه.. فلم يبق أمامهم - حسب سنن الله - إلا خَيَار التصعيد لمواقفهم، حتى أصبح **"الجحود"** موقفاً ثابتاً ونهائياً لهم من رسالة الله **تعالى** ورسوله، وهو الكفر والتكذيب برغم يقينهم أنه الحق.. أمَا وقد أقيمت عليهم "الحُجَّة الرسالية" **كاملة**.. فقد دخلوا في سنة الله في الأمم المستكبرة على الحق:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ [النمل: 14]

﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام٣٣ -٣٤]

فقد استحقوا العذاب، وهو آتيهم.. ولكن، في موعده الذي جعله الله **عز وجل** له:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩)﴾ [طه] ..

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا **وَإِنْ** تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى **فَلَنْ** يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)﴾ [الكهف]

وقد أكّد الله **تعالى** ذلك الوصف لموقف قريش؛ بأنهم لن يؤمنوا، وأنهم استحقوا العذاب العظيم نتيجة لموقفهم ذاك من رسالة الله **سبحانه وتعالى** .. في سورة يس:

على يد رسول الله **عليه وآله الصلاة والسلام**، بسبب أن بعض الروايات تُشير إلى أنها كانت استجابة لطلب المشركين. وهناك بعض الروايات - عن ابن مسعود - ليس فيها إشارة إلى ذلك. **أنظر (سورة القمر) في الجزء الثاني: (تبيان سور القرآن).**

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)﴾ [يس]

وفي أوائل سوَرة البقرة في سياق بيان أصناف الناس: متقين، كافرين، منافقين، أهل كتاب، في المدينة المنورة بعد الهجرة وبداية تكوّن الأمة المسلمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة] [129]

وفي سورة يونس:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧ ﴾ يونس: ٩٦ - ٩٧

تعريض بمشركي قريش؛ أنهم من "الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الله أَنْ لا يُؤْمِنُوا، فَهم لا تُجْدِي فِيهِمُ الحُجَّة لِأَنَّهم أهْلُ مُكابَرَةٍ، ولَيْسُوا طالِبِينَ لِلْحَقِّ؛ فنفوسهم غَيْرُ قابِلَةٍ لِحَقائِقِ الإيمانِ، فالَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِما جاء مِنَ الآياتِ - التنزيليّة والتكوينيّة - هم مِمَّنْ عَلِمَ الله أَنَّهم لا يُؤْمِنُونَ، تِلْكَ أماراتُهم. وهَذا مَسُوقٌ مَساقَ التَّأْيِيسِ مِن إيمانِهِمْ".

وقد وردت الإشارة إلى هذا الوصف لمواقف الأمم السابقة من رسل الله - تعريضاً بقريش - في كثير من السوَر، من أنه لن يؤمن إلا من قد آمن، وأنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (العذاب الأكبر).. وقد أقيمت عليهم "الحُجَّة الرسالية" كاملة، حيث شهدوا صدق الآيات البينات، وعاينوا "الأخذ بالبأساء والضرّاء" أو "العذاب الأدنى".. ورغم ذلك كله لم يؤمنوا.

13 - أمَا وقد بقي أهلُ الحق **ثابتين** عليه **مستقيمين** على أمر الله، رافضين المداهنة و التنازل عن إيمانهم (الحلول الوسط في قضية الصراع: لِمَن الطاعة؟ (تعيين المرجعية)).. وأهل الباطل كذلك مصرّين على المعاندة (الجحود)؛ كما ذكرنا في النقطة السابقة.. فمن سنة الله في هذه الحال؛ أن يُصبح الناس فُسطاطَيْن متمايزين، وفريقين متخاصمين **في ربهما**.. الذين آمنوا، والذين كفروا.. وهي النتيجة الطبيعية - حسب **سنن الله** في حمْل "دعوة الله" في المجتمعات - في حال أصرّ كل فريق على موقفه وثَبَت عليه.. كما في سوَرة النمل، يقول تعالى في بيان حال ثمود حين أصبحوا فريقين متخاصمين في ربهم، وأخذ فريق الكافرين وملئهم في استعجال العذاب:

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ **فَرِيقَانِ** يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٥ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ **تَسۡتَعۡجِلُونَ** بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٤٦ ﴾ النمل

129 - استشكل بعض أهل التفسير هذه الآية: مَن المقصود بـ "الذين كفروا". ويزول الإشكال إذا نظرنا إلى=> الآيات في السياق السُنني للسير بالرسالة - كما ذكرنا - من حيث تصاعد مواقف "الذين كفروا"؛ ويمثّلهم هنا الملأ من قريش ومَن تبعهم وقد استحقوا "العذاب الأكبر"، لإصرارهم على الكفر. وهذه إشارة إلى أن هذه الآيات نزلت قبل نزول العذاب أي قبل غزوة بدر.

وفي سورة الأعراف، حيث يقول شعيب عليه السلام لقومه والملأ - في فترة انتظار أن يفصل الله بين الفريقين - وقبل أن يقرروا إخراجه من القرية :

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ الأعراف: ٨٧ - ٨٨

وفي سوَرة الأنعام [74-83]، يبين الله تعالى موقف إبراهيم الخليل عليه السلام عندما حاجَّه قومُه في الله.. حيث أعلن إلى قومه مجاهراً لهم بإيمانه بالله وكفره بآلِهتهم، بعد ما شاهد آيات الله في الآفاق.. فأصبح أمة وحده:

﴿ .. وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ .. ﴾ الأنعام

وفي سوَرة الحج، يقول تعالى إشارة إلى حال رسول الله والمؤمنين مع قريش:

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ... إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ .. ﴿٢٣﴾ .. ﴾ الحج: ١٩ - ٢٤

أي (ولما بيَّن الله سبحانه وتعالى - في الآيات السابقة - مَنْ يسجد له طاعة ومَنْ يمتنع، عقّب ذلك بمصير كل منهما فقال: هذان فريقان متخاصمان في ربهم: فريق الإيمان، وفريق الكفر.. أي جميع الكفار من أيّ أصناف الكفر كانوا، وجميع المؤمنين.. ويدخل المخاطبين زمن رسول الله، دخولاً أولياً).

[انظر تفسير الطبري، السعدي، المختصر]

وفي سوَرة مريم، يذكر الله تعالى الفترة التي انقسم فيه المجتمع في مكة إلى فريقين:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾ مريم: ٧٣

وفي سوَرة الحج:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾ الحج

وانظر أيضاً.. سورة هود؛ من بداية السورة إلى الآية 24.. في جولة طويلة مع قريش من الحوار وكشف شبهاتهم وإقامة الحجة عليهم.. وبيان حالهم في عنادهم وإصرارهم على الكفر وقد تحزبوا

ضد المؤمنين .. واستبطأوا نزول "العذاب الأكبر" وقد استعجلوا نزوله.. فقال الله لهم - مُعْرِضاً عنهم - أن العذاب سينزل بهم لكن في وقته المقدَّر؛ وهو غزوة بدر.. كما قال تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾.. ﴾ هود: ٨

إلى أن يقول الله تعالى:

﴿... مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ هود

(ولَمّا اسْتَوْفى أوْصافَ الحِزْبَيْنِ وجَزاءَهُمْ، ضَرَبَ لِلْكُلِّ مَثَلًا بِقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ﴾ أيِ الكافِرِينَ والمُؤْمِنِينَ: ﴿كالأعْمى﴾ أيِ العامِّ العَمى في بَصَرِهِ وبَصِيرَتِهِ ﴿والأصَمِّ﴾ في سَمْعِهِ كَذَلِكَ؛ فهذا للكافِرِين..
﴿والبَصِيرِ﴾ بِعَيْنِهِ وقَلْبِهِ ﴿والسَّمِيعِ﴾ عَلى أتَمِّ أحْوالِهِما، وهَذا لِلْمُؤْمِنِينَ..
﴿هَلْ يَسْتَوِيانِ﴾ أيِ الفَرِيقانِ ﴿مَثَلًا﴾ أيْ: مِن جِهَةِ المَثَلِ. ولَمّا كانَ الجَوابُ قَطْعًا لِمَن لَهُ أدْنى تَأمُّلٍ: لا يَسْتَوِيانِ مَثَلًا فَلا يَسْتَوِيانِ مَمْثُولًا، حَسُنَ تَسَبُّبُ الإنْكارِ عَنْهُ في قَوْلِهِ: ﴿أفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أيْ: يَحْصُلُ لَكم أدْنى تَذَكُّرٍ بِما أشارَ إلَيْهِ فَتَعْلَمُوا صِدْقَ ما وُصِفُوا بِهِ بِما تَرَوْنَهُ مِن أحْوالِهِمْ..) **[نظم الدرر - البقاعي، باختصار]**

وفي سورة يس [47].. وسورة الشعراء الآيات [199-209] تتكلم عن هذه الفترة..

هذا، وأن يصبح الناس فُسطاطَيْن (فريقين) متمايزين، كانت نتيجة مباشرة لأمر الله **تعالى** لرسوله **بالصدع** بالحق أي الجهر به وأن يتميّزوا به، الأمر الذي يؤدي إلى تصدّع صف المجتمع؛ أي شقه.. فيصبح الناس فريقين متخاصمين في ربّهما (لمن الطاعة؟، ما هي المرجعية؟) :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الحجر: ٩٤ - ٩٦

"جُمْلَةُ {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بالصدع والمضيّ.. "فمتى شُقَّ الحائل تهيَّأ المضيُّ".. واسْتُعْمِلَ "الصَّدْعُ" فِي لَازِمِ الِانْشِقَاقِ وهو التفريق.. "أَيْ فاصدع بِالَّذِي تُؤْمَرُ بِهِ، أَيْ بَلِّغْ رِسَالَةَ الله جَمِيعَ الْخَلْقِ لِتَقُومَ الْحُجَّة عَلَيْهِمْ، فَقَدْ أَمَرَكَ الله بِذَلِكَ. وَالصَّدْعُ: الشَّقُّ. وَتَصَدَّعَ الْقَوْمُ أَيْ تَفَرَّقُوا، وَمِنْهُ: {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} أَيْ يَتَفَرَّقُونَ. وَصَدَعْتُهُ فَانْصَدَعَ أَيِ انْشَقَّ. أَصْلُ الصَّدْعِ الْفَرْقُ وَالشَّقُّ.. وَقِيلَ: "فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ" أَيْ فَرِّقْ جَمْعَهُمْ وَكَلِمَتَهُمْ بِأَنْ تَدْعُوَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ فَإِنَّهُمْ يَتَفَرَّقُونَ بِأَنْ يُجِيبَ الْبَعْضُ، فَيَرْجِعُ الصَّدْعُ عَلَى هَذَا إِلَى صدع جماعة الكفار... وقال ابْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا تَمَادَوْا فِي الشَّرِّ وَأَكْثَرُوا بِرَسُولِ الله ﷺ الِاسْتِهْزَاءَ أَنْزَلَ الله: (فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ الله إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ). وَالْمَعْنَى: اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ وَلَا تَخَفْ غَيْرَ الله، فَإِنَّ الله كَافِيكَ مَنْ أَذَاكَ كَمَا كَفَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ، وَكَانُوا خَمْسَةً مِنْ رُؤَسَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ" **[انظر تفسير القرطبي، وابن عاشور، وغيرهما]**

وأداة الصدع؛ الشق والتفريق هي آيات القرآن الكريم بما فيها من الحق الذي أمر الله **تعالى** به رسوله الكريم ﷺ بأن يبلّغه ويبيّنه للناس من غَيْرِ خَفاءٍ ولا مُوارَبَةٍ؛ (وجاهدهم به جهاداً كبيراً).. مع إظهار المواقف والأعمال المترتّبة على ذلك..
مثل صلاة رسول الله قرب الكعبة وطوافه بها أمام قريش وملئها متحدياً لهم.. كما في سورة العلق:

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ... ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا

لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ۩ ۝١٩ ﴾ العلق

وكما في الرواية الصحيحة عن عبدالله بن عمرو:

(قُلْتُ له: ما أكثرُ ما رأَيْتَ قُرَيشًا أصابَتْ مِن رسولِ اللهِ، فيما كانتْ تُظهِرُ مِن عداوتِه؟ قال: حضَرْتُهم وقد اجتمَعَ أشرافُهم يومًا في الحِجرِ، فذكَروا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: ما رأَيْنا مِثلَ ما صبَرْنا عليه مِن هذا الرَّجُلِ قَطُّ، سفَّهَ أحلامَنا، وشتَمَ آباءَنا، وعاب دينَنا، **وفرَّقَ جماعتَنا**، وسبَّ آلهتَنا، لقد صبَرْنا منه على أمْرٍ عظيمٍ، أو كما قالوا: قال: فبينما هم كذلك، إذ طلَعَ عليهم رسولُ اللهِ ﷺ، فأقبَلَ يمشي، حتى استلَمَ الرُّكنَ، ثُمَّ مَرَّ بهم طائفًا بالبَيتِ، فلمَّا أنْ مَرَّ بهم غمَزوه ببعضِ ما يقولُ، قال: فعرَفْتُ ذلك في وَجهِه، ثُمَّ مَضى، فلمَّا مَرَّ بهم الثَّانيةَ، غمَزوه بِمِثلِها، فعرَفْتُ ذلك في وَجهِه، ثُمَّ مَضى، ثُمَّ مَرَّ بهم الثَّالثةَ، فغمَزوه بمِثلِها، فقال: (**تسمَعون يا مَعشرَ قُرَيشٍ، أما والذي نفْسُ محمَّدٍ بيدِه، لقد جِئْتُكم بالذَّبحِ**)، فأخَذَتِ القَومَ كلمتُه، حتى ما منهم رَجُلٌ إلَّا كأنَّما على رأسِه طائرٌ واقعٌ، حتى إنَّ أشدَّهم فيه وَصاةً قبلَ ذلك لَيَرفَؤه بأحسنِ ما يجِدُ مِن القَولِ، حتى إنَّه لَيقولُ: انصرِفْ يا أبا القاسمِ، انصرِفْ راشدًا، فوالله ما كنتَ جهولًا، قال: فانصرَفَ رسولُ الله ﷺ، حتى إذا كان الغدُ، اجتمَعوا في الحِجرِ وأنا معهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: ذكَرتُم ما بلَغَ منكم وما بلَغَكم عنه، حتى إذا بادَأَكم بما تكرَهون ترَكْتُموه، فبينما هم في ذلك، إذ طلَعَ عليهم رسولُ الله ﷺ، فوَثَبوا إليه وَثبةَ رَجُلٍ واحدٍ، فأَحاطوا به، يقولونَ له: أنتَ الذي تقولُ كذا وكذا؟ لِما كان يَبْلُغُهم عنه مِن عَيبِ آلهتِهم ودينِهم، قال: فيقولُ رسولُ الله ﷺ: (**نعمْ، أنا الذي أقولُ ذلك**)، قال: فلقد رأَيْتُ رَجُلًا منهم أخَذَ بمَجمعِ رِدائِه، قال: وقام أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ **رَضِيَ** الله **تعالى عنه** دونه، يقولُ وهو يَبكي: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ} **[غافر: 28]** ؟! ثُمَّ انصرَفوا عنه؛ فإنَّ ذلك لَأشَدُّ ما رَأَيتُ قُرَيشًا بلَغَتْ منه قَطُّ). **[أخرجه البخاري (3678) بنحوه، والنسائي في (السنن الكبرى) (11462) مختصراً، وأحمد (7036) واللفظ له. انظر صحيح السيرة - إبراهيم العلي].**

ولاحِظ موقف أبي بكر الصدّيق **رضي** الله **عنه** كيف كان مدافعاً عن رسول الله ﷺ من إيذاء قريش.. قائلاً لهم قولة ذلك الرجل المؤمن في سورة غافر (المؤمن): {أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ ..(٢٨)} **غافر (المؤمن)**،، فتركوا رسول الله وضربوا أبا بكر وآذوه إيذاء شديداً.. وهو أو رسول الله ﷺ لم يردّا على أذى المشركين بالقوة.. بل التزما بما أمر الله **جلّ وعلا** به من الإعراض عنهم والصبر على أذاهم.. كما في الرواية السابقة.. [130]

130 - (أخرج البزار من رواية محمد بن علي بن أبي طالب عن أبيه أنه خطب فقال: مَن أشجع الناس؟ فقالوا أنت، قال: أمَا إني ما بارزني أحدٌ إلا أنصفت منه، ولكنه أبو بكر، لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش فهذا يجؤه وهذا يتلقاه ويقولون له: أنت تجعل الآلهة إلهاً واحداً، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويدفع هذا، ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم بكى عليٌ ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر ؟ فسكت القوم، فقال علي: والله لساعة من أبي بكر خير منه، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا يُعلن إيمانه). وكانت هذه الحادثة قبل نوم علي **رضي الله عنه** على فراش النبي ﷺ حين أراد المشركون قتله ففداه بنفسه؛ لأن هذه إنما حدثت عند الهجرة وتلك كانت قبلها). **[موقع: إسلام ويب].**

وكذلك أمر الله للرسول ﷺ:

﴿.. قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ الأعراف

وهذا من نوع التحدي السافر للمشركين العابدين للأوثان، يقول تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ" أي: لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله مملوكون.. قُلِ أيها الرسول لهؤلاء المشركين: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بي، من غير إمهال ولا إنظار فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي.. إن نصيري ومُعيني الله الذي يحفظني، فلا أرجو غيره، ولا أخاف شيئًا من أصنامكم، فهو الذي نزَّل عليَّ القرآن هدى للناس، وهو الذي يتولى الصالحين من عباده، فيحفظهم وينصرهم). [تفسير السعدي، المختصر]

وكما هي سنة الله مع الرسل في هذا الطور - وفي هذه الحالة - من السير بالرسالة (الفصل، الفتح)؛ قُبيل نصر الله لرسله والمؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين:

فهذا نوح عليه السلام:

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾ يونس: ٧١ - ٧٣

"والمعنى: ولا تألوا في الجمع والقوَّة فإنَّكم لا تقدرون على مساءتي لأنَّ لي إلهاً يمنعني، وفي هذا تقويةٌ لقلب محمد ﷺ لأنَّ سبيله مع قومه كسبيل الأنبياء من قبله".

وهذا هود عليه السلام:

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ هود: ٥٤ - ٥٨

وَكَقَوْلِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧

ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ الشعراء

وفي هذا السياق يأتي موقف الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يخفي إيمانه، حيث صدع بالحق مدافعاً عن موسى عليه السلام (سورة غافر)..

وكذلك الرجل الصالح الذي جاء من أقصى المدينة صادعاً بالحق مدافعاً عن رسل الله الثلاثة بعد أن كذّبهم أهل القرية (سورة يس)..

وبهذا التحدي الصارخ والمباشر.. يَحدُث **الصدْع والفصل** في المجتمع، فيصبح الناس فريقين.. وقد جعَل الله تعالى فريق المؤمنين (الذين استجابوا لدعوة الله) **حُجَّة** على فريق المكذِّبين (المجتمع ومَلَئِه)، فلا عذر لقريش ومَلَئِها أمام الله تعالى، فإن لم يؤمنوا ويتّبعوا الرسول ويلحقوا بمَن سبقهم من المؤمنين، نزل بهم العذاب الشديد في الدنيا قبل الآخرة:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ **يُحَآجُّونَ** فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا **ٱسۡتُجِيبَ** لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ **دَاحِضَةٌ** عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾ الشورى: ١٥ - ١٦

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِى تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ **فَرِيقٞ** مِّنۡ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِى وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ المؤمنون: ١٠١ - ١١١

ومن هنا، فإن موقف المؤمنين "الصدع بالحق" والتمايز التام عن المجتمع الجاهلي - في هذا الطور - هو الركن الثالث؛ المتمم لإكمال "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع وملئه.. بعد الحُجَّة والبرهان و"العذاب الأدنى".. وبالتالي استحقاق وعد الله بـ "الفتح" بين الفريقين؛ نصر وتمكين المؤمنين وخزي المكذّبين..

14 - في كثير من الآيات شبّه الله قريشاً بأعتى الأمم السابقة وأشدها حرباً على الله وتكبُّراً على أمره عزّوجل؛ فرعون وعاد وثمود.. وذلك من حيث استكبارهم وعلوّهم، ثم استحقاقهم العذاب مثلهم، وقد ساروا جميعاً على سنّة واحدة في عداوة رسل الله.. وقد وصفهم الله بـ "الأحزاب"..

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٍ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾

ص: ١١ - ١٤

"هؤلاء الجند المكذِّبون جند مهزومون، كما هُزم غيرهم من الأحزاب قبلهم، كذَّبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون صاحب القوة العظيمة، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأشجار والبساتين وهم قوم شعيب. أولئك الأمم الذين تَحزَّبوا على الكفر والتكذيب واجتمعوا عليه. إنْ كلٌّ مِن هؤلاء إلا كذَّب الرسل، فاستحقوا عذاب الله، وحلَّ بهم عقابه." **(الميسَّر)**

وَرد ذلك التشبيه لقريش في سوَر: يونس والشعراء والقمر والمزمّل والبروج والفجر.. وغيرها، وذلك قبل نزول العذاب بهم (البطشة الكبرى يوم بدر)..

وكذلك، في سوَرتي الأنفال وآل عمران، بعد نزول العذاب بهم.

ومن جهة أخرى، فقد وردت في بعض السور المتعلّقة بهذا الطّوْر، أسماء وأوصاف وُسِمت بها قيادة المجتمع (الملأ) التي جعلت التكذيب موقفاً نهائياً لها، وتتولّى كِبَر الصدّ عن سبيل الله، وتُعادي حَمَلَة رسالات الله، في كل زمان ومكان.. منها: كُبَراء، مُترَفون، جاحدون، الذين استكبروا، أئمة الكفر، مجرمون، طاغون، مفسدون، مُسرِفون..:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾ [الذاريات]

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١)﴾ [القمر]

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)﴾ [الأنعام]

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء]

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ سبأ: ٣٤

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) ﴾ [الزخرف]

.. الخ

وأَطلَق القرآنُ الكريم وسم "أبو لهب" على "عبد العزى" عَم رسول الله.. وأطلق رسول الله ﷺ على عمرو ابن هشام وسم "أبو جهل" بدل أبو الحكم.. ووصفه بـ "فرعون هذه الأمّة"، كما في

بعض روايات السيرة.. وقد شبّه رسول الله "أشقى القوم" الذي عقر ناقة صالح، بواحد من قادة قريش هو: أبو زَمعة الأسود، وكان أحد "المستهزئين" الذين قتلهم اللهُ وكفى رسولَه شرّهم (131).

15- كما هي سنة الله في الأمم المستكبرة عن قبول الحق والجاحدة به؛ وقد علموا أنه الحق من الله.. وفي إطار تصعيد موقفهم، أخذ الملأ من قريش في التفكير والتخطيط (المكر) إلى توجيه ضربة قاصمة للرسالة وإنهائها - في ما يظنون - وذلك بالقضاء على صاحبها وحامل لوائها؛ رسول الله ﷺ:

﴿وَإِذْ **يَمْكُرُ** بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال] (132)

إمّا السجن أو القتل أو النفي من الأرض (الإخراج)..

ولسان حال قريش ومقالها هو: " إما أن **تخرجوا** من قريتنا (مجتمعنا) أو **تعودوا** في ملتنا وديننا، **وتتبعوا** سادتنا وقيادتنا":

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ [الإسراء]

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾ [محمد]

وهذه هي النهاية الطبيعية - حسب سنن الله **سبحانه** - للعلاقة بين الفريقين المتخاصمَين في ربهما، وذلك في **حال** (بشرط) **ثبات** أهل الحق على الحق، **وإصرار** الفريق الآخر - الملأ وأئمة الكفر في القرية - على معاندة الحق واتباع الباطل:

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ.. (٤٠)﴾ [الحج]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ **ذَلِكَ** لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) ﴾ [إبراهيم]

---

131 - (خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: ({إذ انبعث أشقاها} انبعث لها رجل=> عارم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زَمعة) **[أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما]**. قَوْلُهُ عَزِيزٌ أَيْ قَلِيلُ الْمِثْلِ. وعَارِمٌ أَيْ صَعْبٌ عَلَى مَنْ يَرُومُهُ كَثِيرُ الشَّرِّ. ومَنِيعٌ أَيْ قَوِيٌّ ذُو مَنَعَةٍ أَيْ رَهْطٍ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الضَّيْمِ. وأبو زمعة هو الْأَسْوَدُ وكان أَحَدُ الْمُسْتَهْزِئِينَ، وَمَاتَ عَلَى كُفْرِهِ بِمَكَّةَ، وَقُتِلَ ابْنُهُ زَمْعَةُ يَوْمَ بدر كَافِرًا أَيْضاً. **[أنظر فتح الباري لابن حجر]**.

132 - كما هي مواقف الأمم السابقة من أنبيائها في هذا الطور من السير بالرسالات: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ => أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ{45} قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{46} قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ [العذاب الأدنى] {47} وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ{48} قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ [أي نقتله وأهله ليلاً] ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {49} وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{50} فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ{51} فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{52} وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ{53}) النمل.

16 - الابتلاء، من سنن الله **تعالى** العامة على طول طريق التمكين لدين الله **جلّ وعلا** والنصر لأوليائه - في هذا الطّوْر وفي غيره - ليمحّص الله **تعالى** قلوب الذين آمنوا، حتى يميز الخبيث عن الطيّب؛ لأن نصر الله **تعالى** لا ينزل إلا على المستحقّين له حسب سنن الله الشرعية والكونية [133].

عن سعد بن أبي وقاص، (سألتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً فقال: (الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ فيُبتلى الرجلُ على حسَبِ دينِه فإنْ كان رقيقَ الدِّينِ ابتُليَ على حسَبِ ذاك وإنْ كان صلبَ الدينِ ابتُلي على حسَبِ ذاك). قال: (فما تزال البلايا بالرجلِ حتى يمشيَ في الأرضِ وما عليه خطيئةٌ).
[أحمد شاكر (ت ١٣٧٧)، مسند أحمد ٥٢/٣ - إسناده صحيح]

والإطار العام الذي يُفهم فيه "الابتلاء" بالنسبة للمؤمن، هو: التمحيص بقصد الكشف والبيان (للمؤمن نفسه ولغيره) لاستحقاق العبد - شرعاً وقدراً - للمنزلة التي سيجعله الله فيها؛ في الدنيا (النصر والهزيمة، العز والذل..) والآخرة (دَرَجَته في الجنة أو دَرَكَته في النار). وضمن المحددات التالية:

- أن وظيفة المؤمن - فرداً وأمة - هي؛ عبادة الله وحده وحمْل رسالته للناس (إخلاص الدين لله)..
- وأنه على ثغرة من ثُغَر الإسلام فلا يؤتينَّ من قِبَله..
- أن العبرة بالحياة الآخرة وليس بالدنيا، لأن الحياة الدنيا ممر إلى الحياة الآخرة وهي المقرّ..
- أن الله سبحانه أرحم بالعبد من أمه وأبيه وأقرب الناس إليه..
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ **[النساء ٤٠]**
- أن الله سبحانه رحمته سبقت عذابه.. فلا يعاجل بالعقوبة، ويعفو عن كثير..
- ﴿.. وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ **[الأعراف ١٦٨]**.. البلايا منبهات من الغفلة، وتعليم من الأخطاء.. "فالمؤمن كَيّس فطِن".. "ولا يُلْدغ مؤمن من جُحْر مرتين"..
- أنه، رُبَّ درهم سبق مئة درهم، وأن حسنات الأبرار سيئات المقربين..

انظر - مثلاً - آيات الله في القرآن الكريم التي يُبيّنن الله **تعالى** فيها تَجَلّيه بأسمائه الحسنى على المؤمنين (حكمته ورحمته وعلمه ونصره وإظهاره للحق وإبطاله للباطل..) في ما حصل معهم في الأحوال والمواقف المختلفة..

فمن أجل بيان المستحقين من غيرهم، أو من أجل تهيئة المؤمنين - جماعة وأمة - وإعدادهم ليكونوا من المستحقين.. كان لا بد من الابتلاء والاختبار والفتنة [134]، في المراحل والأطوار المختلفة من السير بالرسالة، وخاصّة عند الترقي إلى طور جديد، أو الانتقال إلى مرحلة جديدة (نقلة نوعية):

---

133 - للتوسّع في هذه النقطة انظر مثلاً (عوامل النصر والتمكين في دعوات المرسلين) - أحمد حمدان الشهري. وأيضا مبحث (النصر والتمكين والاستخلاف) - من مباحث (مصطلحات رسالية).

134 - الأصل في الكلمات القرآنية عدم الترادف، وهذه الكلمات ليست مترادفة في استعمال القرآن الكريم لها بل هنالك فروق دقيقة بينها: **[انظر ملحق (الترادف في القرآن) في نهاية كتاب (الإيمان بالقدر)، على الرابط التالي:**
https://drive.google.com/drive/folders/1tpCO7iftgxkUMTCm8xQrvIyfViCzNrOc?usp=sharing <=

✓ كما ضرب الله تعالى مثلاً للمؤمنين، في قصة طالوت وجالوت في سوَرة البقرة.. حيث مرّ المؤمنون - حينئذٍ - بعدة اختبارات، حتى لم يبق منهم إلا الخُلّص الذين استحقوا نصر الله:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ ... فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ... ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى ... فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ... ﴿٢٥١﴾ ﴾ البقرة

✓ كما حصل للمؤمنين في غزوة أحد؛ ما قبلها وأثنائها وما بعدها.. حيث كان المجتمع في المدينة أخلاطاً من الناس في بداية نشأة الأمّة المسلمة، فبالإضافة إلى المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار، كان هناك المنافقين، واليهود، ومَن بقي على الشرك..

[أنظر (صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي): فصل: (عبد الله بن أبيّ وإيذاؤه للنبي ﷺ)].

ومن جهة أخرى لم يكن المؤمنون على سَويّة واحدة من الإيمان والتقوى، بل كان منهم مَن يريد الدنيا ومنهم مِن يريد الآخرة:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ

فالاختبار: من الخُبر، بمعنى الاطّلاع النافذ، وأخذه.
الابتلاء: من البلو، بمعنى إيجاد التحوّل والتقلّب، والأخذ به.
الامتحان: من المحن، وهو دأبٌ وجدٌ في العمل حتى يتحصّل الخُبر والنتيجة.
الفتن: إيجاد اختلال واضطراب.
فلا يصح استعمال واحد منها في مورد الآخر، إلا بالتجوز. وقد اختلط كل واحد من هذه المعاني في مقام الاستعمال والتفسير في كلماتهم.. أما إذا لوحظت الحيثيات والقيود فلا اشكال.
فيقال: اختبرت الذهب، وابتليته، وامتحنته، وافتتنه.
فاختبر: بلحاظ مجرّد تحصّل الخُبر فيه.
ابتلى: بتحصّل التحوّل والتقلّب فيه.
امتحن: بالنظر إلى دأب وجَدّ حتى يتحصّل الخبر.
افتتن: بالنظر إلى حصول اختلال واضطراب فيه. **[أنظر (التحقيق في كلمات القرآن - حسن المصطفوي)].**

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ آل عمران (135)

ثم بيّن الله **تعالى** أنه ليس من سنته في عباده المؤمنين أن يذرهم على مثل الحال التي كانوا عليها حين غزوة أحد من اختلاطٍ وعدم تميُّز، بل إن سنته أن يميز المؤمن من المنافق، ويفصل بينهما:

﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ **يَمِيزَ** الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ آل عمران: ١٧٩

ووسيلة تحقيق ذلك الفصل والتمايُز ليس **بالإخبار** عنهم وإنما **بالاختِبار** والابتلاء لكشف حقيقة حالهم.. فليس من سنة الله بأن يُطْلِع المؤمنين على الغيب الذي يَعْلمه من عباده، وإنما جرت سنة الله **تعالى** بأن يميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد في سبيل الله، كما حدث في غزوة أحد - وسائر الغزوات والمعارك - فالشدائد هي محك صدق الإيمان، فهي التي تميز قويّ الإيمان من ضعيفه، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين.. وكذلك الرخاء والنصر والتمكين.. فيها اختبار لصدق الإيمان وعند الافتتان بالنعمة:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الأنبياء: ٣٥

✓ حادثة الإسراء قُبَيل الهجرة والتمكين في المدينة، لها أوجه من الحكمة عديدة.. منها، أنها تُعتبر من باب الفتنة والتمحيص قبل التمكين لإعداد المؤمنين وترقيتهم لمرحلة النصر التمكين في الأرض، وتنقيتهم مما بقي عالقاً في نفوسهم من الشوائب - شهوات وشبهات - التي تعكّر صفو الإيمان.. كما في قوله **تعالى**:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ الإسراء: ٦٠

حيث ورد في بعض الروايات أنه بعد انتشار الخبر عن حادثة الإسراء (أَنَّ نَاسًا رَجَعُوا عَنْ دِينِهِمْ بَعْدَمَا كَانُوا عَلَى الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَحْمِلْ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ ذَلِكَ، فَكَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ. وَجَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ ثَبَاتًا وَيَقِينًا لِآخَرِينَ) كأبي بكر الصدّيق **رضي الله عنه**. فالواجب أن يُتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم والتصديق من غير شك ولا ارتياب (136).

---

135 - عن عبد الله بن مسعود **رضي الله عنه** قال: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب النبي ﷺ، يريد الدنيا حتى نزل: { منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة}. **[أنظر (موسوعة الصحيح المسبور) - د حكمت بشير ياسين]**.

136 - **يقول ابن كثير في تفسير**: (وقوله: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به.{والشجرة الملعونة في القرآن} شجرة الزقوم... وتقدّم أن ناسا رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتا ويقينا لآخرين؛ ولهذا قال: {إلا فتنة} أي: اختبارا وامتحانا. وأمّا =>

- ✓ وفي نفس السياق، يمكن أن نفهم آية سورة المدثر:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۖ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ٣١﴾ المدثر

أي: (إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر لنعلم مَنْ يصدّق ومَنْ يكّذب من الناس:

أما أهل الكتاب، ليعلموا يقيناً أن هذا الرسول حق؛ فإنه نطق بما يطابق ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}

أما الذين آمنوا، فكلما أنزل الله آية وآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم:

{وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ}

أي: ليزول عنهم الريب والشك.

أما الكافرون والذين في قلوبهم شك وشبهة و سُوءُ النِّيَّةِ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ - يعني كموقف مُسبق وثابت - يقولون: ما الحكمة في ذكر هذا هاهنا؟ وهذا على وجه الحيرة والشك والكفر منهم بآيات الله **تعالى**:

{وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مَثَلًا}

فجعل الله ما أنزله على رسوله، مميزاً للكاذبين من الصادقين. لهذا يقول **تعالى**:

{كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}

أي، وهكذا تنفذ مشيئة الله - ممثّلة في سننه وتقديره - في هدايته من يريد الهداية من الناس، وفي إضلاله من يريد الضلال منهم [137].

فالواجب أن يُتلَقّى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا يَعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم إلا هُوَ: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}، فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدّقوا خبره من غير شك ولا ارتياب). **[أنظر تفسير السعدي]**

لذلك، في أول ما نزل من القرآن في المدينة (أول سورة البقرة) كانت أولى صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب:

{الشجرة الملعونة}، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذَّبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله بقوله: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تزقموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا. حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصري، وغير واحد، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسّره كذلك بشجرة الزقوم... ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحُجَّة من أهل التأويل على ذلك، أي: في الرؤيا والشجرة). **[وانظر أيضاً (موسوعة الصحيح المسبور - د حكمت بشير ياسين)]**.

137 - يقول ابن كثير في تفسيره: (أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحُجَّة الدامغة).

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ البقرة: ١ - ٣

17- هذا، وقد **أيّد** الله **تبارك وتعالى** رسوله وخليله محمّداً ﷺ في الظروف العصيبة والعسيرة.. وأصل ذلك **التأييد** و**التثبيت**، كان بآيات القرآن الكريم:

من حيث الموضوع والأفكار.. مثل:

- بيان سنن الله في سير الدعوات
- قصص الأنبياء
- ما أعده الله للصابرين من ثواب في الجنة
- ..الخ

ومن حيث تنزيلها مفرقة على الترتيل، متزامنة مع الأحداث والمواقف:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ۝٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ۝٣٣ ﴾ الفرقان: ٣٢ - ٣٣

﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٢٠﴾ هود: ١٢٠

﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨ ﴾ الشرح

وقد **أيّد** الله **جلّ وعلا** رسوله بالملائكة.. وبجنوده من السماء والأرض.. وبالآيات المادية (المعجزات) كذلك، ولكن ليس على سبيل التحدّي للمشركين - كما قلنا - بل **تثبيتاً** لفؤاد رسوله ومن معه من المؤمنين باستشعار لمعيّة الله **عزّوجل** لهم..

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ ﴾ طه: ٤٦

ومن أبرز تجلّيات ذلك **التأييد** من الله **تبارك وتعالى** لنبيّه وخليله محمّد ﷺ:

- ✓ كفايته المستهزئين؛ حيث أهلكهم واحداً بعد الآخر، وبناء عليه أمره الله بالصدع في ما يأمره الله به، في رسالته، وأن لا يبالي بالمشركين؛ الصدع الذي يجعل الناس في المجتمع فريقين متخاصمين في ربهما:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦ ﴾ الحجر: ٩٤ - ٩٦

- ✓ إنزال "العذاب الأدنى": السنين والجفاف، على قريش بعدما حاصروا رسول الله وبني هاشم في الشّعب، "فدَعا عليهم النبيُّ ﷺ فقالَ: (اللهم أعنِّي عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسفَ). فأخذتْهُم سنةٌ

حتى هلَكوا فيهَا، وأكَلوا المَيْتَةَ والعِظامَ، ويَرى الرجلُ ما بين السماءِ والأرض كهيئةِ الدّخَان".
[البخاري - 4774. انظر صحيح السيرة - ابرهيم العلي]

- ✓ نزول ملَك الجبال لنصرته، وتخييره بإنزال العذاب على قومه وقد كذّبوه.. وذلك بعد عودته من الطائف.
- ✓ حادثة الإسراء؛ وقد كانت من آيات الله الكبرى.. فازداد المؤمنون تصديقاً، والكافرون تكذيباً..
- ✓ إيمان النفر من الجن، بعد أن بلغتهم دعوة الله **تعالى** وقد رفضتها كلتا القريتين؛ مكة والطائف:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ
وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ الجن: ١ - ٢

- ✓ إيمان الأنصار؛ فبعد وفاة أبي طالب، كان رسول الله ﷺ يبحث عن بديل لأبي طالب **ليحميه،** وإن كان كافراً مثله (كما في حالة الرجل من همذان)، ليستطيع أن يستمر في تبليغ رسالة الله **تعالى**، إلا أن الله **تبارك وتعالى** بمنّـه وكرمه، هيّـأ له أكثر من ذلك، فقد هيّـأ له وساق إليه من **يؤمن** به ويـتّبعه و**ينصره،** وهي الكرامة التي ادّخرها الله **تعالى** للأنصار **رضي الله عنهم** - فالله أعلم بالشاكرين - حيث آمنوا بالرسول واتبعوه، ثم آووْه ونصروه؛:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم
بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ الأنفال: ٢٦

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ۝٦٣﴾ الأنفال: ٦٢ - ٦٣

هذا، وللمؤمنين نصيب من معية الله الخاصة هذه - مع مراعاة خصوصية مقام النبوّة:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ محمد: ١١

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾ الأنفال: ١٩

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ النحل: ١٢٨

18 - التهيئةَ للهجرة.. لينصر الله **جلّ وعلا** أولياءه المؤمنين بأن ينجيهم من "مكر" و "كيد" أعدائهم الكافرين، وليُنْزل عذابه بأعدائه وأعدائهم.. وكانت البداية أن أمر الله **سبحانه وتعالى** نبيّه بالبحث عن بديل لقريش، بعرض نفسه على قبائل العرب [138]..

---

138 - من المهم هنا أن نشير إلى أنه وردت روايات كثيرة في كُتُب السيرة، حول اتصال رسول الله بقبائل العرب لطلب المَنَعَة والحماية حتى يكمل بلاغ رسالة الله، إلا أن أغلبها لم تثبت نسبتها لرسول الله =>

كما تشير آية سوَرة الأنعام وآية سوَرة الشورى إلى توجيه رسول الله إلى حمل الدعوة خارج مكة، بعد أن رفضَتْها قريش: ﴿.. وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٩٢﴾﴾ الأنعام: ٩٢ (139)

فبدأ الرسول الكريم في البحث خارج مكة، لَعلّه يجد أحداً يوفّر له **الحماية** بدلاً مِن أبي طالب ويحمله إلى قومه، حتى يستطيع أن يستمر في تبليغ كلام الله **سبحانه وتعالى** ورسالته (140)..

أو أن يجد مَنْ **يؤمن** به وينصره وقد كفرت به عشيرته الأقربون.. ومنعوه أن يبلّغ كلام ربه، وصدّوه عن المسجد الحرام..

وأول ما ذهب رسول الله، إلى القرية الأخرى؛ (من القريتين) إلى الطائف يعرض نفسه عليهم أن يقدّموا الحماية له أو أن يؤمنوا به وينصروه، إلا أنهم رفضوه وقابلوه بأسوأ ما يُقابل به نبيّ كريم.

فكان موقفهم ذاك أشدّ ما لقيه رسول الله ﷺ من قومه في الدعوة إلى الله والسير بالرسالة، كما في الرواية الثابتة عن عائشة **رضي الله عنها**، حيث قالت:

(يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: { لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عَرَضْت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال. فلم يجبني إلى ما أردت.

ولو بأدنى درجات الثبوت، لأنها بدون سند، والقليل الذي ثبتت نسبته لرسول - ولو بأدنى درجات الثبوت - قد جمعه الشيخ إبراهيم العلي - رحمه الله - في كتابه النفيس "صحيح السيرة النبوية".

ومن المعلوم أن ما لم يثبت نسبته لرسول الله - قولاً أو فعلاً أو إقراراً - بأدنى درجات الثبوت عند أيٍ من العلماء المعتبرين، فهو ليس من الوحي، وبالتالي يسقط الاستدلال به على الأحكام الشرعية.

هذا، وابن إسحق - رحمه الله - من أول المكثرين في جمع المغازي ورواياتها، "ومَن جاء بعده كان عيال عليه" كما قيل.. والرأي المعروف لعلماء الجرح والتعديل فيه أنه: "صدوق مُدَلِّس"، فلا يؤخَذ بروايته إلا إذا صرّح بالسماع أو بالتحديث، بعد ذلك يُنْـقَد سند الرواية، ويتم تقييمها. ويُرَدُّ ما رواه بالعنعنة لأنه مُكثر في التدليس. "وقد ذكره ابن حجر في المرتبة الرابعة من مراتب المدلسين وقال: مشهور بالتدليس عن الضعفاء والمجهولين وعن شر منهم، ووَصَفَه بذلك أحمد والدارقطني وغيرهما". وعليه فالأصل - في الباحثين الجادّين - عدم التساهل في أخذ كل ما رواه ابن إسحاق في السيرة النبوية، بل لا بد من نقد مروياته على منهج المحدثين، وخاصة الروايات المتعلّقة بالأمور ذات الأهمية العالية والمفصلية في الدعوة إلى الله. ومن المراجع المهمة في السيرة، التي اعتمد أصحابها منهج المحدّثين في نقد روايات السيرة النبوية، كتاب (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي. وكتاب (المجتمع المدني في عهد النبوة) - د أكرم ضياء العمري. وغيرهما.

139 - هناك روايات ثابتة حول اتصال رسول الله بالقبائل، تنص على أن رسول الله تلى عليهم آيات من=> سورة الأنعام. **أنظر (صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي).** مما يعني أن السورة قد نزلت قبل ذلك، والراجح أنها نزلت جملة واحدة.

140 - إعطاء الحماية أو الجوار كان أمراً معروفاً مألوفاً عند العرب، وهو إما بدافع العَصبيّة والحَميّة، مثل=> ما كان يفعل أبو طالب مع رسول الله. أو من أجل الشرف والسمعة، كما أجار المُطعمُ بن عدي رسولَ الله بعد عودته من الطائف عندما لم يستطع دخول مكة. وكما دخل بعض الصحابة الكرام في جوار بعض سادة قريش.. وكان من مألوف العرب أيضاً أن العشيرة تبعٌ لسيدها، فإذا أسلم سيد العشيرة أسلمت العشيرة كلها أو معظمها، كما حصل مع سادة الأنصار إذ أسلم الناس بإسلامهم. وهو ما كان حريصاً عليه رسول الله في مكة، حيث اهتم بدعوة سادة قريش لعل قريشاً تُسلم، وعندما دخل عليه الأعمى أثناء ذلك وأشغله بالسؤال، عبس في وجهه، فأنزل الله تعالى قوله: (عَبَسَ وَتَوَلَّى{1} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{2}..). ومن الحكمة الاستفادة من واقع المجتمع وطبيعة العلاقات وتوظيفها لتحقيق الغاية من الرسالة في ذلك الواقع، وبالضوابط الشرعية. كما سنبينه في ما موضعه من البحث، بإذن الله.

فانطلقت وأنا مهموم على وجهي. فلم أستفق إلا بقرن الثعالب. فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني. فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عزّ وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك. وقد بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملَك الجبال وسلّم علي. ثم قال: يا محمّد ! إن الله قد سمع قول قومك لك. وأنا ملَك الجبال. وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك. فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين} (141)..
فقال له رسول الله ﷺ: {بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا}).
[صحيح مسلم - رقم:1795 أنظر (صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي)].

ثم وجّـه جُهده ﷺ إلى أن يعرض نفسه في المواسم على مختَلَف قبائل عرب الجزيرة، لعله يجد مَنْ يَحمله إليه أو مَنْ يؤمن به وينصره.. وهذه أول مرة يخاطب فيها رسول الله قبائل العرب بأن يؤوه وينصروه، لكنها ليست الأولى في دعوتهم إلى الله وإنذارهم وبلاغهم رسالة الله (142)..
ومن الذين عرض نفسه ﷺ عليهم في الموسم، جماعة من سادة قبيلة شيبان بن ثعلبة، فقال لهم: ({أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمّدا عبده ورسوله، وإلى أن تؤوني وتنصروني، فإن قريشا قد ظاهرت على أمر الله، وكذّبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد})..**[عن ابن عباس، قاله الحافظ في الفتح:220/7 وعزاه للحاكم وغيره بإسناد حسن. أنظر أيضاً (صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي)].**

---

141 - والأخشبان هما الجبلان المحيطان بمكة. فالملأ من قريش استحقوا "العذاب الأكبر"، بعد إتمام إقامة=> "الحُجَّة الرسالية" عليهم.. لكنّ، الله تعالى أعطاهم - كرامة لرسول الله - أماناً من العذاب مشروطاً بشرطين.. هما: إما أن يستغفروا الله تعالى ويتوبوا إليه، أو أن يُبقوا رسول الله بينهم ولا يخرجوه من مكة ليستمر في بلاغ الرسالة. وإن أخلّوا بالشرطين أتاهم العذاب لا محالة، ولا رادّ لأمر الله جلّ وعلا، إلا أنه سيكون بأيدي المؤمنين من الأمة المسلمة الخاتمة كما هي سنة الله تعالى في هذه الأمة، والذي هو في "يوم بدر"؛ "يوم الفرقان". ونذكّر هنا، أن من سنة الله مع رسله السابقين أن أقوامهم كانوا يطلبوا آيات مادية (معجزات) على صدق الرسول، ومن سنة الله في هذا الأمر أن القوم إذا كفروا بتلك الآية المادية (المعجزة) عذبهم الله لا محالة، لأنه بها اكتملت إقامة "الحُجَّة الرسالية" عليهم، فلم يعُد لهم عذر عند الله بعدم الإيمان.. عندها يأمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بالخروج من القرية لأنه سيُنزل بها العذاب. وهذه السنة لم يُجرِها الله تعالى مع الرسول الخاتم، بل خيّره الله تعالى إما أن يستأني بهم ويعطيهم مهلة أطول، أو يُنزِل الله له آية مادية (معجزة) يتحداهم بها، غير القرآن.. لكن إذا كفروا عذّبهم الله مباشرة.. إلا أن رسول الله قال: "بل أستأني بهم" أي أصبر عليهم وأعطيهم مهلة أطول.. وهو الدعاء الذي قاله رسول الله عندما جاءه مَلَك الجبال ويستأذنه لإنزال العذاب بقومه إذا شاء.. حيث قال: لا أريد أن ينزل العذاب بهم، لعل الله يُخرج من أصلابهم مَن يعبد الله وحده.. فأكرمه الله تعالى واستجاب دعاءه.

142 - كما هو ثابت في كثير من الروايات، كما في رواية طارق بن عبدالله المحاربي قوله: (رأيتُ رسولَ=> الله ﷺ مرَّ في سوقِ ذي المَجازِ وعليهِ حلَّةٌ حمراءُ وَهوَ يقولُ: (يا أيُّها النَّاسُ قولوا لا إلَهَ إلَّا اللهُ تُفلِحوا)، ورجلٌ يتَّبعُهُ يرميهِ بالحجارةِ قَد أدمَى كَعبَيهِ وعُرقوبَيهِ وَهوَ يقولُ: يا أيُّها النَّاسُ لا تُطيعوهُ فإنَّهُ كذَّابٌ. فقُلتُ: مَن هذا، قالوا: غُلامُ بَني عبدِ المطَّلبِ. فقُلتُ: مَن هذا الَّذي يتَّبعُهُ يرميهِ بالحجارةِ. قالوا: هذا عبدُ العُزَّى أبو لهبٍ). **[صححه الوادعي في (الصحيح المسند - 516). أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي].**

فدعاهم إلى الإيمان وإلى نصرته من قريش وإيوائه ﷺ إلا أنهم اعتذروا ولم يستجيبوا لرسول الله ﷺ.. لكن على رسول الله أن يستمر في بلاغ الرسالة التي بعثه الله بها.. فهذ هي مهمّته الأساس.. كما الرواية التالية: (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: {هل من رجل **يحملني** إلى قومه، **فإن** قريشاً منعوني أن **أبلّغ** كلام ربي **عزّ وجل**}. فأتاه رجل من همذان فقال: {ممن أنت؟}. فقال الرجل: من همذان. فقال: {هل عند قومك من منعة؟} قال نعم. ثم إن الرجل خشي أن يَخْفِره قومُه [أي ينقضوا عهده وميثاقه]، فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم أخبرهم، ثم آتيك من قابل. قال: {نعم}. فانطلق، وجاء وفد الأنصار في رجب) [143].

وجاء وفد الأنصار فآمنوا واتّبعوا رسول الله.. ثم بعد ذلك آووه ونصروه، **رضي الله عنهم وأرضاهم**.. فالله **تبارك وتعالى** قد ادّخر تلك الكرامة للأنصار **رضي الله عنهم**، فهم أحق بها حسب سننه **عزّ وجل**.. في مثل قوله **تعالى**:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ الأنعام: ٥٣

وكان ذلك من فضل الله **تبارك وتعالى** على رسوله أيضاً، حيث لم يعطه **الحماية** فقط، بل منّ عليه وعلى المؤمنين معه بأكثر من ذلك وأعظم؛ **بالإيواء والنصر والتمكين**.. كما في قوله **جلّ وعلا**:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩ ﴾ الأنعام: ٨٩

أي، إن يكفر أهل مكة بآيات القرآن أو برسالة الله **سبحانه وتعالى**، فقد أرصدنا لها قوما ليسوا بها بكافرين؛ هم المهاجرون والأنصار.. **[أنظر تفسير الجلالين، التفسير الميسّر]**

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤ ﴾ الأنفال

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦ ﴾ الأنفال: ٢٦

---

143 - **عن جابر أخرجه أحمد 322/3، 339. وغيره، أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي. أنظر موقع الدرر السنية.**
وهذه الرواية دليل على أن رسول الله كان يبحث عن رجل - أيّ رجل - يحمله إلى قومه ليستمر في=> بلاغ رسالة الله، وقد منعته قريش من ذلك. فلما جاءه رجل، سأله عن المنعة في قومه.. هكذا، ولم يشترط عليه أن يؤمن بالله هو أو قومه، بل الشرط أن يحمل رسولَ الله إلى قومه، وأن يوفّر الحماية له - أي كما كان أبو طالب - ليستمر في بلاغ رسالة ربه عزّ وجل، الأمر الذي منعته قريش منه. فمهمته كرسول هي أن يستمر في بلاغ رسالة الله التي بعثه بها، أولاً بأول، والاستقامة على أمر الله.. حتى يحكم الله تعالى بينه وبين قومه: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ{108} وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ{109}) **يونس.**

فبداية **نصر** الله تبارك وتعالى لرسوله، أن يُيسّر له من **يؤمن** به ويحمله إليه **ويؤويه**.. وهي الكرامة التي ادّخرها الله جلّ ثناؤه للأنصار رضي الله عنهم.. فالله أعلم بالشاكرين..

19 - بيعة الأنصار والأمر بالهجرة، من كتاب (صحيح السيرة النبوية) لـ إبراهيم العلي:

بيعة العقبة الأولى

من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلًا فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفَّيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم).

[أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب وفود الأنصار وبيعة العقبة رقم: 3893 فتح الباري: 7/ 219، مسلم كتاب الحدود باب الحدود كفارات لأهلها رقم الحديث: 1709، أحمد في المسند: 5/ 323، وانظر الفتح الرباني: 20/ 269، وابن هشام في السيرة: 1/ 433 عن ابن إسحاق بسند صحيح، وابن كثير في السيرة: 2/ 179، وانظر النسائي في البيعة باب البيعة على الجهاد: 7/ 141 - 142]

طلبُ الأنصار من الرسول ﷺ أن يبعث لهم مَن يؤمّهم بالصلاة ويُعلِّمهم القرآن

من طريق ابن إسحاق قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: (أن رسول الله ﷺ إنما بَعَث مُصعبًا حين كتبوا إليه أن يبعثه إليهم، وكان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّه بعض رضي الله عنهم أجمعين).

[ابن كثير: 2/ 180 ونسبه إلى البيهقي وسنده حسن رجاله ثقات، سيرة ابن هشام: 1/ 434 - انظر دلائل النبوّة للبيهقي: 2/ 437 - 438]

بيعة العقبة الثانية

من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه الذي ذكَر فيه الأمر مجملاً؛ قال (مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتْبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي الموسم بمِنى، يقول: من يؤويني، من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مصر كذا، قال: فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش، لا يفتنك، وهو يمشي بين رحالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله من يثرب فآويناه، وصدّقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعًا فقلنا: حتى متى **نترك** رسول الله ﷺ **يُطرد** في جبال مكة ويَخاف. فرحل إليه سبعون رجلًا مِنّا حتى قدموا عليه في الموسم، فواعَدَنا شِعْب العقبة، فاجتمعوا عندها من رجل ورجلين، حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله على ما نبايعك؟ قال: (تبايعوني على السمع والطاعة في المنشط والكسل، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا لله، لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني - إذا قدمت عليكم - مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة) قال: فقمنا إليه فبايعناه. وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغرهم فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم، وأن تعضّكم السيوف، إما أنتم قوم تصبرون على ذلك

وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خبيئة فتبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله. قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا، ولا نسلبها أبدًا، فبايعناه فأخذ علينا، وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة).

[أخرجه أحمد: 3/ 322،329،394 والبيهقي في السنن: 9/ 9، من طريق ابن خيثم عن أبي الزبير ورجاله ثقات، ابن حبان: 1686، الحاكم: 2/ 624 - 625 وصححه ووافقه الذهبي، كشف الأستار عن زوائد البزار: 1756 ورجاله رجال الصحيح، قال الحافظ في الفتح: 7/ 220 رواه أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم، وقال ابن كثير في السيرة: 2/ 196، هذا إسناد جيد على شرط مسلم، وقال الهيثمي في المجمع: 6/ 46 رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح، واللفظ لأحمد].

اختيار النقباء

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ اثني عشر زعيما يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: (أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا؛ ليكونوا على قومكم بما فيهم).. وكانوا تسعة في الخزرج وثلاثة من الأوس..

قال لهم: (أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي) - يعني المسلمين - قالوا: نعم. **[ابن هشام 1/ 443، 444، 446 . (الرحيق المختوم)]**

الهجرة إلى المدينة ورؤيا الرسول ﷺ لموطن الهجرة

من حديث أبي موسى الأشعري **رضي الله عنه** قال: قال رسول الله ﷺ: (رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هَجَر، فإذا هي يثرب).

[وهلي: اعتقادي. هَجَر: مدينة معروفة وهي قاعدة البحرين. أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب هجرة النبي وأصحابه، وفي المغازي باب من قتل من المسلمين يوم أحد رقم: 4081، مسلم في الرؤيا باب رؤيا النبي ﷺ رقم: 2272].

ومن حديث عائشة **رضي الله عنها** قالت: "قال رسول الله ﷺ: (قد رأيت دار هجرتكم، أُريت سبخة ذات نخل بين لابتين وهما حرتان) فخرج من كان مهاجرا قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ.. ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين".

[أخرجه أحمد في المسند: 6/ 198 بسند صحيح، والحاكم في المستدرك: 2/ 3 - 4 وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البخاري تعليقًا في كتاب الكفالة باب جوار أبي بكر]. [انظر: (حقيقة "الفهم السياسي للسيرة")]

هجرة رسول الله إلى المدينة

من حديث ابن عباس **رضي الله عنهما** قال: (كان رسول الله ﷺ بمكة فأُمر بالهجرة وأُنزل عليه: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [الإسراء: 80]). **[أخرجه الترمذي في سننه التفسير وفي سورة بني إسرائيل رقم: 3139 وقال حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك: 3/ 3 وقال صحيح في الإسناد ووافقه الذهبي. وفي سنده قابوس بن أبي ظبيان لينه الحافظ في التقريب ومع ذلك صححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي].**

صحبة أبي بكر للرسول ﷺ

من حديث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن النبي ﷺ قال لجبريل: (من يهاجر معي؟ قال: أبو بكر الصدّيق). **[الحاكم في المستدرك: 3/ 5 وقال صحيح الإسناد والمتن ووافقه الذهبي وقال صحيح غريب].**

ومن حديث عائشة **رضي الله عنها** قالت: بينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في نحو الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر فدى له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﷺ، واستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي لأبي بكر: (أَخْرِج مَن عندك) فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: (فإني قد أُذن لي في الخروج) فقال أبو بكر: الصحابة [المصاحبة] بأبي أنت يا رسول الله، قال: رسول الله ﷺ: (نعم)، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: (بالثمن). **[صحيح البخاري: 5807].**

ويقول الله تعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ التوبة: ٤٠

والحمد لله رب العالمين

وهكذا، انتهى "الطّوْر الثالث" والأخير.. وبه تنتهي "المرحلة الأولى" من سير رسول الله بالرسالة، وما فيها من الاستضعاف والخوف..
وشاهدنا فيه كيف اكتملت إقامة "الحُجَّة الرسالية" على قريش.. وأنه كان أشدّ طور وأثقله على رسول الله والمؤمنين معه.. وفي نهايته كانت بداية النصر والتمكين.. كما سنبينه..

ولندخل إلى "المرحلة الثانية".. والتي فيها ينصر الله **عزّوجل** أولياءه ويُظهِر دينه، ويجعل كلمته هي العليا.. ويُذِل أعداءه الكافرين، ويجعل كلمتهم هي السفلى.

المرحلة الثانية :

وهي مرحلة "**النصر**" و "**التمكين**" للحق وأهله في بقعة من الأرض **وإكمال الدين** لله وحده، ثم "**الاستخلاف**" في الأرض [144]..

حيث أن **الجماعة** المسلمة المستضعفة، أضحت **أمـة** مسلمة لها **سلطان** على بقعة من الأرض ولها **إمارة** عامة (قيادة عامة)، وأصبح المؤمنون مكلّفين بالرسالة بوصفهم أمّة **مسلمة** لله، ولها قوة وسلطان على بقعة من الأرض، وكلمة الله هي العليا فيها (مجتمع مسلم).. وقد كانوا من قبل مكلفين بوصفهم **أفراداً في جماعة** تعيش في مجتمع ليست كلمة الله هي العليا فيه (مجتمع جاهلي)..

وهي استمرار للمرحلة الأولى ومبنيّة عليها ضمن خط السير بالرسالة، وطَوْراها الإثنان استمرار للأطوار الثلاثة السابقة.. ولكل طَوْر تفاصيله، خطاباً وأعمالاً.. وهما كالتالي:

---

144 - **النصر** والنُّصْرة: العون والتأييد، ومنه تأييد الله للمؤمنين المستضعفين لينجيهم من طغيان الملأ=> المكذبين، ويهيئ الأمر لتمكين المؤمنين وإنزال العذاب على المكذبين.. ومنه الانتصار في القتال.. قال تعالى: {وإذا جاء نصر الله والفتح} **[النصر/1]**، {إن ينصركم الله فلا غالب لكم} **[آل عمران/160]**، {وكان حقا علينا نصر المؤمنين} [الروم/47]. والانتصار والاستنصار: طلب النصرة.. {وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر} **[الأنفال/72]**.

التمكين: (مكّنه من الشيء، ومكّن له: جعل له عليه سلطاناً، وقدرة..{ مكّنّاهم في الأرض } **(الأنعام:6)**.. فيحمل معاني الرسوخ والثبات مع قدرة). **[أنظر (المعجم المؤصّل - محمد حسن جبل)]**.(التمكين أقوى من التقوية وإعطاء القدرة والسلطة وغيرها، فإنه يدل على استقرار وتثبّت وتحقّق مع القدرة:{ وليمكّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم } **(النور:56)**).

والمعاني البارزة في **الاستخلاف** هنا: السيادة والقدرة على التصرّف، يبيّنه قوله تعالى: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...{26}) **ص**. فالحكم بين الناس مترتب على كونه خليفة في الأرض أي ملكاً وسيداً عليها فله السلطة والحكم. "فالخليفة عبارة عن المَلك النافذ الحكم، أي جعلناك أهل تصرّف نافذ الحكم في الأرض"

(وَقَالَ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرْضِ..﴾ الْآيَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ، يَدْعُونَ إِلَى الله وَحْدَهُ، وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سرًّا وَهُمْ خَائِفُونَ، لَا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ، حَتَّى أُمِرُوا بعدُ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمُ الله بِالْقِتَالِ، فَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمْسُون فِي السِّلَاحِ ويصبحون في السلاح، فَغَبَّرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ الله. ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أبدَ الدَّهْرِ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا؟ أَمَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ عَنَّا السِّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " لَنْ تَغْبروا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِمْ حَدِيدَةٌ". وَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الْآيَةَ، فَأَظْهَرَ الله نَبِيَّهُ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَأَمِنُوا وَوَضَعُوا السِّلَاحَ. ثُمَّ إِنَّ الله، عَزَّ وَجَلَّ، قَبَضَ نَبِيَّهُ ﷺ فَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنِينَ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا، فَأَدْخَلَ [الله] عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ فَاتَّخَذُوا الحَجَزَةَ وَالشُّرَطَ وغَيّروا، فَغُيِّر بِهِمْ). **[ابن كثير]**. نقول: يأتي الاستخلاف وتمكين الدين، بعد النصر وتمكين المؤمنين في الأرض.. ويبقون مستَخْلَفين ما قاموا بشرطه.

[انظر: مفردات القرآن - الأصفهاني، (التحقيق في كلمات القرآن الكريم - حسن المصطفوي)، أنظر (روح البيان - الخلوتي)، و(أضواء البيان – الشنقيطي)]. [التفصيل أكثر انظر مبحث (النصر والتمكين والاستخلاف) - في كتاب (مصطلحات رسالية)].

الطّوْر الرابع:

نصْر المؤمنين **وتمكينهم** في بقعة من الأرض، وعدم **استئصالهم** منها.
وذلك من الاستقرار في المدينة المنورة إلى نهاية غزوة الأحزاب.

في هذا الطّوْر يُظهِر الله تبارك وتعالى الحق وأهله ويُزهِق الباطل وأهله.. فبعد هجرة رسول الله ﷺ - ومِن قَبله المؤمنين - إلى المدينة المنورة، وبدء عملية الاستقرار فيها، كان إعلان ميلاد "**الأمّة المسلمة**" بشكلها الأساس (الأمة المكلَّفة): "بأن المؤمنين أمّة من دون الناس".. من خلال إعلان "وثيقة المدينة" [145]..

وبيان الأصل الذي تقوم عليه هذه الأمّة وهو: حقيقة أنه **لا إله إلا الله محمّد رسول الله**، بمعنى أن الطاعة لا تكون إلا لله وحده.. وأن طاعة الله لا تصح إلا باتباع رسول الله ﷺ، بوصفه **رسولاً** مبلغاً ومبيّناً لما يريده الله سبحانه وتعالى من شريعة ودين.. وبوصفه "**القائد** الأعلى" لهذه الأمّة المسلمة الناشئة (الإمارة العامة)..

وكان بناء **المسجد** النبوي، حيث أصبح **مركزاً** لتداول "الأمور الجامعة" والتشاور فيها [146]، وتُــتخذ فيه القرارات المتعلقة بقيادة الأمّة وإدارة شؤونها المختلفة، ومَقــرّاً للتعليم والتزكية، والإعلام والتوجيه..

وكانت المؤاخاة بين المؤمنين مهاجرين وأنصاراً.. وأصبح الأصل في الخطاب القرآني للمؤمنين بـ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾

وقد أذن الله للمؤمنين بالقتال للدفاع عن دينهم وعبادتهم لله وعن دارهم الجديدة.. للحفاظ على أن تبقى "كلمة الله هي العليا" و ان "يكون الدين كله لله"..

﴿* إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) **أُذِنَ** لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ **مَكَّنَّاهُمْ** فِي الْأَرْضِ **أَقَامُوا** الصَّلَاةَ **وَآتَوُا** الزَّكَاةَ **وَأَمَرُوا** بِالْمَعْرُوفِ **وَنَهَوْا** عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج]

وفي شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، جاء يوم غزوة بدر، كما قدّره الله جلّ شأنه فكان "يوم الفرقان"، حيث فتح الله تعالى وحَكَم بين الفريقين؛ الحق وأهله والباطل وأهله، وبيّن لقريشٍ ومَلَئها خاصّة، ولعرب الجزيرة عامة، أنّهم على الباطل، وأنّ الذين على الحق هم هذه الأمّة الناشئة بقيادة رسول الله ﷺ.. حيث جاءهم الفتح

الذي طلبوا من الله جلّ وعلا ؛ وهو بيان أي الفريقين المتخاصمين على الحق وأيهم على الباطل:

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾ [الأنفال]

---

145 - أنظر الكلام حول هذه الوثيقة وصحة سندها في (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.

146 - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ...{62}) النور.

﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال ٣٢]

أي (واذكر - أيها الرسول - قول المشركين من قومك داعين الله: إن كان ما جاء به محمد هو الحق مِن عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب شديد موجع.). **(الميسر)**

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)﴾ [إبراهيم]

فقد تحقق وعْد الله **جلّ وعلا** - بحسب سننه - بإحقاق الحق وإبطال الباطل، بوقوع "البطشة الكبرى" على الملأ الذين كفروا من قريش، بأيدي المؤمنين، قتلاً وأسراً.. حيث قُـتِل سبعون من كبرائهم ووجهائهم، وأُسِر سبعون آخرون [147].. حيث لم تترك قريش لنفسها أية فسحة أمان من العذاب، فلا هم **استغفروا** الله **تبارك وتعالى**، ولا هم **أبقوا** رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم [148]. وذلك بعد سَنة ونصف من الهجرة..

كما في الرواية الثابتة عن ابن عباس:

(لما أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيّهم **ليهْلُكُنّ**. فأنزل الله **تعالى**: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } الآية فقال أبو بكر: لقد **علمت** أنه سيكون قتال) [149].

وهكذا، كان يوم بدر يوماً نَصَر الله **عزّوجل** به الحق وأهله، نصراً مؤزّراً.. وكان يوماً من أيام الله **تعالى** في إحقاق الحق وإبطال الباطل..

"ودخل رسول الله ﷺ المدينة مظفراً منصوراً قد خافه كل عدو له بالمدينة وحَوْلها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة.. وحينئذٍ دخل عبد الله ابن أبي وأصحابه في الإسلام ظاهراً، ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم (النفاق)"

وكان يوم بدر درساً وتعليماً للأمّة المسلمة في حال النصر والغنيمة، من خلال النظر في سنن الله **تعالى** (أمر الله القدري) وفي التكاليف الشرعيّة (أمر الله الشرعي)، سواء في ما يتعلّق بالمقدمات والمتطلبات، أم بمباشرة الحدث وعيشه، أم بالنتائج والتداعيات.. كما بيّن الله **تعالى** ذلك كله في "سوَرة الأنفال"..

و تلا ذلك أحداث مهمة منها: إخراج بني قينقاع من المدينة أذلاء بعد أن نقضوا عهدهم لرسول الله، الذي ورد نصه في "وثيقة المدينة"..

إلى أن جاء يوم أُحد، حيث أراد كفار قريش الانتقام ليوم بـدر.. فحصل للمؤمنين ما حصل من هزيمة ومن إصابة لرسول الله ﷺ.. نتيجة وقوع بعض المؤمنين ببعض المخالفات الشرعية.. فكان - أيضاً - درساً وتعليماً للأمّة المسلمة ولكن، في حال الهزيمة والإصابة بالمصيبة، من خلال

---

147 - (وَإِذْ يَعِدُكُمُ الله إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ الله أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَالْكَافِرِينَ{7} لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ{8}) **الأنفال**.

148 - (وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ {33}) **الأنفال**.

149 - **حسن، سنن الترمذي، الصفحة أو الرقم 3171. وصححه الألباني في (صحيح الموارد - الصفحة أو الرقم 1406).**
نقول: لاحظ حُسن فقه الصدّيق **رضي الله عنه** لسنن الله **تعالى**، والمستوى الراقي في توقّع ما يمكن أن يحدث بناء على فهمه العميق للسنن الربّانية. أنظر "الطور الثاني" من السير بالرسالة.

النظر في سنن الله؛ فهماً وتوظيفاً لها.. وفي التكاليف الشرعيّة؛ اتباعاً أو مخالفةً.. سواء في ما يتعلّق بالمقدمات والمتطلّبات، أم بمباشرة الحدث وعيشه، أم بالنتائج والتداعيات.. كما بيّن الله **تعالى** ذلك كله في "سوَرة آل عمران"..

و تلا ذلك أحداث مهمة وجسام منها: مقتلة كبيرة لصحابة كرام في كلٍ من ماء الرجيع وبئر معونة.. ونصْرُ الله **تبارك وتعالى** الأمّة في غزوة بني النظير، بعد خيانة اليهود ونقضهم للعهد المنصوص عليه في "وثيقة المدينة" [150].. كما بيّن الله **تعالى** ذلك في "سوَرة الحشر".

هذا، وما حصل في "أُحد" شجّع الكافرين من خارج المدينة المنورة؛ قريشاً وقيادتها الجديدة، وبعض قبائل يهود.. على توجيه ضربة قاصمة للأمّة المسلمة للقضاء عليها واستئصال شأفتها - في ما يظنون - فجمعوا الجموع وحزّبوا قبائل العرب في الجزيرة لقتال المسلمين، فحشدوا أقصى ما يستطيعون من قوة؛ عدداً وعدةً وعتاداً، ثم حاصروا المدينة المنورة..

وأمّا مِن داخل المدينة، فقد استغلّ المنافقون الموقف فعملوا على الإرجاف والبلبلة والتشكيك في رسول الله، بوصفه نبيّاً رسولاً وبوصفه قائداً عاماً للأمة، والتكذيب لوعد الله بنصر أوليائه.. إلا أن الله **جلّ وعلا** كان لهم بالمرصاد جميعاً، في الداخل والخارج، فخيّب آمالهم، ورد كيدهم إلى نحورهم وهزمهم شرّ هزيمة.. فصدَق الله وعده، ونَصَر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده **جلّ وعلا**.. وقد بيّـن الله **تبارك وتعالى** ذلك في "سوَرة الأحزاب"، كما في قوله **جلّ وعلا**:

﴿* لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ الله فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾ [الأحزاب]

﴿وَرَدَّ الله الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى الله الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ الله قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾ [الأحزاب]

وقد قال رسول الله ﷺ بعد الغزوة: (الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم).

[أخرجه البخاري. انظر (صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي). و (الرحيق المختوم - المباركفوري)].

ونزل بعدها الأمر بالمبادأة بالقتال..

فكانت غزوة الأحزاب نقطة تحوّل في السير بالرسالة ومنعطف جديد تحوّلت فيه الأمور لصالح الأمة المسلمة.

---

150 - { أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) } **البقرة**. "من سوء حال اليهود أنهم=> كلما أخذوا على أنفسهم عهدًا - ومن جملته الإيمان بما دلت عليه التوراة من نبوة محمدﷺ نقضه فريق منهم. (قَالَ عَطَاءٌ: هِيَ الْعُهُودُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ وَبَيْنَ الْيَهُودِ: أَنْ لَا يُعَاوِنُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَى قِتَالِهِ، فَنَقَضُوهَا كَفِعْلِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ} **[الْأَنْفَالِ: 56]**، نَبَذَهُ: طَرَحَهُ ونقضه { فَرِيقٌ مِنْهُمْ }: طوائف من الْيَهُودُ، { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}). **[تفسير البغوي - ط دار التراث].**

الطّوْر الخامس:

الفتح والانتشار، و إكمال الدّين (العبودية) لله **تعالى**، ثم "الاستخلاف في الأرض".

وذلك من بعد غزوة الأحزاب مروراً بصلح الحديبية.. وصولاً إلى فتح مكة، ثم حُجَّة الوداع.

"بعد غزوة الأحزاب وهزيمة جموع الكفر وتشتيت شملهم، أخذ مجرى الأحداث في التطور مع الأمّة المسلمة وميزان القوى بدأ في التحوّل لصالحها.. وأعداء دين الله معنوياتهم في انهيار متواصل، ولم يتبقّ لهم أمل أن ينجحوا في كسر الدعوة إلى عبادة الله وحده، وخضد شوكة الأمّة المسلمة وقد قويت"..

وقد كان لهذا الواقع الجديد في ميزان القوى آثار، وترتّبت عليه أمور من أبرزها: تحوّل حُكم القتال من الدفاع إلى المبادأة. وكان له تأثير مباشر أيضاً على حكم الهجرة إلى المدينة المنورة بوصفها "دار الإسلام" وموطن الأمة المسلمة الناشئة الذي تُباشر سلطانها عليه، والمكان الوحيد على وجه الأرض الذي فيه "كلمة الله هي العليا".. "حيث أن الهجرة إلى المدينة كانت فرضاً على من أسلم، في الطّوْر السابق.. فقد تتابعت الآيات في الأمر بالهجرة وبيان عظيم فضلها.. في سوَرة النساء وغيرها.. أما في هذا الطّوْر فقد طلب رسول الله من بعض المهاجرين بعد غزوة الخندق العودة إلى ديارهم قائلاً لهم: (هجرتكم في رحالكم).. كما ورد في بعض الروايات.. ولا يُعتبر هذا وقفاً رسمياً للهجرة، بل إن إعلان وقف الهجرة كان بعد فتح مكة حيث قال رسول الله: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيّة، وإذا استُنفِرتم فانفروا)..

[أخرجه البخاري. أنظر (المجتمع المدني في عهد النبوة - أكرم ضياء العمري)].

ومن أبرز آثار هذا التحوّل والتطوّر في ميزان القوى: حصول صلح الحديبية، " فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام والتسجيل على بقائه في ربوع جزيرة العرب".. حيث وصفه الله **تعالى** بأنه "فتحاً مبيناً"..

[أنظر سورة الفتح "في ظلال القرآن". وانظر "الرحيق المختوم" لـ صفي الرحمن المباركفوري، في كلامه حول الصلح].

وكان من أهم نتائجه؛ تحييد قريش من أن تكون عقبة كبيرة أمام انتشار الإسلام في الجزيرة العربية.. بل وحتى خارج حدودها حيث بدأ رسول الله ﷺ بإرسال الكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام لله.. مُظهراً عالمية الرسالة الخاتمة وأنها للناس كافة..

كما في حديث رسول الله : (يا ويح قريشٍ لقد أكلتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائرِ العربِ. فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ! وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلامِ وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوةٌ، فما تظن قريشٌ؟ فوالله لا أزال أجاهدُ على الذي بعثني الله به حتى يظهرَه الله أو تنفردُ هذه السالفةُ - يعني الموتَ). **[قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية، أخرجه البخاري].**

وتلا ذلك أحداث ووقائع عظام من أهمها: فتح خيبر، وغزوة مؤتة.. كان لها آثار كبيرة على الأمة المسلمة كخبرة عسكرية واستطلاعية.. وإعطائها الهيبة في قلوب أعدائها..

ثم كان فتْح مكة المكرمة، وهو "الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به دينه ورسوله وجنده، ففيه جاء الحق وزهق الباطل إنه كان زهوقاً، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً":

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر]

وبعد أن جاء نصر الله **تبارك وتعالى** وتم "الفتح الأعظم"؛ فتح مكة، ذهب طغيان قريش وطاغوتها، فأسلمت قريش لله **عزّ وجل** وانقادت لرسوله ﷺ.. وبذلك، ذُللت أكبر عقبة أمام انتشار دين الله والدعوة إلى عبادته وحده.. وبعد غزوتي حُنين والطائف، وتَنَـزُّل التثبيت والنصر من الله **تبارك وتعالى** على المؤمنين بقيادة رسول الله، بسطت الأمّة المسلمة سلطانها على جزيرة العرب، فأصبحت كلمة الله هي العليا فيها. حيث جاءت وفود العرب تترى تعلن ولاءها لله، وانقيادها لرسول الله، وتنضوي - مع جماعة المؤمنين - تحت راية **لا إله إلا الله محمّد رسول الله** ..

وبهذا اقتربت الأمّة المسلمة من إتمام خصائصها ومقوماتها وإكمال دينها لله **جلّ وعلا**.. حيث نزلت الأحكام والتشريعات النهائية في سوَرة المائدة ومن بعدها سوَرة التوبة، وتم إنـفاذ كل ما جاء فيها من أوامر الله **عزّ وجل** على مستوى جزيرة العرب، ولم يتجرّأ أحد من العرب على مخالفة ما أمر الله به ورسوله، وقد يأسوا من أن يَغلبوا دين الله **عزّ وجل** وأن يُطفئوا نوره، والحمد لله:

﴿..**الْيَوْمَ يَئِسَ** الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ** لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.. ﴾ [المائدة: 3]

تحقيقاً لوعد الله **جلّ وعلا**:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة] [151]

هذا، وقد أصبح أمر القتال إلى مقاتلة المشركين كافة كما يقاتـلوننا كافة. و (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيّة، وإذا استُنفِرتم فانفروا)..

وما لبث أن تَوفّى اللهُ **جلّ وعلا**، رسولَه وخليلَه ﷺ، وقد بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، تاركاً الأمّة على المحُجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.. حيث أكملت دينها لله **جلّ وعلا**.

والحمد لله رب العالمين..

هذا بالنسبة لبيان **تتابع** الأحداث والمواقف - بمرحلتَيها الاثْنتين وأطوارها الخمسة - الذي **حصل** مع الرسول الخاتم ﷺ وواجهه في **واقعه** الإنساني؛ من قومه **قريش** خاصة ومن **عرب** الجزيرة عامة.. وأن ذلك التتابع كان حسب **سنن** الله العامة في سير الرسالات في المجتمعات، وحسب **اختيارات** الناس حينئذ - المؤمنين أو الكافرين - لمواقفهم وأعمالهم من الحق الذي بلغهم بلاغاً مبيناً.. من بداية الدعوة إلى عبادة الله وحده.. حتى أصبحت "كلمة الله هي العُليا".. كما هي مبَيَّنة في القرآن الكريم والثابت من سنة رسول الله..

151 - ما أنزل الله جلّ وعلا، القرآن (النور) إلا ليكون هو وحده المعبود المُطاع أمره في واقع الناس في جميع مجالات حياتهم (إتمام النور). ولا يتحقق ذلك - في تقدير الله - إلا بأن يرسل الله رسوله محمّد، وينصره على أعدائه ويمكّن له في الأرض، حتى يكون دين الله هو الظاهر، وكلمته هي العليا.

وفي المبحث التالي، نريد أن نسلّط الضوء أكثر على "الطور الثالث" من سير رسول الله بالرسالة، ونخصّه بتفصيل أكثر وفهم أعمق له وأشمل، نظراً لأهميته المنهجية - ولكل طور أهميته - لأنه الطور الذي كان فيه تحضير المؤمنين ليستحقوا أن ينتقلوا تلك النقلة النوعية؛ من كونهم فئة قليلة مستضعفة في "مجتمع جاهلي" (باعتبار أن كلمة الله ليست هي العليا) إلى "أمة مسلمة" لها قوة وتمكين في الأرض؛ وقد أصبحت "كلمة الله هي العُليا" و "الدين كله لله" (مجتمع إسلامي).

المبحث الثاني: كيف نفهم ما حصل مع رسول الله ﷺ في انتقاله من الاستضعاف إلى التمكين؛ وخاصة في "الطور الثالث"

أولاً: نذكّر ببعض "المُحدِّدات المنهجية" (العوامل) التي حَكَمت عملية الهجرة إلى المدينة

1- القرآن هو الأصل في تحريك وتوجيه رسول الله ﷺ

بناء على حقيقة أن رسول الله ما كان يتحرّك؛ يقول أو يفعل إلا بحسب الوحي.. والقرآن كان هو الأصل في تحريك وتوجيه رسول الله - والذين آمنوا معه - في سيره ﷺ في حمل دعوة الله وتبليغ رسالته؛ من البداية وحتى حقق الله **جلّ وعلا** على يديه الغاية من بعثه بالرسالة.. وإذا نظرنا في الآيات القرآنية ذات العلاقة والتي نزلت في أواخر الفترة المكية أو قُبيل الهجرة، و نظرنا في **سيرة** النبي ﷺ في أواخر خطواته في الهجرة إلى المدينة و "التمكين" فيها، نرى كيف بدأ ذلك، وكيف تمّ..

- لمّا انتقل ﷺ والمؤمنون المهاجرون إلى المدينة، نشأ كيان "الأمة المسلمة"، وأَعلن رسول الله عن وجوده، ووثّق ذلك في بنود الصحيفة المشهورة التي أمَر بكتابتها لتنظيم شؤون الأمة الناشئة؛ الداخلية والخارجية، وإلزام جميع الأطراف - من مكونات المجتمع - بها:

(هذا كتاب من محمد (رسول الله) بين **المؤمنين والمسلمين** من قريش وأهل يثرب ومن تابعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم **أمة واحدة** من **دون الناس**... وإنه مهما **اختلفتم** فيه من شيء فإن **مردّه** إلى الله وإلى محمد). **[انظر (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي. وانظر دراسته حول صحة سند هذه الصحيفة وبنودها]**.

ومن المهم هنا أن نلاحظ، أن رسول الله ﷺ وصف هذا التجمُّع (الكيان) البشري الجديد بـ "أنهم أمة واحدة من دون الناس" فهم "أمة المسلمين" أو "الأمة المسلمة" على اعتبار الوصف الجامع لهم؛ وهو كونهم مسلمين [152]..

فهو إعلان عن تجمّع له مقومات وخصائص تميزه عن سائر التجمُّعات (الكيانات) البشرية المعروفة عند العرب وغيرهم آنذاك.. فهو تجمّع بشري قائم على **فكرة جامعة**.. وليس على أي اعتبار آخر؛ قبَلي أو جهوي أو لون أو عصبية.. أو طبقة اجتماعية..

ومن جهة أخرى، فإن لكل تجمّع (مجتمع) بشري قيادته، وهذه بديهية وفطرية.. ومن الطبيعي أن يكون لهذه "الأمة" الناشئة **قيادةً**، **ومنسجمة** مع الأساس الذي تم إنشاءها عليه، **وقادرة** على تحقيق

152 - فالأمة هي : (كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد أو زمان أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر تسخيراً أم اختياراً).. فيُطلَق وصف الأمّة على الجماعة من الناس باعتبار الأمر الجامع لهم.

الغاية منها.. ورسول الله ﷺ هو القيادة الجديدة حيث انقادت له سائر القيادات والقوى التي قبلت أن تكون جزءاً من هذه "الأمة المسلمة"..

فأهم عامل في أي تجمّع (كيان، مجتمع) بشري هو الأساس (الفكرة أو الموضوع) الذي أُنشأ عليه.. والغاية التي يُراد تحقيقها منه - وهو الأمر الذي أكّد عليه رسول الله عند إنشاء هذه الأمة - ثم تنشأ له طبيعياً، قيادة منسجمة مع أساسه الذي قام عليه وتمثله، وأيضاً تكون قادرة على تحقيق الغاية منه..

ومن الواضح - وبدايةً من نص الوثيقة - أن كيان هذه "الأمة المسلمة" قائم على أساس أن **الاحتكام** لا يكون إلا لشريعة الله **تعالى وحدها** (كلمة الله هي العليا)، ليس فقط في علاقات الأفراد داخل كيان الأمة، بل في العلاقات الخارجية أيضاً، وفَصْل الخلافات التي تنشب بين هذه "الأمة" وبين الكيانات (التجمُّعات) اليهودية المستقلة حول المدينة، فالحكم فيها لا يكون إلا لله عزّ وجل ولرسوله ﷺ.. كما يدل عليه - بدايةً - النص التالي في "صحيفة المدينة":

(وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَث، أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردّه إلى الله عزّ وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ..) [153].

● **هذا**، ومن الآيات القرآنية التي كانت أعمال رسول الله ﷺ على هدى ونور منها.. في سياق البحث عن قرية أخرى أو مكان بديل لمكة وقريش.. وحسب سنن الله في حمْل رسالاته للناس.. هي: الآيات (76-81) من سورة الإسراء.. وكذلك آيات سورة الحج (38-41): والتي كانت أعمال رسول الله ترجمة عملية لها..

أما آيات سورة الإسراء، فهي قوله **سبحانه وتعالى:**

﴿وَإِن كَادُواْ **لَيَسْتَفِزُّونَكَ** مِنَ ٱلْأَرْضِ **لِيُخْرِجُوكَ** مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا** وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ **وَقُل رَّبِّ** أَدْخِلْنِى **مُدْخَلَ** صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى **مُخْرَجَ** صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ **سُلْطَٰنًا** نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ **جَآءَ** ٱلْحَقُّ **وَزَهَقَ** ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ الإسراء

يقول ابن كثير في تفسيره؛ باختصار: (إن هذه الآيات نزلت في كفار مكة لما هَمّوا بإخراج رسول الله ﷺ من بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَتَوَعَّدَهُمُ الله بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَخْرَجُوهُ لَمَا لَبِثُوا بَعْدَهُ بِمَكَّةَ إِلَّا يَسِيرًا. وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ إِلَّا سَنَةٌ وَنِصْفٌ، حَتَّى جَمَعَهُمُ الله وإياه ببدرٍ على مِيعَادٍ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُمْ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ، فقَتَل أشرافَهم وسبى

153 - **انظر (صحيح السيرة - إبراهيم العلي). وانظر (الجهاد والقتال في السياسة الشرعيّة) - محمد خير هيكل.** ونشير=> هنا إلى "صحيفة المدينة"، رغم أن الأمر مردّه إلى الله ورسوله (كلمة الله هي العليا)، فقد أقر رسول الله بعض أحكام العاقلة (الدِّيات) التي كانت معروفة في الجاهلية، فهي بقيت سارية على أهل الصحيفة، لأن رسول الله ﷺ أقرّها.

ذراريهم، ولهذا قال تعالى: { سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا} الآية، أَيْ هَكَذَا عَادَتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِنَا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم؛ يأتيهم العذاب..

[كما قال تعالى عن موسى عليه السلام في نفس السورة:

﴿ ..فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١ **قَالَ** لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢ فَأَرَادَ أَن **يَسۡتَفِزَّهُم** مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ **فَأَغۡرَقۡنَٰهُ** وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣ ﴾ [الإسراء]

وقال الحسن البصري: إِنَّ كُفَّارَ أَهْلِ مَكَّةَ لَمَّا ائْتَمَرُوا بِرَسُولِ الله ﷺ لِيَقْتُلُوهُ أَوْ يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهُوَ الَّذِي قَالَ الله عزوجل: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} الآية... وهذا القول هو أشهر الأقوال، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقَوْلُهُ: { وَاجْعَلْ لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً} قال قتادة: إن نبي الله ﷺ عَلِم أن لا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَسَأَلَ الله أن يجعل له سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ الله، وَلِحُدُودِ الله، وَلِفَرَائِضِ الله، وَلِإِقَامَةِ دِينِ الله... وهو اختيار ابن جرير[حيث قال: ذلك أمرٌ من الله تعالى لنبيّه بالرغبة إليه في أن يؤتيه سلطاناً نصيراً له على مَنْ بَغاه وكاده، وحاول منعه من إقامته فرائض الله في نفسه وعباده، لأن ذلك ورد عقيب خبر الله عما كان المشركون همّوا به من إخراجه من مكة، فأعلمه الله عزّوجل أنهم لو فعلوا ذلك عُوجلوا بالعذاب عن قريب، ثم أمره بالرغبة إليه في إخراجه من بين أظهرهم إخراج صدق يحاوله عليهم، ويدخله بلدة غيرها، بمدخل صدق يحاوله عليهم ولأهلها في دخوله إليها، وأن يجعل له سلطانا نصيراً على أهل البلدة التي أخرجه أهلها منها، وعلى كلّ من كان لهم شبيها] انتهى.. فلَا بُدَّ مَعَ الْحَقِّ مِنْ قَهْرٍ لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول الله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد25]. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الله لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ». أَيْ لَيَمْنَعُ بِالسُّلْطَانِ عَنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْآثَامِ مَا لَا يَمْتَنِعُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالتَّهْدِيدِ الشَّدِيدِ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ).

[انظر: مختصر تفسير ابن كثير - الصابوني. وتفسير الطبري].

أما آيات سورة الحج فهي قوله سبحانه وتعالى:

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ **يُدَٰفِعُ** عَنِ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ** إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ **لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ** بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ **نَصۡرِهِمۡ** لَقَدِيرٌ ٣٩ **ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ** مِن دِيَٰرِهِم **بِغَيۡرِ حَقٍّ** إِلَّآ أَن **يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ**.... **وَلَيَنصُرَنَّ** ٱللَّهُ **مَن** يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ **ٱلَّذِينَ** إِن **مَّكَّنَّٰهُمۡ** فِي ٱلۡأَرۡضِ **أَقَامُواْ** ٱلصَّلَوٰةَ **وَءَاتَوُاْ** ٱلزَّكَوٰةَ **وَأَمَرُواْ** بِٱلۡمَعۡرُوفِ **وَنَهَوۡاْ** عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾ الحج

وإليك معاني هذه الآيات الكريمة، مختصرة من بعض كتب التفسير:

{ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ} أي: "ملَّكْناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض".. وضمير الجمع (ـهُم) هنا له احتمالان أو وجهان:

الأول: يعود إلى { لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ } و{ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ }، فيكون المراد: أنْ هَذَا شرْط الله على هذه الأمة.. أي أَخَذَ الله العَهْدَ عَلَى مَن مَكَّنَهُ ونصره على أعدائه أنْ يَفْعَلَ ذلك؛ أي ما ورد في جواب الشرط.

فـ { إن } ها هنا بمعنى { إذا } بدليل ما سبق من الوعد **بالدفع** و**النصر** [الحج 38-39] فهَذَا شرط الله على هذه الأمة، فهو إخبار ووعد بالتمكين في الأرض. "والتمكين: التوثيق، وأصله إقرار الشيء في مكان، وهو مستعمل هنا في التسليط والتمليك. والأرض للجنس، أي تسليطهم على شيء من الأرض، فيكون ذلك شأنهم فيما هو مِنْ مُلْكهم وما بُسطت فيه أيديهم".

وقوله سبحانه: {**أَقَامُواْ** ٱلصَّلَوٰةَ **وَءَاتَوُاْ** ٱلزَّكَوٰةَ **وَأَمَرُواْ** بِٱلۡمَعۡرُوفِ **وَنَهَوۡاْ** عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ}

"هذا جواب **الشرط** في الآيَةِ، وبيان الأعمال التي **رَتَّبَها** الله عَلَى **التَّمْكِينِ**، **فواجب** على مَنْ **مكّنه** الله في الأرض وأقدره، أن يقوم بتلك الأعمال: فأما إقامة الصلاة فدلالتها على القيام بالدّين وتجديد لمفعوله في النفوس، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متكافلين في نظام معاشهم، وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة من تلقاء أنفسهم".. والحاصل أن تكون كلمة الله هي العليا؛ كما ورد في "صحيفة المدينة" التي كتبها رسول الله.

الوجه الثاني: "أن تكون بدلاً مِنْ { مَن } الموصولة في قوله: { مَنْ يَنْصُرُه } فيكون المراد: كل مَنْ نَصَر دين الله من أجيال المسلمين، أي **مكنّاهم** بالنصر الموعود به **إن نصروا** دين الله، أي لينصرنّ الله من يكون هذه صفته. بمعنى أن "تمكين" المسلمين في الأرض **مشروط** بهذه الشروط كلها وبما تفرّع منها، فمتى توافرت، كان لهم النصر والتمكين، ومتى **أُهمِلت** أو أُهمِل بعضها حل بساحتهم الخذلان والتفكك إلى حين.. فلو طلبوا النصر من الله بناء على أنه وعدهم إياه - دون تحقيق الشروط - فمَثَلهم كمثل الأجير الذي يمتنع من عمَل ما أُجر عليه، ثم يطلب الأجرة، ومن هذا شأنه فلا عقل له.. فهي شروط حتى يستحقوا أن يمكّنهم الله" [154]..

---

154 - نقول: من الناحية العملية، فالوجهان في فَهم الآية - في حقيقتهما - متلازمان ومتداخلان؛ فتحقيق هذه الفروض، يجب أن يكون في الذهن عند سعي المؤمنين نحو التمكين أو عندما تحين لهم فرصة به، فيجب على المؤمنين التأكّد بأنهم إذا استغلّوا هذه الفرصة ومكّن الله لهم في الأرض، أنّهم - بوصفهم أمة - سيكونون قادرين مادياً وروحياً، على تحقيق هذه الفروض وكما أمر الله تعالى، كدليل على أن "كلمة الله هي العليا". وهو ما كان حريصاً عليه رسول الله في شروطه لـ "بيعة الحرب"، ثم كتابة "صحيفة المدينة".

وعلى الاحتمال الثاني فتحقيق هذه الفروض (جعل كلمة الله هي العليا) شرط الله لبقاء المؤمنين ممكَّنين في الأرض، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} **(محمد7)**. بعد التمكين. وقبل التمكين؛ فلن ينصرهم الله تعالى ويأتمنهم على دينه، حتى يكونوا هُم أهلاً لذلك؛ وقد كانوا.. **رضي الله عنهم**.. بما سبق وتمثلوه من العبودية لله وطاعة رسوله: سواء بإقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع، أو بالتحلي بأخلاق المؤمنين المتقين وبالصبر على صعوبة السير وعقباته.. كما بيّنها الله تعالى بما سبق =>

{وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ}: "ولله آخر أمور الخلق، يعني: أنّ إليه مصيرها في الثواب عليها إن حققوا جواب الشرط، والعقاب إن تخلفوا وتركوا أمر الله".

"والجُملة عطف على جملة {وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ} [الحج:40]، أو على جُملة {إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج:40]، والمآل واحد، وهو تحقيق وقوع النصر، لأنّ الذي وعَد به هو الله **عزّ وجل**، فلا يمنعه من تحقيق وعدَه مانع. وفيه تأنيس للمؤمنين (ومنهم المهاجرين؛ الجيل الأول) لئلا **يستبطئوا** النصر".

[انظر تفاسير:(ابن عاشور)، (الطبري)، (ابن أبي حاتم)، (السعدي)، (الشنقيطي)، (مكي الناصري)].

وبما سبق رأينا كيف أن القرآن هو الأصل في تحريك وتوجيه الرسول ﷺ في هذا الطور الحاسم - وفي كل طور أيضاً - من السير برسالة الله ودعوته **تبارك وتعالى**..

2- الوحي هو المرجعية الوحيدة للتشريعات وسن القوانين، في الأمة الناشئة

وهذه قضية واحدة؛ تؤخَذ كلها أو تُترَك كلها، فلا تجزيء لها ولا تَدرُّج فيها.. ذلك، أن يكون "الوحي؛ قرآن وسنة هو فقط المرجعية".. يعني أن **التحاكُم** لا يكون إلا لله والرسول.. وهو الدليل على أن "كلمة الله هي العليا" و "أن يكون الدين كله لله".. وان الأمة "أمة مسلمة لله".. وهي **الحقيقة** الواحدة الثابتة والأصيلة في الوحي منذ أول نزوله.. وتحقيقها في الواقع، هو الغاية من بعث الرسول بالرسالة.. وقد جاءت مؤكَّدةً في نصوص عديدة - نزلت في المدينة؛ بعد التمكين - والتي تَفْرض على المسلمين العودة إليها دائماً في جمع شؤون حياتهم.. وكذلك جميع الناس الخاضعين لسلطان المسلمين، عليهم العودة إليها دائماً في تنظيم علاقاتهم في حياتهم العامة، في مثل قوله الله **سبحانه وتعالى:**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ** أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن **تَنَٰزَعۡتُمۡ** فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ **يَزۡعُمُونَ** أَنَّهُمۡ **ءَامَنُواْ** بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ **يُرِيدُونَ** أَن **يَتَحَاكَمُوٓاْ** إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن **يَكۡفُرُواْ** بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ **مَآ أَنزَلَ** ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ **ٱلۡمُنَٰفِقِينَ** يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ

ونزل من القرآن المكّي مثل سوَر؛ المؤمنون والأنعام، والشورى والفرقان والإسراء والمعارج.. وغيرها.. وأسوتهم صاحب الرسالة ﷺ: (كان خُلُقُه القرآن).

فالوجهان كانا منطبقين بشكل واضح على عموم المؤمنين - مهاجرين وأنصار - عندما حصلت "بيعة الحرب"، وتمت الهجرة على أساسها. فقد توفَّرت فيهم شروط استحقاق التمكين، وكانوا قادرين - مادياً وروحياً - على المحافظة عليه.. نصروا الله فنصرهم الله، والله جلّ وعلا لا يخلف الميعاد.

قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا **لِيُطَاعَ** بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ **لَا يُؤْمِنُونَ** حَتَّىٰ **يُحَكِّمُوكَ** فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء ،، **[انظر سبب نزول هذه الآيات. وبيان معانيها في كتب التفسير].**

وفي قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ [155] وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ **أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ** يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ المائدة

أي؛ (**فلا ثَمَّ** إلا حكم الله ورسوله **أو حكم الجاهليّة**: وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فمن أعرض عن الأول ولم يَقْبل حكمه، فهو لا محالة آخذ بالحكم الثاني المبني على الجهل والظلم والغَي، ولهذا أضافه الله للجاهلية). **[(تفسير السعدي) - بتصرف يسير]**

فالذين يُعرِضون عن اتباع الوحي فهم سيتبعون أهواءهم.. لا محالة:

﴿ **فَإِن لَّمْ** يَسْتَجِيبُواْ لَكَ **فَٱعْلَمْ أَنَّمَا** يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ القصص: ٥٠

وعليه، أن تكون "كلمة الله هي **العُليا**" و "أن يكون **الدين كله** لله" على بقعة من الأرض، يعني:

- أن **التحاكم** لا يكون إلا لله ورسوله.. (الوحي هو المرجعية الوحيدة)
- ويقتضي أن يكون المسلمون **مُمَكّن** لهم في تلك الأرض بوصفهم "**أمة** مسلمة"،
- ولهم **سلطان** عليها، وأن يكون السلطان متمثل **بإمارة** عامة،
- وأن أمانهم **بقوتهم** الذاتية..

هذه هي مقوّمات وجود "**الأمة المكلّفة**"؛ وهي **المخولة** شرعاً **والقادرة** على تنفيذ جميع أحكام الله وتطبيق شريعته.. حتى إكمال الدين لله..

وهي التي أعلن رسول الله عن **وجودها** وميلادها بعد الهجرة إلى المدينة المنورة.. ووثّق خصائصها الأولية (مقومات وجودها)؛ **أساس** هذه الأمة القائمة عليه: أنها مسلمة لله.. وأن **الغاية** منها؛ عبادة الله وحده لا شريك له، بجعل "كلمة الله هي العليا" (الوحي فقط هو المرجعية).. وأن محمداً ﷺ هو **القائد** العام لهذه "الأمة المسلمة"؛ بوصفه رسول الله، أصالة.. ثم بوصفه ﷺ القائد **الفعلي** الذي بيده **القوة** و**السلطة**، حيث انقادت له سائر القيادات والقوى التي رضيت أن تَنضم لـ "الأمة المسلمة" وتصبح جزءاً من تكوينها.

155 - أي آراءهم وأحكامهم (قوانينهم) وقد اتخذوها من غير دين الله تعالى، سواء كانت رأي أغلبية أم رأي أقلية أم فردٍ أم طبقةٍ.. الخ. فهي كلها أهواء في ميزان الله تعالى، وهو الميزان.

مع التأكيد على إن الإقرار بهذه الحقيقة - أن الوحي هو فقط المرجعية - والإيمان بها، كان هو الأصل الذي أُنشأت عليه "الأمة المسلمة"، والذي لم ينشغل رسول الله بغيره طوال السنين الثلاث عشرة على بدء الوحي (مرحلة الاستضعاف بأطوارها الثلاثة).. فما نزل من القرآن حتى تلك اللحظة (الهجرة وميلاد الأمة المسلمة المكلّفة) إلا ما يتعلق بترسيخ هذا الأصل: "اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، وإليه المصير".. "إخلاص الدين لله".. بمعنى، التركيز على حقيقة أن "الوحي هو المرجعية الوحيدة" لتنظيم حياة الفرد الخاصة أو حياة الأفراد العامة؛ كونهم يشكّلون "أمة مسلمة لله":

﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ ﴾ الزمر: ٦٤ - ٦٥

وعلى مفاهيم الإيمان الأساس؛ مثل أركان الإيمان الستة والتوكُّل على الله **جلّ وعلا** وأن بيده وحده الأجل والرزق؛ أي معرفة الله بأسمائه الحسنى ومشاهدة آثارها في الآفاق والأنفس.. الخ..

فحتى وقت الهجرة وميلاد "الأمة المكلّفة"، لم تكن التشريعات التنظيمية أو الأحكام الشرعية التفصيلية.. نزل بها الوحي.. حتى اركان الإسلام لم يُفرض منها بَعدَ الشهادتان إلا الصلاة.. وصلاة الجمعة ما فُرِضَت إلا بعد الهجرة مباشرة.. فلا زكاة مفروضة ولا صيام ولا حج.. ولا تشريعات نظام اقتصادي ولا نظام اجتماعي (ينظِّم اجتماع المرأة بالرجل) ولا نظام عقوبات.. بل إن التحريم النهائي للربا كان في السنة العاشرة للهجرة؛ في حُجَّة الوداع..

أمّا ما نزل به الوحي في مكة من أحكام ومعالجات: فإضافة إلى ما فيها من حجج قاطعة على "فكرة الدعوة"؛ أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير.. فيمكن تصنيفها في دائرة عامة هي "**التزكية والتعليم**"؛ والتي أساسها الإيمان بالله واليوم الآخر ومفاهيم الإيمان الأخرى.. والمطلوب الأساس، هو: التخلُّق بأخلاق القرآن.. بمعنى ضبط النفس عن سفاسف الأمور ومحقِّرات الأخلاق.. ودفعها إلى الأفق السامي للأخلاق الراقية المتوافقة مع الفطرة الإنسانية الكريمة (كما في سوَر: الإسراء، الأنعام، الفرقان، المؤمنون، الشورى، المعارج..).. وبالتالي إظهار المؤمنين بأنهم يمثّلون المستوى؛ الفكري والأخلاقي الذي يليق بالإنسان - المخلوق الذي كَرَّمه الله - أن يكون عليه.. خلافاً لما عليه المجتمع الجاهلي وملؤه.. ومن ثَمَّ، فإن قيادة المؤمنين (رسول الله) هي القيادة التي تصلح لقيادة المجتمع.. [156]

156 - انظر سوَر: الماعون، القيامة، الهمزة، التكاثر، الليل، العلق.. في "تبيان سوَر القرآن"، حيث تُظْهِر=> السوَر الطبيعة السيئة للملأ في المجتمع الجاهلي؛ جَمْع الأموال، وحُب السلطة، وعدم الرحمة بالفئات المستضعفة في المجتمع؛ المساكين والأيتام والنساء.. وأنهم بسبب طبائعهم تلك رفضوا قبول "دعوة الله"، وكانوا سبب الظلم والفساد في المجتمع.. وبالتالي فإن اتّباعهم وهُم مكذِّبون بالحق، سيكون سبب نزول العذاب الأليم بهم وبأتباعهم، إن لم يؤمنوا.. مثل فرعون:

{فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩} **طه**.

{وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١} **القصص** .

أمّا الأحكام الشرعية التفصيلية والتنظيمية لم ينزل شيء منها بعد.. بل بدأ ينزل بها الوحي **تدريجياً** على "الأمة المكلّفة" ويخاطب بها المؤمنين بوصف الإيمان: (يا أيها الذين آمنوا..).. وبحسب **ضوابط** وسنن؛ شرعية وقدرية - سنذكرها في موضعها من البحث، بإذن الله - كما في الرواية عن عائشة **رضي الله عنها**: (**أول** ما أُنزل من القرآن سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، **حتى** إذا **ثاب الناس** إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، **ولو نزل من أول الأمر**: لاتزنوا، لقالوا لا ندع الزنا أبداً، **ولو نزل من أول الأمر**: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبداً. **أُنزل** على النبي ﷺ وأنا **جارية ألعب** { بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} وهي من سورة القمر، **وما نزلت** البقرة والنساء إلا وأنا عنده في **المدينة).** [رواه البخاري (4993)].

3- الانتفاع بتركيبة "المجتمع الجاهلي"

عند النظر لما حصل مع رسول الله، نجد أنه ﷺ قد انتفع بتركيبة المجتمع الجاهلي في مكة والمدينة - والجزيرة العربية عموماً - ووظّفها لخدمة دين الله وتحقيق الغاية من الرسالة.. ألا وهي التركيبة القبلية، القائمة على الولاء التام للقبيلة والطاعة العمياء لقيادة القبيلة (العصبية الجاهليّة).. فزعماء القبائل هم أصحاب القوة والجاه والسلطان.. ففي مكة كان لقريش مجلس حكم أو قيادة وهو "دار الندوة" وفيه ممثِّلون للقبائل القوية - ذات العدد والمال {أنْ كان ذا مال وبنين}، {فليَدْعُ ناديه سندعو الزبانية}، والقيادة القوية والمؤثرة كانت لبني هاشم بسبب سدانتهم للبيت.. ورفادتهم وسقايتهم للحجيج.

وكذلك الأمر في المدينة كان الأوس والخزرج، وزعماء القبيلتين كانوا هم قادة المدينة حقيقة.. وإن كان اليهود موجودين إلا أن ثقلهم كان اقتصادياً أو مالياً.. ولهم بعض التأثير على ثقافة أهل المدينة من جوانب مختلفة.. وكان يحصل صراع واقتـتال بين الحَيَّـين في المدينة؛ إمّا على السلطة والنفوذ أو بتحريض من اليهود، حسداً من عند أنفسهم ولجعل أهل المدينة ضعافاً وليفرضوا بعض نفوذهم عليهم.. وحرب "بُعاث" هي آخِر هذه الصراعات، وقد حدثت في زمن بعثة رسول الله.. في موضع في المدينة قرب حصون بني قريظة.

ومن مظاهر توظيف رسول الله لهذه التركيبة القبليّة في مكة، والاستفادة من بعض الأعراف التي كانت سائدة في الجاهليّة، ودون التعارض مع قضية الصراع؛ الطاعة لِمَن؟ لله أم لطاغوتهم؛ الأصنام، الكُبَراء الأعراف السائدة..

مثل: قبوله ﷺ حماية عمه أبي طالب له .. رغم أنه مشرك.. ومن ورائه بنو هاشم؛ حيث دخلوا معه في حصار الشِّعب.. ودخول بعض الصحابة في جوار بعض الملأ المشركين الذين لهم النفوذ والقوة في المجتمع.. مثل أبي بكر عندما دخل في جوار ابن الدُغنَّة.. ولمّا طلب منه أن لا يرفع صوته بالقرآن، بناء على طلبٍ من سادة قريش، قال له أبو بكر: "أردُّ عليك جوارك وأدخل في جوار مَن هو أعزُّ منك"، قال: مَنْ، قال: الله..

وبسبب التأثير القوي لزعماء القبائل والسادة على عامة الناس؛ فهُم تَبَع لهم.. كان رسول الله ﷺ **حريصاً** على أن يؤمن بعض سادة مكة فتؤمن الناس معهم؛ {عَبَس وتولّى أنْ جاءَه الأعْمَى}.. {اللهم أعز الإسلام بأحد العُمَرين}.. فإذا آمنت قريش وانقادت لرسول الله ﷺ، يمكن أن تُؤْمن

غالبية الجزيرة العربية - وهو ما حدث فعلاً بعد فتح مكة - إلا أنه لم يؤمن أحد من سادة مكة.. بل أظهروا العداء لرسول الله ﷺ حتى أخرجوه منها:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ محمد

أمّا بالنسبة لتوظيف رسول الله للتركيبة القبلية في المدينة:

وقت اتصال رسول الله بهم، كان أغلب زعماء المدينة الذين لهم الثِّقَل وأصحاب التأثير على أتباعهم، كانوا من الشباب.. وقد آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر، واتّبعوا الرسول ﷺ وقبلوا به قائداً لهم وإماماً.. ومن الطبيعي أن يلحق بهم أتباعهم من أهل المدينة..

وكانت البداية يوم آمن بعض الزعماء الشباب وبايعوا رسول الله بيعة العقبة الأولى، وكانت بيعة على الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.. مثل ببيعة النساء في سورة الممتحنة.

وبعد عودتهم، طلَب الأنصارُ من رسول الله أن يبعث لهم مُقرئاً إلى المدينة يُعلِّمهم القرآن ويَؤمّهم في الصلاة.. فبعث إليهم مصعب ابن عمير رضي الله عنه.. وكانوا يسمونه بالمُقرئ..

فصار المؤمنون يزدادوا.. وفي العام التالي اتخذوا قرارهم بنصرة رسول الله وإيوائه في المدينة، كما في رواية الصحابي جابر السابقة.. فجاؤوا ليبايعوا رسول الله فكانت بيعة على الإيمان وعلى نصرة رسول الله.. (بيعة العقبة الثانية).. حيث كان ﷺ مطارداً في مكة.. إلا أنه - حينها - كان في جِوار المطعم ابن عدي.. وحماية بعض أعمامه، مثل العباس..

فخلال أقل من عام - من ذهاب مصعب ابن عمير - حصل انقلاب في أحوال أهل المدينة؛ حيث أسلم باقي سادة القبائل.. فأسلم أغلب أهل المدينة تبعاً لهم، "ولم يبقَ بيت إلا وفيه ذكر للإسلام".. وقد بقي البعض من أهل المدينة على الشرك بقيادة "ابن سلول".. مع وجود بعض قبائل اليهود القريبة من أحياء المدينة؛ يهود بني قينقاع..

وهكذا، فبعد دعوة الأنصار إلى الإيمان.. وآنس ﷺ منهم استجابة.. أخذ البيعة منهم؛ بداية على الإيمان ثم بيعة النُّصْرة والحرب؛ أن ينصروه من قريش ويؤوه في المدينة، ويَحموه من جميع أعدائه..

ثم عَمِل رسول الله على إكمال مقومات (الشروط اللازمة) إيجاد "الأمة المكلّفة"..

4- الهجرة والمباشرة بترتيب أمور الأمة الناشئة (الأمة المكلّفة)

هذا، ويمكن مشاهدة هذه الشروط اللازمة (المقومات) والتحقق منها، عند عقد مقارنة بين **واقع المسلمين** - بقيادة رسول الله - في فترة "ما قبل التمكين"، أي فترة تواجدهم في مكة؛ قبل الهجرة إلى المدينة المنورة.. وبين **واقعهم** في فترة "التمكين"، أي بعد الهجرة إلى المدينة المنورة..

[انظر (الجهاد والقتال في السياسة الشرعية) - د محمد خير هيكل]:

فقَبْل الهجرة والتمكين، كان المسلمون في مكة قليلي العدد مستضعفين خائفين، وإن كانوا يُظهِرون شيئاً من شعائر الإسلام - كصلاة بعضهم في ظل الكعبة - كانوا يُظهِرونه على تخوّف من المشركين.. وقد وَصَف ربُّ العالمين حالهم تلك، بقوله:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ [157] النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾ [الأنفال]

فلم يكن المسلمون آمنين على أنفسهم.. إلا بمقدار ما تسمح به أعراف الجاهلية (قوانينها)؛ إمّا بالحماية المباشرة أو الدخول في جوارِ أحدٍ من عِلْية القوم (الملأ)، أو بالسكوت عنهم وإهمالهم.. وقد كان الكثير من المسلمين واقعاً تحت الاضطهاد الدائم والتهديد المقيم.. كما في الرواية عن عبد الله بن مسعود:

(كان أوَّلَ مَن أظهَر إسلامَه سبعةٌ: رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ وعمّارٌ وأمُّه سُمَيَّةُ وصُهَيْبٌ وبلالٌ والمِقدادُ، فأمّا رسولُ الله ﷺ فمنَعه الله بعمِّه أبي طالبٍ، وأمّا أبو بكرٍ فمنَعه الله بقومِه، وأمّا **سائرُهم** فأخَذهم المُشرِكونَ **وأُلبِسوا** أدراعَ الحديدِ **وصهَروهم** في الشَّمسِ، فما منهم أحَدٌ إلّا واتاهم على ما أرادوا إلّا بلالٌ فإنَّه هانَتْ عليه نفسُه في الله وهان على قومِه، فأخَذوه فأعطَوْه الوِلْدانَ فجعَلوا يطوفونَ به في شِعابِ مكَّةَ وهو يقولُ: أحَدٌ أحَدٌ)..

[(صحيح ابن حبان ٧٠٨٣) (صحيح السيرة - إبراهيم العلي)].

فما كان عليه حال المسلمين في "ما قبل التمكين": أنهم لا أمان لهم، وإن حصل الأمان فبحماية من الكفار.. سواء في مكة أم في غيرها، حتى في الحبشة التي هاجر إليها المسلمون.. رغم أنّهم كانوا آمنين إلا أن ذلك الأمان الذي تمتّعوا به لم يكن أماناً بقوة المسلمين أنفسهم بل كان بقوة النجاشي ودولته؛ يعني بالجوار والحماية.. وكذلك لم يكن الإسلام ظاهراً على مستوى البلاد.. سواء في مكة أم في غيرها.

أمّا بعد أن هاجر المسلمون - ثم رسول الله ﷺ - إلى الأرض التي **مكّنهم** الله **تعالى** فيها (المدينة).. اختلف الأمر.. فقد **ظهر** الإسلام على مستوى البلاد، وصار في موقع الحكم والسلطان، وبقوة المسلمين الذاتية. حتى صار الكفر في هذه الأرض (المدينة) إذا ظهر شيء من شعائره، إنما ظهر بإذن من المسلمين، وذِمّة منهم.. وكان ذلك في تدرّج، وبنِسَبٍ متفاوتة.. حتى نزلت الأحكام النهائية في سورة التوبة..

وهذا على عكس ما كان عليه الحال قبل "التمكين"؛ في مكة والحبشة وغيرها.

وكذلك **الأمان** الذي تمتّع به المسلمون بعد التمكين، يعني في المدينة - وإن كان بنسب متفاوتة، فبعد غزوة الأحزاب ازداد وقوي عمّا كان قبلها - إلا أنه كان أماناً يستند إلى قوة المسلمين الذاتية، التي تحميهم في الداخل والخارج، حتى صار أمان الكفار في المدينة أماناً ممنوحاً من قِبَل المسلمين بالذمة والعهد..

وهذا على عكس ما كان عليه الحال قبل "التمكين".

157- [(تخافون أن يتخطّفكم الناس) يرسُم التعبير مشهداً حياً للقلة والضعف والقلق والخوف.. وهو مشهد التربُّص الوجِل، والترقُّب الفزِع، حتى لتكاد العين تبصر القسمات الخائفة، والحركات المفزَّعة، والعيون الزائغة، والأيدي تمتد لتخطف؛ والقلة المسلمة في ارتقاب وتوجّس !. ومِن هذا المشهد المفزع إلى=> الأمن والقوة والنصر والرزق الطيّب والمتاع الكريم، في ظل الله الذي آواهم إلى حِماه: (فآواكم وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات)..]. **[في ظلال القرآن - سيد قطب].** (وجيء بالجملة اسمية (أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ) للدلالة على ثبات وصف القلة والاستضعاف فيهم). **[التحرير والتنوير - ابن عاشور].**

وهكذا، فبتوفّر أمران اثنان **معاً** في واقع المسلمين، أصبحوا "أمة" تحقق شروط التكليف، هما: **التمكين** ومَظْهَره **السلطان**، ولازِمُهما:

- ✓ **ظهور** الإسلام [158]، بمعنى أن كلمة الله هي العليا، وأن حكم الله هو النافذ.
- ✓ **أمان** المسلمين، أي أن قدرتهم على حماية أنفسهم والدفاع عن دينهم، تستند على قوتهم الذاتيّة.

وإذا رجعنا إلى سيرة النبي ﷺ في أواخر خطواته في الهجرة إلى المدينة و "التمكين" فيها، نرى ذلك بوضوح، فالرسول ﷺ لم ينتقل إلى المدينة ويُقِـمْ كيان "الأمة" فيها إلا بعد أن تحقّقت عدة أمور:

- بعد أن أخبره مصعب ابن عمير أن الإسلام انتشر فيها.. وإنه لم يبقَ بيت في المدينة إلا وفيه ذكر للإسلام..
- وأمسك بيده ﷺ مقاليد القوة المسيطرة على المدينة، وذلك بموجب بيعة العقبة الثانية (بيعة الحرب). وبذلك ضَمِن الأمن الداخلي لمدينته، وتنفيذ أحكام الله، أي جعْل **"كلمة الله هي العليا"** فيها، بسبب هذه القوة.
- وضَمِنَ ﷺ، الأمن الخارجي - أيضاً - لمدينته بسبب هذه القوة؛ بما تعهّد به أهل بيعة العقبة الثانية **رضي الله عنهم** ، بحرب الأحمر والأسود من الناس الذين تُسَوِّل لهم أنفسهم غزو المدينة..
- **هذا**، وما قام به رسول الله ﷺ من أعمال سابقة، كان على هدى ونور من وحي الله في القرآن الكريم في سورة الإسراء؛ الآيات (76-81) [159] .. وكان هو الترجمة العملية لآيات سورة الحج: (38-41) [160].. كما ذكرنا سابقاً..
- ثم لمّا انتقل ﷺ إلى المدينة، **وأنشأ** كيان "الأمة المسلمة" **وأعلن** عن وجوده، إنما كان ذلك على أساس أن **الاحتكام** لا يكون إلا لشريعة الله **وحدها** (كلمة الله هي العليا)، ليس فقط في علاقات الأفراد داخل كيان الأمة، بل في العلاقات الخارجية أيضاً، وفَصْل الخلافات التي تنشب بين "الأمة" وبين الكيانات اليهودية المستقلة حول المدينة، فالحُكْم فيها لا يكون إلا لله **عزّوجل** وإلى رسوله ﷺ.. كما يدل عليه هذا النص الذي جاء في "صحيفة المدينة":

---

158 - معنى الظهور: الغلبة والشوكة والحُكم. **انظر (العبرة بما جاء في الغزو والشهادة والهجرة) ص 236- صدّيق بن حسن القنوجي. نقلاً عن كتاب (الجهاد والقتال في السياسة الشرعيّة) - محمد خير هيكل.**

159 - ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ **[الإسراء]**

160- ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا=> وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ **[الحج]**

(وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَث، أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردّه إلى الله **عزّ وجل**، وإلى محمد رسول الله ﷺ..).

[انظر التفصيل في صحة سند روايات "صحيفة المدينة"، في (صحيح السيرة) - إبراهيم العلي]

وعندما **تهيّأت** الظروف - حسب تقدير الله - أمر الله **تعالى** رسوله بأن يهاجر المؤمنون إلى المدينة، فبلّغهم رسول الله بأمر الله بالهجرة فهاجروا.. وانتظر ﷺ حتى جاءه أمر الله بأن يهاجر هو، فهاجر ومعه صاحبه الصدّيق **رضي الله عنه**.. وهو ﷺ مهدور الدَّم مطلوب حياً أو ميتاً مقابل مئة من الإبل.. إلا أن الله **عزّ وجلّ** كان مع رسول الله وصاحبه، ونصره على القوم الكافرين:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ .. ﴿٤٠﴾﴾

التوبة: ٤٠

فلمّا وصلا إلى يثرب أنارت بقدوم رسول الله ﷺ وأصبح كل شيء منيراً.. فأصبحت "المدينة المنوّرة"..

ثم أعلن رسول الله ﷺ عن ميلاد "الأمة المسلمة" ؛ (المسلمون والمؤمنون.. أمة واحدة من دون الناس).. ثم باشر - بناء على ما كان يتنـزَّل عليه مرتَّلاً من الوحي؛ والقرآن هو الأصل - في إرساء سلطان الأمة المسلمة على الأرض وتثبيت أركانه؛ تدريجياً.. وذلك في مسارَين رئيسَين:

- ✓ نزلت الآيات في بيان التركيبة العامة للمجتمع الجديد وطبيعة كل فئة من فئاته، مثل آيات الثلث الأول من سورة البقرة (1-141) حيث صنفت الناس في مجتمع المدينة المنورة: المؤمنون المتقون (مهاجرون وأنصار)، الكافرون، المنافقون، وأهل الكتاب؛ اليهود خاصة، والنصارى.. وبيّنت أبرز خصائص كل فئة وطبيعتهم.. وذلك كأساس لمنهج التعامل معهم في هذا الطور الذي تمُرّ به الأمة المسلمة في بداية تكوينها.. مع التأكيد على هُوية هذه الأمة وأنها أمة مسلمة لله وعلى ملة إبراهيم عليه السلام.. وأنها ستباشر مهمة الخلافة في الأرض على منهاج الله.
- ✓ القيام بأعمال وإعداد ترتيبات لها أبعاد مجتمعيّة: سياسيّة وعسكريّة واقتصادية وفكرية.. وقد نزل **الإذن بالقتال** دفاعاً عن كيان الأمة، وعن دين الله لتبقى "كلمة الله هي العليا".. ومن تلك الأعمال:
  - بناء المسجد.. (كمركز قيادة وتوجيه وتعليم وإعلام..)
  - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكفالة بعضهم بعضاً.. مع الحث على الإنفاق في سبيل الله.. لجعل كيان الأمة "كمثل الجسد الواحد".. وفي هذا الإطار، أول كلام قاله رسول الله بعد وصوله للمدينة:

    (اعبُدوا الرَّحمنَ، وأطعِموا الطَّعامَ، وأفشوا السَّلامَ تدخُلوا الجنَّةَ بسَلامٍ). **[الترمذي]**.

    (أيُّها النّاسُ أفْشوا السَّلامَ، وأَطعِموا الطَّعامَ، وصَلوا باللَّيلِ والنّاسُ نيامٌ، تَدْخُلوا الجَنَّةَ بسَلامٍ). **[صحيح ابن ماجه : 2648/ الدرر السنية]**
  - كتابة "صحيفة المدينة" كميثاق عام تُضبَط فيه الأمور المختلفة والمتعلقة بمصلحة الأمة وأمنها.. وجَعْل **المرجعيّة الوحيدة** في الأمور كلها، لله ورسوله، والاحتكام لا يكون إلا لهما (كلمة الله هي العليا) - وهذه قضية لا تدرُّج فيها.. وقد وردت في "الصحيفة" بعض

التشريعات المتعلقة بالديات (العاقلة).. وهي من تشريعات الجاهليّة المتعارَف عليها في حينه.. حيث أقرّها رسول الله ﷺ في ذلك الوقت.

- جَعْل المؤمنين في شبه "نفير عام" استعداداً لأي عدوان طارئ من قِبَل قريش أو غيرها..
- عمَل سوق جديدة خاصة بالمسلمين.. غير سوق يهود بني قينقاع.. في سياق تميّز واستقلال أمة المسلمين في تجارتهم عن تحكُّم اليهود واحتكارهم ورِباهم.. وفي تأكيد تميُّز أمة المسلمين عن غيرها وتفرُّدها، يأتي الأمر بتحويل القِبلة من المسجد الأقصى؛ القِبلة المشتركة مع أهل الكتاب.. إلى المسجد الحرام؛ قِبلة المِلّة الحنيفية، قبلة ملة الإسلام من لدن آدم **عليه السلام،** قبلة ملة إبراهيم الخليل **عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام..**

﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ ﴾ البقرة: ١٣٠

- وفي خارج المدينة - وعلى أساس أن القتال المأذون به هو للدفاع فقط - قام ﷺ بإرسال دوريات عسكرية حول المدينة والاتصال مع القبائل المحيطة، بقصد إظهار قوة الأمة الناشئة وهيبتها، وعقد المصالحة معهم وطمأنتهم بعدم مقاتلتهم ما لم يقاتلوا المسلمين..

ما سبق ملخَّص عام لما حصل مع رسول الله ﷺ في محطات رئيسة..

ثانياً: الذي حصل مع رسول الله ﷺ.. ما هي الأسباب التي أدّت إلى حصوله؟

ومن **التساؤلات** المهمة التي تفرض نفسها هنا، والتي ينبغي أن يسألها كل باحث في "منهاج النبوّة".. ما يلي:

ما هي الأسباب أو العوامل الموضوعية التي أدت إلى انتشار دعوة الله إلى الإسلام بين أهل المدينة بهذه السرعة؟.. ما دور التوقيت، والظروف؟.. وما دور رسول الله - الشرعي والسنني - في ذلك؟..

بداية، يجب أن لا ننسى:

- أن ما حصل من أعمال ومواقف وأحداث بين رسول الله وقريش من بداية "المرحلة الأولى" من السير بالرسالة والدعوة إلى الله.. إنما حصل نتيجة **تفاعل** مجتمع مكة وملئه مع دعوة الله ورسالته.. والتي كانت نتيجتها الطبيعية - حسب سنن الله - ما أصبح عليه الأمر في "الطور الثالث"..
- وأن ذلك التفاعل حصل نتيجة وجود "أسباب شرعية" (الأمر الشرعي)؛ متمثلة **بالمعالجات** الشرعية **وبمواقف** رسول الله والمؤمنين متبعين أمر الله.. وأيضاً، نتيجة وجود "أسباب سننية" متمثّلة **بسنن** الله الكونية (**مشيئة** الله العامة وإرادته الكونية/القدرية) الضابطة لسير الرسل بالرسالات في القرى والمجتمعات.. وكذلك، **بالخيارات** التي اتخذتها قريش وملؤها في مواقفهم من دعوة الله.
- ومن ثَمَّ، فإن النظر في ما حصل - من مواقف وأحداث - وفهمه، لا بد أن يكون من خلال

منظور سنن الله؛ الشرعية (الأمر الشرعي) و الكونية (القدرية) في حمل دعوة الله ورسالته في المجتمعات.. وكما بيّنها الوحي الحكيم؛ القرآن والسنة النبوية الشريفة..

وعليه نقول في جواب السؤال؛ جواباً عاماً:

1- إن حقيقة ما حصل مع رسول الله ﷺ في الانتقال من الاستضعاف إلى التمكين - في الأطوار الثلاثة - هو بسبب "**الطاعة الواعية**" لأمر الله **عزّوجل** (الكتاب)، وهي:

- ✓ الفهم الصحيح **لمراد** الله **تعالى** (السُنة) [161]،
- ✓ والفهم الدقيق لـ "**المناط**" (الأحداث، والمواقف، ومكونات المجتمع..) المراد معالجته، وحسب سنن الله الكونية،
- ✓ ثم **التنزيل** المناسب لتلك المعالجات على ذلك الواقع (الحكمة)..
- ✓ ثم **الثبات** (الاستقامة) **والصبر** على "معالجة الواقع (المناط)"، حتى يُحدِث الله بعد ذلك أمراً؛ إمّا قدراً أو شرعاً.. بمعنى الثبات على "الأمر الشرعي" والصبر على ما ينتج عنه من تداعيات وما يتطلَّبه من جهد.. حتى يوجِد الله لهم مخرجاً.. إمّا قَدَراً؛ تيسيراً للأمور (مثل الهجرة إلى الحبشة).. أو شرعاً؛ بحكم شرعي آخر (الهجرة إلى المدينة والإذن بالقتال).. وفي المحصلة، هذا هو القانون أو سنة الله الدائمة:

﴿ .. وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾ الطلاق: ٢ - ٣

﴿ .. وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝١٢٠ ﴾ آل عمران

2- وبهذه "**الطاعة الواعية**" لأمر الله الشرعي (السنة الشرعية)، يحصل **التأثير** القوي **للوحي في الواقع**، نتيجة "الكفاءة العالية" في المعالجة، فهي "السبب الأصل" في حصول ما حصل مع رسول الله من تيسيرٍ لـ "الأسباب" وتحقيقٍ لـ "النتائج" في واقعه الإنساني.. منذ البداية حتى تحقيق الغاية من الرسالة.. فبعد استعصاء قريش في مكة، يسَّر الله أسباب قبول دعوته في مكان آخر؛ في المدينة المنورة:

﴿ .. فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩ ﴾ الأنعام: ٨٩

(والمَعْنى: إنْ يَكْفُرِ المُشْرِكُونَ مِن أهْلِ مَكَّةَ بِنُبُوَّتِكَ ورسالتك.. فَلا يَضُرُّكَ كُفْرُهم، لِأنّا قَدْ وفَّقْنا قَوْمًا لِلْإيمانِ بِكَ، وهُم المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ كانُوا بِمَكَّةَ والمؤمنون مِنَ الأنْصارِ بِالمَدِينَةِ).
[انظر الجلالين، ابن عاشور وغيرها]

والآن إلى شيء من التفصيل..

161- بالنسبة للرسول هذا الفهم يأتيه وحيٌ من الله تعالى (السنة)، وليس اجتهاداً منه: =>
(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ{16} إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ{17} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ{18} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ{19}) **القيامة**،، (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) إن علينا جَمْعه في صدرك... (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) بالتفهيم لك).
[التفسير الميسر، وتفسير الجلالين].

"الطاعة الواعية"، إخلاصاً واتباعاً، هي سبب نجاة المؤمنين ونصرهم؛
فبها يكون تيسير الأسباب وتحقيق الأهداف

تذكير **بالخط العام**.. يقول الله **سبحانه وتعالى:**

﴿.. فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ طه: ١٢٣ – ١٢٤

قلنا: إنّ أصل **الهداية** التي في "أمر الله **الشرعي**" أنها هداية لـ "أمر الله **الكوني**"؛ خلقاً وتقديراً.. فباتباع هدى الله الذي أوحاه لرسله حتى خاتمهم (السنن الشرعية)، هو - في الحقيقة - هداية للسير حسب سنن الفطرة التي قدّرها الله للكائنات.. أي حسب خواصها وسننها الضابطة لها.. فلن يضل الإنسان عن طريق الصواب في معيشته، وبالتالي لن يشقى.. وفي المقابل إذا تَرَك الإنسان هدى الله الشرعي (السنن الشرعية) فقد ضل طريق الصواب في حياته ومعيشته وسيتصادم مع "سنن الله" في الكون والحياة والإنسان وسيُعارض خواص وسنن الفطرة التي خلَق الله الخلائق عليها.. والتي لا يعلم الإنسان منها إلا القليل القليل جداً.. وبالتالي فإن معيشته ستكون ضيّقةً عسِرةً ونَكِدة..

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الأعراف: ٥٦

أي، "لا تُدَنِّسُوا الأرض - أيها الناس - **بِفَسادٍ** ناتج عن اتباعكم الهوى وعملكم المعاصي **(162)** بَعْدَ أنْ أصْلَحَها الله لكم: خَلْقًا وتقديراً؛ فجعلها على نظام كوني صالح لحياتكم.. وأصلحها شرعاً؛ بأن أنزل نظاماً شرعياً على رسله وأنبيائه، لتعمروا الأرض بطاعة الله.. فإن **المعاصي** تُفْسِد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ الروم.. كما أن **الطاعات** تَصلُح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة.. وادعوا الله وكونوا من المحسنين؛ فإن رحمة الله قريب منهم".

[انظر السعدي، ابن عاشور، الميسّر، البقاعي]

---

162 - الفساد: خروج الشيء عن الفطرة، وعن الغاية أو الحكمة التي خُلق من أجلها. وعن كونه مُنتَفع => به. فالفساد: سوء حال الشيء ولحاق الضرّ به. ويضاده الصلاح وهو أن يؤدي المهمة التي خُلق من أجلها وكونه منتَفَع به. والإصلاح إنماء الصالح وإكثاره وزيادة فاعليته ومنفعته. أو جعل الشيء صالحاً مرة أخرى بعد أن أُفْسِد، فالإصْلَاحُ: ضدّ الإفساد. وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال: (إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) **[يونس 81]**، فالمُفسِد يضادّ الله في فعله، فإنّه يفسد والله تبارك وتعالى يريد في جميع أفعاله الصَّلَاحَ، فهو إذن لا يُصْلِحُ عملَه. وقوبل الصلاح في القرآن بالفساد تارة، وبالسّيّئة تارة أخرى. قال تعالى: (خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً) **[التوبة 102]**، (وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها) **[الأعراف 56]**. والصُّلْحُ يختصّ بإزالة النّفار بين الناس، يقال منه: اصْطَلَحُوا وتَصَالَحُوا، قال تعالى: (أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) **[النساء/ 128]**، (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) **[الحجرات 10]**. ولهذا كان من أشكال الفساد قطع الرحم والصلات بين الناس: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) **[محمد 22]**. وقد ذكر القرآن الكريم أشكالاً متعددة من "الفساد". **[أنظر مادة "فسد" في (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم). أنظر (تفسير الشعراوي). و(مفردات القرآن الكريم - الأصفهاني). وأيضاً (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم - د محمّد حسن حسن جبل)].**

هذا، والعلاقة بين "الإعراض عن الوحي" (عدم الطاعة أو المخالفة) كسَبَب.. ونتيجته "المعيشة الضنكى".. هي علاقة طردية تفاضلية.. فـ "الإعراض" هنا عام؛ فقد يصل إلى الكفر - والعياذ بالله - أو قد يكون مجرد المعصية من المؤمن.. بمعنى أن هذه السنة تشمل الكفّار بدركاتهم والمؤمنين بدرجاتهم.. فضَنك المعيشة يتناسب طردياً مع الإعراض عن الوحي؛ فيزيد بازدياده وينقص بنقصانه.. كماً وكيفاً.. ويؤيده عموم قوله سبحانه:

﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۞ ﴾ الزلزلة: ٧ - ٨

وبديهياً، هذه الحقيقة تنطبق على أمر الله في أحكام "المنهاج"؛ منهاج تلقي الرسالة وحملها والسير بها بقصد تحقيق الغاية في المجتمع.. وهو المنهاج الذي التزمه رسول الله وسار بحسبه حتى أكمل الله الدين وحقق الغاية على يديه ﷺ..

والفرق بين إعراض المؤمن عن قصد؛ بمعنى المعصية.. وبين الإعراض عن جهل أو تأوُّل خاطئ.. هو - فقط - فرق في الثواب في **الآخرة**؛ فالثاني قد يكون له عذر فلا يأثم، أو حتى ممكن أن يؤجر إذا اجتهد فاخطأ الصواب من مراد الله **تعالى**..

أما في **الدنيا**، بالنسبة للوصول النتائج؛ فلا فرق بينهما، فكلاهما - العاصي والمخطئ - لن يُحَقِّقا النتائج المطلوبة ولن يصلا إليها.. حتى تتم المراجعة والعودة إلى الصواب..

لأن أي مخالفة لأمر الله الشرعي معناه - العملي الواقعي - التعارض مع سنن الله في الواقع المجتمعي والكوني، وبالتالي التأخير في تحقيق النتائج.. أي التأخير في تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع.. فلا يصح إلا الصحيح.. [حتى في الأمور المادية المتعلقة بحياة الإنسان، فالسنن (القوانين) هي السنن].. وهذا من رحمة الله **تعالى** بالناس.. فعدم تحقيق النتائج وتحصيلها في الواقع هو الآية والدليل على وجود خلل ما أو خطأ في العمل.. وهو بمثابة المنبّه على وجوب إعادة النظر في العمل ككُل، سواء على مستوى الفهم أو مستوى التطبيق والتنزيل على الواقع.. فيبقى المسلم على بصيرة من سيره ويكون قريب من المراجعة وإعادة التصويب.. فهذا من معالم طريق السير.. فهناك **مَعالِم** للسير على منهاج النبوّة يجب على السائر المتَّبع لرسول الله وسائر على سبيله ومنهاجه، أن يَعْلَمها عِلماً **يقينا** وإلا فقد بوصلته وتاه في تعقيدات الطريق؛ تعرُّجاتها ومفارِقها، وهو لا يعلم أو يحسب نفسه أنه مهتدي..

واستخراج بعضها وبيانه أو الإشارة إلى البعض الآخَر، من أهم مقاصد هذا الكتاب..

ومن هنا، فبقدر ما يكون الالتزام الدقيق بأحكام "منهاج النبوّة" (أمر الله الشرعي) وعلى الفهم الصحيح.. بقدر ما يكون السير في المجتمع متوافق مع سنن الله (أمر الله القدري) - سواء علمنا بها أم لم نعلم - وبالتالي يكون تحقيق النتائج بتحقيق أمر الله الشرعي (دينه وشريعته) في حياة الناس في المجتمع فتكون معيشتهم بحسب شريعة الله..

ولكن ليس شرطاً أن تتحقق النتيجة في نفس المجتمع الذي بدأ فيه السير بـ "دعوة الله"؛ **فقد** لا يستجيب ذلك المجتمع وملؤه لـ "دعوة الله"، ويصرُّوا على ذلك كموقف نهائي لهم .. إلا أنه - وحسب سنن الله لهذه الحالة - **يجب** أن يصل أمر حمَلَة "دعوة الله" في علاقتهم مع المجتمع وملئه إلى المرحلة النهائية من السير بالدعوة.. وهي أن يصبح الناس في المجتمع فريقين مختصمين في ربهما، فيحكم الله بينهم؛ بنصر أوليائه الصادقين وبِخِزْي أعدائه المكذِّبين.. ويمكِّن الله لأوليائه

في مجتمع آخر يكون قد هيأه الله للاستجابة للحق.. وهي الحالة التي حصلت مع رسولنا محمَّد ﷺ .. وكذلك مع غالبية رسل الله **عليهم الصلاة والسلام**.. مع فارق خصوصية الأمة الخاتمة والرسالة الخاتمة.. كما ذكرنا..

وإذا حصل مع "حمَلَة الدعوة" في سيرهم غير الذي ذكرنا من معالم كبرى لنفس الحالة السابقة.. فذلك يعني بالقطع، أنهم سائرون على سبيل (طريق) آخر معالمها مختلفة، غير "سبيل رسول الله" (منهاج النبوة) بمعالمها المعروفة.. بمعنى أن هناك مخالفات شرعية وسننية قد حصلت من حَمَلَة "دعوة الله" في سيرهم.. ومِنْ نتائجها؛ أنه لن يكون هناك لا نصر ولا تمكين.. ولو استمر حمْلهم الدعوة هكذا مئة سنة.. بل ما سيكون هو الابتلاء وراء الابتلاء، والتعثُّر والتعسُّر.. لعلهم يرجعون.. ثم جمود وتحجّر ثم فناء.. فيصبحوا أحاديث؛ أي جزءاً من التاريخ.. أمّا ما كان عندهم من الحق فهو سيبقى، وأمّا الزبد فيذهب جفاءاً.. **تفصيل أكثر في ما يلي من البحث..**

هذا، وهناك أمثلة عملية ذكرها القرآن الكريم - أشرنا إليها سابقاً - على أن حصول النتائج وتحقيقها في الواقع مرهون بـ "الطاعة الواعية"؛ أي **الفهم** الصحيح و**التنزيل** الصحيح.. نُذكِّر بمثالين منها: واحد من أمة بني إسرائيل والآخر من الجيل الأول من أمتنا؛ جيل القدوة الصالحة:

1- تأخُّر حصول وعد الله **بالتمكين** لبني إسرائيل.. رغم أن الله **تعالى** قد **نصرهم** على فرعون؛ نجاهم منه وأغرقه وجنوده في اليم.. إلا أن وعد الله لهم بالتمكين في الأرض المباركة لم يتحقق، بسبب أنهم خالفوا أمر الله الذي بلّغهم إياه رسول الله موسى..

فرفْضهم "الهداية" الشرعية والتي هي طريق "الهداية" إلى التمكين وسبب فيه.. تؤدّي إلى نتائج عكسية؛ دخولهم في التيه في الأرض.. فلم يشفع لهم وجود رسولَيْن لله بينهم.. وقد استنفدوا كل مساحة العفو التي قدّرها الله **جلّ شأنه** لهم؛ حيث عفى عن كثير من المخالفات.. فسنن الله نافذة ولا تحابي أحداً ونتائجها حاسمة، وبعد استنفاد مساحة العفو والتجاوُز:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ الشورى: ٣٠

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ ﴾ الشورى

فمخالفة "أمر الله الشرعي" معناه التعارض مع سنن الله في الواقع المجتمعي، وبالتالي عدم تحقيق النتائج المرجوة.. الأمر الذي سيؤدّي إلى **تأخير** تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع.. أو **عدم** تحقُّقِها.. ما لم يتم الرجوع عن تلك المخالفات وتصحيح المسار؛ "لعلهم يرجعون"..

وكما حصل مع الجيل الأول من هذه الأمة المباركة في غزوة أُحُد وحنين.. حيث لم يشفع لهم وجود رسول الله ﷺ بينهم .. وذلك ليتعلَّموا الدرس وتكون لهم عبرة بعد ذهاب رسول الله من بينهم .. وتكون كذلك عبرة لنا حتى قيام الساعة؛ حيث لم تشفع لهم صُحبتهم لرسول الله ومكانتهم من نصرة دين الله.. ورغم أنه **جلّ وعلا** يعفو عن كثير من المخالفات.. فسنن الله نافذة ولا تحابي أحداً.. وعندما تساءلوا من أين جاءت هذه المصيبة، أتاهم الجواب من الله **تعالى**:

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ **عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ** إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ ﴾ آل عمران: ١٦٥

﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ **أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ** فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ﴾ التوبة: ٢٥

وشأن المؤمنين أنه إذا أصابهم خير، رَدّوا الفضل إلى الله وقالوا الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.. وإذا أصابهم "شرّ" أو "سوء" لم يلوموا إلا أنفسهم ولم يَتَّهموا إلا أنفسهم.. قال تعالى:

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ .. ٧٩ ﴾ النساء

كما في حديث النَّبيِّ ﷺ فِيما رَوَى عَنِ الله **تبارك وتعالى**، أَنَّهُ قالَ:

(.. يا عِبَادِي، إنَّما هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فمَن وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ..) **[عن أبي ذر الغفاري في صحيح مسلم 2577]**

لهذا تجد بعض الصالحين يقول: "إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلق حماري وخادمي وامرأتي وفأر بيتي". **[نسبها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية؛ للفُضَيل ابن عياض، وأيضاً أبو نعيم في الحلية بسنده، وابن الجوزي في صفة الصفوة]**.

2- وأن هذه هي سنة الله الدائمة مع عباده الصالحين؛ في تزكيتهم وتعليمهم وتوجيههم إلى صراط الله المستقيم، كما حصل مع الصالحين أتباع الرسل السابقين؛ "الربّيون" الذين قاتلوا مع أنبيائهم.. فلما أصابتهم "مصيبة" أو هزيمة أثناء دعوتهم إلى الله ومواجهتهم أعداء الله.. أدركوا أن السبب في تلك "المصيبة" هي مخالفتهم **لبعض** "أمر الله الشرعي" وإسرافهم فيها.. إلا أنهم صبروا وثبتوا واستغفروا الله **جلّ وعلا** وطلبوا منه العون والنصر على أعدائهم وأعداء الله.. فما كان من الله **جلّ شأنه** إلا أنْ تاب عليهم واستجاب لهم، فأعطاهم حسنة الدنيا؛ نصْرَهم على عدوهم.. ووعدهم بحُسن الثواب في الآخرة، عند مليك مقتدر **جلّ جلاله**.

النتيجة..

إن خروج الإنسان عن أمر الله الشرعي (الأسباب الشرعية) واتباعه لهواه - عن علم أو جهل - هو سبب الفساد في معيشته.. وظهور الفساد؛ بمعنى "سوء حال الشيء ولحاق الضرّ به"، دليل ذلك.. ذلك أن الخروج عن الأمر الشرعي يعني التصادم مع السنن الكونية والنظام العام الخَلْقي القدري الضابط لسير الكون والإنسان والحياة.. أي التعارض مع الخواص والسنن التي فطر الله الكائنات عليها (الأسباب الكونية).. وبالتالي الصعوبة والضنك والتعسّر وعدم الوصول إلى النتائج في الواقع.. يعنى أن "تحقُّق نتائج العمل في الواقع، هو الآية والدليل على صحة العمل الذي تم القيام به، والعكس صحيح"..

ومن هنا، فمن خلال "الطاعة الواعية"؛ **الفهم** الصحيح و**التنزيل** الصحيح لأمر الله الشرعي - ومنها أحكام المنهاج - من قِبَل حَمَلَة رسالة الله ودعوته، يحصل **التأثير** القوي **للوحي في الواقع**، بتغييره ليكون حسب مراد الله.. وذلك نتيجة "الكفاءة العالية" في المعالجة، بسبب "الطاعة الواعية" لأوامر الله.. والتي هي السبب الأصل في حصول ما حصل مع رسول الله من تحقيقٍ للنتائج،

حسب سنن الله في حمل الدعوة إلى الله في المجتمعات.. أي، بها تمَّ تيسير وتسخير لـ "الأسباب"؛ أمر الله الكوني.. وبالتالي تحقيق النتائج المرجوة.. وإن لم تحصل في نفس المجتمع يسّر الله الأسباب في مجتمع آخر..

فالأصل أن تكون حياة الإنسان - فرداً ومجتمعاً - في انتظامها وسلاستها مثل انتظام وسلاسة سير الكون والحياة؛ بنظام دقيق لا اختلال فيه ولا فوضى ولا فساد.. لأن سيره يكون منسجماً ومتوافقاً مع سنن الفطرة والخلْق التي قدّر الله العليم الحكيم للكون والحياة.. فلا يحصل أي فساد كان:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن **تَفَٰوُتٖۖ** فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن **فُطُورٖ** ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤ ﴾ الملك: ٣ - ٤

لكن الإنسان بحكم أن الله تعالى قد أعطاه الإرادة والمشيئة والشهوات كقوة محركة له.. فإذا هو خالف إرادة الله ومشيئته الشرعية (الأمر الشرعي) يُحدِث الفساد والفوضى في معيشته وحياته في مجتمعه بل وفي بيئته المحيطة به.. لأنه بمخالفته تلك يكون قد خرج عن "سنن الفطرة" التي قدّرها الله جلّ شأنه ليسير بحسبها الكون والحياة.. وهذا خاص بالكائنات العاقلة المكَلَّفة؛ الإنس والجن (الثقلان):

﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١ ﴾ الروم: ٤١

أي (ظهر الفساد في البر والبحر، في معايش الناس: بنقصها، كالجَدْب وقلّة الأمطار وكثرة الأمراض والأوبئة.. وذلك بسبب المعاصي التي يقترفها البشر؛ ليصيبهم بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ كي يتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى ويرجعوا عن المعاصي، ويصححوا سيرهم في حياتهم.. فتصلح أحوالهم، وتستقيم أمورهم).. فظهور الفساد والضنك وعدم تحقيق النتائج المرجوة.. إمارات على حصول مخالفات لأمر الله الشرعي، فلا بد من المراجعة وتصحيح الأخطاء..

فالحضارات التي قامت على غير هدى من الله فهي فاسدة ومفسدة وأصحابها مفسدين ولا يَسْعون للإصلاح؛ هكذا هي طبيعة الحضارات الجاهلية.. في النهاية، دمّرها الله بسبب ظلمها وفسادها وإفسادها.. كما أنذرتهم رُسُلهم.. رغم تقدمها في المجال المادي والتقني:

﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩ ﴾ الكهف: ٥٩

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤ ﴾ النمل: ١٣ - ١٤

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِى لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِى ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ **طَغَوۡاْ** فِى ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا **ٱلۡفَسَادَ** ١٢ **فَصَبَّ** عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ** ١٤ ﴾ الفجر: ٦ - ١٤

وهذه السنة تنطبق على كل فاسد مفسِد.. حتى أمة المسلمين.. أمة رسالة الله.. على مدار التاريخ (بني إسرائيل والأمة الخاتمة).. فهُم إذا خرجوا عن الأمر الشرعي، فسدوا وأفسدوا.. لأنهم بدّلوا وظيفتهم الأصل كمسلمين؛ وهي: إعمار الأرض بالإصلاح المادي: التقدم المدني والتقني.. وبالإصلاح الشرعي: من خلال هداية الناس إلى الله ربّهم الحق، لاتّباع أمره واجتناب نهيه.. وبمخالفاتهم للأمر الشرعي سيظهر الفساد.. فسيكون الله ربُّهم لهم بالمرصاد، فسيَبْتليهم بالنَّكد والعُسر والضنك في المعيشة وبتسليط أعدائهم عليهم.. عقوبة على الخروج عن أمر الله، وتنبيهاً لهم من غفلتهم ليراجعوا أنفسهم.. ويعودوا إلى الله ربِّهم ومولاهم..

فقد حذّر الله **جلّ وعلا** أمة بني إسرائيل من الإفساد في الأرض ، بأنهم إذا أفسدوا سلّط الله عليهم مَن يدمِّرهم ويسومهم سوء العذاب.. وإن تابوا وأصلحوا تاب الله عليهم.. وكلّما عادوا للفساد والإفساد عاد الله عليهم بالعذاب.. فهذه هي سنة الله، ومن حكمته أنه يبعث على المفسدين مَنْ يمنعهم من الفساد، لتتحقَّق حكمة الله في الإصلاح.. كما بيّن الله ذلك لنا في سورة الإسراء.. والتي هي تذكير للأمة الخاتمة وإعلام لهم بسنة الله **جلّ وعلا** في المفسدين حتى لا يقعوا بما وقعت به بنو إسرائيل.. وجاء هذا التذكير للأمة الخاتمة قُبيل الهجرة إلى المدينة المنورة.. أي قبل أن ينصرهم الله ويمكِّنهم في المدينة.. حيث يقول الله **تعالى**:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ... إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ... ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ الإسراء: ٢ - ٨

أي (وكما كرَّم الله محمدًا ﷺ بالإسراء، كَرَّم موسى **عليه السلام** بإعطائه التوراة، وجعَلَها بيانًا للحق وإرشادًا لبني إسرائيل، متضمنة نهيهم عن اتخاذ غير الله وليًا أو معبودًا يفوضون إليه أمورهم.. وأَمَرهم أن يكونوا شاكرين لنِعَمه، مقتدين بنوح **عليه السلام**؛ إنه كان عبدًا شكورًا لله بقلبه ولسانه وجوارحه... إنْ أحسنتم أفعالكم وأقوالكم أحسنتم لأنفسكم؛ لأن ثواب ذلك عائد إليكم، وإن أسأتم فعقاب ذلك عائد عليكم.. وعسى ربّكم أن يرحمكم بعد عقابه، إنْ تُبتم وأصلحتم.. وإن عدتم إلى الإفساد والظلم عُدْنا إلى عقابكم ومذلَّتكم.. وجعلنا جهنم للكافرين سجنًا لا خروج منه أبدًا.. فاحذروا أن تكونوا من أهلها). **[انظر التفسير الميسّر، المختصر]**

ومن أشكال إفساد بني إسرائيل؛ التحايل على شريعة الله، مثل التحايل على تحريم الصيد يوم السبت:

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾
الأعراف: ١٦٣

(..{وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ} أي: إذا ذهب يوم السبت، تذهب الحيتان (السمك) في البحر فلا يرون منها شيئا {كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر) **[تفسير السعدي]**.

وإذا استمروا على المعصية حتى تمادوا وطغوا وعتوا عن أمر الله ابتلاهم الله بعذاب أشد وأقوى وأدوم.. وهذه هي سنة الله الدائمة في الأمم صاحبة الرسالة.. ولا تغيير لسنة الله ولا تبديل:

﴿ فَلَمَّا **نَسُواْ** مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا **عَتَوۡاْ** عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن **يَسُومُهُمۡ** سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧ **وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ** فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ **وَبَلَوۡنَٰهُم** بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ **لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ** ١٦٨ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ **وَرِثُواْ** ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠ ﴾ الأعراف

(وقوله: "وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون"، يقول: واختبرناهم - بني إسرائيل - بالرخاء في العيش والخفض في الدنيا والدعة، والسعة في الرزق، وهي "الحسنات" التي ذكرها جل ثناؤه، ويعني بـ"السيئات"، الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال، "لعلهم يرجعون"، يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم وينيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه).

[انظر تفسير الآيات عند الطبري] (163)

163- لكن لإصرارهم على الطغيان والتمرُّد على الله جلّ وعلا، كتب الله عليهم الذل حتى يوم القيامة -=> إلا بحبل من الله أو بحبل من الناس - ومن ثَم فهُم أصبحوا لا يؤتمنون على حمل رسالة الله للناس، فاستبدلهم الله بأمة محمد ﷺ واختارهم سبحانه وتعالى ليكونوا الأمة الخاتمة الحاملة لرسالة الله الخاتمة.

هذا، والإطار العام الذي يُفهم فيه "الابتلاء" بالنسبة للمؤمن، هو: التمحيص بقصد الكشف والبيان (للمؤمن نفسه وغيره) عن استحقاق العبد - شرعاً وقدراً - للمنزلة التي سيجعله الله فيها؛ في الدنيا (النصر والهزيمة، العز والذل..) والآخرة (درجته في الجنة أو دركته في النار). وضمن المحددات التالية:

- أن وظيفة المؤمن - فرداً وأمة - هي؛ عبادة الله وحده وحمْل رسالته للناس (إخلاص الدين لله)..
- وأنه على ثَغْرة من ثُغَر الإسلام فلا يؤتينَّ من قِبَله..
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ **[النساء ٤٠]**
- أن الله سبحانه أرحم بالعبد من أمه وأبيه وأقرب الناس إليه..
- أن الله سبحانه رحمته سبقت عذابه.. فلا يعاجل بالعقوبة، ويعفو عن كثير..
- البلايا منبهات من الغفلة، وتعليم من الأخطاء.. "فالمؤمن كيِّس فطِن".. "ولا يُلْدغ مؤمن من جُحْر مرتين"..
- أنه، رُبَّ درهم سبق مئة درهم، وأن حسنات الأبرار سيئات المقربين..
- أن العبرة بالحياة الآخرة وليس بالدنيا، لأن الحياة الدنيا ممر إلى الحياة الآخرة وهي المقرّ..

انظر - مثلاً - آيات الله في القرآن الكريم التي يُبيِّنن الله تعالى فيها تجليه بأسمائه الحسنى على المؤمنين؛ بحكمته ورحمته وعلمه ونصره وإظهاره للحق وإبطاله للباطل.. في ما حصل معهم في غزوة بدر، أُحد، حُنين، صلح الحديبية، وتبوك.. وفي تحويل القبلة، وفرض القتال.. الخ.. بوصفها محطات رئيسة في سير المؤمنين لكي يصبحوا أمة مؤهلة لحمل رسالة الله للعالمين.

لكنَّ الله جلّ ثناؤه قد ميّز الأمة الخاتمة بسنن خاصة بها، بحكم أنها الخاتمة.. فلا أمة بديلة لها؛ فهي لا تُستَبْدَل بأمة أخرى.. بل إذا خالف قوم منها أمر الله وعصوا الرسول.. استبدلهم الله بقوم آخرين من نفس الأمة.

والمقصود مما سبق، التأكيد على أن التعسّر والشدة المستمرَّين أثناء السير، وعدم تحقيق النتائج المرجوّة في الواقع.. تُعتبر من العلامات الدالة على أن هناك خطأ ما في السير.. وأن سببه المباشر قد يكون؛ إما عدم "الطاعة الواعية" لأمر الله الشرعي؛ خطأ في الفهم أو خطأ في التنزيل.. أو معارضة سنة كونية (الأمر القدري)..
وهذا من رحمة الله بالناس، فهو - سبحانه - بإيقاعه الشدائد والتعسّر في حياتهم وعدم تحقيق النتائج.. يحذِّرهم وينبّههم أن سيرهم فيه خطأ وخروج عن الطريق الصحيح.. شرعاً أو قدراً.. حتى لا يتمادوا في الغفلة.. فالبلايا مُنَبِّهات من الغفلة، وتعليم من الأخطاء.. فلا بد من المراجعة وإعادة المحاولة مباشرة ودون إبطاء.. فإذا أعرض الإنسان عن هذه التحذيرات و"المنبِّهات" (المشاق والتعسّر) تمادى أكثر في انحرافه عن الصواب.. أي زيادة الأخطاء وتعقّدها أكثر.. مما يعني أن ثمن المخالفة سيكون باهظاً؛ سواء في الحياة الدنيا على مستوى تحقيق النتائج أم في الاخرة والمصير عند الله جلّ وعلا.. ومن ذلك تفعيل "سنة الاستِبْدال":

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا **وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا** غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ التوبة: ٣٩

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ **يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا** غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ محمد: ٣٨

والخطاب في هذه الآيات موجّه **للمؤمنين**..

وكما في حديث رسول الله ﷺ، وهو منهج حياة للمؤمنين يرشدهم الى العمل الصحيح المُثمِر:
(الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ علَى ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللَّه وَلَا تَعْجِزْ، وإنْ أَصَابَكَ شيءٌ، فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَما شَاءَ فَعَلَ؛ فإنَّ (لو) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ). **[صحيح مسلم الصفحة أو الرقم 2664]**
والمعنى باختصار..

"المؤمنَ القويَّ؛ أي الذي يملك أسباب القوة، وأولها قوة الإيمانِ، خَيرٌ وأَحبُّ إلى الله عزّ وجل منَ المُؤمنِ الذي فيه ضعف، بسبب قلة أسباب القوة عنده، وأخطرها؛ ضَعفٌ في إيمانِه.. وعلى المسْلم أن يحْرِصْ على ما يَنفَعُه من الأعمال في الدنيا والآخرة، باتباع أسبابِها؛ الكونية والشرعية.. وقبل ذلك (الأخذِ بالأسبابِ) عليه أن يكون معتمداً على الله مُسبِّبِ الأسبابِ.. لأنَّ هذا هو الأصل في الإنسانَ المؤمن؛ أن يطلب العَوْن والتَوفيق مِن الله تبارك وتعالى، **ثم** يأخَذ بالأسبابِ؛ الشرعية والقدرية، حتى يَحصُلَ له ما يُريدُه على أكمل وجه وأحسنه.. فإنَّه لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله..
ثمَّ يَنهى النَّبيُّ ﷺ عن العَجزِ، أي التَّثاقُل عمَّا لا يَنْبَغي التَّثاقُل عنه، ويَكونُ ذلك لعَدَمِ انْبعاثِ النَّفْسِ للخَيرِ مع وُجودِ القُدرةِ عليه.. بمعنى الأصل توفّر الهمة العالية..

ومَنْ عَمِل بتلك الوصيَّةِ وقام بها على وَجْهِها الأكمَلِ، ثُمَّ أصابَتْهُ بعْدَ ذلك مُصيبةٌ، فلا يَقُلْ: «لوْ أنِّي فَعَلْتُ كان كذا وكذا»؛ فإنَّ هذا القولَ غيرُ سَديدٍ، ولكنْ يَقولُ راضيًا، ومُؤمِّلًا الخَيرَ: «قَدَّر اللهُ»، أي: وَقَعَ ذلكَ بمُقتَضى قَضائِه وعلى وَفْقِ قَدَرِه، «وما شاءَ فَعَلَ»؛ فاللهُ فعَّالٌ لِما يُريدُ، ولا رادَّ لقَضائِه، ولا مُعقِّبَ لحُكمِه.. فعلى المؤمن أن لا يعجز.. بل يعيد المحاولة مرة وأخرى بهمة عالية متجنباً الأسباب التي أدت إلى حصول النتائج الخطأ".. **[انظر (الدُّرَر السنية - موسوعة الحديث)]**

وفي الختام، يقول الله **سبحانه تعالى:**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ الأنفال: ٢٤ - ٢٥

أي "يا أيها الذين صدَّقوا بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا ورسولًا وباليوم الآخر مصيراً وجزاءاً.. **استجيبوا** لله وللرسول بالطاعة والانقياد إذا **دعاكم** لما فيه حياتكم من الحق، ففي الاستجابة إصلاح حياتكم في الدنيا والآخرة.. وما فسادها وتعسُّرها إلا بسبب عدم الاستجابة.. فإياكم - أيها المؤمنون - أن تردّوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيُحَال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلِّب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء.. فهو سبحانه الذي ينبغي أن يُستَجاب له إذا دعاكم؛ إذ بيده ملكوت كل شيء، واعلموا أنكم تُجمَعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي كُلًّاً بما يستحق. واحذروا - أيها المؤمنون - عذابًا لا ينال العاصي منكم وحده، بل يناله وينال غيره، وذلك حين يظهر الظلمُ فلا يُغَيَّرُ، وأَيْقِنُوا أن الله قوي العقاب لمن عصاه، فاحذروا من معصيته".

[انظر الميسر، المختصر، السعدي، وغيرهم].

ذلك هو الخط العام.. وسنن الله الدائمة في الدعوة إلى الله والسير برسالاته في المجتمعات الإنسانية.. والآن:

كيف أدّت "الطاعة الواعية" من قِبَل رسول الله، إلى تيسير "الأسباب الكونية" وتحقيق النتائج المرجوّة على يديه ﷺ ؟

إن "الطاعة الواعية"؛ متمثِّلة **بالفهم** الصحيح و**التنزيل** الصحيح (الحكمة) لأمر الله الشرعي.. إخلاصاً واتباعاً.. كانت هي "الأسباب الشرعيّة" التي نَتَجَ عنها تيسير "الأسباب الكونية".. فبينما كان رسول الله ﷺ مستقيماً على أمر الله، صابراً محتسباً؛ يجاهد قريشاً بالقرآن من بداية إظهار دعوته على الملأ ومجابهتهم بها، حتى السنة السادسة للبعثة.. حيث اشتدّ أذاهم عليه ﷺ وعلى المؤمنين.. فطلب من بعضهم الهجرة إلى الحبشة، وأَمّر عليهم جعفر بن أبي طالب.. في أثناء تلك الأحوال العصيبة.. كان الله **جلّ وعلا** يُهيّئ الأمور والأحوال؛ ويُيسِّر الأسباب القدَرية (الكونية)، في أماكن أخرى من جزيرة العرب؛ سواء القريبة من مكة أو في أطراف الجزيرة.. أم في المناطق المحيطة بها من أرض فارس والروم.. تمهيداً لإزهاق الباطل المنتفش والمنتشر في الأرض كلها.. ولإظهار الحق الذي أنزله الله في الرسالة الخاتمة وبعث بها محمداً رسولاً خاتماً للعالمين.. بناء على "سنن الله" في الصراع و "المدافعة" بين الحق والباطل:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣ ﴾ التوبة

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. ۝١٨ ﴾ الأنبياء: ١٨

﴿ .. قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ۝١٦ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ **جُفَآءً** وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ **فَيَمْكُثُ** فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۝١٧ ﴾ الرعد

فهذه هي سنة الله **تعالى** مع "الحق" و "أهل الحق"؛ حَمَلَة "دعوة الله" ورسالته.. أما "الحق" فهو الثابت والمحفوظ بحفظ الله لدينه؛ قرآناً وبيانه من السنة الشريفة.. أما "أهل الحق" فالأمر منوط بهم؛ أولاً وآخراً: فبقدر ما يكونوا مُمَثِّلين للحق مُتَمَثِّلين به - "كان خُلُقُه القرآن" - مستَمْسِكين به.. بقدر ما يكتسبوا وينتفعوا بالخصائص والسنن التي جعلها الله لـ "الحق": **الثبات** في الأرض **والظهور** على الناس..

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ **ذِكْرُكُمْ** أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ وَكَمْ **قَصَمْنَا** مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ **ظَالِمَةً** وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ ﴾ الأنبياء: ١٠ - ١١

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ ﴾ ص: ١

أي "القرآن صاحِب البيان والشرف (والمعنيان متلازمان): يعني أن القرآن ذو بيان للناس، يُذكِّر الناس ويتَذكَّرون به بما ينفعهم في معاشهم ومعادهم.. وهو ذو شرف لشرفه؛ شرف ورفعة لمَن يتمسّك به عملاً واتباعاً.. **[انظر سورة ص في "تبيان سور القرآن"]**

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤ ﴾ الزخرف

وفي هذا السياق، نؤكِّد على أن ما حصل **فعلاً** مع رسول الله ﷺ والمؤمنين أثناء السير بالرسالة، وعلى امتداد الثلاث عشرة سنة من الدعوة إلى عبادة الله وحده، في مكة المكرّمة، بأطوارها الثلاثة.. يستوعب **أقصى** ما **يمكن** أن يحصل - حسب سنن الله - من مواقف وأحوال بين حَمَلَة الرسالة من جهة، والمجتمع وملئه الذين كفروا من الجهة الثانية..

هذا، وقد أظهر أهلُ رسالة الله ودعوته؛ الرسول ﷺ والمؤمنون - في هذه المرحلة من السير بالرسالة والدعوة إلى الله - أظهروا قمة الإخلاص لله، والإحسان في الثبات والالتزام بأمر الله الشرعي، والصبر على ذلك وعلى أذى قومهم.. إلى درجة التفاني والتضحية بالأموال والأنفس في سبيل الله.. وهو ما اصطلحنا عليه بـ "الطاعة الواعية" لأمر الله الشرعي.. إخلاصاً واتباعاً.. بمعنى أنّهم حققوا "الشروط الشرعية" أو "فعّلوا الأسباب الشرعية" للنصر والتمكين

التي اشترطها الله عزّوجل عليهم.. في هذه المرحلة من السير بالرسالة.. (164)

فما كان من الله جلّ شأنه إلا أن وفّى لهم وَعْده بالنصر والتمكين؛ فهو جلّ ثناؤه لا يُخلِف الميعاد.. وذلك بتهيئة الأمور والأحوال وتيسير الأسباب الكونية - حسب سنن الله - لإزهاق الباطل واستقبال الحق وأهله وتثبيتهم في الأرض.. وإليك البيان..

1- "البلاغ المبين" هو الظرف العام الذي فيه يحقق المؤمنون "شروط النصر والتمكين" أو "تفعيل أسبابهما"

إن السير بـ "دعوة الله" وحَمْلها في مجتمع ما، حسب "منهاج النبوّة"؛ خطاباً وأعمالاً.. بقصد تحقيق الغاية منها: "أمة تُخلِص دينها لله" وجعْل "كلمة الله هي العليا"، يقتضي أن حَمَلَة "دعوة الله" ما وصلوا إلى مستوى "النصر" و"التمكين".. إلا وقد حقّقوا شروطهما ووفّروا أسبابهما، وابتعدوا عن موانعهما.. حتى يصبحوا **هم أنفسهم أهلاً** لأن ينصرُهم الله و**يُمَكِّن** لهم في الأرض، حسب **سنن** الله **جلّ وعلا** في المؤمنين حَمَلَة دعوة الله"؛ سواء "السنن الشرعية" أو "السنن الكونية"..

164- لكن، كيف وصل رسول الله والمؤمنون إلى درجة اليقين في أنهم قاموا بالمطلوب منهم على أكمل=> وجه، رغم أن سير الدعوة في مكة قد تعسَّر ووصل إلى حالة صعبة جداً من التضييق على المؤمنين وإصرار الملأ على التكذيب بالحق؟ نقول: إن الوحي هو الذي أخبر رسول الله أن التعسّر ليس بسبب تقصير منهم في مثل قوله تعالى:

- {.. فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ٧٩ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ٨١} **[النمل]**
- { ...٥٣.. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٥٥} **[الذاريات]**
- { وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩} **[الطور]**
- { حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١١٠} **[يوسف]**

لكن ذلك حصل بعد أن اتَّهَم رسول الله نفسه ﷺ بالتقصير، فالتجأ إلى الله بدعائه المعروف بعد خروجه من الطائف (..إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، لك العتبى حتى ترضى..) فبعث الله تعالى بالجواب النهائي، حيث أنزل له ملَك الجبال ليفعل بقومه ما يشاء، إن شاء أنزل الله العذاب بهم الآن، وإن شاء أَجّله.. ويبقى السؤال الآن، كيف للمؤمنين الآن أن يعلموا يقيناً أن تعسّر سير الدعوة إلى الله ليس بسبب تقصير منهم، وقد انقطع نزول الوحي؟

نقول : صحيح أنه لا نزول للوحي بعد وفاة رسول الله، لكن نص الوحي - قرآن وسنة - الذي نزل لمعالجة تعسّر السير الذي واجهه رسول الله، موجود ومحفوظ، والظروف التي حصلت، وكيف كانت المعالجة؟ وعلى أي أساس؟.. كل ذلك موجود ومحفوظ.. فلا بد من التفكر والدراسة بعمق لمعرفة الحيثيات والعوامل التي كانت متوفرة من قِبَل المؤمنين (الأسباب الموضوعية؛ الشرعية والقدرية) التي استحقوا بها أن يقول الله لرسول الله ولهم: (..إنك على الحق المبين).. فلا بد للمؤمنين الآن من عرض طريقة سيرهم؛ خطاباً وأعمالاً.. على **بيّنات** الوحي **وقطعيّاته**، حتى **يعلموا** أن تعسُّر سيرهم ليس بسبب تقصير منهم؛ شرعي أو سنني. سنذكر بعضها هنا، وسنتطرّق لها، في "الباب الرابع" عند بحث "تنزيل منهاج النبوة على الواقع الإنساني المعين".

والأمر الجامع الذي يُمكِّن المؤمنين من تحقيق شروط وأسباب النصر والتمكين ـ الشرعية والقدرية ـ هو "**الطاعة الواعية**" لأمر الله في **بلاغ** "دعوة الله" بلاغاً "مبيناً"؛ أي بلاغاً يزيل الجهالة ويوجِد العِلْم، وبشكل مؤثِّر يؤدي إلى الإيمان بالحق المبين (أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير) واتّباعه ـ لمَن أراد ـ وفي نفس الوقت.. يؤدي إلى إقامة "الحُجَّة الرسالية" على مَن أبى واستكبر عن اتباع الحق المبين.. فإن أصرُّوا على "الجحود" كموقفٍ نهائيٍ لهم من رسالة الله ودعوته.. عندها لم يبقَ لهم عذر عند الله يمنع من استحقاقهم "العذاب الأكبر"؛ عذاب الاستئصال، ونزوله بهم في الحياة الدنيا قبل الآخرة:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥ ﴾

النساء: ١٦٥

﴿ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤ ﴾ طه: ١٣٤

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

(لا أَحَدَ أَغْيَرَ من الله، من أجل ذلك حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَر مِنْهَا وَمَا بَطَنَ،

وَلَا أحدَ أحبَّ إِلَيْهِ المدحُ مِنَ الله، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ،

وَلَا أحدَ أَحَبَّ إِلَيْهِ العُذر مِنَ الله، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ).

وَفِي لَفْظٍ: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ"). **[تفسير ابن كثير]**

ومن هنا، فإن "**البلاغ المبين**" للحق (فكرة الدعوة) لعموم الناس المخاطَبين.. والذي يترتَّب عليه الهداية لمن أراد، وإقامة "الحُجَّة الرسالية" على مَن جَحَد واستكبر:

- هو العمل الأصل لحامل "دعوة الله" ورسالته..
- وله وصف شرعي؛ من حيث "محتوى الخطاب" ومن حيث "منهج الخطاب"..
- وهو عمَلية **مستمرة**.. وخطوات عَمَلية يقوم بها حَمَلَة "دعوة الله" أثناء حركتهم في المجتمع.. فهو المجال الذي يعملوا فيه لاكتساب مؤهلات استحقاقهم النصر والتمكين؛ شرعاً وقدراً.. واستحقاق **الملأ** المُصرِّين على التكذيب ومَن **تبعهم** مِنْ المجتمع [165].. إنزال العذاب الأليم والخزي بهم.
- ويكون "البلاغ المبين" بالقيام بعملين معاً، وهما بمثابة رَكْنين له:

الأول: بالحُجَّة والبرهان

وذلك من خلال بلاغ وبيان موضوع أو "محتوى الخطاب"؛ "أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وأنه إليه يُرجَع الأمر كلّه وإليه المصير" (فكرة الدعوة).. وحسب "منهج الخطاب".. أي بإقامة الحُجَج والبراهين ـ العقلية والفِطْرية ـ القاطعة على الحق.. بـ "الآيات البيّنات"..

وسنفصل فيه القول في (المبحث الثالث)

165- قد تكون هناك فئة كبيرة من المجتمع صامتة؛ مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا هؤلاء، فإذا مالوا لأهل الباطل جاءهم نصيبهم من العذاب؛ عاجلاً أو آجلاً.

الثاني: بالمواقف والأعمال

وهي على قسمين: قسم متعلّق بعلاقة المؤمنين حَمَلَة الدعوة، بالله وبأنفسهم؛ من حيث التزكية والتعليم.. والآخَر متعلِّق **بعلاقة** المؤمنين بالمجتمع؛ من حيث بيان الحق وإقامة "الحُجَّة الرسالية".. **وله** خطوات أو مستويات متناسبة مع تطوُّر مواقف المجتمع وملئه من دعوة الله ورسالته.. في إطار معالجتها..

بعض الأدلة على أن إقامة "الحُجَّة الرسالية"، لها ركنان؛ البرهان والأعمال

قوله سبحانه:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ﴾ الشورى

أي؛ "فإلى ذلك الدين القيّم الذي شرعه الله للأنبياء ووصّاهم به، فادع - أيها الرسول - عباد الله، واستقم كما أمرك الله.. وقل:.. أَمَرني ربّي أن أعدل بينكم في الحكم، الله ربّنا وربّكم، لنا ثواب أعمالنا الصالحة، ولكم جزاء أعمالكم السيئة، لا خصومة ولا جدال بيننا وبينكم بعد ما تبيّن الحق، وكل فريق يتحمَّل نتائج موقفه من الحق.. فالله يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، فيقضي بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه، وإليه المرجع والمآب، فيجازي كُلًّا بما يستحق.

ولتعلموا أن الذين يجادلون في دين الله الذي أرسَلْتُ به محمدًا ﷺ، مِن بعد ما استجاب الناس له وأسلموا، حجتهم ومجادلتهم باطلة ذاهبة عند ربهم، وعليهم من الله غضب في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد، وهو النار". **(التفسير الميسر وغيره)**

وكما في قوله سبحانه:

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ **فَرِيقٞ** مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١ ﴾ المؤمنون: ١٠٩ - ١١١

فالفريق الذين **استجابوا** لدعوة الله بالدليل والبرهان، **واستقاموا** على أمر الله.. أصبحوا هُم حُجَّة **ثانية** على فريق الذين لم يستجيبوا.. لأن الذين استجابوا لمّا رأوا البيّنات، ما كان منهم إلا الخضوع للحق.. والذين أبوا قَدْ رأوا البينات أيضاً مثل فريق المؤمنين، لكنّهم أبوا الخضوع للحق وذلك لكِبْرٍ في نفوسهم.. وبهذا قامت "الحُجَّة" عليهم مرة أخرى - بعد الدليل والبرهان - عندما **استجاب** ذوي النفوس الطيبة والعقول الراجحة، لدعوة الله، واتخذوا **موقف** الإيمان بالله واتّباع الرسول بناء على الدليل والبرهان.. وذلك من باب: لماذا أبَـيْـتم الإيمان واتّباع الحق بينما الفريق الآخر قَبِل واتّبع؟!!.. رغم أن **الكُل** قد شاهد الحقائق، والآيات البينات دليل عليها.. فالذي رفضها ما رفضها إلا لِكِبْرٍ في نفسه واتباعٍ للهوى.. كما قال سبحانه:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ القصص: ٥٠

ونشير إلى أن تنزيل ذلك الحكم على الشخص الذي لم يستجب، مشروط بوصول الحق إليه "بلاغاً مبيناً" بوصفه الشرعي، فأدركه ووَعَاه.. بدليل قوله تعالى: (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ) أي للرسول، وقد قام - قطعاً - بالبلاغ المبين للحق بوصفه الشرعي. ونحن عندما نقوم ببلاغ الحق (فكرة الدعوة) للناس، يجب أن نقوم به بوصفه الشرعي كما قام به رسول الله؛ اقتداء به ﷺ.. عندها نستطيع الحكم على مَنْ يرفض "دعوة الله" أنه رفضها اتباعاً لهواه:

(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ)..

ويقول سبحانه وتعالى عن الذين يستجيبون للحق:

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الزمر: ١٨ - ٢٠

من الأمثلة على النفوس الطيبة التي خَضَعَت للحق لمّا شاهدت البيّنات؛ سَحرَة فرعون، رغم أن فرعون هدَّدهم بالتعذيب والقتل:

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ طه

وكذلك النفر من الجن الذين أخبرنا الله عنهم:

﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ الجن: ١ - ٢

ومن الأمثلة على المتكبرين عن الحق رغم مشاهدتهم الأدلة القاطعة (البيّنات)، هذه النوعية من الناس:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ غافر: ٥٦

أي "إن الذين يدفعون الحق بالباطل، ويردُّون الحجج الصحيحة بالشُّبَه الفاسدة بلا برهان ولا حُجَّة من الله، لا يحملهم على ذلك إلا إرادة الاستعلاء والتكبر على الحق، ولن يصلوا إلى ما يريدونه من الاستعلاء عليه، فاعْتَصِم بالله من شرهم؛ إنه هو السميع لأقوالهم، البصير بأفعالهم، وسيجازيهم عليها". **[انظر الميسر، المختصر، السعدي]**

وبما سبق، تبيَّن أن إقامة "الحُجَّة الرسالية" على الجاحدين - والتي ليس لهم بعدها عذر عند الله يمنعهم من عذابه - تكتمل بركنيها الاثنين:

الركن الأول: بالدليل والبرهان؛ لـ "محتوى الخطاب" وبحسب "منهج الخطاب"

"**محتوى الخطاب**" (فكرة الدعوة)، هي "البشارة والنذارة": وهي الطلب من الناس أن يعبدوا الله وحده (إخلاص الدين لله)، على أساس حقيقة أنه لا إله إلا الله (فكرة الرسالة).. مع تحميل المسؤولية (بيان المصير) لكل مَن وَصَلَته هذه الدعوة وفَهِمَها (بلاغاً مبيناً)، فمَن أجابها له الجنة، ومَن رفضها له النار..

فـ "محتوى الخطاب": هو "أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير"..

﴿ قُلْ **إِنَّمَا** يُوحَىٰٓ إِلَيَّ **أَنَّمَآ** إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠٨ - ١٠٩

وهي دعوة رسل الله جميعاً وأنبيائه - كما هو معلوم - من لدن آدم حتى خاتمهم **عليه وعليهم من الله تعالى أتم الصلاة والسلام..**

أمّا "**منهج الخطاب**" بشكل عام:

فهو {طريقة الخطاب القرآنية في البيان للحق والتعليم والتزكية، وفي إقامة "الحُجَّة الرسالية"}، أي كما خاطب الله الناس في رسالته.. الأمر الذي يقتضي أن الأصل في مخاطبة الناس، أن يُخاطَبوا **بالآيات** نفسها؛ أي تلاوة آيات الله - ذات العلاقة - عليهم وإسماعهم إياها، **مع بيانها** بما يحقق الهدف المطلوب؛ "البلاغ المبين" بأن يفهم الناس مراد الله بشكل واضح ومباشر ومؤثر يدفعهم للاتّباع؛ لمن أراد الهدية.. و"يقيم الحُجَّة" على من أبَى.. وذلك حسب مرحلة السير بالدعوة، والطور الذي وصله بلاغ الرسالة:

﴿ .. **وَأُوحِيَ** إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ **لِأُنذِرَكُم بِهِۦ** وَمَنۢ بَلَغَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ الأنعام: ١٩

أي، "وأَوْحَى الله إليَّ هذا القرآن مِن أجل أن أخوّفكم - أيها الناس - بما في القرآن من وعيد الله للمكذبين بالحق.. فمَنْ بَلَغَه القرآنُ بلاغاً مبيناً فقد أُنذِرَ"..

فالأصل بالإنذار أن يكون بتلاوة نَصّ آيات القرآن، مع بيانها بما يحقق المطلوب.

ومن أبرز خصائص "منهج الخطاب"؛ **التنويع** الذي يتناسب مع شدة مواقف المجتمع وملئه من دعوة الله ورسالته.. في إطار معالجاتها.. كما قال سبحانه:

﴿ وَلَا **يَأْتُونَكَ** بِمَثَلٍ إِلَّا **جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ** وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان: ٣٣

وعن ابن عباس: (فكان المشركون إذا **أحدثوا** شيئاً **أحدث** الله لهم جواباً). **[أخرجه ابن أبي حاتم]**

وبشكل عام، في ما يتعلّق بالركن الأول من إقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع وملئه.. فموضوعه ومحتواه يبقى كما هو لا يتغير.. خلال مرحلة "ما قِبْل التمكين" بكاملها.. أما "أسلوب العرض" فقد يتغيّر بحسب ردود أفعال المجتمع وملئه من الحق المبين .. ففي حال أصروا على التكذيب وصعّدوا مواقفهم ضد المؤمنين، سيَتَنوّع "أسلوب الخطاب"؛ من البيان والشرح إلى الشدة والتقريع والاستنكار.. الخ.. من أساليب الخطاب في اللغة.. وهو ما أسماه القرآن بـ "تصريف الآيات"، والإكثار من "ضرب الأمثال".. كما هو واضح من الخطاب القرآني في السور المكية:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنعام: ٤٦ - ٤٧

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ الكهف

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ الروم: ٥٨

[انظر تفصيل "منهج الخطاب" في (المبحث الثالث) من هذا الباب]

الركن الثاني: "البيان العملي"؛ بالمواقف والأعمال التي يقتضيها "الخطاب"

ما **يقتضيه** "الخطاب" من المؤمنين - حَمَلَة دعوة الله ورسالته - من مواقف وأعمال؛ إيماناً وعملاً صالحاً، في سياق "البلاغ المبين" وإقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع.. **يكون** في مجالين؛ متداخلَين ومتلازمَين ولا يمكن الفصل بينهما.. فالعلاقة بينهما تفاعلية؛ تأثير وتأثر متبادَل.. فكل مجال يؤثر في الآخر ويتأثر به:

- ✓ مجال علاقة المؤمنين بالله وبأنفسهم؛ في سياق "التزكية والتعليم".. وغايته أن يكون حامل "دعوة الله" ورسالته مُمثِّلاً لها؛ أن يكون "خُلُقُه القرآن" بالتزام المؤمنين وقيامهم بما تقتضيه عملية "التزكية والتعليم".. من الأعمال الصالحة؛ أعمال القلب والجوارح.. مثل؛ استمرار الثبات على الحق والصبر..
  ومما يُساهِم في ظهور آثار هذا المجال على واقع المؤمنين؛ هو "الممارسة العملية" لأعمال المجال الثاني..:
- ✓ مجال علاقة المؤمنين بالمجتمع؛ في سياق البيان للحق وإقامة "الحُجَّة الرسالية على الأتباع والمتبوعين.. الملأ وعامة الناس.. مثل: عدم المداهنة أو الركون إلى الذين ظلموا.. الجرأة في قول الحق.. **واستمرار** المؤمنين في إقامة "الحُجَّة الرسالية" بالدليل والبرهان ما دام أولئك مصرّين على رفض الحق المبين؛ دعوة الله إلى عبادته وحده **جلّ شأنه**:

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان: ٣٣

أي (وَلا يَأْتُونَكَ بِحُجَّة وَشُبْهَة، وَلا يَقُولُونَ قَوْلًا يُعَارِضُونَ بِهِ الْحَقَّ، إِلَّا أَجَبْنَاهُمْ بِمَا هُوَ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَأَبْيَنُ وَأَوْضَحُ وأفصحُ مِنْ مَقَالَتِهِمْ). **[تفسير ابن كثير]** ..

والممارسة العملية لأعمال وأقوال هذا المجال له أثر مباشر على تزكية وتعليم المؤمنين؛ أفراداً وجماعة (المجال الأول).. في سياق تأهيلهم ليستحقوا النصر والتمكين وليكونوا أمة قادرة على تحمُّل أعباء خلافة رسول الله في حمل رسالة الله الخاتمة للعالمين.

المجال الأول: علاقة المؤمنين بالله جلّ ثناؤه و بأنفسهم

من حيث علاقة كل واحد منهم بالله وعلاقتهم جميعهم بالله.. وعلاقة بعضهم ببعض كجماعة تحمل دعوة الله إلى المجتمع.. وذلك من جهة مستوى التعليم والتزكية، والتخلّق بأخلاق القرآن - كل فرد بحسب طاقته وجهده وطبيعته - تأسّياً في رسول الله حيث (كان خُلُقُه القرآن) كما قالت السيدة عائشة **رضي الله عنها**.. والصبر على ذلك..

هذا، وقد تمثَّل عموم الجيل الأول من الأمة بأغلب أخلاق وخصائص المؤمنين المتقين وصفاتهم؛ فكانت ظاهرة فيهم ويُعرَفون بها.. والتي جاءت في السور المكية.. وهي نفسها صفات المؤمنين المؤهلين - وإن كانوا قليلاً مستضعفين - لأن يوفِّقهم الله **تعالى** للنصر والتمكين في الأرض، ويأتمنهم على دينه وشرعه.. والتي ورد أغلبها في السُوَر المتعلقة بأواخر المرحلة الأولى؛ "قبل التمكين".. أو في بدايات مرحلة "التمكين"، ومنها:

1- صفات المتقين التي وردت في أول آيات سورة البقرة، وقبل ذلك، في وصْف أخلاق المؤمنين وسَمْتهم في السور المكية، منها: الأنعام، المؤمنون، الإسراء (الحكمة)، يونس، لقمان، الشورى، الفرقان (عباد الرحمن)، الحج (المخبتين وغيرهم) وسورة المعارج (صفات المصلين).. وفي آخر "الطور الثالث" نزلت آيات سورة المزمل، تأمر رسول الله والمؤمنين بقيام ثلث الليل إلى ثلثيه، في قراءة القرآن أثناء الصلاة.. كمراجعة شاملة لكل ما نزل من القرآن لحينه.. تهيئةً لهم للمرحلة التالية؛ التمكين. **[انظر سورة المزمل في "تبيان سور القرآن"]**

2- "وصف جامع" كشرط لنصر وتمكين المؤمنين، وهو: أن يصبح حالهم الظاهر والطاغي عليهم؛ أنهم "يخافون مقامهم بين يدي الله ويخافون وعيده بالعذاب لمن عصاه".. كما قال الله **جلّ وعلا** في حق حَمَلَة الرسالة، في الطور الأخير قُبيل التمكين؛ طور الفصل بين "الفريقين"، في الآيات التالية:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ **لَنُخْرِجَنَّكُم** مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ **لَتَعُودُنَّ** فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ **لَنُهْلِكَنَّ** ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ** ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ **ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** ﴿١٤﴾ ﴾ إبراهيم

فهذا الوصْف الجامع: (لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) هو شرط الله على حَمَلَة رسالته ودعوته إلى المجتمع - وإن كانوا قلّة مستضعفة - حتى يوفقهم الله للتمكين في الأرض..

{ذلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}، "ذلك" إشارةٌ إلى إهلاكُ الظالمين ونصر المؤمنين وتمكينهم في الأرض، أي ذلك الأمرُ محققٌ ثابت لِمَن خاف **مقامه** بين يدي الله يوم القيامة **أو** لِمَن خاف **قيامي** (الله) عليه، ومراقبتي له وحفظي لأعماله.. وخاف من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي.

والمعنى أن ذلك حقٌّ للمتقين كقوله:

(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بالله وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [الأعراف:128]. **[انظر تفاسير: الطبري، القرطبي، ابن كثير، أبو السعود، وغيرهم]**

وهذا لا يعني العصمة من الوقوع في الأخطاء أو أن المؤمنين ملائكة.. بل هم بشر من الناس يصيبون ويخطئون، ولكن "خير الخطائين التوابون".. إنما المقصود هو أن هذا هو الأصل في سمتهم وطبعهم.. فهو الذي يجب أن يظهر أثره على المؤمنين كسَمْت عام ظاهر يُعْرَفون به..

[انظر سور الماعون والليل في "تبيان سور القرآن" (الجزء الثاني)]

والمقصود، التأكيد على أن هذا الدين لا تقوم له قائمة إلا بحَمَلَة يقومون بأعبائه وحسب منهاجه.. فإذا وُجِد هؤلاء الحَمَلَة، سيكونون محلاً لمعيّة الله وتوفيقه ونصره، لأنه هو الذي يتولّى دينه وليس الحَمَلَة، إلا أن الحَمَلَة هم "السبب العاقل" الذين يبذلون الأسباب؛ الشرعية والقدرية.. متوكلين على الله، فيُروا اللهَ **تعالى** منهم ما يُحبّ ويَرضى.. عندها يستعملهم الله ويجعلهم سبباً لنصرة دينه وتمكينه في الأرض:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ النور: ٥٥

(هَذَا وَعْدٌ مِنَ الله لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ، أَيْ: أئمةَ النَّاسِ والولاةَ عَلَيْهِمْ، وَبِهِمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ، وَتَخْضَعُ لَهُمُ الْعِبَادُ، ولَيُبدلَنّ بَعْدَ خَوْفِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَمْنًا وَحُكْمًا فِيهِمْ، وَقَدْ فَعَلَ **تبارك وتعالى** ذَلِكَ. وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.. وقوله: ﴿**يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً**﴾ هذا ثناء عليهم، **وتعليل** لما وهبهم وأعطاهم؛ يعبدونه لا يشركون به شيئاً وقد فعلوا..

ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة؛ فكلما قام المسلمون بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجَد ما وعدهم الله، وإنما يسلّط عليهم الكفار والمنافقين، ويُديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالشرط: ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾.. أو ببعض عناصره..

وقوله تعالى: ﴿ومَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفاسِقُونَ﴾، وعيد وتهديد لمن "كفر" بعد ذلك الإنعام العظيم والعطاء الجزيل، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله، المستوجِبون لعذابه ونقمته. عياذاً بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله). **[انظر: الطبري، ابن كثير، أيسر التفاسير، السعدي]**

3- وصَفَ الله **سبحانه** المؤمنين في آيات سورة الحج، أنّهم يقولون: "ربّنا الله"، وأن حالهم يُصدّق مقالهم.. فلمّا نصروا الله نصرَهم:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ **نَصۡرِهِمۡ** لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن **يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ** وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ﴾ الحج

(كان المسلمون في أول أمرهم ممنوعين من قتال الكفار، مأمورين بالصبر على أذاهم، فلما بلغ أذى المشركين مداه، وخرج النبي ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة، وأصبح للإسلام دار وأنصار وقوة، أَذِنَ الله للمسلمين في القتال، بسبب ما وقع عليهم من الظلم والعدوان.. لدفع الظلم والعدوان.. وهي أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ في القِتالِ بَعْدَ ما نُهِيَ عَنْهُ في نَيِّفٍ وسَبْعِينَ آيَةً..

وإن الله على نصر المؤمنين وإذلال عدوِّهم دون قتال لقدير، لكنّ حكمة الله اقتضت أن يختبر المؤمنين بقتال الكافرين. فهذه هي سُنّة الله في "الأمة الخاتمة" أن يكون عذاب أعدائهم بأيدي المؤمنين أنفسهم؛ قتلاً وأسراً.. الذين أُلجِئُوا إلى الخروج من ديارهم، لا لشيء فعلوه إلا لأنهم أسلموا أنفسهم لله وقالوا: ربُّنا الله؛ لا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين.. فإن كان هذا ذنباً، فهو ذنبهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج]

﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّا إلا أنْ آمَنّا بالله﴾ [المائدة: ٥٩]

فهذه هي تُهمتهم الوحيدة.. أنهم يقولون: "ربُّنا الله" مخلصين له الدين.

ولولا ما سَنّه الله **عزّوجل**؛ شرعاً وقدراً.. مِن دَفْع الظلم وردِّ الباطل بالقتال، لهُزِم الحقُّ في كل أمة ولخربت الأرض، وهُدِّمت فيها أماكن العبادة التي يُذكَر اسم الله فيها كثيرًا..

ومن اجتهد في نصرة دين الله - وكما يريد الله - فإن الله ناصره على عدوه، وعدٌ مُحقَّق.. والله لا يخلف المعاد.. إن الله لَقوي لا يُغالَب، عزيز لا يُرام، قد قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم).

[انظر تفاسير: الميسر، المختصر، أبو السعود، السعدي]

4- وما ورد في آيات سورة الحج من شروط مباشرة وصريحة للتمكين:

﴿...ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ الحج

وعند أهل التفسير وجهان في ربط ضمير الوصل "الذين":

الأول: يعود إلى {لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ} و{ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ}، فيكون المراد: أنْ هَذَا **شَرْط** الله على هذه الأمة..

أي أَخَذَ الله العَهْدَ عَلى مَن نصره على أعدائه ومَكَّنَهُ، أنْ يَفْعَلَ ذلك؛ أي ما ورد في جواب الشرط..

الثاني: أن تكون بدلاً مِنْ {مَن} الموصولة في قوله: {مَنْ يَنْصُرُه} فيكون المراد: أن كل مَنْ **نَصَر** دين الله من أجيال المسلمين؛ فكانت هذه صفاته؛ الواردة في الآية.. **مكنّاهم** بالنصر الموعود به..

نقول: ومن الناحية العملية، فالوجهان في فَهم الآية، متلازمان ومتداخلان؛ فتحقيق هذه الفروض - الواردة في الآية - يجب أن يكون في الذهن عند سعي المؤمنين نحو "التمكين" أو عندما تحين لهم فرصة به، فيجب على المؤمنين التأكّد بأنهم إذا استغلّوا هذه الفرصة ومكّن الله لهم في الأرض، أنّهم سيكونون قادرين مادياً وروحياً، على تحقيق هذه الفروض وكما أمر الله، كدليل على أن "كلمة الله هي العليا". وهو ما كان حريصاً عليه رسول الله في شروطه لـ "بيعة الحرب"، ثم كتابة "صحيفة المدينة".

وعلى الاحتمال الثاني؛ فتحقيق هذه الفروض (جَعْل كلمة الله هي العليا) شرط الله لبقاء المؤمنين ممكَّنين في الأرض مستَخْلَفين فيها، كما في قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد7].

هذا بعد التمكين.. أمّا قبل التمكين؛ فلن ينصرهم الله ويأتمنهم على دينه، حتى يكونوا هُم أهلاً لذلك؛ وقد كانوا.. **رضي الله عنهم**.. بما سبق وتمثلوه من العبودية لله وطاعة رسوله (الطاعة الواعية)، سواء:

- في ما يتعلَّق بهم أنفسهم: بالتحلي بأخلاق المؤمنين المُتَّقين، وبالصبر على صعوبة السير وعقباته..
- أو في تبليغ الرسالة للمجتمع بلاغاً مبيناً: ومنه إقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع، في حال أصروا على "الجحود" بالحق.. وغيرها من الأعمال.. (كما سنبيّن)

فالوجهان كانا منطبقين بشكل واضح على عموم المؤمنين؛ المهاجرين بداية.. وعندما حصلت "بيعة الحرب"، وتمت الهجرة على أساسها.. فقد توفَّرت فيهم جميعاً - مهاجرين وأنصار - شروط استحقاق النصر والتمكين، وكانوا قادرين؛ مادياً وفكرياً وروحياً، على المحافظة عليه.. نصروا الله فنصرهم الله، والله جلّ وعلا لا يخلف الميعاد.. بمعنى أنهم حققوا منزلة "الخوف من مقام الله ووعيده" بالدرجة المطلوبة؛ بظهور علاماتها عليهم.. من الاستقامة والمثابرة والصبر والإخلاص لله.. [بدليل ما أثمرته لاحقاً من مواقف إيمانية في غزوة بدر، فكانوا "أهل بدر" أو "البدريّين"].. عندها آتى عملهم الشاق وجهدهم المُضْني - في الدعوة إلى الله وبلاغ رسالته - ثماره.. فَمَنَّ الله عليهم بنصره وتأييده، وتيسير أسباب استجابة الناس في المدينة المنورة لدعوة الله..

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ إبراهيم: ١٣ - ١٤

5- وهناك شرطان (وصفان) عامّان؛ الاستعانة بالله، والصبر.. ويقومان على أساس حقيقتين: أن الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده.. وأن العاقبة للمتقين.. وهذه سنة إلهية عامة.. يقول سبحانه:

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ **ٱسْتَعِينُواْ** بِٱللَّهِ **وَٱصْبِرُوٓاْۖ** إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ **يُورِثُهَا** مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ **وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴿١٢٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٢٨

أي (قال موسى موصيًا قومه: يا قوم، اطلبوا **العون** من الله وحده في دفع الضر عنكم وجلب النفع إليكم، **واصبروا** على ما أنتم فيه من الابتلاء، فإن الأرض لله وحده، وليست لفرعون ولا لغيره حتى يتحكَّم فيها، والله هو الذي يداولها بين الناس حسب مشيئته، واعلموا أن العاقبة الحَسَنة في الأرض للمؤمنين الذين يمتثلون أوامر ربهم ويجتنبون نواهيه، فهي لهم وإن أصابهم ما أصابهم من محن وابتلاءات). **[المختصر في التفسير، الميسر]**

واستعانة المؤمنين بالله **وصبرهم** على "الطاعة الواعية" لأمر الله، وما يترتَّب عليها من أذى المشركين؛ سببٌ لنتيجة أخرى جديدة، في تقدير الله:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ **أَئِمَّةً يَهْدُونَ** بِأَمْرِنَا لَمَّا **صَبَرُواْۖ** وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا **يُوقِنُونَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ السجدة

أي "وجعلنا من بني إسرائيل هداة ودعاة إلى **الخير** يأتَمُّ بهم الناس، ويدعونهم إلى عبادة الله وحده وطاعته، فالكتاب الذي أُنزل إليهم، هدى، والمؤمنون به منهم، على قسمين: **أئمة** يهدون بأمر الله.. **وأَتْباع** مهتدون بهم. وإنما نالوا الدرجة الإمامة في الهداية؛ حين **صبروا** على طاعة أوامر الله؛

بترك زواجره، وبالدعوة إليه، وتحمُّل الأذى في سبيله.. وكانوا **بآيات** الله وحُجَجِه **مصدِّقين** على وجه **اليقين**؛ وهو العلم التام، الموجب للعمل.. فبالصبر واليقين، تُنَالُ الإمامة في الدين".
[انظر الميسر، السعدي]

هذا بشكل عام، بالنسبة للمجال الأول؛ "التزكية والتعليم".. الذي حصلت فيه المواقف والأعمال المطلوب تحقيقها من المؤمنين؛ حَمَلَة رسالة الله ودعوته.. الذين "كان خُلُقهم القرآن".. لإقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع.. وقد تم تحقيقها فعلاً من قِبَل رسول الله والمؤمنين معه..

والآن إلى بيان المجال الثاني.. الذي ينبغي أن تحصل فيه **المواقف والأعمال** المطلوبة من المؤمنين الذين "كان خُلُقهم القرآن".. لإقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع.

المجال الثاني: علاقة حَمَلَة دعوة الله - أفراداً وجماعة - بالمجتمع

إن الأصل العام في علاقة حَمَلَة دعوة الله ورسالته مع المجتمع وملئه، هو "البلاغ المبين" للحق: بيانه بِحُجَجِه وبراهينه (بيّناته)، وإقامة "الحُجَّة الرسالية" على مَن أبى، وهي عملية مستمرة يسير بها المؤمنون في المجتمع بشكل متدرّج ومتناسب - شرعاً وقدراً - مع تطوُّر مواقف المجتمع وملئه من دعوة الله وأهلها.. لمعالجتها..

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ الفرقان: ٣٣

ولها ترتيب سنني عام؛ **في حال** أصرَّ المجتمع وملؤه على التكذيب حتى النهاية.. كما حصل مع أغلب رسل الله، حتى خاتمهم..

الخطوة الأولى المطلوب شرعاً من المؤمنين؛ حَمَلَة دعوة الله ورسالته القيام بها، هي تحقيقهم "الركن الأول"، كما ذكرنا: بيان "محتوى الخطاب"؛ أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير.. بالحُجَّة القاطعة والبرهان الساطع.. وحسب "منهج الخطاب".. مع تمثُّلِ المؤمنين بما يقتضيه ذلك من عِلْم وتزكية وتخلُّق بأخلاق القرآن.. {كان خُلُقُه القرآن}..

رغم ذلك، وفي حال **اختار** الملأ ومَن تبعهم في المجتمع، **الاصرار** على التكذيب.. (سبب قدري)..
وثبت أهل دعوة الله على الحق.. أي ثبتوا على التزامهم بـ "السبب شرعي"..

حينئذ، فالموقف الطبيعي (النتيجة) - حسب سنن الله القدرية - أن يُصعِّد الملأ أعمالهم في محاربة الحق وأهله واستضعافهم: الإيذاء الشديد والاستقواء والمبالغة في استعمال القوة ضد المؤمنين..

كما حصل من تعذيب قريش المؤمنين وفتنتهم عن دينهم مما اضطرهم للهجرة إلى الحبشة، ثم حصارهم في الشِّعب..

عندها تأتي **الخطوة الثانية**، وهي: أن عامة المؤمنين: الدعاة إلى الله والمؤمنون معهم، يسألون الله أن يُعِينهم على أعدائهم المكذبين، بما يشاء وكيف يشاء عزّ وجلّ.. وذلك بأن يُنزِل الله بهم "العذاب الأدنى".. (آيات الله المُحسَّة).. وهو عذاب مادي غير مدمّر.. كما هي سنة رسول الله ﷺ، حيث دعى على قريش أثناء حصارهم له ولمَن اتبعه وناصره في الشِّعب، كما في الرواية عن ابن مسعود رضي الله عنه: (.. وإنَّ قريشًا أبطأوا عن الإسلامِ، فدَعا عليهم النبيُّ ﷺ فقالَ: (اللهم

أعنِّي عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسفَ). فأخذتْهُم سنةٌ (جفاف وقحط) حتى هلَكوا فيهَا، وأكَلوا المَيْتَةَ والعِظَامَ، ويَرى الرجلُ ما بين السماءِ والأرضِ كهيئةِ الدّخَانِ..). **[البخاري - الصفحة أو الرقم 4774. التفصيل في مبحث "الطور الثاني" من السير بالرسالة]**

ومعلوم ـ أيضاً ـ أن إنزال "العذاب الأدنى" بالمكذّبين بالحق ـ وقد علموا أنه الحق ـ هو من سُنة الله **جلّ وعلا** الدائمة **لإعانة** المؤمنين وتثبيتهم، وتخويفاً للمكذبين لعلّهم يرجعون إلى الله **تبارك وتعالى** ويأخذون أمر رسالته ودعوته على محمَل الجد اللائق بهذا النبأ العظيم:

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن **ذُكِّرَ** بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ **ثُمَّ أَعْرَضَ** عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ **ٱلْمُجْرِمِينَ** مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ السجدة: ٢١ - ٢٢

عندها طلب الملأ المكذّبين من الرسول ﷺ أن يدعو الله ليرفع عنهم العذاب، وقد وعدوا بالإيمان إن رفعه عنهم..

فدعى رسول الله.. فرفع الله العذاب عنهم.. فأصبحوا أمام أحد احتمالين:

إمّا أن يَصْدُقوا بعهدهم، فيؤمنوا ويتّبعوا الرسول..

عندها تنتصر دعوة الله؛ فيصبح المجتمع كله فريقاً واحداً مؤمناً.. فيمكّن لهم الله في الأرض..

أو أن ينكثوا عهدهم فيصرّوا على تكذيبهم..

عندها، لم ينفع معهم كل ما نزل من آيات الله المقروءة والمادية.. ولم يعتبروا ولم ينتهوا عمّا هم فيه.. بل أخذوا يحتالون على آيات الله المادية (العذاب الأدنى)، فقالوا: "هذه عادة الدهر في أهله، يوم خير ويوم شر، وهو ما جرى لآبائنا من قبل".. ولم يكتفوا بذلك التحايل والمكر تكذيباً لآيات الله.. بل أصبح التكذيب والجحود موقفاً نهائياً لهم.. حتى وصلوا إلى النهاية ـ حسب سنن الله ـ وهي تخيير المؤمنين الثابتين على الحق: بين إخراجهم من المجتمع (القرية).. أو أن يعودوا في ملة القوم.. وهذا ما حصل فعلاً من الملأ من قريش.. متبعين سنن مَن سبقهم من المكذبين؛ أغلب أقوام رسل الله:

﴿ **وَمَآ** أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ **مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ** أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ **يَضَّرَّعُونَ** ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف: ٩٤ - ٩٦

عندها، فقد استحقوا "العذاب الأكبر" وسيقع عليهم.. ولكن في وقته الذي يُقدّره الله العليم الحكيم، فالله **جلّ وعزّ** "سيُمْهلهم" و "يُملي لهم" حتى يحين الوقت المقدَّر.. وأثناء هذا الإمهال والانتظار،

يقوم الملأ بتصعيد درجة عدائهم للحق من خلال "**المكر**" بدين الله.. و"المكر" بالمؤمنين [166].. ظانين أن الله **تعالى** لن يعذِّبهم..

والمكر بدين الله: يكون بالمكر في حُجَّة الله بالتلبيس عليها، وطلب المعجزات، واستعجال العذاب.. وتلبيس الحق بالباطل من خلال أدواتهم المتنوعة؛ الإعلام والشخصيات المؤثّرة التابعة لهم من الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم:

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم **مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ** قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ يونس: ٢١

أي (إذا أذَقْنا الناس المكذِّبين رحمو وخير، مِن بَعْد شدة أحسوا بسوء أثرها فيهم؛ وهو (العذاب الأدنى)، فبدل أن يتوبوا لله ويشكروه.. يفاجئونك بالاحتيال والتلبيس (إذا لهم مكر..) على آيَاتِ الله، ليصرفوها عن دلالتها على الحق؛ أنه "لا إله إلا الله فاعبدوه، وإليه المصير".. ليضلوا الناس عن سبيل الله.. وذلك بِكُلِّ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ إِلْقَاءِ شُبْهَةٍ أَوْ تَخْلِيطٍ فِي مُنَاظَرَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْفَاسِدَةِ.. وَإِنَّمَا غَرَضُهُمُ الدَّفْعُ وَالْمَنْعُ وَالْمُبَالَغَةُ فِي صَوْنِ مَنَاصِبِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ"..

[انظر: (التفسير الكبير - الرازي)، الجلالين، (أيسر التفاسير - الجزائري)، (الكشاف - الزمخشري)]

أمّا المكر بالمؤمنين: فيكون بالتخطيط للقضاء النهائي على دعوة الله، بتصعيد الإيذاء للمؤمنين: إما بالقتل أو بالسجن أو بالنفي والإخراج من المجتمع:

﴿ وَإِذۡ **يَمۡكُرُ بِكَ** ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأنفال: ٣٠ ،،، **[كما بيّنا بالتفصيل في مبحث "الطور الثالث" من السير بالرسالة]**. [167]

ونتيجةً لما سبق من تصعيد لمواقف الملأ الجاحدين - رغم بيان الحق ونزول العذاب الأدنى - فإن عملية "إقامة الحُجَّة الرسالية" على الملأ ومَن تبعهم في المجتمع، تدخل في **درجتها الثالثة**

---

166 - (المكر): تدبير أمر في خفاء. فمجاله التخطيط، ومناقشة الأساليب والأعمال لاختيار الناجع منها.. => وجاء وصف "المكر" في القرآن بأنه خير أو سيئ. وقد ذم الله تعالى المكر السيئ فقط، ولم يذم مطلق المكر. أما (الكيد): فهو مُعَالَجَة الشَّيْءِ بِشِدَّةٍ (معجم مقاييس اللغة). فمَجاله التنفيذ أي القيام بالأعمال وتنفيذها في الواقع لتحقيق الغاية المرادة، وإلغاء تأثير (معالجة) المقاومة أو الممانعة التي تحول دون تحقيق الغاية المرادة. فـ "الكيد" هو: القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجئ بها غيرك للخضوع لمرادك. لذلك وُصف "الكيد" في القرآن - في إطار تحقيق المراد بأنه: متين، أو ضعيف، أو عظيم، أو أنه في تضليل أو في ضلال أي لم يحقق المراد: ﴿.. وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨﴾ [الأنفال: 18]، يعني: مُضْعِف كيدهم.

167 - الآيات البينات التالية من سورة النمل تصوّر "الطور الثالث" تصويراً دقيقاً، حيث أصرّ القوم على=> الجحود، مع الخطوات الثلاث لإقامة "الحُجَّة الرسالية": ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا **أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ** فَإِذَا هُمۡ **فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ** ٤٥ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ **تَسۡتَعۡجِلُونَ** بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا **تَسۡتَغۡفِرُونَ** ٱللَّهَ **لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ** ٤٦ قَالُواْ **ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ** وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ **بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ** ٤٧ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ **يُفۡسِدُونَ** فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨ قَالُواْ **تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ** لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا **مَهۡلِكَ** أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩ **وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا** وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ **عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ** أَنَّا **دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ** ٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢ **وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** وَكَانُواْ **يَتَّقُونَ** ﴾ [النمل ٤٥-٥٣]. صدق الله العظيم.

والأخيرة.. وهي "الصدع بـالحق"؛ أي جعل الحق سبب (أداة، وسيلة) لـ "صدع" الناس في المجتمع و"تفريقهم" إلى فريقين: فريق أهل الحق الذي لا لبس فيه.. وفريق أهل الباطل الذي لا لبس فيه.. بعد ذلك "يفصل" الله **عزّ وجل** بين الفريقين (سنة الفتح): **نصْر** المؤمنين الموقنين الصابرين **وتمكينهم** في الأرض وجعلهم أئمّة.. **وإهلاك** الكافرين وقطْع دابرهم:

﴿ **فَٱصۡدَعۡ** بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الحجر: ٩٤ - ٩٦

"جُمْلَةُ {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بالصدع والمضيّ.. "فمتى شُقَّ الحائل تهيَّأ المضيُّ".. واسْتُعْمِلَ "الصَّدْعُ" فِي لَازِمِ الِانْشِقَاقِ وهو التفريق".. "وَتَصَدَّعَ الْقَوْمُ أَيْ تَفَرَّقُوا، وَمِنْهُ: {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} أَيْ يَتَفَرَّقُونَ. وَصَدَعْتُهُ فَانْصَدَعَ أَيِ انْشَقَّ. أَصْلُ الصَّدْعِ الْفَرْقُ وَالشَّقُّ... وَقِيلَ: "فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ" أَيْ فَرِّقْ جَمْعَهُمْ وَكَلِمَتَهُمْ بِأَنْ تَدْعُوَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ فَإِنَّهُمْ يَتَفَرَّقُونَ بِأَنْ يُجِيبَ الْبَعْضُ، فَيَرْجِعُ الصَّدْعُ عَلَى هَذَا إِلَى صدع جماعة الكفار... وقال ابْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا تَمَادَوْا فِي الشَّرِّ وَأَكْثَرُوا بِرَسُولِ الله ﷺ الِاسْتِهْزَاءَ أَنْزَلَ الله **تعالى**: (فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ الله إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ). وَالْمَعْنَى: اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ وَلَا تَخَفْ غَيْرَ الله، فَإِنَّ الله كَافِيكَ مَنْ أَذَاكَ كَمَا كَفَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ، وَكَانُوا خَمْسَةً مِنْ رُؤَسَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ".

[انظر تفسير القرطبي، وابن عاشور، وغيرها]

وقد أصبح الحال بين الفريقين الخصمين في غاية التوتّر، وقد يتحوّل في أية لحظة إلى اقتتال داخلي (حرب أهلية)، كما ثبت في الرواية التي يصف فيها عتبة بن ربيعة، الحال بين الفريقين عندما أرسله الملأ من قريش ليتفاوض مع رسول الله ﷺ للوصول إلى حل وسط. حيث قال:

(.. أما والله ما رأينا سخلة أشأم على قومها منك، فرّقتَ جماعتنا، وشتّتتَ أمرنا، وعِبْت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أنّ في قريش ساحراً، وأنّ في قريش كاهناً، ما يُنتظر إلا مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى..). **[صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي]**

وهكذا، انصدع (انقسم) الناسُ في المجتمع إلى فريقين اثنين متخاصمين في ربّهم (في المرجعية؛ لمن الطاعة؟): في مَن هو الرَّب الحق والإله المستحق وحده للطاعة واتباع أمره: الله **جلّ وعلا** وشريعته.. أم طاغوتهم؛ أصنامهم وسدنتها، وكبراؤهم وأعرافهم وتشريعاتهم..:

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ **فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾... إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ** جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ الحج

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ **فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ** ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ **ٱطَّيَّرۡنَا** بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ النمل

وبهذا، **الصدع والفصل** بالحق في المجتمع بين الفريقين [168].. فقد جعَل الله فريق **المؤمنين** (الذين استجابوا لدعوة الله) **حُجَّة** على فريق **"الجاحدين"** (المجتمع ومَلَئِه) - وهي الخطوة الأخيرة في عملية "إقامة الحُجَّة الرسالية" عليهم - فلم يبقَ لهم عذر عند الله بعدها.. فإن لم يؤمنوا ويتبعوا الرسول ويلحقوا بمَن سبقهم من المؤمنين، نزل بهم "العذاب الأكبر" في الدنيا قبل الآخرة:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ **يُحَآجُّونَ** فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا **ٱسْتُجِيبَ** لَهُۥ حُجَّتُهُمْ **دَاحِضَةٌ** عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ **غَضَبٌ** وَلَهُمْ عَذَابٌ **شَدِيدٌ** ﴿١٦﴾ ﴾ الشورى: ١٥ - ١٦

هذا - وكما هو ظاهر - فإن **طريقة** بيان "الحق" الذي سيكون به الصدع؛ شق وتفريق الناس.. هي "آيات القرآن البيّنات"..(وجاهِدْهُم بِهِ جهاداً كبيراً).. مع إظهار المواقف والأعمال المترتّبة على ذلك..

بمعنى: **الجهر** بالحق في **الخطاب، وفي تنزيله** على الواقع.. مثل: وصف الجاحدين - الملأ منهم خاصة - بما وصفهم به الله : بأنهم مفسدون، مجرمون، كافرون، عبدة الطاغوت.. كما في وصف "أبي الحَكَم" بـ "أبي جهل" و "فرعون هذه الأمة"..

وبيان فساد حياتهم، وفساد تشريعاتهم، وبيان كذب نسبتها إلى الله (سورة الأنعام).. مع طرح البديل الحق والحكيم من عند الله (سورة الإسراء: {ذلك ما أوحى إليك ربك من الحكمة}، الأنعام: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ})..

مع التحدي المباشر للمجتمع؛ من خلال القيام بأعمال يَظْهَر فيها الكفرُ بطاغوتهم (مرجعيّتهم) وبدينهم (شريعتهم)، وطاعة الله وحده.. **[كما بيّنا بالتفصيل في مبحث "الطور الثالث"** من السير بالرسالة].. مثل:

- ✓ طواف الرسول حول الكعبة، وصلاته فيها لله صلاة المسلمين، أمام قريش وملئها.. ومتحدياً لهم تحدياً مباشراً في إظهار كفره بآلهتهم ورفضه عبادتها، وإظهار طاعته لله وحده.. وتحدّيهم بأن يستدعوا قوتهم، متمثلة بـ "ناديهم".. بعد أن نهوه عن الصلاة.. كما في سورة العلق:

﴿ .. كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾.. ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا **لَا تُطِعْهُ** وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ العلق

- ✓ وكذلك في موقف آخر، تحدي رسول الله ﷺ لهم بقوله:

---

168 - والذي يكون في الطور الأخير من السير؛ قُبيل نزول العذاب على الجاحدين.. بدليل ما ورد في الآية نفسها من خصائص "الطور الثالث": استعجالهم "العذاب الأكبر"، وقد أصابهم "العذاب الأدنى" بقرينة "تطيُّر" (تشاؤم) القوم الجاحدين برسولهم، وتأكيد رسولهم أن ما أصابهم هو ابتلاء (فتنة) من الله لعلهم يرجعون. **[انظر "الطور الثالث" من السير بالرسالة].**

﴿.. قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ الأعراف

- ✓ إعلان البراءة من **شِرْكهم؛** آلهتم ودينهم.. أي، **المُطاع** أمره عندهم **وشريعته** وقوانينه.. ووصف الطائعين لهم ومتَّبعيهم، كما وصفهم الله **تعالى** في مُحكَم آياته:

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ ...﴾ الكافرون: ١ - ٢

﴿ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢ ﴾ يونس: ٤٠ - ٤٢

﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ الأنعام: ١٢١

- ✓ ردُّ رسول الله ﷺ على استهزائهم به أثناء طوافه بالكعبة المشرفة؛ بقوله لهم بصراحة وجرأة: "أنه جاءهم بالذبح".. وقوله: "نعم أنا الذي أعيب آلهتكم"..
- ✓ موقف أبي بكر **رضي الله عنه** في دفاعه عن رسول الله وتحمّله الضرب والأذى بدلاً منه..

وهذه المواقف من سنة الله الدائمة في هذا الطور من السير بالدعوة إلى الله وبلاغ رسالته.. كما في مواقف رسل الله وأوليائه الصالحين:

- ✓ كما في موقف نوح **عليه السلام**:

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ** وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ ﴾ يونس

- ✓ وفي موقف هود **عليه السلام**:

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ **وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ** ٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي **بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ** ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ **فَكِيدُونِي** جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ

وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ **أَمْرُنَا** نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ هود

- ✓ وموقف "مؤمن آل فرعون"، عند إظهاره لإيمانه دفاعاً عن موسى **عليه السلام** وعن الحق الذي جاء به من عند الله.. وكادوا أن يفتكوا به لولا أن كفاه الله شرهم بعد أن فوَّض أمره إلى الله.. (سورة غافر 30-35). **[أنظر السورة في :تبيان سور القرآن"]**
- ✓ وموقف "الرجل المؤمن الذي جاء يسعى"، مظهراً لإيمانه ومدافعاً عن رسل الله الثلاثة الذين أرسلهم الله للقرية الجاحدة.. فكانت الشهادة من نصيبه.. (سورة يس 20-29). **[أنظر السورة في :تبيان سور القرآن"]**

هذا، ومن لوازم حصول الصدع (الانقسام) في المجتمع واستمراره، الذي يوجِب - حسب سنن الله - أن يفصِل (يفتح) الله بين الفريقين؛ **نصرُ** فريق المؤمنين الموقنين الصابرين **وتمكينهم**، لِيُوَرِّثهم الله الأرض بدلاً من فريق المكذِّبين بعد إهلاكهم بإنزال العذاب بهم..
ومن شروط ذلك، أن يَثْبُت كل فريق على موقفه.. وموقف أهل الحق هو الثبات (الاستقامة) على الحق، والصبر على ذلك.. فلا مداهنة ولا حلول وسط.. حتى يأتي الله بأمرٍ من عنده (الفصل).. أي حتى يحين موعد الفصل:

﴿ **فَٱسْتَقِمْ** كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا **تَرْكَنُوٓا۟** إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ **ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** ﴿١١٣﴾ **وَأَقِمِ** ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ **وَٱصْبِرْ** فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ هود: ١١٢ - ١١٥

﴿ **وَٱتَّبِعْ** مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ **وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ** يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس: ١٠٨ - ١٠٩

أمّا بالنسبة لأهل الباطل؛ الملأ الذين كفروا ومَن تبعهم من المجتمع، فهُم بين خيارين لا ثالث لهما: إمّا أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا.. وهم يتحمَّلون نتائج مواقفهم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر..

وفي حال بقاء المجتمع منقسماً إلى فريقين: أهل الحق، وهُم المستضعفون.. وأهل الباطل، وهم أصحاب القوة والسلطان.. وفي فترة انتظار موعد الفصل بينهم، وحسب سنن الله القدرية، فإن أهل الباطل سينتقلون إلى موقف "المكر" بآيات الله و"المكر" بأهل الحق.. وذلك بالتفكير والتخطيط للقيام بإجراءات بقصد التخلص من أهل الحق والقضاء على دعوة الله بشكل نهائي - في ما يحسبون - وهي: السجن أو القتل أو النفي إلى خارج المجتمع (القرية).. كما ذكر الله **جلّ ثناؤه**..

فما على المؤمنين إلا الاستعانة بالله والصبر، والقيام بالأعمال المطلوبة كمعالجات شرعية وسننية في هذا المقام.. ونتيجتها وحاصلها؛ المحافظة على تحقيق "الشروط الشرعية" والمحافظة على تفعيل "الأسباب الشرعية" للنصر التي اشترطها الله **عزّوجل** عليهم.. في هذه المرحلة (قبل التمكين) من السير بالرسالة.. بمجاليها الاثنين، كما ذكرنا:

- ✓ علاقة المؤمنين بالله وبأنفسهم؛ من حيث التزكية والتعليم..

- ✓ علاقتهم بالمجتمع وملئه؛ من حيث بلاغ الحق وإقامة الحُجَّة "الرسالية" كاملة..

فالأمر أصالةً، متعلِّق **بالمؤمنين**؛ حَمَلَة "دعوة الله" **أنفسهم**؛ فأي تغيير أو نقص في تلك الشروط - "الطاعة الواعية" لأمر الله الشرعي، إخلاصاً واتباعاً - تحصل نتائج أخرى بحسب الشروط الجديدة.. وعليهم تحمُّل الآثار السيئة لتلك النتائج..

ومن هنا، فـ "الإخراج" هو إحدى **الحالات** (الاحتمالات) التي **يمكن** أن تحصل بين حَمَلَة دعوة الله ورسالته، وبين المجتمع؛ الملأ وأتباعهم - حسب سنن الله الشرعية والقدرية - **والتي** هي محصورة في أربعة احتمالات رئيسة فقط.. وكل احتمال (حالة) يحصل نتيجة أسبابٍ وشروطٍ (مدخلات) لا بد من توفّرها.. وأي خلل أو تغيير فيها ستحصل نتائج أخرى جديدة بحسب الشروط والأسباب (المدخلات) الجديدة.. وكل طرف يتحمّل ما عليه من تداعيات النتائج الحاصلة..
ومن الاحتمالات أو الحالات الأخرى المُمْكِن وقوعها بحسب اختيارات أي من الفريقين:

- ✓ أن يؤمن المدعُوون جميعاً؛ الملأ والمجتمع.. فيصبحوا فريقاً واحداً مؤمناً، فيُمكِّن الله لهم جميعاً.. كما ذكَر الله في ما حصل مع يونس **عليه السلام** وقومه.. حيث آمنوا قبل أن ينزل بهم "عذاب الاستئصال".. وكما حصل مع رسول الله والأنصار في المدينة المنورة.. بعد دعوتهم إلى عبادة الله وحده وأنه إليه المصير..

- ✓ إذا **أصرّ** الملأ المكذّبين على رفض الحق و"جحدوا" به كموقف نهائي لهم (مثل قريش وأغلب أقوام الرسل).. لكنّ أصحاب "الدعوة إلى الله"؛ أهل الحق، **لم** يثبتوا عليه ولم يصبروا أو حصل من بعضهم مخالفات شرعية.. والتي هي بمثابة موانع لحصول النصر والتمكين (الفتح والفصل) لأنهم لم يصيروا فريقا متمايزاً عن المجتمع.. فلم ينصدع الناس في المجتمع إلى فريقَين متمايزَين متخاصمَين في ربّهما.. بل إن تلك المخالفات من المؤمنين تؤدي إلى نتائج عكسية.. وقد تقتضي وقوع العذاب عليهم.. وتنطبق عليهم "سنة الاستبدال"..

فعدم قيام المؤمنين؛ حَمَلَة دعوة الله ورسالته بما يلزم - شرعا وقدراً - لإتمام عملية إقامة "الحُجَّة الرسالية" بأن يحصل "الصدع" في المجتمع، وينقسم الناس إلى فريقين متمايزَين؛ فريق حق وفريق باطل، لا لبس بينهما.. **نتيجته** هي الفشل وعدم النصر والتمكين للمؤمنين..
كما في حال إذا وقع المؤمنون في أحد الموانع (المخالفات) التالية:

- ✓ "الرُّكون" إلى الذين ظلموا:

﴿ وَإِن كَادُواْ **لَيَفۡتِنُونَكَ** عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ **لِتَفۡتَرِيَ** عَلَيۡنَا **غَيۡرَهُۥ**ۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ **تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ** شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥ ﴾ الإسراء: ٧٣ - ٧٥

أي (.. ولولا أن ثبَّتناك على الحق، لقد أوشكت أن **تميل إليهم** بعض المَيْل، موافقاً لهم فيما اقترحوه عليك، لقوة خداعهم وشدّة احتيالهم مع فرط حرصك على إيمانهم، لكن عصمناك من الميل إليهم. ولو ملت إليهم فيما يقترحون عليك لأصبناك بعذاب مضاعف في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ثم لا

تجد نصيرًا يناصرك علينا، ويدفع عنك العذاب. فالله تعالى عصم النبي من أسباب الشر ومن البشر، فثبّته وهداه الصراط المستقيم، ولِوَرَثته مثل ذلك على حسب اتّباعهم له [169]). (التفسير المختصر)..

- ✓ "المداهنة" في الحق أو الدخول في "الحلول الوسط" في قضية الصراع؛ الطاعة لمن، لله أم لطاغوتهم؟ (تعيين المرجعية):

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ ..﴾ القلم

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢...۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ الكافرون

- ✓ "الاستعجال" وعدم الصبر الذي يؤدي إلى مخالفة "منهاج النبوّة":

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ ﴾ القلم: ٤٨ - ٤٩

(فاصبر - أيها الرسول - لما حكم به ربك وقضاه؛ شرعاً وقدراً من إمهال قومك وتأخير نصرتك عليهم، ولا تكن كصاحب الحوت، يونس عليه السلام في غضبه وعدم صبره على قومه، حين نادى ربه - في ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت - وهو مملوء غمًّا، لولا أن تداركه نعمة مِن ربه بتوفيقه للتوبة وقَبولها، لَطُرِح مِن بطن الحوت إلى الأرض الخلاء المُهْلِكة، وهو مُلام على ما كان منه، فاصطفاه ربه لرسالته، فجعله من الصالحين الذين صلحت نياتهم وأقوالهم وأعمالهم). [انظر الميسر وغيره]

- ✓ "المخالفة" لسبيل رسول الله والخروج عن سنته؛ "منهاج النبوّة"، خطاباً وأعمالاً؛ كما في دعاء الرسول بعد الموقف السيّء من أهل الطائف.. حيث خشي أن ذلك بسبب مخالفة وقعت منه ﷺ: (..إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي.. لك العتبى حتى ترضى..).

- ✓ "مخالفة الأولويات"؛ مثل: "الاهتمام بمَن، وترْك مَنْ؟":

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ .. ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ ﴾ عبس: ١ - ١٢،،

المعنى: "إقبالك على مَن جاء بنفسه طالباً التعلُّم، هو الأليق والواجب، لعله بسؤاله تزكو نفسه وتطهر، أو يحصل له المزيد من الاعتبار والازدجار..
وأما تصدِّيك وتعرّضك للسيد المستغني عن هديك، ولا رغبة له في الخير - أملاً في هدايته، فيتّبعه الناس - فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يتطهّر من كفره، ولست بمحاسب على ما عمله من الشر". (انظر تفسير السعدي، الميسر) .. فاستدرك رسول الله ﷺ ذلك.

---

169 - { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩} [الأنفال]،، أي (يا أيها الذين آمنوا بالله واتّبَعوا رسوله، اعلموا أنكم إن تتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، يجعل لكم ما تُفرّقون به بين الحق والباطل، فلا يَلْتَبِسان عليكم). [المختصر في التفسير]
{.. وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا} [الطلاق: 2]، { .. وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا} [الطلاق: 4] <=
{.. وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا} [الطلاق: 5] ،،، صدق الله العظيم.

وهكذا، وبأركانها الثلاثة مجتمعة، **تكتمل** عملية "إقامة الحُجَّة الرسالية" على المجتمع وملئه الذين أصّروا على "الجحود بالحق"، **وبهذا** ينقطع عذرهم فلا عذر لهم عند الله.. وقد أصبح الناس فريقين مختصمين في ربهما.. وهنا تأتي "سنة الفصل" (الفتح) بين الفريقين المتخاصمَين في ربهما؛ بين أولياء الله وأعدائه والحُكم بينهم: بنصر أوليائه وتمكينهم في الأرض؛ فينجيهم من ظلم واستبداد أعدائه وأعدائهم؛ بأن يُنزل الله بهم "العذاب الأكبر"؛ عذاب الاستئصال..

﴿ **وَلِكُلِّ** أُمَّةٍ رَّسُولٌ **فَإِذَا جَآءَ** رَسُولُهُمْ **قُضِيَ بَيْنَهُم** بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ **لِكُلِّ** أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ يونس: ٤٧ - ٤٩

هذا، واستكمالاً لفهم ما سبق ذكره في الفقرة السابقة؛ من شروط وأسباب النصر والتمكين، في إطار بلاغ الحق للمجتمع "بلاغاً مبيناً" وإقامة "الحُجَّة الرسالية" على مَن أبى واستكبر.. لا بد من بيان الحقيقة التالية من سنن الله في الدعوة إلى الله، والتأكيد عليها:

2- "استجابة" المجتمع لـ "دعوة الله"، ليست شرطاً في "نصر المؤمنين" بل هي شرط في "تمكين المؤمنين"

وعْدٌ من الله ثابت مُبْرَم: أن ينزل **نصره** على المؤمنين [(170)]، وعذابه على المكذِّبين الجاحدين؛ الملأ ومَن اتّبعهم من المجتمع، وقد أصبح رفض دعوة الله موقفاً نهائياً لهم.. و**شَرْط** حصول الوعد وتحقُّقه، هو - كما ذكرنا - **إتمام** المؤمنين عملية "البلاغ المبين" على الوجه الشرعي: بياناً للحق كاملاً.. وإقامةً "للحُجَّة الرسالية" على المجتمع (القرية)؛ أتباعاً ومتبوعين.. بأركانها الثلاثة..

وبعد أن يُخزي الله المكذِّبين المتكبّرين.. و**ينصُر** المؤمنين المستضعفين.. يصبح **التمكين** لهم ممكناً [(171)]، إلا أن له **شروطاً** يجب أن **يتوفَّر** منها الحد اللازم - كَمّاً ونوعاً - لتحقيق التمكين في الأرض.. وهي: الناس المؤمنين.. والقوة المادية؛ وينبغي أن تكون ذاتية فيهم.. والسلطان المتمثِّل بقيادة عامة.. والتي هي مقومات "**الأمة المكلّفة**"..

---

170 - النصر والنُّصْرة: العون والمدد والتأييد، { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ} [الروم/47]. ومنه تأييد الله للمؤمنين => المستضعفين لينجيهم من طغيان الملأ المكذبين، ويهيئ الأمر لتمكين المؤمنين وإنزال العذاب على المكذبين.. ومنه الانتصار في القتال: {وإذا جاء نصر الله والفتح} [النصر/1]، {إن ينصركم الله فلا غالب لكم} [آل عمران/160]، والشرط العام لاستحقاق النصر هو؛ أن ننصر الله: {إن تنصروا الله ينصركم} [محمد/7]، {كونوا أنصار الله} [الصف/14]، ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده، والقيام بحفظ حدوده، ورعاية عهوده، واعتناق أحكامه، واجتناب نهيه. والانتصار والاستنصار: طلب النصرة: {وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر} [الأنفال/72]. والتناصر: التعاون، قال تعالى: {ما لكم لا تناصرون} [الصافات /25]، **[انظر مفردات القرآن - الأصفهاني]**

171 - التمكين: (يحمل معاني الرسوخ والثبات مع قدرة).. (التمكين يدل على استقرار وتثبّت وتحقّق مع => القدرة):{وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم} (النور:56). **[أنظر (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) - حسن المصطفوي، و(المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمد حسن حسن جبل].**

وقد يحصل "النصر" ولا يكون "التمكين"..

وقد يكونا متلازمين متعاقبين: النصر فالتمكين..

وإليك البيان:

1- الله **جلّ وعلا** كلّف الرسل والأنبياء **ببلاغ** رسالاته بلاغاً **مبينا** بوصفه الشرعي؛ أي موجِداً للعلم، مقيماً للحُجَّة على من أبى واستكبر من أقوامهم..

ولم يجعل من مسؤوليتهم أن **يهتدي** الناس ويتّبعوهم، لأن استجابة الناس أو رفضهم لدعوة الله، أمر منوط بهم أنفسهم، وحسب مشيئة الله؛ أي سننه في الهداية والضلال.. ولا قدرة لحَمَلَة الدعوة عليه.. فما عليهم إلا "البلاغ المبين" بوصفه الشرعي:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ **فَإِنَّمَا** عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ النحل: ٨٢

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ الغاشية: ٢١ - ٢٦

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ **هُدَىٰهُمْ** وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ .. ﴿٢٧٢﴾ ﴾ البقرة: ٢٧٢

(أي: ذكّر الناس وأنذرهم وبشرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تُبعث مسيطراً عليهم، مسلطًا موكلًا بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق ٤٥]. لكن الذي أعرض عن التذكير وأصرَّ على كفره، فيعذبه الله العذاب الشديد في النار). **[انظر تفسير السعدي وغيره].**

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ الأنعام: ٦٦ - ٦٧

أي (وكذّب بهذا القرآن قومك، وهو الحق الذي لا مرية في أنه من عند الله، قل لهم أيها الرسول: لست موكلًا بالرقابة عليكم، فما أنا إلا منذر لكم بين يدي عذاب شديد..). **[الميسر، المختصر]**

ومن هنا، فقد يأتي النبي (حامل رسالة الله ودعوته) وليس معه أحد.. كما قال رسول الله ﷺ:

{"عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبيُّ معهُ الرَّجُلُ، والنَّبيُّ معهُ الرَّجُلَانِ، والنَّبيُّ معهُ الرَّهْطُ، والنَّبيُّ ليسَ معهُ أحَدٌ.."}. **[صحيح البخاري 5752 ، عن ابن عباس]**

..الخ

2- النصْر الموعود من الله لرسله وأنبيائه ومَن تبعهم من المؤمنين، له **أشكال** وحالات متنوعة حسب حكمة الله وتقديره.. كما بيّنته نصوص الوحي. **[انظر المعنى المحوري لـ "النصر" في أول البحث]**

- ✓ النصْر على العدو في ساحة القتال.. وهو أول معنى يتبادر للذهن في معنى النصْر..

﴿ **قَٰتِلُوهُمْ** يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ **وَيَنصُرْكُمْ** عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ التوبة: ١٤

- ✓ نصْر الله لرسوله يوم الهجرة.. بأن أنجاه من بطش المشركين، وجعَل كلمة الله (وعده) هي العليا؛ بنصره وإبقائه سالماً معافى.. وكلمة الذين كفروا هي السفلى؛ بعدم تحقيق مرادهم لقتل رسول الله ومنعه من الهجرة إلى المدينة المنورة..:

﴿ إِلَّا **تَنصُرُوهُ** فَقَدْ **نَصَرَهُ** ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ التوبة

- ✓ **نصْر** الله لرسله وأنبيائه والمؤمنين.. بأن ينجيهم - برحمته - من العذاب الذي أنزله على الكافرين.. فالعذاب لا يصيب إلا مستحقيه.. ثم **يُمَكِّن** الله رسله والذين آمنوا معهم في الأرض التي هاجروا إليها.. والأصل أن يمكث الرسول مع قومه في الأرض الجديدة زمننا كافيا ليعَلِّمهم شريعة الله وكيف يعبدوا الله وحده مخلصين له الدين..

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ **نَصْرُنَا** فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ يوسف: ١١٠

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ **ٱئْتِنَا بِعَذَابِ** ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ **ٱنصُرْنِي** عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٩ – ٣٠

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ **فَنَجَّيْنَٰهُ** وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ **وَنَصَرْنَٰهُ** مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الأنبياء: ٧٦ -

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ هود: ٤٨

أي (قيل، من قِبَل الله: يا نوح، انزِل من السفينة على الأرض بسلامة وأمن، وبنِعَمٍ من الله كثيرة عليك، وعلى ذرية مَن كانوا معك في السفينة من المؤمنين يأتون من بعدك، وثمّة أمم أخرى من ذريتهم كافرون - تركوا سنة أنبيائهم - سنمتعهم في هذه الحياة الدنيا، ونعطيهم ما يعيشون به، ثم ينالهم منا في الآخرة عذاب موجع). [المختصر في التفسير]

- ✓ النصر قد يقتضي وفاة المؤمنين (الرسل، الأنبياء) الذين يبيّنوا الحق للناس ويقيموا "الحُجَّة الرسالية" على قومهم.. فيكونوا "شهداء".. ويكونوا **حُجَّة** عليهم **بثباتهم** على الحق حتى وإن كلَّفهم ذلك حياتَهم.. فيكون النصر **لفكرة** الدعوة وليس لحاملها.. وبعد ذلك يعذِّب الله القوم بعذاب شديد، إما بجنوده من السماء أو من الأرض أو بتسليط قوم آخرين عليهم (سنة المدافعة)، كما في الأمثلة التالية:

- ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ **وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ** ﴿٤٠﴾ ﴾ الرعد:٤٠ ،،، أي (وإمّا نرينك، يا محمد ﷺ في حياتك بعضَ الذي نعدُ هؤلاء المشركين بالله

من العقاب على كفرهم أو نتوفيَنَّكَ قبل أن نُريَك ذلك، فإنما عليك أن تنتهِيَ إلى طاعة ربك فيما أمرك به من تبليغهم رسالتَه، لا طلبَ صلاحِهم.. وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ).

- قتْل بعض الأنبياء على يد أقوامهم (أنبياء بني إسرائيل).. أو قتل بعض المؤمنين، كالرجل الصالح من أقصى المدينة الذي جاء يسعى لنصرة رسل الله الثلاثة، فقتله قومه.. "فما كان هلاكهم إلا بصيحة واحدة، فإذا هم ميتون لم تَبْقَ منهم باقية" (يس 20-29).. والغلام المؤمن في قصة أصحاب الأخدود، الذي قتله الطاغية وأحرق المؤمنين (البروج).. و{سَيِّدُ الشُّهَداءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ فأمرَهُ ونَهاهُ، فَقَتَلَهُ}.. **[صحيح الترغيب]**

3- **الله عزّوجل** جعَل على نفسه "سنة دائمة" وحقاً ثابتاً لا يتغيّر ولا يتبدَّل؛ لرسله وورثتهم من المؤمنين، بأن **ينصرهم** على أعدائهم، في الدنيا قبل الآخرة.. بأي شكل من أشكال النصر.. وأن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة..

وأن هذا "**النصر**" سيتحقَّق في الدنيا **للجيل نفسه** الذي حمَل دعوة الله وبلّغ رسالته "البلاغ المبين"؛ الرسول (النبي) ومَن آمن به واتّبعه.. بأي شكل من أشكال النصر.. [172]..

وأن **الغالب** في سنة الله **جلّ وعلا** في شكل نصر الله للمؤمنين؛ هو أن يُنزِل "العذاب الأكبر" على نفس الذين كذّبوا النبي، وجحدوا بالحق، وآذوا أهله.. وقد بلغهم الحق بيّناً واضحاً.. :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم **بِٱلْبَيِّنَٰتِ** فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ **أَجْرَمُوا۟ۖ** وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا **نَصْرُ** ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الروم: ٤٧

﴿ إِنَّا **لَنَنصُرُ** رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ غافر: ٥١

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ **فَصَبَرُوا۟** عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ **نَصْرُنَاۚ** وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الأنعام: ٣٤

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن **يَنصُرَهُ** ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ الحج: ١٥

---

172 - وهذا يعني أنه ليس هناك استمرار للسير بالدعوة في المجتمع (القرية) هكذا بشكل مفتوح، وإلى أجيال=> متعاقبة أو أزمان غير محدودة.. بل لا بد - في النهاية - من حصول حَسْم وفَصْل من الله **تعالى** بين أهل الحق وأهل الباطل: إمّا بالنصر وحده أو بالنصر والتمكين معاً لأهل الحق؛ حمَلة الدعوة إلى الله.. وذلك في الجيل الأول منهم.. لكن ذلك له شروط وأسباب؛ شرعية وقدرية، وتَحْكُمه سنن إلهية؛ شرعية وقدرية.. في إطار إقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع.. كما أشرنا في النقاط السابقة.. وعدم حصول النصر أو النصر والتمكين، في الجيل الأول من حمَلَة دعوة الله ورسالته، يعني أن هناك خطأ كبير حصل من "حَمَلة الدعوة" يوجب عليهم المراجعة الشاملة والتقويم للسير.. وغير ذلك معناه الفشل والاستبدال بقوم آخرين؛ يستحقّون نصْر الله **عزّ وجلّ** أو تمكينه لهم في الأرض وأن يأتمنهم على دينه. انظر التفصيل في رسالة (النصر والتمكين والاستخلاف) وسنتعرض لبعض التفصيل هنا وفي المباحث القادمة من هذا الكتاب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١ ﴾ المجادلة: ٢٠ - ٢١

(أَيْ: قَدْ حَكَمَ وَكَتَبَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ فِي كِتَابِهِ الْأَوَّلِ وقَدَره الَّذِي لَا يُخالَف وَلَا يُمانع وَلَا يُبَدَّلُ، بِأَنَّ النُّصْرَةَ لَهُ وَلِكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَعِبَادِهِ المؤمنين، وأن العاقبة لِلْمُتَّقِينَ؛ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ).

[تفسير ابن كثير، باختصار].

(والغلبة: القهر، يقال: غلبته غلبا وغلبة وغلبا ، فأنا غالب). **[المفردات - الأصفهاني]..**

والغلبة من مقتضيات النصر.. فنصْر المؤمنين يقتضي الغَلَبة على أعدائهم وقهرهم:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ١١٦ ﴾ الصافات: ١١٤ - ١١٦

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ١٠ ﴾ القمر

وإنما قال: (فانتصر) ولم يقل: "أنصر"، تنبيها أن ما يلحقني يلحَقُك، من حيث إني جئتهم بأمرك، فإذا نصرتني فقد انتصرت لنفسك. **[المفردات - الأصفهاني]..** [(173)]

4- النصْر الموعود من الله لرسله وأنبيائه وللمؤمنين.. لا يتحقق إلا بشرط أن يكملوا مهمتهم على الوجه الصحيح؛ "البلاغ المبين": بيان الحق وإقامة "الحُجَّة الرسالية" على الجاحدين.. والمخالفات الشرعية سببٌ في تأخير النصر، وقد تكون من موانع نزوله؛ كما في الحالات الواردة في الآيات التالية:

- ﴿.. وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ﴾ الحج: ٤٠

"ونُصرة العبد لله هو نصرته لعباده، والقيام بحفظ حدوده، ورعاية عهوده، واعتناق أحكامه، واجتناب نهيه.. {إن تنصروا الله ينصركم} **[محمد/7]**، {كونوا أنصار الله} **[الصف/14]**". **[مفردات القرآن - الأصفهاني]**

- ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠ ﴾ القلم

- ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٦٥ ﴾ آل عمران: ١٦٥

- ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ٢٥ ﴾ التوبة

---

173 - انظر تفصيل أكثر لعلاقة "النصر" بـ "الغلبة" في أول البحث : "نظرة عامة".

- ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ **أَصَابَهُمۡ** فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا **ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا** فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا **وَٱنصُرۡنَا** عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٤٦ - ١٤٧

5- التمكين للمؤمنين، لا بد أن يَسْبقه **النصر** على عدوهم (في حال أصر المجتمع على الجحود).. و**الاستخلاف** في الأرض للمؤمنين، يكون بعد **التمكين** لهم فيها [(174)]..
وقد يحصل النصر ولا يَتْبعه التمكين الموعود.. كما حصل مع موسى عليه السلام، وقومه من بني إسرائيل؛ حيث **نصرهم** الله على فرعون:

﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ **وَنَصَرۡنَٰهُمۡ** فَكَانُواْ هُمُ **ٱلۡغَٰلِبِينَ** ﴿١١٦﴾ ﴾ الصافات: ١١٤ - ١١٦

لكن لم **يُمكّن** لهم في الأرض الموعودة بسبب تقصيرهم.. ذلك أن شرط تمكينهم أن يدخلوا الباب على الجبارين الكفّار.. وأن الله سينصرهم، فجَبُنوا وضعفوا، فتأخر وعد الله بالتمكين أربعين سنة.. وهي مدة عقابهم من الله بأن يتيهوا في الأرض.. لأنهم فسقوا عن أمر الله:

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا **مُحَرَّمَةٌ** عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ **يَتِيهُونَ** فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ **ٱلۡفَٰسِقِينَ** ﴿٢٦﴾ ﴾ المائدة

وأما سائر الأمم فبعد أن ينصر الله رسولهم والمؤمنين فينجيهم من القوم الظالمين؛ بأن يعذبهم عذاب شاملاً يقطع دابرهم.. بعد ذلك، يأمر الله الرسول والمؤمنين معه بالذهاب إلى أرض أخرى جديدة ليستقروا فيها ويبدأوا حياتهم الجديدة في طاعة الله مخلصين له الدين..

6- لكن الله جلّ شأنه في سننه العامة السابقة وغيرها، قد جعل فيها **خصوصية لرسوله** الخاتم و **رسالته** الخاتمة و **الأمة** الخاتمة؛ التي تخلف رسوله الخاتم؛ في عبادة الله وتبليغ رسالته.. ومنها:

✓ أن **النصر** يكون معه **التمكين** أو يَعْقِبه مباشرة، فهُما متعاقبان ومتلازمان.. ذلك أن عذاب الله للمكذّبين - في حال أصروا على الجحود ووصلوا لنهاية سنة الله - سيكون بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً.. وهذا يقتضي - بداية - أن يكون المؤمنون **ممكنين** في الأرض، ولهُم دار وأنصار وسلطان، ولديهم القوة الكافية لإعلاء كلمة الله وإنزال العذاب على المكذبين الجاحدين.. فالنصر والتمكين متلازمان.. فإما أن يَحْصُلا معاً أو فلا نصر ولا تمكين..

---

174 - والمعاني البارزة في الاستخلاف هنا: السيادة والقدرة على التصرّف، يبيّنه قوله تعالى: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...{26}) **ص**. فحكمه بين الناس مترتب على كونه => خليفة في الأرض أي ملكاً وسيداً عليها فله السلطان والحُكم. "فالخليفة عبارة عن المَلِك النافذ الحكم، أي جعلناك أهل تصرّف نافذ الحكم في الأرض" **[أنظر (روح البيان - الخلوتي)، و(أضواء البيان – الشنقيطي)].**

✓ أن النصر والتمكين متحقِّقان لا محالة.. وللجيل الأول من حَمَلَة دعوة الله ورسالته.. لكنهما مشروطان بشروطهما التي بينها الله لنا في كتابه، ورسوله بياناً عملياً..

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ النور [175]

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة: ٣٢ - ٣٣

﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ الفتح

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الصف: ٨ - ٩

✓ وبناء على ما سبق، فحتى تظل "حُجَّة الله الرسالية" قائمة على الناس إلى يوم القيامة، مع "منهج الخطاب" بها.. لا بد أن تكون رسالة الله الخاتمة محفوظة؛ وهو ما تكفَّل الله به..

ولا بد - أيضاً - أن "الأمة الخاتمة" لا تفنى كلها؛ بوصفها المبلغة للرسالة الخاتمة بعد الرسول الخاتم.. فقد تُستبدل "فئة" أو "قوم" من الأمة المسلمة، بآخرين أحسن منهم، في حالة تخلِّيهم عن حمل رسالة الله وعدم قدرتهم على المحافظة على جعل كلمة الله هي العليا..

وقد يَكتب اللهُ الهلاك على بعض فئاتٍ من الأمة في مكانهم وزمانهم بسبب خروجهم عن أمره، كما هي سنته في الأمم حَمَلَة رسالة الله.. كما حصل في الغزو المغولي والغزو الصليبي القديم والحديث.. على هذه الأمة.. وكذلك ما حصل مع بني إسرائيل:

---

175 - هذه الآية الكريمة فيها وعد من الله سبحانه لعباده المؤمنين الموصوفين بصفات معينة، وأن الوعد متعلق بهم بأسباب وشروط.. والله لا يخلف الميعاد فوعده متحقق قطعاً لكنه متعلِّق بأسبابه وشروطه..

(والوعد في الآية الكريمة متعلِّق بالجيل الذي قام لتحقيق الاستخلاف.. فلا يقال إن الوعد للأمة.. لأن الآية الكريمة موجَّهة لفئة من الامة [منكم].. ولا يقال إن الوعد متعلق بكيان فكري معنوي، لأن هذا يعني تعطيل الآية، وإلا كيف سيُدرِك "الكيان المعنوي" أنه قد تحققت عنده الأسباب الموجبة لتحقيق الوعد وهو الاستخلاف).. **[حمزة العقبي - منشور على صفحته في الفيسبوك . باختصار]**

إذاً، فلا بد من تحقُّق الأسباب والشروط اللازمة في جيل معين من هذا "الكيان المعنوي".. وهو الجيل المخاطَب بالآية بداية؛ وهو الجيل الأول.. فإذا انقضى الجيل الأول ولم يتحقق وعد الله الذي في الآية، فهذا يعني أنهم لم يحققوا أسبابه وشروطه التي جعلها الله له.. فعليهم وعلى الجيل الثاني مراجعة أنفسهم وتصحيح سيرهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

إبراهيم: ٦

أي (وما يُصنعُ بكم آلُ فرعون من أنواع العذاب، فيه ابتلاء واختبارٌ لكم من ربكم عظيم. وقد يكون "البلاء"، في هذا الموضع نَعْماء، ويكون من البلاء الذي يصيب النَّاس من الشدائد).

[تفسير الطبري]

(البلاء: الاختبار، والبلاء هنا: المصيبة بالشر؛ سُمي باسم الاختبار لأنه اختبار لمقدار الصبر).

[ابن عاشور]

وكما هي سنة الله الدائمة في القرى التي عتَى (طغى) أهلُها عن أمر ربهم:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ .. ﴿١١﴾ .. ﴾ الطلاق: ٨ - ١٢

(في هذه الآيات، يتوعَّد الله مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا شَرَعَهُ، بأن يحلَّ بهم ما حَلَّ بِالْأُمَمِ السَّالِفَةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَقَالَ: وكثير من القرى عصى أهلُها أمْر الله وأمْر رسله وتمادَوا في طغيانهم ومخالفتهم، فَحَاسَبَهَا الله حِسَابًا مُنْكَرًا فَظِيعًا، فتجرَّعوا سوء عاقبة مُخَالَفَتِهِم، وَنَدِمُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ، وكان عاقبة طغيانهم هلاكًا وخسرانًا لا خسران بعده.. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ مَا قَصَّ مِنْ خَبَرِ هَؤُلَاءِ: فَاتَّقُوا الله يَا أهل الْأَفْهَامِ الْمُسْتَقِيمَةِ، لَا تَكُونُوا مِثْلَهُمْ فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ صَدَّقُوا بالله وَرُسُلِهِ، قَدْ أَنزلَ الله إليكم ذكراً، أي الْقُرْآنَ.. ورسولاً هو ترجمة عملية وبياناً واضحاً جَلّياً لآيات القرآن لتكون لكم ذِكْراً (كان خُلُقُه القرآن).. لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وَقَدْ سَمَّى الله **تعالى** الْوَحْيَ الَّذِي أَنْزَلَهُ "نُوراً" لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْهُدَى كَمَا سَمَّاهُ "رُوحاً" لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ).

[انظر تفسير ابن كثير، الطبري، الميسر]

خلاصة النقطتين السابقتين .. 1، 2

في : بيان كيف كانت "الطاعة الواعية"؛ سبباً في تيسير "الأسباب المجتمعية والكونية"..

✓ عملية إقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع؛ أتباعاً ومتبوعين.. والتي ليس بعدها عذر للمكذبين.. لها ثلاث خطوات رئيسة، واجبة في حق حَمَلَة دعوة الله ورسالته الخاتمة :

الأولى: التذكير بأنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، مع بيان المصير عند الله.. بالدليل والبرهان والمجاهدة بآيات الله القرآنية؛ موضوعاً ومنهاجاً.. (آيات الله المقروءة)

وإذا أصرّ الملأ في المجتمع على التكذيب، وبدأوا بتصعيد موقفهم من الدعاة إلى الله بالإيذاء والتعذيب والتضييق عليهم.. عندها تأتيهم **الخطوة الثانية**، وهي: أن يسأل عامةُ المؤمنين (الدعاة

إلى الله والمؤمنون معهم) الله عزّوجل أن يُعينهم على أعدائهم المكذبين، بأن يُنزِل بهم "العذاب الأدنى" فيضيِّق عليهم معيشتهم بما يشاء من جنوده من السماء والأرض.. (آيات الله المُحسَّة).. كما هي سنة الله الدائمة في الدعوة إلى الله.. وكما هي سنة رسول الله ﷺ عندما دعى على قريش بالسنين والجفاف (آية الدُخَان)..

فإن أصروا على التكذيب والجحود - رغم ذلك - وعلى تصعيد إيذائهم للمؤمنين.. عندها تكون **الخطوة الثالثة** والأخيرة: وهي "الصدع بالحق": والصدع هو الشق، بحيث يصبح الناس في المجتمع فريقين متخاصمين في ربهما، متمايزين في موقفهما من الحق.. فريق حق وفريق باطل؛ لا لبس بينهما..

ويتحقَّق ذلك، بالمواجهة الصريحة والمكشوفة للمجتمع وملئه؛ سواء من حيث "الخطاب"؛ فكرة ومنهاجاً.. أو من حيث "الأعمال" التي **يظهر** فيها **الكفر** بطاغوتهم **والبراءة** منه ومن شريعته.. مما يقتضي أن **أداة** الصدع؛ الشق والتفريق.. هي آيات القرآن الكريم نفسها، بما فيها من بيان للحق الذي بلّغه رسول الله ويبيّنه للناس: (وجاهِدْهُم بِهِ جهاداً كبيراً)..

بذلك تكتمل الأركان الثلاثة لعملية إقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع وملئه، فينقطع عذرهم فلا عذر لهم عند الله.. عندها، تأتي "سنة الفصل" بين أولياء الله وأعدائه والحُكم بينهم: بنصر أوليائه؛ بأن ينجيهم من ظلم واستبداد أعدائه وأعدائهم؛ فيُنزل الله بهم "العذاب الأكبر"؛ عذاب الاستئصال.. واثناء ذلك، سيُيَسّر الله عزّوجل الأمور والأحوال بعد عُسرها.. ويجعل فرَجاً ومَخْرجاً لعباده الصالحين.. فيؤيدهم بنصره وبالمؤمنين وتمكينه لهم في الأرض..

✓ ومما خصّ الله به حَمَلَة دعوة الله ورسالته الخاتمة، في سنن الله: أن "النصر" يعقبه "التمكين" مباشرة فهُما متتابعان ومتلازمان.. ذلك أن عذاب الله للكافرين - في حال أصروا على التكذيب والجحود ووصلوا لنهاية سنة الله؛ "الإخراج" - سيكون بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً.. وهذا يقتضي أن يكون للمؤمنين دار وأنصار وسلطان، ولديهم القوة الكافية لإعلاء كلمة الله وإنزال العذاب على الكافرين.. فالنصر والتمكين متلازمان.. فإما أن يَحْصُلا معاً أو فلا نصر ولا تمكين..

✓ "الإخراج" وما يتبعه من نصر للمؤمنين ووقوع "العذاب الأكبر" على المكذِّبين، هو إحدى **الحالات** (الاحتمالات) التي يمكن أن تحصل بين حَمَلَة دعوة الله ورسالته، وبين المجتمع؛ الملأ وأتباعهم، حسب سنن الله الشرعية والقدرية.. وشرطه الأساس أن يُصرَّ الملأ في المجتمع على التكذيب والجحود، وأن يبقى أهل الحق ثابتين عليه صابرين.. فيصير الناس فريقين متخاصمين في ربهما..

أمّا في حال أن أهل الباطل قبلوا الإيمان؛ في أي مستوى (خطوة) من عملية "إقامة الحُجَّة الرسالية"، وقبل أن ينزل بهم "العذاب الأكبر" المدمِّر.. فإذا آمنوا قبْل ذلك لم يعذِّبهم الله .. فيصبح المجتمع فريقا واحداً مؤمناً.. فيمكِّن الله لهم في الأرض ويفتح عليهم بركات السماء والأرض:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف: ٩٦

كما حصل من قوم يونس عليه السلام، حيث آمنوا قبل أن ينزل بهم عذاب الاستئصال؛ "العذاب الأكبر" وعبدوا الله مخلصين له الدين، مع يونس عليه السلام:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ يونس: ٩٨

أي، (فهّلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذّبه قومُه أو أكثرُهم.. كما قال تعالى:

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس ٣٠]،،

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:

(عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الْفِئَامُ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ..)..

وَالْغَرَضُ، بيان أَنَّهُ لن ينفع الإيمانُ أهلَ قرية آمنوا عند وقوع العذاب ـ كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أدركه الغرق بعد تماديه في غيّه، واستحقاقه سَخَطَ الله بمعصيته ـ إلا أهل قرية يونس بن مَتّى، فإنهم نفعهم إيمانهم، وذلك لَمّا أيقنوا أن العذاب نازل بهم، آمنوا جميعاً وتابوا إلى الله توبة نصوحًا.. قبل نزوله.. فلمّا تبيَّن منهم الصدق في توبتهم كشف الله عنهم عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا، بعد أن اقترب منهم، ثم متّعهم إلى وقت انقضاء آجالهم التي قدّرها لهم).

[انظر تفسير ابن كثير، الطبري، الميسر]

ومن هنا، فكل احتمال (حالة) يمكن أن يحصل بين المؤمنين والمجتمع وملئه من الجهة الأخرى، فهو يحصل نتيجة أسبابٍ وشروطٍ (مدخلات) تحقّقت.. وأي تغيير أو تبديل فيها ستحصل نتائج أخرى جديدة بحسب الشروط والأسباب (المدخلات) الجديدة.. وبالتالي فإن كل فريق من الفريقين سيتحمّل ما يقع عليه من تداعيات للنتائج الحاصلة.

مع الإشارة إلى أن ما حصل مع رسول الله ﷺ قد استوعب ـ سُننيّاً ـ أقصى ما يمكن أن يحصل من مواقف وأحوال بين حَمَلَة دعوة الله ورسالته وبين المجتمع وملئه.. حتى قيام الساعة.. وقد بيّنت آيات القرآن تفصيل ذلك من أول رسل الله حتى خاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام..

في ما سبق بيّنا أن "البلاغ المبين" للحق في المجتمع، وإقامة "الحُجَّة الرسالية" على مَنْ أَبَى.. هو المجال الذي فيه تظهر على المؤمنين ـ حَمَلَة دعوة الله ورسالته الخاتمة ـ مؤهلات استحقاقهم النصر والتمكين، وأنها في مجالين متداخلَين ومتلازمَين ولا يمكن الفصل بينهما.. فالعلاقة بينهما تفاعلية؛ تأثير وتأثر متبادل.. فكل مجال يؤثر في الآخر ويتأثر به:

الأول: علاقة المؤمنين بالله وبأنفسهم.

الثاني: علاقة المؤمنين ـ أفراداً وجماعة ـ بالمجتمع.

ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه ـ رضي الله عنهم ـ قد حققوا كل ما هو مطلوب منهم تحقيقه في هذه المرحلة؛ شرعاً وقدراً.. وذلك بـ "الطاعة الواعية" لأمر الله.. أي، بالاستعانة بالله والتوكل

عليه والثقة به **عزّوجل**، وبالوعي على مراد الله في كلامه، والوعي على الواقع الذي كان يتحرّك فيه ﷺ..

وبالتالي، فما كان من الله **جلّ شأنه** إلا أن حقَّق لهم وعده **بنَصْرهم** على عدوهم، **وتَمْكِينهم** في الأرض.. فالله لا يخلف الميعاد وهو على ما يشاء قدير..

ومشيئة الله تتحقق في الواقع الإنساني حسب سُننه الدائمة التي قدّرها في الأمم والمجتمعات وحمْل الرسالات: **فحين** يُحقِّق المؤمنون؛ حَمَلَة دعوة الله، كافة **مقدمات سنن** الله؛ القدرية والشرعية، ويَجْتَنبوا **موانعها**.. يحصلون على **نتائجها**.. **أي** تتحقّق مشيئة الله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ .. ﴿١١﴾ ﴾ الرعد [176]

فبعد أن يغيروا ما بأنفسهم ويحقِّقوا ما أَمَر الله به.. يغيِّر الله **تبارك وتعالى** واقعهم؛ فيؤيّدهم بنصره وبالمؤمنين.. وذلك بتهيئة الأمور والأحوال وتيسير الأسباب الكونية - حسب سنن الله - ويُيسِّر قبول "مجتمع ما" لدعوة الله.. لإزهاق الباطل واستقبال الحق وأهله وتثبيتهم في الأرض..

وهو ما سنبيّنه في الفقرة التالية..

3- كيف حقَّق الله جلّ شأنه وعده للمؤمنين؛ وكيف كان تيسيره الأسباب الكونية والمجتمعية للنصر والتمكين

إن انتشار دين الله الخاتم، ليس في المدينة فقط أو في جزيرة العرب فحسب، بل على المستوى الإقليمي والدولي.. كان لاعتبارات **وعوامل** (أسباب) كثيرة، لم يكن لرسول الله ﷺ يدٌ في وجود شيء منها، بل هي من تقدير الله ورعايته للحق وأهله.. تحقيقا لسنته **عزّوجل** في إحقاق (تثبيت) الحق في الأرض؛ بتمكين أهله.. وإزهاق (زوال) الباطل بإزالة أهله واستئصالهم، وقد اكتملت كافة الشروط والمقدمات:

﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ .. ﴿١٨﴾ ﴾ الأنبياء: ١٨

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ الرعد: ١٧

❖ أهم عوامل انتشار الإسلام في المدينة المنورة

فبعد أن قطع رسول الله ﷺ والذي آمنوا معه، شوطاً كبيراً في قيامهم واستقامتهم على ما هو مطلوب منه شرعاً وقدراً، في بلاغ دعوة الله ورسالته لعموم الناس - في مكة ومن حولها في المواسم - وكان منهم الستة نفر من الخزرج الذين ساقهم الله إلى مكة لبعض شأنهم.. فلقيهم رسول

---

176 - انظر كتاب (الإيمان بالقدر)/ (الباب السادس: القدر والمشيئة والإرادة): مرجع سابق
https://drive.google.com/drive/folders/1tpCO7iftgxkUMTCm8xQrvIyfViCZNrOc?usp=sharing

الله ودعاهم إلى الله، مثل غيرهم من الناس.. إلا أن الله جلّ شأنه كان له تقدير وحكمة بعيدة من ذلك.. فما حصل بعد ذلك من سرعة استجابة أهل "يثرب"، بـ خَزْرَجها و أَوْسها.. حصل نتيجة **عوامل** (أسباب) موضوعية كثيرة لم يكن لرسول الله ﷺ يدٌ في وجود شيء منها:

✓ حرب بُعاث بين الأوس والخزرج، حيث قُتل فيها السادة الكبار من القبيلتين، واستلم القيادة الجيل الثاني، وهم من الشباب وقد انفكوا عن سلطان كبرائهم وأحلامهم [177].. فلو بقي السادة الكبار أحياء كان يمكن أن يصبحوا عقبة أمام إيمان أهل المدينة، كما كان زعماء مكة عقبة أمام إيمان الناس.. وكذلك سادة الطائف.. كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها:

(كان يوم بعاث يومًا قدّمه الله لرسوله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقُتلت سرواتهم، وجُرحوا، فقدّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام). **[انظر "حرب بعاث" في (صحيح السيرة) - إبراهيم العلي].**

فبموت سادة الأنصار وكبرائهم في تلك الحرب، أُزيلت تلك العقبة من وجه الدعوة إلى الله.. واستلام الشباب القيادة من بعدهم يجعل قبول الدعوة إلى الله أسهل.. ومما سهَّل الأمر أكثر أن هؤلاء القادة الشباب قد أصبحوا في حاجة شديدة لمَن يواسي جراحهم ويجمع شملهم بعد الحرب.. وهُم أبناء العمومة..

✓ عِلْم اليهود بقُرب خروج نبيّ آخِر الزمان، وقد توعّدوا أهل يثرب بأنهم سيتّبعونه، وسيقتلونهم معه مقتلة كبيرة.. فلمّا دَعَى رسول الله ﷺ وفد المدينة إلى الإيمان، قالوا لبعضهم: هذا هو النبي الذي تقول عنه يهود، فلنسبقهم إليه..

إضافة للرواية السابقة عن عائشة رضي الله عنها، فالرواية التالية تبيِّن النقطتين السابقتين:

(قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: "لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: (من أنتم؟) قالوا: نفر من الخزرج قال: (أمن موالي يهود؟) قالوا: نعم قال: (أفلا تجلسون أكلمكم؟) قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزوجل، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام، أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعِلْم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد عَزُّوهم ببلادهم [عَزّوهم: غلبوهم، ومنه قوله تعالى: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} (ص:٢٣)]، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيًّا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتْل عاد وإرم [مقتلة كبيرة]. فلما كلّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله. قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنّبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم

177 - كما في قول عمرو بن العاص رضي الله عنه، حول قوة تأثير السادة على عامة الناس، عندما سُئل => لماذا تأخّر إسلامُه مع أنه رجل عاقل؟ قال: كان عندنا رجالاً نرى أحلامهم (عقولهم) كالجبال، فنأتمر بأمرهم، فلما ذهبوا ووُكِل الأمر إلينا، نظرنا، فآمنا. أو كما قال.

الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا). [178]

✓ التأثير الكبير لزعماء القبائل على أتباعهم؛ فإنْ هم آمنوا، آمن الناس معهم.. كما في قصة إسلام أسعد ابن زرارة وأسيد بن خضير وسعد ابن معاذ رضي الله عنهم، فلما أسلموا تبعهم قومهم وأغلب أهل المدينة.. وهذا يؤكد النقطتين السابقتين:

(جاء أسيد بن حضير، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه... فجلس فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن.. فقبل منه، فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهّد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتّبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ..
وعندما وصل سعد.. قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد مَنْ وراءه من قومه، إن يتّبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان..

وجلس سعد ، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن.. فأسلم وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين.. ثم أقبل عامدًا إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير.. فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا (وأوصلنا) وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة..

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة.. ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم يتبقَّ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.. إلا ما كان من بعضهم). [179]

✓ تتوفّر فيهم المقومات اللازمة لنصرة دين الله؛ من القوة المادية؛ عدداً وعتاداً.. والصفات النفسية؛ مثل الشجاعة والوفاء والتضحية.. كما قال النفر من الخزرج للرسول ﷺ: "فإن يجمعهم الله بك على هذا الدين، فلا رجل أعزّ منك".

---

178 - باختصار من (صحيح السيرة - إبراهيم العلي): أخرجه ابن هشام في السيرة: ١/ ٤٢٨ ، ٤٢٩، والبيهقي في الدلائل: ٢/ ٤٣٣، ٤٣٥، وأبو نعيم في الدلائل رقم: ٣٢٣، وإسناده حسن رجاله ثقات،=> وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وابن كثير في السيرة: ٢/ ١٧٦-١٧٧، ورواه ابن سعد في الطبقات: ١/ ٢١٨-٢١٩، من طريق فيها الواقدي وأسامة بن زيد من غير طريق ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل: ٤٣٣/٢-٤٣٥ من طريق ابن إسحاق، ورواها الطبراني مرسلة وفي سندها ابن لهيعة وفيه ضعف، وهو حسن الحديث، وبقية الرجال ثقات انظر المجمع: ٤٠/٦-٤٢ ورواه أبو نعيم في الدلائل ص: ١٠٤.

179 - صحيح السيرة - إبراهيم العلي: أخرجه ابن إسحاق في السيرة انظر سيرة ابن هشام: ١/ ٤٣٥ - ٤٣٧ والطبري في التاريخ: ٢/ ٣٥٧، ٣٥٩، وسنده حسن، وهو مرسل، وانظر ابن كثير في السيرة: ٢/ ١٨١-١٨٥، السيرة النبوية للذهبي: ١٩٨ - ٢٠٠، وقد جاء من طريق عروة بن الزبير في المجمع:=> ٤٠/٦-٤١ وقال الهيثمي: رواه الطبراني مرسلًا وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات، والبيهقي في الدلائل: ٢/ ٤٣٨ -٤٤٠ من طريق موسى بن عقبة مرسلًا فيكون الحديث بمجموع هذه الطرق حسنًا.

فالعوامل السابقة - وغيرها من واقع يثرب حينها - واضح أنه لم يكن لرسول الله ﷺ يدٌ في وجود شيء منها، فكل ما عمله رسول الله ﷺ أنه قام بعمله كحامل لرسالة الله ومبلّغ لها؛ حيث دعى الأنصار إلى الإيمان.. ولما آنس منهم استجابة، **وظّف العوامل** السابقة - وغَيْرها - واستفاد منها في نصرة دين الله.. والتي كانت من تهيئة الله **تبارك وتعالى** للأمر ونَصرِه للحق:

﴿... فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ الأنفال

فلمّا بادر زعماء الأوس والخزرج - أهل القوة البارزين في المدينة - إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، تبعهم أغلب أهل المدينة فآمنوا لإيمانهم.. فأصبحت الغالبية في المدينة مؤمنين، والذين بقوا على كفرهم كانوا هم الأقلية وهم الأضعف، بدليل عدم معارضتهم الصريحة لتحوّل الناس إلى الإسلام، ثم بعد ذلك دخولهم في النفاق؛ بإظهارهم الإسلام وإبطانهم الكفر، وذلك بتأثير من اليهود..

ولمّا كان حال أهل المدينة كذلك - وقد تحقق فيهم **المقوّم الأول** لـ "الأمة المكلّفة" - **اغتنم** رسول الله ﷺ هذه الفرصة بناء على توجيهات الوحي: القرآن (آيات سورة الإسراء وسورة الحج) والسُنة (فعل الرسول):

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي **مُدۡخَلَ** صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي **مُخۡرَجَ** صِدۡقٖ **وَٱجۡعَل** لِّي مِن لَّدُنكَ **سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا** ﴿٨٠﴾﴾ الإسراء [180].

﴿ ٱلَّذِينَ **إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ** فِي ٱلۡأَرۡضِ **أَقَامُواْ** ٱلصَّلَوٰةَ **وَءَاتَوُاْ** ٱلزَّكَوٰةَ **وَأَمَرُواْ** بِٱلۡمَعۡرُوفِ **وَنَهَوۡاْ** عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ الحج.

فأخذ رسول الله البيعة من الأنصار؛ بيعة الحرب.. **بقصد** تحقيق **المقوِّمات** الأُخرى لـ "الأمة المكلّفة" بوصفها الشرعي، القادرة على السير نحو إكمال (إخلاص) الدين لله، وهي: التمكين، و السلطان، والقوة الذاتية، القادرة على تحقيق ذلك وحمايته، لجعل "كلمة الله هي العليا".. وما يتطلّبه ذلك من استعداد للتضحية في سبيل الله بالمال والنفس حتى لو أدى إلى فناء كثير من المسلمين (قضية مصيرية، حياة أو موت).. وكل ذلك مقابل رضوان الله، دون أي مكسب في الدنيا.. (بيعة الحرب).. وذلك كان تحقيقاً لقول الله سبحانه:

﴿ .. فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ الأنعام: ٨٩

(قال ابن عباس: فإن يكفر أهل مكة بالقرآن فقد وكلنا به أهل المدينة والأنصار)، **(تفسير الطبري)**

---

180 - { وَاجْعَلْ لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً} (ذلك أمرٌ من الله تعالى لنبيّه بدعائه أن يؤتيه سلطاناً => نصيراً له على مَنْ بَغاه وكاده، وحاول منعه من إقامته فرائض الله في نفسه وعباده، لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مَعَ الْحَقّ مِنْ قَهْرٍ لمن عاداه وناوأه) **[انظر تفسير الطبري، وابن كثير. لتفصيل أكثر انظر (الباب الثاني- المبحث الثاني: كيف نفهم ما حصل مع رسول الله)].**

والمعنى؛ "فَإِنْ يَكْفُرْ بآيات الله، كُفَّارُ عَصْرِكَ يَا مُحَمَّدُ.. فَلا يَضُرُّكَ كُفْرُهم لِأَنّا - جَوَابُ الشَّرْطِ - قَدْ وَكَّلْنَا بِالْإِيمَانِ بها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ؛ هُم الْأَنْصَارَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّة.. فَهَذا تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ عَلى إعْراضِ قَوْمِهِ عَنْ دَعْوَتِهِ".

[انظر تفسير القرطبي، ابن كثير، ابن عاشور، الميسر].

❖ أهم عوامل انتشار دين الله الخاتم؛ الإسلام، في جزيرة العرب

ما جعَله اللهُ من مكانة عالية ومهابة لقريش عند سائر عرب الجزيرة.. فإن هي آمنت وخضعت لرسول الله، تبعتها العرب.. لذلك اهتم رسول الله بدعوة زعمائها - أثناء الدعوة في مكة - وحرص على إيمانهم؛ (عبس وتولى..).. إلا أن قريشاً أصرّت وملؤها على الكفر فكانت هي العقبة الكأداء أمام دخول سائر العرب في الإسلام.. حيث كان العرب يرتقبون نتائج هذا الصراع بين أمة المسلمين وقريش.. وكما قال رسول الله ﷺ في حديث الحديبية قبل بدء المفاوضات مع سادة قريش:

(يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلُّوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة) يعني الموت. **[انظر صحيح السيرة - إبراهيم العلي]**

لذلك، بعد فتح مكة وخضوع قريش وملئها لرسول الله ﷺ، ذهب طغيان قريش وطاغوتها.. وظهرت أمة الإسلام كقوة يجب الخضوع لها.. ورسول الله كقائد يجب طاعته.. الأمر الذي مهّد الطريق لدخول الناس في دين الله أفواجاً..

ومن أهم العوامل التي جعل الله بها قريشاً تتمتع بتلك المكانة العالية والهيبة عند العرب: الحرم الذي جعله الله آمناً، وسدانتهم للبيت، وسقاية ورفادة الحجيج.. وكذلك التجارة الآمنة طول العام في رحلتي الصيف والشتاء:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ ﴾ القصص: ٥٧

أي (ألا يرى هؤلاء الجاحدون نعمة الله عليهم؟!.. أولم نجعلهم متمكنين في بلد آمن، حرَّمنا على الناس سفك الدماء فيه، فيأمنون فيه على دمائهم وأموالهم.. ويُجلب إليه ثمرات كل شيء رزقًا مِن لدنا؟!! .. ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قَدْر هذه النعم عليهم، أفبالباطل من آلهتهم المزعومة يؤمنون، وبنعمة الله عليهم يكفرون، فلا يشكرونها لله ويطيعوه ؟!). **[الميسر، المختصر]**

وبعد ذهاب عقبة قريش بقيت عقبة أخرى أصغر.. وهي القرية الأخرى؛ الطائف.. ورغم ما حدث في "حنين".. إلا أن الله عزّوجل قهرهم وأخضعهم لسلطان المسلمين.. فخضع سائر عرب الجزيرة لسلطان المسلمين وأصبحت كلمة الله هي العليا على جزيرة العرب.. [181].

---

181 - انظر سورة التوبة في "تبيان سور القرآن"، والسورة تعتبر هي الخطوة المنهاجية الأخيرة، حيث تبيّن السورة الحالة النهائية للفئات المكونة للأمة المسلمة وطبيعة كل فئة منها وخصائصها، وأنها الحالة =>

❖ أهم عوامل انتشار دين الله، في خارج جزيرة العرب؛ على المستوى الإقليمي والدولي

بينما كان رسول الله في مكة مستضعفاً يصارع قريشاً متحملاً أذاهم.. كان الله جلّ وعلا في الجانب الآخر من أطراف الجزيرة وحولها.. قد قدّر نشوب حروب طاحنة بين دولة فارس ودولة الروم، أدت إلى إضعاف كلا الدولتين العُظمَيين.. وإضعاف تأثيرهما على قبائل العرب التي كانت تابعة أو موالية لهما في شمال وشرق الجزيرة؛ الغساسنة والمناذرة.. بل بدأوا فعلاً بالتمرّد عليهما للتخلص من تبعيّتهما..

وقد كانت بداية علم المسلمين بذلك وهُم في مكة مستضعفين.. عنما نزل قول الله تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ الروم: ١ - ٧

فغُلِبت الروم مِن قِبَل فارس، ورسول الله ﷺ لا يزال في مكة، وبعد الهجرة إلى المدينة تحقق وعد الله تعالى، فغلَبت الرومُ فارس..

"والعداوة بين الفرس والروم (اليونان) قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد، وسببها التنازع على السيادة في العالم، لأنهما كانتا أعظم دول الأرض، في تلك العصور، فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطان دون الأخرى، واتصلت تلك العداوة إلى زمن الإسكندر الكبير ثم استمرت في عصور الرومان إلى أيام الإسلام..

وقدّر بعض العلماء أن زمن بعثة رسول الله بالرسالة كان سنة 610 ميلادي..

[انظر كتاب الرحيق المختوم - المباركفوري.. وكذلك باقي التواريخ]..

وفي سنة 614 م زحف أبرويز كسرى الفرس بجنده على سوريا، وناصره يهودها على البيزنطيين ففتحها واستولى على أنطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن أخرى من سوريا وفلسطين، ثم أباح لجنده نهب أورشليم «بيت المقدس» فنهبوها وأحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا خزائنها

العامة الدائمة التي ستبقى عليها الأمة: المهاجرون والأنصار (المؤسسون)، وهُم قادة الأمة وأئمتها=> وخيرتها، ثم مَن تبعهم بإحسان، والمنافقون الذين مردوا على النفاق، والأعراب حول المدينة (البعيدون عن تلقي العلم من أهله)، وتنوّع درجات موقفهم من دين الله وأمة الإسلام: المؤمنون المخلصون والمنافقون، ونفاقهم أشد، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر.. الخ.. وفيها الأحكام النهائية التي ينبغي أن تكون عليها الأمة المسلمة في علاقاتها مع الكيانات غير المسلمة؛ داخل الأمة (المنافقون)، وخارج الأمة. وفيها بيان ما نسميه بـ "منهج الاستيعاب" وذلك في منهج التعامل مع المسلمين الجدد (إسلام عرب الجزيرة)، والأرض المحررة حديثاً (الأعراب).. من جهة دمجهم في الأمة المسلمة وجعلهم أعضاء فاعلين وليس عبئاً على الأمة.. (مثل تأليف القلوب، توزيع الغنائم، محاولة اغتيال الرسول).. وحتى لا تقع مثل حالة "الردة" التي حصلت وكيفية التعامل معها واستيعابها.. والخلاصة: الموازنة بين التوسّع في الفتوحات (الإنجاز الأفقي) وبين دمج المسلمين الجدد والأراضي المحررة من عبادة الطاغوت، في كيان الأمة المسلمة، وبما يتناسب مع مهمتها الأصل: المسؤولية عن رسالة الله الخاتمة (الإنجاز العامودي).

وحملوا بطريركها والصليب الحقيقي إلى بلادهم.. وخلال هذه الفترة تقريباً نزل قول الله في القرآن:

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ ...﴾ الروم

وواصلوا القتل والنهب في سوريا حتى سنة 616 م.. ثم تقدم إلى مصر، فسقطت الاسكندرية في أيديهم سنة 619، وترتب على ذلك انقطاع القمح عن القسطنطينية وازدياد سوء الأحوال الاقتصادية..

و بحلول سنة 622 م كانت الإمبراطورية البيزنطية على حافة الانهيار وحدودِ على كُلّ الجبهات احتلها الساسانيون ما عدا أجزاء من الأناضول.. ولم يبق للروم إلا أثينا وجزائر البحر المتوسط (قبرص وصقلية) وشريط ساحلي في شمال إفريقيا (قرطاجة).. فانهارت معنويات الروم، وازداد الصراع الداخلي بينهم، وتوقع الناس سقوط دولتهم سريعاً، إذ بدى من المستحيل أن يستطيعوا المقاومة..

وفي هذه السنة هاجر رسول الله من مكة إلى المدينة.. **(يوم الاثنين 8 ربيع الأول سنة 14 للبعثة)**

إلى أن استولى الإمبراطور هرقل على الحكم من فترة قريبة.. ثم خرج للحرب.. ولم يكن عنده مال ينفقه في التجنيد فاقترض أموال الكنائس على أن يعيدها بعد الحرب مع رِباها..

وبدلاً من منازلة جيوش الفرس المتوغلة في أراضي الامبراطورية، قام بالالتفاف عليهم ومهاجمتهم في عقر دارهم في البلاد الفارسية.. إذ تحالف مع الخزر الترك، وترك العاصمة المحاصرة القسطنطينية وهاجم بلاد فارس مِنْ المؤخّرةِ عن طريق الإبحار من البحر الأسود، فاستولى على أذربيجان (ميديا) سنة 624، حيث قام بتدمير أكبر معبد نار مجوسي (انتقاماً لتخريب كنيسة القيامة في القدس).

قضى هرقل في محاربة الفرس ثلاث سنين متوالية حتى أوغل في بلادهم واضطر أبرويز أن يسحب جنده للدفاع عن قلب مملكته..

أما هرقل فإنه حاربه مرة أخرى سنة 627 م فأجهز على قواته وانكسر الفرس انكسارًا عظيمًا، وبلغت جنود الروم نينوى عاصمة الأشوريين القديمة، وهي أول مرة وطئ الروم فيها تلك المدينة..

ووصل خبر هذه المعركة إلى المسلمين عام 628 بعد أن انصرفوا من مكة عاقدين صلح الحديبية.. ثم أرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى الثاني يدعوه للإسلام.. فمزّق كتاب رسول الله.. فدعى عليه رسول الله بأن يمزّق الله ملكه..

وكان أبرويز قد أصبح شيخًا طاعنًا في السن فأوصى بالملك لأحد أبنائه، وكان له ابن آخر اسمه شيرويه حسد أخاه وعمد إلى الكيد له ولأبيه، فاستعان ببعض الناس حتى قبض على من بقي من أولاد أبرويز وهم ثمانية عشر ولدًا فقتلهم جميعًا بين يدي أبيه وزج أباه في السجن حتى مات..

وبموت كسرى أبرويز انقضى مجد الدولة الساسانية ولم يعش ابنه شيرويه بعده إلا ثمانية أشهر فأصبحت حكومة الفرس فوضى، وادعى الملك تسعة ملوك في أربع سنوات، فساد الفسادُ وتمكن الاختلال فيها فجاءها المسلمون وهي في تلك الحال.. ببركة دعاء رسول الله ﷺ..

ولما وصلت أخبار اغتيالِ الملك كسرى الثاني هرقل، زحف خلال العراق.. ثم تحالف مع الأحباش عام 629 وانتصر مجدداً على الفرس وصار قريباً من المدائن.. وعندها رأى شيرويه أن من

الأفضل أن يعقد الصلح مع هرقل.. وبمقتضاه استردَّت بيزنطة كل ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدي الفرس، بما في ذلك أملاكهم في بلاد الجزيرة الفراتية والشام ومصر..

على أن فرحة هرقل لم تدم طويلاً. إذ لم تمض إلا برهة من الزمن وإذا به يواجه جيوش المسلمين.. وبعد معركة اليرموك، حُسم مصير بلاد الشام، ثم لم تلبث مصر أن فُتحت كذلك، ثم شمال إفريقيا..

هذا، ولم يكن الاختلال في دولتي الروم والفرس مقصورًا على الوجهة السياسية والإدارية، ولكنه كان يتناول الأحوال الاجتماعية والدينية بما تفاقم فيها من الانقسامات المذهبية مما هو مشهور، فقد كان الروم حوالي القرن السادس للميلاد في منتهى التضعضع، لتعدد الفرق وتشعب المذاهب وخصوصًا فيما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين - للسيد المسيح - والمشيئة والمشيئتين، وأكثر اختلافهم على الألفاظ، والجوهر واحد.. **[لتفصيل أكثر انظر موقع "معرفة"، وغيره]**

"في نهاية الأمر، فإن استهلاك الموارد خلال الحروب بين دولتي الروم والفرس كانت كارثية بالنسبة لهما.. أنهكتهما الحروب الطويلة والمتصاعدة خلال القرنين السادس والسابع الميلادي، وجعلتهما معرضتين لمواجهة الظهور المفاجئ والتوسع على يدي دولة الخلافة، التي حرّرت البلاد والعباد من ظلم كلتا الإمبراطوريتين، وبعد سنوات معدودة فقط من انتهاء الحرب الطاحنة الأخيرة بين فارس والروم.. فكانت حالة الضعف التي أصابت كلتاهما، تقدمة قدّرها الله **جلّ وعلا** ووقعت بحسب سنن الله في الأمم المفسدة في الأرض.. "سنة التدافع" [182].. فقامت الجيوش الإسلامية - على نحو سريع - بفتح الإمبراطورية الساسانية بأكملها.. وحرّرت بلاد الشام ومصر وباقي شمال إفريقيا.. من ظلم طاغوت الإمبراطورية الرومانية الشرقية"..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنِ النَّبِيِ قَالَ:

{إذا هلكَ كسرى فلا كسرى بعدَهُ، وإذا هلكَ قيصرُ فلا قيصرَ بعدَه، والذي نفسي بيدِهِ لتُنْفِقُنَّ كنوزَهما في سبيلِ اللهِ}. **[أخرجه البخاري (رقم 3120) ومسلم (رقم 2918)]**.

---

182 - وذلك بدفع فساد أحدهما بالأخرى، في "حرب استنزاف".. حتى جاءت "أمة الحق" فدفع الله بها فسادهما وظلمهما معاً: ﴿.. فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ **[البقرة]**،، ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ **[الحج]**،، وذلك تحقيقاً لسنة الله في الأمم المفسدة؛ أنه لهم بالمرصاد:

﴿.. أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ١٤﴾ **[الفجر]**. فصب الله عليهم العذاب بأيدي المؤمنين؛ قتلاً وأسراً.. صدق الله العظيم.

النتيجة مما سبق..

أولاً:

إن حقيقة ما حصل مع رسول الله ﷺ في الانتقال من الاستضعاف إلى التمكين - في الأطوار الثلاثة - هو بسبب "**الطاعة الواعية**" لأمر الله **عزّ وجل** (الكتاب)؛ أي الفهم الصحيح (السنة) والتنزيل الصحيح (الحكمة)..

وبهذه "**الطاعة الواعية**" لأمر الله الشرعي (السنة الشرعية)، حصل **التأثير** القوي **للوحي** في **الواقع**، نتيجة "الكفاءة العالية" في المعالجة.. فهي "السبب الأصل" في حصول ما حصل مع رسول الله من **تيسير** الله **جلّ وعلا** لـ "الأسباب الكونية" **وتحقيق** "النتائج" في واقعه الإنساني.. منذ البداية حتى تحقيق الغاية من الرسالة..

ذلك أن انتشار دين الله الخاتم.. ليس في المدينة فقط أو في جزيرة العرب فحسب، بل على المستوى الإقليمي والدولي.. كان لاعتبارات **وعوامل** (أسباب) موضوعية كثيرة؛ متعلقة بواقع يثرب بخَزْرَجها وأَوْسها ويهودها.. أو قريش ومكانتها عند العرب.. أو جزيرة العرب بشكل عام.. والصراع بين الدولتين العُظميَين على أطرافها.. كل تلك العوامل (الأسباب) والظروف، وغيرها.. لم يكن لرسول الله ﷺ يدٌ في وجود شيء منها، بل هي من تقدير الله ورعايته للحق وأهله.. تحقيقا لسنته **عزّ وجل** في إحقاق (تثبيت) الحق في الأرض؛ بتمكين أهله.. وإزهاق (زوال) الباطل بإزالة أهله واستئصالهم، وقد اكتملت كافة الشروط والمقدمات..

فبعد أن قطع رسول الله ﷺ والذي آمنوا معه، شوطاً كبيراً في قيامهم واستقامتهم على ما هو مطلوب منهم شرعاً وقدَراً، في بلاغ دعوة الله ورسالته لعموم الناس - في مكة ومن حولها في المواسم - كان الله **جلّ شأنه** يهيّئ الأوضاع والأحوال في أماكن أخرى من الأرض:

- ✓ في المدينة المنورة: فما حصل بعد إيمان الستة نفر من الخزرج الذين ساقهم الله إلى مكة.. من سرعة استجابة أهل "يثرب"، بـ خَزْرَجها و أَوْسها.. حصل نتيجة عوامل (أسباب) موضوعية كثيرة متعلّقة بطبيعة يثرب وأهلها واليهود من حولها.. لم يكن لرسول الله ﷺ يدٌ في وجود شيء منها..

- ✓ وأيضاً في جزيرة العرب: وقد جعَل الله مكانةً عالية لقريش ومهابة عند سائر عرب الجزيرة.. فلما آمنت وخضعت لرسول الله، بعد فتح مكة تبعتها العرب.. بعدما كانت هي العقبة الكأداء أمام دخول سائر العرب في الإسلام.. حيث كان العرب يرتقبون نتائج هذا الصراع بين أمة المسلمين وقريش..

- ✓ وكذلك الأمر في خارج الجزيرة: فبينما كان رسول الله في مكة مُستَضْعَفاً يصارع قريشاً متحملاً أذاهم.. كان الله **جلّ وعلا** في الجانب الآخر من أطراف الجزيرة وحولها.. قد قدّر نشوب حروب طاحنة بين دولة فارس ودولة الروم، أدت إلى إضعاف كلا الدولتين العُظمَيين.. وإضعاف تأثيرهما على قبائل العرب التي كانت تابعة أو موالية لهما في شمال وشرق الجزيرة؛ الغساسنة والمناذرة.. بل بدأوا فعلاً بالتمرّد عليهما للتخلص من تبعيّتهما.. وكان ذلك قبل بدء الفتوحات الإسلامية بعشرين سنة تقريباً..

ثانياً:

تأسيساً على أن الذي كان **يضبط** أعمال سير رسول الله ﷺ بالرسالة والدعوة إلى الله، في كل خطوة كان يخطوها، هو "الطاعة الواعية" للوحي؛ قرآناً وسنة - والقرآن هو الأصل- وحسب ترتيب (ترتيل) نزول الآيات.. منضبطاً به ولا يخرج عن الوحي البتّـة..

يكون من الواضح أن كل ما قام به رسول الله من أعمال في سياق الانتقال من **الاستضعاف** في مكة إلى **التمكين** في المدينة، ليس بناء على رؤية شاملة كاملة مُسبقة عنده ﷺ؛ لكل خطوات السير حتى تحقّقت الغاية من الرسالة في الواقع.. بل هي "الطاعة الواعية" لأمر الله **تعالى**، مع الثبات الصبر عليه.. من خلال التنزيل **المرتّل** للآيات.. أولاً بأول وخطوة بخطوة، في معالجة الأحداث والمواقف وبحسب تتابع حصولها.. كما بيّنا في "الباب الأول"

فرسول الله ﷺ في كل خطوة كان يخطوها، كان **يتصرّف** على **أساس** "الطاعة الواعية" لِمَا كان **يُنزّله** الله على قلبه من آيات القرآن الكريم..

فكان ﷺ يعمل جاهداً على تحقيق ما جاء فيها من معالجات للواقع.. بناء على فهم دقيق لذلك الواقع (المناط).. ثم يبقى مستقيماً على الأمر صابراً عليه واثقاً بالله ربه: (إنِّي رسولُ الله، ولَسْتُ أعصي ربِّي، وهو ناصري).. حتى يأتيه الوحي - قرآناً أو سنة - بالخطوة التالية..

فعندما يأتيه ﷺ الوحي.. يُطيع ما جاء فيه من أمر الله "الطاعة الواعية" بتنفيذه في الواقع لمعالجته به.. وبأعلى كفاءة.. ويبقى مستقيماً عليه صابراً متوكلاً على الله واثقاً به حتى يأتيه الأمر بالخطوة التالية.. وهكذا..

فهو ﷺ لم يكن يعلم من الدين (القرآن والسنة) إلا ما أوحاه الله إليه فقط، وقد تلقاه مُفرّقاً مُرتّلاً في ثلاث وعشرين سنة.. والذي كان يتنزّل بحسب الضوابط الشرعية والسننية للسير بالرسالة في طوره ومرحلته..

<u>**فالوحي** - والقرآن هو الأصل - هو المصدر الأكبر والأساس لتلك الرؤية البعيدة (الاستراتيجية) والبصيرة التي كانت تُوَجّه رسول الله، والتي كانت تقوده في سيره بالرسالة.. والنور الذي كان ينير له الطريق حتى وصل لنهايتها</u>.. فأوجد الله على يديه الأمة المسلمة المؤهَّلة لخلافته في حمل رسالة الله للعالمين؛ هدى ورحمة.. وقد أكملت دينها لله **جلّ وعلا**.

وهذا الأمر هو الذي يُمكِّننا من أن نقتدي في رسول الله، من خلال "الفهم المنهاجي" للوحي: القرآن الكريم وبيانه من السنة.. وتحصيل تلك البصيرة والرؤية البعيدة للسير بدعوة الله ورسالته في المجتمع.

هذا، وفي المقابل، فإن جميع **مواقف** الذين كفروا وردود أفعالهم واختياراتهم، وباختلاف أنواعهم ودرجاتهم.. **لم يكن يحكمها** أمر الله **الشرعيّ**؛ فهم كفّار، بل كان <u>يحكمها أمر الله **القدريّ** ومشيئته العامة</u>، متمثّلة بما جعل الله **سبحانه وتعالى** في الأفراد والمجتمعات والرسل والرسالات، من **خواص وطبائع** ومن **سنن ضابطة** لها.. **فالقدرة على الاختيار** لدى الإنسان - مثل سائر قدراته - مخلوقة ومحدودة، ولها سننها الإلهية الضابطة لها..

لهذا فقد بيّن الله **تعالى** لنا في رسالته الخاتمة، كل ما يلزم الأمة العلم به، من خواص وطبائع كل شكل من أشكال الكفر والنفاق - مشركين، وأهل كتاب؛ يهوداً ونصارى.. ومنافقين، وملحدين..- الذي يمكن أن تواجهه الأمة أثناء قيامها بالرسالة؛ تطبيقاً ودعوة.. وبيّن لنا كذلك، خصائص وطبائع أهل الإيمان؛ متّقين مخبتين أبرار صالحين.. في سياق "المعالجات السننية".. وإحسان التعامل مع الواقع الإنساني لمعالجته.

وهو الأمر الذي يمكن إدراكه.. والذي لا بد لحَمَلَة دعوة الله ورسالته - في كل زمان ومكان - أن يفقهوه وينتفعوا به.

ونؤكِّد هنا، على أن ما حصل مع رسول الله ﷺ في سيره بالرسالة في واقعه خلال الثلاث والعشرين سنة حتى تحققت الغاية من الرسالة.. وما بيّنه الوحي من قصص رسل الله مع أقوامهم باختلاف أزمانهم وأماكنهم.. وما بيّنه من سنن وخواص وطبائع؛ سواء للأشخاص أو المواقف أو الفئات المعينة من الناس: مؤمنين كافرين أهل كتاب.. الخ.. فإن ذلك وغيره مما أورده الوحي، فإنه يستوعب - سُننيَّاَ وتشريعياً - أقصى ما يمكن أن يحصل من مواقف وأحوال بين حَمَلَة دعوة الله ورسالته وبين المجتمع وملئه.. حتى قيام الساعة.

والحمد لله ربّ العالمين.

المبحث الثالث : منهج الخطاب في بيان الحق وإقامة "الحُجَّة الرسالية" [183]

في المبحث السابق بيّنا كيف نفهم ما حصل مع رسول الله من حيث **الأعمال** (المعالجات) نفسها، ومن حيث **تتابعها** (ترتيل تلقي الآيات)؛ والتي هي أحد **شطري** الطريقة التي سار بحسبها رسول الله في بلاغ دعوة الله ورسالته للمجتمع..

والآن، سنتناول **الشطر** الثاني من طريقة سير رسول الله، وهو المتعلِّق بـ "منهج الخطاب" أو "كيفية الخطاب" بـ "فكرة الدعوة" ومقتضياتها.. التي التزمها ﷺ في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وإقام "الحُجَّة الرسالية" على مَن أبى واستكبر.. ولها أركان ثلاثة:

- ✓ البناء فكري، لفكرة الخطاب (فكرة الدعوة)..
- ✓ طريقة الاستدلال.. طريقة الوصول للحقيقة..
- ✓ طريقة العرض.. بشكل مؤثِّر..

الركن الأول: البناء الفكري لـ "فكرة الدعوة" ؛ "لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير"

1 - عبودية الإنسان لله **تعالى**، وحُجَّة الله على الإنسان

بيّنا في ما سبق من البحث، أن عبودية الإنسان لله لها مجالان:

الأول: **خَلقيّ قدريّ** لا اختيار للإنسان فيه ولا إرادة، حاله في هذا الجانب حال سائر مخلوقات الله **تعالى**، فلا يخرج شيء ولا حيّ في هذا الوجود عن مشيئة الله العامّة وأمْره القدريّ، إنّما الكل يقف من الإلهية الواحدة موقف العبيد..

فالله **عزّوجل** هو وحده الإله الحق للكون وللحياة والإنسان ولسائر الوجود، **وأمره القدريّ** هو النافذ فيهم؛ **خلقاً وتسوية، تقديراً وهداية، قوامة واستمراراً**.. والكل خاضع مستسلم لأمره، مُسبّح بحمده **عزّوجل**..

الثاني: **"العبودية الاختيارية"**، وهي طاعة الإنسان وخضوعه لأمر الله **الشرعي**، أي دينه وشريعته التي أنزلها على رسله، والقرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة، والرسول محمد ﷺ هو الرسول الخاتم.

هذا، وتأسيساً على حقيقة **عبودية** الإنسان والخلق جميعاً "غير الاختيارية" **لأمر** الله **الخَلقيّ القدريّ**، **احتجَّ** الله **عزّوجل** على الإنسان **بوجوب** أن يحصر عبوديّته **الاختيارية** ويَقْصُرها على **أمْر** الله **الشرعيّ**، متمثلاً بشريعته التي أنزلها في الرسالة الخاتمة على رسوله الخاتم محمّد ﷺ، فلا خضوع ولا اتّباع إلاّ لشرع الله ولدينه الخاتم وحده، وكما بيّنه الرسول الخاتم ﷺ:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ [آل عمران]

---

183 - هنا ملخَّص فقط والتفصيل في كتاب "منهج التزكية والتعليم"، على الرابط:
https://drive.google.com/drive/folders/1sbgezIVBCdVfTWNhCrS31aZkI7dqupeu?usp=share_link

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ..(١٦٤)﴾ [الأنعام]

فالله **جلّ وعلا** هو وحده الإله الحق، **وأمره القدري** وحده هو النافذ في الوجود، فعلى جميع الناس - أفراداً و مجتمعات وفي حياتهم **كلها** - أن يتخذوا الله وحده **إلهاً**؛ بجعل **أمره الشرعي** وحده هو النافذ فيهم.. فلا يخضع إنسان ولا يَدين إلاّ بدين الله **عزّ وجل** وشريعته (إخلاص الدين لله).. وهذا هو معنى "العُبوديّة الاختيارية" لله **تبارك وتعالى**.

فكل النِعَم التي يرفل فيها الناس - أفراداً و مجتمعات - والتي لا تقوم حياتهم ولا تستقيم إلاّ بها وبالنظام الذي **قدَّره لها** الله **عزّ وجل**، منسجماً مع النظام الذي **قدَّره لهم**، فكلها إنّما هي من الله وحده **تبارك وتعالى** الإله الحق..

فبأمْر الله **تعالى** القدري كان خلقها وتسويتها.. وكان تقدير سننها وهدايتها لها.. و كان تسخيرها للإنسان وتمكينه منها.. وكانت رزقاً للإنسان وكفالة له.. لذلك لا يحق للإنسان - فرداً ومجتمعاً - أن يستخدم شيئاً منها أو يحكم في شيء منها.. إلاّ بحسب أمْر الله الشرعيّ وبإذنه، أي حسب دينه وشريعته ولا يُوجِّهها إلاّ حيث يُحبُّ الله ويرضى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ الله لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ الله أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)﴾ [يونس: 59-60]

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى الله خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ... (٦٤)﴾[النمل: 59-64]

فهذه هي حُجَّة الله **تعالى** على الإنسان بأن لا يعبد إلا إيّاه، فهو وحده الإله الحق..

2 - **حُجَّة** الله قائمة في طبيعة "البناء الفكري"

فهذه هي حُجَّة الله **تعالى** (الحُجَّة الرسالية) على الإنسان قائمة في طبيعة "البناء الفكري" لدعوة الناس إلى عبادة الله وحده؛ بأنه "لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير"، حيث احتجّ الله **تعالى** على الإنسان بعبوديته وعبودية الخلق غير الاختيارية لأمْر الله وحكمه القدريّ، أي بأنه **وحده الإله** الحق لهذا الوجود، **خلقاً** و **تقديراً** و **قوامة** و **استمراراً** و **مصيراً..** على وجوب عبودية الإنسان لله وحده بلا شريك فيما جعل الله له فيه اختياراً ومكّنه منه، فيتخذه **وحده إلهاً** معبوداً، وذلك بطاعة **أمره وحكمه وقضائه** الشرعيَّ (شريعته ودينه)، في تنظيم شؤون حياته **كلها** فرداً ومجتمعاً. فلا **يشرك** - اعتقادا أو سلوكا - مع الله أحداً، سواء في **أمره** الخَلقيّ القدريّ أو **أمره** الشرعيّ التكليفيّ..

وبحُجَّة الله هذه، ينكشف **الطاغوت** [184] ويزول عنه قناعه الزائف، فيظهر على حقيقته؛ **عبداً مخلوقاً** عاجزاً خاضعاً **لأمر** الله القدريّ، **جاحداً** لأنعُم الله، **متكبّراً** على حكمه **وأمره** الشرعيّ:

184 - قلنا إن الطاغوت هو: (كل ذي طغيان على الله الإله الحق، عُبد وأُطيع أمره مع الله أو من دون الله عزّ وجلّ، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنسانا كان ذلك المعبود أو شيطانا أو وثنا أو

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) * إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)﴾ [فاطر]

فـ **الإله** المُطاع صاحب **الأمر والحكم والقضاء** في الكون والحياة والإنسان؛ **خلقاً وتسوية، تقديراً وهداية، قوامة واستمراراً**، هو وحده **الإله** صاحب **الأمر والحكم والقضاء** في **التشريع** والتقنين لحياة الإنسان فرداً ومجتمعاً، **إلهاً واحداً لا شريك له**، هو الله **تبارك وتعالى** عن الشُركاء:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) ﴾ [الشورى: 21]

فكيف يدّعي "الطاغوت" حق الطاعة لنفسه (أن يكون إلهاً) من دون الله **عزّ وجل** في أنفس الناس وأموالهم وأعراضهم.. وهو **ليس** الربّ الخالق.. فلم يكن **بأمره** خلقهم وإيجادهم، ولا **بأمره** كان خلق النعم ورزقهم إياها، ولا هو يحي ولا يميت، ولا يستطيع بعثاً ولا نشوراً.. فلا أمر ولا حكم له على الموجودات إلا بما أقدره الله ومكّنه منه.. إنما **الأمر** و**الحكم والقضاء** لله وحده، الإله الحق لهذا الوجود:

3 - بحُجَّة الله تعالى هذه احتج جميع الرسل والأنبياء على أقوامهم

وبحُجَّة الله **تعالى** هذه احتجّ جميع رُسل الله وأنبيائه على أقوامهم عندما دعَوْهم إلى عبادة الله **تعالى** وحده:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء]

وبنور حُجَّة الله البالغة، كشف رسلُ الله زَيْف طاغوت أقوامهم وزَيْغه، وفضحوا بها كذب ادّعائه للإلهية أو نسبتها إليه، أي كذب الادّعاء باستحقاقه الطاعة من دون الله **تبارك وتعالى**.. كما هو واضح في الآيات العديدة التي ورد فيها حوارات الأنبياء والرسل مع أقوامهم..

وهذا نوح **عليه السلام** يشكو قومه إلى الله **جلّ وعلا** وقد بلّغهم ما أمره الله به:

{.. ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لله وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ

صنماء، أو كائنا ما كان من شيء). (تفسير الطبري). فالذي يطلب الطاعة لنفسه من دون الله أو مع الله عز وجلّ فهو عبد قد تجاوز حده فطغى، فحده أنه عبد لله مقهور لأمر الله القدري في خلقه وإيجاده من عدم وفي=> الخصائص والسنن التي قهره الله تعالى عليها، فهو عاجز محتاج عالة على الله تعالى في خلقه وإيجاده واستمراره في وجوده، فكيف يتجاوز حده ويطغى فيطلب ما ليس له به حق، فالطاعة لا تكون إلا لله وحده فهو وحده الذي خلق وهو وحده المالك للخلق وله وحد حق التصرف فيهم فيأمر وينهى كما يشاء، وجميع الخلق ما هم إلا عبيد ليس لهم إلا الطاعة لأمر الله الإله الحق جلّ وعلا.

فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجًا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتًا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ
إِخۡرَاجًا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٠} نوح

الركن الثاني لكيفية الخطاب بالفكرة : طريقة الاستدلال

بمعنى، الطريقة التي اعتمدها الخطاب القرآني للوصول للحقيقة (التدليل عليها)، وللفصل بين الحق والباطل:

1 - أراد الله تعالى أنْ تكون حُجّته الرسالية بالغة

بمعنى أن توصل إلى الغاية من إيرادها وهي: الدلالة على الحقّ المبين بأن الله وحده الإله، حتى **يشهده** الناس مشاهدةً وشهادةً. لذلك أرادها الله **تعالى** أن تكون **قاطعة للشك** وللظنّ لمن أراد الهداية، **قاطعة للعُذر** لمن أبى واستكبر:

﴿..لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾ [الأنفال]

لأن الله **تعالى** جعل مصير الإنسان - فرداً ومجتمعاً، في الدنيا والآخرة - منوطاً بموقفه من الرسالة:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ [البقرة]

فحتّى يتحمّل الناس - أفراداً و مجتمعاً - المسؤولية عن موقفهم من رسالة الله، فكان لا بد أن تبلغهم الرسالة وفكرتها بلاغاً مبيناً، فيكونوا على المَحُجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاّ هالك.

2- الحِسّ والخبر الصّادق

ولتحقيق ذلك، أقام الله **تعالى حُجّته القاطعة** على أنه وحده الإله الحق المستحق للطاعة و الخضوع لأمره، و أن ما دونه هو الباطل يجب الكفر به (لا إله إلا الله، فاعبدوه)، قد أقامها على **أمرين اثنين**، وجعلهما **الطريق الوحيد** الموصل إلى الحقّ:

الأول: **الحِسّ**، أي **الإدراك** الحسيّ المباشر، بمعنى؛ الإدراك العقلي للأمر على أساس الحس المباشر به مع وجود المعلومات الصحيحة المتعلّقة به. أي "الطريقة العقلية" بالتفكير، وهي الطريقة التي فطر الله الإنسان عليها.

الثاني: **الخبر الصادق**، أي القطعيّ الثبوت والدلالة.

حيث وصف الله **تعالى** ما عليه الطاغوت وأولياؤه بأنه **الباطل**، لأنّه لا **حُجَّة قاطعة** لديهم عليه، إنما هو ظنّ و خرص أو شك و أوهام أو أمانيّ و اتّباع للهوى.. وليس لهم بما يقولون من **عِلْم**، أي معرفة قطعية (ضد الشك والظن..)، وكل ذلك لأنهم أخذوا وتلّقوا حُجّتهم تلك من غير هذين المصدرين، **الحِسّ، والخبر الصادق**، فهي لا بدّ داحِضة، بل و **تحدّاهم** الله **عزوجل** أنْ يأتوا **بحُجَّة صادقة** على باطلهم من نفس المصدرين: **الحِسّ، والخبر الصادق.**

وفي المقابل وصف الله **تعالى** رسالته والفكرة التي تقوم عليها بأنّها الحقّ المُبين، أي البائن القطعيّ الذي لا يشوبه أي باطل. وأنّها "**عِلْم**" أي معرفة يقينية، لأنّ **حُجَّة** الله **تعالى** على ذلك **قاطعة** فهي

مأخوذة من هذين المصدرين: **الحِسّ** و **الخبر الصادق**، فهي سلطان وبرهان. كما في قوله **سبحانه و تعالى:**

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) * إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ [فاطر: 40-41]

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) ﴾ [الزخرف]

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)..﴾ [الأنعام] [185]

لاحظ كذلك النصوص الواردة في الركن الأول.

3 - ﴿فَلِله الْحُجَّة الْبَالِغَةُ﴾ الأنعام

هكذا، بـ ألّ التّعرّيف (الْحُجَّة) وبتقديم لفظ الجلالة مع النسبة (فَلله)، ليفيد معنى **الاستغراق والتخصيص**، أي أنّ الحُجَّة التي تُبلغ مُتّبع دلالتها إلى الحقّ إنّما هي كلها لله وحده، فهو الحقّ، وحُجَّة مَنْ دونه داحضة لأنّه الباطل:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) ﴾ [الحج]

فلا سلطان ولا حُجَّة ولا برهان.. إلاّ للحق الثابت الأصيل في هذا الكون، فالله **تعالى** لم يُنزّل (لم يجعل) حُجَّة بالغة إلاّ للحق..

لا حُجَّة للباطل، و لا أصل له ولا ثبات، فهو طارئ على هذا الوجود المخلوق بالحقّ، فكانت طبيعته الزهوق والزوال - بإذن الله **تعالى** - بعكس الحقّ الثابت الأصيل الذي خُلق عليه هذا الوجود:

---

185 - إن كل ما خلقه الله خاضع لله مستسلم لأمره بالخلق والتسوية والتقدير.. فلا قدرة على الاختيار عندهم.. فلو أن الله تعالى خلقكم - مثل سائر المخلوقات - بلا اختيار، لما كنتم إلا مسلمين لله مسبحين لله خاضعين لأمره، كما هم سائر الخلق، وهذه هي حُجَّة الله عليكم، وبما أنكم ضللتم وأشركتم بالله تعالى من هو دونه - وقد بلّغكم رسول الله الحق - فهذا هو اختياركم انتم، وستتحمّلون نتائجه: العذاب في الدنيا والآخرة، كما هي سنة الله تعالى في الأمم المكذّبة من قبلكم.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ الله قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

لذلك، وحفاظاً على الحق في نفوسنا نقياً صافياً ليكون نوراً يهدينا، وحفاظاً على أمانة الحواس و العقل التي أودعها الله **تعالى** نفوسنا لتوصلنا إلى الحق، فلا نضيعها باستعمالها في غير ما خُلقت له، حفاظاً على ذلك؛ نهانا ربنا **عزّوجل**، عن اقتفاء واتباع ما ليس لنا به **"علم"** أي معرفة يقينية، وحمّلنا مسؤولية ذلك في الدنيا والآخرة:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) ﴾ [الإسراء: 36]

4 - وهكذا فَرَق الله **تعالى** بين الحقّ والباطل

أما **الحق** فقد أنزل به السلطان والبرهان، فكانت له الحُجَّة البالغة وإليه توصِل.. وجعل طريق الوصول إليه:

- **الحِسّ،** أي الإدراك الحسيّ المباشر، والحُكم العقلي المبني على الحس والمعلومات الصحيحة
- **الخبر الصادق،** أي القطعيّ الثبوت القطعيّ الدلالة..

فكان **الحق عِلْماً**؛ أي معرفة يقينية. وكان واحداً لا يتعدّد، وهو النور الذي ينير الطريق لحامله، وهو الأصيل الثابت في هذا الوجود.

وأمّا **الباطل** فحدّث ولا حرج، فهو كثير متعدّد، وحُجّته داحضة، فما هو إلاّ كذب، أو وهم وخرَص في أحسن الأحوال، فأساسه المغالطات الفكريّة والأوهام، وبيئته الهوى والشهوات، فهو ظُلُمات، السائر فيها تائه..

أمّا الطُرُق الموصلة إليه، فكثيرة ومتشعّبة، وما عدا طريق الحِسّ والخبر الصادق، فكل الطُرق تؤدّي إليه، كما ورد ذلك في النصوص الكثيرة، مثل **اتّباع** الهوى و**التقليد الأعمى،** واتباع جهات مختلفة **دون علم أو دليل :**

اتباع أدعياء العِلْم برسالة الله.. الأحبار والرهبان..

اتّباع الملأ من أصحاب المال والسلطان..

اتّباع الموروث عن الآباء والأجداد..

اتّباع الهوى بلا دليل أو علم.. فاتخذ هواه إلهاً..

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ القصص: ٤٩ - ٥٠

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الفرقان: ٤٣

لذلك، لا وجه حقّ لإتباع الباطل والإعراض عن الحق وبراهينه - بعد البيان - إنّما هو البغيّ والظُلم والتكبّر والغدر؛ والجحود؛ أي: الإنكار مع عِلْم، "أي مع عِلْم قلبه حَقِّيَّةَ ما ينكره":

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ [النمل]

ومَن كان هذا حاله فهو الضياع في ظلمات الباطل:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ..(٣٩)﴾ [الأنعام: 39]

فيكونوا - حينئذ - من شر المخلوقات التي تدبّ على الأرض:

﴿* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾ [الأنفال: 22]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)﴾ [البينة]

وكيف لا، وقد جَرَت عليه سُنة الله **عزّوجل** في الضلال لاختياره طريق الباطل، بعد تَبيُّن طريق الحق، فاستحق بذلك مقت الله **عزّوجل** وعذابه، ومقت المؤمنين:

﴿..كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾ [غافر]

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ [الأعراف]

الركن الثالث لكيفية الخطاب بالفكرة : طريقة العرض.

1- طريقة العرض لها أهميّة الفكرة نفسها

إذا كان الركنان السابقان قد تكفّلا **ببيان الحقّ، وبالفصل** بينه وبين الباطل **وعدم الالتباس** بينهما، فإنّ هذا الركن يتكفّل بأنْ **يتلقّى** الناس الحقَّ - متمثلاً في فكرة الرسالة ومقتضياتها - **تلقياً مؤثراً،** محقّقاً للغاية من خطابهم بها، من الهداية والتزكية وإقامة الحُجَّة. بمعنى أنْ يكون للخطاب تأثير على الناس:

- ✓ تأثير على مَنْ أراد الهداية، فيدفعه للتصدّيق الجازم بالفكرة والقيام طواعية بمقتضياتها، من السير في طريق العبودية لله **تعالى،** واجتناب الأنداد والطواغيت.

✓ <u>تأثير على مَنْ أبى الهداية للحقّ</u> واستنكف جحوداً ومكابرةً، وقد أقيمت الحُجَّة عليه، فيظهر عليه الإعراض عند سماع الحقّ والنفور منه، فلا يُطيق سماعه:
﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء]

هذا، ومع نصاعة الحقّ وقوّة حُجّته وبساطتها، وما لذلك مِنْ تأثير وإقناع، إلا أنّ **التنوّع** في عَرض الحقّ له تأثير كبير أيضاً، أي التنوّع في الأشكال والأُطُر التي تُعرض فيها الفكرة والقوالب التي تُصبّ فيها، لاختلاف طبائع الناس وأحوالهم ومستوى أفهامهم. حيث تنوَّعَ الخطاب القرآنيّ تنوّعاً فريداً معجزاً، مستخدماً مختلف طُرق العرض والبيان للتأثير على السامعين، لجعلهم يتنبّهوا.. بداية.. ثم ليتّخذوا منه موقفاً عن بيّنة و وَعي لعلهم يهتدون إلى الحقّ، وإنْ أَبَوْا إلاّ الإعراض فيكون موقفهم هذا أيضاً عن بيّنة ووعيّ، عندها يتحمّل السامعون أفراداً ومجتمعا، مسؤولية موقفهم ممّا سمعوا من الحق:

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ <u>انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ</u> (٦٥)﴾ [الأنعام]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١)﴾ [الإسراء] [186]

وهذا التنوّع في العرض للفكرة هو من الرحمة التي أُنزلت بها الرسالة وبُعث بها الرسول:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) ﴾ [الأنبياء]

فلا يكفي - في ميزان الله **تعالى** - أنْ يعرف الناسُ **الحق**، بل لا بدّ حين يعرفوه أنْ يكون بشكل مؤثّر وفعّال **يُزيّن الحق** في نفوسهم و **يحبّبهم** فيه، ويجعلهم يكرهون الباطل والفسوق والعصيان:
﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ <u>وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ</u> أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ الله وَنِعْمَةً وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) ﴾ [الحجرات] [187]

---

186 - أي: "نوَّعنا حججنا الواضحات في هذا القرآن للناس لعلهم يفهمون فيعتبرون". يقول الراغب في المفردات: (والتَّصْرِيفُ كالصّرف إلّا في التّكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة، ومن أمر إلى أمر. وتَصْرِيفُ الرّياح هو صرفها من حال إلى حال. قال تعالى: (وَصَرَّفْنَا الْآياتِ) [الأحقاف/27]. (وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) [طه / 113]). وقال ابن فارس في المقاييس: (صَرَفَ؛ الصاد والراء والفاء، معظم بابِهِ يدلُّ على رَجْع الشيء. من ذلك صَرَفْتُ القومَ صَرْفاً وانصرفوا، إذا رَجَعْتَهم فرَجَعوا... ومعنى الصَّرف عندنا أنَّه شيءٌ صُرِف إلى شيء، كأنَّ الدِّينارَ صُرِف إلى الدراهم، أي رُجِع إليها، إذا أخذتَ بدلَه... قال أبو عُبيدٍ: صَرْفُ الكلام: تزيينهُ والزِّيادةُ فيه، وإنَّما سُمِّيَ بذلك لأنَّه إذا زُيِّن صَرَفَ الأسماعَ إلى استماعه). نقول: والحاصل أنه في صرف الدينار أو صرف الكلام.. يبقى المعنى أو القيمة أو المضمون.. هو هو، إلا أن الشكل أو المظهر هو الذي يكون فيه التغيير والتبديل لقصدٍ وحكمةٍ. فتصريف الآيات هو: كثرة التنويع والتقليب في إيراد الدلائل على الحق الواحد البيّن، لعل المخاطَب يتأثر ويهتدي.

187 - فالتزيين للأمر ضروري لقبوله، ولكن التزيين قد يكون بالحق وقد يكون بالباطل، ومن التزيين بالحق: ({..وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ

الأمر الذي من شأنه أن يكون **دافعاً** للالتزام **بالحقّ** المتمثل بالفكرة **ومقتضاها** من **العبودية** لله، **مانعاً** من الوقوع في الباطل وظُلماته، **مُمَكِناً** بذلك من أراد الانتقال أنْ ينتقل مِن الظُلمات إلى النّور ومن التَدْسية إلى التزْكية..

وهذا ما تكفّلت به **طريقة العرض القرآني** لمواضيع العبادة.

فطريقة عرض الفكرة لها **أهمية** الفكرة نفسها، فلا فصل مطلقاً بين الفكرة وطريقة عرضها.

لذلك لا تُؤخذ "فكرة الرسالة" - وسائر أفكار الرسالة - إلاّ بطريقة عرضها القرآنية وحدها، وغير ذلك يُحدِث **خللاً** في التأثير أثناء الخطاب وأثناء التزكية، **وحسب حجم الخلل وخطورته يكون البعد أو القرب من تحقيق غاية الرسالة.** (لاحظ منهج الخطاب بالأحكام الشرعية).

وهذا يتطابق مع الأصل الذي أثبتناه سابقاً: من أنّ الغاية المُراد تحقيقها من القرآن الكريم كرسالة خاتمة، هي التي حدّدت طبيعته من حيث البناء والمنهج، فكان ذا طبيعة وخصائص معيّنة تجعل فيه القدرة على تحقيق الغاية منه متى أُريدَ به ذلك، فلا تتحقق **الغاية** منه إلا **بمنهجه** هو.

2- أبرز الأُطُر التي عُرضت فيها الفكرة (لا إله إلا الله، فاعبدوه)

✓ **إطار البشارة و النّذارة (خطاب النذارة)**

الإنذار في اللغة: هو البلاغ و يكون مع التخويف.
والبشارة في اللغة: هي البلاغ و يكون بالخير.
فإذا أُطلق الكلام، فالبشارة بالخير و النّذارة بغير ذلك.

فالأصل في البشارة و النّذارة إذاً هو الإبلاغ والإخبار، إلاّ أنّه ليس بلاغاً مجرداً وخبراً محايداً، بل يحمل **معنىً إضافياً**، وهو إعلام السامع بالمسؤولية والتبعة المترتّبة على موقفه من الخبر وقد بلغه، فيُبشره بالخير والنعيم إن آمن واتّبع، ويُنذره بالشرّ والعذاب الأليم إن أعرض واستكبر:

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) ﴾ [هود]

فالله عزّوجل لم يبعث بشيراً ونذيراً يحمل البشارة و النّذارة فقط، بل بعث سبحانه:

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.. (١٦٥)﴾ [النساء]

}الحجرات7. وشياطين الإنس والجن يزينون الباطل حتى يقبله أتباعهم، والأهواء كذلك تُزين الباطل: {فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام43] =>
{وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام137]
{أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [الأنعام122].

فهم في الأصل رُسل، يحملون رسالة ربّهم **عزّوجل** إلى الناس؛ يبلّغونهم إيّاها ويدعونهم إلى عبادة الله وحده والكفر بما سواه، ساعين لتحقيق غاية الرسالة. فجاءت الرسالة **بالبشارة** من الله **تعالى** لمن آمن واتّبع برضوانه ونعيمه، حثّاً على طاعة الله وترغيبا بها.. وجاءت **بالنذارة** من الله **تعالى** لمن أعرض واستكبر بسخط الله وعذابه - والعياذ بالله - تنفيراً وترهيباً من عصيانه ومخالفة أمره **عزّوجل**، فيتحمّل كل فرد مخاطَب المسؤولية عمّا بلغه من الحق:

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾ [الحج]

فبلّغ **الرسول** رسالة الله **تعالى** وبلّغ بشارته و نذارته، فكان الرسول ﷺ بشيراً ونذيراً، الأمر الذي كان له الأثر المباشر في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة؛ الهداية والتزكية لمن أراد من الناس، وإقامة الحُجَّة على مَن أبى، أفرادا ومجتمعا.. فالنذارة والبشارة تضع الإنسان بين **الخوف** من العقاب على الكفر والمعصية، وبين **الرجاء** في الثواب على الإيمان والطّاعة، مدفوعاً نحو الطّاعة مُبعَداً عن الكفر والمعصية:

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ الله فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾ [الزمر]

هذا، والنذارة والبشارة تعتبر **الإطار الأصل** الذي عُرضت فيه دعوة الناس إلى عبادة الله وحده على أساس "فكرة الرسالة"، وهو ما اصطلحنا عليه بـ "خطاب النذارة"؛ ومحتواه أو موضوعه: أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير عند الله.. كما هو ظاهر من الآيات السابقة ومثيلاتها.. و من الآيات التي جاء فيها الأمر ببدء حمل الرسالة الخاتمة، ثم بتوسيع نطاق الدعوة، حيث جاء أمر حمل الرسالة في إطار الإنذار:

﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣).. ﴾ [المدثر]

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء]

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ الله شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾ [الأنعام]

فالإنذار في هذه النصوص وغيرها يُفهم على معنى واحدٍ لا غير، وهو معناه في اللغة، أي "البلاغ مع التخويف"، حيث لم يرد له معنى آخر في الشرع غير معناه اللغوي.. وهو بلاغ أنه لا إله إلا الله (فكرة الرسالة)، فاعبدوه، وبيان المصير؛ مصير من أجاب الدعوة إلى عبادة الله، ومصير من أبى واستكبر.

وظاهر النصوص السابقة يدل على استمرار وثبات الأمر بأن يكون إطار "النذارة والبشارة" هو **الأصل** في الخطاب في السير بالرسالة بأطواره المختلفة، وفي مرحلتيه: الأولى؛ الاستضعاف.. وفي الثانية؛ التمكين والاستخلاف.. في حمل الأمة الرسالة بالجهاد؛ دعوة وقتالاً.. **للناس كافة**:

﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا** مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾ [الأنعام]

(يَذْكر **تعالى**، زبدة ما أُرسل به المرسلين؛ أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشَّر به، والأعمال التي إذا عملها العبد، حصلت له البشارة. والمنذَر به، والأعمال التي مَنْ عملها، حقت عليه النذارة). **[تفسير السعدي]**.

- ✓ **إطار التذكير والذكرى**

ذِكْر الشيء خلاف نسيانه.. وقد وصف الله **تعالى** رسالاته بأنّها ذِكر، بمعنى التذكير:

﴿..وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ **الذِّكْرَ** لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾ [النحل]

والوصف بالذكر والتذكير للرسالات آتٍ من أنّها تنزل على الناس وهم غافلون عن ربهم الحقّ **عزّ وجل**، وقد نسوا الميثاق معه، "ميثاق الفطرة"، وعهدهم له سبحانه بعبادته وحده والكفر بما دونه من الأنداد، حيث انحرفوا وحادوا عن خط الفطرة، وانتكسوا في عبادة الطاغوت:

﴿* أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ﴾ [يس]

فأنزل الله **تعالى** رسالاته تترى، وكان خاتمتها القرآن الكريم، لتُذكّر الناس بما غفلوا عنه ونسوه، وليرجعوا إلى صراط الله المستقيم. فجاءت بالحُجج والبيّنات منذرةً لها مغبّة غفلتهم واستمرارهم في عبادة الطاغوت:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بالله وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩)﴾ [الحديد]

فالله **عزّوجل** رؤوف رحيم بعباده فلا يُعذبهم إلاّ من بعد أنْ يُنذرهم ويُذكرهم:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩)﴾[الشعراء]

﴿..وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾ [القصص]

وقد يسّر الله **تعالى** رسالته للذكر والتذكّر و الاعتبار:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)﴾ [القمر:17، 22، 32، 40]

وزاد الله **عزّوجل** على ذلك إرسال الرُسل ليُبينوا للناس، ومن تمام تيسيره **عزّوجل** أنْ كانت الرسالات والرُسل كُلٌّ بلسان قومه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾ [إبراهيم]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨)﴾ [الدخان]

ولكن اختلاف اللغة واللسان ليست هو العقبة الكبرى أمام الهداية، إنما هو الهوى.. فلا يتّعظ ويتذكّر إلاّ مَن كان مِن أُولي الألباب، فجعل عقله هو الحَكم ولم يتّبع هواه، والذي أحب الهداية وخشي الرحمن بالغيب:

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) ﴾ [يس]

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) ﴾ [القمر]

ومَن لم يكن من أولي الألباب فتراهم يهربون من الذكر ولا يُطيقون سماع الحقّ.. إن هُم إلا كالأنعام بل أضل:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴾ [الملك]

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف]

✓ إطار الوعظ

"الوَعْظ والعِظة والمَوعِظة: النُصْح والتذكير بالعواق.. تذكير الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب. وقد وَعَظَه فاتّعظ"

جاء ذكر كلمة «الوعظ» ومشتقاتها، في القرآن الكريم، في ثمان وعشرين موضعًا، في أربعة عشر سورة من القرآن، وهي سور: البقرة، النساء، آل عمران، المائدة، النور، المجادلة، الطلاق. والأعراف، يونس، هود، النحل، الشعراء، لقمان، سبأ. **[المعجم المفهرس]**

ونلاحظ أن سبعاً منها مكية، والسبع الأخرى مدنية.

المعنى المحوري لكلمة "الوعظ":

(كلام أو عمل) يُنَبَّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعله أو ما هو مُقْدِم عليه (ليتوقَّفَ عنه): كما هو واضح في معنى الوعظ.

وقَيد التوقف يؤخَذ من التذكير بالعواقب. وكأن الأصل في معنى التركيب أنه خاص بالزجر عما له عواقب سيئة فحسب، ثم عُمّم في الحضّ على ما له ثواب .

{وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ} [النساء: ٣٤]

{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٦٦]

{يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا} [النور: ١٧]: أي كراهية أن تعودوا..

{إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [هود: ٤٦]: أنهاك عن هذا السؤال (أي طلب أن يُنَجِّي الله ابنه)، وأحذرك لئلا تكون أو كراهية أن تكون من الجاهلين أي الآثمين..

ومن التعميم المذكور: استعماله في التوجيه الحادّ الصارم.. كما في قوله تعالى:

{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا} [سبأ: ٤٦].

أما قوله تعالى: {إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠]. فهو تنبيه للالتزام بهذه المعالم الجامعة.

{وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٦٦] موعظة: مَفْعِلة من الوعظ .

والوعظ: الإذكار بالخير بما يرقُّ له القلب ..

فقوله (إذكار) هو ما عبرنا عنه بالتنبيه.

وكل ما جاء في القرآن من التركيب فهو بمعنى هذا الإذكار والتنبيه.

[المعجم الاشتقاقي المؤصل - محمد حسن جبل]

- ✓ **أشكال وأُطر أخرى**

وضمن هذه الأُطر الثلاثة العامة - النذارة والتذكير والوعظ - فإنّ أهمّ ما يُميّز المنهج القرآني في الخطاب: **استخدام أدوات اللغة والفكر** المختلفة في العرض والبيان والجدال بالتي هي أحسن، وأهمها:

- استخدام القَصص، فتُعرض القضايا والأفكار بقالب قصصي بحيث يكون **التناسب** بين **الحلقة المعروضة** من القصّة **والحال القائمة**، بقصد تحقيق غاية الرسالة من الهداية والبيان والتزكية، بالتثبيت للمؤمنين، وإقامة الحُجَّة على الكفّار المعاندين وكشف زيفهم وباطلهم.
- ضرب الأمثال المختلفة لتوضيح الفكرة أكثر، زيادةً في الإقناع والتأثير وإقامة الحُجَّة.
- المحاججة المباشرة للطاغوت، ودمغه بالحُجَّة البالغة القائمة على الحس أو الخبر الصادق، فإذا هو زاهق.
- استخدام الأدوات والأساليب البلاغية المختلفة، مثل الاستعارات والتشبيهات، والتقديم والتأخير.. وأسلوب السؤال الاستنكاري.. وأسلوب التبكيت.. وكذلك التصوير الفنّي القائم على التخييل والتجسيم.. وضرب الأمثال.. واختيار الألفاظ المناسبة للسياق المعيّن من حيث تصويرها للمعنى، وإيقاعها وجرسها الموسيقيّ.. الخ.

وبشكل عام، فقد استخدم الخطاب القرآني **اللغة العربية** ووظف خصائصها في العرض والوصف والبيان.. توظيفاً معجزاً **بقصد تحقيق غاية الرسالة**..

فجاء ذلك كلّه مُصَاغاً بأسلوب بلاغي متناسق قمة في التناسق، رفيع المستوى لا يطاوله الأُسلوب البشريّ. وهو ما يُشكّل الأساس في **الإعجاز** والتحدّي بالقرآن الكريم، والذي من **مقصده** - الأصل - **لفت انتباه الإنسان** ودفعه للتفكير **بمحتوى الخطاب** وإقناعه به، مع إثارة المشاعر النفسية المناسبة، والمتعدّدة..

وذلك في إطار "**تزيين الحق**" أو بيان زَيْن الحق و جماله.. و ما أشرنا إليه من التنوُّع في عرض الفكرة، أو بتعبير القرآن الكريم: "**تصريف الآيات**" بمعنى بيان الفكرة وتفهيمها بشتى الأساليب

لتحقيق المراد من الهداية وإقامة الحُجَّة، لأن المدعوين مختلفو الطبائع، مختلفو الاستعداد للتلقي والإدراك، مختلفو الرغبات والنزوات:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦)﴾ [الأنعام]

أي أنظر كيف ننوِّع لهم الحجج الدالة على الحق، ثم هم بعد ذلك يعرضون عن التذكر والاعتبار؟!!..

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾ [الأعراف]

أي مثل ذلك التنويع البديع في البيان، نُنوِّع الحجج والبراهين لبيان الحق لأناس يشكرون نعم الله، بتحقيق العبودية له..

هذا، وقد شمل تنوِّع الحجج والبراهين **الوجود المُحس كلّه، فجعله** الله **تبارك وتعالى مجالاً لعرض الفكرة**: كوناً وإنساناً وحياةً، وبعالم الشهادة منه وعالم الغيب.. لبيان الحق:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾ [فصلت]

أساليب، مواقف.. أمثلة متنوعة

ومن أساليب الجدال بالتّي هي أحسن:

- رد المخاطبين إلى ما بقي في نفوسهم من الخير ومن خصال الفطرة السليمة سواء من "المسلّمات العقلية" أو "المقاييس الأخلاقية"، واستثارتها لعلها تكون دافعاً لهم للهداية، وإلاّ فهي حُجَّة عليهم ودليل على تناقضهم مع أنفسهم..
- الخطاب المُرتكز على الثقة المطلقة بالحق، و التي تجعل التحدي للطاغوت وباطله سافراً، الأمر الذي يؤدي إلى كشفه وإزالته.. ت
- تحدي الذي يعبد آلهة غير الله، بأن يأتي ببرهان وحُجَّة قاطعة على صحة عبادته.. وهذا ما لا يمكن أن يحدث.. فسيكون حسابه عند ربه الحق؛ الذي سوّاه فعَدَله..
- كشف الطاغوت وأئمة الكفر، على أساس تحدّيهم وبيان واقعهم من أنهم مخلوقون لله وأن أمرهم بيده **سبحانه وتعالى،** وبيان جزائهم في الدنيا والآخرة على محادّة الله ورسوله**..**
- في حالة المكابرة والاعتزاز بالإثم بعد الطرح الصريح المباشر للحق الأبلج، يتحوّل التحدّي للباطل وأهله إلى **الطلب** إليهم القيام بأعمال يقتضيها تمسُّكهم بما ادّعوا أنّه الحقّ، بقصد **كشف** نواياهم وبيان **حقيقة** موقفهم. وذلك مثل: طلب **المباهلة** من النصارى.. وطلب تمني **الموت** من اليهود..
- **تحدي أن** يأتي الطاغوت وأولياؤه بالضر أو بالنفع أو بالتأثير في الوجود، لكونهم عباد لله عاجزون إلا بحول الله الإله الحق **سبحانه وتعالى، كما أخبرنا** الله **تعالى به** من مواقف رسله، عليهم الصلاة والسلام**..**

3- الجرأة والصراحة في طرح الحق

وعلى أساس أنّ ﴿فَلله الْحُجَّة الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: 149] وأنّ الباطل لا حُجَّة له ولا شرعية لوجوده في حياة الناس، كانت السمة العامّة الغالبة للخطاب هي: الجرأة في طرح الحق والصراحة المباشرة، والتحدّي السافر للطاغوت بأن يأتي بالحُجَّة والبرهان على أنه **إله**، وعلى شرعية حُكْمه لحياة الناس.. وهو ما لا يستطيع الإتيان به، ممّا يُؤدّي إلى تعرية الطاغوت وكشف باطله وبالتّالي إلى هدم أركانه وزهوقه..

وهذا طبعاً غير السبّ والشتم المنهي عنه في الآية:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله فَيَسُبُّوا الله عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)﴾ [الأنعام]

إلا أن سِمة **التحدي** هذه لا تظهر في الطور الأول للدعوة بل قد تبدأ في الطور الثاني وتبلغ ذروتها في "الطور الثالث".. كما ذكرنا، لكن لا بد وأن يُطرح الحق دائماً واضحاً نقياً أبلجَ من غير مواربة أو مداهنة، لتكون فيه الهداية لمن أراد، وإقامة الحُجَّة على مَن أبى، وهو من باب الدعوة بالحكمة والجدال بالتّي هي أحسن، ومن باب إظهار الإسلام والحقّ:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ [فصلت]

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ **قَامُوا** فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا (١٥)﴾ [الكهف]

أي، "وقوَّينا قلوبهم بالإيمان، وشددنا عزيمتهم به، حين قاموا بين يدي الملك الكافر، وهو يلومهم على تَرْكِ عبادة آلهتهم، فقالوا له: ربنا الذي نعبده هو رب السموات والأرض، لن نعبد غيره من الآلهة، لو قلنا غير هذا لكُنَّا قد قلنا قولا جائرًا بعيدًا عن الحق»

وعلى هذا الأساس: "أن يُطرح الحق دائماً واضحاً نقياً أبلجَ من غير مواربة أو مداهنة"، يُفهم أمر الله **تعالى** لموسى وهارون **عليهما السلام**:

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ [طه]

حيث أن الوصف {لَيِّنًا} جاء **لأسلوب** القول وطريقته وليس **لموضوعه** ومحتواه. حيث من الحكمة في بداية الدعوة، استخدامه مع فرعون ومن على شاكلته. وأما **محتوى** القول، فهو الحق المبين الذي يؤدي للتذكُّر والخشية لمن أراد: {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}.

هذا، وبشكل عام، فإن الله **تبارك وتعالى** عندما خاطب الناس في القرآن الكريم - في سياق بيان الحق وإقامة الحُجَّة أو البشارة والنذارة - راعى أحوالهم وواقعهم، فخاطب كل إنسان بما هو أهل له، وبحسب الحالة التي هو فيها.. فلكل حادثة أو واقع (مناط) معالجته الخاصّة به.. فخطاب الكافر المعاند المحارب لله ورسوله، يختلف عن خطاب الكافر الجاهل وغير المحارب، أو عن المنافق. وخطاب المؤمن العاصي، يختلف عن خطاب المؤمن القائم على أمر الله **تعالى**.. وهكذا. وهذا واضح في القرآن الكريم..

مع التأكيد على أن الأصل العام هو الرحمة بالمخاطبين لإنقاذهم من النار.. أما مَنْ أبى فذلك خياره، وهو يتحمّل عاقبته.. كما قال رسول الله ﷺ: (كلُّ أمتي يدخلون الجنةَ إلا مَنْ أبى). قالوا: يا رسولَ الله ومَن يأبى؟!، قال: (مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبى). **[البخاري 7280]**.

والحمد لله رب العالمين

في المباحث الثلاثة السابقة في هذا الباب .. عرضنا وبينا ما حصل مع رسول الله ﷺ في سيره بالرسالة؛ بلاغا وبيانا .. حتى حقق الله الغاية على يديه ووجِدَت الأمة الخاتمة التي ستخلف رسول الله في الاستمرار في المحافظة على الغاية وعلى حمل رسالة الله للناس كافة.. هدى ورحمة..

وقد بينا ما حصل مع رسول الله ﷺ سواء من حيث الأعمال والسنن التي حكمت تتابع حصولها.. أو من حيث الخطاب؛ فكرة ومنهاجاً .. بشيء من التفصيل والتحليل..

والآن لا بد من معرفة كيف يكون الاقتداء برسول الله ﷺ: ما يجب فيه الاقتداء به.. وما لا يجب؟.. وما ضوابط ذلك كله؟.. شاملاً جميع ما سبق بيانه ممّا حصل مع رسول الله، طول مدة الثلاثة والعشرين عاما من السير بالرسالة وإيصال دعوة الله حتى تحقيق الغاية؛ سواء الأعمال وترتيب حدوثها .. أو الخطاب؛ فكرته ومنهجه وكيفيته ..

وهذا ما سيكون موضوع بحثنا في الباب التالي..

الباب الثالث :

كيف نتأسى بــرسول الله ﷺ في ما سبق بيانه؟

هناك ضوابط لمعرفة كيف يكون التأسي برسول الله، وقد تناولها علماء الأصول بالبحث والتحقيق.. ذلك أن رسول الله ﷺ وأثناء سَيْره بالرسالة وحَمْله لدعوة الله في واقعه حتى تحقّقت الغاية، قد قام بأعمال كثيرة؛ أقوالاً و أفعالاً و إقرارات..

وقيامه ﷺ بها لا يعني في حَقِّنا وجوب **القيام** بكل تلك الأعمال، إنما يعني وجوب **التأسي** فيه ﷺ بتلك الأعمال، وبحسب **حُكمها** إن كان على الفرْض أو الندْب أو الإباحة.. وبحسب **كيفيتها**..

توطئة : ما معنى التأسي فيه ﷺ ؟

بدايةً.. عرفنا أن ما حصل مع رسول الله ﷺ في سيره بالرسالة، و "التلقّي المرتّل" للآيات كمعالجات للوقائع والأحداث.. كان نتيجة السير حسب "المنهاج" بضوابطه - أولاً بأول - حتى إكمال الدّين لله **جلّ وعلا**: تزكيةً وإعداداً للمؤمنين، أفراداً وجماعةً ثمّ أمّة.. ومعالجةً للعقبات والعوائق في الطريق، الداخلية منها والخارجية؛ من كيانات وشَهوات وشُبهات، ومن مكر وكيد أهل الكفر بأنواعهم المختلفة، مشركين وأهل كتاب ومنافقين.. فكان ذلك التلقي للآيات هو "تلقٍ منهاجيّ للآيات" بقصد تحقيق الغاية من الرسالة..

والسير العملي كان بحسب الخطوات الرئيسة التالية:

- ✓ البِدْء **بتلقي** (تناول) آيات القرآن التي موضوعها أفكار "خطاب النذارة" (فكرة الدعوة): أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير.. والتي هي أول آيات القرآن نزولاً..
- ✓ ثم **طَرْح** "خطاب النذارة" بلاغاً مبيناً.. كـ "فكرة لدعوة" الناس في المجتمع - أتباعاً ومتبوعين - إلى **إخلاص** الدين لله.. وجعل كلمة الله هي العليا.. **(وربَّك فكَبِّر) المدثر**
- ✓ وما كان يَرِد من **ردود** أفعال الناس - الملأ وعامّتهم - على ما وصلهم من الحق (دعوتهم لإخلاص الدين لله).. يحتاج جواباً شرعياً؛ أي هو "المناط" الذي يحتاج معالجة شرعية.. وذلك بالرجوع إلى القرآن الكريم **لتلقّي** (أخذ) ما **يلزم** - شرعاً وقدراً، وحسب مرحلة السير - من الآيات التي فيها المعالجات لتلك المواقف والأفعال التي صدرت من الناس في المجتمع..

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان: ٣٣

- ✓ **تنزيل** الآيات **على الوقائع** والأحداث (ردود الأفعال) الحاصلة **لمعالجتها** حسب الضوابط السننيّة والشرعيّة للسير بالرسالة (بحكمة)، أولاً بأول.. **بتلاوتها** على الناس **وبيانها** بما يحقق المعالجة الشرعية على الوجه الأحسن؛ **بيان** الحق **وإقامة** الحُجَّة الرسالية.
- ✓ وهكذا استمر السير بالرسالة، واستمر تنزيل الآيات كمعالجات للمواقف والأحداث؛ كلما أحدث المجتمع وملؤه أمراً، أحدث الله **جلّ وعلا** جواباً لهم بتنزيل آيات (سورة) من رسالته، فيقوم رسول الله بتلاوتها وبيانها بياناً عملياً؛ بتنزيلها كمعالجات للواقع المجتمعي.. مع الاستقامة والصبر على ذلك.. واستمر السير هكذا، ضمن عمليّة **البناء** و**الهدم** الشاملة والمستمرة - بمراحلها وأطوارها: **بناء** كيان الحق ممثلاً بالفئة المؤمنة (نواة الأمة) قبل التمكين، ثم "الأمة المسلمة" بعد التمكين.. و**هدم** الكيان الجاهليّ (في المدينة المنورة).. حتى يصبح "الدين كلّه لله" و "كلمة الله هي العليا".. بمعنى أن عبادة الله **عزّ وجل** قد أصبحت حقيقة واقعة في حياة الناس وقد تشكّلت الأمة بحسبها، فأصبحت كلمة الله هي العليا.. حينها تكون قد تحقّقت الغاية من الرسالة في المجتمع.

والآن، كيف نتأسّى برسول الله ﷺ في ما قام به في سيره بالرسالة؟..

لا بد من الانتباه إلى أن **قيام** الرّسول ﷺ بأعمال معينة؛ قولاً أو فعلاً أو إقراراً.. أثناء سيره بالرسالة حتى تحقيق الغاية منها في واقعه، إنما يعني **وجوب التأسي** فيه ﷺ بتلك الأعمال:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب: ٢١ ،، (188)

أي (لقد كان لكم - أيها المؤمنون - في أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله قدوة حسنة تتأسَّون بها، فالزموا سنته، فإنما يسلكها ويتأسى بها مَن كان يرجو الله واليوم الآخر، وأكثرَ مِن ذكر الله واستغفاره، وشكره في كل حال). **[الميسر]**

بمعنى؛ أن المسلم يقوم بالأعمال التي قام بها رسول الله:

- ✓ طاعةً لله ولرسول الله ﷺ.. (الإخلاص)
- ✓ و كما قام بها رسول الله؛ أي على مثل هيئتها وصورتها.. (الاتباع)
- ✓ وبحسب حُكمها إن كان على الفرْض أو الندْب أو الإباحة.. (الاتباع)

وهي الأعمال التي جاءت **بياناً** للمعالجات الواردة في "القرآن"، فهذه من "السُنة"، فهي **عبادة** وهي **واجبة** الاتّباع: وذلك على هيئتها و**بحسب** حكمها؛ الندب أو الفرض.. وهي ثابتة لا تتغيّر..

وهناك أعمال تخرج من دائرة "وجوب الاقتداء":

- ما كان من "الأسلوب"، وهو المتعلّق بتنزيل "الأمر الشرعي" على واقع معيّن آنذاك؛ بزمانه ومكانه وأشخاصه.. وهذا يتغيّر حسب الزمان والمكان والأحوال، وحُكمه أنه من "المُباح".. فلا يجب الاقتداء به ﷺ في هذه الأفعال، مثل:
  - ذهابه ﷺ إلى **الطائف** لدعوتهم لعبادة الله وحده، وأن ينصروه "حتى يبلِّغ كلام ربّه"، وقد منعته قريش وملؤها من بلاغه..
  - أمْره لبعض الصحابة بالهجرة إلى **الحبشة**..
  - صعوده **الصفا** لإنذار قريش بعذاب الله إن لم يؤمنوا..
- الأفعال التي هي من جِبِلّته ﷺ وطبيعة خِلْقته.. مثل طريقة مشيه ولون شعره وبشرته..ما كان من الأحكام الخاصة به ﷺ.. مثل وجوب قيام الليل، ومواصلة الصيام، وزواجه بأكثر من أربع

---

188 - في تفسير ابن عثيمين: (وقوله: ﴿فِي رَسُولِ اللهِ﴾، ولم يقل: في محمد، ولم يقل: في النبي، إشارة إلى أن الأسوة فيه ﷺ؛ لأنه رسول الله، فهذا الوصف يفيد العِلِّيَّة، أي أن عِلَّة الأسوة كونه رسول الله ﷺ، وإلا ما كان علينا أن نتأسى به لأنه رجل من الناس، لكن لأنه رسول الله كان لنا فيه أسوة حسنة. =>

وقوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.. أنه أسوة حسنة في كل ما يفعله، كل ما كان من سنته فإن لنا فيه أسوة حسنة، وقوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فيها معنيان:

المعنى الأول: أن التأسِّي بالرسول ﷺ كله حسن؛ لأنه عليه الصلاة والسلام معصوم من الخطأ في التشريع، فكل تأسٍّ به فهو حسن، بخلاف التأسي في غيره، فقد يكون حسنًا، وقد يكون غير حسن.

المعنى الثاني: أسوة حسنة باعتبار تأسِّينَا به، لا باعتبار ما هو عليه، والأسوة الحسنة باعتبار تأسينا به هو أن نكون موافقين له في القول والفعل والقصد الذي هو العقيدة، نوافقه في هذه الأمور الثلاثة؛ في العقيدة والقول والفعل، هذه الأسوة الحسنة، فمن وافقه في قوله دون فعله لم يَتَأَسَّ به أسوة حسنة، ومن وافقه في فعله دون قوله لم يَتَأَسَّ به أسوة حسنة، ومن تَأَسَّى في قوله وفعله دون عقيدته وقصده لم يتأسَّ به أسوة حسنة. ويدخل في الأسوة الحسنة الدعوة إلى دين الله، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لا شك أنه يدعو إلى دين الله، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف ١٠٨].) **(الدرر السنية)**

نساء..

هذا، والإطار العام الذي حصلت فيه سنة رسول الله؛ أقواله وأفعاله وتقريراته.. والضابط العام لها، هو التلقي المفرَّق للآيات (الترتيل)، حسب "**منهاج** السير" بالرسالة، بقصد تحقيق الغاية منها.. فكان فيه **بيان** لطبيعة السير العملي بالرسالة؛ بمراحله وأعماله وخطابه.. في المجتمع لمعالجته.. فالسنة فيها البيان لما كان يُنزَّل على قلب رسول الله من آيات القرآن الكريم مفرقة.. أولاً بأول.. والرسول نزّل ذلك كله على واقعه آنذاك لمعالجته بحكمة:

- ✓ **بماذا** نخاطب الناس (فكرة الدعوة) **وكيف** نخاطبهم (منهج الخطاب)..
- ✓ ما هي **الأعمال** المطلوب القيام بها..
- ✓ **العقبات**؛ طبيعتها وكيفية إزالتها أو تحييدها..
- ✓ **الثبات** على الطريق أو "منهج التثبيت"..

فـ "**الترتيل**" في نزول الآيات، كان من أجل **تلقي** القرآن بشكل **تدريجي** (على مُكْث) ليكون السير به على بصيرة؛ أولاً بأول.. وحسب منهاج محدد وواضح؛ **للعلم والعمل به، والسير به** خطوة بعد خطوة.. من نزول ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ..﴾ حتى نزول آخر آية.. وذلك لجعله حقيقة في الواقع الإنساني، متمثلاً **بأمّـة مسلمة** قد أكملت دينها (عبوديتها) لله **جلّ وعلا**.. كما في الرواية عن ابن عباس: (نزل القرآن **كله جملة واحدة** في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا **أراد** أن **يُحدث** في الأرض شيئا **أنزله منه**، حتى جَمَعه) **(189)..**

فتنزيل القرآن **مرتّلاً** على قلب رسول الله ﷺ كان من أجل إحداث تغيير في واقع الناس في الأرض.. وذلك من خلال **البيان** الواضح غاية الوضوح؛ **"التّبيان"**، لكل ما يتعلّق **بتحقيق الغاية منه**؛ إكمال العبودية لله **تبارك وتعالى**:

﴿..**وَنَزَّلْنَا** عَلَيْكَ الْكِتَابَ **تِبْيَانًا** لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾ [النحل] **(190)**

ويتأتّى ذلك البيان الواضح أو "**التّبيان**": من ثلاث جهات متعلقة بتحقيق الغاية من الرسالة:

- ✓ من جهة "**تتابع** (ترتيب) **نزول**" آيات الرسالة: فيه **دلالة** علـى ترتيب الأولويات: بماذا أبدأ؟.. أو من أين أبدأ؟.. خطاباً وأعمالاً..
- ✓ ومن جهة "**نصّ الآيات**"؛ ألفاظها وجملها: ففيه **دلالة** على الأفكار والأحكام.. أي بيان "المعالجات **السُننية**، و**الشرعية**..

---

189 - أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً. (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور - حكمت بن بشير بن ياسين). فما أنزل الله عزّ وجلّ القرآن، وبعث به محمداً عليه الصلاة والسلام.. إلا => ليُحدث تغييراً إلى الأحسن والأصلح في حياة الإنسان؛ الخليفة في الأرض.

190 - ومعنى (تبياناً لكل شيء): ((أي (بيان لكل شيء يُحتاج إليه في أمر الدين). أنظر زاد المسير لابن الجوزي وأيضاً تفسير ابن عاشور. فالعموم المستفاد من الآية عموم نسبي متعلق بالسياق الذي ورد=> فيه، فالقرآن الكريم فيه تبيان لكل شيء يحتاج إلى تبيان، لما فيه من المصلحة الدينية والدنيوية للعباد.. أي تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع.

✓ و "**أسلوب صياغة**" الآيات وتركيبها وبناء أفكارها: ففيه **دلالة** على "منهج **الخطاب**" بالأفكار والأحكام والمعالجات بشكل مؤثر؛ مُقنع للعقل وموافق للفطرة.. يوجِد اليقين ويُقيم الحُجَّة.. وذلك ضمن إطار عام؛ هو "البشارة والنذارة"..

ومن هنا، فتحقيق "**الغاية** من الرسالة" ما كان إلا بتلقي الآيات البيّنات **مرتّلة**.. أي "**التلقّي المنهاجيّ**" للآيات..

والآن، كيف **نتأسى** برسول الله في "**التلقّي المنهاجيّ**" للآيات، وما فيه من بيان لأعمال وخطاب وأولويات السير برسالة الله ودعوته؛ بلاغاً وبياناً؟..

بمعنى، ما هو المُلزِم لنا، وما هو غير المُلزِم، من ذلك كله؟.

وجواب هذا السؤال هو البيان لـ "**منهاج** النبوّة" في تلقي القرآن والسير به حتى تحقيق الغاية منه في الواقع، وذلك، بأن يُنظر **إليه** من جوانبه الثلاثة:

الأول: من حيث **ترتيل** (ترتيب) **تلقي** الآيات، وما تلازَم معه من **ترتيبِ** (مولاة) الخطاب والأعمال، والمعالجات؛ الشرعية والسننية.. أثناء السير بالرسالة..

الثاني: من حيث الأحكام نفسها، أي **كمعالجات** - فكراً وسلوكاً - وكيفية تنفيذها..

الثالث: "منهج **الخطاب**" بالأفكار والأحكام والمعالجات بشكل مؤثر؛ مُقنع للعقل وموافق للفطرة ومقيم للحُجَّة..

المبحث الأول : التأسّي برسول الله في "ترتيب تلقي" الآيات، وفي تتابع الأعمال

أولاً: الترتيل المفصَّل (التاريخي)

إن **الترتيل المفصّل** لتلقّي الآيات، **والتتابع المفصّل** للأعمال الذي حصل مع رسول الله أثناء سيره بالرسالة؛ من البداية حتى تحقيق الغاية منها، <u>لا يدخل في **دائرة الإلزام** عند الاقتداء برسول الله، بل هو من المباحات</u>.. وذلك:

"**ترتيل** تلقي الآيات" و "**ترتيب** الأعمال"، إنما هو من أحد الاحتمالات الآتية:

1- أنه <u>**لم تصلنا**</u> عنه أخبار، فيكون قد **فُقد واندَرَس**، ولم يعد بالإمكان العلم به بالتفصيل الكامل الذي حصل مع الرّسول ﷺ.. ومعلوم أن جُـلّه مفقود.. وعدم حفظه وفقدان جلّه، <u>دليلٌ قطعيّ على أنه ليس فيه دلالة على تكليف شرعي أو عبادة</u>.. وإلا **حُفظ مع الوحي**، ولم يُفـقَد منه شيء، ولا حتى حرف واحد. فلا يمكن ان يُفقد شيء من دين الله **تعالى** الخاتم للبشرية.. فهو محفوظ حتى قيام الساعة، بحفظ الله **جلّ وعلا** له من الزيادة أو النقصان أو الضياع. حيث تكفّل الله **بنفسه** سبحانه بحفْظ القرآن الكريم - آياته وسوره - بوصفه **ذِكْراً** وتذكرة:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر: 9]

(إنما قال "الذِّكر" عِوض "القرآن"، ليدل على أن الحفظ متعلق بالمعنى واللفظ معاً) [191]

فعدم حفظ "**ترتيل** النزول الأول" لآيات الرسالة، و "**ترتيب** الأعمال" من سير الرّسول ﷺ لتحقيقه الغاية من الرسالة، **دليل قطعي** على أن ذينك الترتيبين **ليسا من "البيان" الذي تعبّدنا الله جلّ وعلا به**، وإلاّ **حُفِظا مع الوحي**.. مثل ما حُفِظت الروايات التي تبيّن أعمال الصلاة وأعمال الحج وترتيبهما.

2- أنه **وصلتنا** عنه أخبار، ولكن لم **تثبت** نسبتها إلى رسول الله ﷺ، أي لم يثبت كونها من الوحي [192].. فلا يُمكن أن نُكلّف بها؛ فهي ليس من الوحي..

3- ما **وصلنا وثبتت** نسبته إلى رسول الله ﷺ - بأي درجة ثبوت، وعند أي من علماء الحديث المعتبرين - فإن ما ورد في تلك الروايات من دلالة حول "**ترتيل** تلقي الآيات" و "**ترتيب** الأعمال".. أو ما أمكن الوصول إليه بدراسة آيات القرآن المجيد وسوره وتدبّرها.. أيضاً ليست من العبادة وغير مكلفين بها.. وذلك باعتبار ما يلي:

إن **الترتيل المفصّل** لنزول **الآيات** وتتابع **الأعمال**، كان هو الترتيل **المناسب**؛ شرعاً وقَدَراً، **لمواقف** الناس **وتتابع** ردود أفعالهم من الحق الذي بلغهم (لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير)، في **ذلك الواقع الإنساني** الذي بُعث فيه رسول الله الخاتم، **لمعالجته** على أَتَمّ وجهٍ وأحسن صورة، حتى أدق التفاصيل، إلى أن أصبحت كلمة الله هي العليا فيه..

فـ "**الترتيل المفصّل**" لنزول **الآيات** على قلب رسول الله، وتتابع **الأعمال**، كان **ترتيباً تاريخيّاً** - وحسب سنن الله - تَناسَب مع ذلك الواقع الإنساني بزمانه ومكانه وأشخاصه وتتابع المواقف والأحداث فيه.. يقول الله **تعالى:**

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان: ٣٣

(أي لا يأتيك هؤلاء المشركون المعاندون بحُجَّة أو شبهة، ولا يقولون قولا يعارضون به الحق والتشكيك في نُبوَّتك.. إلا أجبناهم بما هو الحق الثابت الذي يدحض قولهم، ويبطل حجتهم، ويكون أصدق في الواقع، وأبين وأوضح وأفصح مما يقولون، كما قال **تعالى:** {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ، فَإِذا هُوَ زاهِقٌ} [الأنبياء 18/ 21]]..

وعن ابن عباس: (فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً). **[أخرجه ابن أبي حاتم]**

191 - مقدمة كتاب (نظام القرآن) - الفراهي الهندي. نقول: فالحفظ يكون للقرآن (الكتاب) بوصف "ذكراً"، والقرآن لا يكون ذكراً وفيه العبرة والتذكرة إلا ببيان معانيه وفهمها.. كما بيّنها رسول الله، سواء فيما يتعلق بالفكر أم بالعمل.. مما يقتضي حفظ ذلك البيان كما حُفظ نص القرآن (الكتاب). =>
قرآن، كتاب، ذِكْر، نور، روح، هدى، مجيد، حكيم، كريم.. كلها أسماء وأوصاف لكلام الله الذي أنزله وحياً على رسوله محمد؛ مبدوءً بسورة الفاتحة ومختوماً بسورة الناس.

192 - كما هو الحال في كثير من روايات "السيرة النبوية"، إلا أن عدداً من أهل العلم قد شمّر عن ساعد الجد فَنَقَد هذه الروايات على منهج المحدّثين، وجمع ما ثبت منها - على مختلف درجات الثبوت - في=> مؤلَّف واحد، مثل ما قام به إبراهيم العلي في كتابه (صحيح السيرة النبوية)، و د أكرم ضياء العمري، و د محمد أبو شهبة.. وغيرهم. جزى الله الجميع خيراً وبارك في جهودهم.

فقد تكفّل الله سبحانه بـ "**الترتيل** الأوّل" **لتنزيل** الآيات وتتابع الأعمال، ولم يَكِلْه لأحدٍ من الخلق:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان]

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦)﴾ [الإسراء]

فـ " الترتيل المفصّل" لتنزيل الآيات، من **شأن** الله **وحده**.. سبحانه وتعالى

لهذا لم **يُكلّف** الله به رسوله، ولم **يتعبّدنا** به، ولم يأمره بحفظه، ولم يَجعل العِلْم بذلك من فرائض الأمّـة.. **و ذلك:**

أولاً : أنه لا يوجد نص من الوحي - قرآناً أو سنةً - فيه **تكليف** لرسول الله **بتلقي** آيات القرآن الكريم حسب **ترتيب معيّن والسير بها** بحسب **ذلك الترتيب**.. فهذا أمر لا يستطيعه الرّسول ﷺ، بل هو مستحيل في حقه، فلا يُكلّف به، وذلك:

لأنّ الله تعالى **لم** يُنـزّل **آيات** القرآن **جملة واحدة** على قلب الرّسول ﷺ، فهو لا يعلم آيات الله كلها، فكيف - وهو لا يعلمها - يمكن أن **يُكلّفه** الله تعالى **بترتيبها** ترتيباً معيناً وأن يأخْذها ويتلقاها **بحسب** ذلك الترتيب؟!.

ولأن الرّسول ﷺ **لا يعلم الغيب** حتى يعلم كيف سيكون **ترتيب** حدوث الوقائع والأحداث **بالتفصيل**، ثم كيف سيكون الترتيل **المفصّل** لتلقي آيات القرآن الكريم **لمعالجة** تلك الأحداث:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ [الأعراف]

ومع أن الله تعالى يُطلِع رسوله على بعض الغيب ليُخبر به الناس.. إلا أنه عزّ وجل، **لم يكن ليُطْلع** الرّسول ﷺ على الغيب بهذا **الشكل المفصّل**، فذلك ليس من سنته سبحانه وتعالى في هذا الأمر:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) ﴾ [الأحقاف]

﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾ [آل عمران]

وعليه، فلم يحصل أن كَـلّف (تَعبّد) الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ **بترتيب آيات القرآن الكريم** - ابتداءً قبل السير - حسب ترتيب (ترتيل) **معيّن**، حتى **يُكلّفه** أو يتعبّده بتلقي **الآيات** وأخْذها و**السير بها** والقيام **بالأعمال** الشرعية اللازمة بحسب ذلك الترتيب.

ثانياً : أنه لم ترد لاحقاً - أثناء السير أو بعد انتهائه - نصوص من الوحي فيها تكليف **بحفظ** "**ترتيل** التلقي الأول" (ترتيب النزول) أو حفظ "**ترتيب** الأعمال" أثناء السير كما حصل فعلاً من البداية حتى تحقيق الغاية، لا إجمالاً ولا تفصيلاً.. **فلم يثبت** عن الرّسول ﷺ أنه - بالنسبة لـهذين الترتيبين - **أمَر** بحفْظهما ونقْلهما، أو **نَهى** عن عدم معرفتهما، فَهُما ليسا من الأمور التي **طلب** الشّرع العلم بها أو **نَهى** عن الجهل بها.. (فالروايات التي جاءت في هذا المجال [ترتيب نزول آيات القرآن] لم تَرِد إلا عن الصحابة الذين شاهدوا مكان الوحي وعرفوا زمانه، أو التابعين الذين سمعوا

وصف ذلك وتفصيله من الصحابة.. أما رسول الله ﷺ فلم يرد عنه شيء من هذا القبيل، لأنه ﷺ، كما يقول القاضي أبو بكر الباقلاني في "الانتصار": { لم يُؤمَر به، ولم يجعل الله علْم ذلك من فرائض الأمّة }). **[(مباحث في علوم القرآن). صبحي الصالح].**

ثالثاً: إن الله **عزّ وجل** عندما أراد جَمْع آيات القرآن جملة واحدة، لم يَجْعلها حسب **التتابع التاريخي** (الترتيل المفصّل) **لنزول** الآيات على قلب رسول الله.. فهو أسلوب لتلقّي الآيات كان مناسباً لواقع اجتماعي معين؛ في زمانه ومكانه وأشخاصه وردود أفعالهم -(فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً) - بل **كَلّف** رسوله ﷺ، بـ **"ترتيل"** (تنسيق وتنظيم) خاص **ونهائي** - ليجعل الآيات بحسبه - يتناسب مع كون القرآن رسالة الله الخاتمة للبشرية حتى قيام الساعة.. ألا وهو **"التسوير"**.. وذلك بجعل آيات محددة في **سورة** معيّنة، وعددها مئة وأربع عشرة سورة. **[تفصيل أكثر لدلالة "التسوير" في ما يلي من البحث].**

رابعاً : حينما تكون **الأعمال** مطلوبة، وفيها تكليف شرعيّ - مثل أعمال الصلاة والحج - نجد أن الموقف الشرعي من **ترتيبها** والموالاة بينها يختلف. فقد جاءت نصوص شرعية **عيّنت** أعمالاً مخصوصة **وحدّدتها** أنها من **البيان** الشرعي **لحكم سابق**، وهو وجوب الصلاة، في مثل قوله ﷺ: {صلّوا كما رأيتموني أُصلّي}. **[البخاري]**.. وقد صلّى الرسول على مرأى من المسلمين، حيث قام بأفعال مخصوصة على هيئات مخصوصة **وبترتيب** معين..

وكذلك الأمر بالنسبة للحج، حيث قال ﷺ في حُجَّة الوداع: { ولتأخذوا عني مناسككم}. **[صحيح الجامع الصغير]**، وقد قام الرسول بأفعال مخصوصة في زمان ومكان مخصوصين **وبترتيب** معين..

فنجد أن وصف و**ترتيب** أعمال الصلاة، ووصف و**ترتيب** أعمال الحج قد **حُفِظا**، **حتى أدق التفاصيل**، ونحن **متعبَّدون** بهما.. وهذا أمر لم يحصل بالنسبة لـ **"ترتيل** نزول الآيات" و **"ترتيب** الأعمال" أثناء السير بالرسالة.

النتيجة..

إن ما أمكن الوصول إليه ومعرفته من **"الترتيل المفصّل"** لتلقّي الآيات، و **تتابع** الأعمال.. الذي حصل مع رسول الله أثناء سيره بالرسالة؛ من البداية حتى تحقيق الغاية منها..

سواء وصلنا إليه بدراسة آيات القرآن المجيد وسوره وتدبّرها.. أو بدلالة ما هو محفوظ وثابت من **الروايات** ذات العلاقة..

فإنه لا يدخل في **دائرة الإلزام** عند الاقتداء برسول الله، بل هو من **المباحات**.. فهو ليس من أمر الله **الشرعيّ**، أي ليس من العبادة، إنما هو من أمر الله **القدريّ**.. فهو من **شأن** الله **عزّوجل وحده**، ولا يستطيعه أحد من الخلق..

لهذا نجد أنه كما **لم ترد** أدلة شرعية متعلّقة **بالتكليف بحفظ "ترتيل** التلقي" الأول أو **"ترتيب** الأعمال"؛ بكماله وتمامه.. نجد كذلك أنه **لم ترد** أدلة شرعية تدل على أن الله تعالى تعبدنا بما **حُفظ** من **ترتيب** الأعمال أو أنه جعَله **بياناً** لخطاب سابق.. (كأعمال الصلاة والحج وترتيبها، مثلاً)

فقد كان هو الترتيل (الترتيب) التفصيلي **المناسب**؛ شرعاً وقَدَراً، **لمواقف** الناس **وتتابع** ردود أفعالهم من الحق الذي بلغهم - أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير - في **ذلك الواقع المجتمعي**؛

بمكانه وزمانه وأشخاصه.. الذي بُعث فيه رسول الله الخاتم، **لمعالجته** بالرسالة على أَتَمّ وجهٍ وأحسن صورة، حتى أدق التفاصيل، إلى أن أصبحت كلمة الله هي العليا فيه..

ويبقى السؤال:

إذا كان "الترتيل المفصّل" لتلقي الآيات، وتتابع أعمال السير (التاريخي) الذي حصل مع رسول الله.. ليس ملزماً شرعاً.. إذاً في أي جانب يكون الاقتداء برسول الله ﷺ في أولويات الأعمال والخطاب في السير بالرسالة في المجتمع؟.. البداية؛ من أين ؟ وكيف ؟..

الجواب في النقاط التالية..

ثانياً: "الترتيل المفصّل" كان بحسب ضوابط معينة

إن "الترتيل **المفصّل**" لتلقي (نزول) الآيات، **وتتابع** أعمال سير رسول الله بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها، كانا حسب **ضوابط شرعية** وأخرى **سننيّة** تضبطهما وتضبط تتابعهما. بمعنى أنه كان لا يُنزّل من الدّين (العبادة) إلا ما **يلزم** - قدراً وشرعاً - أن يُنزّل، وهو ما يلزم **لمعالجة** [193] الواقع، **أي** "مناطٍ" **حاصل** فعلاً [194]، وفي **الاستطاعة** تطبيق تلك المعالجة وإنفاذها حال نزولها.. **إعداداً** وتهيئة لما سيُنزّل بعده من دين الله.. حسب خط سير (منهاج) عملية بناء كيان الأمة، وهدم وإزالة العقبات.. وهكذا حتى إكمال الدّين لله **تعالى**.

وبالنظر في ما حصل مع رسول الله ﷺ أثناء سيره بالرسالة، ومن خلال آيات القرآن وروايات السيرة، نرى أن هناك **نوعين** اثنين **لضوابط ترتيل** نزول آيات الرسالة، ولتَتابُع حصول المواقف والأحداث أثناء سير رسول الله بالرسالة:

الأول: **ضابط شرعيّ** (تكليفيّ).

الثاني: **ضابط سُننيّ** (قدريّ/ تكوينيّ). [195]

193 - "المعالجات الشرعية" هي: الأعمال (قول أو فعل) المطلوب شرعاً القيام بها، لمعالجة حدث حاصل فعلاً (المناط)، وتؤخذ من الدليل الشرعي؛ بفهمه حسب الأصول المعتبرة لغة وشرعاً، سواء في الإيمان أم العمل الصالح أم الدعوة. فهي أعم من "الحكم الشرعي" المتعلق بأفعال العباد، ومتضمنة له، فهي => تتعلق بالفكر أيضاً؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو، أم بالحكم على وجوده من عدمه، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعي.

194 - المناط هو: ما أناط (علّق) الشارع الحكم به، أي الواقع (الشيء أو الأمر) الذي جيء له بالحكم الشرعيّ أو المعالجة الشرعيّة. انظر (الواضح في أصول الفقه) - محمد حسين عبدالله.

195 - السنّة في اللغة لها أصل واحد وهو: "جريان الشيء واطراده " **(معجم المقاييس - ابن فارس)**. وفي الاصطلاح هي: " طريقة الله - جلّ وعلا - وعادته الدائمة المطردة في إنفاذ إرادته ومشيئته في خلقه، متمثلة في أمره: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } **[يس82]. [انظر كتاب "الإيمان بالقدر" مرجع سابق].** فإن كان أمره **عزّ وجلّ** متعلقاً بالخلق والتقدير والقيوميّة، فهذا هو الأمر القدريّ (التكويني)، فيكون بحسب سننه القدريّة (التكوينية) في الآفاق والأنفس والأمم: {سُنَّةَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً} **[الفتح23]**. ودليل إثبات السنن القدرية - أي قوانين الوجود المادية منها والاجتماعية والإنسانية - يكون إما من الشرع، وهو الأصل، أو من العقل؛ بالتفكر في خلق الله في الآفاق والأنفس وأحوال =>

الضابط الشرعيّ :

ويتمثل في القواعد العامة (السنن الشرعية) التي على أساسها كانت تتـنزّل آيات القرآن الكريم مرتّلة - أولاً بأول - بما فيها من تكاليف وأوامر شرعيّة؛ من إيمان وعمل صالح ودعوة (الأمر الشرعيّ).. كمعالجات للواقع الإنساني، ومن أبرزها القواعد العامة التالية:

❖ **قاعدة**: " تلقي **الإيمان أولاً** ثم تلقي الأحكام":

لِما ثبت من قول بعض الصحابة الكرام في وصف ترتيب تلقيهم آيات القرآن الكريم: (بأنهم أوتوا الإيمان أولاً ثم أوتوا القرآن) [196].. بمعنى أنهم أول ما أخذوا عن رسول الله الآيات من القرآن التي فيها بيانُ حيثيات الإيمان بالله واليوم الآخر، ووجوب الاستسلام والانقياد لأمر الله ورسوله (الطاعة والاتباع).. وهي آيات "خطاب النذارة"، وهي أول ما نزل من القرآن.. ثم بعد ذلك، تبعه بيان الأحكام التفصيلية والتشريعات.. كما بيّنت السيدة عائشة **رضي** الله **عنها** عند ذكرها سنّة الله **عزّ وجل** وحكمته في **ترتيل** نزول **آيات** القرآن الكريم، حيث كان أول ما نُـزّل من القرآن الكريم، الآيات المتعلّقة بـالإيمان بالله واليوم الآخر، ثمّ نُـزّلت الآيات المتعلّقة بالتشريع والأحكام المفصّلة لاحقاً.. حيث قالت: (**أول** ما أُنزل من القرآن سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، **حتى** إذا **ثاب الناس** إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، **ولو نزل من أول الأمر**: لاتزنوا، لقالوا لا ندع الزنا أبداً، **ولو نزل من أول الأمر**: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبداً. **أُنزل** على النبي ﷺ وأنا **جارية ألعب** { بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} وهي من سورة القمر، **وما نزلت** البقرة والنساء إلا وأنا عنده في **المدينة**). **[رواه البخاري (4993)]**

وهذا أمر ظاهر وواضح تماماً في أوائل ما ثبت نزوله من آيّ القرآن الكريم على قلب رسول الله، حيث كان موضوعها هو "خطاب النذارة" (فكرة الدعوة)؛ "اعبدوا الله ما لكم من إله غير وإليه المصير".. وهي: الآيات الأولى من سورة العلق، ومن سورة المدثر وكذلك سورة الفاتحة كاملة.. **[للتفصيل انظر "منهج التزكية والتعليم" مرجع سابق]..**

الأمم. وعلى أساسها ومنسوباً إليها، يكون "الضابط السنني". وإن كان أمره - عزّ وجلّ - متعلق بالتكليف بالشريعة والدين، فذاك الأمر الشرعيّ، فيكون بحسب سننته الشرعيّة، أي طريقة عبادته (دينه) التي أرادها ورضيها من المكلفين من عباده، فأوحاها إلى رسله وأنبيائه ليبـيّنوها لهم: {يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ..} **[النساء26]**. ولا تثبت إلا بالوحي أو ما دل عليه. ومنها ومنسوباً إليها "الضابط الشرعي".

196 - عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ،[أشدّاء] فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ=> نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا). **[رواه ابن ماجه (61)، وصححه الألباني في (صحيح سنن ابن ماجه)(37/1 – 38)]**. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَإِنَّ أَحْدَثَنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا كَمَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمُ الْقُرْآنَ، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ). **[رواه الحاكم في "المستدرك" (35/1)، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَا أَعْرِفُ لَهُ عِلَّةً"، ووافقه الذهبي. (موقع: الإسلام سؤال وجواب)]**.

وهو أمر ظاهر في السور المكيّة، حيث أن المحور الرئيس الذي تدور حوله مواضيعها هو الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر (خطاب النذارة)، سواء من حيث **بيان** الحق **وإقامة** "الحُجَّة الرسالية"، أو من حيث **كشف** زيف "الطاغوت" الذي ينقاد له المجتمع الجاهلي ويطيعونه، أو **إزالة** الشبهات التي كان يثيرها الملأ للتلبيس على الحق للصد عن سبيل الله..
وكل ذلك حسب "طريقة القرآن" (منهج الخطاب).

❖ **قاعدة**: "لا يجوز **تأخير البيان** عن وقت الحاجة" (197) :

بمعنى أنه لا يُنزّل من الدّين إلا ما يجب أن يُنزّل - قدراً وشرعاً - وهو: ما **يلزم** لبيان **معالجة** - فكرية أو فقهية - **لواقع حاصل** (المناط) في فترته ومرحلته.. أو للإعداد لأمر في المستقبل والتهيؤ له.. سواء تعلق بالمؤمنين أم بالكافرين أم بالعلاقة بينهما.. وعن ابن عباس: (فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً). **[أخرجه ابن أبي حاتم]**

❖ **قاعدة**: "التكليف حسب الوسع":

أي أن يكون في **استطاعة** المؤمنين - أفراداً أو جماعة أو أمة - تطبيق تلك **المعالجة** وإنفاذها حال نزولها، دون أن يؤدي ذلك إلى هلاك **ذات** المكلّف الفرد أو إلى **تصدّع** وتفرّق **كيان** الجماعة أو الأمة (198).

فأمر الله الشرعيّ، أي حكمه وقضاؤه (المعالجة)، إذا نـزل لا بد من أن **يُنـفّذه** المؤمنون في واقع حياتهم ومجتمعهم مباشرة ودون أي تأخير، كما هو **نافذ** أمر الله القدريّ، أي حكمه وقضاؤه في الوجود، لأنه لا إله إلا الله:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ

---

197 - والمقصود بالبيان عند الأصوليين هو "البيان العام" (ويعنون به: ما لم يرد بيانا للفظ سابق [وهو => البيان الخاص]. فعلى هذا، كل كلام صادر وموجّه إلى الآخرين يُعد بيانا، وبهذا أخبر الله تعالى فقال: (هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{138}) آل عمران،، (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4}) الرحمن.. وهو المُسمّى بـ "البيان الابتدائي"، وقد وضّح الأصوليون هذا المعنى للبيان بقولهم: وليس من شرط البيان أن يكون بيانا لمُشكَل؛ لأن النصوص المُعْرِبة عن الأمور بداية؛ بيان، وإنْ لم يتقدّم فيها إشكال). **[انظر بحث (تأخير البيان وأثرهُ في الفكر الأُصولي) د. صهيب عباس عودة الكبيسي - مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية المجلد الثالث - العدد الحادي عشر- أيلول 2011م].**

198 - الضابط الأهم في حدّ الوسع، هو هلاك أو فناء ذات المكلّف أو كيانه، فرداً كان أو جماعة أو أمة. => وهو ما يسمّى بـ (الإكراه المُلجئ) ودليله قوله تعالى:{..فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}(البقرة73)(الأنعام145، النحل115){.. إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ..} [النحل 106]. فالحفاظ على حياة المكلّف وذاته ووجوده، مطلب شرعي، ومقصد شرعي من أهم مقاصد الشريعة الخمس، ولا فرق إن كان المكلّف شرعاً: فرداً أو جماعةً أو أمةً.

مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ الأحزاب

[أنظر تفسير ابن كثير]

❖ "أحكام **الوضع**"، وتَرجِع إلى "خطاب الوضْع":

وتأتي في مقابل "أحكام **التكليف**": افعل ولا تفعل.. والتي تَرجع إلى "خطاب التكليف".. وهما معاً قِسْمَا الأحكام الشرعية. و"أحكام الوضع" تنحصر في خمسة أنواع: "الأسباب، والشروط، والموانع، والصحة والبطلان، والعَزائم والرُّخَص".. و لها تأثير مباشر على تنزيل "الحكم التكليفي" على الواقع المعيّن لمعالجته. **[انظر (الموافقات) - الشاطبي]**

ومن هنا، فإن "**أحكام الوضع**" لها تأثير مباشر على فهم "المنهاج"؛ سواء من حيث معالجاته الشرعية "التكليفية" أو من حيث تنزيلها على الواقع المعين (المناط) الحاصل في طوره ومرحلته، فـ "أحكام الوضع" بمثابة ضوابط **للمرحلية،** من باب معرفة الأحكام والمعالجات "التكليفية" المتعلّقة بالمواقف والأحداث التي تحصل في **المرحلة المعينة** (199)..

وأيضاً، لها تأثير على **ضبط** مدى المناورة و"المرونة" - إن جاز التعبير - في التعامل مع الواقع المعين، مثل الإقرار لعمار بن ياسر في إظهار الكفر وإبطان الإيمان. ومثل ما أراده رسول الله في غزوة الأحزاب من مفاوضة غطفان على الانسحاب من المعركة والرجوع عن غزو المدينة في مقابل الحصول على ثلث ثمار المدينة. ومثل قبول رسول الله في صلح الحديبية ببعض الشروط التي في ظاهرها إجحاف في حق المسلمين.. يعني في سياق ضبط "حد الاستطاعة" للفرد أو الجماعة أو الأمة في الظرف المعيَّن..

فهذه المواقف في ظاهرها تنازُل وتراجع عن الحق.. لكن لا بد من بيان ضوابطها؛ أي شروطها وأسبابها وموانعها.. حتى يعلم "حامل الرسالة" الأحوال التي يمكن أن يلجأ فيها لمثل تلك المواقف.. لذلك اقتضى التنويه إلى أهمية "أحكام الوضع"، من حيث كونها ضوابط في مثل هذه السياقات.. فلها نفس أهمية "أحكام التكليف" ؛ فكلاهما "حكم شرعي".. وخاصة عند تنزيل المعالجات و"أحكام التكليف" على الواقع المعيّن، بقصد تحقيق الغاية من الرسالة.

وفي هذا السياق، يمكن أن ننظر إلى تخفيف الله **سبحانه وتعالى** حكم كفارة اليمين في حق عبده الصابر أيوب **عليه السلام** حيث جعَل الله **تبارك وتعالى** له "مخرجاً شرعياً" من قَسَمه، بأن يتحلل منه بضرب زوجه بأهون شيءٍ عليه وعليها، بأن يَعْمد إلى حزمة من مائة عود طرية، فيضربها بها ضربة واحدة. كما قال تعالى:

---

199 - وذلك باعتبار وجود المكلّف؛ فقبل التمكين، المسلمون مكلفون بوصفهم أفراداً أو جماعة، و"الأمة المكلّفة" غير موجودة.. لكن بعد التمكين ووجود السلطان للمسلمين، توجَد "الأمة المكلّفة" فيصبح=> المسلمون مكلفين بوصفهم أمة.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٤٣ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٤٤ ﴾ ص: ٤١ - ٤٤

"فالجملة الاسمية: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا} علة لجملة: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، وجملة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾، وجملة: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ..﴾، (إنّ ، في "إنَّا") مُغنية عن فاء التفريع (السببية).. أي أنعمنا عليه بجَبْر حاله قَـدَراً، وبالتخفيف عنه شرعاً.. لأنه لم يكن إلا صابراً على ما أصابه.

فلا بد من الصبر أولاً، ثم يأتي الفرج والتخفيف.. قدراً وشرعاً.. فهُما كانا مكافأة على الصبر على البلاء احتساباً لله **تعالى**.. فمَنْ صبر ظفر ونال الجزاء الحسن.. وما بعد العسر إلا اليسر.. قدراً وشرعاً.. حيث سلّط الله عليهم البلاءَ فتنةً واختباراً فصبروا، ثم أزال عنهم ما نزل بهم ووَصَلهم بالآلاء والنعماء". **[للتفصيل أنظر (التحرير والتنوير- ابن عاشور)]**

نقول: هذا المَخرَج الشرعي، الأصل أن لا يُقاس عليه إلا في سياقه، ودون تعميم.. فهو بمثابة تصريح أو سماح بالأخذ بالرُّخص الشرعية وبالتخفيف في تنفيذ الأحكام الشرعية في مثل هذه الظروف الصعبة على حَمَلَة الرسالة، وعدم تَحْميلهم فوق طاقتهم، رحمة بهم.. ويؤيد هذا قول رسول الله لـ عمّار بن ياسر **رضي** الله **عنه**: (إن عادوا فَعُدْ) بعد أن أظهر الكفر بسبب شدة تعذيب الكفار له وقتْل أبويه أمامه.. على أساس قول الله **تعالى**:

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ **أُكۡرِهَ** وَقَلۡبُهُۥ **مُطۡمَئِنُّۢ** بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١٠٦ ..﴾ النحل: ١٠٦

[انظر سورة ص في "تبيان سور القرآن"]

ومن الأمثلة على المعالجات الشرعية "المرحلية" أو المحكومة لشروطها ولأسبابها ولموانعها.. وقد يُدخلها البعض في باب "نسخ الأحكام" :

- تخفيف الحد الأدنى من عدد الكفار الذي لا يجوز للمسلم الفرار أمامهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٦٦ ﴾ الأنفال: ٦٥

- قيام الليل كان فرضاً لمدة عام ثم أصبح نافلة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ ..﴾ المزمل: ١ - ٤

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ... ﴿٢٠﴾ ﴾ المزمل: ٢٠

- زيارة القبور وتخزين لحوم الأضاحي وغيرها.. (نَهَيْتُكُمْ عن زِيارَةِ القُبُورِ، فَزُورُوها، ونَهَيْتُكُمْ عن لُحُومِ الأضاحِيِّ فَوْقَ ثَلاثٍ، فأمْسِكُوا ما بَدا لَكُمْ، ونَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ إلَّا في سِقاءٍ، فاشْرَبُوا في الأسْقِيَةِ كُلِّها، ولا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا). [صحيح مسلم 1977] .. (200)

- سن التوريث على أساس الأخوة في الإسلام، ثم رده إلى أصله؛ على أساس القرابة:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ الأنفال: ٧٥

- التدرّج في التكليف بأحكام القتال: من الدفاع فقط، إلى مقاتلة الذين يلوا المسلمين، إلى المبادأة بالقتال..

- وما يمكن أن نسميه "التدرّج" في تحريم الخمر.. وكذلك الربا..

- الخ..

الأصل أن لا تُفهم هذه التشريعات وأمثالها، في سياق النسخ - ما أمكن ذلك - بل الأصل فيها أن تُفهم فهماً "منهاجيّاً".. أي كأحكام ومعالجات متعلّقة بمنهاج السير بالرسالة.. بمعنى، معرفة دورها في تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع المجتمعي المعيّن ؟ وفي أي مرحلة أو طور من المنهاج تأتي؟.. وفي أي الأحوال ممكن اعتمادها كمعالجات شرعية..؟ ..

---

200 - **[من موقع الدرر السنية]:** أي (النَّبيُّ ﷺ حَريصٌ عَلى المُسلمينَ وعَلى ما فيه صَلاحُهم وخَيرُهم، وكان رُبَّما يَأمُرُ بشَيءٍ أو يَنْهى عنه في وَقتٍ مُعيَّنٍ وَفي ظُروفٍ مُعيَّنةٍ لِحِكمةٍ، ثُمَّ يُغيِّرُ الأَمرَ والنَّهيَ بعدَ زَوالِ=> الظُّروفِ لِحِكمةٍ أُخرى. وهذا الحَديثُ مِنَ الأَحاديثِ الَّتي تَجمَعُ النَّاسخَ والمَنسوخَ، **[أقول: هذا رأي أصحاب موقع الدرر]** فقال ﷺ: «نَهيتُكم عَن زِيارةِ القُبورِ، فَزُوروها»، أي: كُنتُ نَهيتُكم قبْلَ ذلك عنْ زِيارةِ القُبورِ؛ لأنَّهم كانوا حَديثي عهدٍ بالجاهليَّةِ، وقَريبي عهْدٍ بِعِبادةِ الأوثانِ، ودُعاءِ الأصنامِ، فنُهُوا عن الزِيارةِ؛ خَشيةَ أنْ يَقولوا، أو يَفعَلوا عندها ما كانوا يَعْتادونه في الجاهليَّةِ... وأمَّا الآنَ فقدْ دارَ رَحى الإسلامِ، وهَدَمَ قَواعدَ زِيارةِ الشِّركِ، فزُوروها؛ فإنَّها تُورِثُ رِقَّةَ القلبِ، وتُذكِّرُ المَوتَ والبِلى..

ثمَّ أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّه نَهى المسلمين أوَّلَ الأمرِ عَن ادِّخارِ لُحومِ الأَضاحيِّ فوقَ ثَلاثةِ أيَّامٍ، وَكان النَّهيُ لأَجلِ الفُقراءِ المُحتاجينَ الَّذين أتَوا إلى المدينةِ لمَّا وَقَع قَحطٌ بالباديَةِ، فدَخَلَ أَهلُها المدينةَ، فنَهى النَّبيُّ ﷺ المهاجِرين والأنصارَ عنِ ادِّخارِ لُحومِ الأَضاحيِّ فوقَ ثَلاثِ ليالٍ؛ ليُعْطوا هَؤلاءِ الفُقراءَ والمُحتاجينَ. ثُمَّ أمَرَهم بالأَمرِ الجَديدِ فَقال: «فَأمْسِكوا ما بَدا لَكُم»، أي: ادَّخِروا لُحومَها كما تَشاؤون مِن الوقتِ، أوِ المُرادُ: أَمسِكوا لُحومَها الباقيَةَ بعْدَ إعطاءِ ما فِيها مِن حقِّ الفُقراءِ.

ثمَّ أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّه نَهى المسلمين أوَّلَ الأمرِ عَنِ الأشرِبَةِ الَّتي تُنْبَذُ في أَوْعِيةٍ مُعَيَّنَةٍ، والنَّبيذُ مِنَ النَّبْذِ، وهو التَّرْكُ، والمقصودُ ما يُنْقَعُ مِنَ الثِّمارِ - كالزَّبيبِ، أوِ التَّمْرِ، أوِ التِّينِ، وغيرِهما منَ الحَلاوَى - في الماءِ، ويُتْرَكُ حتَّى يَصيرَ نَبيذًا، واستَثْنى مِن الأوعيةِ القِربَةَ؛ وهي وِعاءٌ مِن جِلدٍ رَقيقٍ لا يَجعَلُ الماءَ حارًّا، فَلا يَصيرُ مُسكِرًا بعدَ وقتٍ قَريبٍ، بِخلافِ غيرِها مِن الأوعيةِ؛ فإنَّها تَجعَلُ الماءَ حارًّا فيَصيرُ النَّبيذُ مُسكِرًا، فرخَّصَ لَهم شُربَ النَّبيذِ مِن كلِّ ظَرفٍ ما لم يَصِرْ مُسكِرًا، فيَكونُ الحاصلُ أنَّ المنهيَّ عنهُ هوَ المُسكِرُ لا الظُّروفُ والأَواني بِعينِها).

لاحظ مثلاً، **تحريم** أكل لحوم "الحُمُر الأهلية" **أثناء** غزوة خيبر.. ما دوره في تزكية المسلمين، وبيان مستوى تأهيلهم كأمة لحمل أمانة دين الله؟.. من خلال بيان مدى الطاعة والانصياع لأمر الله ورسوله.. رغم الظرف الصعب الذي كان فيه المسلمون.. وأصبحت اللحوم في القدور على النار.. ورغم ذلك كله.. فقد سُكب ما في القدور على الأرض مباشرة بعد صدور حكم التحريم من رسول الله ﷺ .

فالتكليف حسب القواعد العامة السابقة.. إنما كان في إطار عملية شاملة **لإعداد** و **تهيئة** المؤمنين - أفراداً وجماعة وأمّة - على مكث وعلى بصيرة أثناء السير قُـدُما نحو إتمام البناء وتحقيق الغاية؛ إكمال الدّين لله **تعالى**.. سواء في سياق ترقية المؤمنين في أطوار العبودية لله؛ تعليماً وتزكية.. أم في سياق إزالة العقبات والعوائق من الطريق:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ الإسراء

أي، " نـنزّل من القرآن - في كل مرة - ما هو في تقويم دين المؤمنين واستصلاح نفوسهم، كالدواء الشافي للمرضى.. فكل بعض منه مُتّصف بالشّفاء لكن لا في كل حين، **بل عند تنزيله** موافقاً **لأحوالهم** الداعية إلى نزوله.. فيقع ذلك من المؤمنين موقع الدواء الشافي المُصادف للآلام من المرضى المحتاجين إليه بحسب الحال من غير تقديم ولا تأخير".. **[تفسير أبو السعود - بتصرف].**

كما في قوله سبحانه:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ التوبة: ١٢٤

الضابط السنني

إن جميع ردود أفعال الذين كفروا واختياراتهم ومواقفهم.. مما بلغهم من الحق.. وباختلاف أنواعهم ودرجاتهم؛ كما في قوله سبحانه:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾ [الكهف]

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله وَالله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)﴾ [الأنفال]

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) ﴾ [آل عمران]

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بالله وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [البقرة] .

.. إلخ

هذه المواقف وغيرها.. **لم يكن يحكمها** أمر الله **الشرعيّ**؛ فهي مواقف للكفّار، بل كان يحكمها أمر الله **القدريّ** ومشيئته العامة، متمثّلة بما جعل الله **سبحانه وتعالى** في الأفراد والمجتمعات والرسل

والرسالات، من **خواص وطبائع** ومن **سنن ضابطة** لها **..** **فالقدرة على الاختيار** لدى الإنسان - مثل سائر قدراته - مخلوقة ومحدودة، ولها سننها الإلهية الضابطة لها..

وقد بيّن الله **تعالى** لنا في رسالته الخاتمة، كل ما يلزم الأمة العلم به - وخاصة علماءها وقادتها - من خواص وطبائع كل شكل من أشكال الكفر: مشركين، أهل كتاب؛ يهود ونصارى.. منافقين، ملحدين (دهريين).. - الذي يمكن أن تواجهه الأمة أثناء قيامها بالرسالة؛ تطبيقاً ودعوة..

وكذلك بيّن لنا خواص وطبائع أهل الإيمان؛ متّقين مخبتين أبرار صالحين..

ومن سنن الله في الإنسان؛ أن أفعال وتصرفات وأحوال ونمط عيش.. كل فئة من فئات الناس السابقة تقوم على أساس مفاهيمها وقناعاتها ووجهة نظرها في الحياة.. الخاصة بها ، فمن أراد منهم تغيير حاله وواقعه وأفعاله.. فعليه بدايةً، تغيير قناعاته ومفاهيمه (ما يؤمن به)، عندها يمكن أن يتغيّر حاله وتصرفاته وأفعاله.. ويبيّنه قوله سبحانه:

﴿إِنَّ الله لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ..(١١) ﴾ [الرعد]

هذا هو " **الضابط السننيّ** "؛ متمثّلاً في **الخواص** و **السنن** التي **قدّرها** الله لكل مخلوق في السموات والأرض (الأمر القدري).. والتي على أساسها يكون **اختيار** الناس - المؤمنون أو الكافرون - **مواقفهم** مما **بلغهم** من رسالة الله **تعالى**؛ الطاعة والاتباع أو الإباء والاستكبار.

والإنسان أثناء سيره في حياته وحركته لإشباع جوعاته وحاجاته.. تكمن **مسؤوليته** في **اختياره** لأيٍ من تلك الخواص والسنن، الهدى أم الضلال:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسان: 1-5]

وهكذا، و بناءً على نوعي **ضوابط ترتيل** نزول الآيات **وتتابع** الأعمال: الضابط **الشرعيّ** و الضابط **السننيّ**.. أصبح الناس في موقفهم من رسالة الله، فريقين مختلفين: فريق مهتدٍ عابدٍ لله **جلّ وعلا** متّبع لرسوله.. وآخر ضال مستكبر عن عبادة الله **سبحانه وتعالى**، كاره لرسول الله مُعادٍ له ﷺ:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ **هَدَى** الله وَمِنْهُمْ مَنْ **حَقَّتْ** عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل]

فبعد أن دعى كل رسول قومه إلى ترك عبادة الطاغوت، والتزام عبادة الله وحده؛ "فكرة الدعوة".. بلاغاً مبيناً.. (الضابط الشرعي)..

فحسب سنن الله في الإنسان والمجتمعات، وحسب اختيارات الناس (الضابط السنني).. سيكون الناس فريقين اثنين:

- الذين **اختاروا** اتباع **سنن** الله في الهداية (اتباع أسباب الهداية)، اهتدوا وآمنوا، ولمّا اتّبعوا الرسول وانضموا إلى المؤمنين معه.. زادهم الله **جلّ وعلا** بالوحي هدى.

- والذين **اختاروا** اتباع **سنن** الله في الضلال (اتباع أسباب الضلال)، كفروا واتبعوا الطاغوت.. فقد "**حقت** عليهم" الضلالة [201].. وإذا **أصروا** على موقفهم ذاك، ازدادوا كفراً بالوحي:

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة]

وبحسب **الضابطين** السابقين - أيضاً - فإن **السير** بالرسالة **وتوالي** الأحداث **وتتابع** المواقف **وتطوّرها**، بين الجماعة المسلمة ثم الأمّة المسلمة في جهة.. والذين كفروا باختلاف أنواعهم ودركاتهم، في الجهة الأخرى.. من البداية حتى تحقيق الغاية.. كان في مسارين مختلفين ومتوازيين؛ مسار **بناء**، ومسار **هدم**:

- ✓ مسار **بناء** كيان الحق؛ متمثّلاً في **ترقّي** مَن يعبد الله - أفراداً وجماعة وأمّة - في أطوار العبودية لله؛ من الاستضعاف إلى التمكين.. وحتى إكمال الأمة دينها (عبوديتها) لله **عزّوجل**؛ وتحقيق "الغاية من الرسالة".. "الاستخلاف"..
- ✓ مسار **هدم** كيان الجاهلية؛ وذلك، في **كشف** مواقف الذين كفروا - أتباعاً ومتبوعين - من رسالة الله وحَمَلتها، وإبطال مكرهم وكيدهم.. من التكذيب والاستهزاء، إلى إيذاء المؤمنين.. وإتمام "الحُجَّة الرسالية" عليهم.. حتى يفصل الله **عزّوجل** بين الفريقين؛ بنصر المؤمنين وإنزال العذاب على الكافرين.

وعليه، فإن العبرة في فهم "التتابع المفصّل" (التاريخيّ) لنزول الآيات وحصول الأعمال الذي حصل مع رسول الله أثناء سيره بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها.. كيف حصل ولماذا..؟ يكون من خلال الفهم العميق والدقيق **للضوابط** - الشرعيّة والسننيّة - التي حكَمت ذلك التتابع المفصّل.. حيث أن "الضوابط الشرعية" هي محل الاقتداء والاتباع..

أمّا "الضوابط السنية" فمناطها ومدار رحاها؛ "العلم والحكمة" في معالجة الواقع انسجاماً مع سنن الله.. فلا بد من فهمها حتى يُمكِن الانتفاع بها وتوظيفها في سياق تحقيق الغاية من الرسالة.

بيان أكثر في ما يلي من البحث.

---

201 - لاحظ كلمة "حقَّت عليهم" أي وجبت، وذلك في إشارة إلى إصرارهم على اتباع أسباب الضلال، وترك أسباب الهداية.. فلم يتركوا لأنفسهم أي خيار آخر.. انظر مثلاً الآيات التي جاء فيها: (إن الله لا يحب..) (إن الله لا يهدي..) أو الآيات التي ورد فيها بيان صفات وخصائص أهل الإيمان أو أهل الكفر أو أهل النفاق. وقد بيّن القرآن الكريم السنن الربانية في حمل الرسالات مفصّلة باستفاضة وشمول، وعلى طول الطريق=> لإكمال الدّين لله جلّ وعلا.. ومنها السّنن المتعلقة بتغيير الواقع الإنساني بأبعاده المختلفة؛ الاجتماعية والفكرية والسياسية وغيرها.. وتكاد لا تجد سورة من القرآن تخلو من ذكرٍ لبعض تلك السنن أو الإشارة إليها. **انظر مثلاً، مشروع كتاب (أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم) (كشّاف موضوعي) إعداد زينب عطية محمد، وقد صدر منه الجزء الأول في مجلدين كبيرين، وهو متعلق بـ (السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم).**

ثالثاً: "التسوير" هو "الترتيل" المتعَبَّدون به

قلنا: إن الله عزّوجل عندما أراد جَمْع آيات القرآن جملة واحدة ـ وقد نزلت مفرّقة ـ لم يَجْعلها حسب **التتابع التاريخي** (الترتيل المفصّل) **لنزول** الآيات على قلب رسول الله.. فهو أسلوب لتلقّي الآيات كان مناسباً لواقع إنساني معين؛ في زمانه ومكانه وأشخاصه وردود أفعالهم ـ (فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً) ـ بل **كلّف** رسوله ﷺ، بـ **"ترتيل"** (تنسيق وتنظيم) خاص **ونهائي** ـ ليجعل الآيات بحسبه ـ يتناسب مع كون القرآن رسالة الله الخاتمة للبشرية حتى قيام الساعة.. ألا وهو **"التسوير"**.. وذلك بجعل آيات محددة في **سورة** معيّنة، وعددها مئة وأربع عشرة سورة.

و "التسوير" في حقيقته ليس ـ فقط ـ هو "الترتيل النهائي" لآيات القرآن المجيد، كما هو بين أيدينا الآن بآياته وسوره.. بل هو "الترتيل الأصل" لها الذي لا يُعرف القرآن إلا به، في **وجوداته** كلها:

- ✓ **في أُم الكتاب**؛ اللوح المحفوظ:

﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) ﴾ [الزخرف: 1-4]

- ✓ **وفي السماء الدنيا**؛

حيث أنزله الله عزّوجل إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ليلة القدر في رمضان:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر: 1]

- ✓ **وبين أيدي الناس**:

حيث نزّله الله عزّوجل على قلب رسوله الكريم ﷺ على مكث ومرتّلاً حسب تتابع الأحداث والمواقف، على "ترتيل النزول الأول":

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) ﴾ [الإسراء]

وفي أثناء التنزيل المفرّق لآيات القرآن الكريم، أعاد الله تعالى ترتيبها إلى "الترتيل الأصل" (التسوير) الذي هو عليه في أم الكتاب، والذي هو عليه يوم أُنزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، وذلك بأن كان **يكلّف** الرّسول ﷺ بوضع آياته وترتيبها بحسبه، ليصبح القرآن ـ كما هو بين أيدينا ـ جملة واحدة مرتّلة آياته حسب "ترتيلها الأصل". فقد (ورد في كتب السّنة أحاديث ثابتة عديدة تصوّر رسول الله ﷺ يملّي القرآن على كُتّاب الوحي **ويوقّفهم** على ترتيب الآيات، كما أخرج أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: (كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شَخَص ببصره ثم صوّبه ثم قال: {أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضعَ من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى..﴾ [النحل:90]، إلى آخرها }).

[انظر (مباحث في علوم القرآن) ـ صبحي الصالح]

فـ "التسوير"؛ أي جعل آيات محددة في سورة معيّنة، "ترتيل توقيفيّ".. فقد كان بتكليف من الله تعالى لرسوله الكريم، **بوضع** الآيات التي كانت تُنـزَّل في موضعها في سورتها..

وعليه، فيصبح **القرآن كله** - نصاً وتسويراً - **وحي** من عند الله **تعالى**.. فلا يجوز **تغيير كلمة** أو حرف من أيّ آيـة (النَّص)، وكذلك لا يجوز **تغيير ترتيب** أيّ آيـة ونقلها من موضعها الذي وضعها الله **جلّ وعلا** فيه (التسوير)، سواء في السورة نفسها، أو إلى أي سورة أخرى موجودة أو **استحداث** سورة جديدة لم تكن موجودة أصلاً.. إلخ، فالقرآن كله - نصّ آياتـه و ترتيلها في سور - **وحي** من الله **جلّ وعلا**..

ونحن **مُتعبَّدون** به كلّه - نصاً وتسويراً - من حيث **التلاوة** ومن حيث **الدلالة** [202]:

والتعبُّد بالآيات (**النص**) تلاوةً و دلالةً:

فهو معروف؛ وهو أن **تلاوة آيات** القرآن الكريم **عبادة** نتقرّب بها إلى الله **تعالى**.. **وفَهْمَ دلالتها** وتطبيق ما جاء فيها من معانٍ؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً.. **عبادة** أيضاً.

أما تعبُّدنا **بـترتيب** الآيات في السورة (**التسوير**)، **تلاوةً** و **دلالةً**:

فـ تلاوةً:

معروف أيضاً.. وهو **الالتزام** - أثناء تلاوة القرآن الكريم - بترتيب الآيات في السورة الواحدة، فلا يجوز قراءة الآيات أو كلمات الآية الواحدة بترتيب منكوس، مثلاً..
وقد، كانت "السورة" هي الأصل في طريقةِ النبيّ ﷺ وأصحابه في المداومة على قراءة القرآن العظيم وترتيله، وهو ما يُعرف بـ "تحزيب القرآن".. وهو جَعْل القرآن على أحزابٍ - أي أجزاءٍ - كل حزبٍ يشتملُ على عددٍ من السورِ التامّةِ، تُـقرأ وِرْداً متصلاً في مدةٍ معلومةٍ [203].

أما **التعبُّد** بـ "التسوير" **دلالةً**؛ فالمراد به التالي:

أمَا وأن الله **جلّ وعلا** قد جمع آيات محددة في سورة واحدة وبترتيل (ترتيب) مقصود فيها، فهذا أمرٌ **يعطي** تلك الآيات - بوصفها سورة - دلالة شرعية زائدة على دلالتها كآيات مفردة أو مجموعة آيات.. فكما أن **للفظة** المفردة، دلالتها.. وأن **للجملة** أو للتركيب المكوَّن من عدة ألفاظ، دلالته.. وهي زائدة على دلالة اللفظة.. وكذلك فإن **السورة** كوحدة واحدة وسياق واحد، لها دلالتها أيضاً، وفيها زيادة على دلالة الآية المفردة (الجملة الواحدة) أو مجموعة الآيات.

ومن جهة أخرى، فإن البحث والنظر في السورة كوحدة واحدة.. إنما هو بحث في **واقع** الدليل الشرعيّ وسياقه وطبيعته التي جعله الله **تعالى** عليها **لبيان مراده**.. فهو بحث شرعيّ، ويتحقق بالتـفكّر العميق في **السورة** و**آياتها** بحسب القواعد والأصول اللغوية والشرعية المعتبرة. فلا بد

202 - الكلام هنا عن ترتيل الآيات في السورة الواحدة، أما ترتيب السور في المصحف.. سنتطرّق إليه لاحقاً.

203 - (كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرهم، { عن أوس بن حذيفة، أن رسول الله ﷺ قال: { إنّه طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمّه}. قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزّبون القرآن ؟ فقالوا: ثلاثٌ، وخمسٌ، وسبعٌ، وتسعٌ، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزبُ المفصَّل وحده}. وهذا الحديث - ونظائره - جعلهُ أهلُ العلم أصلاً في=> "تحزيب القرآن" و"تجزئة المصاحف". وبوّبَ الإمام أبو داود في سننه: "بابُ تحزيب القرآن"). **[أنظر (تحزيب القرآن) مقالة لـ ماجد البلوشي - ملتقى أهل التفسير]**. هذا، وطريقة تجزيء وتحزيب المصاحف المعروفة الآن تختلف عن تلك الواردة في الرواية السابقة.

من تدبّـر السورة من القرآن - بوصفها سورة - لاستخراج ما تدل عليه.. ويؤيّد ذلك كثير من الآيات، منها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ..﴾ [الإسراء: 9-10]

فالهُدى متحقق في القرآن **كله**؛ نصَّ الآيات، وكونها مرتّلة في سور، فهذا هو القرآن.. آيات مرتّلة في سور.. فكما أن الآيات - الواحدة أو المجموعة - فيها هداية ودلالة للتي هي أقوم.. فإن كون مجموعة آيات تشكّل سورة واحدة، فيها هداية ودلالة للتي هي أقوم أيضاً. لأن الدلالة على الهدى متحققة في القرآن **كله**.

يقول الله **تعالى**: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣)﴾ [الزخرف: 43]

أي: فتمسك بقوة يا محمّد **بما يأمرك به هذا القرآن** الذي **أوحاه** إليك ربك **[انظر تفسير الطبري]**..

والقرآن الذي أُوحي إلى الرسول هو **نصّ** الآيات **وترتيلها** في سور، فكلّه وحي من الله **تعالى**. وفَهْم ما **يأمر** به القرآن، يقتضي فهم القرآن؛ **ألفاظه وآياته وسوره**.

ففَهم السورة - بوصفها سورة - من فهم القرآن وتدبّره، لأنها من القرآن. فكما جعَل الله الآية المُعيّنة مركَّبة من ألفاظ محدّدة ليُعلمنا **بمراده** مِنّا، فكذلك جعَل السورة المُعيّنة مركبة من آيات محدّدة.. والأمر بالاستمساك بما يأمر به القرآن يشمل بما يدل عليه القرآن كله؛ الألفاظ والآيات والسورة، فكلّها وحي من الله **جلّ وعلا**..

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) ﴾ [الزخرف]

فالسّورة هي الوحدة القرآنية الأساس.. والبحث والنظر في **السّورة** كوحدة واحدة.. إنما هو بحث في **واقع** الدليل الشرعيّ وسياقه وطبيعته التي جعله الله **تعالى** عليها لبيان مراده..

فالنظر في **السّورة** كوحدة واحدة.. بحث شرعيّ، ويتحقق بالتفكّر العميق في **السّورة** و**سياقها** و**آياتها** بحسب القواعد والأصول اللغوية والشرعيّة المعتبرة.

النتيجة..

إن **العبرة** - عند فهم "منهاج النبوّة"، ومعرفة ما هو ملزم لنا شرعاً - ليست بـ "**الترتيل** المفصّل" (التاريخيّ) **لتلقي** الآيات **وتتابع** الأعمال والأحداث الذي حصل مع رسول الله، إنما **العبرة** بأمرين، هما:

1- **الضوابط** السُننيّة والشرعيّة التي كان ذلك **الترتيل** على **أساسها**.. فهِي التي حَكَمَت أعمال سير رسول الله ﷺ بالرسالة في واقعه **آنذاك**.. وهي التي **سيكون** على أساسها "**الترتيل المفصّل**" لتلقّي آيات القرآن، بقصد تحقيق الغاية منه، في أي واقع إنساني، في أي زمان ومكان.. والتي **ستحكم** أعمال السير بالرسالة في الواقع الإنساني المعيّن، فعلى أساسها، وبحسب مواقف الناس (المخاطَبين) واختياراتهم.. سيكون "**التتابع المفصّل**" للأحداث وتنزيل الآيات عليها لمعالجتها.. هذا مع اعتبار "أحكام الوضع".. ومن أبرز مظاهر ذلك: المرحلية في السير بالدعوة إلى الله وحمل رسالته: مرحلة "ما قبل التمكين" في الأرض للمؤمنين، ومرحلة "التمكين" وما بعده، بوصفهم أمة.

فـ "الضوابط السننيّة" - وأساسها "السُّنن الإلهية" - دائمة الجريان لا تتغيّر ولا تتبدّل.. وعلى أساسها كان هناك "تتابع سنني عام" للأحداث والمواقف حصل مع أغلب رسل الله في دعوة أقوامهم إلى عبادة الله وحده (إخلاص الدين لله) [204]..

فلا بد من العلم **بضوابط الترتيل** - بنوعيها الشرعيّة والسننيّة - واستخراجها من أدلتها الشرعيّة: القرآن وبيانه من السنة، ومنها السيرة النبوية.. فهي التي تضبط الأولويات وتَتابُع الأحداث.

فـ "**المنهاج**" في واقعه، هو:

طريقة تلقّي آيات الرسالة **مرتّلة** (مفرّقة) و**تنزيلها كمعالجات** للوقائع والأحداث (المناط) حال حدوثها؛ في مرحلتها وطورها، أولاً بأول.. بحسب الضوابط الشرعيّة والسننيّة.. بقصد جعل كلمة الله هي العليا في المجتمع (إكمال الدّين لله).

2- والعبرة ايضاً - عند فهم "منهاج النبوّة"، والاتباع للرسول - بـ "**التسوير**"، لما بيّناه في ما سبق من أنه "**الترتيل" الشرعيّ** الوحيد لآيات القرآن الذي **كَلّف** الله **تعالى** رسولَه به. فهو **مُتعبَّدٌ** به كلّه، **تلاوةً** و**دلالةً**، ففيه الهداية إلى كل خير:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩)﴾ [الإسراء]

فالهدى مُتحقّق في القرآن **كلّه**؛ **نصّ** الآيات، وكونها **مرتلة** في سور.. فالسّورة هي الوحدة القرآنية الأساس.. والبحث والنظر في **السّورة** كوحدة واحدة.. إنما هو بحث في **واقع** الدليل الشرعيّ وسياقه وطبيعته التي جعله الله **تعالى** عليها لبيان مراده.. فهو بحث شرعيّ، ويتحقق بالتفكّر العميق في **السّورة** و**آياتها** بحسب القواعد والأصول اللغوية والشرعيّة المعتبرة.

وعليه، فلا بد من التوجّه إلى القرآن لدراسة آياته وسُوَره، "**دراسةً مِنْهاجيّة**" لاستكشاف واستنباط دلالة **الآيات** و**السُّوَرة** على "المنهاج"، أي على طريقة السير بالرسالة - بمراحلها وأطوارها، بضوابطها السننيّة والشرعيّة وخطابها وأعمالها - من البداية حتى تحقيق الغاية.. ولا بد أن تكون **السّورة** في المركز من هذه "**الدراسة المنهاجيّة**" وأصلاً فيها.

هذا، والنظر في **السّورة** من تلك الزاوية المحددة، هو ما اصطلحنا عليه بـ "**الفهم المنهاجيّ**" للسّورة، أي؛ رؤية السّورة كـ "**وحدة منهاجية**" واحدة، وأنها تشكّل جزءاً من "المنهاج" الكامل، وخطوة في السير بالرسالة لتحقيق الغاية منها.. وفي **مجموع السُّوَر** ثـمّ "المنهاج" كاملاً..

ومن هنا، نشاهد جانباً آخراً من حكمة **الله عزّ وجل** في حِفْظ آيات الرسالة الخاتمة بحسب "التسوير".. فكما هو حِفْظٌ للدّين كأحكام ومعالجات، فهو كذلك حفظٌ لطريقة (منهاج) تحقيقه في الواقع؛ وذلك من خلال حفظ **الأدلة** المبيّنة لها - وأبرزها التسوير - لتبقى القابليّة والإمكانيّة **لتحقيق**

---

204 - كما في قوله تعالى: (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ.. {43}) فصلت. وكما ورد في => الرواية الصحيحة عن بداية نزول الوحي: فبعد أن أخبرَ رسولُ الله ﷺ ورقة ابن نوفل خَبر ما رآهُ ((قالَ لَه ورقةُ: هذا النَّاموسُ الَّذي أُنْزِلَ علَى موسَى ﷺ، يا ليتَني فيها جذعًا، يا ليتَني أكونُ حيًّا حينَ يُخرجُكَ قومُكَ. قالَ رسولُ الله ﷺ: (أوَ مُخرجيَّ هم)؟!. قالَ ورقةُ: نعَم لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ بهِ إلَّا عوديَ)). رواه الشيخان.

الغاية من الرسالة الخاتمة قائمة متى أُريد بها ذلك، حتى قيام الساعة. فما أنزل الله عزّوجل القرآن إلا لتحقيق الغاية منه؛ "إكمال الدّين" لله، وما جعل الله تعالى القرآن الحكيم هكذا في كامل خصائصه وتكوينه وتركيبه - نصّاً و تسويراً - إلا لتحقيق الغاية منه. فكل ما في القرآن سواء من حيث المحتوى والموضوع أم من حيث الأسلوب؛ من حيث الأفكار والأحكام والحقائق، أم من حيث الصياغة ووسائل البيان والتعبير.. فكل ذلك، إنما كان لتحقيق الغاية من القرآن الكريم؛ هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.. و"التسوير" من أهم خصائص القرآن، وتدبّره جزء من تدبّر القرآن المأمورين به:
﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ..(٨٢)﴾ [النساء]

هذا، ونكتفي هنا بتقرير هذا **الأصل العام**: من أن الأصل في دلالة السورة - بوصفها سورة - هو بيان "المنهاج" لتحقيق الغاية من الرسالة..

أما **كيفية** الاستدلال بالسورة على "المنهاج" - أي "الفهم المنهاجيّ" للسورة - سنبيّن أصوله وتفاصيله، في كتاب "تبيان سور القرآن"، بإذن الله.

استطراد : في بيان طبيعة العلاقة بين "ترتيل النزول" و "التسوير"

لتوضيح أكثر لحقيقة كلٍ منهما؛ نود أن نلقي مزيداً من الضوء على طبيعة العلاقة بين "**ترتيل التلقي الأول**"، أي؛ الترتيل **التاريخيّ** المفصّل لنزول آيات القرآن الكريم، كما حصل مع رسول الله.. و "**التسوير**"؛ باعتباره "**الترتيل الأصل**" الدائم والثابت للآيات:

1- إن **الترتيل** (الترتيب) **المفصّل** لنزول آيات القرآن الكريم على قلب رسول الله، ليس من الأدلة على **منهاج السير** بالرسالة الخاتمة الثابت **المتعبّد به**، بل "التسوير" من الأدلة عليه.. ولا هو دليل على منهاج آخر إلا أنه قد نُسخ.. فهو لا هذا ولا ذاك؛ ذلك أن النّسخ لا يكون إلا في الأحكام الشرعيّة.. و "**ترتيل** النزول الأول" للآيات ليس حكماً شرعياً تعبّدنا به الله **سبحانه وتعالى**، حتى يجوز عليه النسخ.. إنما هو، في حقيقته - كما أسلفنا - التطبيق العملي **للعبادة** (المنهاج) على واقع إنساني معيَّن، وهو المجتمع (القرية) زمن الرسول الخاتم ﷺ - قريش، عرب الجزيرة، مكة، المدينة، أهل الكتاب.. روم و فُرس - مع ما **لزم** من أساليب ووسائل (الحكمة)، الأمر الذي شكّل وحدّد **خطوات السير العملي** لرسول الله في ذلك الواقع **بالتفصيل**.. حتى تحقّقت **الغاية من الرسالة** فيه.

فـ "**ترتيل النزول** الأول"، في حقيقته، كان هو "**المنهاج**" مطبقاً على واقع معين.. فكان هو "ترتيل تلقي" آيات القرآن **المناسب**؛ شرعاً وقدراً وحسب المنهاج، لمعالجة الواقع الإنساني **حينئذٍ** بكل تفاصيله - بمكانه وزمانه وبأشخاصه وبرُدود أفعالهم وبتتابع أحداثه ووقائعه.. - وعلى أتمّ وجه وأحسن صورة حتى أدق التفاصيل.. إلى أن أصبحت كلمة الله هي العليا فيه.. وقد تكفّل الله **سبحانه وتعالى** بذلك "الترتيل" ولم يكله لأحد من الخلق، فهو من شأن الله **تعالى** وحده.. فلم يتعهّد بحفظه، ولم يتعبّدنا به.

2- وفي المقابل، فقد **كلّف** الله **تعالى** رسوله ﷺ، **بإعادة ترتيب** آيات الرسالة الخاتمة **لجَعْلها جملة واحدة**، لكن ليس حسب **تاريخ** النزول الأول - الخاص بزمان معيّن - بل حسب **ترتيلها**

(ترتيبها) الأصل الواحد الثابت - بوصفها الرسالة الخاتمة - ألا وهو "التسوير"، والذي فيه دلالة على منهاجها **الثابت الذي تعبّدنا** الله به، والصالح للسير بحسبه في كل زمان ومكان، من لدن رسول الله محمّد ﷺ حتى يرث الله **جلّ وعلا** الأرض والسماوات.

ومن هنا، فإنّ حِفْظ آيات الرسالة الخاتمة بحسب "التسوير" - كما هي بين أيدينا الآن - إنما هو حِفْظ للرسالة بكامل خصائصها؛ موضوعاً وأسلوباً، وحِفْظ لمنهاجها أيضاً، لتبقى فيها القابلية لتحقيق الغاية منها متى أُريد بها ذلك، حتى قيام الساعة.

3- أن يكون " ترتيل التلقي (النزول) الأول" لآيات الرسالة هو **التطبيق العمليّ** لتلك **الكيفية الشرعية** (المنهاج) على واقع إنساني معين.. فهذا يضمن أمرين معاً:

الأول : بيان "الكيفية الشرعية" (المنهاج) **تصوّراً** و **فهماً**، أي من حيث هي **كيفية ثابتة** - خطاباً و أعمالاً - بغضّ النظر عن الزمان والمكان.. و"التسوير" من الأدلة عليها.

الثاني : بيان **طريقة تنزيل** تلك "الكيفية الشرعية" الثابتة على الواقع الإنساني، من خلال **تطبيقها** على واقع إنسانيّ معيّن.

فـ "ترتيل النزول الأول" لآيات الرسالة كان فيه **البيان** الواضح والتطبيق العمَليّ المفصّل (**التِبْيان**) لكيفية تلقي الرسالة والتعامل معها - وهي جملة واحدة حسب ترتيلها الأصل - كطريقة عمليّة يُسار عليها من أجل تحقيق الغاية منها، وبحسب الضوابط الشرعية والسننيّة؛ أي كمنهاج.. ليكون ذلك **البيان العمليّ** هدى ومنارة للمسلمين السائرين على "منهاج النبوّة" في أي زمان ومكان حتى قيام الساعة.. والرسالة بين أيديهم - كما هي الآن - **جملة واحدة** حسب ترتيلها الأصل (التسوير).

فـ "التنزيل الأول" لآيات الرسالة، هو تعليم لنا **لكيفية** تلقي الآيات **مرتّلة** وتنزيلها **كمعالجات** حسب "المنهاج" بضوابطه الشرعية والسننية - إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة، خطاباً وأفعالاً - على الواقع الإنساني المعيّن، بقصد تحقيق الغاية من الرسالة فيه..

وبتعبير آخر حسب اصطلاح علم أصول الفقه، فهو: تعليمٌ لكيفية تنزيل "المعالجات الشرعية" على "المناط المعيّن" بعد "تحقيقه".

لذلك كانت القاعدة الأصولية المعتمدة **في فهم كلام الله تعالى**، هي:

{العبرة بعموم اللفظ (النَّص) وليس بخصوص السبب}.

أي أن العبرة بكيفية معالجة الإنسان كإنسان، وليس بمعالجة الحالة الإنسانية المعيّنة..

والعبرة **بالعبادة**، وليس بما يلزم العبادة من **أساليب** ووسائل للقيام بها في الواقع المعيّن..

أي أن العبرة بـ "**المنهاج**" والذي من أدلته "التسوير"؛ الترتيل الأصل، وليست بـ "ترتيل النزول الأول" لآيات القران المجيد..

وأن العبرة بـ "**السنن الربانية**" التي لا تتغيّر ولا تتبدَّل، وليست بـ "**الترتيب التفصيلي**" لخطوات سير رسول الله ﷺ - كما هي في كتب السيرة والتاريخ - والتي كانت حسب "السنن"، ومناسبة لواقعه آنذاك وردود أفعال المجتمع وملئه..

بمعنى، أن العبرة بـ "الضوابط الشرعية" و "الضوابط السننية".. التي كان بحسبها تفاصيل أعمال سير رسول الله ﷺ بالرسالة في واقعه آنذاك..

4- ومن هنا، فإن ما ذُكر في القران الكريم من أسماء بعض الأشخاص أو الأماكن أو الأحداث.. المتعلقة بالواقع الذي نزل فيه القرآن أو بالزمان الذي قبله.. لم يُذكر للمعرفة التاريخية المجرّدة، بل هو **لتوثيقٍ سُننيّ مِنْهاجيّ**، فما ورد ذكره من ذلك الواقع الإنساني من أشخاص وأماكن وأحداث.. من خلال القصص القرآني وغيره.. يُعتبر نماذج عمليّة و **أمثلة تطبيقية** لسنن الله الدائمة الجريان في الإنسان، أفراداً وأمماً ومجتمعات.. وبياناً **لكيفية** معالجتها بدين الله **تعالى** لتحقيق العبودية الكاملة لله **تعالى** (إخلاص الدين لله)، وبغض النظر عن الزمان والمكان والأشخاص [205]..

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ [يوسف]

يعني: في قصص الأنبياء والرسل مع قومهم عظةً وتذكرةً لأصحاب العقول السليمة..

فالعبرة: الاتعاظ والتذكر بما مضى.. والمعتبر: المستدل بالشيء على الشيء..

فهي الحالة التي ينتقل الذهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها وعاقبة أمثالها.

واللفظ المقابل لـ "العبرة.. هو "الغفلة" فهي تعني "فقد الشعور بما حقّه أن يُشْعَر به"، وهذا يعنى أن صاحبها قد يتصف بالغباء والبلادة، بعكس المعتَبِر.. **[انظر التعريفات - الجرجاني، لسان العرب]**

هذا، وما كانت العبرة والاعتبار ليحصل لولا ثبات الخواص الإنسانية فرداً ومجتمعاً.. وثبات السنن الربانية الضابطة لها.. وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم - بوصفه رسالة الله **تبارك وتعالى** الخاتمة للإنسانية كافة - وخاصة في قصص الأنبياء.. لأخذ العبرة والعظة وتحذير الأقوام الذين تبلغهم دعوة الله، بأن لا يقعوا بالسنن التي وقع فيها الذين من قبلهم حتى لا يواجهوا نفس المصير السيء الذي واجهوه..

وكما في قول رسول الله ﷺ محذراً المسلمين :

{.. فَوَاللَّه ما الفَقْرَ أخْشَى علَيْكُم، ولَكِنِّي أخْشَى أنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كما بُسِطَتْ علَى مَن كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا، وتُهْلِكَكُمْ كما أهْلَكَتْهُمْ}. **[صحيح البخاري: 4015]**

الخلاصة..

---

205 - مثال: سورة قريش، هي جزء من رسالة الله الخاتمة للناس حتى قيام الساعة.. لكنّ قريش ذهبت، وذهبت معها رحلتا الشتاء والصيف (تاريخي).. فأين "المنهاجيّ" الثابت؟. الجواب: السورة مثال تطبيقي لبيان حيثيات دعوة المجتمع المعيَّن (القرية) إلى عبادة الله تعالى وحده، وإقامة "الحُجَّة الرسالية" عليهم بأن يحقق "المجتمع" العبودية الكاملة لله تعالى وحده (إخلاص الدين لله) بوصفه مجتمعاً.. أي، تحقيق "العبوديّة المجتمعيّة" أو "عبوديّة المجتمع"، وذلك بتذكيرهم بأكبر نعم الله عليهم. كما في دعوة رسلُ الله أقوامهم لعبادة الله وشكره مذكّرين لهم بنعم الله العظمى عليهم. وقريش بسبب سدانتها للحرم المكيّ، => كانت آمنة على نفسها وعلى تجارتها.. فذكّرهم الله تعالى بنعمه عليهم، ورتّب عليه وجوب عبادته وحده: (.. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4}) قريش. وقد أورد ابن كثير في تفسيره، من قول النبي ﷺ في خطابه لقريش: ({لإِيلَافِ قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف}. ويحكم يا معشر قريش، اعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف"). **[رواه ابن أبي حاتم. والإمام أحمد في المسند (460/6)]. للتفصيل انظر سورة قريش في كتاب (تبيان سور القرآن) مرجع سابق.**

إن "**ترتيل** النزول الأول"، كان هو الترتيل المُناسب مُناسبة تامة مُطلقة، لأولئك الأشخاص ولتلك الأحوال والظروف والوقائع والأحداث.. التي حصلت زمن رسول الله.. بجميع ملابساتها النفسية والفكرية والسياسية.. والمجتمعية عموماً.. في الواقع الإنساني حينئذٍ، لمعالجتها المعالجة المثلى بالقرآن - حسب "**المنهاج**" - بقصد تحقيق الغاية منه في ذلك الواقع.. فذلك كلّه كان من تقدير الله، عالِم الغيب والشهادة خالق الوجود ومُقدِّر سُننه، خالق الإنسان، والعليم بما تُوسوس به نفسه وهو اللطيف الخبير..

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾ النمل: ٦

"فسُبحان الله الذي **أَنْزل** القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، **ونزّله** على حسب المصالح منجماً"
[الراغب الأصفهاني؛ مقدمة التفسير]

وعليه..

أولاً: ليس هنالك "**ترتيب مفصّل**" لأعمال السير بالرسالة؛ لا **شرعيّ** مُلزِم، ولا **سننيّ** واجب الحدوث.. فتتابع الوقائع وتسلسل الأحداث والمواقف الذي حصل مع رسول الله أثناء سيره بالرسالة، كما ورد في روايات السيرة النبويّة، ليس شرطاً أن يحصل بنفس الترتيب المفصّل مع حَمَلَة الرسالة الآن.. وما حصل مع رسل الله السابقين **بترتيبه المفصّل**، يختلف من نبي لآخر.. وهو لم يحصل نفسه مع الرسول الخاتم.. فكل واقع إنساني - في زمانه ومكانه - سيكون له **ترتيب مفصّل** للأحداث مناسب له، عند السير فيه بالرسالة حسب "المنهاج"، لتحقيق الغاية منها.. ويعتمد على ردود أفعال المجتمع وملئه من الحق.. إنما قد يكون هناك تشابه **بالترتيب** العام للأحداث والمواقف.. وذلك كنتيجة لثبات السنن الإلهية، ولتشابه مواقف الأقوام والمجتمعات من رسالة الله ورسله؛ كما ذكرنا في الآيات من سورة إبراهيم (9-17)..

ثانياً: حصلت قمّة الكفاءة في المُعالجة، وأقصى القوّة في التأثير، حين نُـزِّل القرآن **مرتّلاً** أول مرّة من لدن الحكيم العليم، على قلب رسوله الكريم ﷺ.. حيث كان ذلك الترتيل للآيات هو المُناسب مُناسبة تامة مُطلقة لذلك الواقع الإنساني بأشخاصه وأحواله وظروفه والوقائع والأحداث التي حصلت..

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣ ﴾ الفرقان: ٣٣

وإذا أُضيف إلى ذلك، الطّاقةُ القُصوى في البيان والتنفيذ؛ ببيان وتنفيذ رسول الله محمّد ﷺ لِمَا نُـزّل من القرآن.. وبوجود القُدوة البشريّة الفـذّة، والأسوة الحسنة الكاملة في رسول الله محمّد ﷺ.. نستطيع أنْ نُدرك - إلى حدّ كبير - كيف وصل ذلك الجيل الأول من الأمة؛ جيل البناء؛ جيل القدوة.. إلى تلك **القمّة السامقة** في مراتب العُبوديّة **لله عزّ وجل**.

والآن، نحن بدورنا، كلّما اقتربنا من تلك الظروف وتلك الأجواء التي نُـزّل فيها القرآن الكريم أول مرّة: من **العلم** به **والعمل** به **والسير** به - حسب "منهاج النبوّة"؛ بخطابه وأعماله، وبضوابطه الشرعية والسننية - من أجل تحقيق الغاية منه وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.. وشاهَدْنا القرآن عن كَثَب وهو يُعالج الواقع الإنساني.. نقول، كلما اقتربنا من تلك الأجواء، قوي شعورنا وإدراكنا بأنّ القرآن حيّ غضٌّ.. وكأنّه **يتـنزّل الآن من جديد**..

فيكون بذلك، قد عاد القرآن الكريم - مرة أخرى - لتأدية **دَوْره الطبيعيّ**، شرعاً وقدراً، في **قيادة** المؤمنين من بداية كونهم "فئة قليلة مستضعفة" في "المجتمع الجاهلي"، وحتى أصبحوا "أمّة" تُحقِّق الغاية من القرآن في واقعها..

أي أنّه كلّما كان إدراكنا **للمنهاج** وإحساسنا به أقوى أثناء السَيْر لإكمال الدّين لله **تعالى** على بصيرة، كلّما كانت قدرتنا على تنزيل المعالجات وحسب "المنهاج" على الواقع أدقّ وأكفأ، فنحصل على قوّة أعلى في المُعالجة والتأثير..

وكلّما سِرْنا في ظلال "منهاج النبوّة"، كلّما تنسّمنا عبق النبوّة وعبيرها.. واسترَوحنا أجواء نزول الوحي.. وعشنا أجواءً روحية راقية سامية، باتّباعنا خطى حبيبنا رسول الله ﷺ.. وكأننا نسير خلفه مباشرة..

وحين نتلو الآيات.. نشعر.. وكأننا نسمعها من فم رسول الله الزكي الطاهر، وقد نُزّلت عليه الآن غضة طرية.. حديثة عهدٍ بربّها..

وبعَيْشنا تلك الأجواء.. وباسترواحنا تلك النسائم.. عندها، وعندها فقط.. قد نستشعر، من بعيد، مقدار حب وشوق الصحابة الكرام لرسول الله، وقد شاهدوه بأم أعينهم، وصحبوه بأنفسهم وأرواحهم..

وعندها.. قد نتصوّر، بعض آلام الفراق الذي ذاقوه عند وفاة رسول الله، وانقطاع نزول وحي الله من السماء. والحمد لله رب العالمين

إلى هنا، نكتفي بما أوردناه حول بيان **كيف نتأسّى** برسول الله ﷺ في "**ترتيب**" نزول الآيات، **وتتابع** الأعمال، من خلال إبراز **ضوابط** التأسي؛ الشرعية والسننية.. والذي هو "الجانب الأول" من منهاج سيره ﷺ بالرسالة..

والآن ننتقل إلى بيان "الجانب الثاني" من منهاج السير بالرسالة.. والمتعلِّق ببيان كيفية التأسي برسول الله ﷺ بالأعمال نفسها..

المبحث الثاني: التأسي برسول الله ﷺ في "المعالجات الشرعية"

وتتضّح معالم كيفية التأسي برسول الله في "المعالجات الشرعية" التي قام بها أثناء سيره بالرسالة - خطاباً وأفعالاً - وبكيفية تنفيذها، من خلال تناول النقاط التالية:

أولاً: المعالجات أثناء السير بالرسالة هي الدّين نفسه؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة

فـ "المعالجات الشرعية" هي مجموع ما دلّت عليه **آيات الكتاب** من إيمان وعمل صالح ودعوة، فكراً وعملاً، **مع ما قام به** رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام من قول وفعل وإقرار أثناء "البيان العملي".. أي أثناء **تطبيقه** إياها في واقعه، أو على واقعه، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.. ليكوِّن من المؤمنين أمة مسلمة لله؛ تعبد الله وتستمر بحمل رسالة الله:

﴿هُوَ الَّذِي **يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ** مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) ﴾ [الحديد: 9]

﴿الر كِتَابٌ **أَنْزَلْنَاهُ** إِلَيْكَ **لِتُخْرِجَ** النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) ﴾ [إبراهيم: 1]

وهي التي **كُلِّف** رسول الله ﷺ **باتباعها** والاستقامة عليها، فقد كانت الآيات تُنزّل عليه فيقوم بالبلاغ **تلاوة، والبيان** لما جاء فيها من **معالجات** بتنفيذها في واقعه - أولاً بأول - **والاستقامة** عليها.. (البيان العملي).. **والصبر** على ذلك كله.. حتى تحقّقت الغاية من الرسالة:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)﴾ [هود]

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

وهي "**الحق**" الذي أوتيه رسول الله و "**التفسير الأحسن**" في كشف زيف الطاغوت وباطله، وتثبيت الحق وأهله:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ [الفرقان: 33]

وفي المُجمَل، فإن **المعالجات الشرعية** - خطاباً وأعمالاً - أثناء السير بالرسالة هي **الدّين نفسه**، بمواضيعه الكبرى: إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة ًوبياناً للمصير [206]، وقد **نفّذها رسول** الله ﷺ على **مكث، كمعالجات** للمواقف والأحداث (المناط) في الواقع الإنساني آنذاك.. وحسب تتابع حصولها، والذي كان متناسباً ومتناسقاً مع "**ترتيل** النزول الأول" للآيات.. من نزول الآيات الأولى من سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)..﴾ حتى نزول آخر الآيات وإكمال الدّين لله **عزّ وجل**.. كما في الآية السابقة (سورة الفرقان).. وفي الرواية عن ابن عباس **رضي** الله **عنهما**:

(فكان المشركون **إذا أحدثوا** شيئاً **أحدث** الله لهم جواباً).**[أخرجه ابن أبي حاتم]**..

كل ذلك كان في سياق "عملية بناء وهدم" مستمرة، وهي: بناء كيان المسلمين بمواصفات معينة - بالتعليم والتزكية - حتى يصبحوا أمة قادرة على إكمال عبوديتها (الدين) لله وخلافة رسول الله..

---

206 - أي، لا إله إلا الله ومقتضاها من العبوديّة لله والإسلام له وحده، جلّ وعلا، كما أجملتها سورة العصر. وما يتعلق بـ "الخطاب"، فيدخل في عموم هذا الكلام.. وسنخصه بشيء من التفصيل في المبحث التالي.

وهدم وإزالة الكيان الجاهلي، وما كانوا يضعونه من عراقيل وعقبات فكريّة ونفسية وماديّة (المكر و الكيد) للحيلولة دون إتمام عملية بناء الأمّـة بالشكل المطلوب، وتحقيق الغاية من الرسالة:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف ٨].

ومن ثَمّ، فليس هنالك **أعمالاً شرعية مخصوصة**، مرتبة ترتيباً معيّناً لسير الرسول بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها، كما هو الحال في الصلاة والحج مثلاً..

فالأعمال والمعالجات هي **الدّين** نفسه، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً.. خطاباً وأعمالاً.. و "المنهاج" هو الضوابط الشرعية التي بحسبها يكون تنزيل "أحكام الدين" **مرتّلة** لمعالجة الأحداث والمواقف حال حدوثها.. والتي هي محكومة للسنن الربانية (الضوابط السننية).. وبحسب اختيارات الناس والملأ في المجتمع..

فيكون السير العملي بالرسالة في المجتمع؛ بحسب تتابع حصول المواقف والأعمال.. والتي هي محكومة لتلك الضوابط الشرعيّة والسُننيّة.. واختيارات الناس: سواء من المدعوين أو من المؤمنين؛ حَمَلَة دعوة الله ورسالته، أنفسهم.. **[تفصيل أكثر في "الباب الرابع"]**

والغاية هي: أن يُخلِص (يُكمِل) الناسُ في المجتمع دينهم لله **جلّ وعلا**.. والطريقة العمليّة، والوحيدة لتحقيق ذلك، هي: أن يصبحوا "أمة مسلمة" قادرة ومؤهلة لأن تَخْلُف الرسول الخاتم في "إخلاص الدين لله"؛ فتعبده وحده **عزّ وجل** وتَحْمل رسالته للناس كافة هدى ورحمة.

ومن هنا، فـ "**المنهاج**" إنما هو بحثٌ في **الأولويات؛** في كيفية تلقي الرسالة (الدّين أو العبادة) أولاً بأول (على مكث، مرتّلة) - بحسب الضوابط الشرعيّة والسننيّة واختيارات الناس - للسير والحركة بها في المجتمع، **بقصد** تحقيق "الغاية من الرسالة": إيجاد "أمة مسلمة" تُخلص (تُكمل) دينها لله في جميع مجالات حياتها، وتحمل رسالة الله للناس كافة، والمحافظة عليها كذلك..

وبتعبير آخر يمكننا القول: (إن "**المنهاج**" هو الوجه العملي للدين، مربوطاً بالزمان.. فهو الدّين المنظوم في الزمان. فما في الوحيَيْن - القرآن والسنة - يمثل الإسلام كموضوع ومحتوى، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة وبياناً للمصير.. وذلك عرضٌ للإسلام في الصورة التي انتهى إليها؛ كموضوع أو محتوى..

أما "المنهاج" فهو يَعرِض ذلك نفسه، ولكن بطريقة تنمو بمراحل وأطوار.. فكل ما قاله وفعله رسول الله ﷺ، بين لحظة بدء بعثـه رحمة للعالمين بنزول قوله **تعالى:**

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾ العلق،،

ثم تكليفه بحمل الرسالة بلاغاً وبياناً ، بقوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)﴾ المدثر،،

إلى أن تحقّقت الغاية من الرسالة ونزل قوله **تعالى:**

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المائدة،،

في تلك الفترة.. في ثلاثة وعشرين عاماً.. قال وطبّق رسول الله ﷺ كل ما نجده في الدّين، لكن عَبْر زمان وعَبْر ظروف بعينها، كان تنزيل الدين وتطبيقه - خلالها - يمر بأطوار ومراحل حتى تحقّقت الغاية..

فقد كان رسول الله ﷺ يعمل جاهداً على جعل القرآن، الذي كان يتنـزّل على مكث، واقعاً في حياة الأمة التي كانت إذّاك تتشكل بالقرآن). **[انظر "الهدى المنهاجي في القرآن الكريم" - د الشاهد البوشيخي]**

ثانياً : المعالجات الشرعية لا تُؤخذ إلا من الوحي، وما دل عليه.

إن المعالجات الشرعية؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة، خطاباً وأفعالاً.. لا تؤخذ إلا من الأدلة الشرعية، وهي:

- **القرآن المجيد،**
- **السنة النبوية**، وهي: **الثابت والصحيح** من أفعال رسول الله وأقواله ومواقفه، في **بيان** ما دلت عليه الآيات والسور من **معالجات**، ومن **كيفيات تنزيلها** على الواقع لمعالجته بالرسالة لتحقيق الغاية منها.
- **ما دلّا عليه**، من إجماع الصحابة والقياس.. وهناك أدلة أخرى، منها ما هو مَوْضِع خلاف بين العلماء في اعتبارها كأدلة شرعية مثل: المصالح المرسلة، الاستحسان، وإجماع أهل المدينة..

وأمّا **ما لم يثبت أنه من الوحي** فلا يُعتبر دليلاً شرعيّاً ولا تُؤخذ منه عبادة. فلا تُعرف عبادة الله عزّوجل إلا بما ثبت أنه دليل شرعيّ، أي من الوحي؛ قرآناً وسنّة وما دلّا عليه..

أما **القرآن الكريم** ـ كما هو بين أيدينا الآن ـ فكلّه قطعي الثبوت يقيناً، فهو أصل الأدلة وأعلاها درجة.. فهو المصدر الأول للتشريع.

وأما **السنّة النبويّة** فهي بمجملها قطعية الثبوت، فلا يصح القول بعدم وجود وحي السنّة، فنفي السنة نفيٌ أن محمداً رسول الله ﷺ.. بوصفه رسولاً بعثه الله لغاية جامعة هي تحقيق الغاية من الرسالة التي بعثه الله بها:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ إبراهيم: ١ - ٢

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ التوبة: ٣٢ - ٣٣

"فالسُنة حُجَّة ـ قطعاً ـ في التشريع بجانب القرآن الكريم.. فهي المصدر الثاني للتشريع.. وما ثبت أنه من السنة فهو لا يُعارِض القرآن بوجه ما.. لذا فالسُنة قد تؤكّد ما ورد في القرآن الكريم من أحكام، وقد تفسّر نصوصه، أو تفصّل وتبيّن ما أُجْمِل من أحكامه، وقد تُنشئ حُكماً لحالات لم يرد بشأنها نص في الكتاب، ومع ذلك لا يُلجأ إلى السُنة دليلاً للأحكام إلا عند خلو القرآن من نص يفي بالمطلوب". **[انظر (موسوعة القرآن الكريم - الإصدار الثاني [مُحدّث] - إعداد موقع روح الإسلام)].**

وأمّا ما لم تثبت ـ عند أي من العلماء ـ نسبته لرسول الله ﷺ من أفعال وأقوال ومواقف لا يُعتبر دليلاً شرعيّاً.. أي ليس من السنة..

هذا، وقد تكفّل الله بنفسه - **سبحانه وتعالى** - حفظ القرآن الكريم، آياته وسوره، بوصفه **ذكراً** وتذكرة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر: 9]

والقرآن لا يكون ذكراً وفيه التذكرة والعبرة **إلا ببيانه**:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾ [النحل]

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)﴾ [النحل]

مما يقتضي **حِفْظ ذلك البيان** كما حُفظت آيات القرآن، **والسنّة** من بيان القرآن، فهي **محفوظة** أيضاً بوصفها بياناً للقرآن [207]..

فكما حَفِظ الله **جلّ شأنه** نَص آيات القرآن الكريم وترتيبها:

بما أَمَر به الرسول بترتيب كل مجموعة آيات محدَّدة في سورة معيَّنة..

وكتابتها على ذلك..

وبما حُفظ في الصدور **وتناقله** أجيال المسلمين جيلاً بعد جيل **نقلاً متواتراً**.. وهو الأصل في حفظ القرآن..

ثم بما هَدى إليه الصحابة الكرام من جمْع ونسْخ للسور في المصاحف..

أقول: **فكما** هيّأ الله أسباب حِفْظ آيات القرآن؛ نَصّاً ورسماً وترتيباً في سوَر.. **كذلك** يسّر - جلّ وعلا - أسباب حِفْظ السّنة من **النقص** ومن **الزيادة**، بوصفها بياناً للقرآن، وإن لم يكن **التواتر** شرطاً في ذلك كما دلّت على ذلك النصوص.. وما عليه علماء المسلمين. **[أنظر مثلاً كتاب (حجيّة السنة) - د عبد الغني عبد الخالق].**

---

207 - و"اللسان العربي" شرط في بيان القرآن: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ {58}) الدُخَان. لهذا فأغلب ما سنقوله لاحقاً حول حفظ السنّة النبويّة يمكن أن يُقال عن "اللسان العربي"، لأن الأصل في ثبوته هو النقل بالرواية عن العرب الأقحاح، وحتى نهاية القرن الثالث أو الرابع الهجري، وليس بالعقل ولا بالقياس. هذا، والقرآن الكريم هو السبب الرئيس لحفظ اللغة العربية وبقائها. بالإضافة إلى أن اللغة العربية - بتقدير الله تعالى وحكمته - فيها من الخصائص والمقومات الذاتية ما يضمن استمرار بقائها وعدم فنائها. ومن أهمها: وجود قواعد ووسائل لقياس وضبط علوم اللغة الأساس مثل: علم الصرف (الاشتقاق)، وعلم النحو (الإعراب). ومن أهم تلك الخصائص الحيوية أيضاً: وجود ما يُعرف بـ "الدلالة المحورية" للكلمة أو المفردة العربية، بمعنى أنه رغم تعدد مشتقات اللفظة الواحدة وبالتالي تعدد معانيها، فإن هنالك => معنى واحداً تتمحور حوله دلالة كل المشتقات. وكتاب "معجم المقاييس" لابن فارس قائم على بيان هذا الأمر. هذا، وما حُفظ و ثَبُت من السنة النبوية ومن اللسان العربي فيه البيان للقرآن.. ولكن، في إطار بيان القرآن لنفسه، فبيان القرآن للقرآن هو الأصل وهو المرجع. وذلك، بما جعل الله تعالى في القرآن الحكيم - المحفوظ نصّه ورسمه وترتيبه - من خصائص تجعل فيه الإمكان والقدرة على بيانه لنفسه وضبطه لدلالة ألفاظه. ومن أهم أدوات بيان القرآن لنفسه: الآيات المحكمات؛ فهنّ أم الكتاب، أي أصله وأسّه، فيُردّ إليها غيرها. وأيضاً أداة "الاصطلاح": وهي أن القرآن قد أعطى ألفاظه معنى خاصاً زائداً على معناها في اللغة. وهي دائرة أخص وأضيق من دائرة اللغة لفهم دلالة الكلمة، وذلك على ضربين: الأول أن يكون ذلك المعنى الخاص معنى شرعياً؛ مثل معاني ألفاظ الصلاة والزكاة والجهاد.. وغيرها من المصطلحات الشرعية. الثاني: وهو ما يُعرف بـ "عادة القرآن" في استعمال الكلمة المعينة أو "العرف القرآني" للمفردة العربية. ذلك أن القرآن له دقة عالية جداً في توظيف الألفاظ ومعانيها، فلا يوجد ترادف في الألفاظ، ولا توجد أحرف زائدة.. أو ما شابه.. بل لكل لفظة قرآنية معناها ودلالتها المقصودة، ولا تنوب عنها أي لفظة أخرى للدلالة على المعنى المراد في سياقها. انظر ملحق (الترادف في القرآن) في كتاب (الإيمان بالقدر). مرجع سابق:

https://drive.google.com/drive/folders/1tpCO7iftgxkUMTCm8xQrvIyfViCzNrOc?usp=sharing

أما حفظ السنّة من النقص؛ فهو أمر واجب؛ عقلاً وشرعاً: فلا يمكن ـ قطعاً ـ أن يُفـقَد شيء مما قام به رسول الله من أعمال؛ قولاً كان أو فعلاً أو إقراراً، وفيه **بيانٌ** لشيء من القرآن.. أو **بيان** لجزء من هذا الدّين الخاتم (العبادة) الذي تعبّدنا الله **عزّ وجل** به، سواء بيان حكم من أحكامه أم فكر من أفكاره.. ذلك أن **فقدان** شيء من **بيان** القرآن **يتعارض** مع أصول شرعية يقينـية قطعية، منها:

✓ الغاية من بعث الرسول بالرسالة، ألا وهي **إكمال الدّين** لله **تعالى**، أي جعل عبودية الناس خالصةً لله. وإكمال الدّين لله له شرطان: **إتمام** الشريعة، **وظهور** الدين. وفقدان جزء من الدّين يعني حصول نقص فيه، مما يعني **عدم** إمكانية الوقوف على حكم شرعي أو معالجة شرعية لأمر ما أو حادثة معينة (مناط) مما قد يُستَجَدّ من وقائع وأحوال في الحياة الإنسانية حتى قيام الساعة.. وعندها، يُحكم فيها بغير دين الله **جلّ وعلا** وشريعته.. أي، يُعبَد إله آخر غير الله ـ تعالى وتنزّه عن الشريك ـ في تلك الحادثة التي ليس لها حكم في دين الله **تعالى**.. وحينئذٍ، فلا تكون عبودية الأمة لله كاملةً، ولا يكون الدّين خالصاً لله.. وعليه فلا يمكن أن يُفقد أي جزء من دين الله، فكله محفوظ بحفظه **عزّ وجل** له.

✓ "البلاغ المبين" للرسالة، فحتى **يَفهم** المخاطَب مراد الله **تعالى** من كلامه، يجب **بيان** مراد الله **عزّ وجل** لعموم المخاطبين من الناس.. سواء البيان بالقول والتفسير أو "البيان العمليّ" بتنزيل الأحكام على الوقائع والأحداث.. ولهذا بعث الله **تعالى** كل نبيّ ورسول **بلسان** قومه ليبيّن لهم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ الله مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)﴾ [إبراهيم: 4]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨)﴾ [الدخان: 58]

والبيان الواجب على الرسل والأنبياء، له مجالان رئيسان:

✓ إقامة "الحُجَّة الرسالية"، أي بأن الله **تعالى** هو وحده الإله الحق الواجب الطاعة له والخضوع لأمره، وأنه سيحاسب الناس على أعمالهم يوم القيامة؛ إما جنة أو نار (خطاب النذارة):
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّة بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ الله عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)﴾ [النساء]

✓ بيان التشريعات والمعالجات الشرعية؛ إيماناً وعملاً صالحاً (منهج العبوديّة)، حتى يستقيم الناس على أمر الله:
﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) ﴾ [الجاثية]

أما وقد رتّب الله **جلّ وعلا**، **مصير** الإنسان في الدنيا والآخرة على **موقفه** من رسالة الله **تعالى** وشريعته، فلا بد وأن تبلغه بيّنة واضحة.. ليلها كنهارها، فلا يزيغ عنها إلا هالك.

وما سبق ـ وغيره ـ **دليل قطعي** على أنه لا يمكن أن يُفقَد جزء من دين الله **تعالى**؛ القرآن وبيانه من السنّة أو اللسان.. لأن فقدان جزء من دين الله يتعارض مع الحكمة والغاية من إنزال الرسالات وبعث الرسل..

<u>وأما حفظ السنّة من الزيادة</u>؛ فقد **قيّض** الله **تعالى** لها في مختلف العصور علماء جهابذة، وفّقهم ـ بلطفه وكرمه ـ <u>لإزالة ما ليس منها عنها</u>، وهداهم ـ برحمته وفضله ـ لتقعيد القواعد ووضع الضوابط العقلية منها والشرعية، بما يضمن ذلك سواء من حيث السند أم المتن.. الرواية أم الدراية.. وقبل ذلك وبعده، بما أنزل الله في القرآن الحكيم من آيات بـيّنات، وبما جعل فيه من آيات محكمات هن أم الكتاب..

<u>ويَحسُن</u> هنا؛ <u>في ختام هذه النقطة</u>، أن نشير إلى أنه لا تعارض بين حقيقة كون {أن السنّة محفوظة من الزيادة والنقصان} وبين القول: {أنه لا يُشترط القطعية في ثبوت ما هو من السنّة}، من حيث أن هذا القول مدعاة إلى الخلاف في تحديد ما هو من السنّة، وما هو ليس منها، مما يعني أن السنّة مُعرّضة للزيادة أو للنقصان.. والحقيقة أنه لا تعارض بينهما، وذلك:

لأن العبرة **بمجموع** ما ثبت من السنّة عند **جميع** العلماء، و بغض النظر عن الاختلاف في درجة الثبوت، وليس بما ثبت عند بعض العلماء ولم يثبت عند البعض الآخر، فما فات بعض العلماء استدركه آخرون.. فهي محفوظة بمجموع الحَفَظة.. **(208)**

"ومن هنا، نلاحظ أن حفظ السنة أو "البيان النبوي" يختلف عن حفظ القرآن، فهو "حفظ وجود". أما لماذا لم يُحفَظ مثل القرآن، فهذا لحِكَم كثيرة نذكر منها:

- تعبّد المجتهدين باتباع التنزيل وتمحيص صحيحه من ضعيفه،
- وحتى يتميز أهل العلم والعمل عن المنافقين ومرضى القلوب والكذابين، فلا يؤخذ هذا الدين إلا ممن عُرف بالتُقى والعِلم، وهذا حفظ للدين". **(مستفادة من مقالة للشيخ عبد الكريم بالقاسم ضمايدة)**

ولأن الشرع ـ وله القول الفصل ـ قد أجاز عدم اشتراط القطعية في ثبوت السنّة كما يُفهم من عموم الأدلة، في ما هو مبحوث في كتب الأصول.. وهذا من رحمة الله بالناس. لذلك فإن المُسْلِم يتعبّد **الله تعالى** بما **ترجّح** عنده ثبوته من نصوص السنة، وبما **ترجّح** عنده من فهم ودراية لتلك النصوص، إن كانت ظنية الدلالة.

بالإضافة إلى أن عددَ ما اختُلف في ثبوته بين العلماء من مجموع السنّة، قياساً إلى ما هو مُتفق على ثبوته منها ـ بغض النظر عن درجة الثبوت ـ يُعتبر قليلاً جداً.. أمّا ما اتفق العلماء على **عدم** ثبوته، فهو كثير، ولا يُستَدلّ به؛ فليس من الوحي.

ثالثاً : الأدلة الشرعية، لها أصول وضوابط لفهم دلالتها.

من المعلوم أن **الأدلة الشرعية** لها أصول وضوابط لفهم دلالتها على مراد الله **تعالى**، وقد قعّدها فقهاء الأمة وعلماء الأصول.

208- انظر (الرسالة) للإمام الشافعي، وتعليق المحقق أحمد شاكر- رحمهما الله - (ص 42 - 44 / من الجملة 138- 145).

وموضوع بحثنا هنا، لا يَسمح بتناول كل تلك الأصول والقواعد، ولكن سنتكلّم قليلاً - وبما يسمح به المقام - عن شيء منها. وسنتكلّم بداية عمّا له علاقة في **فهم السنّة** النبويّة، أما الكلام عن بعض ضوابط فهْم **القرآن الكريم** ، فمكانه كتاب (تبيان سور القرآن)، بإذن الله **تعالى:**

أما **السنّة**: فهي كل ما صدر عن رسول الله من قول أو فعل أو إقرار.. **[انظر تعريف السنة عند العلماء في كتاب (حجيّة السنة) - د عبد الغني عبد الخالق].**

و **أقوال** الرسول ﷺ، تُفهم حسب الضوابط والأصول اللغويّة والشرعيّة المعتمدة في أصول الفقه لفهم دلالة القول والكلام.. من منطوق ومفهوم وعام وخاص ومطلق ومقيّد.. الخ.. ونُحيل القارئ الكريم، للاطلاع على تلك الأصول والضوابط إلى مظانّها من كتب أصول الفقه المعتبرة.

و **إقرارات** الرسول ﷺ.. كذلك، نرجو العودة إلى كتب أصول الفقه المعتبرة، للاطلاع على ما يتعلق بها من قواعد وأصول.

أمّا **الأفعال** التي قام بها الرسول ﷺ في **تطبيق** ما دلت عليه الآيات والسور من معالجات، سنخصّها بشيء من البيان**..**

الأصل العام في فهم دلالة أفعال رسول الله

إن **قيام** الرّسول ﷺ بأفعال أثناء سيره بالرسالة في واقعه، لا يعني ذلك **وجوب القيام** بكل الأفعال التي قام بها أثناء السير، بل يعني **وجوب التأسي** فيه ﷺ بتلك الأفعال، **وبحسب حُكمها** إن كان على الإباحة أو الندْب أو الفرْض.. ذلك أن رسول الله لا يفعل حراماً ولا مكروهاً، فكونه **التزم** أفعالاً وقام بها أثناء سيره بالرسالة فإن قيامه بها يدل على **طلب** القيام بها، **مجرّد الطلب.** ولا بد من قرينة تُعيّن **درجة** الطلب، أي كونه على الوجوب أو الندب أو الإباحة. هذا في الأفعال التي **لم تأت بياناً لخطاب سابق**. وأما الأفعال التي **جاءت بياناً لخطاب سابق** فإنها تتبع المبيَّن في حكمه؛ الوجوب أو الندب أو الإباحة:

ومن الأمثلة على الأفعال التي **لم تأت بياناً لخطاب سابق؛** الأفعال التي تكون فرعاً لـ فعلٍ أصل قد جاء له دليل عام. حيث إن من الأحكام الشرعيّة ما جاءت متعلقة بأفعال إنسانية مركّبة من أفعال فرعية، وجاء دليل الفعل الأصل عاماً. عندها ينجرّ الدليل العام على جميع فروعه، ويحتاج تحريم الفعل الذي هو فرع، إلى دليل يحرمه حتى يخرج عن حكم أصله ويأخذ حكماً جديدا. ففي هذه الحالة تكون الأفعال الفرعية له إنما هي **وسائل وأساليب** لتحقيق الفعل الأصل، أي الفعل الذي جاء الحكم الشرعيّ له، أي الذي جاء خطاب الشارع متعلقاً به (المناط).. وذلك مثل قوله تعالى:
﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء]

حيث أنذر الرّسول ﷺ قريشاً كلّها وبشكل قوي ولافت للانتباه (الخطاب)، وقام بأفعال وأقوال **يعتادونها** عند وقوع أمر عظيم وخطير، مثل: الصعود على الصفا أو مكان عالي، والمناداة بأعلى صوته، وبألفاظ التحذير والتنبيه.. على بطون قريش، فعمّ وخص.. كما جاء في الروايات المتعددة الثابتة. **[انظر صحيح السيرة، و صحيح أسباب النزول - ابراهيم العلي].**

فالفعل الأصل: إنذار **عموم** قريش، ويقتضي أن يكون بشكل قوي ولافت للانتباه (الآية).

أما الأفعال الفرعية: الصعود على الصفا أو مكان عالٍ، والمناداة بأعلى الصوت.. هذه لا يُنظر إليها **كأفعال** تحتاج إلى دليل شرعي خاص بها للحكم عليها، لأن خطاب الشارع (الآية) **لم يأتِ متعلقاً بها**، بل جاء متعلقاً بالفعل **الأصل** (أَنذِر)، فهي مما لزم لتطبيق الفعل الأصل حسب **وصفه** في الواقع المعيّن، فهي من **الأساليب والوسائل** للقيام **بالفعل الأصل** في الواقع المعيّن وحسب صفته المطلوبة، فيجري عليها دليل أصلها ولا تحتاج لغيره.

إذن، فالأفعال الفرعية هنا ليست مما يُبحث فيها عن الحكم الشرعيّ، بل تدخل في **الأشياء** التي جاء النص **عاما** بإباحتها ولم يرد دليل **خاص** بحرمتها، **فتبقى مباحة**. لذلك لا تدخل **مناط الحكم** الشرعيّ، أي الموضوع الذي جاء الحكم الشرعيّ لمعالجته، ولا هي محل انطباق الحكم الشرعيّ عليها. **[انظر كتاب (الشخصية الإسلامية - تقي الدين النبهاني) / ج3 ، ص 84-103].**

ومن الأمثلة على الأفعال التي **جاءت بياناً لخطاب سابق**، وتـتْبع المبيَّن في الوجوب أو الندب أو الإباحة: الأفعال التي تكون فرعاً لفعل أصل، جاء دليل الفعل الأصل **خاصا بالقيام به** ولا يشمل كل فعل من أفعاله الفرعية. ومن ذلك الصلاة، (وكذلك الحج) ففي هذه الحالة فإن اعتبار أي فعل أنه من أفعال الصلاة (أو الحج) لابد له من **دليل خاص** به، لأن دليل الفعل الأصل لم يأت **عاماً**، بل جاء خاصا بالقيام به، فجاءت أدلة أخرى **لبيان** أفعاله الفرعية، فقال رسول الله ﷺ:

{ صلّوا كما رأيتموني أصلي }. **[صحيح البخاري].**

{ لتأخذوا عني مناسككم }. **[صحيح الجامع الصغير].**

لذلك عند النظر في **أفعال** الرّسول ﷺ أثناء سيره بالرسالة لتحقيق الغاية منها، أي كل الأفعال التي قام بها في تنفيذ ما جاءت به آيات القرآن الحكيم من معالجات في واقعه - كما وردت في الثابت من السنة والسيرة - لابد من معرفة ما إذا كانت تلك الأفعال بياناً لخطاب سابق، فتأخذ حينئذ حكم المبيّن.. وإذا لم تكن، فينظر فيها لمعرفة درجة الطلب، فيُقام بها حسب دلالتها..

وعلى هذا الأساس يمكننا التفريق بين الأفعال التي يجب التأسّي فيها برسول الله، وبين التي لا يجب التأسّي فيها.. ويمكننا معرفة ما إذا كانت على الفرْض أم على الندب أم الإباحة..

بمعنى أنه عند النظر في **أفعال** الرسول ﷺ أثناء سيره بالرسالة، يجب أن يُفرّق **دائماً** بين ما هو من **"المنهاج"** أي من العبادة، وبين **ما لَزِم** للسير حسب "المنهاج" **في واقعه**، أي من الأساليب والوسائل. **[لتفصيل أكثر، انظر (أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعية) - محمد سليمان الأشقر. و (الشخصية الإسلامية) ج 3، ص 40 - 43].**

هذا، وفي ما سبق من البحث، قد بيّنا أن ما قام به رسول الله ﷺ من أعمال **أثناء السير**، إنما جاءت **كمعالجات** [209] لِمَا كان **يُستَجد** من **أحداث ووقائع** (المناط) أثناء السير لإكمال الدّين **لله تبارك وتعالى**. وأن كل معالجة منها كانت تأتي لمناطها الخاص بها، وقد قام بها رسول الله ونفذها كمعالجة لذلك المناط المعين، سواء كانت في سياق تدرّج المسلمين في مراتب العبودية **لله جلّ وعلا**؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة، أفراداً وجماعة وأمّة.. بالتعليم والتزكية.. في سياق بناء "الأمة المسلمة".. أم في تفاعل أفكار "خطاب النذارة" في المجتمع الجاهليّ وموقفه منها:

---

209 - قلنا إن المعالجات هي: أحكام متعلّقة بالإيمان أو بالعمل الصالح أو بالدعوة، فكراً أو عملاً. فهي أعم من "الحكم الشرعيّ"- التكليف والوضع - المتعلّق بأفعال العباد، فهي تتعلق بالفكر أيضاً.

(فكان المشركون إذا **أحدثوا** شيئاً **أحدث** الله لهم **جواباً**). **[أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس]**..

فهذا هو واقع الأمر، وهو ما حصل فعلاً مع رسول الله ﷺ في سيره بالرسالة..

وهذه هي طبيعة المعالجات الشرعيّة، فهي أحكام على وقائع، ولكل واقع (مناط) حكمه الخاص به، ولا يُقاس عليه غيره في نفس الحكم إلا بعلّة شرعيّة مشتركة بينهما.

لذلك لاحِظ التعريف الجامع المانع للحكم الشرعيّ الذي اتفق عليه علماء الأصول، بأنه: (خطاب الشارع المتعلّق بأفعال العباد، اقتضاء أو تخييراً أو وضعاً) [210]..

فلكل **فعل** من أفعال الإنسان له حكمه الشرعيّ الخاص به، وهي **الأحكام الخمسة** المعروفة..

وأيضا لكل **شيء** من الأشياء أو المواد المتعلقة بتلك الأفعال حكمه الشرعي، وهما **حكمان**: إمّا حلال أو حرام..

فالدّين (العبادة) إنما جاء لمعالجة الواقع الإنساني (المناط) بكافة علاقاته ومجالاته وأبعاده المتنوعة؛ الفردية والمجتمعيّة..

وعليه، يكون النظر في ما قام به الرّسول ﷺ من أعمال في تنفيذ المعالجات على مناطاتها، على أساس أن لكل "مناط" (شخص، حدث، موقف، شبهة..) معالجته (معالجاته) الخاصة به.. وحسب ما كان يَستجد منها أثناء السير لإكمال الدّين لله **تعالى**.

ولفهم دلالة تلك الأعمال المعينة التي قام بها رسول الله، نلاحظ ما يلي:

- إن كانت بياناً لخطاب سابق، فتأخذ حينئذ حكم المبيّن (مثل أفعال الصلاة والحج).
- وإذا لم تأت بياناً لخطاب سابق، فلا بد من قرينة تُعيّن درجة الطلب، للقيام بالأعمال حسب حكمها، إن كان على الفَرْض أو الندب أو الإباحة.
- نتأسّى بالرسول الكريم فيها: حسب حكمها، وبهيئتها، طاعة لله واتباعاً لرسول الله.

ومن الأفعال التي يكون التأسي برسول الله ﷺ فيها على الإباحة (التخيير):

- الأفعال التي يلزم القيام بها لتنزيل المعالجة على المناط المعيّن، وحسب وصفها الشرعيّ، في الواقع الإنساني المعيّن، وهو ما يُعرف بـ الأساليب والوسائل. مثل تنفيذ رسول الله لقوله **تعالى**: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء]،، كما أسلفنا. ومثل تعيينه **الحبشة** للهجرة إليها لتخفيف معاناة المسلمين.. وكذلك **الطائف** لدعوة أهلها وطلب الحماية منهم - بعد وفاة أبي طالب - ليستمر في بلاغ رسالة ربه..
- أو التي جاء النص أنها على الإباحة.. مثل عموم الأمر بـ الأكل والشرب والمشي والسفر..
- أو التي ثبت أنها ليست من الوحي، بل من رأي الرسول ﷺ وتجربته، في مثل النهي عن تأبير النخل، واختيار مكان الجيش في غزوة بدر الكبرى.. وغيرها.

ومن الأفعال ما يخرج من دائرة التأسي:

- وهي مما خص الله به رسوله ﷺ من أحكام..

---

210 - انظر، مثلا: (السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار) - الإمام الشوكاني. و(الواضح في أصول الفقه) - محمد حسين عبدالله. و(أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعية) - محمد سليمان الأشقر.

- أو أن تكون من أفعاله أو صفاته الجِبلّيّة الخَلْقية..

[وما سبق، له تفصيله وأدلته في مظانته من كتب علم أصول الفقه]..

والمقصود من ذكر ما سبق من التأصيل؛ أنه عند النظر في الروايات الثابتة من **سنة** رسول الله ﷺ **وسيرته** في وصف **أعماله** أثناء سيره لتحقيق الغاية من الرسالة، لا بد من **العلم** بالضوابط التي يكون على أساسها التفريق بين **الأعمال** التي هي من "**المنهاج**" (العبادة) وبين التي ليست من المنهاج، بل هي مما لَزِم للسير **حسب** "المنهاج" في **واقع معين**، أي من الوسائل والأساليب..

مع العلم أن العبرة - عند فهم النص - بعموم اللفظ لا بخصوص السبب..

فلا بد من التفريق بين ما يجب التأسّي برسول الله فيه من الأفعال، وبين ما لا يجب..

والأفعال التي يجب التأسّي فيها، لا بد من بيان حكمها إن كان على الفرْض أو الندْب أو الإباحة.

إلى هنا، نكتفي بما أوردناه حول بيان كيف يكون التأسي برسول الله ﷺ **في الأعمال** من حيث هي نفسها؛ **كمعالجات**.. والذي هو "الجانب الثاني" من منهاج سيره ﷺ بالرسالة..

والآن ننتقل إلى "الجانب الثالث" من منهاج السير بالرسالة.. والمتعلِّق ببيان كيف يكون التأسي برسول الله ﷺ في "**فكرة** الخطاب" (فكرة الدعوة)، و "**منهج** الخطاب"..

المبحث الثالث: التأسي بالرسول ﷺ في "الخطاب"؛ فكرته ومنهجه

إن حقيقة "لا إله إلا الله"، هي الأساس الفكري لكل أمور **الدّين** (العبادة)؛ أعمال القلب والجوارح واللسان.. الفرد وعلاقاته، المجتمع ونظامه.. متمثلاً بالمواضيع الرئيسة أو الكبرى للدين (العبادة)، كما وردت مُجملة في سورة العصر:

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ العصر: ١ - ٣

فلا **ينجو** إنسان واحد من **الخسران**، في الدنيا والآخرة، **فيفوز**.. إلا مَنْ كان:

- **مؤمناً**،
- ويعمل **صالحاً**،
- **ويُذكِّر** الناس بالله الإله الحق (لا إله إلا الله)؛ **داعياً** إلى **إخلاص العبادة** لله **تبارك وتعالى** وحده، وأنه - عزّ شأنه - إليه المصير (فكرة الدعوة).. [211]
- **ويصبر** على ذلك كله"..

هذا، و "الخطاب" بـ "فكرة الدعوة": أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير.. له **كيفية** معيّنة و**منهج** محدد، قد قام عليه "**الأسلوب القرآني" المعجز**.. **[سبق وبيّنا تلك الكيفية في "المبحث الثالث" من "الباب الثاني"]**

ومن مقصده لفت انتباه الإنسان المُخاطَب ودفعه للتفكير في "محتوى الخطاب" والتأثّر به، لتحقيق غاية الرسالة من جهته؛ أي الهداية **والتزكية** لمن أراد، وإقامة "**الحُجَّة الرسالية**" على من أبى واستكبر..

فالقرآن الكريم بأسلوبه المعجز، هو **خير كلام** يمكن أن تُعرض فيه "فكرة الدعوة"، فهو الأصل والمصدر.. والسنّة، في بيانها لما جاء في القرآن من خطابٍ بالفكرة أو في عرضها لها، إنما تسير على نفس الكيفية الواردة في القرآن، وملتزمة بنفس المنهج، فهي وحي من الله **تعالى** أيضاً، والوحي لا يتناقض ولا يتعارض أبداً.

211 - جملة "لا إله إلا الله" جملة خبرية، فالموقف الطبيعي منها هو إما التصديق أو التكذيب. فهي ليست جملة إنشائية فليس فيها أمر أو طلب. بينما "الدعوة" أصل معناها "الطلب"، وتكون بجملة إنشائية تحتوى على الأمر أو النهي، والموقف الطبيعي منها هو إما الطاعة أو العصيان (الاستكبار). لذلك عندما يقول قائل: "أدعو الناس إلى لا إله إلا الله"، فهذا كلام مُجمل يحتاج إلى بيان، لأن "لا إله إلا الله" جملة خبرية ليس فيها أمر أو طلب. فهل يقصد القائل أنه يدعوهم إلى التصديق بها؟ أم فهم معناها؟ أم إلى العمل بمقتضاها ؟ أم إلى ماذا ؟ مع العلم أن دعوة الأنبياء هي دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى وحده أي => إخلاص العبادة (الدين) لله، على أساس أنه لا إله إلا الله. فالدعوة هي دعوة (طلب) إلى عبادة الله وحده على أساس أنه لا إله إلا الله، وليست الدعوة إلى لا إله إلا الله، هكذا دون تحديد موضوع الطلب. وعلى هذا الأساس نفهم قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله يَسْتَكْبِرُونَ} [الصافات35]، بمعنى أنهم كانوا يستكبرون عن مقتضى لا إله إلا الله: عبادة الله تعالى وحده، والتي هي موضوع دعوة (طلب) أنبياء الله ورسله: {اعْبُدُوا الله، مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [المؤمنون23].

أولاً : النص الشرعي هو قِوام [212] خطاب دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله

كان **الأصل** في خطاب رسول الله الناس ودعوتهم إلى إخلاص العبادة لله **تعالى** (إكمال الدين لله)، هو: **تلاوة آيات** القرآن الكريم، **والمشفوعة دائماً بالبيان** لمقصود الله **عزّ وجل** ومراده منها، بقصد تحقيق الغاية من الرسالة، ذلك أن رسول الله ﷺ مأمور بأن "يتلو القرآن" على الناس "تلاوة" دعوة وإنذار، ثم يحدِّد الناسُ موقفهم بعد ذلك؛ القبول أو الرفض.. الهداية أو الضلال:

﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢ ﴾ النمل: ٩١ - ٩٢

رتّب الهدى والضلال على **تلاوة** الآيات، وأن **تلاوة** الآيات كانت في سياق الإنذار.

فالنص القرآني هو **قِوام** خطاب الدعوة.. وهو **مادته؛** موضوعاً ومنهج خطاب.. فلا بد للناس من أن يسمعوا كلام الله.. أن يسمعوا نَص رسالة الله **عزّ وجل** لهم، فهذه هي مهمة الرسول الأولى والأساس فما هو إلا مبلِّغ عن الله **تعالى:**

﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ۝٣٠ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ ... ۝٣١ ﴾ الرعد: ٣٠ - ٣١

فالله **جلّ وعلا** بعث الرسول إلى الناس ليتلو عليهم الوحي، وحالهم أنهم (يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) فهي تلاوة بلاغ و دعوة، فبالوحي يكون خطاب الدعوة؛ فهو له التأثير.. فلو كان من صفات كتاب من الكتب الإلهية أن تُزال به الجبال عن أماكنها، أو تُشقق به الأرض فتستحيل أنهارًا وعيونًا، أو يُقرأ على الموتى فيصيروا أحياء - لكان هذا القرآن - فهو واضح البرهان، عظيم التأثير لو أنهم كانوا أتقياء القلوب، لكنهم جاحدون. بل لله الأمر كله). **[المختصر، الميسر]**

﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ۝٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ۝٤٦ ﴾ الإسراء

﴿وإذا قَرَأْتَ القُرْآنَ﴾؛ الَّذِي لا يُدانِيه واعِظٌ؛ ولا يُساوِيه مُفْهِمٌ؛ وهو تِبْيانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ جعلنا بينك وبين الذين لا يُؤمنون بالآخرة حِجابًا ساترًا يَحْجب عقولَهم عن فَهْمِ القرآن؛ عقابًا لهم على كفرهم وإنكارهم).

هذا، و"**القراءة**" لآيات الله **عزّ وجل** في الآية السابقة و"**التلاوة**" لها هنا.. تأتي في مقام إلزام الحُجَّة وقطع المعذرة، فهي تلاوة إنذار ودعوة:

---

212 - والقِوام: أسم لما يقوم به الشيء، أي يثبت، كالعِماد والسِّناد لما يُعمد ويُسند به. **[(المفردات في غريب القرآن) - الراغب الأصفهاني]**.

﴿.. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا **يَتۡلُواْ** عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ **مُبَيِّنَٰتٖ** لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾ الطلاق

فهي دعوة لتحقيق العبودية الخالصة لله، فالرسول ﷺ يتلو آيات الله **عزّ وجل** بقصد تحقيق غاية الرسالة؛ إخراج الناس، من الظلمات إلى النور **(213)**.

والأمر بتلاوة رسالة الله **تعالى ليس** خاصاً بالرسول ﷺ:

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ **بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ** قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ الحج

فلم يرد دليل يخصّ الرسول ﷺ بالتلاوة وقراءة القرآن على الناس، بل هما من أعمال الدعوة وحمل الرسالة.

صحيح أن الرسول ﷺ مكلف - بداية - **بقراءة** نص الرسالة **وتلاوتها** على الناس حتى يحقق لها مستوى التواتر، ليضمن **النقل المتواتر** لها جيلاً بعد جيل، حيث أن تلاوة الرسالة من **مهماته** كرسول:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ **يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ** وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ الجمعة: ١ - ٢

إلا أنه من الثابت عن الرسول ﷺ أنه لم يكن **دائماً** يقرأ القرآن على **كل** من دعاه، كما جاء في بعض الروايات [كما في رواية إسلام عمرو بن عبسة في صحيح مسلم] بل كان بكلام وألفاظ منه ﷺ (السنّة) يعرض الفكرة.

أي أنه ﷺ لم يلتزم **دائماً** بتلاوة **نَص القرآن** في خطابه الناس بالدعوة، مما يعني أن الأمر - الالتزام الدائم في كل مرة - ليس للوجوب.

فيكون الأمر بالنسبة لنا، هو أن **الأصل** في خطاب الناس بفكرة الدعوة، هو استخدام النصوص الشرعية - قرآناً وسنّة - مباشرة.. وأن تكون مشفوعة **بالبيان اللازم**، فذلك أمر مطلوب شرعاً، لأنه بدون **البيان** للرسالة لا يمكن أن تتحقق الغاية منها، فلا معنى إذاً لإنزال الرسالة...

لهذا بعث الله الرسل بالرسالات، وكلاً بلسان قومه **ليبيّنوا** للناس مُراده - **عزّ وجل** - منهم، فالمقصود هو البلاغ المبين للرسالة:

---

213 - أنظر الآيات التي وردت فيها كلمة (تُتلى)، تجدها جاءت في سياق البلاغ والدعوة، وبيان مواقف المخاطبين مما سمعوا من الآيات، وإقامة الحُجَّة الرساليّة، يعني كمعالجات للواقع الإنساني. أما القراءة=> فتأتي في سياقات أعم؛ مثل عموم القراءة لآيات الله؛ في الصلاة وفي غيرها: (فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) المزمل، وفي سياق وجوب التزام القارئ للقرآن بالكيفية التي سمعه بها وتلقاه فيها دون زيادة أو نقصان: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} القيامة. أي نقل القرآن كما سمعه.

﴿.. وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ **لِتُبَيِّنَ** لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ النحل
﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ **لِيُبَيِّنَ** لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ إبراهيم: ٤

فلا تنفك صفة **البيان** عن البلاغ والإنذار والدعوة، البتة.

وعليه، فالأصل أن تكون **النصوص الشرعية** من القرآن والسنّة، والمشفوعة دائماً **بالبيان** لمقصود الله ومراده - كمعالجات للواقع - هي **قوام** خطاب الناس ودعوتهم إلى عبادة الله وحده.

ثانياً : كيفية خطاب الوحي مُلزمة

إن الكيفية الشرعية لخطاب الناس في دعوتهم إلى عبادة الله وحده:

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ، مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ، إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ الأعراف

تقوم على ثلاثة أركان، كما بيّنا:

- ✓ **البناء الفكري :**

إن **الإله** المُطاع صاحب **الأمر والحكم والقضاء** في الكون والحياة والإنسان؛ **خلقاً وتسوية، تقديراً وهداية، قوامة واستمراراً، جزاءً ومصيراً**..

هو الله جلّ شأنه..

وهو وحده **الإله**؛ أي صاحب **الأمر والحكم والقضاء** في **التشريع** والتقنين لحياة الإنسان - في جميع المجالات، فرداً ومجتمعاً - إلهاً واحداً **لا شريك له**.. تعالى الله عن الشُركاء..

فحُجَّة الله **تعالى** (الحُجَّة الرسالية) على الإنسان قائمة في طبيعة "البناء الفكري" لدعوة الناس إلى عبادة الله وحده؛ بأنه "لا إله إلا الله فاعبدوه"، حيث احتجّ الله **تعالى** على الإنسان بعبوديته - وعبودية الخلق جميعاً - غير الاختيارية لأمْر الله وحكمه القدريّ، أي بأن الله هو **وحده الإله** الحق لهذا الوجود، **خلقاً** و **تقديراً و قوامة** و **استمراراً**.. على **وجوب** أن تكون عبودية الإنسان لله وحده بلا شريك فيما جعل الله له فيه اختياراً ومكّنه منه، فيتخذه **وحده إلهاً** معبوداً، وذلك بطاعة **أمره وحكمه وقضائه** الشرعيَّ (شريعته ودينه)، في تنظيم شؤون حياته **كلها** فرداً ومجتمعاً. فلا **يشرك** - اعتقادا أو سلوكا - مع الله أحداً، سواء في **أمره** الخَلقيّ القدريّ أو **أمره** الشرعيّ التكليفيّ.. :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ **ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي** خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ **ٱلَّذِي جَعَلَ** لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ **وَأَنزَلَ** مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ **فَأَخۡرَجَ** بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ **رِزۡقٗا** لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ **أَندَادٗا** وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ البقرة: ٢١ – ٢٢

✓ **طريقة الاستدلال :**

هناك طريقة اعتمدها الخطاب القرآني للوصول للحقيقة (التدليل عليها)، وللفصل بين الحق والباطل.. حيث أقام الله **جلّ وعلا حُجّته القاطعة** على أنه وحده الإله الحق المستحق للطاعة والخضوع لأمره، و أن ما دونه هو الباطل يجب الكفر به:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ النحل: ٣٦

قد أقام حجته القاطعة على **أمرين اثنين**، وجعلهما **الطريق الوحيد** الموصل إلى الحقّ:

الأول: الحِسّ، أي **الإدراك** الحسيّ المباشر، بمعنى؛ الإدراك العقلي للأمر على أساس الحس المباشر به مع وجود المعلومات الصحيحة المتعلّقة به. أي "الطريقة العقلية" بالتفكير، وهي الطريقة التي فطر الله الإنسان عليها:

﴿ **هَٰذَا** خَلْقُ اللَّهِ **فَأَرُونِي** مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ لقمان: ١١

الثاني: الخبر الصادق، أي القطعيّ الثبوت والدلالة.. فيكون ما جاء به الخبر يُعتبر من "العلم"، وليس من الظن أو غلبة الظن..

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ **أَرُونِي** مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ **ائْتُونِي**
بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ الأحقاف: ٤

وفي المقابل فقد وصف الله **تعالى** رسالته والفكرة التي تقوم عليها بأنّها الحقّ المُبين، أي البائن القطعيّ الذي لا يشوبه أي باطل. وأنّها "**عِلْم**" أي معرفة يقينية، لأنّ **حُجَّة** الله **تعالى** على ذلك **قاطعة** فهي مأخوذة من هذين المصدرين: **الحِسّ** و **الخبر الصادق،** فهي سلطان وبرهان.

✓ **طريقة العرض :**

طريقة العرض لها أهميّة الفكرة نفسها..
فإذا كان الركنان السابقان قد تكفّلا **ببيان الحقّ.. وبالفصل** بينه وبين الباطل **وعدم الالتباس** بينهما، فإنّ هذا الركن يتكفّل بأنْ **يتلقّى** الناس الحقَّ - متمثلاً في فكرة الرسالة ومقتضياتها - **تلقياً مؤثراً،** محقّقاً للغاية من خطابهم بها، من الهداية والتزكية وإقامة الحُجَّة.. بمعنى أنْ يكون للخطاب تأثير على الناس:

- ✓ تأثير على مَنْ أراد الهداية، فيدفعه للتصديّق الجازم بالفكرة والقيام طواعية بمقتضياتها، من السير في طريق العبودية لله **تعالى**، واجتناب الأنداد والطواغيت.
- ✓ تأثير على مَنْ أبى الهداية للحقّ واستنكف جحوداً ومكابرةً، وقد أقيمت الحُجَّة عليه، فيظهر عليه الإعراض عند سماع الحقّ والنفور منه، فلا يُطيق سماعه..

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا
وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ
كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ التوبة: ١٢٤ – ١٢٥

وهذه الخاصية لا يحققها إلا نص آيات القرآن الكريم.. ومن هنا، فالأصل في مخاطبة الناس عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده وترك وهجر بما دونه.. أن يُخَاطَبوا بآيات القرآن الكريم، فلا بد أن يسمع الناس كلام الله جلّ ثناؤه..

وعليه، فإن الكيفية الشرعية لخطاب الناس في دعوتهم إلى عبادة الله وحده؛ بأركانها الثلاثة.. لا يجوز الخروج عنها أو مخالفتها بحال، سواء أكان الخطاب قوامه النصوص الشرعية أم كان بكلام الداعية وألفاظه بياناً للآيات، فيجب الالتزام بتلك **الكيفية الشرعية** (منهج الخطاب)، ولا يجوز الخروج عنها البتة.

فخطاب الدعوة إلى عبادة الله وحده، ليس خطاباً عاماً مفتوحاً، بل هو خطاب مخصوص؛ له **فكرة** معينة، ويُراد به الوصول إلى **غاية** معينة.. فهو "**خطاب منهجيّ**"..

وفي هذا السياق - تأكيداً له - نُشير إلى ما ذكرناه في "الباب الأول" من البحث؛ "تمهيد وتأسيس":

إنّ النصر والغَلَبة - في النهاية - ستكون لِمَنْ يتبع الوحي ويفعِّل ما فيه من "آيات" دالة على الحق..

كما قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً موسى وهارون على نبينا وعليهما الصلاة والسلام:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ القصص

أي (يقول الله جلّ وعلا: .. أنتما - يا موسى وهارون - ومَن آمن بكما، المنتصرون على فرعون وقومه؛ بسبب آياتنا وما دلَّتْ عليه من الحق). **[انظر التفسير الميسر، تفسير السعدي]**

فالغَلَبة - في النهاية - لأولياء الله الذين معهم "آيات الله"، وسمّاها الله "آيات" لدلالتها على الله الحق..

و**القرآن** هو **آية** الله الخاتمة الخالدة، التي فيها **الدلالة** على الحق.. وفيها تجتمع خاصيتان معاً: كونها آية متلوّة.. وكونها آية ماديّة (معجزة) **(214)**..

فالغلبة في النهاية:

- لِمَن يملك العِلْم بالمنهاج في تفعيل القوة الهائلة في التأثير والتغيير (الهداية وإقامة الحُجَّة) الكامنة في القرآن الكريم، بوصفه "آيات بيّنات" (فكرياً ومادياً)، بقصد تحقيق الغاية منه..
- ولِمَن يُحسِن ويَمْلُك الحكمة في توظيف تلك القوة من أجل تحقيق الغاية من القرآن، كما حصل في أول أمر هذه الأمة على يد رسول الله ﷺ..

فالتأثير - على الحقيقة - إنما هو لـ "آيات الله البيّنات" بما فيها من حُجَّة بالغة وتأثير قوي على النفس الإنسانية.. وما الرسول إلا مبلّغ ومبيّن لآيات الله كما يريد الله تعالى..

---

214 - كما في حديث رسول الله: (ما من الأنبياءِ من نبيٍّ إلا قد أُعْطِيَ من **الآياتِ** ما مثْلُهُ آمنَ عليه البشرُ. وإنما كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحَى الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهُم تابِعًا يومَ القيامة). **[رواه الشيخان عن أبي هريرة، وهذه رواية مسلم: الصفحة أو الرقم 152 - الدرر السنيّة].**

بمعنى أنه ﷺ هو المُفَعّل للآيات البيّنات (فكرياً ومادياً)، وهو المعلّم والقدوة لنا في كيفية تفعيلها في واقع الناس لتؤدي دورها وأثرها في حياة الناس: الهداية إلى الحق، لمَن أراد الهداية.. وإقامة "الحُجَّة الرسالية" على مَن أبى واستكبر عن اتباع الحق البيّن..

وعليه، فإن أي **كلمة قرآنية** موضوعة للتعبير عن معنى أو مفهوم معيّن، فالأصل أن لا **نحيد** عن استعمالها في الخطاب أو أثناء التعليم والتزكية".. لأن توظيف القرآن لتلك **الكلمة** وجَعْلها جزءاً من النسيج القرآني الكامل، يوجِد لها مخزوناً فكرياً وشعورياً، ورصيداً من الطاقة الروحية، الأمر الذي يجعل لتلك الكلمة دوراً مقدّراً ومؤثِّراً في الهداية وتحقيق الغاية من الرسالة.. وهذه هي حقيقة "المصطلح القرآنيّ" للكلمة.. وعند **تلاوة** تلك الكلمة أو **ذِكْرها** يُستدعَى كل ذلك المخزون من المعاني والمشاعر، والطاقة الروحية الدافعة لتقوى الله وعبادته.. وبالتالي فإن الحَيْد عنها أو تبديلها يعني فقدان ذلك المخزون من الطاقة الروحية الفاعلة.. الأمر الذي يؤدي إلى تعطيل الهداية وإقامة الحُجَّة الرسالية؛ جزئياً أو كلياً.. أي تأخير تحقيق الغاية من الرسالة..

النتيجة من المباحث الثلاثة السابقة **..**

إن "المنهاج" الذي التزمه رسول الله ﷺ بتلقي الرسالة (الدّين أو العبادة) مرتّلة؛ **أولاً بأول**.. والسير بها بقصد تحقيق الغاية منها في واقعه.. له جوانب أربعة؛ وهي الواجب التأسي فيها برسول الله؛ وكما يلي:

الجانب الأول: من حيث الأفكار والأحكام نفسها؛ بوصفها **معالجات** للواقع - فكراً وسلوكاً - وكيفية تنفيذها.

ليس هنالك أعمالاً شرعية **مخصوصة** للسير بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها.. كما هو الحال في الصلاة والحج، مثلاً.. فالأعمال والمعالجات إنما هي **الدّين** نفسه، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً.. والعبرة في كيفية تنزيلها **مرتّلة** على الأحداث والمواقف (المناط) - أولاً بأول حال حدوثها - كمعالجات لها.. فلكل "مناط" معالجاته المتعلقة به.. ويُعالج حال حصوله في طوره ومرحلته.. حيث بعد مخاطبة المجتمع - أتباعاً ومتبوعين - بـ "فكرة الدعوة" وبلاغها لهم، ستصدر عنهم مواقف وأعمال وردود أفعال وشبهات.. ولكل منها معالجات شرعيّة وسننيّة، يجب الالتزام بها وتحقيقها في الواقع.. وهو ما سيكون ترتيب وقوع الأحداث وحصول المواقف - وكذلك ترتيب أعمال السير - بحسبه وعلى أساسه.. في ذلك الواقع الإنساني (المجتمع) المعيّن.. ولكل مجتمع مواقف من الحق وردود أفعال متعلقة به، وسيكون لها ترتيبها التفصيلي وتتابع حصولها الخاص بذلك المجتمع..

الجانب الثاني: من حيث **ترتيل** (ترتيب) **تلقي** الآيات، وما تلازَم معه من **ترتيبِ** (مولاة) الخطاب والأعمال، والمعالجات؛ الشرعية والسننية.. أثناء السير بالرسالة.

إن لكل مجتمع مواقف من الحق وسيكون لها ترتيب تفصيلي خاص بذلك المجتمع.. فلا يوجد هنالك **ترتيب مفصّل** لحصول أعمال السير العمليّ بالرسالة في المجتمع المعيّن، لا **شرعيّ** ملزِم، ولا **سُنَنيّ** واجب الحدوث.. إنما هي **الخصائص** والسمات العامة، **وسننها** الضابطة لها؛ الشرعية والقدرية.. وحسب **اختيارات** الناس.. في كل مرحلة وطور.. والخصائص وسننها، هي التي لا بد من اعتبارها عند معرفة كيف سيكون السير العمليّ التفصيلي بالرسالة في المجتمع المعيّن.

الجانب الثالث: "منهج **الخطاب**" بالأفكار والأحكام والمعالجات.

إن **الأصل** في خطاب الناس بـ "فكرة الدعوة"، هو استخدام النصوص الشرعية ـ قرآناً وسنّة ـ مباشرة.. و**يجب** أن تكون النصوص الشرعية مشفوعة **بالبيان اللازم**، لأنه بدون **البيان** للرسالة لا يمكن أن تتحقق الغاية منها.. فلا تنفك صفة **البيان** عن البلاغ والإنذار والدعوة، البتة..

فعندما **يتلقّى** الناس الحقَّ ـ متمثلاً في فكرة الرسالة ومقتضياتها ـ لا بد أن يكون **تلقياً مؤثراً**، محقّقاً للغاية من خطابهم بها، من الهداية والتزكية وإقامة الحُجَّة.. بمعنى أنْ يكون الخطاب بشكل مؤثر؛ مُقنع للعقل وموافق للفطرة ومقيم للحُجَّة.. فطريقة عرض "فكرة الدعوة" لها أهميّة "الفكرة" نفسها..

وهذه الخاصية لا يحققها إلا نص آيات القرآن الكريم..

ومن هنا، فالأصل أن يكون النص القرآني هو **قِوام** خطاب الدعوة.. وهو **مادته؛** موضوعاً ومنهج خطاب.. فلا بد للناس من أن يسمعوا كلام الله **جلّ ثناؤه**.. أن يسمعوا نَص رسالة الله **عزّ وجل** لهم، فهذه هي مهمة الرسول الأولى والأساس فما هو إلا مبلِّغ عن الله **تعالى**.. وهي جزء من مهمة الأمة الخاتمة التي ستخلف رسول الله في مهمته..

وعليه، فإن "منهج القرآن" في مخاطبة الناس لدعوتهم إلى عبادة الله وحده، وأن إليه المصير (فكرة الدعوة)؛ بأركانه الثلاثة:
- البناء الفكري لـ "فكرة الدعوة"..
- وطريقة الاستدلال عليها..
- وطريقة عرضها المؤثرة..

لا يجوز الخروج عن "منهج الخطاب القرآني" أو مخالفته بحال، سواء أكان الخطاب قوامه النصوص الشرعية أم كان بكلام الداعية وألفاظه بياناً للآيات، فيجب الالتزام بتلك **الكيفية الشرعية** (منهج الخطاب)، ولا يجوز الخروج عنها البتة..

فخطاب الدعوة إلى عبادة الله وحده، ليس خطاباً عاماً مفتوحاً، بل هو خطاب مخصوص؛ له **فكرة** معينة، ويُراد به الوصول إلى **غاية** معينة.. فهو "**خطاب منهجيّ**"..

الجانب الرابع: من حيث "الضوابط الشرعية والسننية"، التي على أساسها يكون بيان **الأولويات** في تلقي الرسالة والسير بها لمعالجة الواقع.. خطوة بخطوة.. حتى تحققت الغاية.

"منهاج النبوّة" الملزم لنا شرعاً، يقوم على أمرين، هما:

1- الضوابط السُننيّة والشرعيّة التي كان ذلك **الترتيل** على **أساسها**.. فهِي التي حَكَمَت أعمال سير رسول الله ﷺ بالرسالة في واقعه **آنذاك**.. وهي **التي** سيكون على أساسها **"الترتيل المفصّل"** لتلقّي آيات القرآن والسير بها، بقصد تحقيق الغاية منه، في أي واقع إنساني، في أي زمان ومكان..

والتي ستحكم أعمال **السير** بالرسالة **وتوالي** الأحداث **وتتابع** المواقف **وتطوّرها**، بين الجماعة المسلمة ثم الأمّة المسلمة في جهة.. والذين كفروا باختلاف أنواعهم ودركاتهم، في الجهة الأخرى.. من البداية حتى تحقيق الغاية.. والذي كان في مسارين مختلفين ومتوازيين؛ مسار **بناء**، ومسار **هدم**.. كما ذكرنا..

هذا، و"الضوابط الشرعية" هي محل الاقتداء والاتباع.. أمّا "الضوابط السنية" فمدار رحاها؛ "العلم والحكمة" في معالجة الواقع الإنساني؛ بأشخاصه ومواقفهم وردود أفعالهم.. انسجاماً مع سنن الله.. فلا بد من فهمها حتى يُمكِن الانتفاع بها وتوظيفها في سياق تحقيق الغاية من الرسالة.

فلا بد من العلم بضوابط الترتيل؛ الشرعيّة والسننيّة.. واستخراجها من أدلتها الشرعيّة: القرآن وبيانه من السنة، ومنها السيرة النبوية.. فهي التي تضبط الأولويات وتَـتابُع الأحداث.

2- "التسوير"، حيث أن الأصل في دلالة السورة - بوصفها سورة - هو بيان "المنهاج" لتحقيق الغاية من الرسالة (الفهم المناجي).. لما بيّناه في ما سبق من أن التسوير هو **"الترتيل" الشرعيّ** الوحيد لآيات القرآن الذي **كَلّف** الله **تعالى** رسولَه به.. ونحن **مُتعبَّدون** به كلّه، **تلاوةً** و**دلالةً**، ففيه الهداية إلى كل خير.. ويعتبر من الضوابط الشرعية المهمة عند فهم "منهاج النبوّة"، أي فهم ما يجب فيه الاتباع للرسول من أعمال السير، وما لا يجب.. وخاصة في استخراج الضوابط الشرعية والسننية..

وبناء على ما سبق، فـ "منهاج النبوة" في واقعه، أنه بيانٌ لـ "الكيفية الشرعية"؛ المتعبَّد بها في تلقي الرسالة؛ فكرتها وموضوعها.. للسير بها في المجتمع "على مكث" (التلقي المنهاجي للرسالة)، و**تنزيلها كمعالجات** للوقائع والأحداث (المناط) حال حدوثها؛ في مرحلتها وطورها، أولاً بأول.. في عملية هدم وبناء مستمرة وشاملة: هدم "الكيان الجاهلي" بمُقوِّماته الفكرية والمادية.. وبناء "الكيان المسلم" بموقوماته الفكرية والمادية؛ على مستوى الفرد ومستوى الجماعة ثم المجتمع.. وذلك في "**خط عام**".. تَحْكُمه الضوابط الشرعيّة والسننيّة واختيارات الناس في المجتمع؛ المدعوين والمؤمنين.. ألا وهو: بعد دعوة عموم الناس في المجتمع إلى "فكرة الدعوة": أن اعبدوا الله، ما لكم من إله غيره، وإليه المصير.. و"بمنهج الخطاب" الشرعي.. يبدأ العمل على إزالة أو تحيِيد العقبات الفكرية والمادية التي يضعها الملأ، لإعاقة سير المؤمنين - أفراداً وجماعة - نحو **بناء** "أمة مسلمة" تخلف رسول الله؛ في أن تُخلص (تُكمل) دينها لله في جميع مجالات حياتها، وتحمل رسالة الله للناس كافة، والمحافظة عليها كذلك.. (تحقيق الغاية من الرسالة)..

لذلك، عند فهم "المنهاج".. نبحث في الأدلة الشرعية من القرآن والسنة، عن **خطّة واضحة** أو **منهج للسير** قوامه الضوابط الشرعية والسننية، لا عن أعمال **تفصيلية** إجرائية مرتبة..

نبحث عن **منهج للسير** قوامه **الأوصاف الشرعيّة** و**السنن الكونية**، يظهر فيه **الوصف المحدد** للأعمال والمعالجات، لكل مرحلة.. فلا **يُخرَج عنه**..

[تفصيل أكثر عند "بيان كيفية السير العملي بالرسالة في الواقع المعيَّن".. في القسم الأخير؛ "الباب الرابع".. بإذن الله **تعالى]**..

المبحث الرابع : "الفهم المنهاجيّ" لِسُوَر القرآن الكريم.

بناء على ما بيّناه من أن القرآن هو الأصل في حركة رسول الله ﷺ وسيره بالرسالة.. وأن الأمر **الجامع** في **ضبط** التفريق بين ما هو **مُلْزم** لنا وبين ما هو **غير ملزم**.. في "التلقي المنهاجي" لآيات القرآن الكريم بجوانبه الثلاثة: من حيث الترتيب (الأولويات)، والأعمال نفسها، والخطاب.. أقول: إن "**الفهم المنهاجيّ**" لسور القرآن المجيد، هو الضابط العام في التفريق بينهما.. وذلك من خلال النظر إلى السورة كوحدة واحدة، وجزء من "المنهاج"، وفي مجموع السور ثمَّ "المنهاج"

كاملاً.. أي، دراستها "**دراسةً مِنْهاجيّة**" لاستكشاف واستنباط دلالتها كـ "**سورة**" على "**منهاج** السير" بالرسالة - بمراحلها وأطوارها، بضوابطها السننيّة والشرعيّة - من البداية حتى تحقيق الغاية..

وبعد الفهم المفصّل **لخط سير** رسول الله ﷺ بالرسالة لإكمال الدّين لله، بمعرفة طبيعته و**سننه** التي تحكمه، وفهم مراحله وأطواره وأحداثه - وقد بيّناه سابقا في "الباب الثاني" - لا بد من فهم كيف كانت **المعالجة** التفصيلية - من قِبَل رسول الله - لكل حدث أو موقف (المناط) حال حصوله في طوره ومرحلته.. ومن زاوية "**الضوابط** السننيّة والشرعية" لحدوثها، وليس من جهة "الترتيب **التاريخيّ**" للأحداث والمواقف الذي حصل فعلاً مع رسول الله.. وذلك لما ذكرناه في ما سبق من أن **العبرة** - عند فهم "منهاج النبوّة" - بأمرين، هما:

- ✓ **الضوابط** السُننيّة والشرعيّة.. فهِي التي تحكم السير بالرسالة في كل زمان ومكان، وعلى أساسها يكون "**التتابع المفصّل**" للأحداث وتنزيل الآيات كمعالجات لها.. فالضوابط السننيّة والشرعيّة ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل.
- ✓ "**التسوير**"، أي، ترتيب (ترتيل) آيات محددة في سورة معينة؛ هو "**الترتيل**" **الشرعيّ** الوحيد لآيات القرآن الذي **كلّف** الله **تعالى** رسولَه الكريم به.. فهو ترتيل **توقيفيّ**.. وأنه من **الأدلة** على "المنهاج".

هذا، والتطبيق العمليّ للأمرين السابقين يكون من خلال "**الفهم المنهاجيّ**" لسور القرآن الكريم، أي بالنظر في السورة **الواحدة** لفهم دلالتها على "**المنهاج**"، ورؤيتها كـ "وحدة منهاجية" واحدة، وفي مجموع السوَر، ثَمَّ المنهاج كاملاً. وذلك من خلال تناول السورة من القرآن في ثلاث خطوات عَمَليّة، هي كالتالي:

1- **ربط** السّورة بخط سير رسول الله بالرسالة الذي بيّناه في "الباب الثاني"، أي بيان موقعها في أي **مرحلة** وفي أي **طور** - حسب التتابع العام للأحداث والمواقف، والذي تحكمه السنن الإلهية واختيارات الناس حسب تلك السنن [215].. وذلك بتتبّع ما ورد ذكره في السّورة نفسها، من إشارات أو قرائن أو أدلة على طبائع وخصائص **الطّور المعين** من المرحلة المعيّنة.. أو من خارج السّورة كالروايات الثابتة لأسباب النزول.. وغيرها.. لمعرفة كل سورة من القرآن بأي طور متعلِّقة؛ من أطوار سير رسول الله بالقرآن.
2- **تحديد** "مناط السّورة"، أي بيان ما ورد ذكره في السّورة من أشخاص أو مواقف أو أحداث أو شُبهات أو تلبيس على الحق (مَثَل).. مما كان يواجهه المؤمنون في ذلك الطّور من سيرهم بالرسالة، وقد جاءت السّورة لمعالجته [216]..

---

215 - فما الأحداث المجتمعية في مجتمع معيَّن إلا نتيجةً لسنن الله في الإنسان والمجتمع، ولاختيارات الناس حسب تلك السنن، فالأحداث في حقيقتها أنها: "السنن الإلهية مطبّقة على واقع إنساني معين في زمانه => ومكانه وأشخاصه".

216 - قلنا إن المناط هو: ما أناط، أي علّق، الشارع الحكم عليه، أي الشيء أو الأمر الذي ينطبق عليه الحكم الشرعيّ. فمناط "الحكم الشرعيّ" أو "المعالجة الشرعيّة" هو الواقع الذي جيء بالحكم له، فالحكم => (المعالجة) متعلق به. ومنه "مناط السورة".

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان ٣٣].

3- بيان المعالجات **التفصيلية** [217] لـ "مناط السّورة"، التي وردت في السّورة، وذلك من خلال النظر إلى **السورة** على أنّ لها **سياقاً واحداً** [218] تُفهم في إطاره **معاني** الألفاظ والكلمات [219] **ودلالة** الجُمَل والتراكيب والآيات.. الواردة فيها.

هذا، وبـ "الفهم المنهاجي" للسورة من القرآن الكريم، يكون **فهم** السورة **أقرب** إلى مراد الله **تعالى**.. كما سنبيّنه.. ولتسهيل تحقيق هذا الأمر، هنالك **قواعد عامة** أو **خطوط عريضة** ينبغي مراعاتها أثناء النظر في السورة بقصد "الفهم المنهاجيّ" لها.

وسنذكر هذه **القواعد العامة..** في المبحث الآتي ولكن بشكل مختصر.. وتفصيلها سيكون في الجزء الثاني: "تبيان سور القرآن".. حيث سنرى هذه "القواعد العامة" و "الخطوات العملية الثلاث" السابقة، مُراعاة ومطبّقة عملياً أثناء دراسة سُوَر القرآن الكريم دراسة "منهاجية"، أي كمنهاج عملي للسير بالرسالة.. فالمقام في هذا الجزء، هو ذكر الضوابط والخطوط العامة لفهم منهاج النبوّة.

---

217 - قلنا إن "المعالجات الشرعية" هي: الأعمال (قول أو فعل) المطلوب شرعاً القيام بها، لمعالجة حدث حاصل فعلاً (المناط)، وتؤخذ من الدليل الشرعي؛ بفهمه حسب الأصول المعتبرة لغة وشرعاً، سواء في الإيمان أم العمل الصالح أم الدعوة. فهي أعم من "الحكم الشرعي" المتعلق بأفعال العباد، ومتضمنة له، فهي تتعلق بالفكر أيضاً؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو، أم بالحكم على وجوده من عدمه، أم بالحكم على=> الفكر أنه حق أو لا، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعي. أما "المعالجات السننيّة": فهي الأعمال (قول أو فعل) التي في أصلها مباحة، والمناسبة عقلاً وواقعا لمعالجة حدث حاصل فعلاً (المناط)، والتي ينبغي القيام بها، بناء على فَهْم طبيعة ذلك "المناط" فهماً شاملاً من منظور السنن الربانية في الآفاق والأنفس، وفي الأمم والمجتمعات، والرسل والرسالات؛ من حيث سبب حدوثه والحكمة من حدوثه، الدروس والعِبَر.

218 - الأصل في معنى السياق هو: الغرض الذي سِيق لأجله الكلام. وفي الاصطلاح هو: الغرض الذي => ينتظم به جميع ما يرتبط بالنص من القرائن اللفظية والحالية (المقامية). **[أنظر (علم السياق القرآني) د محمد الربيعة].** وقد يُعبّر عنه بـ "مقصد السورة".

219 - ومن المراجع المهمة في فهم معاني الكلمات: =>

- المباحث التي تبيّن "الدلالة المحورية" للكلمة، وأبرزها (معجم المقاييس) لإبن فارس. وكتاب: (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمد حسن حسن جبل.
- المباحث التي تبيّن معاني مفردات القرآن، ومن أهمها مفردات الراغب، ومفردات الفراهي وأبحاثه الأخرى في هذا السياق.
- المباحث التي في إطار "الدراسة المصطلحية" لكلمات القرآن الكريم، فالمصطلح القرآني هو: "اللفظ الذي أكسبه استعماله في القرآن الكريم دلالة خاصة زائدة على الدلالة التي له في اللسان العربي، فصار بذلك له مفهوم خاص ضمن الرؤية القرآنية الشاملة".

أهم القواعد العامة أو الخطوط العريضة

وفي ما يلي **عرض مختصر** لأهم القواعد العامة أو الخطوط العريضة التي ينبغي مراعاتها عند **"الفهم المنهاجيّ"** للسورة : أي عند النظر إلى السورة كـ "وحدة منهاجية" واحدة، مترابطة متماسكة، وتشكّل خطوةً او جزءاً من "منهاج السير" بالرسالة لتحقيق الغاية منها، وفي مجموع السوَر ثـَمّ "المنهاج" كاملاً:

1. عند النظر في السورة من القرآن، لا بد من التفريق بوضوح بين مفاهيم عدة مصطلحات متعلقة بالسورة الواحدة:

✓ "**محتوى** السورة": هو كل ما ورد فيها من أفكار وأحكام، ووسائل عرض وأساليب بيان وتأثير.

✓ "**مناط** السّورة": وهو الحدث أو الموقف الذي ورد ذكره في السّورة، مما كان يواجهه المؤمنون حَمَلَة الرسالة ـ جماعة (قبل التمكين) أو أمّـة (بعد التمكين) ـ أثناء السير بالرسالة، من البداية حتى تحقيق الغاية، وقد جاءت السّورة كوحدة واحدة لمعالجته وبيان الموقف منه [220].

✓ "**مقصد** السورة" (سياق السورة): هو **بيان معالجات "مناط** السورة". فهو **الغرض الأصل** الذي من أجله ورد (سِيْقَ) كل ما في "**محتوى** السورة" من أفكار ووسائل بيان، فينتظمها على صعيد واحد، وتنسجم فيما بينها وتتسق حتى تلتقي في ذلك **الغرض** كإطار جامع لها تُفهم ضمنه. وبتعبير آخر؛ إن "**مقصد** السورة" **هو الغرض الأصل** الذي من أجله ورد هذا الجزء المعين من الموضوع المعين، وبهذا الأسلوب المعين، في هذه السورة.

بهذا، يكون "**مقصد** السورة" بمثابة "ضابط عام" تُفهم على أساسه دلالة الألفاظ والجمل والآيات في السورة.. فيُنظر إلى "**محتوى** السورة" من خلال "**مقصد** السورة"، ليكون هو الإطار الأصل لفهم "**محتوى** السورة" وتوجيه معاني آياتها، لفهم السورة كلها فهماً أقرب إلى مراد الله، لأنه **فهم** لما ورد في السورة ـ موضوعاً وأسلوباً ـ في إطار **المقصد** الذي من أجله جاء ليشكّل سورة معينة.. فيُفهم **المحتوى في** إطار **المقصد** الذي **جُعِل** (سِيْقَ) من أجل **تحقيقه** [221].

---

220 ـ مثال: سورة العلق جاءت ـ في مرحلتها وطورها ـ لمعالجة الموقف من الطاغية الذي ينهى المؤمنين=> حَمَلة الرسالة، عن طاعة الله عزّ وجلّ، ويمنعهم من ممارستها، ويريد الطاعة لنفسة واتباع تشريعاته الباطلة.

221 ـ من سنن الله تعالى الظاهرة في الموجودات كلها، ومن تقديره تعالى للأمور: أن الأصل في وجود => الشيء هو لتحقيق غاية أو لمُهمّة سيؤديها، وأن تلك الغاية المرادة هي التي تحكم تصميمه وتركيبه من حيث شكله ومضمونه أو مكوناته، حتى يُمْكن لذلك الشيء أن يؤدي تلك المَهمّة وتتحقق الغاية منه، وإلا أصبح وجوده عَبَـثاً. ويدل على ذلك قوله تعالى: (قَالَ: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {50}) **طه**. (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1}الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2}وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}) **الأعلى**، {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ{3}) **التغابن**.. ومن هنا، فإذا أردنا فهم محتوى (مكوّنات) شيء ما، يعني لماذا هذه المكونات دون غيرها ؟ فلا بد أن يكون ذلك الفهم في إطار الغاية أو الوظيفة التي جُعِل ذلك الشيء من أجل تحقيقها (مقصد وجوده)، فهي الأمر الجامع لكل تلك المكونات المختلفة معاً. فأن "الأصل في وجود الشيء لحكمة وليُؤدي وظيفة، ولا بد أن يكون تركيبه وتصميه مناسباً لأداء تلك الوظيفة"؛

وعندما نجعل "**مقصد** السورة" "ضابطا عاما" تُفهم على أساسه دلالة الألفاظ والجُمل والآيات في "**محتوى** السورة".. فالنتيجة هي فهْم السورة كلها فهْماً أقرب إلى مراد الله.. لأنه كـ "ضابط عام"، سيُبعِد الاحتمالات والظنون غير المرادة، عند فهم "**محتوى** السورة"، ويقطع الطريق على المقاصد المُغرِضة التي لم يُردْها الشارع الحكيم ولم يرُمْها. ويمنع من الوقوع في التكلّف في توجيه معاني آيات السورة وبيانها، أو من التعرض أو الدخول في تفصيلٍ أو استطراد لأي فكرة أو موضوع أو اسلوب بيان.. لا يؤدي إلى تحقيق "**مقصد** السورة" في الواقع العَمليّ، أي تحقيق العبودية لله **سبحانه وتعالى** [222]..

✓ "**الوحدة الموضوعية**" في السّورة: وهي اعتبار أن كل ما ورد في السّورة يتمحور حول موضوع واحد أو فكرة واحدة.

وهذا الأمر - في واقعه - بحث في "**محتوى** السّورة" من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب، فهو جزء منه، وهو شكل من أشكال بلاغة الأسلوب القرآني الذي كان به التحدي.. فهو من الوسائل الموصلة إلى تحقيق "**مقصد** السورة"، أي معالجة مناطها.. والذي يؤدي بدوره - في النهاية - إلى تحقيق الغاية من الرسالة كلها..

فلا تصلح "وحدة الموضوع" أن تكون هي "**مقصد** السّورة".. فليس المقصود (الغرض) الأصل من "التسوير" جعل السّورة تدور على فكرة واحدة أو موضوع واحد.. فذلك لا يُفسّر تناول عدة سور لموضوع رئيس واحد - يوم القيامة، مثلاً - وبأسلوب متميّز عن الأخرى.

وأيضاً، ليس من طريقة القرآن الكريم في عرض مواضيع الدّين (العبادة) المتنوعة، أن يعرضها في فصول وأبواب حسب الموضوع، كما في الأسلوب البشري في التأليف، ككتب الفقه والعقيدة مثلاً.. فـ "الوحدة الموضوعية" - في حال وجودها في السّورة - إنما هي من الوسائل والأساليب

هذه حقيقة، وهي من مقتضيات وجود العلم والحكمة ومن مقتضيات كمالهما. وهذا واضح وبديهيّ وعام في كل الموجودات في الكون والحياة، والأمور والأشياء والأدوات والوسائل والأساليب، المادية منها والفكرية.. بلا استثناء. (مثل أن تُصنع المركبات بأشكال وأحجام وتصاميم متنوعة ومن مواد مختلفة.. وما ذاك إلا لتنوّع المهام والغايات.. لتغطي احتياجات الإنسان المتنوعة والمتعددة، سواء ما كان منها في البر أم البحر أم الجو.. فالحاجة أُم الاختراع). والحقيقة السننية السابقة - بكونها من مقتضيات وجود العلم والحكمة ومن مقتضيات كمالهما - تنطبق أيضاً على القرآن الكريم، آياته وسوره، وهو مما يشمله وصف القرآن بأنه "حكيم" (يس{1} وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ{2}).. فما أنزل الله عزّ وجلّ هذا القرآن الحكيم إلا لتحقيق الغاية منه، وما جعله الله تعالى هكذا؛ كاملاً في خصائصه وتكوينه وتركيبه، من حيث المحتوى أو من حيث الأسلوب؛ من حيث الأفكار والأحكام والحقائق الشرعيّة والسننيّة، أو من حيث الصياغة ووسائل البيان والتعبير.. فكلّ ذلك، إنما كان من أجل تحقيق الغاية من القرآن: أن يتمثّل في أمّـة مسلمة - تخلف رسول الله - تحمله للناس كافة، لهدايتهم لطريق الحق ولإخراجهم من الظلمات إلى النور.. نور العبودية الشاملة الكاملة لله عزّ وجلّ.

222 - بمعنى: أنه ليس هناك تلاوة للقرآن أو بحثاً فيه أو تدبراً لآياته هكذا بشكل عام مفتوح.. أو لمجرد العلم أو الاستمتاع أو لإشباع الفضول لمعرفة ما هو جديد.. بل لا بد أن يكون تدبّـراً بقصد: تدبراً يؤدي إلى => زيادة في الإيمان وفي العمل على تحقيق معانيه وأحكامه في الواقع (الغاية من الرسالة)، وحسب "منهاج النبوة"، أي زيادة في الترقّي في درجات رضوان الله تبارك وتعالى، والابتعاد عن غضبه وعذابه.. فليس هنالك تلقياً لآيات الله إلا من أجل التنفيذ (تحقيق الغاية من الرسالة). وعلى هذا المستوى الراقي من الجديّة كان تلقي الجيل الأول؛ جيل القدوة من الأمة المسلمة، لكلام الله وآياته.

الموصلة للغرض الأصل؛ "**مقصد** السّورة"، وهو: أن كل ما جاء في "محتوى السّورة" - **موضوعاً وأسلوباً** - إنما هو معالجات للموقف أو الحدث الذي ورد ذكره فيها (**مناط** السّورة) مما واجهه حَمَلَة الرسالة أثناء سيرهم بها لتحقيق الغاية منها.. وهذا الأمر هو الذي يَجْمع السّورة كلّها على صعيد واحد، ويجعلها تدور على محور واحد.

وعليه، فليس المقصود **بالأصالة** من "التسوير"، أي من جمع آيات محددة في سورة معينة.. أن يكون لتلك السورة "**وحدة موضوعية**".. بل الأصل في ذلك أن يكون في إطار تحقيق الغاية من الرسالة، بأن تُشكِّل السورة "وحدة منهاجية" وجزءاً من "**المنهاج**"، وفي مجموع السور ثمَّ "المنهاج" كاملاً.. "منهاج السير" بالرسالة لجعلها حقيقة حية في الواقع الإنساني، أي تحقيق العبودية الخالصة لله في الأرض، عن طريق إيجاد الأمّة المسلمة القادرة على تحمّل مسؤولية الرسالة الخاتمة والقيام بأعبائها، تطبيقاً ودعوة.. وهذا هو "**الفهم المنهاجي**" للسورة من القرآن.

2. إن **اختلاف** "**مناط** السورة" أي الحالة أو الموقف الذي تعالجه السورة، هو العامل **الرئيس** المؤثّر في **التنوّع** بين السور. ذلك أن اختلاف "المناط" يقتضي اختلاف "**مقصد** السورة"، مما يعني اختلاف "**محتوى** السورة" موضوعاً وأسلوباً، بحكم أنه جاء كمعالجات - شرعاً و قدراً - لـ "مناط السورة".. فلكل "مناط" معالجاته؛ الشرعيّة والسننيّة التي تخصّه والمُناطَة به. وهناك عامل آخر مؤثّر في التنوّع بين السور؛ وهو "تصريف الآيات"، أي، كثرة التنويع والتقليب في إيراد الدلائل والبراهين العقلية والفطرية على الحق الواحد البيّن، لعل المخاطَب يتأثر ويهتدي.. [223].

فاختلاف "**محتوى** السّورة" من الأفكار والأحكام الشرعيّة والسننيّة، وأساليب البيان والتأثير الواردة من سورة لأخرى.. يكون **بسبب** اختلاف الحالة أو الموقف (**مناط** السّورة) الذي جاءت لمعالجته أو **بسبب** تصريف الآيات أي التنوع في المعالجات لنفس المناط.. الأمر الذي يجعل - وبالأسلوب القرآني البديع الفريد - لكل سورة ذلك الطابع الخاص بها، و "شخصيتها" المتفرّدة، فيما تتناوله من مواضيع العبادة (الدّين) ووسائل البيان والتأثير، والتي قد يكون منها أن تكون السّورة ذات "وحدة موضوعية".

---

223 - بمعنى أن القيمة أو المضمون أو المعنى.. يبقى هو هو، إلا أن الشكل أو المظهر هو الذي يكون فيه التغيير والتبديل لقصدٍ وحكمةٍ: {.. انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) [الأنعام/65]، أي: (انظر- => أيها الرسول - كيف نُنوِّع حججنا الواضحات لهؤلاء المشركين لعلهم يفهمون فيعتبروا؟). **[التفسير الميسر]**. (والتَّصْرِيفُ كالصّرف إلّا في التّكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة، ومن أمر إلى أمر. وتَصْرِيفُ الرّياح هو صرفها من حال إلى حال. قال تعالى: (وَصَرَّفْنَا الْآياتِ) [الأحقاف/27]. (وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) [طه / 113]). **[المفردات - الراغب]**. (صَرَف؛ الصاد والراء والفاء، معظم بابِهِ يدلُّ على رَجْع الشيء. من ذلك صَرفْتُ القومَ صَرْفاً وانصرفوا، إذا رَجَعْتَهم فرَجَعوا... ومعنى الصَّرف عندنا أنَّه شيءٌ صُرِف إلى شيء، كأنَّ الدِّينارَ صُرِف إلى الدراهم، أي رُجِع إليها، إذا أخذتَ بدلَه.. قال أبو عُبيدٍ: صَرْفُ الكلام: تزيينهُ والزِّيادةُ فيه، وإنَّما سُمِّيَ بذلك لأنَّه إذا زُيِّن صَرَف الأسماعَ إلى استماعه). **[المقاييس - ابن=> فارس]**. وهذا يعني أنه من الممكن أن أكثر من سورة تعالج نفس المناط لكن بتنوّع في وسائل وأساليب التأثير والإقناع وإقامة الحُجَّة، مثل موقف "الجحود" بالحق؛ أي التكذيب بالحق اتباعاً للهوى، رغم العلم أنه الحق.

[انظر الجزء الثاني "تبيان سور القرآن"].

3. اختلاف "**مناط** السورة" من سورة لأخرى - وبالتالي اختلاف موضوعها و "شخصيتها" - يعتمد على عوامل عديدة أثناء السير بالرسالة على طول الطريق حتى تحقيق الغاية، منها:

- ✓ **مرحلة** السير، إن كان في ما قبل التمكين (في مكة) أو بعد التمكين (في المدينة)..
- ✓ **الفريق** المستهدف بالمعالجات، المؤمنين أو الكافرين..
- ✓ **الجهة** من المؤمنين **المكلّفة** بالقيام بالمعالجات؛ أي إن كان بوصفهم أفراداً أو جماعة أو أمّـة.. فلكل **مُكلَّف** معالجات وأحكام **مُنَاط** به تنفيذها ومُكلَّف بها، ولا يجزئ مُكلَّف عن آخر القيام فيما أناط الله **تعالى** به من أحكام ومعالجات شرعية إلا بدليل شرعيّ [224].
- ✓ **الطَّور** من المرحلة المعينة من السير الذي وصل إليه كِلَا الفريقين؛ المؤمنين والكافرين في "عملية البناء والهدم"، أي بناء المسلمين بمواصفات معينة - بالتعليم والتزكية - حتى يكونوا أمة قادرة على إكمال عبوديتها لله. وهدم وإزالة ما كان يضعه الكافرون من عقبات فكريّة ونفسية وماديّة (المكر و الكيد) التي تَحُول دون إتمام عملية بناء الأمّـة بالشكل المطلوب، وتحقيق الغاية من الرسالة.

4. ومما قد **يرد** في **السورة الواحدة** من أفكار ومواضيع أو من وسائل العرض وأساليب التعبير.. ويكون ذا أثر مباشر في معرفة **الطور** وتحديد **المناط** أو فهم **المعالجة**، وعلى طول خط السير، سواء في ما **قبل** التمكين (في مكة)، أم **بعد** التمكين (في المدينة).. ما يلي:

✓ القصة، أو الحلقة المعروضة منها، من حيث صياغتها والفكرة التي أبرزتها لمعرفة مقصدها والحكمة منها، أو الأمر البارز فيها، فقد يكون هو المناط أو ما يُرشد إليه أو إلى معالجته.. فالقصة أو الحلقة منها، لم يرد ذكرها إلا لأن حالةً أو موقفاً أو شخصاً، مما ذُكر فيها، له شبيه أو مثْل في الواقع الإنساني زمن الرّسول محمّد ﷺ، أي حين نزول الآيات التي ذُكرت فيها تلك القصة أو الحلقة منها.. لذلك لا تجد تكراراً للقصص في السوَر المختلفة، بل إن كل سورة تناولت القصص **بالشكل** و **بالمحتوى** الذي يحقق معالجة الحالة أو الموقف (المناط) الذي هي بصدد معالجته حال حدوثه في طوره ومرحلته من السير.

✓ أسماء الله **تعالى** الحسنى، وآثارها في الآفاق والأنفس.. وأيُّها البارز ذكرها.. أو التي تكرّر ذكرها.. فما ذُكر منها في السورة إنما جاء ليحقق معالجة مناطها.. (وإذا تأمّلت ختْمَ الآيات بأسماء الله **جلّ وعلا**، وجدت كلامه مُختَـتماً بذكر الاسم الذي يقتضيه ذلك المقام، حتى كأنه ذُكر دليلاً عليه وموجباً له) **[انظر (شفاء العليل) - ابن القيم]**، من حيث أن الله **جلّ وعلا** هو وحده **الإلـه** الحق، **صاحب الأمر** النافذ في الكون والحياة والإنسان؛ **قدراً** و **شرعاً**:

---

224 - فمثلاً، المؤمنون حَمَلة الرسالة قبل التمكين، أي بوصفهم أفراداً أو فئة يعيشون في مجتمع جاهليّ؛ (باعتبار أن كلمة الله ليست هي العليا فيه، وبغض النظر عن إيمان عامة الناس)، فإن دائرة الأحكام <= المُناطَة بهم، هي كل أحكام الإسلام ما عدا تلك التي تدخل في دائرة الأحكام المتعلّقة بـ "الأمة المسلمة" بوصفها الشرعيّ، أي بعد التمكين (كلمة الله هي العليا فيها)، ومنها الأحكام المُنَاطة بـ "الإمارة العامة" (الخليفة أو الحاكم). وهذه المسألة تدخل في إطار مبحث: ضوابط "تعليق العمل بالحكم الشرعيّ" أو "وقف العمل بالحكم الشرعيّ" من أصول الفقه، ومن أهم ضوابطها: لزوم تحقق شروط الحكم الشرعي (أحكام الوضع)، سواء منها ما هو متعلّق بالزمان (الوقت) أو بالمكان أو بوجود عين المكلّف - فرداً أو جماعة أو أمة - أو باستطاعته، أو بحاله أو صفته.. الخ. والتفصيل لاحقاً في "الباب الرابع".

قدراً؛ في سياق الخلق والتقدير، أو الرحمة والعذاب، أو القوة والسلطان والتدبير والقوامة.. وبيان **سنن الله تعالى** في ذلك كله..

وشرعاً؛ في سياق بيان الأفكار والأحكام والمعالجات الشرعيّة التي تَعبّد الله **جلّ وعلا** بها المسلمين - أفراداً وأمة ومجتمعاً - في تنظيم جميع شؤون حياتهم وعلاقاتهم بأنفسهم (الداخليّة) وبغيرهم (الخارجيّة).

✓ نوع الجزاء - الثواب أو العقاب - وطبيعته ووصفه.. ومواضع التفصيل فيه أو الإجمال والإشارة.. سواء في الدنيا أم في الآخرة.. حيث يأتي منسجماً ومتناسباً - في حكم الله **تعالى** - مع الحدث أو الموقف الحاصل فعلاً (المناط) المراد معالجته.. فالجزاء من جنس العمل.. لذلك نجد التنوع البديع الفريد، في السور المختلفة في عرض أهوال يوم القيامة، و مواقف الحساب، ومشاهد النعيم والعذاب في الجنة والنار.. تبعاً لاختلاف الحالة أو الموقف من الواقع الإنساني (المناط) المراد معالجته أو تصريفاً للآيات.. وكذلك الأمر بالنسبة للجزاء في الدنيا، في ما ذكره الله **تعالى** في عقابه أو ثوابه للأمم السابقة؛ من آمن منهم ومن كفر، أفراداً أو جماعات، قرى (مجتمعات) أو أمماً.

✓ الأوصاف أو الصفات التي تُطلق على المخاطَبين، سواء كانوا من المؤمنين وحسب ترقيهم في مقامات العبودية وحتى إكمالهم الدّين لله **جلّ وعلا**.. أم من الكافرين وحسب تطوّر شدة عدائهم لله ولرسوله والمؤمنين، وبأشكالهم المختلفة من مشركين ومنافقين وأهل كتاب؛ يهوداً ونصارى.. وكذلك أسلوب الخطاب ودرجته وشدته.. حيث يمكن اعتبار أن كل صفة وردت أو وصف ذُكِر، إنما هو تحديد لمقام أو تعيين لمرتبة بَيّنة، لها صفاتها وخصائصها التي تميزها عن غيرها في **"العرف القرآنيّ"** [225]، مثل وصف المؤمنين: بالمتقين، المحسنين، المخبتين، حزب الله.. ومثل وصف الكافرين: بالمجرمين، الظالمين، الفاسقين، المفسدين، حزب الشيطان.. وكذلك الأمر في وصف العلاقة بين الفريقين وتطوّرها، مثل: خصمان، المشاقّة، المحادّة، العداوة، القتال، البغضاء، المودّة، الموالاة، البراءة، الإعراض، النأي، التولّي.. الخ..
فكل وصف (صفة) هو "مناط" له معالجات شرعية وسننية متعلقة به، يجب بيانها وتنفيذها.. ومواقف يجب أن تُتّخَذ من صاحب ذلك الصفة أو الوصف وفي العلاقة معه..

✓ الألفاظ التي تكررت في السورة، أو الألفاظ التي تفرّدت بها، كإشارة لأمر أو فكرة معينة قد تكون هي المناط أو تُرشد إليه أو إلى معالجته..

✓ مواضع الاستفاضة أو الإجمال، التركيز أو الإشارة إلى الأفكار والمواضيع..

✓ الآيات الأولى من السورة، في بعض من السور، تأتي كمدخل عام لها أو كخط عريض.. والآيات الأخيرة كخاتمة لها أو تلخيص، أو كموقف - فكر أو عمل - مطلوب الآن، يُراد بيانه لتنفيذه..

---

225 - "العُرف القرآني": هو نتيجة للدقة العالية في استعمال القرآن للكلمات، حيث يقصرها على معنى محدد ويوظفها في سياقات معينة، مثل التفريق بين كلمة نزّل وأنزل، تلى وقرأ، امرأته و زوجه.. ويأتي في مقابل "العُرف اللغوي" أو اللسان. وهو أوسع من مفهوم "المصطلح القرآني" حيث يصبح للكلمة معنى شرعياً خاصاً بها، مثل كلمة الصلاة والزكاة والجهاد. **[انظر مقدمة كتاب "الإيمان بالقدر" فيه تفصيل لهذه المسألة].**

✓ الثابت والصحيح من روايات أسباب النزول؛ للسورة أو لبعض آياتها.. أو ما ثبت من روايات في إطار تطبيق ما ورد في السورة من معالجات على الحدث (المناط) الحاصل فعلاً..

✓ القَسَم، وجواب القسَم كأسلوب تأكيد وبيان.. فقد يكون موضوعه هو المناط أو يُرشد إليه أو إلى معالجته..

5. من أبرز مظاهر خصوصية كل سورة واختلاف "شخصيتها"، هو الاختلاف فيما بينها في درجة التركيز على أيٍ من مواضيع العبادة، وفي التنويع في ذكرها ووسائل عرضها، وفي بيان المصير (البشارة والنذارة)، وبشكل متنوّع عجيب فريد.. وما ذلك إلا بسب اختلاف الحالات أو المواقف (مناط السورة) التي تواجهها السورة وتعالجها، والحاصلة أثناء السير الفعلي لتحقيق الغاية من الرسالة.. أو بسبب التنويع في معالجة نفس "المناط".. مما يجعل لكل سورة "طابعها الخاص" في ما تتناوله من مواضيع العبادة (الدّين) وبيان المصير.. الأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة متماسكة، وتشكّل جزءاً من "المنهاج" لتحقيق الغاية من الرسالة؛ إكمال الدّين لله.. وفي مجموع السور ثَـمّ "المنهاج" كاملاً.

لهذا، أن يكون للسورة "**وحدة موضوع**"، ليس هو المقصود - أصالة - من "التسوير"، بل لا يصلح أن يكون هو "**مقصد** السورة" أو "**سياق** السورة".. وحتى السور التي يظهر فيها أنها ذات موضوع واحد [226] فهي لا تخرج عن ما سبق تقريره.. (انظر النقطة 1)

ولهذا، لا يَرِد في "محتوى السورة"، لا موضوعاً ولا أسلوباً، إلا ما يلزم لمعالجة "مناط السورة"، أي ما يُحقق مقصدها. وعلى أساس هذا المقصد يكون فهم ما جاء في السورة من مواضيع ومعالجات (**محتوى** السورة).. وبهذا ومن خلاله تُشاهَد السورة وحدة واحدة على الحقيقة، وبدون تَـكـلُّــف.. وبه أيضاً تكون متميزة عن غيرها من السُوَر.

6. رغم خصوصية كل سورة واختلاف "شخصيتها".. إلا أن جميع السور منضبطة **بمنهج واحد** وعلى **أساس فكري وروحي واحد** في بيان المعالجات، الشرعية أو السننية، ألا وهو حقيقة أنه لا إله إلا الله بوصفها "فكرة الرسالة"، وركنها الركين.. بمجاليها الإثنين: قدراً (الخواص والسنن) وشرعاً (الشريعة).. فجاءت لا إله إلا الله هي **الأساس** لكل أمور **الدّين** أو **العبادة**، وهي زاوية النظر **الوحيدة** إليها في التلقي والتعلّم والفهم، والتطبيق والسير خطاباً وأعمالاً.. وقد عُرِضَت في القرآن الكريم من خلال بيان آثارها الواسعة والشاملة لكل ما في الكون والحياة، وكذلك الإنسان؛ واقعاً وتاريخاً وسنن وخواصاً.. **[انظر كتاب "منهج التزكية والتعليم" مرجع سابق].**

7. العلم بأن **المعالجات** للواقع الإنساني (المناط) الواردة في السورة لمعالجة مناطها، تأتي **على نوعين: معالجات سُننيّة** و**معالجات شرعيّة..** وذلك تأسيساً على الحقيقة اليقينية أنه لا إله إلا الله..

وكل من "الخواص" و"السنن"، **تمثل مشيئة الله تعالى** الدائمة في الخلق، فلا تتغيّر ولا تتبدل. وبألفاظ أخرى، هي: **أمر** الله أو **قضاؤه** أو **حُكْمه** أو **جَعْله** القَدَريّ (القدر):

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) ﴾ [الفرقان: 2]

226 - مثل السور التي تناولت "اليوم الآخر".

فلا يَـرِدُ في السورة الواحدة من أفكار ومواضيع وأساليب بيان.. إلا ما **يلزم - شرعاً** و **قدراً - لمعالجة** الحالة أو الموقف (مناط السورة) مما كانت تواجهه الجماعة المسلمة أو الأمة المسلمة أثناء **السير** لإكمال الدّين لله.. **فمعالجة** المناط **هي مقصد** السورة، الأمر الذي يجعل منها وحدة واحدة متماسكة تشكّل جزءاً من "المنهاج" الكامل.

8. ما ورد في السورة الواحدة من **معالجات** - سُننيّة أو شرعيّة - تكون دائما متعلقة **بالفريقين الإثنين** وبتطوّر **العلاقة** بينهما، وقد يُذكران صراحة أو إشارة، كلاهما أو واحد منها:

- ✓ فريق **المؤمنين** بالله واليوم الآخر.. جماعة أو أمّة.. **القائمون** على الرسالة - تطبيقاً ودعوة - من حيث؛ التزكية والتعليم والإعداد الفكري والتنظيمي والمادي.. والعلم بالعقبات؛ ماديّةً كانت أو شبهات أو شهوات.. وكيفية مواجهتها، والقدرة على إزالتها.. أثناء السير لإكمال الدّين لله **تبارك وتعالى**، وتحقيق الغاية من الرسالة.
- ✓ فريق **الكافرين** بالله، من حيث الحرص على هدايتهم إلى الحق، وإن أَبَوا، يكون العمل على إبطال كيدهم وكشف مكرهم.. بجميع أنواعهم ودرجاتهم المختلفة، مشركين، منافقين، أهل كتاب.. سواء كانوا هم الملأ ولهم السلطان (قبل التمكين).. أم كانوا جماعات تخضع لسلطان المسلمين (بعد التمكين)، أم كانوا دولاً وأمماً لا تخضع لسلطان المسلمين.. والذين يبغونها عوجاً عن سبيل الله المستقيم ويريدون أن يُطفِئوا نور الله **جلّ وعلا**، ويشكّلون **عقبة** أمام أن يكون دين الله ظاهراً، ويَحُولون دون إكمال الدّين لله **جلّ وعلا**.
- ✓ وهكذا، فإنه تبعاً لاختلاف الفريق المَعْني، المؤمنين أو الكافرين، تختلف المعالجات - السننيّة والشرعيّة - ويختلف التنوّع في الموضوع ووسائل العرض والبيان (محتوى السورة) من سورة إلى أخرى.. وكل ما جاء في "محتوى السورة".. إنما جاء ليحقق المعالجة لمناطها الحاصل أثناء سير المؤمنين لإكمال الدّين لله.. فمعالجة "مناط السورة" هي "مقصد السورة"، الأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة متماسكة، تشكّل جزءاً من "المنهاج".. وفي مجموع السور ثمّ "المنهاج" كاملاً.

8. العلم بأن تلك المعالجات - قدراً وشرعاً - كما كانت متعلقة بـ بفريقين اثنين، فإنها تأتي على مرحلتين رئيستين وهما: المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل التمكين للمؤمنين في الأرض، حيث يكون المؤمنون مكلفين بالرسالة بوصفهم أفراداً أو جماعة. المرحلة الثانية: مرحلة "التمكين" للمؤمنين في الأرض، حيث يكون المؤمنون مكلفين بالرسالة بوصفهم أمّة من دون الناس..

وتبعاً لاختلاف المرحلة، "قبل التمكين" أو "بعد التمكين"، واختلاف المكلف بالرسالة، فرداً أو جماعة أو أمّة.. تختلف المعالجات، قدراً وشرعاً، ويختلف التنوّع في الموضوع ووسائل العرض.. من سورة إلى أخرى من سور القرآن الكريم.. حسب تعلُّقها بأي مرحلة وبأي طور.. فلا يجيء في السورة إلا ما يحقق المعالجة للمناط (مناط السورة) الذي ورد ذكره فيها، وهو موقف أو حدث حصل - في مرحلته وطور - أثناء سير المؤمنين لإكمال الدّين لله **تعالى**..

فمعالجة "المناط" هي "مقصد السورة"، الأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة متماسكة تشكّل جزءاً من "المنهاج" الكامل. وهذا هو "الفهم المنهاجيّ" للسورة.

9. ويمكن النظر إلى تلك المعالجات - قدراً وشرعاً - الواردة في السورة، على أساس أنها جاءت كمعالجات إمّا للشأن الداخلي أو للشأن الخارجي أو لكليهما معاً، سواء بالنسبة للجماعة المسلمة أم للأمّة المسلمة، وبحسب المرحلة و الطور من السير حسب "المنهاج"، للوصول إلى الغاية المرادة، إكمال الدّين لله تعالى .

أمّا بالنسبة للمعالجات المتعلّقة بتنظيم الشأن الداخلي، أي العلاقات الداخلية، للجماعة المسلمة أو الأمّة المسلمة.. فخطها العام: أنها تأتي في إطار بناء الكيان المسلم وإكسابه القوة - فكرياً وروحياً ومادياً - بالشكل الذي يؤدي إلى تحقيق الغاية من الرسالة، سواء كيان الفرد أم كيان الجماعة أم كيان الأمة. وذلك من خلال الأعمال الأساسية التالية - كخطوط متوازية - أثناء السير بالرسالة: التزكية، والتعليم للكتاب والحكمة، والإعداد الروحي، والتنظيمي (الإداري).. وإزالة جميع العقبات الفكرية والنفسية والمادية، أي الشبهات والشهوات والكيانات غير المسلمة..

10. وأخيراً؛ فإن منهج التعامل مع ما ورد في السورة الواحدة من **مواضيع الدّين** (العبادة) - من إيمان وعمل صالح ودعوة وبيان للمصير - يكون على أساس أنها **معالجات** لما جاء في السورة من مواقف وحالات (مناط السورة) أثناء حركة وسير المؤمنين؛ جماعة وأمّة، قبل التمكين وبعده.. لإكمال الدّين لله **جلّ وعلا**. وهذا هو "**الفهم المنهاجي**" لسور القرآن الكريم.. ويترتَّب عليه ذلك الآتي:

- تكون السورة عبارة عن "**وحدة منهاجية**" واحدة، وتشكّل **جزءاً** من "المنهاج" **الكامل** لتلقي القرآن والسير به. وبمجموع السور يكتمل منهاج السير لبلوغ الغاية من القرآن..
- إن أي بحث لأي فكرة أو لفظة، وفي سياق أي موضوع: لغوي، فقهي، تاريخي، علم كلام، علوم قرآن.. يجب أن يكون في إطارها الأصل؛ أنها وردت في هذه السورة كمعالجة لـ "مناط السورة".. وهذا هو أصل مراد الله.. حتى لا يكون التوسع في البحث لأي غاية أخرى يؤدي إلى صرف الانتباه إلى قضايا فرعية خارجة عن أصل مراد الله الوارد في سياق السورة، وكونها وحدة منهاجية، في سياق تحقيق الغاية من الرسالة والمحافظة عليها.. فهي لبنة في البناء العام للأمة المسلمة لتؤدي وظيفتها (الغاية من إيجادها) التي كلفها الله **جل وعلا**
- ذلك، أن إكمال الدّين لله **عزّوجل** - على مستوى الأمة - هو ما أُنزل القرآن (الدّين) لأجله، وهو ما جُعل "المنهاج" طريقاً للوصول إليه، وكان "التسوير" من الأدلة على ذلك "المنهاج" وبيانه وبيان معالجاته. وما كان سير رسول الله ﷺ بالرسالة في واقعه إلا بحسب "المنهاج" نفسه، **بتلقي القرآن مرتّلاً** على مكث - بالترتيل الذي ناسب واقعه الإنساني والمجتمعي - **للعلم والعمل** به، حتى أصبح القرآن **حقيقة** في واقع الناس **والحاكم** على شؤون حياتهم.
- فلم يُنـزِّل الله **عزّوجل** القرآن (الدّين) ويبعث به الرسول، على صورة مواضيع لإعطاء المعلومات عن القضايا المختلفة للمعرفة والثقافة العامة، أو للاستمتاع بجمال الأسلوب وموسيقاه، والانبهار بعذوبة طريقة العرض وقوتها.. فهذا وغيره ليس أهدافاً أو غايات - ولا يصح جعلها هدفاً أو غاية - إنما هي وسائل وأدوات لتحقيق ما نُـزّل القرآن لأجله (الغاية من الرسالة).. هذه هي حقيقتها ويجب أن تُـقـدّر بقدرها فلا يُتلهّى بها عن الغاية الأصل.. فما أُنزل القرآن إلا ليكون الله **جلّ وعلا هو وحده** المعبود المُطاع أمره في الأرض كلها (الدين كله لله)، وحتى قيام الساعة..

ولا يتحقق ذلك إلا بإنشاء أمة تُكْمل دينها لله، فتكون كلمة الله هي العليا فيها، ودينه هو الظاهر على الدين كله، ومن أجل ذلك أرسل الله رسوله الخاتم:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة، الصف] [227]

فجاءت **آيات الرسالة** بترتيبها **المنهاجيّ** (التسوير)، تعرض **مواضيع** الدّين **عرضاً خاصاً** مؤثراً، **كمعالجات** للواقع الإنساني، **هدماً** و **بناءً**.. كـ "منهاج" ليكون السير بحسبه، لتحقيق "الغاية من الرسالة".

فالقرآن المجيد نور وفرقان.. فهو إما حُجَّة **على** المتلقي أو حُجَّة **له** [228]، وهو قولٌ فصل وما هو بالهزل، فما يُنَزّل منه يجب أن يُطبّق مباشرة على **الواقع الإنساني** لمعالجته وتغييره، فكراً وسلوكاً، فرداً ومجتمعاً.. ليصير كما أمر الله **تعالى** ورضيه أن يكون.. فالله **تبارك وتعالى** هو وحده **الإله الحق** الذي له الخلق والأمر؛ **فأمره الشرعيّ** لا بد من أن يَنْـفُـــذ في الواقع **حال** نزوله، كما هو نافذ **أمره القدريّ**؛ لأنه **لا إلـه إلا** الله:

---

227 - والمحافظة على الدين ظاهراً بعد رسول الله، هي - في الأصل - مهمة "العلماء الربّانيـين" من هذه الأمة الخاتمة، كما في الحديث الشريف: (.. العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يُوَرّثوا ديناراً ولا درهماً=> إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر). **[حسّنه بعض أهل العلم وصححه الألباني. أنظر موقع الدرر السنية].**
"وكُلَّما اشْتَدَّتْ غُربةُ الإسلامِ، كَثُرَ المخالِفون له، والنَّاقضون لفرائضِه وأوامرِه، وأعانوا عليه أعداءَه".. وهنا تبرز أهمية دور "العلماء الربّانيين" في منع وصول الأمة إلى هذه المرحلة من الغربة ونقض عُرى الإسلام، الذي في هذا الحديثِ الشريف. (يقولُ النَّبيُّ ﷺ: {لَتُنقَضَنَّ عُرى الإسلامِ عُروةً عُروةً ، فكُلما انتقضَت عُروةٌ تشبَّثَ الناسُ بالتي تليها، فأوَّلُهنَّ نقضًا الحكمُ، وآخرهنَّ الصلاةُ}. "عُرى الإسلامِ"، (العُرى) جمعُ عُروةٍ، وهي في الأصلِ: ما يُعلَّقُ به مِن طَرَفِ الدَّلْوِ ونحوِه، فعُبِّر به عن أحكامِ الإسلامِ وأركانِه.. والمعنى: أنَّ النَّاسَ لا يَترُكون الإسلامَ مرَّةً واحدةً، ولكنْ شيئًا فشيئًا، وذلك بأنْ يُهْمِلوا بعضَ أركانِه، ثُم بعضًا آخرَ، حتَّى لا يَبقَى منه شيءٌ؛ "فأَوَّلُهُنَّ نَقضًا الحُكمُ"، أي: تَرْكُ الحُكمِ بشَرعِ الله تعالى، واستبدالُ أحكامٍ وَضْعيَّةٍ مِن حُكمِ الإنسانِ [حُكم الجاهلية] بالأحكامِ الشَّرعيَّةِ الَّتي وضَعَها الله.. وآخِرُ شَيءٍ يَترُكُه النَّاسُ من الدِّينِ هي الصَّلاةُ، حتى إنْ أَتَوْا بها أَتَوْا بها على صِفةٍ لا تُقبَلُ). **[موقع الدرر السنية - باختصار].**
نقول: وعدم الاحتكام لشرع الله في علاقات المسلمين (القضاء)، وفي علاقاتهم مع غيرهم من الأمم (تبليغ الرسالة)، يعني أن كلمة الله ليست هي العليا.. مما يعني أنه لا سلطان (حكم) للمسلمين على أرضهم.. وهنا تبرز أهمية دور "العلماء الربّانيين" في إعادة الأمور إلى نصابها وجعل كلمة الله هي العليا.. بل إن دورهم الأخطر هو منع وصول الأمة إلى هذه المرحلة من الغربة ونقض عُرى الإسلام. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

228 - وحُجَّة القرآن كما هي قائمة في أفكاره وحقائقه، فهي قائمة أيضاً في أسلوب عرضها الربانيّ البديع=> الفريد. فما جعل الله تعالى القرآن هكذا في خصائصه المختلفة إلا بقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل، أي لتحقيق الغاية منه في الواقع الإنساني. ومن هنا، فالتأثير - على الحقيقة - إنما هو لآيات الله البيّنات، وما الرسول إلا مبلّغ لآيات الله كما يريد الله تعالى، بمعنى أنه المفعّل للآيات وما فيها من البيّنات في واقع الناس والمعلّم لنا لكيفية تفعيّلها لتؤدي دورها وأثرها في حياة الناس. فلا بد من السير على "منهاج النبوة" في تلقي القرآن وتبليغه وبيانه، أي السير على "منهاج النبوة" في تفعيل القوة التغييرية (الهداية) الكامنة في الرسالة، بما فيها من الآيات البيّنات، بقصد تحقيق الغاية منها، فيستحق - حينئذ - ذلك السائر أن يكون من ورثة النبيّ. "فلا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦ - ٣٧] **[انظر تفسير ابن كثير]**

وفي الجملة، فإن الدّين بمواضيعه الكبرى - الإيمان والعمل الصالح والدعوة إلى الله وبيان المصير - لم يُعرض في القرآن **مبوّباً** حسب **الموضوع**، أي لم يُبحث بحثاً **موضوعيّاً** بشكل أكاديميّ أو نظريّ كأسلوب البشر في التأليف والتنسيق، لا في القرآن كله ولا في السورة الواحدة، بل جاءت آياته **مرتّلة** حسب "التسوير"، فجاءت أفكار **ومواضيع** العبادة موزّعة على السور.. وتناولت كل سورة - وبالأسلوب القرآني الفريد - ما جاء فيها من مواضيع العبادة (الدّين)؛ من خلال تناول "فكرة الرسالة" الواحدة: لا إله إلا الله ، بمقتضياتها الكبرى: الإيمان والعمل صالح والدعوة، وضمن إطارها العام**:** البشارة والنذارة، وبمنهجها القرآني **الثابت** في الخطاب والتلقي: "منهج الخطاب"، بشكل **ميسّرٍ للذّكر**، **موجدٍ** للعلم، **مُزيلٍ** للجهالة، **فُرقان** بين الحق والباطل.. ليكون هداية لمن أراد، **مُقيماً** للحُجَّة على من أبى واستكبر..

إلا أن ذلك كان **باختلافٍ** في **تركيز** كل سورة على أيٍ من تلك المواضيع أو بعضٍ منها، **وبالتنويع** في ذكرها وفي وسائل عرضها.. بما **يحقق معالجة** الحالة أو الموقف (مناط السورة) الذي واجهته "الجماعة المسلمة" ثُم "الأمة المسلمة" أثناء **السير** قُدماً لإكمال الدّين لله - تطبيقاً في الواقع وحملاً للناس - أي **لتحقيق الغاية** من الرسالة.. الأمر الذي يجعل لكل سورة طابعها الخاص بها (شخصيتها) فيما تـناولته من مواضيع العبادة (الدّين)، ويجعل منها كذلك، وحدة واحدة تشكّل جزءاً من "المنهاج" الكامل.. وهذا هو "الفهم **المنهاجي**" للسورة [229]. والحمد لله رب العالمين

---

229 - فيما يلي من البحث مزيد من التفصيل والإيضاح لمعالم أخرى لـ "الفهم المنهاجيّ" للسورة إضافة لما بيّناه من معالم فيما سبق من النقاط. هذا، ويمكننا القول: إذا أردنا أن نفهم السورة من القرآن فهماً أقرب إلى مراد الله جلّ ثناؤه، ينبغي أن يكون "الفهم المنهاجي" للسورة هو الأصل في النظر إلى السورة الواحدة. وأيضاً، إن "الفهم المنهاجيّ" للسورة يصلح لأن يكون أصلاً وإطاراً عاماً لفهم ما يُعرف بـ "علم المناسبة"=> كما عند البقاعي، أو بـ "نظام القرآن" كما عند الفراهي، أو بـ "علم مقاصد السور". **[انظر بحث (مناسبات الآيات والسور) د أحمد حسن فرحات. وأيضاً بحث (علم مقاصد السور) و بحث (علم السياق القرآني) د محمد الربيعة].** فالفهم المنهاجيّ للسورة، نرى أنه يصلح لأن يكون أصلاً عاماً جامعا لتلك العلوم ويضعها في صعيد واحد، بل ويصهرها في بوتقة واحدة، فيُظهر ما اتفقت واجتمعت عليه، ويبرز ما امتاز كل واحد منها عن غيره. و "الفهم المنهاجي" للسورة يمكن أن يقدم أيضاً حلولاً جذرية لكثير من الإشكالات في بعض مباحث علوم القرآن، ويقدّم جواباً شافياً على كثير من التساؤلات العالقة فيها، مثل علم الناسخ والمنسوخ.
لذلك، نأمل مِن كل مَن يطّلع على هذه الدراسة أنْ لا يبخل بالتوجيه أو التسديد أو البيان.. حتى يكتمل هذا العمل ويستوي على سوقه ويؤتي ثماره الطيبة بإذن الله. هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وهو الهادي سواء السبيل.

المبحث الخامس : النظرة الشاملة أو الكُليّة لـ "المنهاج".

الرسالة - بين أيدينا، كما حفظها الله عزّوجل - جملة واحدة؛ **مرتّلة** آياتها في سوَر.. وكل سورة جاءت تعالِج **مناطاً** معيناً هو "مناط السورة".. وهو عبارة عن موقف أو حدث مما كان يواجهه رسول الله والمؤمنون أثناء السير بالرسالة - في أطواره المختلفة - لتحقيق الغاية منها.. فأصبحت السورة - بذلك - جزءاً من المنهاج أو "وحدة منهاجية".. وفي جميع السوَر ثَمَّ "المنهاج" كاملاً..

فلا بد - إذاً - من **جمع** تلك **الأجزاء** وضمّ بعضها إلى بعض، لكي تكتمل الصورة ونحصل على **الكل**.. لكي يكتمل عندنا الفهم الشامل لجميع مراحل سير رسول الله ﷺ وأطواره؛ أي الفهم لـ "منهاج النبوة" المُلزِم لنا شرعاً؛ بضوابطه الشرعية والسننية.. ونَكُوْن منه على **بصيرة** من البداية حتى النهاية وتحقيق الغاية..

هذا، وعملية جَمْع وضم الأجزاء، تكون كالتالي:

- ✓ "الفهم المنهاجي" لكل سورة من القرآن الكريم على حدة.. من خلال ربط كل سورة بموقعها من خط رسول الله ﷺ بالرسالة؛ مرحلتها وطورها.. وبيان كيفية معالجتها التفصيلية للأحداث والمواقف التي حصلت (مناط السورة) في موقعها (زمانها وظرفها) من خط سير رسول الله بالرسالة.. **[وهو ما قمنا به وسطّرناه في كتاب "تبيان سور القرآن"؛ الجزء الثاني من بحث "منهاج النبوة"]**
- ✓ عندها، سنرى أن جميع السُوَر (114) ستكون **مُوزّعة** ضمن مجموعات، وستكون **مُرتّبة**:
- ✓ **مُوزّعة** كمجموعات على طول خط رسول الله ﷺ؛ بمرحلتيه؛ قبل التمكين، وبعد التمكين.. وبأطوارهما الخمسة. وكل **مجموعة** من السُوَر قد ارتبطت **بطور** معيّن، والتي تُبيِّن وتُفصِّل **المعالجات** التفصيلية - الشرعيّة والسننيّة - للمواقف والأحداث (مناطات السُّوَر) التي وقعت في ذلك الطور.. وكيفية معالجتها..
- ✓ **مُرتّبة** منهاجيّاً، أي حسب الضوابط الشرعية والضوابط السننية (السنن الإلهية) التي حَكَمت ردود أفعال الناس آنذاك - المؤمنين والرافضين - ومواقفهم من الرسالة.. أي بحسب تلك الضوابط كان ترتيب حصول تلك المواقف والأحداث (مناطات السُّوَر)، في طورها ومرحلتها..
- ✓ وهذا "**الترتيب** المنهاجي" للسور، هو "ترتيل **تلقي**" رسول الله للرسالة، بحسب تلك الضوابط الشرعية والسننية..
- ✓ ومن أبرز خصائص هذا الترتيب (الترتيل)، أنه **تكامليّ**؛ بمعنى أن ما نُـزّل في الطور الثاني يُضاف إلى ما نُـزّل في الطور الأول، مكمّلاً له.. فما يُنزّل لاحقاً يُضاف إلى ما نُـزّل سابقاً، في عملية بناء للأمة يكمّل بعضها بعضاً.. وهكذا حتى تمام تلقي الرسالة، وحينئذ؛ يكون السير قد اكتمل.. وبناء الأمة قد اكتمل.. وأزيلت عقبات الطريق.. فتحقّقت الغاية من الرسالة:

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩)﴾ [الحديد]

(يُنَزِّلُ ، لِيُخْرِجَكُمْ) فباستمرار التنزيل يستمر الخروج.. حتى إذا تمّت الآيات البيّنات نزولاً وتلقياً واتّباعاً واستقامة.. اكتمل الخروج من الضلال والدخول في الهدى كافة (إكمال العبودية لله تعالى).. كما في الرواية الثابتة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله:

(نزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا **أراد** أن **يُحدث** في الأرض شيئا **أنزله** منه حتى جَمَعه). [موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور].

وهذا ما حصل فعلاً في أول أمر هذه الأمّـة؛ مع رسول الله - والمؤمنين معه - في تلقّي القرآن الكريم مرتلاً، حسب الضوابط الشرعيّة والسننيّة (التلقي المنهاجي).. فما أن تـمّ، أو كاد أن يتمّ، نزول الآيات وتلقّيها.. حتى اكتمل السير وتحقّقت الغاية من الرسالة فأصبحوا أمّـة مسلمة قد أكملت عبوديتها (دينها) لله **عزّوجل**.. وكان ذلك في حُجَّة الوداع في العام العاشر للهجرة، حيث أنزل الله **تعالى** - في يوم عرفة وكان يوم جمعة - قرآناً يبـيّن هذه الحقيقة ويؤكّدها، وقد أصبحت كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر في جزيرة العرب.. وكلمة الذين كفروا السفلى، وقد يئسوا من إطفاء نور الله، وهو قوله **تعالى**:

﴿..الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..﴾ [المائدة: 3]

النتيجة..

- ✓ **بِـفَهْم** المعالجة التفصيلية للمناط في كل سورة..
- ✓ و**بتوزيع** السور على أطوار السير التي ارتبطت بها..
- ✓ و**بترتيب** السور حسب سنن الله - الشرعية والسننية - في تتابع حصول الأحداث والمواقف (مناط السورة) في أطوار سير رسول الله ﷺ بالرسالة، حتى تحقّقت الغاية..

بذلك كله، يتكوّن عندنا الفهم الكامل والشامل والعميق، لِمَا حصل مع الرّسول ﷺ **في واقعه**، بترتيبه **السننيّ العام**، **والمفصّل** بقدر ما وصلنا من روايات ثابتة في السنة والسيرة..

- ✓ وعلى أساس ما بيّناه من "**ضوابط** الاقتداء" برسول الله في ما قام به من أعمال وأقوال وإقرار.. من بداية سيره بالرسالة حتى النهاية - والذي كان موضوع هذا الباب؛ الثالث من الكتاب - يمكن أن نصل إلى معرفة ما هو ملزم لنا مما قام به رسول الله؛ من جهة الأعمال نفسها و ترتيبها و الخطاب؛ فكرته ومنهجه.. وقلنا أن الأصل العام في هذه المعرفة والبوابة الكبيرة للوصول إليها هو "الفهم المنهاجي" لسوَر القرآن الكريم..
- ✓ فـ "**الفهم** المنهاجي" لسور القرآن الكريم.. و"**الترتيب** المنهاجي" لها.. هو الذي فيه البيان لما هو **ملزِم** لنا من كل ما قام به رسول الله حتى حقق الله الغاية؛ مِنْ الرسالة ومِنْ بعْثه بها، على يديه ﷺ.. بمعنى، أن بهما يكون الفصل بين ما هو "تاريخيّ" وبين ما هو "منهاجيّ" من كل ما حصل مع رسول الله من سيره بالرسالة، حتى تحقيق الغاية..
- ✓ وهذا الفهم لما هو **ملزِم** لنا مِمّا قام به الرّسول الكريم، هو فهْمٌ **لكيفية تطبيقه** ﷺ لما كان **يتنـزّل** عليه من معالجات شرعيّة؛ من إيمان وعمل صالح ودعوة في واقعه.. و فهم - كذلك - **للضوابط** التي كان تـنزيل المعالجات على أساسها، كماً وكيفاً.. أي، فهماً لـ "منهاج النبوّة" في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة؛ أمّة تُكمل دينها لله **جلّ وعلا**..

- ✓ وبعد فهم "منهاج النبوّة"، يمكننا أن نأتي بالخطوة التالية، وهي؛ تنزيل هذا الفهم لـ "منهاج النبوّة" للسير بالرسالة على واقعنا الآن.. أي تنزيله على الواقع الإنساني (المجتمع) المعيّن، بزمانه ومكانه وأحواله وأشخاصه، بقصد تحقيق الغاية من الرسالة..

وبيان ذلك بشيء من التفصيل، سيكون موضوع الباب التالي:

"التنزيل على الواقع".. وهو الباب الأخير من هذا الكتاب.

ولكن، قبل ذلك - وللأهمية - نود أن نلقي بعض الضوء على طبيعة العلاقة بين "الترتيب المنهاجيّ" للسور الذي نتكلّم عنه.. و "ترتيب السور في المصحف"؛ وهل يجوز أن يكون بديلاً عنه؟

إن "الترتيب المنهاجيّ" للسوَر - كما عرفنا - إنما هو نتيجة لربط كل سورة بخط سير رسول الله ﷺ بالرسالة في تتابع أطواره ومراحله، بحسب سُنن الله في حمل الرسالات في القرى والمجتمعات.. وذلك بالنظر إلى السورة من زاوية منهاجية.. أي، من حيث كونها **"وحدة منهاجيّة"** وتشكّل جزءاً من "المنهاج"، وفي مجموع السوَر ثـَمّ المنهاج كاملاً.. فالسورة من القرآن هي "وِحدة منهاجية" فيها "تبيان" لجزء من الطريقة الشرعية (المنهاج) في حمل الرسالة لتحقيق الغاية منها، ومرتبطة بطور من أطوارها، وفي مجموع السوَر تتبيّن الطريقة كاملة، من البداية حتى النهاية وتحقيق الغاية.. وهذا هو "الفهم المنهاجي" لسوَر..
فربط السورة بخط السير بالرسالة؛ هو ربط منهاجيّ، يقوم على بيان دَور كل سورة في منهاج السير بالرسالة من أجل تحقيق الغاية منها في المجتمع، وبغض النظر عن الزمان والمكان والأشخاص.. لأنه بحسب التتابع السُننيّ للأحداث والمواقف، كما هو مُبيّن في القرآن الكريم.. (أي حسب "الفهم المنهاجي" للسورة).. وأن "العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب"..

ونؤكّد هنا - منعاً لأي لبس - أن "الترتيب المنهاجيّ" للسور إنما هو ترتيب من أجل فهم منهاج سير رسول الله بالرسالة (منهاج النبوة)، بتتابع خطواته وتوالي أطواره الخمسة في مرحلتيه الاثنتين، حتى تحقّقت الغاية من الرسالة. فهو ترتيب من أجل الفهم فقط، ولا يجوز أن يكون بديلاً عن ترتيب المصحف ولا موازياً له.. ونحن لم نقصد ذلك ولا ألمحنا إليه..

وهنا، وقد يرد التساؤل الآتي: ما دام أن "الترتيب المنهاجيّ" للسور له هذه الدرجة من الأهمية في تحقيق "الغاية من الرسالة"، فما الحكمة من أن الله **جلّ وعلا** لم يحفظ سور القرآن مرتّـبة بحسبه، بل حَـفِظَها حسب ترتيب المصحف الحالي؟.

نقول: إن تحقيق "الغاية من الرسالة" تكليف شرعي من الله، ونقوم به نحن المسلمون عبادة لله، ونتحمّل المسؤولية عنه أمام الله **تبارك وتعالى**، وكذلك فَهْم "طريقة السير الشرعية" لتحقيق تلك الغاية (المنهاج)، هو أيضاً عبادة وتكليف من الله، نتحمّل نحن المسؤولية عنه أمام الله **عزّ وجلّ**، فَهْماً وتطبيقاً.. فلا بد من بذل أقصى الجهد في فهم واستخراج "المنهاج" (العبادة) من القرآن.

أمّا "ترتيب السوَر" في المصحف فهو ترتيب توقيفيّ، بقرينة إجماع الصحابة.. فإجماعهم دليل شرعي أو يكشف عن دليل شرعي - كما في أصول الفقه..
وهو متعلّق **بحفظ** الرسالة - محتواها ومنهاجها - من الضياع.. بدلالة أن الدافع الوحيد (العلة) لإجماع الصحابة على جمع سور القرآن - والتي ترتيب آياتها توقيفيّ - و في مصحف واحد، هو - فقط - خوفهم عليه من الضياع بعد مقتلة القَرَءَة في حروب الردة.. وكانت هي نفس العلة التي

من أجلها كان إعادة جمعهم آي القرآن الكريم في مصحف واحد، مرَّة أُخرى - في عهد عثمان رضي الله عنه ومطابقته مع المصحف الأول، ثم نسخة على عدة نسخ وتوزيعها في الأمصار، وذلك بعد توسّع الفتوحات الإسلامية ودخول خلق كثير من غير الناطقين باللغة العربية في دين الله جلّ وعلا، فظهر خلاف شديد في قراءة آي القرآن الكريم بين المسلمين في الأمصار، فخاف كبار الصحابة على آي القرآن وسوره من التغيير والضياع، فعمدوا رضي الله عنهم إلى تلك الصُحُف وجعلوا منها مصحفاً واحداً إماماً، واتخذوا من ذلك المصحف الإمام نُسَخاً لتكون أمهات وأصولاً يُرجع إليها، وأتلفوا كلَّ ما سواها، رفعاً للخلاف وتوحيداً للأمّة المسلمة.

ومن هنا، فإن حِفْظ "ترتيب السوَر" في المصحف أمر تكفّل الله عزّ وجل وحده به.. بما ألهم به مجموع الصحابة لجمعه، لتحقيق هذا الأمر.. {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر: 9] (230)

وحِفْظ نَص آيات الرسالة ورسمها وحِفْظ معانيها ودلالاتها (الدين والمنهاج) من الضياع، هو الأَولى والأهم، والله هو وحده الذي تكفّل به، فكان "ترتيب السور في المصحف"، الدالّ على الحفْظ، توقيفياً من الله جلّ وعلا.. وهو كذلك الترتيب الأصل لآيات القرآن وسوره في وُجُوداته كلها: في اللوح المحفوظ، وفي السماء الدنيا، وبين أيدي الناس:

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ {42}) فصلت.

230 - (اتّفق المفسّرون على أنّ المرادَ بالذِّكْر في قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} القرآنُ الكريم، وممن نَقل الاتفاق على ذلك أبو الحسن الواحدي، وأبو الفرج ابن الجوزي. ويشهد له ما ذَكره الله قبلها في قوله تعالى: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}[الحجر: 6]، وذلك أنّ القرآن الكريم هو الذي نزَّله الله على رسوله ﷺ وكان سبب رميهم إياه بالجنون حين نَسَبه صدقًا وحقًّا إلى الله ربّ العالمين. وعلى ذلك فقولُه تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ} رَدٌّ على هؤلاء المشركين الذين سَخِروا من النبيّ بقولهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ}، بهذا الأسلوب المؤكّد الذي فيه كبت لهؤلاء المشركين، وردع لهم، وإعلان بما يملأ صدورهم حسدًا وحسرة؛ فقد أبَوا إلا أن يجهلوا الجهة التي يقول النبيّ إنه تلقّى الذِّكْر منها، فقالوا: {نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} ولم يقولوا - ولو على سبيل الاستهزاء - نَزّل الله عليه الذِّكْر، فجاءهم قول الحقّ -جلّ وعلا-: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} بهذا التوكيد القاطع الدالّ عَلى كمالِ الكبرياءِ والجلالة وعلى فخامة شأنِ التنزيل، وجاء قوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ} بالجملة الاسمية للدلالة على دوام الحِفْظ له واستمراره، وأفادت الآية الكريمة أنّ الله سبحانه هو الذي يتولّى حِفْظه من كلّ عبث، وصيانته من كلّ سوء. وهذا هو الدليل القاطع على أنه منزّل من عند الله، فليحاولوا أن يبدّلوا من صورته، أو يدسّوا عليه ما ليس منه؛ فإنهم لو فعلوا لكان لهم من ذلك حُجَّة على أنه ليس من عند الله! وقد حفظ الله القرآنَ الكريم، هذا الحفظ الربانيّ، الذي أبعدَ كلَّ ريبة أو شكّ في هذا الكتاب، فلم تمسسه يدٌ بسوء، على كثرة الأيدي التي حاولت التحريف والتعديل، فردّها الله، وأبطل كيدها وتدبيرها). **[مركز تفسير - مقالة "تأويلات الحداثيين" - د محمد حامد حسن عطية]**

وختاماً..

هل يُستَدَل **بترتيب** السور في **المصحف** على "منهاج السير بالرسالة" ما دام أنه توقيفيّ مثل "التسوير" (ترتيب الآيات في السورة الواحدة)، والذي يُعتَبر من الأدلة على "منهاج السير"؟

نقول: ترتيب **السور في المصحف** لا يُستدل به على موضوع هذا البحث: "كيفية تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة" (المنهاج). ذلك أنه رغم اعتبار ترتيب **السور في المصحف** توقيفياً، إلا أن الدافع **الوحيد** (العلة) لفعل الصحابة والغاية منه، إنما هو **الحفاظ** على القرآن الكريم من الضياع فقط، **وليس أمراً آخر**..

سواء بعد المقتلة الكبيرة للصحابة من حَفَظة القرآن الكريم، في حروب الردة.. أم بعد توسّع الفتوحات الإسلامية.. حيث خاف كبار الصحابة رضي الله **عنهم أجمعين على آي القرآن وسوره من الضياع**، فعمدوا إلى **جمع سور القرآن** كلّها - **المرتبة آياتها سابقاً** بنصّ الوحي - في **صُحُف مجموعة** مع بعضها البعض (مصحف)، بعد أن كانت متفرقة، وذلك للمحافظة عليها من الضياع.

فترتيب السور في المصحف - وإن كان توقيفيّاً - فهو **خاص** بالحِفاظ على آي و سور القرآن الكريم من الضياع، فهذا هو موضوعه والغاية منه.. لذلك لا يُستدل **بترتيب السور في المصحف** على **طريقة التلقي** للرسالة والسير بها لتحقيق الغاية منها (المنهاج)، فهو واقع (مناط) آخر يختلف عن واقع (مناط) حفظ آي القرآن من الضياع، فلا يُستدل على **المناط المعيّن** إلّا بالأدلة ذات العلاقة به، **وترتيب السور في المصحف** متعلق بحفظ القرآن من الضياع [231]، سواء نصه أم تسويره أم منهاجه، ولا علاقة له ببيان "المنهاج" فلا يُستدل به عليه. والله أعلم وأحكم..

والحمد لله رب العالمين

والآن، إلى بيان كيفية تنزيل "منهاج النبوّة" للسير بالرسالة، على الواقع الإنساني (المجتمع) المعيّن.. وبشيء من التفصيل**..**

231 - انظر مثلاً، أبحاث الترابط العددي بين الآيات والسور حسب ترتيبها في المصحف أو الأبحاث حول أشكال أخرى من الترابط؛ في الموضوع أو الأسلوب.. بين السور حسب ترتيبها في المصحف.. كأدلة على أنه ترتيب مقصود وفيه إعجاز وله نظام خاص به وليس عشوائياً، مما يدل على أنه ترتيب من الله الذي أنزل الكتاب على قلب رسول الله، وأن الصحابة الكِرام قد حفظوا القرآن بترتيبه كما أخذوه من رسول الله، وهم نقلوه إلينا كما هو دون أدنى تغيير أو تبديل.

الباب الـــرابع :

بيان كيفية السير العملي بالرسالة حسب "منهاج النبوّة"، لتحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني المعيّن.

بعد ما تم بيانه في المباحث السابقة من هذا الكتاب، من الفهم الشرعي لحقيقة رسالة الله، بتصور عام وشامل.. في ما يتعلّق بـ :

- ✓ فهم فكرة الرسالة الخاتمة، والغاية منها.. وحقيقة المهمة الكبرى والأصل للرسول الخاتم..
- ✓ وفهم حقيقة الأمة المسلمة، ووظيفتها والغاية من وجودها..
- ✓ وفهم الضوابط الشرعية والسننية "للطريقة الشرعية" للسير بالرسالة؛ (منهاج النبوّة) في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة، والغاية من بعث الرسول؛ إيجاد "أمة مسلمة" بمواصفات معينة..

أقول: بعد ذلك البيان، فإن معالجة واقع الأمة الخاتمة (المناط) - في أي زمان - يكون حسب الطريقة الشرعية في تنزيل "المعالجات الشرعية" على "المناط" المعيَّن [232]، لمعالجته؛ أي جعْله حسب حُكْم الشرع.. وبِحِكْمة [233]..

232 - قلنا إن المناط هو: ما أناط (علّق) الشارع الحُكم به، وهو الواقع (الشيء أو الأمر) الذي جِيء له بالحكم الشرعيّ أو المعالجة الشرعيّة. انظر (الواضح في أصول الفقه) - محمد حسين عبدالله.

233 - ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة ١٥١]

و"الطريقة الشرعية" **لتنزيل** الأحكام الشرعية على الواقع المعيّن (المناط)، لها خطوات معروفة، هي كالتالي:

1- بداية؛ "تشخيص الواقع" المراد معالجته، أي جعْله مشخّصاً: بارزاً واضحاً لا يختلط بغيره.. وهو ما اصطُلِح عليه بـ **"تحقيق المناط"** (234)، بمعنى النظر في واقع الشيء أو الأمر المعيّن؛ (المناط) الذي جاء الحكم الشرعي (المعالجة) لأجله، لمعرفة حقيقته فلا يلتبس بغيره مما قد يشبهه.
[في بحثنا؛ المناط هو "واقع الأمة المسلمة الآن"]

2- ثم، يكون بيان **"المعالجات الشرعيّة"** (235) اللازمة لمعالجة ذلك "المناط"، وذلك من خلال دراسة وفهم الأدلة الشرعية - قرآن وسنة وما دلا عليه - المتعلّقة بذلك "المناط" واستنباط المعالجات المتعلقة به.
[في بحثنا؛ المعالجات الشرعية المطلوبة، وكيفية المعالجة.. هي "منهاج النبوة"؛ بضوابطه الشرعية والسننية، وأعماله وخطابه.. كما تم بيانه سابقاً في ضوء الحقائق الشرعية حول الرسالة والرسول والأمة، وأما المعالجات التفصيلية فبيانها من خلال "الفهم المنهاجي" لسور القرآن، وقد خصصنا له الجزء الثاني من هذا البحث: "تبيان سور القرآن"]

3- وبعد ذلك، يكون **تنزيل** هذه المعالجات على "المناط المعيَّن" (واقع الأمة المسلمة الآن) والبدء بمعالجته فعلياً، **وبحِكْمة**.. ومن خلال **المكلَّف** المَعْني بتنفيذ تلك الأحكام والمعالجات الشرعية..
وهذا يقتضي **تعيين** المكلّف المَعْني في تنزيل تلك المعالجات على ذلك "المناط" وتحقيقها في الواقع.. هل هو الفرد المسلم أم جماعة من المسلمين أم الأمّة المسلمة.. فلكل مكلّفٍ معالجات متعلّقة به - شرعاً وقدراً - وهو مسؤول عنها.. **ولا يُجزئ** مكلّف عن آخر فيما أناط الله **تعالى** به من أحكام ومعالجات إلا بدليل شرعيّ.
وبيان ذلك، في مباحث هذا الفصل الأخير من الكتاب..

---

234 - تحقيق: أصلها حق، وهو أصل يدل على إحكام الشيء وصحته، يقال: تحققت الخبر إذا كشفت عن صحته، وحققت الأمر إذا تيقنته. انظر: معجم مقاييس اللغة، والقاموس المحيط، مادة: "حق".

235 - ذكرنا سابقاً، أن "المعالجات الشرعية" هي: الأعمال (قول أو فعل) المطلوب شرعاً القيام بها، لمعالجة حدث حاصل فعلاً (المناط)، وتؤخذ من الدليل الشرعي؛ بفهمه حسب الأصول المعتبرة لغة وشرعاً، سواء في الإيمان أم العمل الصالح أم الدعوة. فهي أعم من "الحكم الشرعي" المتعلق بأفعال العباد، ومتضمنة له، فهي تتعلق بالفكر أيضاً؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو، أم بالحكم على وجوده من عدمه، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعي.

المبحث الأول : بيان خطوات تنزيل "منهاج النبوّة" على واقع "الأمة الخاتمة" الآن.

الخطوة الأولى: "تحقيق المناط"

"تحقيق المناط" يعني تشخيص "واقع الأمة" الآن وفهمه فَهْماً دقيقاً.. وهو واقع مجتمعيّ.. واقع أمة مسلمة.. وليس فردياً بسيطاً ولا هو متعلق بمجموعة أفراد.. بل واقع إنساني له أبعاده وتشعباته وتعقيداته.. وبالتالي لا بد من معرفة وفهم المقياس الذي على أساسه يكون ذلك التشخيص.. يعني قياساً إلى ماذا نفهم واقع المسلمين الآن؟ هل هناك محدِّدات عامة تضبط النظر إلى واقع المسلمين؟ أم يوجَد "حالة معيارية" تصلح أن تكون هي المرجع الذي يمكن أن يُقاس واقع المسلمين بالنسبة إليها؟

وجوابنا هو:

عند القيام بـ "**تحقيق المناط**" وتشخيص واقع المسلمين الآن - وفي أي وقت - لبيان المعالجات الشرعية اللازمة.. فحتى يكون التشخيص أقرب ما يكون إلى الصحة والحقيقة.. لا بد من أن يكون على أساس "**الوعي**" [236] لحقيقة "**الأمة المسلمة الخاتمة**"؛ من حيث مقومات **تكوينها** وخصائص **بنائها**، ومن حيث **الغاية** من **وجودها** (مهمتها).. كما هي في دين الله وشريعته..

فالبحث في "واقع الأمة" هو بحث في واقع إنساني مطلوب شرعاً إيجاده؛ بحث في إيجاد **أمة** من الناس ذات **مواصفات** معينة "مطلوبة شرعاً"، **تؤهلها** للقيام **بواجبها** الشرعي (الغاية من إيجادها): عبادة الله وحده، وحمل رسالته للعالمين؛ هدى ورحمةً (إخلاص/إكمال الدين لله).. وذلك، خلافةً لرسول الله الخاتم واستمراراً لمهمته..

وهذا ما سنُجَلّيه من خلال التذكير بالحقائق الأربع التالية؛ والتي تؤكّد حقيقة: أن الوعي على واقع "الأمة الخاتمة" فرع من الوعي على واقع "رسالة الله الخاتمة" (القرآن الكريم)؛ فكرة وغاية ومنهاجاً:

أولاً : "الأمة المسلمة الخاتمة" أمة فكرة، وأمة رسالة.

الأمة هي : (كل **جماعة** يجمعهم **أمر ما**، إما دين واحد أو زمان أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر تسخيراً أم اختياراً).. يقول **تعالى:**

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الأنعام: ٣٨

أي: "كل نوع منها على طريقة قد سخّرها الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت

---

236 - "الوعي" للأمر (على الأمر) المعيّن هو: الفهم المركّز له، والمنضبط بأسسه وغاياته. والوعي لغة: وَعَى الشيء جَمَعه في وعاء، والحديثَ حَفِظه وفَهِمه وقبله، والأمرَ أدْركه على حقيقته. فيبرز في "الوعي" المعاني التالية: الفهم العميق والجمْع والاستيعاب أو الشمول. فهو الفهم العميق للأمر وبشمولية.. وهو => من مقتضيات الفهم الصحيح له.

ومدّخِرة كالنمل ومعتمِدة على قوت وقته كالعصفور والحَمام.. إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع" [237]..

فيُطلَق وصف **الأمّة** على **الجماعة** من الناس باعتبار الأمر **الجامع** لهم..

وسنّة الله العامّة في تكوّن الأمم من الناس؛ هي أنّها تتكوّن تكوّناً طبيعياً، بمعنى أنْ تقوم على عِرق أو لون أو شعب معيّن، مثل أي تجمّع بشري طبيعي:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ **لِتَعَارَفُوا** ..﴾ [الحجرات: 13]

حيث يقوم هذا التعارف (الاجتماع) بين الأفراد على أساس إشباع الحاجات الحيوية والمجتمعية المتنوّعة للأفراد والجماعة. والرابطة الأصل بينهم هي العصبيّة القبليّة والمصالح المشتركة.

هذا، وإذا نظرنا إلى حقيقة "الأمة المسلمة الخاتمة" نجد أنّها ليست كذلك، بل هي أمة مصنوعة صناعة خاصة (مطلوبة شرعاً)، فهي أمة **فكرة**، وأمة **رسالة**، فهي تقوم على فكرة لا إله إلا الله؛ الحقيقة اليقينية الكبرى.. وعلى الوعي على تلك الفكرة.. وواجبها حمل هذه **الفكرة** ومقتضياتها، رسالةً من الله إلى الناس كافة..

وإشباع حاجات الأفراد وتنظيم علاقاتهم المتنوعة، وتحقيق الغاية من جمعهم في أمة، يكون على **أساس** نفس الفكرة؛ وما **انبثق** عنها من شريعة ونظام.. **والرابطة** الأصل بين أفرادها هو **الفكرة** والإيمان بها وسائر أركان الإيمان:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ..)﴾ [الحجرات: 10]

فما أُنشأت هذه الأمـة المسلمة الخاتمة إلا بالقرآن (الكتاب)، بوصفه رسالة الله الخاتمة، وعلى يد رسول الله الخاتم محمّد ﷺ (الحكمة).. وما وُجدت هذه الأمـة إلا من أجل أن **تستمر** من بعد الرسول الخاتم في **أداء مهمته وتخْلُفه** فيها.. ولنكون نحن المسلمون، شهداء على الناس بوصفنا أمـة مسلمة لله، كما كان الرّسول علينا شهيداً:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.. (١٤٣)﴾ [البقرة: 143] . **كما ذكرنا أول البحث**

{عن معاذ بن جبل أن عمر قال له: ما قوام هذه الأمة؟ قال: ثلاثٌ، وهي المُنجِيات:

الإخلاص: وهي الفطرة التي فُطِر الناس عليها. **[أي إخلاص الدين لله]**

---

237 - **انظر (المفردات لألفاظ القرآن) - الراغب الأصفهاني. وجاء في (المعجم الاشتقاقي المؤصل) - محمد حسن حسن جبل:** (المعنى المحوري لـ الأمة: تَضَامُّ شيءٍ أو أشياء متجانسة أي لحاق بعضها ببعض في حيّز يحيط=> بظاهرها بلطف - كما تضم تلك الجلدةُ الرقيقة مادّةَ المخ (أم الرأس). وكما تتضامّ القامة، ومن لُطفها تكوينُها صورة متكاملة، و(أُمَّة الطريق) مساحةٌ واسعة متصلة متكاملة أيضًا، وكذا الصُقع، وكذا (أُمّ النجوم) تجمُّع النجوم في المَجَرّة، و(أم الباب) كسدّ ظاهر باب جهنم على من فيها فتضمهم. وقد قال علماء اللغة: "كلّ شيء ينضم إليه سائرُ ما يليه، فإن العرب تُسمى ذلك الشيء أُمًّا. والأمّ لكل شيء هو المَجمَعُ والمَضَمُّ ". ومنه "الأُم: الوالدة "لأن أولادها يرتبطون بها وهي أصلهم ومَجْمَعُهم (كانوا في بطنها) {وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا} [مريم: 28]. الأم الوالدة، وجمعها (أمهات) وسياقاتها واضحة. و "الأُمّة: القَرْن الجيل من الناس (جماعة كبيرة متحدو الجنس أو زمن الوجود معًا)،{وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ} [البقرة: 128]، {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ} [الزخرف: 22]، أي دين وملة؛ (مجموعة أو منظومة من القيم والأعراف التي تحكم وتميز جماعتنا عن غيرها).

والصلاة: وهي المِلَّة. **[فهي مَظْهر اتباع الملة، فهي العهد الذي بيننا وبين الكفار.. مما يدل على الدرجة العالية لأهمية إقامة الصلاة في حياة المسلم]**

والطاعة: وهي العصمة. **[الطاعة لله والطاعة لرسوله ولأولي الأمر من المسلمين]**

فقال عمر: صدقتَ}. **[أخرجه ابن جرير 18/ 493 - 494].**

ثانياً : "الأمة المسلمة الخاتمة" هي الوارثة لدين الله (الملة والشريعة)؛ "الإسلام".

إن أصل الأمر كلّه؛ أنه لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله.. لا طاعة إلا لله.. فـ لا إله إلا الله هي الحقيقة اليقينية الكبرى؛ إنها الحقيقة المركزية التي تدور حولها كل الحقائق.. الحقيقة الأم التي تنبثق عنها حقائق الوجود كافة؛ الكون والإنسان والحياة.. من أين البدء، وكيف المسير، وإلى أين المصير؟..

فكل **مخلوق** سائر ليحقق **حكمة** الله جلّ وعلا من **إيجاده**.. وهو **عبدٌ** لله **بالفطرة**؛ بحكم ما **قـدّر** الله تعالى فيه من **الخواص** ومن **السنن** التي تضبطها.. **عبودية** لله دون **إرادة** أو اختيار:

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50]

ثم خلق الله عزّ وجل الجن والإنس على نفس الفطرة؛ لكن ميّزهم بأن أعطاهم عقل وقدرة على الاختيار، **ليعبدوا** الله بتكليف شرعي، وعن **إرادة** منهم و**رضى واختيار**.. وميّز الإنسان بأن جعله الخليفة في الأرض.. ثم ابتلى الله العزيز الحكيم، كل واحد منهما بالآخر.. وبعد أن أهبطهما إلى الأرض - ممثَّلين بآدم عليه السلام وحواء من جهة، وإبليس من الجهة الأخرى - ذكّرهم بتلك الحقيقة اليقينية الكبرى؛ لا إله إلا الله، وأنه سيُنْزِل لهم دين فيه ملتهم وشريعتهم.. هو مُقتضَى لا إله إلا الله، أو التطبيق العملي لها، ليكون لهم هدى ونور في حياتهم الدنيا.. وحمّلهم المسؤولية عن هذا الهدى، في الدنيا والآخرة؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ [البقرة]

فكانت الحقيقة اليقينية الكبرى؛ لا إله إلا الله هي الأساس لكل رسالات الله وشرائعه التي أنزلها على أنبيائه ورسله جميعهم، حتى خاتمهم محمّد عليه وعليهم الصلاة والسلام، ذلك أن الله جلّ وعلا - وقد كرّم بني آدم بالخلافة في الأرض - شاء لهم أن تكون قضيتهم المصيريّة ومحور وجودهم وأساس حياتهم الدنيا؛ هي أن يُسيّروا خلافتهم في الأرض ويُنظّموها بمنهاج الله وشريعته، فلا يقدّموا العبودية والطاعة فيها إلاّ له وحده عزّ وجل: العبودية **الشاملة** والإسلام **الكامل** لله تبارك وتعالى (إخلاص الدين لله).. وهي الأمانة التي حَمَلها أبونا آدم عليه السلام وحَمَلناها من بعده، ومصيرنا في الدنيا والآخرة منوط بموقفنا منها..

فكانت حقيقة لا إله إلا الله هي الأساس لدين الله؛ "الإسلام"، في كل رسالات الله تعالى.. وعلى أساسها يَنْبني منهج حياة الناس وطريقة عيشهم في هذه الحياة الدنيا.. وهذا هو الأمر الجامع (المِلَّة) للأمة المسلمة الواحدة الكبرى؛ من لدن آدم حتى أمة "الرسالة الخاتمة":

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)﴾ [المؤمنون: 52]

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)﴾ [الأنبياء: 92]

أي: "هؤلاء الأنبياء جميعًا أمة واحدة، بمعنى يجمعهم أمر واحد، وهو دينهم الواحد، وهو الإسلام؛ أي الاستسلام لله بالطاعة وإفراده بالعبادة، والله **سبحانه وتعالى** هو ربّ الخلق فاعبدوه - أيها الناس - وحده لا شريك له" [238].

فالعِلْم بالله **جلّ وعلا** ؛ أنه لا إله إلا هو بأسمائه الحسنى.. **والخضوع** لشرعه.. هو الأمر **الجامع** للأمة المسلمة الواحدة الكبرى؛ من لدن آدم **عليه السلام** حتى قيام الساعة، **وتقوى** الله هي الميزان.

وهذا من تكريم الله **تعالى** للإنسان أن يكون الأصل الجامع **للأمة** من الناس، هو ميزان الله وشريعة الله :

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ **لِتَعَارَفُوا** إِنَّ **أَكْرَمَكُمْ** عِنْدَ اللهِ **أَتْقَاكُمْ** إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾ [الحجرات: 13]

لذلك، كلما ضَلّت أمةٌ من بني آدم عن سبيل ربها الحق وعن هذه الحقيقة اليقينية الكبرى، بعث الله **تعالى** لهم الأنبياء والرسل ليذكّروهم بها ويردّوهم إليها، بإخلاص دينهم لله؛ بجعل حياتهم ومماتهم في طاعة الله **تعالى** وحده، ونبذ كل ما دونه، وينذروهم بعذاب الله وغضبه إن هم أعرضوا عن هدى الله وطاعته:

﴿.. وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر: 24]

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ.. (٣٦)﴾ [النحل]

حتى شاء الله أن يكون لرسالاته **رسالة خاتمة**، وللرسل **رسولاً خاتماً**، وللأمم حَمَلَة الرسالات **أمة خاتمة**.. فبعث الله محمداً ﷺ بالقرآن الكريم، وجعل مهمته الأصل هي تعبيد الناس لله مخلصين له الدين. أي جعل لا إله إلا الله حقيقة حية في الواقع الإنساني؛ كمنهاج حياة:

﴿الر كِتَابٌ **أَنْزَلْنَاهُ** إِلَيْكَ **لِتُخْرِجَ** النَّاسَ مِنَ **الظُّلُمَاتِ** إِلَى **النُّورِ** بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ﴾ [إبراهيم: 1-3]

والطريقة العَملية لذلك - في تقدير الله - هي إيجاد **أمة** تستمر من بعد الرسول الخاتم في أداء مهمته: أمة "تُخلص دينها لله"؛ بأن تطيع الله وحده في جميع شؤون حياتها وتستسلم لأمره وحده، وتحمل رسالته للعالمين:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.. (١٤٣)﴾ [البقرة: 143]

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللهِ.. (١١٠)﴾ [آل عمران: 110]

---

238 - انظر (التفسير الميسر). وقال رسول الله ﷺ في الحديث عن أبي هريرة: (.. والأنْبِياءُ أَوْلادُ عَلّاتٍ..). **[صحيح البخاري ٣٤٤٢/صحيح مسلم ٢٣٦٥]**؛ (يَعنِي: أنَّهم أُخوةٌ لِأبٍ واحدٍ من أُمَّهاتٍ مُختلفةٍ. والمعنى: => أنَّ دينهم [ملتهم] واحد، وشرائعهم مختلفة مِن حيثُ الفُروعِ [الشريعة] حَسَبَ الزَّمنِ وحَسَبَ العُمومِ والخُصوصِ). **[انظر الدرر السنيّة - الموسوعة الحديثيّة]**.

فكانت **الأمة** المسلمة **الخاتمة** هي **الوارثة** لدين الله "الإسلام"؛ أي "**الملّة**"، بمعنى الاستسلام لله والخضوع له وإفراده بالعبادة.. ممثلا **برسالته** الخاتمة **وشريعته** الكاملة التي ارتضاها الله **تعالى** للناس حتى قيام الساعة؛ "الإسلام".. فكان الاسم مطابقاً لمسمّاه..

وأهم ما خصّ الله **تعالى** به الأمة الخاتمة بأن جعل **مهمتها** الأصل، **والغاية** من وجودها هي: **الاستمرار** في مهمة الرسول الخاتم؛ أي تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة، وذلك بأن تعبد الله **تعالى** وتحمل رسالته للعالمين هدى ورحمة، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.. من ظلمات الجاهليّة وعبادة الطاغوت، إلى نور عبادة الله وحده لا شريك له (إخلاص الدين لله).. فيهلك من هلك عن بيّنة، ويحيى من حي عن بيّنة..

فهي خير أمة **أخرجها** الله للناس.. وهو **اجتباها**.. **وجعلها** أمة **وسطاً**.. فجعل الله **مصير** هذه الأمة الخاتمة متعلّق بالرسالة دائماً، وبأداء مهمتها تجاهها، صعوداً أو هبوطاً، ولا فكاك لها عن ذلك.. فأي جيل منها أو جماعة منها تخلّت عن مسؤولياتها تجاه رسالة الله، استبدلهم الله بغيرهم أحسن منهم:

﴿.. وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد] [239].

وهذا من "سنن الله" الدائمة في الأمم حَمَلَة الرسالات.. فقد استبدل أمة بني إسرائيل بأمة محمد ﷺ فكرّمها بالرسالة الخاتمة وجعلها الأمة الخاتمة..

ثالثاً : الأمم حَمَلَة الرسالات، لها سُنن ربّانية تحكم سيرها وحركتها في الحياة.

الأمم الإنسانية، جعل الله **تعالى** لها سنناً تحكم وجودها وحركتها وفنائها.. والأمم **حَمَلَة الرسالات** الإلهية خصها الله بسنن تحكم **علاقتها** برسالة ربها، وتضبط سيرها؛ من بداية نشأتها حتى وصولها إلى القمة، ثم هبوطها، ثم "إعادة تأهيلها" وإعادة حيويتها إليها لتقوم بمهمتها التي وُجِدَت من أجلها..

وقد بيّن الله لنا **سُنن** ذلك كله بالتفصيل في رسالته الخاتمة القرآن الكريم، من خلال ضرب الأمثال بالأمم حَمَلَة الرسالات السابقة، وخاصة بني إسرائيل، من زمن يعقوب (إسرائيل) حتى عيسى - **على نبينا وعليهما الالسلام** - كما في سوَر: الأعراف، الإسراء، طه، الشعراء، البقرة، آل عمران والمائدة.. وفي مختلف مراحل حياتهم: من "التمكين" والعزّة.. إلى "الاستضعاف" والهوان.. إلى "إعادة التأهيل" مرة أخرى.. ليقوموا بمهمتهم التي كُلِّفوا بها.. حيث بيّن الله **عزّوجل** ذلك من بداية أن مكّن لهم في مصرَ، على يد نبي الله يوسف **عليه السلام**.. وأقاموا دين الله وشريعته التي أوحاها إلى يعقوب **عليه السلام**.. حتى أشغلتهم الدنيا وغرّتهم فاشتروا دنياهم بدينهم.. فركبهم الذلّ والهوان بعد العزّة والتمكين - حسب سنن الله - حيث بعث الله **تعالى** عليهم فرعون فاستعبدهم واستذلّهم.. وذبّح أبنائهم واستحيى نساءهم.. واستمر ذلك "البلاء العظيم" عليهم إلى ما شاء الله.. حتى جاء

---

239 - و"الجيل الأول من الأمة؛ المخاطبون بداية بهذه الآية، "لم يتولّوا وحاشاهم أن يتولّوا، وما تولّوا ولا استبدل الله تعالى بهم غيرهم. وإنما هذا من باب حثهم على معالي الأمور والأخذ بعزائمها نظراً لمكانتهم من هذه الأمة؛ فهم أشرفها وأكملها وأطوعها لله وأحبها له ولرسوله ﷺ. وهو تحذير للأجيال التي=> بعدهم". **[انظر (أيسر التفاسير) - أبو بكر الجزائري]**. **[انظر رسالة (النصر والتمكين والاستخلاف)]**. على الرابط:

الوقت - في تقدير الله - لِيَمُنّ على على هذه "الأمة المسلمة المستضعفة" ليُنقذهم مِمّا هم فيه؛ بأن "يُعيد تأهيلهم" كأمة، ليجعلهم أئمّة ويجعلهم الوارثين:

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾ [القصص]

فبعث الله **تعالى** لهم واحداً من أولي العزم من رسله؛ رسوله الكريم موسى **عليه السلام** لينقذهم من فرعون، وليعيد "**تأهيلهم**" ليعودوا أمة ممكَّن لها في الأرض، تُخلص الدين لله، تتحمَّل المسؤولية عن دين الله مرة أخرى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ الله وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة]

وبيّن الله ما عاناه منهم رسوله الكريم موسى - ومعه أخوه هارون **عليهما السلام** - خلال عملية "**إعادة التأهيل**" تلك، وكيف أن الله **تعالى** وعدهم بالتمكين في الأرض المباركة ليعبدوا الله فيها مخلصين له الدين.. بعد أن نصرهم على فرعون؛ فأنقذهم من بطشه.. ثم بيّن الله كيف أن وعْدَه لهم لم يتحقق في حياة رسولهم الذي أنقذهم الله على يديه، بل تاهوا جميعاً في أرض التيه.. وما ذلك إلا بسبب عنادهم وتكبّرهم على أمر الله، ومناكفتهم لرسول الله، لتشرُّب حُبّ الدنيا وحُبّ العجل في قلوبهم..

ثم بعد أربعين سنة، وقد تُوفِّي رسولهم، أراد الله **تعالى** أن يحقق وعده لهم، بفضله ورحمته.. وقد بعث إليهم نبياً منهم.. كما ذكر الله **تعالى** في قصة طالوت وجالوت.. الخ..

والمقصود بيان أن الأمم حَمَلَة الرسالات قد جعل الله لها سُنناً تحكم سَيْرها، وشروطاً لا بد أن يحققوها، وأسباباً لا بد أن يتلبّسوا بها.. حتى يحقق الله **تعالى** لهم وعده بالنصر والتمكين والاستخلاف في الأرض..

وقد بيّن الله ذلك كله للأمة المسلمة الخاتمة ووضعه بين يديها - في الرسالة الخاتمة (الكتاب) وسنة رسوله الكريم (الحكمة) - حتى تعلَم بعوامل النصر وعوامل الهزيمة، عوامل الضعف وعوامل القوة و"إعادة التأهيل".. حسب سنن الله وتقديره **سبحانه وتعالى**.. فتأخذ العبرة من الأمم السابقة، ولتكون على بصيرة من أمرها.. فلا تقع بما وقعوا فيه..

وقد خصّها الله **تعالى**، بوصفها **الأمة الخاتمة** بسنن تتعلّق بها؛ بنشأتها وبسَيْرها بالرسالة، وصعودها وهبوطها..

إلا أن الأمة المسلمة الخاتمة.. رغم ذلك، وقعت في السُنن التي وقعت فيها الأمم السابقة.. بسبب الغفلة عن مهمتها الأصل، وعن النهي والتحذير الصريح من الله ورسوله ﷺ:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾

الأنفال: ٤٦

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ آل عمران

كما في قول رسول الله ﷺ محذراً المسلمين :

{.. فَوَالله ما الفَقْرَ أخْشَى علَيْكم، ولَكِنِّي أخْشَى أنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كما بُسِطَتْ على مَن كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا، وتُهْلِكَكُمْ كما أهْلَكَتْهُمْ}. **[صحيح البخاري: 4015]**

وقوله ﷺ: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشِبْرٍ، وَذِراعًا بذِراعٍ، حتّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنا يا رَسُولَ الله: اليَهُودَ، والنَّصارى قالَ: فَمَنْ؟!) **[صحيح البخاري 3456،عن أبي سعيد الخدري]**.

"أي، أنَّكم تَـتَّبعون َطريقةَ النَّصارى واليهودِ في أفعالِهم وحياتِهم متابعةً دقيقةً شديدةً حتّى لو فعلوا أموراً تافهة لا معنى لها، تاركينَ طريقته ﷺ في عيشه حياته". **[انظر (الموسوعة الحديثية - الدرر السنية)]**.

والنتيجة الطبيعية - حسب السنن الربانيّة - لاتباع المسلمين **سنة** تلك الأمم، وتركهم **سنة** رسول الله ﷺ: أن يُسلّط الله عليهم عدواً لهم يقهرهم ويذلهم.. لعلّهم يرجعون إلى الله [(240)]..

وهكذا كانت أحوال الأمة المسلمة الخاتمة؛ على امتداد تاريخها الطويل، هي انعكاس **لطاعتها** ربّها أو **لمعصيتها** له، **جلّ وعلا:**

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ الأنفال: ٥٣

﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ الرعد: ١١

بمعنى، أن الأمة ما دامت متمسّكة بحبل الله، قائمة بمهمتها المُناطَة بها - خلافة رسول الله في رسالة الله - رفعها الله.. و إن تركت حبل الله وغفلت عن مهمتها، هبطت وتسفّلت.. وسلّط الله عليها - حسب سننه - عدوها "حتى ترجع إلى دينها".. كما قال رسول الله ﷺ:

(إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ). **[رواه أحمد (4987) وأبو داود (3462)، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُما]**.

وهذا هو حال الأمة في هذا الزمان - للأسف الشديد - فقد وصل حال الأمة الآن إلى ذلك المستوى من التردّي والضعف والفشل وذهاب الريح.. وتسلُّط أعداء الله عليها.. ليس فرعون واحد بل

240 - كما حصل معَنا في غزو المغول لبلادنا ثم الغزو الصليبي المتكرر.. فعندما نتخلى كأمة مسلمة، => عن قيادة العالم، ستبرز أمة أخرى لتقود العالم. فكما أورث الله الأرض امتنا المسلمة من بعد الفرس والروم، كذلك إذا تخلينا - كأمة - عن مركزنا الطبيعي الذي ينبغي أن نكون فيه - قيادة العالم لجعل كلمة الله هي العليا - فستَحْتل أمة أخرى ذلك المركز وتلك المكانة. فالنتيجة الطبيعية لحرصنا كأمة، على أداء وظيفتنا الأصل: حمل رسالة الله للعالم حتى تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله.. هي أن نكون في مركز القيادة لأمم الأرض كلها.. وبهذا فقط يمكننا الشهادة على سائر الأمم، كما كان الرسول علينا شهيداً.

فراعنة كُثر.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.. [241].

رابعاً : المرجع في تشخيص واقع الأمة أو "الحالة المعيارية"

في سياق "تحقيق مناط" الأمة المسلمة الخاتمة، وأنه يقوم على الوعي على حقيقتها ، وأنها أمة ميّزها الله بخصائص ومقومات ذكرنا أبرزها.. من حيث **الغاية** من وجودها، **والسنن** التي تحكم سيرها.. وأنها الأمة الوارثة للملّة والشريعة الحق من عند الله، "الإسلام"..

فهي **الأمة** المسلمة الخاتمة، وتتمثّل بها الرسالة الخاتمة؛ تُطبّقها على نفسها، وتحملها للناس كافة، هدى ورحمة.. وعليه:

فينبغي أن يكون أصل النظر إليها (المرجع) عند تشخيص واقعها، وبيان المعالجات الشرعية اللازمة لـ "إعادة تأهيلها"، هو معرفة أين هي من قيامها بمهمتها التي وُجدت من أجلها (الغاية من وجودها): خلافة رسول الله في تحمّل أعباء رسالة الله الخاتمة تطبيقاً على نفسها، وحملاً للناس كافة؟.. **بمعنى**؛ أين هي من تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة (إخلاص الدين لله)؟..

والضابط أو **المقياس** في تحديد تحقُّق الغاية من عَدَمِه، هو: حال "إكمال الدّين لله" - بخصائصها ومقوماتها - التي ترك عليها رسول الله الأمّة المسلمة عند وفاته ﷺ، وقد شهدت الأمّة له في حُجَّة الوداع بأنه بلّغ الرسالة وأدى الأمانة.. وأشهد الله **تعالى** على ذلك، وقد نزلت شهادة الله بأن الأمة قد **أكملت** دينها وعبوديتها لله:

---

241 - فالحديث ينصُّ على أنه إذا وقع الذل على أمتنا كـ "نتيجة"، فإن "السبب" هو "تركنا لديننا" (وأساسه حب الدنيا وإيثارها على الآخرة).. والحل يكون بإزالة "السبب": أي، بـ "رجوعنا إلى الدين". وتحقيق هذا الحل يقتضي أمرين: بيان المعالم اليقينية لـ "الدين" الذي سنرجع إليه؛ متمثلاً بالحال الذي ترك عليه رسول الله أمته عند وفاته ﷺ.. ثم بيان كيفية الرجوع إلى ذلك "الدين". وهذه الدراسة - التي بين يديك، أخي المسلم - هي مساهمة في بيان الحل، على أساس هذين الأمْرين. =>

ونؤكِّد هنا، أن الأمة الخاتمة لن تموت ولن تفنى ولن يَقضي عليها أعداؤها ولو اجتمعوا عليها من أقطار الأرض.. بإذن الله تعالى.. ولن يعذبها الله تعالى عذاب استئصال.. والخير باقي فيها أبدا حتى تقوم الساعة؛ مع بقاء الكتاب والحكمة فيها.. فهي أمة محمّد أفضل رسل الله.. وهي الأمة الخاتمة التي جعلها الله أمة وسطاً، وهو جعْل إلهي لا ينفكّ عن هذه الأمة مهما حصل بها من ضعف، إنما الله تعالى يبتلي هذه الأمة بالخير والشر حتى تبقى مستقيمة على أمر الله فإذا غفلت ابتلاها بالشرور وسلّط عليها عدوها حتى تستفيق من غفلتها، كما قال عزّ وجلّ عمّن سبقونا؛ بني إسرائيل: (..وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {168}) الأعراف،، وقد يطول هذا الابتلاء أو يقصر.. فبنو إسرائيل تاهوا في الأرض أربعين سنة، وكان الأمر منوطاً بهم.. والأمر الآن منوط بنا نحن المسلمون، فبحسب درجة وعينا على رسالة ربّنا وعلى مُهمَّتنا التي وُجِدنا من أجلها، وعلى منهاج نبيّنا ﷺ، يطول الابتلاء ويقصر. إن الله تعالى قد وعد الأمة بالنصر والتمكين والاستخلاف وأن يبلغ الإسلام مشرق الأرض ومغربها.. إن هي عادت إلى ربها وعلى "منهاج النبوة".. (حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ).. والله تعالى لن يسمح أبداً أن تفنى هذه الأمة أو أن يذهب منها الخير.. وذلك لبقاء رسالة الله وبيانها من سنة رسوله.. وحتى آخر الزمان إلى أن تقوم الساعة على شرار الناس. والحمد لله ربّ العالمين.

هذا، وما سبق ذكره هو من بعض ما خصّ الله تعالى به الرسالة الخاتمة والرّسول الخاتم، والأمّة الخاتمة، من سنن ومن معالجات شرعيّة.. لذلك يجب معرفة تلك الخصوصية عند "تحقيق المناط" - لأنها جزء من حقيقة واقع الأمة - وقبل تنزيل المعالجات على واقع المسلمين.

﴿..ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ .. ٣﴾ المائدة: ٣

"وهذا الإكمال عند الجمهور هو: الإظهار واستيعاب معظم الفرائض والتحليل والتحريم" فإكمال الدين لله هو إكمال الأمة دينونتها وعبوديتها لله، أي جعْل العبادة كلها خالصة لله وحده.. وهذا يقتضي إتمام الشريعة وأن يكون دين الله هو الظاهر.

[انظر، تفسير ابن عطية، والطبري والبغوي والشوكاني. وانظر (الباب الأول - المبحث الأول/فقرة 4)].

نقول: إن **حال** "إكمال الدين لله" - بخصائصها ومقوماتها - هي "**الحال المعيارية**" أو "**المقياس**" أو "**المرجع**" في قياس مدى تحقق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني.. وهي **المقياس** الذي يُرجع إليه - في كل زمان - عند النظر في واقع الأمّة المسلمة لتقييمه (تحقيق المناط)، وبالتالي لمعرفة ما يجب شرعاً عمله (المعالجات).. فهي **الحال الشرعيّة الأصل** التي **يجب** أن يكون عليها المسلمون **دائماً**، حتى قيام الساعة، بوصفهم الأمّة الخاتمة المسؤولة عن رسالة الله الخاتمة؛ تطبيقاً ودعوة.

وسنُلقي مزيداً من الضوء على مفهوم "**الحالة المعيارية**" لـ "**إكمال الدّين لله**"، التي ترك عليها رسولُ الله "الأمّة المسلمة" عند وفاته ﷺ، لتجلية ابرز خصائصها ومقوماتها، من خلال النقاط التالية :

<u>النقطة الأولى</u>: "أمة" تحقق شروط التكليف؛ "الأمة المكلّفة".

في ما سبق من البحث.. **[انظر (الباب الأول - المبحث الأول/ ثالثاً : 5)]**.. بيّنا **الوصف** الشرعي لـ "الأمة المكلّفة" بجميع أحكام الدين، والمُخوّلة والقادرة على تنفيذها في الواقع.. وقلنا إن له أركاناً يقوم عليها. أو هي شروط له:

1- أنها "مسلمة لله"؛ لا **تريد** إلا **طاعة** الله وحده ولا تُشرك به شيئاً.. ولا **تريد** إلا **اتباع** رسول الله الخاتم محمّد ﷺ في نظام حياتها و **صياغة** أفكارها ومشاعرها، **ورعاية شؤونها** كلها الداخلية والخارجية.. بمعنى <u>أنّها لا ترضى إلا بتطبيق جميع أحكام الإسلام على واقعها</u>، وأن <u>**تَحْمل** رسالة الله للعالمين رحمة وهدى</u>.. (إكمال الدين لله).. وهذا هو المعنى الحقيقي والواقعي لشهادة أنه "لا إله إلا الله محمد رسول الله".. وهي "الفكرة" التي تقوم عليها "الأمة" ومن أجلها قامت..

2- وحتى تكون الأمة **قادرة** على تحقيق **إرادتها** تلك؛ "إكمال الدين" لله **عزّوجل**؛ أن تكون السيادة لدين الله على الأرض.. **[أي إخلاص الدين لله، كلمة الله هي العليا، أن يكون الدين كله لله عزّ وجلّ]..** لا بد من إيجاد مقومات هذه **القدرة** (الأسباب اللازمة)، وهي:
أن تكون الأمة **مُمَكّن لها** في بقعة من الأرض..
وعلامة التمكين أن تكون هي صاحبة **السلطان** على تلك الأرض..
ومتجسّداً في "**إمارة عامة**".. هو "أمير المؤمنين" أو "الخليفة" أو "وليّ الأمر الشرعيّ"..
لينوب عن الأمة في رعاية شؤونها كلّها بشريعة الله، والسير بها إلى "إكمال الدين" لله **عزّوجل**..
على أن يُحقق الشروط الشرعية لتلك النيابة أو الوكالة.. وعلى ذلك تتم له بيعة المسلمين - بوصفهم مسلمين - على السمع والطاعة، ما أطاع الله **جلّ شأنه**.. كما في توجيهات هذه الآيات الكريمة:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠)﴾ [الإسراء]

(إن نبيّ الله عَلِم أن لا طاقةَ له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسَأل الله سلطانا نصيراً لكتاب الله **عزّ وجلّ**، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، وإن السلطان رحمة من الله جعلها بين أظهر عباده..). **[انظر تفسير ابن كثير وتفسير الطبري].**

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج]

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾ [الصف]

حينئذ.. بواسطة **الإرادة الجازمة**، الناشئة عن **اليقين** بـ لا إله إلا الله محمد رسول الله وباليوم الآخر..

و القوة **والقدرة الذاتية الكافية**، التي توجِد **السلطان** وتحافظ عليه.. وأن **يتمثّل** هذا السلطان بـ **"إمارة عامة"**..

بهما معاً - **الإرادة** الجازمة **والقدرة** الذاتية الكافية - تصبح **"كلمة** الله هي **العليا"**، حينئذ تكون قد وُجِدَت "الأمة المكلّفة".

وبعد ذلك.. تستطيع هذه "الأمة المكلّفة" السير نحو **"إكمال** الدين لله" أو **"إخلاص** الدين لله".. حتى تصبح "أمة مسلمة" بكامل خصائصها ومقوماتها؛ أي، الوصول إلى "الحالة المعيارية".. والمحافظة عليها..

ونذكِّر هنا، أن "القدرة الذاتية الكافية" يجب أن تتوفَّر - في حدها الأدنى - في مجالات أربعة كبرى:

- المجال **الفكريّ** و**الرُوحيّ** : الوعي والبصيرة؛ على دين الله وواقع الأمة ووظيفتها.. وأن رضوان الله هو غاية الغايات.. وهذا المجال هو الأهم والأخطر؛ فهو الأساس الذي يقوم علي باقي المجالات.. فهو أصل **الإرادة** الجازمة **والقوة** الدافعة، لإيجاد **القدرة** اللازمة في المجالات الأخرى..
- المجال **المجتمعيّ :** أساسه الأخوة في الله؛ تماسُك الأمة كالبنيان المرصوص، "كمثل الجسد الواحد"..
- المجال **السياسي** : قيادة مؤهلة شرعاً وقدراً؛ واحدة، قوية، عالِمة، حكيمة.. وأن يكون ولاء الأمة لدينها وللمؤمنين ولقيادتها الراشدة.. **[تفصيل أكثر لموضوع "الولاء والبراء" في موضعه]**

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ النساء: ١١٥

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ المائدة: ٥٥ - ٥٦

- المجال **المادي** : أي الماليّ والعسكريّ والعِلْميّ (التقنية) والتنظيميّ.. وهو المجال الوحيد الذي يمكن - في واقعه - أن يكون غير ذاتي في الأمة.. إلا أن **حقيقة** التمكين والسلطان وواقعهما

يقتضي - شرعاً وقدراً - أن تكون القوة الماديّة **اللازمة، ذاتية** في المسلمين، أي بقدراتهم الذاتية وبدون أي مشاركة فعّالة من غير المسلمين، وهذا من لوازم التمكين، أي من لوازم كون المسلمين مُمَكّنين في الأرض؛ أي في حصول التمكين وفي استمراره:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٠] (242)

وعليه، أن تكون "كلمة الله هي **العليا**"، يقتضي أن يكون المسلمون - بوصفهم مسلمين - **مُمَكّن** لهم في بقعة من الأرض، ولهم **سلطان** عليها، وأن يكون السلطان متمثل **بإمارة** عامة، وأن أمانهم **بقدراتهم** الذاتية.. وهذه هي **مقوّمات** الوصف الشرعي لـ "الأمة المكلّفة".

هذا، والمسلمون مكلّفون بأحكام الإسلام؛ إما بوصفهم **"أمة"** تحقق شروط التكليف، أو بوصفهم **"أفراداً"** أو **"جماعة"** يحققون شروط التكليف.. إلا أن **أصل التكليف** بجميع أحكام الإسلام (إخلاص الدين لله) - سواء فروض الكفاية أو فروض الأعيان - أنها تقع على عاتق **الفرد** المسلم الذي يحقق شروط التكليف؛ من البلوغ والعقل والاستطاعة..

هذا من حيث أصل التكليف..

أما من حيث **التنفيذ** في الواقع..

فالأمر يختلف، فهناك أحكام مُنَاطٌ تنفيذها **بالفرد** (مثل الصلاة والصيام)، وهناك أحكام مُنَاطٌ تنفيذها بـ **"الجماعة"** من المسلمين (مثل صلاة الجماعة وبعض فروض الكفاية).. وتوجَد أحكام أخرى (مثل إقامة الحدود) مُنَاطٌ تنفيذها بـ **"الأمة المكلّفة"**؛ أي الأمة المُحقِّقة لشروط التكليف **والمخوَّلة بتنــفيذ** جميع أحكام الإسلام، منها الأحكام المنوطة بالسلطان.. حتى يمكنها القيام **بتطبيق** أحكام الله حتى "إكمال الدين لله"، **والوصول** إلى "الحالة المعيارية".. فكل **مُكلَّف** له دائرة (مجموعة) من المعالجات والأحكام **مُنَاطة** به، وهو **وحده** المسؤول عن **تنفيذها**.. ولا يُجزئ مُكلَّف عن آخر القيام بما أناط الله **تعالى** به من أحكام ومعالجات شرعيّة إلا بدليل شرعيّ.

242 - (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة).. فهي حدود الطاقة إلى أقصاها. بحيث لا يقعد المسلمون عن=> إعداد سبب من أسباب القوة على اختلاف صنوفها وألوانها، يَدخل في طاقتهم. كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة: (ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم).. فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء المسلمين في الأرض، سواء الذين يعلمهم المسلمون أو مَنْ وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم. وهؤلاء تُرهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد إليهم بالفعل. والمسلمون مكلّفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مَرْهُوبين في الأرض؛ ولتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله)). **[في ظلال القرآن، بتصرف]**. نقول: وتحقيق هذه الأغراض المقصودة من إعداد القوة بأشكالها؛ وخاصة المادية، تقتضي أن تكون تلك القوة ذاتيّة في المسلمين، أي بقدراتهم الذاتية وبدون أي مشاركة فعّالة من غير المسلمين.

ومن هنا، فالمسلمون بالنسبة **لتنفيذ** جميع أحكام الإسلام (إخلاص الدين لله)، من أحد الاحتمالين؛ إما أنهم **محققون** للوصف الشرعي لـ "الأمة المكلّفة"؛ وهي المخولة والقادرة على تنفيذ جميع أحكام الإسلام.. أو أنّهم **غير محققين** ذلك:

فإنْ كانوا **غير محققين،** فـ "الأمة **المكلّفة**" غير موجودة.. وعليه، فجميع الأحكام الشرعيّة المُناط تنفيذها بها، تبقى **معلّقة** دون تنفيذ، حتى توجد "الأمة المكلّفة"..
الأمر الذي يعني، أن المسلمين في هذه الحالة؛ غير "مخلصي الدين لله" - تعالى الله عن الشريك - عندها يصبح الفرْض المطلوب؛ أي "فرض الوقت" [243] في حق المسلمين، هو تحقيق "إخلاص الدين لله"، والطريق الشرعي لذلك هو إيجاد "الأمة المكلّفة" بوصفها الشرعي، وهو "فرض عين" على كل مسلم مكلّف حتى يتحقق الأمر في الواقع، أي أن توجد "الأمة" التي تحقق شروط التكليف **والمخوّلة والقادرة على تنفيذ** أحكام الإسلام، حتى إخلاص (إكمال) الدين لله والوصول إلى "الحالة المعيارية".. (تحقيق الغاية من الرسالة)..

أما إن كان المسلمون **محققين** الوصف الشرعي لـ **"الأمة المكلّفة"**.. فيصبح الفرْض على المسلمين؛ أفرادا وجماعة وأمة، هو إكمال السير قُدُماً - دون أدنى تأخير - نحو "إكمال الدين لله" والوصول إلى "الحالة المعيارية".

النقطة الثانية: حال "إكمال الدّين لله" (كلمة الله هي العليا) لا يلزم منه أن يكون جميع آحاد الناس الذين يعيشون تحت سلطان الأمة، مسلمين.

أن تكون **"كلمة** الله هي **العليا"** على بقعة من الأرض، هي أبرز علامة أو **دليل** على وجود "الأمة **المكلّفة**" المخوّلة بتنفيذ جميع أحكام الإسلام - ومنها الأحكام الشرعية المُناط تنفيذها بالسلطان - والقادرة على السير قُدُماً نحو "إكمال الدين لله"..
بمعنى، أن تكون "كلمة الله هي العليا"، هو المظهر الحاسم في الحكم على جموع المسلمين: إن كانوا يحققون الوصف الشرعي لـ "الأمة المكلّفة"، أم لا.. وهو الأمر المعتبر عند النظر في واقع المسلمين عند "تحقيق المناط" لمعرفة مدى **تحقّق** "الغاية من الرسالة" في واقعهم..
وليس ملاحظة كونهم **مسلمين** فقط.. كأفراد أو جماعات.. أو **إيمان** عموم الناس، أي من كونهم مسلمين أم لا.. أو ملاحظة عدد حفظة القرآن الكريم .. وعدد المعتمرين أو حُجّاج بيت الله الحرام في كل عام..

وأن تكون "كلمة الله هي العليا"، هو المظهر الحاسم في الحكم على المجتمع - كمجتمع - بأنه "مجتمع إسلامي" أم "مجتمع جاهلي" وبغض النظر عن غالبية الناس هل هُم مسلمون أم لا.. فـ "الجاهليّة" هي: كل نظام للحياة غير نظام الله، أي غير دين الله وشريعته:
قال النبي ﷺ: (فإنها لم تكن **نبوة** قط إلا كان بين يديها **جاهلية**). **[الترمذي ٣١٦٨ - حسن صحيح].**

---

243 - فرض الوقت، هو(العبادة التي يحبها الله تعالى مقتضى الوقت المعيّن ووظيفته. فأفضل العبادات => في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، مِن صلاة الليل وصيام النهار، بل ومِن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن. والأفضل وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل. والأفضل في وقت السَّحَر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار).. **انظر (مدارج السالكين) - ابن القيم.**

والدين الخاتم هو الإسلام، فأي نظام غيره فهو الجاهليّة..

وحال "**إكمال الدّين** لله" (كلمة الله هي العليا) **لا يلزم** منه أن يكون **جميع** آحاد الناس الذين يعيشون تحت سلطان الأمة، مسلمين.. إنما يجوز أن يكون منهم غير مسلمين؛ وهم "أهل الذمة".. بل قد تكون الغالبيّة من غير المسلمين، كما في حال البلاد المحرَّرة حديثاً من سلطان الجاهليّة.. لأن الله تبارك وتعالى قد جعل **الأصل** في **دعوة الأفراد** الكافرين **للدخول** في الإسلام؛ **عدم الإكراه**:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾ [البقرة] [244]

فلا **يُكرَه** أحد من الناس على **الدخول** في دين الله - بمعنى أن يُصبحوا مسلمين - فإن اختاروا أن يبقوا على دينهم، فهُم وذاك [245]..

إلا أنّ عليهم الخضوع لأحكام الله في حياتهم العامة وعلاقاتهم مثل سائر الناس. وعليهم - بوصفهم ذميين - أن يدفعوا الجزية، عن مَقْدرة، إلى بيت مال المسلمين. هذا هو حكم الله النهائي الذي كان عليه العمل فعلاً زمن الرسول ﷺ في المدينة المنورة وفي الجزيرة العربية. وكذلك كان الحال والعمل زمن الخلفاء الراشدين ومن أتى بعدهم في البلدان التي **فُتحت** لاحقاً **وحُـرِّرت** من عبادة غير الله تبارك وتعالى، وأصبحت كلمة الله هي العليا عليها.. وإلا لم يكن هنالك "أهل ذمة" أصلاً..

فـ "أهل الذمة" هم غير المسلمين الذين يخضعون لسلطان المسلمين وينقادون لأحكام الإسلام (القانون العام). وقد أقرّهم الله **تعالى** أن يبقوا على عقيدتهم وعلى بعض أحكام دينهم في بعض شؤونهم الشخصية، إنْ هم أرادوا ذلك. ويدفعون الجزية مقابل عيشهم في أمان بين المسلمين [246]**:**

---

244 - أنظر(صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي. وتفسير ابن كثير، مثلاً.

245 - وإن اختار أحدهم أن يدخل في دين الله، فبها ونعمت، لكن إن اختار الرِّدة والخروج منه، يُستتاب، وإن أَبَى إلا تَـرْك الإسلام بعد أن دخل فيه، يُقام عليه حد الردّة؛ وهو القتل.. فقبل دخوله الإسلام كان له=> الخيار، وسيواجه العاقبة السيئة لاختياره؛ بأن يعيش ذمياً ثم في عذاب جهنم يوم القيامة، وإذا اختار دخول دين الله، فهو أيضاً سيواجه العاقبة الحسنة لاختياره؛ وهو العيش كمسلم في طاعة الله ثم النعيم في الجنة يوم القيامة، وإذا اختار الرِّدة بالخروج من دين الله بعد أن دخل فيه، فمصيره القتل في الدنيا ثم عذاب النار في الآخرة، وهذه هي عاقبة اختياره. (وهذه هي "الحرية الدينية" في الإسلام؛ فهو حر في ما يختار، لكنه سيواجه عاقبة اختياره. وهذه سنة كونية من سنن الله؛ في أنه جعل في الإنسان "حرية الاختيار" فهو سيواجه نتيجة اختياراته - في الدنيا وفي الآخرة - إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ، ولو بمثقال الذرة). كما في الرواية عن عبدالله بن عباس: (أُتِيَ عَلِيٌّ رَضِيَ الله عنْه، بزَنادِقَةٍ فأحْرَقَهُمْ، فَبَلَغَ ذلكَ ابْنَ عبّاسٍ فقالَ: لو كُنْتُ أنا لَمْ أُحْرِقْهُمْ، لِنَهْيِ رَسولِ الله ﷺ: {لا تُعَذِّبُوا بعَذابِ الله}ولَقَتَلْتُهُمْ، لِقَوْلِ رَسولِ الله ﷺ {مَن بَدَّلَ دِينَهُ فاقْتُلُوهُ}). **[صحيح البخاري ٦٩٢٢].**

وعن معاذ بن جبل: (قدمَ على أبي مُوسى مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ بِاليَمَنِ فإذا رجلٌ عندَهُ، قال: ما هذا ؟ قال: رجلٌ كان يَهودِيًّا فَأَسلمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ ونحنُ نُريدُهُ على الإسلامِ مُنْذُ - قال أَحْسَبُهُ - شَهْرَيْنِ. فقال: والله لا أَقْعُدُ حتى تَضْرِبُوا عُنُقَهُ. فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ. فقال: قَضى الله ورسولُهُ أَنَّ مَنْ رجعَ عن دَيْنِهِ فاقْتُلوهُ أوْ قال: مَنْ بَدَّلَ دَيْنَهُ فاقْتُلوهُ}). **[الألباني، إرواء الغليل ١٢٥/٨، إسناده صحيح على شرط الشيخين. وشعيب الأرناؤوط، تخريج المسند ٢٢٠١٥، إسناده صحيح، أخرجه أحمد (٢٢٠١٥) واللفظ له، وعبدالرزاق (١٨٧٠٥) باختلاف يسير، وابن أبي شيبة (٣٣٣٩٨) مختصراً. موقع (الدرر السنيّة) على الشبكة].**

246 - مشركو العرب وحدهم مستـثـنَـون من هذا الحكم العام، فحكم الله فيهم إما الإسلام أو القتل. **[أنظر مثلاً (الجهاد والقتال في السياسة الشرعية) د محمد خير هيكل].**

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾ [التوبة]

فليست **الغاية** أن يكون **جميع** الأفراد الخاضعين لسلطان المسلمين (في المجتمع الإسلامي) مسلمين.. بل **الغاية** أن تكون "كلمة الله هي **العليا**"، ودينه هو الظاهر.. أي أن **أمر** الله **وحُكْمه** هو النافذ في حياة الناس؛ في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع علاقاتهم.. في القضاء والحُكُم والسياسة والاقتصاد.. وهذا يقتضي أن يكون المسلمون هم أصحاب السلطان والقوة على الأرض.. أي لهم الغلبة والحكم.. وإن كان الكثير من الناس أو غالبيتهم من غير المسلمين.. هكذا يكون "الدين خالصاً لله" و "الدين كلّه لله":

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ الله الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{1} إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{2} أَلَا لله الدِّينُ الْخَالِصُ.. {3}) الزمر

وإن بقي ـ تحت سلطان المسلمين ـ بعض الناس أو كثير منهم كفاراً، ويتبعون غير شريعة الله في بعض شؤونهم الخاصة، وإن كان ذلك كذلك، فما كان إلا لأن الله تعالى سمِح به، فهُم في هذه أيضاً خاضعون لأمر الله، كما هم خاضعون لأمر الله في حياتهم العامة، فلا طاعة ـ على الحقيقة ـ إلا لله وحده. وهذا هو المقصود بأن تكون "كلمة الله هي العليا".

ومن هنا، فإن ملاحظة **إيمان** عموم الناس، أي من كونهم مسلمين أم لا.. **ليس له اعتبار هنا**.. أي **عند** قياس مدى **تحقّق "الغاية** من الرسالة" في الواقع عند تشخيص واقع المسلمين.. بل المعتبر هو: هل "كلمة الله هي العليا"، أم لا ؟.. أي، هل يحقق المسلمون وصف "الأمة المكلّفة"، أم لا؟..

النقطة الثالثة: "الأمة المكلّفة" غير موجودة الآن.

أصبح من المعلوم الآن، أن الحالة التي لا يحقق في المسلمون وصف "الأمة المكلّفة"، هي الحالة التي لا تكون فيها "كلمة الله هي **العليا**" على الأرض التي يعيشون عليها.

هذا، وقد مر على الأمة ـ في تاريخها الطويل ـ نوعين لهذه الحالة:

النوع الأول: أن "الأمة المكلّفة" **موجودة**، ولكن قد تصبح كلمة الله **ليست** هي العليا على **جزء** من الأرض التي كانت خاضعة لسلطان المسلمين، وذلك مثل:

- ✓ أن **يغلِب** أهلُ الحرب على بقعة من الأرض كانت خاضعة لسلطان المسلمين،
- ✓ أن **يرتدّ** أهلُ مِصرٍ **ويَغْلِبوا ويُجْرُوا** أحكامَ الكفر،
- ✓ أن **يَنقُض** أهلُ الذّمّةِ العهدَ، **ويتغلّبوا** على الأرض التي يعيشون عليها.

وهذا النوع ـ بأشكاله المختلفة ـ حدث كثيراً في تاريخ المسلمين.. وبأزمان مختلفة وأماكن مختلفة.. فمنها ما كان يَسْترجعه المسلمون إلى سلطانهم وتعود كلمة الله هي العليا، مرة أخرى.. مثل بعض التخوم والأراضي التي حُرِّرت حديثاً من سلطان الجاهلية.. ومنها ما لم يستردوه، مثل **الأندلس** بعد أن استولى النصارى القوط عليها.. **والهند** بعد الاستعمار البريطاني لها.. على وجود الدولة العثمانية..

وهذه القضايا بحَثَها بالتفصيل علماء المسلمين الذين عاصروها، ومَنْ أتى بعدهم، وبيّنوا فيها الحكم الشرعيّ ضمن مسألة الجهاد، و "دار الإسلام" و "دار الكفر" أو "دار الحرب".. ومتى تتحول "دار الإسلام" إلى "دار حرب" أو العكس.. وما الواجب في حق المسلمين حينئذٍ.. الخ [247]..

النوع الثاني: "الأمة المكلّفة" غير موجودة مطلقاً، وذلك بأن تُصبح كلمة الله **ليست** هي العليا على **جميع البلاد** التي كانت خاضعة لسلطان المسلمين يوماً ما.

وهذه الحالة لم تحدث للأمة إلا في هذا الزمن من تاريخ الأمة الطويل، وذلك بعد أن هُدِمت آخر دولة مسلمة وأُزيل آخر نظام حكم للإسلام؛ الخلافة العثمانية في 1342 هـ الموافق 1924 م .. حيث **تغلّبت** دول الكفر على بلاد المسلمين وألغوا نظام الإسلام بالكامل؛ من الحُكم ومن حياة الناس، واستبدلوه بأنظمة الكفر الجاهليّة، وفَصَلوا الدين عن الحياة، وصَبَغوا حياة المسلمين في كل مرافقها العامة - في التشريع والقضاء والتعليم والإعلام، وفي كثير من تفاصيل الحياة اليومية.. - بالصِّبْغة "الجاهليّة" [248]..

---

247 - انظر مثلاً: (العبرة بما جاء في الغزو والشهادة والهجرة) - صدّيق بن حسن القَنوجي.

248 - "الجاهليّة" كما يُفهم معناها من القرآن والسنة، هي: كل نظام للحياة غير نظام الله، أي غير دين الله وشريعته، والدين الخاتم هو الإسلام، فأي نظام غيره الآن هو الجاهليّة. فقد وردت لفظة: "الجاهليّة" في مواضع أربعة في القرآن الكريم:

- (ظن الجاهليّة)، [آل عمران 154]، تُلمّح إلى الجانب العقدي عند أهل الجاهليّة، المتمثل في الجهل بالله تعالى وصفاته،
- (حُكْم الجاهليّة)، [المائدة 50]، تشير إلى الجانب القانوني الذي ساد المجتمع الجاهلي، القائم على الأهواء والميول الذاتية،
- (تبرّج الجاهليّة)، [الأحزاب 33]، تذْكُر زينة المرأة في الحياة العامة، وفيها إشارة إلى الجانب الأخلاقي الذي كان سائداً في الجاهليّة من حيث علاقة الرجل بالمرأة،
- (حميّة الجاهليّة)، [الفتح 26]، وهي تشير إلى طبيعة العقلية الجاهليّة، والأسس التي تحكم العلاقات المجتمعيّة بين الأفراد، والقائمة على مبدأ العصبية والحميّة للقبيلة.

فهذه المواضع الأربعة في القرآن الكريم، التي ذُكر فيها لفظ "الجاهليّة" قد أجملت وصف الجاهليّة في أهم خصائصها، العقدية والقانونية والأخلاقية والاجتماعية، لتشير - على نحو بديع وبعبارة مجملة - إلى أبرز خصائص المجتمع الجاهلي، إنها تتحدث عن نظام كامل، بكل خصائصه ومختلف جوانبه، نظام مقابل تماماً لنظام الإسلام في شتى الجوانب، نظام له تصوراته ونُظمه الخاصة به، المقابلة لنُظم الإسلام وتصوراته. فكل آية من هذه الآيات الكريمة، تشير إلى جانب بارز في المجتمع الجاهلي، ويتشكل بها جميعاً صورة كليّة للمجتمع الجاهلي. ويؤكّد هذا: أن الآيات جميعها مدنية، نزلت بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وقيام المجتمع الإسلامي، المتميز عن الجاهليّة، والمختلف عنها في كل القيم والتصورات. **[انظر مقالة حول "وُرود كلمة الجاهليّة في القرآن" - صالح الماجد - ملتقى أهل التفسير].**

هذا، وقد ورد مصطلح "الجاهليّة" في السنّة النبوية، في سياقات مكملة ومؤكّدة للتي في القرآن، تشير إلى جوانب أخرى من نظام الحياة الجاهليّ، منها:

- أن مصطلح "الجاهليّة"، يُطلق على كل فترة تسبق مبعث نبي من الأنبياء، حيث انحرف الناس عن دين الله وبعدوا عن شريعته، كما في الحديث عن عمران بن حصين، أن النبي ﷺ قال - الحديث وفيه - (فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية) **[سنن الترمذي ٣١٦٨، حسن صحيح].** =>

فلم يعد لا للإسلام ولا للمسلمين - بوصفهم مسلمين - تمكين ولا سلطان على أي بقعة من الأرض.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

النتيجة في "تحقيق المناط":

عند النظر في واقع المسلمين الآن، وقياساً إلى "تحقيق الغاية" من الرسالة، وفي ضوء ما سبق وبيّناه من خصائص "الأمة المكلّفة، وهي بمثابة محدّدات وضوابط عامة:

فمن الواضح جداً أننا نحن المسلمون **لا يتوفّر** فينا الوصف الشرعي لـ **الأمة المسلمة** المحقِّقة لشروط **التكليف**: التمكين والسلطان.. فليست هناك بقعة من الأرض كلها يصح فيها القول: إن المسلمين - بوصفهم مسلمين - ممكنون فيها، أو إن "كلمة الله هي العليا" عليها، أو إن "الدين كلّه لله".. فـ "**الأمة المكلّفة**" غير موجودة..

فواقعنا كمسلمين الآن؛ أننا أفراد أو جماعات غير ممَكّن لنا في الأرض - **بوصفنا مسلمين** - نعيش في مجتمعات وعلى أرض ليست "كلمة الله هي العليا" فيها.. فنحن في تنظيم علاقاتنا وشؤون حياتنا، نخضع لشريعة وقوانين غير شريعة الله وقوانينه.. أو نخضع لها **مع** شريعة الله **عزّوجل**، فنحن لا "**نُخلص** الدين لله".. لأن "**الكلمة العليا**" في الأرض التي نعيش عليها ليست لله **وحده**، والأمر النافذ ليس أمر الله **وحده**.. فصاحب الحُكْم والقضاء في أموالنا وأعراضنا ودمائنا، ليس الله **وحده**.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.. وإنّا لله وإنا إليه راجعون..

هذا هو واقعنا كمسلمين الآن قياساً إلى تحقّق الغاية من الرسالة في الواقع؛ المهمة الأصل للأمة المسلمة..

وعليه، فَـ "فَرْض الوقت" في حق المسلمين الآن (249)، هو أن "يُخلصوا الدين لله" فلا يُشركوا بطاعة ربهم أحداً.. فيعودوا "أمة مسلمة" لله بكامل خصائصها ومكوناتها.. أي العودة إلى "الحالة المعيارية" في تحقيق "إكمال الدين لله"..

ولتحقيق ذلك: على المسلمين أن يعملوا - دون تأخير - على إعادة **تأهيل أنفسهم** حتى يتمثّلوا الوصف الشرعي لـ "**الأمة" المحقِّقة** لشروط التكليف، **والمخوّلة** بتنفيذ جميع أحكام الله.. وهو: وجود "الإرادة" الجازمة لذلك و "القدرة" الكافية عليه.. بمعنى، تحقيق مقومات "الأمة المكلّفة".. كما ذكرنا.

هذه هي الغاية المطلوبة الآن، والتي لا يجوز لنا - نحن المسلمون - الانشغال عنها أو التلهي بأي

- عنِ جابر (أن النبيّ ﷺ نَهى عن ثمنِ الكلبِ وقال طُعْمَةُ جاهِلِيَّةٍ) **[مجمع الزوائد ٤-٩٤الهيثمي - رجاله ثقات]**
- كما في قول رسول الله: (يا أَبا ذَرٍّ، إنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جاهِلِيَّةٌ) **[البخاري ومسلم].**
- (فمِيتةٌ جاهليَّةٌ) و (فقِتلةٌ جاهليَّةٌ). **[عن أبي هريرة - صحيح ابن حبان ٤٥٨٠].**
- (ألَا كلُّ شيءٍ مِن أمرِ الجاهليَّةِ تحتَ قدَميَّ موضوعٌ) من خطبة رسول الله في حُجَّة الوداع **[عن جابر - صحيح ابن حبان ٣٩٤٤].** فالجاهليّة هي: كل نظام للحياة غير دين الله وشريعته؛ الإسلام. والله تعالى أعلم.

249 - فرض الوقت، هو(العبادة التي يحبها الله تعالى مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، مِن صلاة الليل وصيام النهار، بل ومِن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن).. **[انظر (مدارج السالكين) - ابن القيم].**

أهداف أو غايات أخرى غيرها مطلقاً.. ولا تبرأ ذمتنا أمام الله **تعالى** ولا نخرج من دائرة الإثم ومن غضب الله وعذابه - الواقعون نحن فيه الآن من الذل والهوان وتغلّب أمم الكفر علينا، فلا يَرْقبون فينا إلاً ولا ذمّة - إلا بالتَـلَبُّس بالعمل الجاد الدؤوب لتحقيق تلك الغاية في واقعنا.. (حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ).

والآن، إلى **الخطوة الثانية** في تنزيل "منهاج النبوّة" على الواقع الآن: وهي "بيان المعالجات والأعمال المطلوبة، وأولوياتها" (الطريقة العملية) لتحقيق تلك الغاية النبيلة العظيمة..

لكن، قبل ذلك، نرى أنه من المهم الإشارة إلى بعض **الطروحات** (الأفهام) الأخرى الواردة حول **تشخيص** واقع المسلمين الآن (تحقيق المناط)، لمناقشتها بإجمال، وسنشير إلى اثنـين منها:

الطرح الأول : وهو متعلّق بالحُكْم على إيمان عموم الناس المدعوين.

وهو على قولين**:**

1- القول بأن عموم الناس المدعوين الآن مسلمين وليسوا كفاراً كالجاهلية الأولى.

حيث يُقال: إن وصف واقع المسلمين المذكور آنفاً، محسوس وواضح، لكن يَـرِد التساؤل التالي: ما هو أثر اختلاف واقع عموم الناس المدعوين على خطاب الدعوة وأعمالها؟.. فزمن رسول الله ﷺ كان كان المجتمع جاهلياً كافراً بالكامل؛ التشريعات والقيادات وعامة الناس كذلك.. بينما الآن - رغم أن أنظمة وقوانين المجتمعات جاهلية - فإن عموم الناس مسلمين.. فعندما دَعَى رسول الله ﷺ المجتمع الجاهلي آنذاك، كان من الطبيعي دعوة الناس إلى الإيمان بداية، فهم كفّار، حيث كان "فحوى خطاب" الدعوة هو "خطاب النذارة": أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، مع بيان مصير من آمن واتبع، ومصير من أبى واستكبر (قم فأنذر).. وبعدما آمن الناس ومكّنهم الله **تعالى** في الأرض بدأت الأحكام الشرعية تتنزّل، لتنظيم حياة الناس وللسير بالأمة نحو الغاية المرادة؛ إكمال الدين لله..
بينما الآن عموم الناس المدعوين مسلمين وليسوا كفاراً، إلا أن هناك عدم وضوح أو فهم غير صحيح أو حتى انحراف.. في فَهْم بعض أحكام الإسلام ومفاهيمه وبعض عقائده.. فالأصل أن يكون "فحوى الخطاب" متناسب مع واقع المسلمين الآن، وذلك بالدعوة إلى تصحيح تلك الانحرافات في الأحكام والمفاهيم وبعض العقائد.. وليس بالدعوة إلى أصل الإيمان؛ أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير.. فهم مسلمون.

هذا ملخّص القول الأول.. أمّا القول الثاني فهو على النقيض..

2- القول بأن عموم الناس المدعوين الآن ليسوا مسلمين بل مشركين.

حيث يُقال: الآن ليس فقط **نظام** المجتمع **جاهلي،** بل **عموم** المسلمين أصبحوا الآن **مشركين،** لذلك فالمطلوب هو دعوتهم إلى الإسلام من جديد.

أمّا كون عموم الناس الآن، مشركين، فذلك:

لأنهم أفراداً و جماعات متلبسون بأعمال شركيّة، أبرزها شرك الطاعة والاتّباع.. فهُم لا يخضعون - في تنظيم علاقاتهم وشؤون حياتهم - لشريعة الله **وحده،** بل لقوانين وشريعة غير شريعة الله **عزّ وجل..** فهم إن لم يكونوا عِباداً لله، سقطوا - حتماً - في عبادة غير الله، **جلّ وعلا..** فعند خضوع الناس وطاعتهم لشريعة أخرى من عند غير الله أو يخضعون لها **مع** شريعة الله **عزّوجل،** فهم لا **يُخلِصون** الدين لله **عزّوجل،** فهم - بطاعتهم لغير الله - يعبدون آلهة غير الله أو يُشركون مع الله آلهة أخرى، في كثير من شؤون حياتهم، فهذه هي حقيقة واقعهم، شاءوا أم أبوا، علموا بذلك أم لم يعلموا..

فهم متّبِعون - في تنظيم شؤون حياتهم - لأحكام غير أحكام الله، فهي أنظمة وقوانين وأحكام "الجاهلية".. فهذه المجتمعات مجتمعات جاهليّة بالكامل..

وكذلك، اعتماداً على قواعد أخرى مثل: "لا عذر بالجهل".. "ومن يحتكم لغير شرع الله فهو كافر".. "ومن قام بعمل كفر فهو كافر" .. "ومن يوالي الكافر فهو كافر".. وغيرها..

فتكون **نتيجة** تلبُّس **عموم** الناس بأعمال شركية - وخاصة شرك الطاعة والاتّباع - هي الحكم على **عموم** الناس بالشرك، وعليه فلا بد من دعوتهم إلى الدخول في الإسلام من جديد كما دعا رسول الله ﷺ المجتمع الجاهلي آنذاك.

هذا ملخّص القول الثاني.

الجواب على مسألة الحكم على إيمان عموم "الناس المدعوِّين"؛ نفياً أو إثباتاً

عند القيام بـ "**تحقيق المناط**" (تشخيص واقع) لمجتمع معيَّن.. يجب الانتباه إلى الفرق بين ما هو **مُعْتَبَر** شرعاً عند النظر إلى المجتمع بوصفه مجتمعاً؛ أي إلى "عموم الناس المدعوين" والشريعة التي تحكمهم.. وبين النظر إلى "فئة معينة" من المجتمع، وبين النظر إلى الأفراد (الأشخاص):

1- **المُعْتَبر في "تحقيق مناط" مجتمع معيَّن؛ بوصفه مجتمعاً**

بيّنا في ما سبق أن هذا الأمر برمته بحث شرعي - ليس غير - وله مقاييس وضوابط شرعية.. فهناك أساس واحد فقط.. هو المقياس، وهو المرجع، وهو **المعتّبر** شرعاً في تشخيص واقع **المجتمع المعيَّن** والأساس فيه، ألا هو: هل كلمة الله هي العليا.. أم لا؟ .. هل يحقّق الناس - في ذلك المجتمع - وصف "الأمة المكلّفة".. أم لا؟..

ومن هنا، فإن **الوصف** المُلزِم **شرعاً** للمرحلة المكيّة من سير رسول الله ﷺ بالرسالة، هو كونها "مرحلة: ما "قبل التمكين"، مرحلة: "الأمة المكلّفة" غير موجودة.. **وغاية** هذه المرحلة، هي إيجاد "**الأمة المكلّفة**"؛ أي **المخولّة** بـ "إكمال الدين لله" و**القادرة** عليه؛ الأمر الذي يقتضي أن يتوفَّر في المسلمين في مجتمع ما، خصائص ومقومات هذه "الأمة المكلّفة" - بيّناها سابقاً - وهي أنهم:

- أمة **مسلمة** لله؛ فلا يرضون إلا بطاعة الله وحده، ولا يقبلون إلا أن تحكمهم شريعة الله..

- **ممكن** لهم في الأرض، ولهم سلطان..

- وبقدراتهم **الذاتية**.. يحافظون على سلطانهم ولتبقى كلمة الله هي العليا..

أي أنهم أمة عندها **الإرادة** الجازمة **والقدرة** الذاتية على تنفيذ جميع أحكام الله؛ ومنها الأحكام المتعلِّقة بالسلطان..

﴿.. **وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ** إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ **إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ** أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾ الحج

فهذه هي خصائص ومقومات "الأمة **المكلّفة**".. التي هي شرط لازم؛ شرعاً وقدراً.. حتى يستطيع المسلمون إكمال دينهم لله (إخلاص الدين لله).. وإيجادها هو **غاية** هذه المرحلة..

وأول عمل قام به رسول الله ﷺ في حال "ما قبل التمكين"؛ خطاباً وأعمالاً.. لتحقيق هذه **الغاية**؛ هو حَمْل فكرة الدعوة (خطاب النذارة)؛ أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير؛ مصير مَن أجاب وأطاع، ومصير من أبى واستكبر.. فأول عمل هو حَمْل هذه الفكرة وتبليغها إلى عموم الناس في المجتمع؛ بجميع فئاتهم، أتباعاً ومتبوعين.. بلاغاً مبيناً..

أمّا القول: بأنه لا بد من ملاحظة **إيمان** عموم فئات الناس عند تحقيق مناط المجتمع؛ سواء الذين يثبتونه أو الذين ينفونه..

نقول: نعم هذا صحيح.. ولكن بعد القيام بالخطوة الأولى أو العمل الأول الذي قام به رسول الله في حالة ما "قبل التمكين"..

فالحُكْم على **إيمان** عموم المدعوِّين؛ نفياً أو إثباتاً.. **ليس** له اعتبار وغير مطلوب شرعاً **عند البدء** في "تحقيق مناط" مجتمع معيَّن؛ بوصفه مجتمعاً..

لأنه مُخالِف لـ "منهج القرآن" ولما قام به رسول الله ﷺ - خطاباً وأعمالاً - في مرحلة "ما قبل التمكين".. حيث أن الله **تعالى** في القرآن الكريم، عندما بدأ بمخاطبة كفار قريش - وهُم كفار أصالة - لم يناداهم بصفة "الكافرين" ولا بأي صفة نقص.. فـ "سورة الكافرون" - مثلاً - من السور المتأخرة في النزول.. بينما كان من أول ما نزل من القرآن الكريم.. الآيات الخمس الأولى من سورة العلق.. ثم سورة الفاتحة.. والآيات الأولى من سورة المدثر.. وبداية خطابهم كان بـ "يا أيها الناس.." و "يا قوم.."

وإنما خاطبهم بما يستحقون من صفات؛ كافرين مجرمين مفسدين ظالمين.. بعد أن أصروا على التكذيب بالحق واتباع الباطل، وقد بَلَغتهم "دعوة الله" بلاغاً مبيناً.. **(للتفصيل انظر "منهج التزكية والتعليم" مرجع سابق)**

ومن هنا، فإن الانشغال بالحُكم على **إيمان** "عموم المدعوِّين" - نفياً أو إثباتاً - **عند** البدء في "تحقيق مناط" مجتمع معيَّن؛ بوصفه مجتمعاً.. **وعند** بداية السير بالرسالة في ذلك المجتمع.. هو انشغال بعمل غير مطلوب شرعاً، وبالتالي فهو يُلْهِي حامل الرسالة عن عمله الأول والأصل، وهو: البدء ببلاغ "فكرة الدعوة" إلى المجتمع؛ أتباعاً ومتبوعين.. بلاغاً مبيناً.. وبيان خطورة مصيرهم إن لم يستجيبوا لدعوة الله لهم.. (خطاب النذارة، وحسب منهج الخطاب).. فتُقام - بذلك - "الحُجَّة الرسالية" على مَن أبى واستكبر.. أما الذين استجابوا من المدعوين - مهما هي الحالة التي كانوا عليها - فالمطلوب هو؛ **رفع سويّتهم** إيمانياً وسلوكياً واستقامةً على أمر الله، ليصبحوا "أمة" تستحق أن يُشرّفها الله **عزّوجل** بحمل أمانة تطبيق دينه، وتبليغ رسالته للعالمين؛ هدى ورحمة..

وهكذا، فإن **أول** ما يجب ملاحظته وبحثه عند العمل على "تحقيق مناط" المجتمع المعيَّن؛ بوصفه مجتمعاً.. هو إيجاد الإجابة الصحيحة لهذا السؤال:

هل تتوفَّر في ذلك المجتمع مقومات "**الأمة المكلّفة**"؛ المخوّلة والقادرة على تنفيذ **جميع** أحكام الإسلام، بما فيها الأحكام الشرعية المُناط تنفيذها بالسلطان.. (كلمة الله هي العليا)..

وليس ملاحظة **إيمان** عموم الناس، أي من كونهم مسلمين أم لا.. أو أنهم مسلمون كأفراد أو جماعات ويؤدون الصلوات جماعة في المساجد.. أو ملاحظة أعداد حفظة القرآن الكريم.. وأعداد الذين يؤدّون العمرة والحج في كل عام.. وأن هناك مشاعر إسلامية تظهر واضحة على عموم المسلمين خاصة في مواسم العبادات؛ كشهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى..

وعليه، فإن **المُعتبر** عند **البدء** في "تحقيق مناط" **المجتمع** (القرية) **المعين** - بوصفه مجتمعاً - هو معرفة هل "كلمة الله" هي العليا، أم لا؟.. فهي الدليل على أن الناس يحققون وصف "الأمة المكلّفة"؛ أمة مسلمة لله، ممكَّنة في الأرض، بقوتها الذاتية.. والتي بها يُمْكِن للمسلمين أن يُخلِصوا دينهم لله..

أمّا النظر إلى **إيمان** عموم فئات الناس في ذلك المجتمع ومواقفهم الفكرية؛ من كونهم مسلمين، نفياً أو إثباتاً.. فليس له اعتبار عند **البدء** في "تحقيق مناط" ذلك المجتمع؛ بوصفه مجتمعاً.. إنما يكون له اعتبار بعد طرح "فكرة الدعوة" إلى الله في المجتمع.. كما سنرى..

2- المُعْتَبر في "تحقيق مناط" "فئة معينة" من فئات المجتمع

بعد إبلاغ عموم فئات الناس في المجتمع، "فكرة الدعوة" إلى الله، وحسب "منهج الخطاب"؛ بلاغاً مبيناً.. والبدء في الدخول مع المجتمع في "جهاد بالقرآن":

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢ ﴾ الفرقان: ٥٢

جهاد فكري سياسي حول "فكرة الدعوة".. حول الطاعة والاتباع في المجتمع، لمَن، لله أم للطاغوت ؟ وهو كل ما عُبِد من دون الله **جلّ وعلا،** فالطاعة والاتباع لأمره في المجتمع..
حينئذٍ، فإن **حقيقة** كل فئة من "فئات المجتمع"؛ مسلمين، أهل كتاب، عَلمانيين، منتفعين، أغلبية صامتة.. وكذلك حقيقة الأفراد - حُكَّاماً ومحكومين - **ستَظهر** بشكل طبيعي من خلال مواقفهم من **الحق،** بعد طرحه بيّناً واضحاً على **عموم الناس** في المجتمع.. متمثلاً بـ "خطاب النذارة" (فكرة الدعوة)؛ أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير.. وحسب "منهج الخطاب"..

وتظهر حقيقتهم على شكل أقوال وأفعال ومواقف؛ فكرية أو سياسية أو حتى مادية.. من الحق الذي بلغ.. فقد تكون على شكل تساؤلات أو نقاشات من أجل الفهم.. أو اعتراضات للتلبيس على الحق.. أو إهمال ولا مبالاة.. إلخ..

وبعد ظهور المواقف وردود الأفعال؛ الفكرية والعملية (المناط).. من فئات المجتمع المختلفة والأفراد.. مِمّا بلغهم من الحق (خطاب النذارة).. بلاغاً مبيناً.. عندها، يلزم حَمَلَة "دعوة الله" ورسالته العمل على "تحقيق مناط" كل فئة من فئات المجتمع - مسلمين وغيرهم - ومعرفة واقعهم الفكري (الإيماني) والسياسي والاقتصادي.. بشكل مفصّل.. لمعرفة ما يلزم كل فئة أو شخص من

معالجات تفصيلية - شرعية وقدرية - حتى يتم تنزيلها على أعمالهم الصادرة عنهم (المناط).. لمعالجتها بالوحي؛ كما هي في آيات الله، وبيانها من سنة رسول الله ﷺ؛ الكتاب والحكمة.. وكذلك الأمر في التعامل مع الأشخاص أو الشخصيات..

بمعنى، أن العبرة **بالغاية** المراد تحقيقها من **إبلاغ** "دعوة الله" إلى الأفراد وفئات الناس في المجتمع.. أي، **بالغاية** المرادة بهذه الخامات البشرية التي تُخاطَب بخطاب الدعوة إلى الله..
ألا وهي: صياغتهم وصناعتهم [250] صناعة خاصة؛ بأن **يُصنَع** منهم **أمة** تُخلِص دينها لله؛ فتَعْبد الله بتطبيق أحكام الله على نفسها، وتحملها للعالمين، هدى ورحمة.. وهي "الأمة المكلّفة"، التي بدونها لا يمكن "إخلاص الدين لله".. أي لا يمكن تحقيق "الغاية من الرسالة ومن بعث الرسول" بها في المجتمع..

هذا، وفي طور متقدّم من السير بالرسالة في مرحلة "ما قبل التمكين".. وقد مرّت فترة من **مجاهدة** عموم فئات الناس في المجتمع **بالقرآن** جهاداً كبيراً؛ في كشف زيف الباطل وإظهار زَيْن الحق ونصاعته.. تكون قد ظَهَرت حقيقة فئات المجتمع والأفراد - بشكل واضح جليّ - من خلال مواقفهم من الحق الثابت **القطعي**.. سواء كانوا حُكّاماً أم محكومين، أتباعاً أم متبوعين..

حينئذٍ، وفي حال ظلوا **مُصرّين** على رفض دعوة الله؛ لاتخاذ الله وحده رباً معبوداً وإلهاً مطاعاً.. (الوحي هو المرجعية الوحيدة).. فمن المعالجات إنزال الآيات المتعلقة بحالهم (المناط) والتي **تصفهم** بما **يستحقّون** شرعاً وقدَراً، **وتكشف** حقيقتهم أمام عامة الناس.. بغض النظر من أي فئة من المجتمع كانوا.. مسلمين، منافقين، وغيرهم.. خاصة أولئك الذين تَـوَلّوا كِبَر التكذيب والإعراض (أئمة الكفر، شياطينهم، أشقاهم).. مثل وَصْفِهم بالجهل، المعاندة، الكِبْر، الإفساد، الظلم، الفسوق، الكفر، الإجرام، بأنهم نجَس.. إلخ.. كما ورد في نصوص الوحي..

الأمر الذي يؤدي إلى دخول حَمَلَة "دعوة الله" مع المجتمع وملئه، في صراع فكري سياسي قوي في مختلف مجالات الحياة المجتمعية، على أساس أن الطاعة لمَن؟.. لله أم للطاغوت؟.. مع بيان أن المصير والمنتهى إلى الله **عزّوجلّ**.. وقد يشتدّ الصراع ويصل إلى استعمال القوة المادية ضد المؤمنين؛ حَمَلَة دعوة الله ورسالته..

وفي **حالة** ثبات كل جهة على موقفها.. كموقف نهائي.. فإن ذلك سيؤدي إلى "صدْعٍ" أو "شقّ" صف الناس في ذلك المجتمع، فيصبحوا فريقين مُتخاصمَيْن في ربّهم: فريق أهل **الحق** الذين أجابوا "دعوة الله".. وفريق أهل **الباطل** المكذِّبين لدعوة الله الرافضين لها..
عندها، يفصل الله بين الفريقين.. بنصر أوليائه وخِزي أعدائه.. وكل حسب سنن الله في مثل هذه الحالة..

ونشير هنا، إلى أنه توجد عدة **حالات** ممكنة الحدوث في النتيجة **النهائية** للعلاقة بين أهل الحق وأهل الباطل في المجتمع.. ومجموعها أربع حالات - سنبيّنها في ما يلي من البحث..

250- ﴿.. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه ٣٩]، أي، "ولتتربّى على نظري وفي حفظي ورعايتي". **[ابن كثير، السعدي، الميسر]**

3- المعْتَبَر في "تحقيق مناط" (تشخيص واقع) **الفرد أو المخاطبون بالدعوة**

أمّا عند التعامل المباشر مع الفرد ـ إضافة لما سبق وتفصيلاً ـ فدعوة الفرد المعيّن؛ مهما كان حال إيمانه ومواقفه الفكرية.. ومن أي فئة من المجتمع كان.. إنما يُدعى (الغاية من دعوته) ليكون مسلماً بوصف معيّن: كما قال النبي ﷺ لعلي **رضي الله عنه**:

(فَوَاللَّه لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ). **[صحيح البخاري 4210]**،

الأمر الذي يقتضي من حَمَلَة دعوة الله ورسالته ـ بعد أن بلغ الحق (خطاب النذارة) ذلك الفرد بلاغاً مبيناً، وبدأت مواقفه بالظهور ـ أن يفهموا واقعه؛ "تحقيق مناطه".. حتى يَعرف حاملُ الرسالة كيف يُخاطِب ذلك الشخص الخِطاب اللازم، وكيف سيُعالج الموانع (شبهات وشهوات) سواء التي في نفسه أو من شيطانه أو من بيئته ومجتمعه.. والتي تمنعه أو تعيق سيره أن يكون ـ إذا أراد ـ مسلماً بوصف معيّن، وجزءاً من "الأمة المكلّفة" بالرسالة.. ثم من "الأمة المسلمة" حاملة الرسالة.. مُكتَملة الخصائص.

هذا، وبشكل عام.. وفي سياق التعامل المباشر مع الفرد المعين، الأصل أن تكون **نظرة الداعية** هي نظرة الطبيب المُعالِج، أي من باب "تشخيص واقع" الفرد المعيّن لمعرفة طبيعة انحرافه عن الحق القطعي الثابت، سواء بتأثير من **الشبهات** أو من **الشهوات**.. وبالتالي تحديد ما يلزمه من المعالجات التفصيلية: شرعيّةً وسننيّةً.. قصيرة الأمد أم بعيدة الأمد.. أي كنظرة الطبيب للمريض لتشخيص حالته ثم تقديم العلاجات المناسبة لحالته حتى يصبح سليماً مُعافى..

مع التأكيد دائماً، على أن حامل الرسالة (الداعية) حريص أشد الحرص على هداية جميع المدعوين وإنقاذهم من النار، كما بيّن الله **تعالى** في آيات عديدة، الحرص الشديد من رسول الله ﷺ على هداية الناس:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف: 6]

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء: 3]

أي "لعلك أيها الرسول ـ لشدة حرصك على هدايتهم ـ مُهْلِك نفسك غيظا وحزنا لأنهم لم يصدِّقوا بك ولم يعملوا بهديك، فلا تفعل ذلك"..

وأصل هذا الشعور و المولِّد له، هو "**عِلْم**" حامل الدعوة و "**يقينه**" بأن ما يحمله هو "الحق المبين".. علمه ويقينه بأن الله حق، وأن القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الساعة حق وأن الجنة والنار حق.. وكأنما يراهما رأي العين..

كما في حديث رسول الله الذي يصوّر فيه حاله مع الذين يدعوهم إلى الله، مبيّناً حرصه على هدايتهم وإنقاذهم من النار، وتألّمه عندما لا يستجيبون له، حيث يقول الرسول ﷺ:

(مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أوْقَدَ نارًا، فَجَعَلَ الجَنادِبُ والْفَراشُ يَقَعْنَ فيها، وهو يَذُبُّهُنَّ عَنْها، وأنا آخِذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النّارِ، وأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِن يَدِي). **[يوجد عدة روايات في البخاري ومسلم]**

فالمؤمن يعلم يقيناً أن مَن يتفلّت منه؛ مكذباً بدعوة الله، مصراً على ذلك، ويموت عليه.. فإن مصيره النار.. فأساس العلاقة هو الحرص على هداية الناس والرحمة بهم لإنقاذهم من النار.. لكن، بعد الإصرار على التكذيب كموقف نهائي للشخص.. فعلى حامل الدعوة إهماله وتركه:

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾ عبس: ٥ - ٧

النتيجة مما سبق..

أولاً: "الأمة المكلّفة" هي الأصل

أنه عند "تحقيق المناط"، لا بد من **التفريق** بين ما هو **معتبر** - بداية - عند النظر في واقع المجتمع المعين (عموم المدعوين)؛ بوصفه مجتمعا.. وبين المعتبر - لاحقاً - عند النظر في واقع **الفئة** المعينة أو **الفرد** المعيّن من ذلك المجتمع:

فالمُعتبر في "تحقيق مناط" **مجتمع معين** - بداية - معرفة هل "كلمة الله" هي العليا أم لا؟ هل يحقِّقون وصف "الأمة المكلّفة": أمة مسلمة، ممكَّنة في الأرض، بقوتها الذاتية.. أم لا؟..

فالوصف المعتَبر شرعاً لـ "المرحلة المكيّة" من سير رسول الله بالرسالة، هو أنها مرحلة **"ما قبل التمكين"** للمسلمين في الأرض، بمعنى أن "كلمة الله" **ليست** العليا فيها.. فـ "الأمة المكلّفة" غير موجودة.. و "المرحلة المدنية" وصفها: "مرحلة التمكين" في الأرض ووجود "الأمة المكلَّفة".. وأن "كلمة الله هي العليا"..

هذا هو الأصل المُعتبر والمقياس عند "تحقيق مناط" المجتمع؛ بوصفه مجتمعاً.. سواء كان غالبية الناس من المسلمين أم لا..

فلا اعتبار إلى أن الناس في مجتمع (قرية) مكة زمن رسول الله كانوا كفاراً .. أما عموم الناس اليوم مسلمين.. أو غير ذلك..

فلا يُنظر - بداية - إلى **إيمان** عموم الناس في **المجتمع**؛ نفياً أو إثباتاً.. أي من كونهم مسلمين أم لا.. فهذا الأمر ليس موضوع نظر، ولا علاقة له بـ "تحقيق مناط" **المجتمع المعين**.. فبحثه فيه تكلّف بما هو غير مطلوب شرعاً..

هذا، وهناك عوامل **إذا** توفّرت في مجتمع معيَّن **قد تجعَل** تحقيق الغاية من الرسالة فيه أقرب للتحقُّق من غيره.. من تلك العوامل:

- أن يكون غالبية الناس في المجتمع من المسلمين..
- وغالبيتهم من الناطقين بالعربية ..
- أن طبيعة تركيبة المجتمع وتوزيع مراكز القوة فيه.. لها ميزة عن غيره..
- له ثقل ومركزية في منطقته عموماً.. كما في اختيار مكة لبدء الدعوة لكونها "أم القرى":

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ القصص: ٥٩

أي "ولم يكن ربك - أيها الرسول - مهلك القرى حتى يعذر إلى أهلها ببعث رسول في القرية الكبرى منها كما بعثك أنت في أم القرى - أيْ: أَصْلِهَا وَعَظِيمَتِهَا - وهي مكة، وما كنا لنهلك أهل القرى وهم مستقيمون على الحق، إنما نهلكهم إن كانوا ظالمين بالكفر وارتكاب المعاصي". **[انظر تفاسير؛ الميسر، المختصر، ابن كثير وغيرها]**

فقد يكون إيجاد "الأمة المكلفة" في مثل هذه المجتمعات أقرب إلى التحقُّق من غيرها.. وهذا كتقدير للواقع، لكن النتيجة النهائية متوقِّفة على مشيئة الله **جلّ وعلا**: متمثّلة بسنن الله في المجتمعات وفي

الدعوات.. وباختيارات الناس - في ذلك المجتمع - لمواقفهم من "دعوة الله" التي بلغتهم بلاغاً مبيناً..

هذا، وبعد **بلاغ** "فكرة الدعوة" متمثلة بـ "خطاب النذارة".. بلاغاً مبيناً.. إلى **فئات الناس** المختلفة في المجتمع ؛ أتباعاً ومتبوعين.. وتبدأ تظهر مواقفهم وردود أفعالهم من **الحق** المبين..

عندها يلزم - "حملة الدعوة" - "إدراك واقع" كل فئة من **فئات المجتمع** المختلفة أو الأفراد المدعوين؛ المسلمين وغيرهم.. والحُكْم على واقعهم الفكري (الإيماني) والاقتصادي والسياسي.. أي العمل على "تحقيق مناط" فئات الناس المختلفة في المجتمع.. من أجل تحديد **طبيعة** (مدى) انحراف - الفئة المعيَّنة أو الفرد المعيَّن - عن **الحق القطعي** الثابت الذي بلغهم.. إمّا بسبب الشهوات أو الشبهات.. ثم معرفة ما يلزم ذلك "المناط" من **معالجات تفصيلية**: شرعيّةً وسننيّةً..

والأصل أن يُنظر إليهم كنظرة الطبيب المُعالِج للمريض، لتشخيص حالته ثم تقديم العلاجات المناسبة لحالته، مع الرحمة والرفق به.. حرصاً على هدايته..

والغاية أن تصبح تلك الفئة أو أولئك الأفراد.. مسلمين بوصف معيّن.. مسلمين فاعلين في "الأمة المكلّفة" ؛ بأن يكونوا على ثغرة من ثُغَر الإسلام فلا يؤتيَّن من قِبَلهم..

ثانياً: مِلّة الكفر واحدة: عبادة غير الله.. وملة الإسلام واحدة: إخلاص الدين لله

ولهذا كانت "سنة الله" - شرعاً وقدراً - الدائمة والمستمرة في "الدعوة إلى الله" وحمل رسالاته للناس في المجتمع (القرية، القوم) الذي لا تكون "كلمة الله هي العليا" فيه.. أن تكون البداية هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ كـ "منهاج حياة" .. كما هو واضح في قَصص جميع رسل الله في السور المكية.. وأيضاً في سيرة رسول الله الخاتم ﷺ.. حيث:

في مكة المكرّمة (قبل التمكين) واجه رسول الله ﷺ أنواعاً من الانحراف عن الحقيقة اليقينية الكبرى لا إله إلا الله.. واجه أنواعاً من الشرك؛ في الخَلْق والأمر (التشريع).. من الآلهة (الطاغوت) التي يُظَن أنها تَضُرّ وتَنْفَع.. ومُطاعَة (معبودة) من دون الله؛ أبرزها الأصنام وسدنتها، وشريعة الآباء، وطاعة الكبراء وأهوائهم، والاستعانة بالجن.. وغيرها وما تفرّع عنها من عقائد ومفاهيم شركية وتشريعات.. كان لها أثر مباشر على سائر جوانب حياة المجتمع (القرية) السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. أي، كأساس لنظام حياتهم الجاهلي..

وكان أساس دعوة الناس في ذلك المجتمع؛ هي دعوتهم إلى إخلاص الدين لله، بوصفهم مجتمعاً (قرية، قوم).. بالبدء بمخاطبتهم - وحسب "منهج الخطاب" - بـ "فكرة الدعوة" مع تحميلهم المسؤولية عن مواقفهم منها.. فكان يناديهم بـ "يا أيها الناس" و "يا قومِ" مُترَفِّقاً بهم.. فكان **فحوى** قوله لهم: إن لا إله إلا الله هي الأساس الحق الذي ينبغي أن تنبني عليه حياتكم.. فاعبدوا وحده لا شريك له، فهو وحده الخالق والمالك للكون والحياة والإنسان وأنه وحده المتصرّف فيها.. فعظّموه ووقّروه **جلّ وعلا**.. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر].. فلا بد أن تكون لا إله إلا الله هي أساس "منهاج حياتكم" الجديد.. والدخول مع المجتمع وملئه في "حوار" فكري سياسي أو "جدال بالتي هي أحسن".. أساسه؛ أن **الطاعة** و**الاتباع** لا يكون إلا لأمر الله **وحده عزّوجلّ** (إخلاص الدين لله).. مع تحميل الناس؛ أتباعاً ومتبوعين، المسؤوليّة عن مواقفهم ممّا علِمُوه من الحق، ببيان مصير من آمن

واتّبع؛ في رضوان الله وجنته.. ومصير من أبى واستكبر؛ في غضب الله وعذابه.. وهذا هو فحوى "خطاب النذارة".. كما ذكرنا.. هذا في مكة؛ "قبل التمكين"..

والسير العملي لبلاغ "دعوة الله" في ما "قبل التمكين"، سنذكره في ما يلي؛ في "المبحث الثالث".

أمّا في المدينة المنورة؛ "بعد التمكين".. فبعد ما هاجر رسول الله والمسلمون إلى المدينة، و وُلِدت "الأمة المكلّفة".. واجه المؤمنون أشكالاً أخرى جديدة من الشرك والانحراف عن حقيقة لا إله إلا الله؛ في الخَلْق والأمر.. وهي عقائد أهل الكتاب بتفاصيلها الشركية.. وظهور النفاق..

وفي سياق معالجة هذا الواقع (المناط) الجديد، عندما خاطب القرآن أهل الكتاب - وهم كفار أصالة - لم ينادهم بوصفهم كافرين، في البداية.. رغم أن "التمكين" والقوة والسلطان للمسلمين.. بل خاطبهم بدايةً، بـ "فكرة الدعوة".. ذلك أن الأصل في "الدعوة إلى الله" هو بيان الحق بالتي هي أحسن، وإقامة "الحُجَّة الرسالية" على مَن أبى واستكبر..

فخاطبهم - مترفِّقاً بهم - بقوله "يا بني إسرائيل" مذكراً لهم بآبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وأنهم ماتوا مسلمين، وقد أوصوا أولادهم بأن يتّبعوا أمر الله، وأن يموتوا وهُم مسلمون لله.. وناداهم بوصف "أهل الكتاب" أي أهل رسالة الله ودينه.. فجعَل الأصل في دعوتهم، مخاطبتهم بفكرة الدعوة (خطاب النذارة) وبرفق.. فذكَّرهم بإنعام الله تبارك وتعالى عليهم، ورحمته بهم - كما في سورة البقرة - وذلك في سياق حثهم على الإيمان بالله واتباع الرسول الخاتم الذي جاء مصدِّقاً لما معهم.. والذي يعلمون صفاته وعلامات نبوته كما يعلمون أبناءهم..

ومن صور خطابهم أيضاً قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ آل عمران

ثم بعد ذلك، وعندما **ظهرت** مواقفهم الرافضة لدعوة الله الحق والمعادية لله ورسوله.. خاطبهم الله جلّ وعلا بوصفهم كفاراً؛ يهودَ ونصارى.. وهدّدهم بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة.. وقد عذّبهم الله فعلاً بأيدي المؤمنين عدة مرات.. وبعد نقضهم للعهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم لرسول الله في المدينة: عذّبهم قتلاً وبالجلاء عن المدينة.. بعد غزوة بدر، وبعد غزوة أحد، وبعد غزوة الأحزاب.. وأخيراً في غزوة خيبر، حيث نفاهم من جزيرة العرب.. ثم ضُرِبت الجزية على مَن بقي منهم، عن يد وهم صاغرون.. وأيضاً، اقرأ "سورة البينة":

﴿ لَمْ يَكُنِ **ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ .... إِنَّ **ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ البينة: ١-٦

وكل ذلك - وغيره - ضمن السياق العام لإعداد الأمة المسلمة الخاتمة، "بعد التمكين".. لتصبح مؤهلة لخلافة رسول الله.. فتكون عندها **الإرادة** الجازمة و**القدرة** الكافية لذلك..

والخط العام في تأهيل الأمة سنذكره في ما يلي؛ في "المبحث الثالث".

أمّا في المجتمعات الحالية - وكلمة الله **ليست** هي العليا - فنجد في المجتمع الواحد فئات من الناس مختلفة؛ مسلمين وغيرهم.. و**قد** نَجِد من تلك الأشكال من الشرك بالله - في الخَلْق والأمر - أو الانحراف عن حقيقة لا إله إلا الله.. وتجد أشكالاً جديدة وبنِسَب متفاوتة، من أشكال ظلمات الجاهلية، مثل: الديمقراطية، العَلمانية، الحداثة وما بعدها، القومية، الوطنية، العصبية القبلية، الموضة.. إلخ..

ومعلوم أن أجيالاً عديدة من أمة المسلمين عاشت ولا تزال، تحت وطأة أحكام وقوانين الجاهلية، ومناهج تعليمها، وإعلامها.. والتي هدفها الرئيس هو سلخ الأمة المسلمة عن دينها والعيش حسب طريقة حياة الجاهلية الغربية.. لذلك تجد حصول تشوهات في كثير من مفاهيم الإسلام عند كثير من المسلمين.. كما هو مشاهَد الآن.. ومن تلك مفاهيم: الإله، الرّب، العبادة، الجهاد، القدَر، لا إله إلا الله كمنهج حياة.. وغلبة المشاعر القومية أو الوطنية أو القبلية.. على مشاعر أخوة الإسلام وأن المسلمين أمة واحدة.. الخ..

فكان لذلك الأمر آثاراً سلبية مدمرة لحياة أمة المسلمين ومعيشتهم.. بل لحياة الإنسانية في العالم أجمع..

لكن **النور** الذي في **الوحي**؛ كتاب الله وبيانه من السنة، يُضيء لنا ظلمات كل تلك الانحرافات والشركيات ويبيِّن حقيقتها وواقعها وأن لها - بكل أشكالها وألوانها؛ القديمة والحديثة - واقعاً واحداً وطبيعة واحدة فقط لا غير.. وتقوم على أصل واحد هو: "فصل الدين عن الحياة".. وذلك؛

باتخاذ مرجعيات **أخرى** للفكر والتشريع غير مرجعية **الوحي**.. ليبرالية، ديمقراطية، رأي أغلبية..

بالطاعة والاتباع لآلهة أخرى (الطاغوت) من دون الله..

بالطاعة والاتباع **لحَكَمٍ** آخر (الطاغوت) من دون الله، يَحْكُم في حياة الناس: نظرتهم إلى الحياة وأفكارهم ومشاعرهم وأموالهم ودماءهم وأعراضهم.. ويُشكِّل نظام حياتهم وشريعتهم..

ومن ثمَّ، كان الأساس في معالجة هذه الظلمات وبداية التعامل معها، هو تسليط "نور الوحي" عليها.. بالبدء ببيان الأصل الحق: لا إله إلا الله.. حسب "منهج الخطاب".. بإعادة تذكير عموم الناس في المجتمع، بأنها الحقيقة المركوزة في فطرتهم التي فطرهم الله عليها؛ بإثارة عقولهم وفطرتهم من خلال تلميسهم آثار حقيقة أنه لا إله إلا الله في أنفسهم وفي الآفاق من حولهم؛ في السماء والأرض والبحر والحياة.. حتى يشهد ذوي العقول والفطرة السليمة بأنها الحق المبين..

والدخول في "جهاد بالقرآن" جهاداً كبيراً (صراع فكري)، مع المجتمع ملئه لبيان خَيْريّـة هذه الحقيقة اليقينية وبركتها في حياة الناس (لا يضل ولا يشقى)، مع تحميلهم المسؤولية أمام الله عن ذلك؛ في الدنيا (معيشة ضنكى) وفي الحياة الآخرة، جنة أو نار.. ولكشف فساد ذلك الأساس الذي تقوم عليه حياتهم ومجتمعهم.

وهذا هو فحوى خطاب "الدعوة إلى الله" (خطاب النذارة)؛ أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه مخلصين له الدين، وإليه المصير..

وهي "**دعوة الله**" التي جاء بها جميع رسل الله وأنبيائه إلى البشرية جمعاء - كلٍ إلى قومه (مجتمعه) بقصد جعل "كلمة الله هي العليا" - وهي دعوة واحدة رغم اختلاف الزمان والمكان

والمدنية والثقافة والاقتصاد والسياسة والقوة العسكرية.. وذلك لأن أساس الانحراف دائماً هو واحد: اتخاذ آلهة (طاغوت) مع الله أو من دون الله..

فالأساس الواحد الثابت للبدء بمعالجة الانحراف عن لا إله إلا الله، لإخراج الناس في المجتمعات من تحت نير عبودية العباد، إلى سِعة وفسحة عبادة الله الواحد الأحد.. "ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام".. هو بيان أنها الحق الوحيد الذي يصلح أن يتخذه الناس أساساً لحياتهم ومعيشتهم في مجتمعهم.. وذلك من خلال تلميس الناس آثار حقيقة أنه لا إله إلا الله وبيان أنها الحقيقة اليقينية الكبرى في الكون والإنسان والحياة.. وأنه إلى الله - ربّ العالمين وربّهم - المصير والمنتهى والرُّجعى.. وإليه يرجع الأمر كلّه..

وإقامة "الحُجَّة الرسالية" - حسب "منهج الخطاب" - على مَن كذَّب واستكبر،حتى يستحق عذاب الله..

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا{١٦٥}﴾ [النساء]

أي (أرسَلْتُ رسلًا إلى خَلْقي مبشرين مَن آمن بالله بالثواب الكريم ، ومُخَوِّفِين بالعذاب الأليم مَن كفر به، حتى لا تكون للناس حُجَّة على الله يعتذرون بها، بعد إرسال الرسل. وكان الله عزيزًا في ملكه حكيماً في تدبيره وقضائه).

فقضية "الدعوة إلى الله"؛ في كل ما يتعلّق بها: في الخطاب.. في الأعمال.. وفي الصراع مع الملأ.. دائماً - هي قضية واحدة؛ "صراع مرجعيات": لمَن الطاعة والاتباع في المجتمع؟.. مَن هو الإله الحق الذي يجب الخضوع لأمره: الله أم الطاغوت؟.. أي، "تعيين ما هي المرجعية الحق" التي يجب على المجتمع أن يتخذها أساساً لأنظمته وقوانينه ومنهج حياةٍ للناس:

﴿**وَمَآ** أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ **إِلَّا نُوحِىٓ** إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢٥]

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا **فِى كُلِّ أُمَّةٍ** رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل ٣٦]

﴿قُلْ [يا محمد] **إِنَّمَا** يُوحَىٰٓ إِلَىَّ **أَنَّمَآ** إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ [الأنبياء]

﴿قُلْ [يا محمد] **إِنَّمَآ** أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ **أَنَّمَآ** إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف ١١٠].

﴿**إِنَّمَآ** أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ٩٢﴾ [النمل].

صدق الله العظيم

ثالثاً: تأثير نقصان الإيمان

بالنظر من منظور "سنن الله"، إلى ما سبق ذكره من دعوة المجتمع المعيَّن.. وخاصة مجتمعاتنا التي غالبية أهلها من المسلمين.. والذين كانت أجيالهم السابقة - منذ زمن غير بعيد - **أمة مسلمة،** لها سلطان ودولة، وكانت "كلمة الله هي العليا".. نقول:

إن من سنن الله العامة في هذه "الأمة الخاتمة": إن أي خلل أو نقصان في إيمان المسلمين وتقواهم ينعكس مباشرة على واقعهم وحالهم.. وقد قرر الله **تعالى** هذه **الحقيقة،** كسنة عامة:

﴿..ذَلِكَ بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾ [الأنفال: 53-54]

﴿إِنَّ الله لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .. (١١)﴾ [الرعد: 11]

فواقع الناس {مَا بِقَوْمٍ} هو انعكاس أو نتيجة طبيعية لما في نفوسهم {مَا بِأَنْفُسِهِمْ} إن إيجاباً أو سلباً.. وما هم فيه من **نعمة** التمكين والعز والرفاه والأمن.. **لن يغيّرها** الله **تبارك وتعالى** إلى ذُلّ وفقر وخوف.. حتى **يُغيّروا** هُم ما بأنفسهم؛ من عدم الشكر، وقلة التقوى، والتلَهّي بالدنيا عن مهمتهم الأصل.. فعندما يتخلّون عن أخذ كتاب الله (الوحي) بقوة، وعن الاستمساك بحبل الله **عزّ وجل..** يسقطون في الهاوية:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران:103]

عن ابنِ مسعودٍ قالَ: "حبلُ الله القرآنُ" **(الدر المنثور - السيوطي/ صحيح)**

لذلك، ما كانت دعوة أنبياء الله ورسله **عليهم الصلاة والسلام** عند فساد حياة الناس.. لتحريرهم من "عبادة الطاغوت" مهما كان شكله ولونه.. إلا دعوة واحدة هي: "دعوة الله".. أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه مخلصين له الدين، وإليه المصير (خطاب النذارة).. فهي دعوة إلى تغيير المفاهيم والقناعات، والبدء **بأصلها؛** وهي تغيير وجهة النظر إلى الكون والحياة؛ وذلك من خلال **تذكير** الناس بعد الغفلة، بالإله والربّ الحقيقي للوجود:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّه رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف ٥٤]

لتحرير الناس والمجتمع من "النظرة الطاغوتية" إلى الكون والحياة، والتي على أساسها أصبحت الكلمة العليا في المجتمع ليست "كلمة الله" (الوحي)..

وأيضاً تحريرهم من "النظرة الطاغوتية" إلى أنفسهم - حتى يسهموا في عمارة الأرض والإصلاح فيها - ببيان حقيقة الإنسان، وأنه المخلوق الذي كرّمه الله **تبارك وتعالى..** وبيان أهمية فَهْم مهمته على هذه الأرض، والحكمة من وجوده التي تتناسب مع منزلته الوجودية السامقة.. وأن هناك حياة أخرى بعد الموت هي الحياة الحقيقية.. حياة الخلود: إما جنةٌ ونعيم دائم، أو نارُ وعذاب أليم مقيم، والعياذ بالله:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ

عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ [النحل] [(251)]

فواقع حياة الإنسان ومعيشته.. فرداً ومجتمعاً.. في كل زمان ومكان.. هو نتيجة طبيعيّة لما في نفوسم من مفاهيم وتصورات عن الكون وعن أنفسهم وعن الحياة.. فحتى يتغيّر واقع الناس - في أي مجتمع وأي زمان وأي مكان - لا بد بدايةً من تغيير ما بأنفسم من مفاهيم ووجهة نظرٍ عن الحياة وعن أنفسهم.. وهذه هي الخطوة الأولى **لتحرير** الناس ومجتمعهم من العبودية للطاغوت؛ الخضوع لغير الله من الآلهة المدّعاة المزيفة؛ فلم يُنزّل اللهُ بها سلطاناً..

وعليه، فعندما يُغيّر الله حالنا نحن المسلمين، إلى ما صرنا إليه من ضعف وتفرّق وذهاب الريح وزوال السلطان والهيبة.. و "كلمة الله" ليست هي العليا.. وخضوعنا لشريعة أخرى غير شريعة الله **جلّ شأنه**.. فلم يعد بإمكاننا أن نُخْلِص الدين لله.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

أقول: فعندما يغير الله حالنا إلى هذه الحال.. فإن السبب المباشر والأصل لذلك؛ هو أننا نحن المسلمين قد غيّرنا ما بأنفسنا.. حيث ضَعُفَ في نفوسنا تأثيرُ "الفكرة" التي تجمعنا؛ لا إله إلا الله.. والتي بها وعلى أساسها كنّا أمة مسلمة عزيزة.. إننا في حالة **متدنية** من مستوى **الإيمان** بالله واليوم الآخر.. كما يبيّن حديث رسول الله ﷺ "سنة الله":

(إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ [الله] حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ). **[رواه أحمد (4987) وأبو داود (3462)، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُما]**

فقد حققنا "أفعال الشرط" (المقدمات/الأسباب) كلها، فوقع علينا "جواب الشرط" (النتائج)..

ورسول الله يهدينا إلى طريق الخروج مما نحن فيه من ذُلّ، هو: أن "نرجع إلى ديننا"؛ الذي ترك رسول الله الأمة عليه حين وفاته ﷺ (الحالة المعيارية).. بمعنى علينا أن نعمل على "**إعادة تأهيل**" أنفسنا حتى نحقق مقومات "الأمة المكلّفة" المخولة والقادرة على تنفيذ جميع أحكام الله.. ونستمر بالسير حتى نصبح "أمة مسلمة" مكتملة الخصائص؛ أي الوصول إلى "الحالة المعيارية"..

وأول خطوة في ذلك هي: "**تجديد الإيمان**".. ورفع سَويّة إيمان المسلمين بالله واليوم الآخر، بدعوتهم - في مجتمع ما - إلى **أصل الإيمان** متمثلاً بـ "خطاب النذارة": لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير [(252)]..

---

251 - انظر "سورة العلق" و "سورة الفاتحة" في كتاب (منهج التزكية والتعليم)، على الرابط:
https://drive.google.com/drive/folders/1sbgezIVBCdVfTWNhCrS31aZkI7dqupeu?usp=share_link

فالآيات الأولى من سورة العلق - وهي أول ما نزل من رسالة الله الخاتمة للناس - فيها بيان الحق في هذه المسائل الوجودية المصيرية. ثم تبعتها - غير بعيد - سورة الفاتحة؛ أم الكتاب.

252 - في مثل قول رسول الله: (جَدّدوا إيمانكم، قيل يا رسول الله: وكيف نجدِّد إيماننا ؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله). **[مسند أحمد، عن أبي هريرة. تحقيق أحمد شاكر]**. نقول: وحتى يمكن للقول باللسان أن يُجَدّد الإيمان لا بد من حضور القلب، فهو قول باللسان مع حضور القلب، أي التفكّر: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ{190} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ=> النَّارِ{191}) آل عمران. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ {37}) ق،، أي:

وما سبق ذكره، هو المتوافق تماماً مع الواقع الشرعي لـ "الأمة المسلمة"؛ من حيث تكوينها، ومن حيث الغاية من وجودها ووظيفتها الشرعية؛ فالأمة المسلمة الخاتمة "أمة فكرة".. فهي تقوم على فكرة لا إله إلا الله.. ومهمتها هي تحقيق مقتضى لا إله إلا الله في واقعها.. وحمْلها للناس كرسالة من الله جلّ شأنه..

وهو المنسجم والمتوافق تماماً مع سنن الله الضابطة لسير الأمة في تحمّل مسؤوليتها عن الرسالة؛ التزاماً بهديها وحمْلها إلى الناس هدى ورحمة.. وقد جعل الله تعالى مصير هذه الأمة الخاتمة متوقف على موقفها من الرسالة الخاتمة؛ إن صعوداً أو هبوطاً، في التمكين والاستخلاف وعلو ذكرها في الدنيا.. أو في الضعف وذهاب الريح وبالتالي الذل والهوان وتسلّط أعدائها عليها.

ومن هنا، وحسب سنن الله، فإن تقصير "الأمة" في مهمتها حتى وصل الأمر إلى ذهاب وصف "الأمة المكلّفة" عن جموع المسلمين.. فإن أصله ضعف الدافعيّة للحركة نحو تحقيق الغاية، أي ضعف في الطاقة الروحيّة الدافعة للحركة نحو رضوان الله، وهذا يدل على **ضعفٍ** في مستوى **الإيمان** بالله واليوم الآخر والانشغال بالدنيا وزخرفها:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء: 65]

أي (أقسمَ الله تعالى بنفسه الكريمة أن هؤلاء لا يؤمنون حقيقة حتى يجعلوك حَكَماً فيما وقع بينهم من نزاع في حياتك، ويتحاكموا إلى سُنتك بعد مماتك، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما انتهى إليه حُكْمك، وينقادوا مع ذلك انقيادًا تاماً، فالحُكْم بما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب والسنة في كل شأن من شؤون الحياة، من صميم الإيمان مع الرضا والتسليم) **[التفسير الميسر]**. (253)

(لَعِبْرةً لمن كان له قلب يعقل به، أو أصغى السمع، وهو حاضر بقلبه، غير غافل ولا ساهٍ). (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدا {136}) النساء. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر ٢١]،، أي، (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل من الجبال، فَفُهِم ما فيه مِن وعد ووعيد، لأبصَرْته - على قوته وشدة صلابته وضخامته - خاضعًا ذليلًا متشققًا من خشية الله تعالى. وتلك الأمثال نضربها، ونوضحها للناس؛ لعلهم يتفكرون في قدرة الله وعظمته. وفي الآية حث على تدبر القرآن، وتفَهُّم معانيه، والعمل به) **[الميسر]**.

253 - نقول: وإن كانت الآية تتكلّم عن المنافقين إلا أن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، فالآية دليل على سنّة من سنن الله تعالى في الإنسان، وهي: أن درجة الانقياد والاستسلام لأمر الله - عن حب ورضى - علامة وآية على درجة الإيمان في القلب. كما في قول رسول الله: (لا يَزْنِي الزّانِي حِينَ يَزْنِي وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النّاسُ إلَيْهِ فيها أبْصارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُها وهو مُؤْمِنٌ) **[أبو هريرة، صحيح البخاري ٢٤٧٥]**. (هذا الحديثُ يُبيِّن أنَّ المؤمنَ قد تقعُ منه كبيرةٌ مِن الكبائرِ، ولكنَّه حالَ إتيانِ هذه الكبيرةِ وارتكابِها لا يتَّصِفُ بصفةِ الإيمانِ، بل إنَّ الإيمانَ يُنزَعُ منه وهو يرتكِبُ هذه الكبائرَ، فمَن يزني لا يزني وهو متَّصِفٌ بالإيمانِ، وكذا مَن يشرَبُ الخمرَ لا يشرَبُه وهو متَّصِفٌ بالإيمانِ، ومَن ينتهِبُ - أي: يأخُذُ مِن الغنيمةِ قبل قِسمتها - لا يفعَلُ ذلك وهو متَّصِفٌ بالإيمانِ..). **[الموسوعة الحديثية - الدرر السنية]**. نقول: لكنّ الله تعالى بفضله ورحمته بالإنسان - وقد خُلق=> ضعيفاً - جَعل المعصية الوحيدة التي تُخرج فاعلها من الملة وتُوجِب له الخلود في النار هي: أن يُشرك بالله

فيَحْدُث هذا مع المسلمين حين يصبح **الإيمان** بالله واليوم الآخر؛ وأنه يقتضي "إخلاص الدين لله".. ليس هو "**مركز التنبّه**" الوحيد في قلوبهم ونفوسهم بل دخلت معه أمور أخرى؛ مُشغِلات ومُلهِيات.. إما بسبب **الغفلة** والانشغال بالدنيا (الشهوات) أو بسبب **خلل** طرأ على مفهوم لا إله إلا الله؛ بأنها "منهج حياة" و "طريقة عيش".. **[انظر "معنى لا إله إلا الله" في "الباب الأول"]**.. وأيضاً مفاهيم الإيمان الأخرى.. في قلوب المسلمين (الشبهات)، سواء من حيث صحة المفهوم أم من حيث صحة منهج التلقي.. أو بهما معاً:

﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) ﴾ [النازعات]

فلا بد من "تجديد الإيمان" بأنه لا إله إلا الله واليوم الآخر عند عموم المسلمين؛ في مجتمع ما.. وجعله نقياً ناصعاً - كالذي كان عليه رسول الله وأصحابه - دون أي تشويش من شبهات أو شهوات الباطل حتى يعود **للإيمان** نصاعته وكامل قوته، ليعود هو مركز "التنبّه الوحيد" في قلوب المسلمين ونفوسهم.. أي هو الأساس والمرجع الوحيد؛ **كمقياس** للأعمال، والدافع الوحيد **للقيام** بالأعمال:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ **الْمُؤْمِنِينَ** إِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ الله وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾ [النور]

بمعنى أن رضوان الله لا بد أن يكون هو "غاية الغايات" عند عموم المسلمين؛ في مجتمع ما.. فلا يقومون بالعمل إلا إذا كان شرعياً (يرضَى الله عنه)، وخالصاً لله (أي بقصد نيل رضوان الله):

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف: 110] الكهف

لذلك كان من "المنهج الشرعي" في التكليف بالأحكام الشرعيّة: الخطاب بها مقرونة بأصلها الإيماني:

- مثل أن يُخاطَب المكلّفون بوصف الإيمان: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ..) ثم يأتي بعد ذلك التكليف الشرعي.. وكذلك في السنة في مثل قول رسول الله: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر...) ثم يأتي التكليف الشرعي. والإيمان بالله يعني؛ الإيمان بأنه لا إله إلا الله كـ "منهج حياة" و "طريقة عيش".. فلا معبود بحق إلا الله؛ أي يجب إخلاص الدين لله في المجتمع (عبودية مجتمع).. والإيمان باليوم الآخر؛ أي الإيمان بالرجوع إلى الله للحساب والجزاء على الأعمال؛ (إن إلى ربك الرجعى).. فإما خلود في الجنة أو خلود في النار.

ويموت على ذلك: {إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً} [النساء48]، بأي نوع من أنواع الشرك بالله في المجالَين الذَين يجب فيهما إخلاص الدين لله، سواء في أمر الله القدري أم في أمره الشرعي: (..أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ {54}) [الأعراف]. لذلك لا بد للمسلم من أن "يتعهّد قلبه" و "يجدد إيمانه". **[انظر كتاب (منهج التزكية والتعليم). مرجع سابق]**.

- وقد يأتي خطابُ المكلّفين بوصف الإيمان بعد ذكر الأمر أو النهي، على شكل شرط.. مثل: "إن كنتم مؤمنين" أو "إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر".
- الخطاب بالتكليف - يا أيها الذين آمنوا - يعقبه ذكر لبعض أسماء الله التي يقتضيها المقام، والتي من شأنها أن تحث المؤمن وتدفعه إلى طاعة أمر الله تعالى؛ من تذكير بعظمة الله أو كرمه أو برحمته أو عذابه أو بأنه السميع البصير.. والتي من شأنها أن توجِد في قلب المؤمن الخشية من الله أو التعظيم لله أو الحب لله.. وبالتالي طاعته عن رضى وحب.. [254].

وما سبق ذكره، هو الأساس في تعليم المسلمين وتزكيتهم - وقبلهم حَمَلَة "دعوة الله" - حتى يحققوا الركن الأول من مقومات "الأمة المكلّفة" (أمة مسلمة).. وحتى يستحقّوا - حسب سنن الله - أن يُتمَّم الله عليهم باقي الأركان.. فيمكِّنهم الله في الأرض ويعينهم على تحمُّل أعباء أمانة رسالته ودينه.. وأن يكونوا خلفاء لرسول الله.. على "منهاج النبوة"..

والحمد لله ربّ العالمين..

الطرح الثاني حول تشخيص واقع المسلمين: البحث العقلي المجرّد للواقع.

254 - مثال: آيات سورة المائدة، ورد فيها نداء { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ} 16 مرة من أصل 88 في المصحف:

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ ... وَاتَّقُواْ الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ } **المائدة2**

{يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ... وَاتَّقُواْ الله إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ} **المائدة4**

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَاتَّقُواْ الله إِنَّ الله خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ } **المائدة8**

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَاتَّقُواْ الله وَعَلَى الله فَلۡيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } **المائدة11**

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} **المائدة54**

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَاتَّقُواْ الله إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ } **المائدة57**

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨ } **المائدة**

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ... لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ} **المائدة95**

{ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ} **المائدة96** ... وهكذا.

وهو البحث العقلي **المجرّد** لواقع المسلمين **دون** الرجوع أو الاستناد إلى واقع "الأمة المسلمة" **الشرعيّ، والسنن** الربّانية الضابطة لسيرها بوصفها الأمة المسلمة الخاتمة، **ووظيفتها** المكلَّفة بها.. كما بيّنا.. بل النظر العقلي المجرّد للواقع انطلاقاً من محدِّدات وقضايا عقليّة وسُننيّة متعلّقة بالاجتماع البشري، بشكل عام.. الأمر الذي ينتج عنه أفهام أو تصورات مختلفة..

مثل ما يقوم به البعض من بحثٍ لواقع المسلمين قياسا إلى المجتمعات الغربية المتقدمة بالتقْنية والعلوم.. أو من خلال بحث واقع الأمة ـ كبحث واقع ـ بشكل عام.. ثم تقرير أن مشكلة الأمة هي التخلّف العلمي (التكنولوجي) أو الثقافي.. وعلى أساس ذلك يكون تقرير العمل المطلوب.. وأنه لا بد من النهضة الفكريّة والعلميّة..

أو مثل القول: بأن مشكلة المسلمين الآن هي "فقدان الثقة بأحكام الإسلام".. وهي نتيجة تمّ التوصّل إليها من خلال بحث واقع ما قام به المستعمر الكافر من أعمال فكرية ومادية، يقصد بها زعزة ثقة المسلمين بشريعتهم وأنها لا تصلح لِحُكم المجتمعات في هذا العصر.. وما سبقه من حملة فكرية قام بها المستشرقون لتشويه الإسلام في نفوس المسلمين ليسهل هدمه وإزالته من واقع حياتهم..

وبناء على ذلك التشخيص لواقع المسلمين (تحقيق المناط) كان لا بد من "إعادة الثقة بأحكام الإسلام" بأنها قادرة على إدارة وحكم حياة الناس والمجتمع.. وعليه كان بيان وتقرير الأفكار والأعمال المطلوبة (المعالجات)..

..الخ ..

هذا ملخّص الطرح الثاني.

الجواب على الطرح الثاني :

إن موضوع "النهضة"، ليس هو أصل البحث في تغيير واقع المسلمين، ولا هو زاوية النظر الصحيحة لـ "تحقيق مناط" الأمة.. بل إن الصحيح هو النظر إلى واقع الأمة الآن من خلال واقع الأمة **الشرعيّ** ووظيفتها المكلّفة بها من الله **عزّ وجلّ**؛ أن المسلمين هم "أمة الرسالة الخاتمة" المسؤولة عن الرسالة الخاتمة.. وأن مهمتها التي أُنشأت من أجلها هي الاستمرار بعد رسول الله في المحافظة على تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة؛ العبوديّة لله وحمل رسالته للناس كافة.. بمعنى، معرفة هل يحقق المسلمون الوصف الشرعي لـ "الأمة المكلّفَة".. أم لا؟.. هذا هو الأمر الحاسم في "تحقيق مناط" أمة المسلمين..

ومن هنا، فإن "النهضة الصحيحة" إنما هي **النتيجة الطبيعيّة** لقيام الأمة بوظيفتها؛ تحقيق الغاية من الرسالة.. بمعنى أن الطريق الوحيد إلى "نهضة الأمة" والأساس الصحيح لها، هو؛ أن تحقّق الأمة الغاية من وجودها، وتقوم بوظيفتها التي كلّفها الله **تعالى** بها: عبادة الله وحده وحمل رسالته للعالمين.. لأن الله **جعَل** مصير هذه الأمة مربوطاً بالرسالة.. جعْلاً **شرعياً** تكليفياً و جعْلاً **سننياً** قدرياً.. فلا فكاك لـــ "الأمة الخاتمة" عن الرسالة ، فهي حبل الله .. فإن تمسّكت بها الأمة صعَدت وعلَت .. وإن تركت حبل الله نزلت وذلّت.. ولا صعود لها إلا بالتمسُّك بحبل الله **عزّوجل:**

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة] (255)

هذا، ورغم صحة القول: بأنه لا بد للمسلمين من نهضة.. وأن النهضة هي نهضه فكرية.. وهذه حقيقة؛ سننيّة وشرعيّة.. يعني أنها صحيحة إذا نظرنا إليها من زاوية سنن الله في الاجتماع الإنساني: فحتى يتم تغيير سلوك الإنسان وتصرفاته لا بد من تغيير قناعاته ومفاهيمه، بداية.. وصحيحة من حيث أن لها أدلة شرعية تؤيدها؛ من أن تغيير واقع القوم وحالهم يبدأ من تغيير ما بأنفسهم. كما قال **تعالى**:

﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .. (١١)﴾ [الرعد: 11]

لكنّه من الخطأ، عند البحث لمعرفة **وتحديد** الأفكار **اللازمة** للنهضة، أن يكون بحثاً عقلياً مجرّداً.. أو بحثاً أساسه واقع الأمة قياساً إلى الأمم الناهضة.. أو حتى بحثاً عاماً مفتوحاً في الفكر الإسلامي، دون الالتزام بـ "منهج الخطاب" الشرعي..

بل **يجب** أن يكون بحثاً مبنياً على **الأساس الشرعي** لواقع الأمة؛ أي **قياساً** إلى **الغاية المطلوبة** من المسلمين: أن يكونوا أمة "تخلص دينها لله" فلا تعبد إلا الله وتحمل رسالته للعالمين..

بمعنى، هل يحقق المسلمون الآن وصف "الأمة المكلَّفة" ؟..

هل هم في ما "قبل التمكين" أم "بعد التمكين" ؟..

وعلى أساس العِلْم بأن تحقيق **الغاية المطلوبة**، له **طريقة شرعية** هي:

"منهاج النبوّة" في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة..

كما بيّنه رسوله الله أثناء تحقيقه الغاية أول مرة:

- ✓ فإن كان المسلمون في حالة ما "قبل التمكين".. فلا بد من السير كما سار رسول الله في "ما قبل التمكين".. والبدء بما بدأ به؛ وهو - بشكل أساس كما ذكرنا - دعوة الناس إلى **عبادة الله وحده** على أساس أنه لا إله إلا الله، مع بيان مصير من أجاب دعوة الله ومصير من أبى ("خطاب النذارة"، وحسب "منهج الخطاب").. والدخول مع المجتمع وملَئه في "جهاد بالقرآن" فكري سياسي على هذا الأساس؛ **العبادة** و **الطاعة** و**الاتّباع** لأمر مَن؟ لأمر الله ربّ العالمين أم للآلهة المدّعاة (الطاغوت) المُطَاعة في المجتمع؟..

وكون أن الذين دعاهم رسول الله كانوا كفاراً أصالة.. والناسُ المدعوين اليوم غالبيتُهم العظمى مسلمون.. فهذا، كما بيّنا.. ليس له تأثير (غير معتَبر) عند البدء في "تحقيق مناط" المجتمع بوصفه مجتمعاً.. إنما يؤخَذُ في الاعتبار - لاحقاً - بعد ظهور ردود أفعال فئات المجمع المختلفة والأفراد - من المسلمين وغيرهم - من الحق (دعوة الله) الذي بلغهم بدايةً.. وذلك من أجل معرفة المعالجات التفصيلية - الشرعية والسننية - اللازمة لهم.. كما هي في القرآن وبيانه من السنة..

- ✓ أمّا إذا كانت الأمة في حالة "التمكين".. فلا بد من السير كما سار رسول الله في هذه المرحلة.. وحسب ضوابطها الشرعية والسننية.. وهكذا..

---

255 - "فأهلية الأمة للشهادة على الناس؛ تكريمٌ من الله لأمة محمد.. وهي الغاية من جعل الله لها أمة وسطاً، أي عدولاً، وهذا تكريم ثاني.. وقد سبقهما تكريم آخر؛ بأن جعلها الله أمة مهتدية إلى الحق، بمحمدﷺ".
[انظر تفاسير (الطبري)، (مكي)، (ابن عطية)، (ابن العربي)، (أبو السعود)، (ابن كثير)].

أمّا القول بأن مشكلة المسلمين الآن هي "عدم الثقة بأحكام الإسلام".. وعليه فلا بد من إعادة طرح أفكار الإسلام وأحكامه بشكل يعيد ثقة الأمة بصلاحية دينها لحكم حياة الناس.. فهو قول غير صحيح، وذلك:

- ✓ بداية، إن الأمة الإسلامية وصلت إلى هذه المرحلة من الضعف والوهن و "عدم الثقة بأحكام الإسلام".. ليس بسبب الهجمة الفكرية والعسكرية من أمم الكفر.. بل العكس هو الصحيح؛ إن ضعف الأمة هو الذي أغرى بها تلك الأمم الكافرة لتقوم بتلك الهجمة؛ فتنادت عليها كما تنادى الأكلةُ على قصعتها.. فتقاسموها.. ذلك بسبب أن الأمة أصبحت "غثاءً" رغم كثرة المسلمين.. كما بيّن ذلك رسول الله ﷺ.. وذلك بسبب أساس هو: ضعف تأثير "روح" الأمة التي هي سبب حياتها؛ الإيمان بأنه لا إله إلا الله، فاعبدوه وحده مخلصين له الدين، وأن إليه المصير: في الدنيا؛ عزة وتمكين أو ضعف وذل.. وفي الآخرة؛ جنة أو نار.. (256)
- ✓ ثم، إن الثقة بأحكام الله **جلّ وعلا** لا تأتي من تكرار مشاهدة "صحة" معالجتها للواقع الإنساني.. بل إن الثقة بأحكام الله **جلّ وعلا** آتية - فقط - من الثقة بالله.. أي من كونها أحكاماً لله **عزّ وجل؛** أي مما جاء به الوحي من الله الذي آمنا به بأنه الخالق العليم، العزيز الحكيم، ذو الجلال والجمال والكمال المطلق.. الذي له الأسماء الحسنى، الذي { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} **[الشورى:١١]**.. هذه الحقيقة هي أصل الأمر، والثابتة بالنصوص الشرعية منطوقا ومفهوما..
- ✓ وأيضاً، إن "صحة" المعالجة **مشروطة** بصحة الفهم لمراد الله من الوحي (الدليل الشرعي) واستنباط الحكم (المعالجة).. **ومشروطة** أيضاً بصحة "تحقيق المناط".. ومشروطة بـ "الحكمة" في تنزيل المعالجة على الواقع.. وهذه أُمور وراد فيها الخطأ.. ومَرَدّ الخطأ ليس للشرع بل لأمر خارج عنه.. وبالتالي إذا كان ممكناً التحقق من "صحة" المعالجة، فلا يمكن إلا بتوفُّر جميع الشروط.. (فقد يكون سوء حال المسلمين يعكس صورة سلبية عن الإسلام)
- ✓ و بعد توفّر جميع الشروط السابقة، فإن "صحة" المعالجة ليس لها مقياس حسِّي أو عقلي مُطَّرد.. حتى يمكننا الحكم بوجودها أم لا.. <u>فهل دليل "الصحة" الموجِدَة للثقة</u>، هو - مثلاً - حصول "المنفعة" (المصلحة) للفرد أو الجماعة؟ على المستوى المادي أو النفسي أو المجتمعي.. من

---

256 - " في الحديث عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: "يُوشِكُ الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة=> إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوَهْن. فقال قائل: يا رسول الله، <u>وما الوَهْن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت</u>". **[صحيح بمجموع طرقه]**. من علامات الساعة: تكالُب أمم الكفر على هذه الأمة، وقد وقع هذا عبر التاريخ أكثر من مرة، عندما تداعت الأمم الصليبية إلى غزوة هذه الأمة، ومرة أخرى عند اجتياح التتار العالم الإسلامي، ولكن هذه النبوءة تحققت في القرن الأخير بصورة أوضح؛ فقد اتفق الصليبيون واليهود والملاحدة على هدم الخلافة الإسلامية، ثم جزؤوا الديار التي كانت تحكمها، وتقاسموا ديار المسلمين فيما بينهم، وأعطوا فلسطين لليهود، وأصبح المسلمون أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، ولا تزال قوى الشرّ إلى اليوم متداعية لتدمير هذه الأمة، وامتصاص خيراتها، ونهب ثرواتها، وإذلال رجالها، والأمة الإسلامية خانعة ذليلة، لم تغن عنها كثرتها، غثاء كغثاء السيل، وعلتها كما أخبر الرسول ﷺ: **الوَهْن**: حب الدنيا، وكراهية الموت. أي: الحِرصُ علَى الدنيا والتطلُّع فيها وتركُ العَملِ للآخرةِ، وهذا يَجعَلُهم يخافونَ الموتَ ويحِبُّونَ الحياةَ ومتعَ الدُّنيا، فيتنافسون عليها، ويَترُكونَ الجهادَ في سَبيلِ اللهِ.. فيهلكون]. **[انظر (القيامة الصغرى" - عمر سليمان الأشقر) ، (الموسوعة الحديثية - الدرر السنية)]**.

كل حكم شرعي

- ✓ فقد لا تُشاهَد الصحة من عدمها على المدى القريب بل على المدى البعيد.. وقد تكون هذه الصحة أو المصلحة خفية غير ملموسة..
- ✓ أما ما جاء في بيان الخير العام والعميم الذي يأتي عند تطبيق شريعة الله.. فهذا حق.. لكنه وصف عام لتطبيق **عموم** شريعة الله.. كما في مثل قوله **تعالى:**

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ طه: ١٢٣ - ١٢٤

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ نوح: ١٠ - ١٢

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ الجن: ١٦

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ البقرة: ١٧٩

وغيرها..

نعم صحيح أن أمر الله الشرعي - شريعته ودينه - فيه الخير العميم للإنسان وأنه هو الصحيح والحق.. لأنه موافق للعقل ومطابق للفطرة الإنسانية وسنن الله في الخلق.. **ودليل** ذلك أنه من الله؛ خالق الإنسان والحياة والكون.. ذي الكمال والجلال والجمال.. ذي الأسماء الحسنى..

وهذا صحيح في عموم الشريعة وفي كل حكم من أحكامها.. لكن **مشاهدة** هذا "الخير" وطبيعته وأشكاله التي يأتي بها.. فأمر لا يعلمه إلا الله ولم يعلمنا بتفاصيله، بل بالعموم:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ البقرة: ٢١٦

﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ النحل: ٧٤

وبالتالي فإن بيان "صحة" المعالجة لكل حُكْم أو معالجة.. من حيث بيان الفائدة والمصلحة من تطبيقها فهو أمر غير ممكن دائماً..

- ✓ ومن جهة أخرى، فإن المبالغة في بيان فوائد الأحكام ومنفعتها أمر له تأثير سلبي على نية المسلم وصحة الإخلاص بالأعمال.. فالأصل في المسلم أنه عندما يقوم بطاعة أمر الله وتطبيق شريعته فإنه يقوم بها (الدافع) لأن الله أَمَر بها (الإخلاص)؛ حباً لله وطلباً لرضوانه.. وخوفا من غضبه وعذابه **جلّ وعلا**.. في الدنيا والآخرة..لا لأجل ما فيها من منفعة أو صلحة..

أما قوله سبحانه وتعالى عن المنافع في الحج - أو غيره - وهي منافع في الدنيا والآخرة:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الحج: ٢٧ - ٢٨

فهذا متعلق بما نص عليه الشرع.. وهو نص عام فيه بيان **لبعض حكمة** الله من تشريع هذا الفرض.. فقد **يتعرّض** المسلم لتلك المنافع أو لبعضها، وفي وقت دون وقت.. وقد يُصاب في نفسه أو ماله أثناء أداء الفريضة.. [257]..

الخلاصة ..

وبناء على ما سبق، فالحق في "تحقيق المناط" وتشخيص واقع المسلمين الآن.. هو أن يكون قياساً إلى تحقيق الأمة لـ "الغاية من الرسالة".. أي بالنظر إلى وصف الأمة الشرعيّ، وأن لها وظيفة تقوم بها، وغاية من وجودها، وهي شرعية أيضا.. ولها سنن ربانيّة تحكم سيرها وصعودها وهبوطها..

ومن ثـَمَّ، فواقع المسلمين الآن (تحقيق المناط):

أنهم أفراداً أو جماعات غير ممَكّن لهم في الأرض - بوصفهم مسلمين - يعيشون في مجتمعات وعلى أرض **ليست** "كلمة الله" هي العليا فيها.. وهُم - في تنظيم علاقاتهم وشؤون حياتهم - يخضعون لشريعة وقوانين غير شريعة الله وقوانينه.. أو يخضعون لها **مع** شريعة الله **عزّوجل**.. فهُم لا "**يُخلِصون** الدين لله".. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.. أي أن "الأمة المكلّفة" غيرموجودة..

ومن هنا، فـ "فَرْض الوقت" - بل وكل وقت - في حق المسلمين [258]، هو العمل على أن "يُخلصوا الدين لله" فلا يُشركوا بطاعة ربهم أحداً.. وأن يبقوا كذلك حتى قيام الساعة..

والطريقة العملية لذلك هي أن يعمل المسلمون - في مجتمع ما - على "**إعادة تأهيل**" أنفسهم حتى يتمثّلوا الوصف الشرعي لـ "**الأمة المكلّفة**"؛ المخوَّلة والقادرة على تنفيذ **جميع** أحكام الإسلام؛ المُناطة بالسلطان وغيرها.. حتى يستطيعوا أن يُخلصوا دينهم لله.. أي العودة إلى "الحالة المعيارية" في تحقيق "إكمال الدين لله"..

وهذا يعني في أرض الواقع: أن يكون المسلمون - في ذلك المجتمع - لديهم **الإرادة** الجازمة **والقدرة** الكافية ليكونوا **مُمكّنين** على بقعة من الأرض؛ بوصفهم مسلمين.. وأن يكون لهم **السلطان** فيها، متجسّداً في "إمارة عامة".. كما كان المسلمون في المدينة المنورة.. حتى تصبح كلمة الله هي العليا.

---

257 - هذه المسألة تشبه أو قريبة من القول: "بأن العِلة من الأحكام هي المصلحة"، وذات صلة به. وقد ناقشه علماء أصول الفقه. **[أنظر كتاب "الشخصية الإسلامية - ج3 / مقاصد الشريعة" - تقي الدين النبهاني]**. وبحْث=> هذه المسألة بالتفصيل ليس هذا مكانه، بل هو بيان الخط العام الواضح. ونحن نقول : "حيثما يكون الشرع تكون المصلحة" و "الحَسَن ما حسّنه الشرع".

258 - فرض الوقت، هو(العبادة التي يحبها الله تعالى مقتضى ذلك الوقت ووظيفته). فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، مِن صلاة الليل وصيام النهار، بل ومِن ترك إتمام => صلاة الفرض، كما في حالة الأمن).. **[انظر (مدارج السالكين) - ابن القيم]**.

هذه هي الغاية المطلوبة الآن، والتي لا يجوز لنا - نحن المسلمين - الانشغال عنها أو التلهي بأي أهداف أخرى غيرها مطلقاً.. ولا تبرأ ذمتنا أمام الله **جلّ وعلا** ولا نخرج من دائرة الإثم ومن غضب الله وعذابه.. متمثلاً بـ "**المعيشة الضنكى**" من الاستضعاف والذلّ وتسلّط أعداء الله علينا.. الخ.. إلا بالتَلَبُّس بالعمل الجاد الدؤوب للتخلُّص من "الوهَنْ".. والسير حتى تحقيق تلك الغاية في واقعنا.

وكلّما بادرنا، قَلَّ زمن الذلّ والضَّنك.. وكلما تقاعصنا، طال زمن التيه وزمن الذلّ والضَّنك.. كما قال النبي ﷺ: (مَن خاف أدْلَج ومَن أدْلَج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة).
[رواه الترمذي (4/633) بإسناد حسن]

أي "مَنْ خاف أن يُدرَك في الطريق وأن يلحقه عدوّه، أَدْلَج في السير، يعني: سار بالدُّلْجَةُ بغاية النشاط والقوة حتى يقطع السير بسرعة، وحتى يَسْلم من خطر عدوّه، والدُّلْجَةُ: السير في أول الليل وقيل: في آخره؛ لأن السير في أول الليل وفي آخره يكون فيه نشاط وقوة على السير، وفي الحديث الآخر: (استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلْجَةُ)..
والمُراد: أن المؤمن يحرص على استغلال أوقات نشاطه في عمل الطاعات، كما يحرص المسافرُ الخائف من عدوه على الاجتهاد بالمشي في الليل والنهار بأوقات نشاطه، حتى يقطع السير ويبتعد عن شر عدوّه.. فلا يهدِر عمره في ما لا يلزم..

فالمؤمن يأخذ نصيبه من سيره في طريق حياته، بقوة ونشاط وذلك بالجِدّ في طاعة الله والحذر من معاصي الله، فمن خاف النار وخاف غضب الله جَدَّ في الطلب واستقام واستمر ولم يرجع القَهْقرى ولم يَكْسلْ، بل يستمر في طاعة الله وترْك معاصيه حتى يلقى ربّه **عزّ وجلّ**..

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۞ ﴾ الشرح: ٧ - ٨

أي، "إذا فَرَغَت مِن شُغْلٍ مِن أمور دنياك وآخرتك، فانْصِبَ في آخِرَ، والنَصْبُ: التَعَبُ، فالمَعْنى: أنْ يَدْأبَ عَلى ما أُمِرَ بِهِ ولا يَفْتُرُ" **[(المحرر الوجيز - ابن عطية) ، (جامع البيان - الطبري) وغيرهما]**..

ثم قال: (ومن أدْلج بلغ المنزل) يعني: من سار بالجِدّ وصبْرٍ ونشاطٍ، وصبَر على تعب السير.. بلَغ المنزل بإذن الله، فيكون هو الفائز. أمّا مَن تساهل وتباطأ.. فقد يُدركه عدُّوه، فيدركه الخسران، والعياذ بالله..
ثم بيّن أن سلعة الله غالية فهي جديرة بأن يَعمل المؤمن ويجتهد ويصبر ويواصل السير حتى يدرِك هذه السلعة العظيمة وهي الجنة، وقد جعل الله **جلّ وعلا** ثمنها النفس:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ .. ۞ ﴾ التوبة: ١١١

فالنفس أغلى شيء عند الإنسان فاشتراها سبحانه بالجنة، فالجنة هي الثمن العظيم لمَن جَدّ واجتهد وصبَر وصابَر، فقد باع نفسه على الله وسلمها لله في جهادها في طاعته واستعمالها في مرضاته، وكَفَّها عن محارمه.. يرجو أن يحصل له الثمن وهو الجنة.. وهذا الثمن عند مَلِيء، وفي عظيم جواد كريم سبحانه وتعالى" **[منقول بتصرف]**

والحمد لله رب العالمين

في سياق إكمال **خطوات** تنزيل "منهاج النبوّة" على الواقع، بقي أن نعرف:

مَنْ هي الجهة من المسلمين **المكلّفة** الآن بتحقيق تلك الغاية الجليلة ؟

وما هي **المعالجات** المطلوبة ؟ ..

ومِن أين تكون **البداية** ؟

الخطوة الثانية : تعيين المكلّف

والمسلمون في مرحلة "ما قبل التمكين"، من الواضح أنهم يكونون مكلّفين بوصفهم أفراداً، وبوصفهم جماعات أو مجموعات تعيش في مجتمعات ليست "كلمة الله" هي العليا فيها..

وقد بيّنا أن أصل التكليف أنه على الفرد المسلم المحقِّق لشروط التكليف..

فيجب على كل فرد مسلم الالتزام بالأحكام والمعالجات المطلوبة لإقامة "فَرْض الوقت" في حق المسلمين الآن: إيجاد "الأمة" المحقّقة لشروط التكليف، والمخوَّلة شرعاً بتنفيذ جميع أحكام الله في الواقع.. حتى يُمْكِنه أن يُخْلِص دينه لله.. فيفوز برضوان الله وينجو من عذابه..

فإن كان ذلك لا يتم إلا من خلال جماعة من المسلمين (مثل صلاة الجماعة، وبعض فروض الكفاية)، فالواجب على كل فرد مسلم مُحقِّق لشروط التكليف، الالتقاء مع أخيه المسلم حتى يصبحوا جماعة **مؤهّلة** و**قادرة** على القيام بالتكاليف والمعالجات الشرعية اللازمة بوصفها الشرعي.. لتحقيق تلك الغاية الشرعية: إيجاد "الأمة" المحقّقة لشروط التكليف.

والآن، ما هي المعالجات المطلوبة؟.. وما هي كيفية السير؟.. ومن أين تكون البداية؟

الخطوة الثالثة: بيان المعالجات الشرعيّة و السُّننيّة، المطلوبة.

المعالجات السُننيّة:

بما أن المسلمين الآن في حال "ما قبل التمكين".. بوصفهم مسلمين.. فهُم بطبيعة الحال، داخلون في **سنن** الله **تعالى** لهذه المرحلة بوصفها العام؛ من الضعف والتفرّق وذهاب ريحهم وتسلّط عدّوهم عليهم، وطاعتهم واتباعهم لأحكام غير الله (الطاغوت) في غالبيّة شؤون حياتهم؛ في أموالهم وأنفسهم.. ومعيشتهم "معيشة ضنكى".. إلخ..

فينبغي أن يكونوا على **عِلْمٍ** بتلك السنن **وإحاطة** في فهمها، وكما هي مُبَيَّنة في **القرآن** الكريم **والسنة** المطهرة.

وقد ذَكَرنا أن "الفهم المنهاجي" لسوَر القرآن الكريم هو أصلٌ في فهم تلك السنن..

الخواص و**السُنن** الإلهية المتعلقة بالواقع الإنساني تمثلان تقدير الله له، ومشيئته العامة فيه: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.. وفَهْم المؤمنين لهما - الخواص و السُنن - والنظر إلى الأحداث الحاصلة فيه بحسبهما.. يُمَكّن المؤمنين من إدراك الواقع الإنساني الذي يتواجدون فيه إدراكاً صحيحاً ودقيقاً، وفَهْم ما يقع من أحداث (المناط): لماذا وقعت؟ وكيف؟ وما الحكمة من وقوعها؟.. وهو ما يمثّل "النظرة الإيمانية للواقع".. ليكون لذلك الفهم تأثيراً إيجابيّاً مباشراً على سير المؤمنين بالرسالة، حتى تحقيق الغاية.. فهو يعطي المؤمنين مستوى عالٍ من الوضوح والفهم للواقع

الإنساني، ثم في التعامل معه ومعالجته قدراً وشرعاً، وبالتالي القدرة على تحقيق مراد الله **تعالى** فيه بكفاءة عالية وبإحسان:

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الملك: ٢٢

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ الإسراء: ٣٩

والعلم **بطبيعة** السير بالرسالة في المجتمع؛ أي العلم **بخواصه وسننه** التي قدّرها الله، والإحاطة في فهمها، يوجِد لدى المؤمنين - حَمَلَة دعوة الله - "الحكمة"؛ أي بصيرةً نافذة، يبصر بها حقائق الأمور فلا تُشْغِلْه تفاصيلها وظواهرها.. فيصبح لديه قدرةً على توقّع ما يُمكِن أن يحدث، واستشراف المستقبل.. "فلا تصدمهم الأحداث بل تكون لديهم صلابة في الموقف، بخلاف مَنْ يجهل مصدر الأحداث وسببها والحكمة منها.. فإنه ليس لديه إلا الخوف والقلق".. [(259)]

ممّا يجعل عند حَمَلَة رسالة الله، القدرة على التشخيص الدقيق للواقع الذي يتحركون فيه (تحقيق المناط) وأقرب ما يكون إلى الحقيقة، ثم معالجته بدقة وكفاءة عاليتين.. وبأقرب ما يكون إلى الصحة وأبعد ما يكون عن الخطأ.. الأمر الذي يُجنِّب حَمَلَة الرسالة، التبعات السلبية والضارة، في حالة الخطأ سواء في "تحقيق المناط" الذي يواجهونه أو في تعيين "المعالجات الشرعية" المتعلّقة به أم في الحكمة عند تنزيلها عليه. **هذا** - بشكل عام - بالنسبة لـ "المعالجات السننية"..

المعالجات الشرعيّة:

259 - "الحكمة": "القدرة على العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والعمل بمقتضاه"، أي العلم بحقيقة الأمر البسيطة الواضحة، والمختفية وراء التعقيد الظاهر واشباك التفاصيل المشاهَدة. وهذه القدرة سببها العلم بـ "سنن الله" و "الحكمة من أفعال الله" والذي مصدره الوحي. وهذه "الحكمة" أصلٌ في تكوين "التفكير الاستراتيجي" عند المسلم صاحب الرسالة؛ حامل دعوة الله.. والنظرة بعيدة المدى للأمور، والتخطيط للمستقبل القريب والبعيد.. وقد كان ذلك ظاهراً في قرارات وأعمال الخلفاء الراشدين وعند الكثير من قادة الأمة ورجالاتها على مدى تاريخها الطويل.

ونشير هنا إلى أن "التحليل السياسي" بالمفهوم الحديث، الأصل فيه أن يكون مَبْنِيّاً على "الفهم السنني" و "النظرة الإيمانية" للواقع الإنساني بتفاصيله، والذي يوجِد الحِكْمة عند المؤمن. فلا فصل بين النظر إلى الواقع والأحداث من الزاوية السياسية أو الزاوية الإيمانية.. وذلك - ببساطة - لأن المؤمنين هُم الأمة صاحبة الرسالة الخاتمة.. فتطبيق هذه الرسالة وحملها لسائر الأمم كرسالة من الله، هو أصل أعمالهم والإطار الضابط لها؛ مفاهيمياً وإجرائياً.. وأصل العلاقة مع سائر الأمم، هو دعوتهم إلى عبادة الله وحده والكفر بما دونه.. لإنقاذهم من النار.. فإن أبوا فهو صراع بين حق وباطل، صراع حزب الله مع حزب الشيطان، أولياء الله ضد أولياء الشيطان: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٧٦]، ﴿.. ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة].

ذكرنا سابقاً، أن "**المعالجات الشرعيّة**" هي: الفهم لدلالة "الدليل الشرعيّ" حسب الأصول المعتَبرة لغة وشرعاً، سواء في ما يتعلّق بالإيمان أم بالعمل الصالح أم بالدعوة، خطاباً وأفعالاً. فهي أشمل وأعم من "**الحكم الشرعيّ**" المتعلّق **بأفعال** العباد، ومتضمنة له فهي تتعلق **بالفكر** أيضاً؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو، أم بالحكم على وجوده من عدمه، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعيّ..

وذَكَرنا أن "الفهم المنهاجي" لسوَر القرآن الكريم هو أصل في فهم "المعالجات الشرعية" التفصيلية..

أمّا "**الحكم الشرعي**"، فهو: «خطاب الشرع المتعلق بأفعال العباد، **اقتضاءً** أو **تخييراً** أو **وضْعاً**». "فالحكم الشرعي" أو "خطاب الشرع" له قسمان أساس:

1- **خطاب التكليف** وهو: «ما اقتضى الشرع فعله، أو تركه، أو التخيير بين الفعل والترك». وسُمي « **تكليفيّ**»، لتعلّقه بالمكلّف، وتمييزاً له عمّا هو من قبيل «**الوضْع**».

ولـ "الحُكْم التكليفي"، خمسة أقسام أساس:

فما اقتضى الشرع فعله على وجه الإلزام، هو: **الفرض**،
وما اقتضى الشرع فعله لا على وجه الإلزام، هو: **المندوب**،
وما اقتضى الشرع تركه على وجه الإلزام، هو: **الحرام**،
وما اقتضى الشرع تركه لا على وجه الإلزام، وهو: **المكروه**،
وما اقتضى الشرع التخيير بين فعله وبين تركه، وهو: **المباح**،
ومعنى التخيير: استواء الفعل والترك.

2- **خطاب الوضْع** وهو: في مقابل **خطاب التكليف**.

قال الشاطبي في الموافقات: القسم الثاني من قسمَي الأحكام يرجع إلى "خطاب الوضع".. وهو ينحصر في: الأسباب، والشروط، والموانع، والصحة والبطلان، والعزائم والرخص، فهذه خمسة أنواع.

والأفعال الواقعة في الوجود من جهة ما يدخل تحت "خطاب الوضع"، على الجملة ضربان:

أحدهما: خارج عن مقدور المكلف، والآخر: ما يصح دخوله تحت مقدوره..

فالأول؛ خارج عن مقدور المكلف: قد يكون **سبباً**، أو **شرطا**، أو **مانعا**:

فالسبب مثل: الاضطرار فإنه يكون سببا في إباحة الميتة، وخوف العَنَت فإنه يكون سببا في إباحة نكاح الإماء، وزوال الشمس أو غروبها أو طلوع الفجر فإنه يكون سبباً في إيجاب تلك الصلوات في تلك الأوقات المحددة لها، ونحو ذلك من الأسباب التي هي مما هو خارج عن مقدور المكلف.

والشرط: مثل كون الحَول شرطا في إيجاب الزكاة، والبلوغ شرطا في التكليف مطلقاً، والقدرة على التسليم شرطا في صحة البيع، والرشد شرطاً في دفع مال اليتيم إليه، وإرسال الرسل شرطا في الثواب والعقاب، وما كان نحو ذلك من الشروط التي هي مما ليس بمقدور المكلف.

والمانع: مثل الحيض من حيث أنه يكون مانعاً من الوطء حال الحيض، وكونه مانعا من الطواف بالبيت، ووكونه مانعاً من وجوب الصلوات وأداء الصيام، وكون الجنون مانعاً من القيام بالعبادات

وإطلاق التصرفات.. وما أشبه ذلك من الموانع مما ليس بمقدور المكلف، مثل: غروب الشمس أو حلول الحول..

وأما الضرب الثاني؛ ما يصح دخوله تحت **مقدور** المكلف: وقد يكون إما سبباً أو شرطاً أو مانعاً.

أما **السبب**: فمثل كون النكاح سببا في حصول التوارث بين الزوجين، وتحريم المصاهرة وحِلّية الاستمتاع، والذكاة سببا لحِلّية الانتفاع بالأكل، والسفر سبباً في إباحة القصر والفطر، والقتل والجَرح سبباً للقصاص، والزّنى وشرب الخمر والسرقة والقذف أسباباً لحصول تلك العقوبات، وغير ذلك فهذه الأمور وُضِعت أسباباً لشرعية تلك المسبَّبات.

وأما **الشرط**: فمثل كون النكاح شرطا في وقوع الطلاق أو في حِل مراجعة المطلقة ثلاثا، وكون الإحصان شرطاً في رجم الزاني، وكون الطهارة شرطاً في صحة الصلاة، والنية شرطاً في صحة العبادات ونحو ذلك، فهذه الأمور ليست بأسباب، ولكنها شروط معتبرة في صحة تلك المقتضيات.

وأما **المانع**: مثل كون نكاح الأخت مانعاً من نكاح الأخرى؛ لتحريم الجمع بين المرأة وأختها، وكون نكاح المرأة مانعاً من نكاح عمتها وخالتها، وكون الإيمان مانعاً من القصاص للكافر، والكفر مانعاً من قبول الطاعات.. وأشباه ذلك ما يصح دخوله تحت **مقدور** المكلف..

هذا، والمقصود ليس الاستقصاء، إنما التنبيه إلى أن "أحكام الوضع" لها نفس أهمية "أحكام التكليف" وخاصة عند تنزيل المعالجات والأحكام الشرعية على الواقع المعيّن، بقصد تحقيق الغاية من الرسالة، فـ "أحكام الوضع" الخمسة (الشرط والسبب والمانع..) لها تأثير مباشر على فهم "المنهاج" وتنزيل الحُكْم (المعالجة) الشرعي على الواقع المعين، في طوره ومرحلته..
فهي بمثابة ضوابط للمرحلية، من باب فهم الأحكام والمعالجات المتعلّقة بـ "المناط المعيَّن" في المرحلة المعينة - أي حسب الشروط والأسباب والموانع.. المتعلقة بها - ولا يجوز تطبيقها في مرحلة أخرى على اعتبار شروطها وأسبابها وموانعها..

ولها تأثير على ضبط مدى المناورة و"المرونة" - إن جاز التعبير - أو من باب "العزيمة والرخصة أو الصحة والبطلان" - في إطار الاستطاعة - في التعامل مع الواقع المعين، مثل إقرار رسول الله لعمار بن ياسر في إظهار الكفر وإبطان الإيمان.. ومثل ما أراده ﷺ في غزوة الأحزاب من مفاوضة غطفان على الانسحاب من المعركة والرجوع عن غزو المدينة في مقابل الحصول على ثلث ثمار المدينة.. ومثل قبول رسول الله ﷺ في صلح الحديبية ببعض الشروط التي في ظاهرها إجحاف في حق المسلمين..
فمثل هذه المواقف، التي يبدو في ظاهرها تنازل وتراجع عن الحق.. لكن لا بد من بيان ضوابطها؛ أي شروطها وأسبابها وموانعها، والرخصة ولعزيمة، والصحة والبطلان - في إطار الاستطاعة - حتى يعلم حامل الرسالة الأحوال التي يمكن أن يلجأ فيها لمثل تلك المواقف.

لذلك اقتضى التنويه لأحكام الوضع لأهميتها في مثل هذه السياقات. والله أعلم.

و**المعالجات الشرعيّة**؛ باعتبار الجهة المكلَّفة **بالتنفيذ**، فهي تنقسم إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: وهي **الأحكام** والمعالجات **الشرعيّة**؛ خطاباً وأعمالاً.. المُناط **تنفيذها** بـ الأمة ذات السلطان (الأمة المكلّفة).. فهي **مِنْ** الأحكام التي نُـزّلت في المدينة المنورة "بعد التمكين" للمؤمنين.. مثل إقامة الحدود (نظام العقوبات)، وإعلان الجهاد، وجمع الأموال من الناس (النظام الاقتصادي)..

المجموعة الثانية: وهي الأحكام والمعالجات؛ خطاباً وأعمالاً.. المُناط **تنفيذها** بالفرد وبالجماعة من المسلمين.. وتشمل جميع الأحكام والمعالجات الشرعية؛ **جميع** أحكام الشريعة، سواء التي نزلت في مكة أو في المدينة [260].. ويُستثنى منها الأحكام المتعلِّق تنفيذها بالسلطان؛ أي "المجموعة الأولى".

ومجموعة **الأحكام الشرعيّة** المُناطة بالسلطان، في حال **عدم وجود** "المكلّف المَعْني" بتنفيذها، تبقى **معلّقة** بدون **تنفيذ** في الواقع حتى يوجَد المكلّف المعْني.. أي حتى توجَد "الأمة المكلّفة" بوصفها الشرعي [261]..

فلا يجوز **للفرد** المسلم ولا "الجماعة المسلمة"- حتى لو كان عندهم الاستطاعة - القيام بتنفيذ الأحكام والمعالجات التي أناط الشارع تنفيذها بـ "الأمة المكلّفة".. مثل إقامة الحدود.. إلا بعد أن يحقِّق المسلمون - في مجتمع ما - الوصف الشرعي لـ "الأمة المكلّفة": أمة مسلمة، ممكَّن لها في الأرض، ولها سلطان متمثّل "بإمارة عامة"، وأمانها الداخلي والخارجي بقوة المسلمين الذاتيّة.. كما ذكرنا سابقاً.

فكل **مُكلَّف** - الفرد أو الجماعة أو الأمة - له مجموعة (دائرة) معالجات وأحكام **مُنَاطةٌ** به، وهو **وحده** المسؤول عن **تنفيذها**.. ولا يُجزئ مُكلَّف عن آخر القيام بما هو مُنَاط به من أحكام ومعالجات شرعيّة إلا بدليل شرعيّ.. هذا من حيث التنفيذ، أمّا من حيث **أصل التكليف**؛ فإن إيجادها "فرْض

---

260 - نشير هنا، إلى أن "أركان الإسلام" الثلاثة: الصيام والحج والزكاة، لم تُفرض إلا في المدينة، => وكذلك صلاة الجمعة، وحتى الصلوات الخمس لم تُفرض إلا قبيل الهجرة بقليل، فلم يكن مفروضاً إلا الركن الأول من أركان الإسلام: الشهادتان، والصلاة كانت ركعتين، مرتين في اليوم. وسائر الأحكام التي نزلت في مكة - أغلبها - كانت مفروضة كأخلاق أو كصفات للمؤمنين، وأنها من الحكمة، فلم تُبحث بحثاً فقهياً مفصلاً، كما حدث لاحقاً في المدينة المنورة، (كما في سوَر: المؤمنون، الفرقان (عباد الرحمن)، الإسراء 23-39، الأنعام، الشورى والمعارج..) أما أركان الإيمان فكان الإيمان بها كلها فرضاً. ومن هنا، فالأمر المعتبر عند النظر إلى الأحكام، هو ملاحظة مَن هو المكلّف بتنفيذها؟. أمّا الفرد والجماعة؛ فمكلفين بتنفيذ بجميع الأحكام التي أناطها الشارع بهما، وهي جميع أحكام الإسلام - ما نزل في مكة والمدينة - باستثناء الأحكام المناطة بالسلطان، فالأمة صاحبة السلطان؛ "الأمة المكلَّفة (بعد التمكين) هي وحدها المكلّفة بتنفيذها، وذلك بأن تختار من ينوب عنها في ذلك؛ "الإمارة العامة" أو "ولي الأمر" الشرعي.

261 - هذه المسألة تدخل في مَبحث: ضوابط "تعليق العمل بالحكم الشرعيّ" أو "وقف العمل بالحكم => الشرعيّ" من أصول الفقه، **[انظر مثلاً كتاب : (الضوابط الشرعيّة لوقف العمل بنصوص القرآن والسنة - د عزت روبي مجاور سليم الجرجي)]**. ومن أهم تلك الضوابط: لزوم تحقق شروط وأسباب الحكم الشرعي، وانتفاء موانعه.. ومنها ما هو متعلّق بالوقت أو بالمكان أو بوجود ذات المكلّف - فرداً أو جماعة أو أمة - أو متعلّق باستطاعته، أو بحاله أو صفته.. الخ. فهي - بشكل أساس - مما يدخل في "أحكام الوضع". وعند تنزيل الأحكام والمعالجات على الواقع المعيّن، لا بد من الوعي والفهم العميق لـ "أحكام الوضع" من الخطاب الشرعي، لما له من تأثير مباشر على معالجة الأحداث والأعمال في وقتها ومرحلتها، المعالجة الصحيحة.

عين" على كل مسلم يحقِّق شروط التكليف، على أساس أن المسلم الفرد مكلَّف بتحقيق إخلاص دينه لله، وأن الطريقة الوحيدة لذلك، هي إيجاد "الأمة المكلَّفة"؛ فـ "ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب"..

وعندما **يحقق** المسلمون الوصف الشرعي لـ "الأمة المكلّفة" ؛ التمكين والسلطان والأمان الذاتي..
ومنه، **مبايعة** مَنْ **ينوب عنهم** (الإمارة العامة) في رعاية شؤونهم كلّها بشريعة الله.. وأن يَشْرَعوا بالسير قُدُماً نحو "إكمال (إخلاص) الدين لله".. عندها تصبح الأحكام الشرعيّة المكلّفون بتنفيذها على الواقع، هي: **جميع** الأحكام والمعالجات الشرعية ـ خطاباً وأعمالاً ـ **بلا استثناء**؛ المُناطة بالسلطان وغيرها.. وأن تنفيذها يكون حسب "منهاج النبوة" لهذه المرحلة من السير بالرسالة.

ومن ثَمّ، فـ "المجموعة الثانية" من الأحكام والمعالجات؛ خطاباً وأعمالاً؛ أي الُمناط **تنفيذها** بالفرد أو بالجماعة من المسلمين.. هي وحدها التي يُؤخَذ منها ما يلزم لمعالجة المواقف والأحداث والشبهات (المناط) الحاصلة في مرحلة ما "قبل التمكين" بأطوارها المتتابعة، أثناء حمل "دعوة الله"، وبحسب "منهاج النبّوة" بضوابطه السننيّة والشرعيّة.. بقصد تحقيق الغاية من هذه المرحلة، وهي: "**إعادة تأهيل**" المسلمين في مجتمع ما.. حتى يصبحوا قادرين على تحقيق الوصف الشرعي لـ "الأمة المسلمة" المخوَّلة والقادرة على تنفيذ جميع أحكام الإسلام.. وهي "الأمة المكلّفة".

تنبيه ..

الكلام السابق عن الأحكام والمعالجات الشرعية؛ خطاباً وأعمالاً.. كان بالنظر إليها جميعاً.. أي، كما هي واردة في جميع نصوص الوحي (الدين كَكُل)..

أمّا أثناء السير العمليّ بالرسالة في المجتمع، حسب "منهاج النبوّة" بضوابطه السننيّة والشرعيّة، بقصد تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة؛ "إخلاص الدين لله"، والوصول إلى "الحالة المعيارية"..

فإن التعامل مع الأحكام والمعالجات الشرعية يكون بشكل تفصيلي وعلى "الترتيل".. بحسب تتابع حصول الأحداث والمواقف (المناط):

بمعنى أنه عندما يواجه "المكلَّفُ المَعْنِي"؛ الفرد والجماعة أو السلطان (الأمة المكلَّفة).. "مَناطاً معيَّناً"؛ شُبْهة، فعل، موقف: من شخص أو فئة.. حال حدوثه، في طوره ومرحلته؛ "قبل التمكين أو بعد التمكين"..

فإن ذلك "المكلّف" **لا** يَأخذ مِنْ الأحكام الشرعية **إلا** مِنْ "مجموعة الأحكام" المُناط به تنفيذها.. **وبما** يتعلَّق بذلك المناط لمعالجته..

مثال توضيحي ..

وإذا اردنا ضرب مثل للتقريب.. فهو: مثال الطبيب عند معالجته للمرضى..

فهو بوصفه طبيباً، لا بد أن لديه **العلم الكافي** بالأصول الثلاثة للمعالجة: العلم بالأمراض؛ خصائصها وأعراضها.. والعلم بالعلاج المناسب لكل مرض.. والعلم بكيفية العلاج.. وإضافة لذلك، عنده "الصيدلية" التي تحتوي على كل العلاجات (الأدوية) اللازمة لكل الأمراض؛ سواء كانت العلاجات جاهزة أو يمكن تركيبها واستخراجها مما هو متوفر من علاجات أخرى..

فعندما يأتيه مريض معين.. فأول ما يقوم به الطبيب هو "التشخيص" الدقيق لحالة هذا المريض لتحديد نوع مرضه، وفهم "الحالة الصحية العامة" للمريض..

ثم، ومن بين جميع الأدوية الموجودة في الصيدلية، يختار له العلاج (الدواء) المناسب؛ لمرضه و"لحالته الصحية العامة".. (قد لا يصلح نفس الدواء لكل الأشخاص المصابين بنفس المرض، بسبب اختلاف "الحالة الصحية العامة" بين مريض وآخر)

ثم يُعطي الدواء (المعالجة) للمريض ويُبيِّن له طريقة تناوله، والإجراءات التي ينبغي له القيام بها.. (كيفية المعالجة).. والتي ستستغرق وقتها اللازم لها؛ واستجابة المريض عامل مهم في إطالة الوقت أو تقصيره..

ثم يتابع الطبيب تطوُّر حالة المريض مع الأيام.. ويُعدِّل له في الدواء نفسه أو في طريقة أخذه، إذا لزم.. حتى يتماثل المريض للشفاء التام.. انتهى.

وجه التشابه مع المثال:

الطبيب، يمثِّل حامل "دعوة الله" ورسالته..

والعِلْم السابق الذي لدى الطبيب بالأصول الثلاثة للمعالجة، يمثّل عِلْم "حامل الدعوة" بواقعه المجتمعيّ، وسنن الله فيه.. والعِلْم بـ "منهاج النبوة"، وكما سار بحسبه رسول الله في معالجة الواقع الإنساني.. (العلم بكيفية تنزيل "المعالجات" على "المناط المعين"، والحاصل في طوره ومرحلته.. تعليم الحكمة.. بقصد تحقيق الغاية من الرسالة)

والصيدلية، تمثِّل مجموع الأحكام والمعالجات الشرعية (الدين كله؛ إيمان وعمل صالح) كموضوع.. سواء المجموعة المتعلق تنفيذها بالأمة أو الأخرى المتعلّق تنفيذها بالفرد والجماعة..

والمريض المعيَّن، وحالته الصحية العامة.. يمثّل "المناط" المعيَّن.. الحاصل في طوره ومرحلته..

ومن هنا، فأثناء سير حامل "دعوة الله" في مجتمع معيَّن، وبحسب "منهاج النبوة" المتعلق بالمرحلة المعينة من السير؛ "قبل التمكين" أم "بعد التمكين"..
وواجه "مناطاً معيناً" (حالة، موقفاً، شخص، شبهة..) أثناء ذلك..
فهو يتعامل مع الأحكام والمعالجات الشرعية، من المجموعة ذات العلاقة بالمرحلة التي حصل فيها ذلك "المناط".. ليأخذ منها الحكم الشرعي، المتعلِّق بـ "المناط" نفسه لمعالجته..

ولكل مرحلة "مناطاتها" (أحداثها ومواقفها وإشكالاتها).. ولكل مرحلة "مجموعة معالجات" متعلقة بها.. وذلك بحسب وجود "المكلف المعني".. فلا يجوز - عند معالجة مواقف المجتمع - الخلط بين مجموعتي المعالجات؛ فلكل مجموعة "مكلّف معني" بتنفيذها.. ولا حتى الخلط بين معالجات المجموعة الواحدة؛ يعني بين الأولويات.. فأي **خطأ** في تعيين المعالجة اللازمة أو معالجة في غير الوقت والمكان والظرف العام المناسب، ومن "المجموعة" غير المناسبة.. فهو "معالجة **خاطئة**" لذلك المناط.. ستؤدي إلى مضاعفات سلبية من شأنها تأخير المعالجة.. أي تأخير تحقيق النتائج المرجوّة.. أي تأخير "إعادة تأهيل" المسلمين في ذلك المجتمع لتحقيق الغاية من الرسالة.

خلاصة ما سبق ..

1- الحق في "**تحقيق مناط**" المسلمين الآن: أنهم أفراد أو جماعات غير مُمَكّن لهم في الأرض - بوصفهم مسلمين - يعيشون في مجتمعات وعلى أرض **ليست** "كلمة الله" هي العليا فيها.. وبالتالي فهُم في تنظيم علاقاتهم وشؤون حياتهم، يخضعون لشريعة وقوانين غير شريعة الله وقوانينه.. أو يخضعون لها **مع** شريعة الله **عزّ وجل**.. فهُم لا "**يُخلِصون** الدين لله" - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - أي أن "الأمة المكلّفة" غيرموجودة..

2- **ومن هنا**، فَـ "فَرْض الوقت" في حق المسلمين الآن؛ أي "**الغاية**" المطلوب شرعاً تحقيقها.. هي أن "يُخلصوا الدين لله" فلا يُشركوا بطاعة ربهم أحداً..

3- **والطريقة العَمَلية** لذلك هي أن يعْمل المسلمون في مجتمع ما، ودون تأخير، على "**إعادة تأهيل**" أنفسهم - وحسب "منهاج النبوة - حتى يتمثّلوا الوصف الشرعي لـ "الأمة المكلّفة"؛ المخوَّلة والقادرة على تنفيذ **جميع** أحكام الإسلام؛ المُناطة بالسلطان وغيرها.. حتى يستطيعوا أن يُخلصوا دينهم لله.. أي العودة إلى "الحالة المعيارية" في تحقيق "إكمال الدين لله"..

4- **المكلف** بإقامة "فرض الوقت" هذا، هو كل فرد مسلم يُحقِّق شروط التكليف.. فإن كان هذا الفرض لا يُقام به إلا من خلال جماعة من المسلمين (مثل صلاة الجماعة، وبعض فروض الكفاية)، فالواجب على كل فرد مسلم مُحقِّق لشروط التكليف، الالتقاء مع أخيه المسلم حتى يصبحوا جماعة مؤهلة وقادرة على القيام بالتكاليف والمعالجات الشرعية اللازمة بوصفها الشرعي.. لتحقيق تلك الغاية الشريفة حسب "منهاج النبوة"..

5- **المعالجات المطلوبة** وحسب منهاج النبوة؛ هي - من حيث طبيعتها - على نوعين، في دين الله:

✓ **"معالجات شرعيّة"** :

- وهي أشمل وأعم من "**الحكم الشرعيّ**" المتعلّق **بأفعال** العباد.. فهي متضمنة له، فهي تتعلق **بالفكر** أيضاً؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو، أم بالحكم على وجوده من عدمه، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعيّ..
- و "**الفهم المنهاجي**" لسوَر القرآن الكريم هو أصل في فهم "المعالجات الشرعية" التفصيلية **[انظر الجزء الثاني: "تبيان سوَر القرآن"]**..
- و"الحكم الشرعي" أو "خطاب الشرع" له قسمان أساس: "خطاب التكليف" و "خطاب الوضع"..
- والأحكام الشرعية - بنوعيها - فهي من حيث التنفيذ، تنقسم في مجموعتين: مجموعة مُناط تنفيذها بـ "الأمة المكلَّفة".. والثانية مُناط تنفيذها بالفرد أو الجماعة من المسلمين..
- ويأخذ "المكلّف المَعْني".. الأحكام (المعالجات) من إحدى المجموعتين؛ ذات العلاقة.. لتنزيلها على "المناط المعيَّن" الحاصل فعلاً، في طوره ومرحلته.. ""قبل أو بعد التمكين".. وحسب تتابع (ترتيل) أعمال السير بالرسالة وتتابع حصول مواقف المجتمع وملئه..

✓ **"معالجات سننية"**:

- وهي الأعمال (قول أو فعل) التي في أصلها "مباحة" شرعاً..
- والمُناسِبة عقلاً وواقعا (الأسلوب) لتنزيل "المعالجة الشرعية" على حدث حاصل فعلاً (المناط)..
- والتي **ينبغي** القيام بها، بناء على فَهْم طبيعة ذلك "المناط" فهماً شاملاً من منظور السنن الربانية: في الآفاق والأنفس، وفي الأمم والمجتمعات، والرسل والرسالات؛ من حيث سبب حدوثه والحكمة من حدوثه، الدروس والعِبَر.. و"النظرة الإيمانية" لواقع المسلمين، بشكل عام أو في مجتمع معيّن.. لتحقيق "المعالجة الشرعية" لذلك "المناط" (الحكمة)..
- فَقِوام "المعالجات السُّننيّة"؛ أفعالاً وأقوالاً.. هو معرفة وفهم "**السُنن الإلهية**"، أي فهم القوانين الدائمة التي **قدّرها** الله تعالى **لضبط** الخواص التي خلَق عليها كل مخلوق..
- وكلٍ من "الخواص" و"السنن"، تُمثِّل **مشيئة** الله تعالى الدائمة في الخلق والتقدير، فلا تتغيّر ولا تتبدل؛ أي تمثّل: **أمر** الله أو **قضاؤه** أو **حُكْمه** أو **جَعْله** الكوني القَدَريّ..
- وبما أن المسلمين الآن في حال "ما قبل التمكين".. بوصفهم مسلمين.. فهُم بطبيعة الحال، داخلون في **سنن** الله تعالى لهذه المرحلة بوصفها العام؛ من الضعف والتفرّق وذهاب ريحهم وتسلّط عدوهم عليهم، وطاعتهم واتّباعهم لأحكام غير الله سبحانه وتعالى في غالبيّة شؤون حياتهم؛ في أموالهم وأنفسهم.. ومعيشتهم "معيشة ضنكى".. إلخ..

فينبغي على حَمَلَة "دعوة الله" أن يكونوا على **عِلْم** بتلك السنن **وإحاطة** في فهمها، وكما هي مُبَيَّنة في **القرآن** الكريم **والسنة** المطهرة.. وخاصة تلك المتعلِّقة بخصائص كل فئة من فئات المجتمع المختلفة؛ مسلمين، يهود، نصارى، منافقين، أغلبية صامتة..

وذلك لا بد منه حتى يُمْكِنهم التشخيص الصحيح للواقع المجتمعي (تحقيق المناط) الذي تتعامل معه حَمَلَة "دعوة الله" ورسالته.. وبالتالي المعالجة الصحيحة له؛ شرعاً وقدراً..

و "الفهم المنهاجي" لسوَر القرآن الكريم هو أصل في فهم تلك السنن.. والعِلْم بكيفية تعامل رسول الله ﷺ مع الواقع (المناط) المعين، سبب في تحصيل "الحكمة" في معالجة ذلك الواقع..

والحمد لله ربّ العالمين

هذا، وبعد ما تَمّ بيانه من خطوات تنزيل "منهاج النبوة" على واقع "الأمة الخاتمة":

- ✓ "تحقيق **مناط**" أمة المسلمين..
- ✓ تعيين **المكلَّف** بالأحكام (المعالجات) و**بتنفيذها**..
- ✓ بيان نطاق **المعالجات** ذات العلاقة من "منهاج النبوة"..

نصل الآن إلى الخطوة الأخيرة، وهي:

بيان **كيفية** تنزيل المعالجات على "المناط المعيّن" بقصد تحقيق الغاية من الرسالة..

أي، بيان كيف سيكون **السير العمليّ** في تبليغ "دعوة الله" ورسالته؟.. ومن أين تكون البداية؟.

المبحث الثاني: السير العمليّ بالرسالة في الواقع الإنساني المعيّن، بقصد تحقيق الغاية منها

إن السير العملي بالرسالة في مرحلة "ما قبل التمكين"، في أي مجتمع.. محكوم لِـ "منهاج النبوة" المتعلِّق بهذه المرحلة.. والذي، يتضمَّن كل ما هو مُلْزِم لنا مِمّا قام به رسول الله ﷺ أثناء سيره بالرسالة، في مرحلة "ما قبل التمكين"؛ سواء في ما يتعلق بالخطاب أو بالمعالجات أو بترتيب الأعمال.. كما فصلنا فيه القول في "الباب الثالث".. وكما ذكرنا في الفقرة السابقة تلخيصاً لما سبق بيانه..

أولاً: الخط العام للعمل الشرعي المطلوب القيام به في حال ما "قبل التمكين"

الغاية: جعل "كلمة الله هي العليا" وأن "الدين كله لله".. وذلك بإيجاد "الأمة المكلّفة"؛ أي المخوّلة والقادرة على تحقيق ذلك، وبالمقومات التالية:

1- أنها "**مسلمة** لله"..

2- **مُمكَّن** لها في الأرض، ولها **سلطان** متجسّد في "إمارة عامة"..

3- توفُّر **القوة** اللازمة لحماية دين الأمة وسلطانها، والمحافظة على بقاء "كلمة الله هي العليا"، الأمر الذي يقتضي أن تكون هذه القوة ذاتية في الأمة..

و "المقوّم الأول" هو الأساس للمقومات الأخرى، فهو روح الأمة وجوهرها.. فلا بد أن يكون متحقّقاً في **عموم** المسلمين في - مجتمع ما - ظاهراً فيهم.. (المدينة المنورة).. وعلامة ذلك، أن يكونوا راغبين عن قناعة ووعي، لأن يكْملوا الدين لله (إخلاص الدين لله)، فتكون عندهم **الإرادة** الجازمة والعزيمة الصادقة لذلك، والتي توجِد عندهم الاستعداد للتضحية بالأموال والأنفُس في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.. وليس لهم غاية إلا رضوان الله والجنة..

وبعد ذلك، على المسلمين العمل على تحقيق سائر مقومات "الأمة المكلّفة": التمكين والسلطان والقوة الذاتية اللازمة.. حتى يستطيعوا أن يُكْمِلوا دينهم (عبوديتهم) لله **جلّ وعلا**..

واقتداءاً بما فعله رسول الله ﷺ.. فإن **الطريقة العملية** لذلك:

✓ أن توجَد الفئة المؤمنة التي تأخذ على عاتقها مَهمَّة حمْل "دعوة الله"..

✓ الشروع أولاً، بتحضير أنفسهم حتى ينضجوا؛ روحياً وفكرياً للقيام بهذا الأمر الجليل؛ وذلك بأخذ رسالة الله وتلقيها؛ دراسةً وتعلُّماً وتزكيةً.. وحسب "منهج التزكية": وأول ما يأخذوا من الرسالة الآيات التي فيها بيان لـ "فكرة الدعوة" فقط؛ أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير.. حتى تصبح حقائقَ مُسلَّم بها مُدرَك واقعها، ومفاهيم في قلوب هذه الفئة المؤمنة.. فتبدأ **أصول** "أخلاق القرآن" في **التكوّن** في نفوس المؤمنين حَمَلَة دعوة الله" [262]..

✓ **بعد ذلك**، البدء بمخاطبة عموم الناس والملأ - في مجتمع معيَّن - بـ "خطاب النذارة"؛ أن اعبدوا الله وحده لا شريك له (إخلاص الدين لله)، على أساس أنه لا إله إلا الله، مع بيان مصير

---

262 - انظر كتاب "منهج التزكية والتعليم": (مَن ربّك؟)؛ مرجع سابق، على الرابط:
https://drive.google.com/drive/folders/1sbgezIVBCdVfTWNhCrS31aZkI7dqupeu?usp=share_link

من أجاب "دعوة الله" وأطاع الله ورسوله، ومصير من أبى واستكبر، يوم القيامة.. وحسب "منهج الخطاب".. ("فكرة الرسالة" في سياق "النذارة").. أي بلاغاً مبيناً وبالأسلوب المناسب (الحكمة) مُظهِراً للحق مُقيماً لـ "الحُجَّة الرسالية"..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ المدثر: ١ - ٧

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ ... ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠..﴾ نوح: ١ - ٢٠

[انظر ؛ (الركن الثالث لكيفية الخطاب بالفكرة - طريقة العرض)]

✓ الاستمرار في بيان الحق للناس المتمثِّل بـ "فكرة الدعوة" أو "خطاب النذارة".. وأن يكون على أساسها تنزيل "المعالجات الشرعية" على واقع الناس، وعلى ما يستجد من أحداث ومواقف أثناء السير والحركة في المجتمع.. فتُعالَج مواقف الناس وردود أفعالهم **حال حدوثها**، أولاً بأول.. فكلّما أحدث الناس أو الملأ أمراً - خطاباً أو أعمالاً - أحدث لهم حَمَلَة "دعوة الله" ورسالته جواباً (معالجة) من الوحي - والقرآن هو الأصل - وحسب "المنهاج" **بضوابطه** الشرعيّة والسننيّة.. وبما يقتضيه السير في هذا الطور من مرحلة ما "قبل التمكين"..

[والغالب على المعالجات في هذه الطور هو معالجات للإشكالات الفكرية السائدة في ذلك المجتمع الذي تم بلاغه "دعوة الله"]..

كما حصل مع رسول الله ﷺ؛ فكلّما **بلَّغ** الناسَ ما **نُـزِّل** إليه من الحق من عند الله - أي حسب "الضابط الشرعيّ" - **وبيّنه** لهم، ليخرجهم من الظلمات إلى النور.. أثار الملأ الذين كفروا حوله الشبهات ولبّسوه بالباطل ليصدوا عن سبيل الله **جلّ وعلا**.. (حسب الضابط السننيّ)..
وكلّما فعلوا ذلك، نزّل الله **تعالى** - مرة أخرى على قلب رسول الله - آيات أو سورة من القرآن الكريم، فيها الجواب الشافي (المعالجات)، فيَتْلوها رسول الله عليهم وعلى الناس ويبيّنها لهم، ليُزيل تلبيس الملأ ويُبطل شبهاتهم ويُقيم عليهم الحُجَّة مرة أخرى (الضابط الشرعيّ).. وهكذا.. "كلّما **أحدث** المشركون **شيئاً** أحدث الله لهم **جواباً**".. كما في قوله **تعالى**:

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣ ﴾ الفرقان: ٣٣

✓ وأثناء ذلك الأخذ والرد ("الحوار" و "المجادلة" بالتي هي أحسن، وليس "المراء") ومواجهة عموم الناس مواجهة فكرية إيمانية.. محورها "خطاب النذارة".. تأخذ **أصول** "أخلاق

القرآن" في **الظهور** على المؤمنين؛ في تصرفاتهم و**مواقفهم**.. بسبب ما يحملون من رسالة الله ودعوته وما تعلّموه من مدارسة الوحي؛ والقرآن هو الأصل..

✓ وتستمر الدعوة إلى عبادة الله وحده بلا شريك و "المجادلة" بالتي هي أحسن لبيان الحق وكشف الشبهات.. الأمر الذي سيؤدي - في الغالب - إلى الدخول في **صراع** مع الملأ وقيادة المجتمع؛ **طابعه** فكري سياسي.. و**أساسه** الإيمان و"النظرة الإيمانية" للواقع، متمثِّلة بـ "خطاب النذارة": أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، مع بيان المصير.. كما بيّنه القرآن الحكيم (منهج الخطاب).. بمعنى أن موضوع هذا الصراع وفكرته: أن **الطاعة** لا تكون إلا لله جلّ وعلا.. فهو وحده الإله الحق، وأن **الاتّباع** لا يكون إلا لرسول الله محمّد ﷺ .. أي وجوب اتّباع شرع الله وحده؛ كمنهاج حياة جديد.. والكفر بما دونه (الطاغوت)؛ بالبراءة منه وترك شريعته.. ببيان أن **لا إله إلا الله** هي الأساس الحق.. وكشف فساد الأساس الذي تقوم عليه حياتهم.. مع بيان مصير من آمن واتَّبَع، ومصير من أبى واستكبر، يوم القيامة..

ويستمر - كذلك - تنزيل "المعالجات التفصيلية" اللازمة لمعالجة الإنحراف في السلوك والعادات والأعراف.. وكل ذلك على أساس الإيمان بـ لا إله إلا الله محمد رسول الله وباليوم الآخر..

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الفرقان: ٣٣

كما حصل مع رسول الله ﷺ والملأ من قريش في مكة المكرّمة..

✓ **الثبات** على الحق.. **والصبر** على بيان الحق ومجادلة الناس بالتي هي أحسن.. **وتحمُّل** الأذى والألم في سبيل الله.. كل ذلك تمثُّلاً لقوله **تعالى**:

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ الفرقان: ٥٢

أي "وجاهد الكافرين بهذا القرآن جهادًا لا يخالطه فتور؛ بِأَنْ تُلْزِمَهم بِالحُجَجِ والآياتِ، وتَدْعُوَهم إلى النَّظَرِ والتفكّر لِتَتَزَلْزَلَ عَقائِدُهم، وتُبيّن فساد عَوائِدُهم وأعرافهم" .

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾... وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ المدثر: ١ - ١٠

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس: ١٠٩

✓ وبكل ما سبق من أعمال تعبديّة - في سياق بلاغ "دعوة الله" - يقوم بها حَمَلَة الدعوة، وأحداث يواجهونها.. وتحمُّلهم لأَعْبَاء الدعوة، والصبر على لأواء الطريق، والمجاهدة بالقرآن.. وبما يقومون به من أعمال تعبديّة فردية من صلاة وذِكْر لله وتوكل على الله (منهج التزكية).. أقول: بكل أصناف العبادة تلك، يتقوى إيمانهم، وتُصقل خبرتهم وتسمو أخلاقهم، وتصفو بصيرتهم.. فيكونون حقاً - في عمومهم - مُمَثِّلين لمعنى العبودية لله.. مُستَهينِين التضحية بكل شيء في سبيل الله لجعل "كلمة الله جلّ وعلا هي العليا"..

هذا، وبشكل عام.. فإنه بعد حَمْل الدعوة إلى عبادة الله؛ بياناً للحق وإقامةً لـ "الحُجَّة الرسالية".. في أي مجتمع، وفي أي زمان.. بقصد إيجاد "الأمة المكلّفة" بمقوماتها، لجعل "كلمة

الله هي العليا".. فإن حَمَلَة "دعوة الله" ورسالته، أمام **أربع حالات** مُمْكِنة الوقوع، للشكل النهائي لعلاقتهم مع المجتمع وملئه وموقفهم من "دعوة الله".. سنناقشها في الفقرة التالية، وبشيء من التفصيل..

ثانياً: الحالات الأربعة ممكنة الحدوث، أثناء حمل "دعوة الله" في مجتمع معيّن

على أساس أن المدعوين في المجتمعات (القرى) إمّا هُم من الملأ أي السادة (المُتَّـبَعون)؛ وهم أهل القوة والسُلطة والمال.. أو من عامة الناس؛ وهُم تَبَع للملأ (المُتَّبِعون)، كما بيّن الله **تعالى** ذلك في القرآن الكريم [263]..

فإن **الملأ** و**الأتْباع** من حيث إيمانهم وقبول "دعوة الله" أو عدم إيمانهم ورفض "دعوة الله".. هناك **أربع حالات** (احتمالات) فقط، **مُمْكِنة** الوقوع؛ منها اثنتان واجههما رسول الله ﷺ وتعامل معهما.. وهي:

الحالة الأولى: أن لا يُؤْمن الملأ ؛ أهل القوة في المجتمع (القرية)، ولا يُؤْمن الأتباع؛ عامة الناس.

وهذه الحالة واجهها رسول الله ﷺ في مكة. حيث أصرّ زعماء قريش على الكفر، وكان عامة الناس تَبَعاً لهم في ذلك، رغم السنوات الثلاث عشرة التي استمر رسول الله بدعوتهم فيها إلى أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير (خطاب النذارة).. وعلى **أساسه** دخل معهم في مواجهة فكرية سياسية.. **[المستوى الأول من إقامة "الحُجَّة الرسالية"]..**

ثم لجأ الملأ الذين كفروا إلى تخويف المؤمنين وإرهابهم.. بالتعذيب والحصار والتجويع.. وأعمالهم تلك، تدْخل تحت مصطلح قرآني هو "الكيد" [264]..

---

263 - ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة ١٦٦].. =>
﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [نوح ٢١]..
﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف ٦٦]
انظر أيضاً الأعراف:75، 88، 90./ هود:27. / المؤمنون:24
قد يكون هناك مراكز أخرى للقوة في المجتمع غير الذين يُمثّلهم الملأ، إلا أنهم في المحصلة مُنقادون للملأ الذين يحكمون المجتمع فعلاً؛ وانقيادهم لهم إما خوفاً أو طمعاً أو توافقاً.

264- (الكيد): مُعَالَجَة الشَيْءِ بِشِدَّةٍ. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْكَيْدُ، الْمُعَالَجَةُ **[معجم مقاييس اللغة]**. فمَجاله التنفيذ أي القيام بالأعمال وتنفيذها في الواقع لتحقيق الغاية المرادة، وإلغاء تأثير (أي معالجة) المقاومة أو الممانعة التي تحول دون تحقيق الغاية المرادة. فـ "الكيد" هو: القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تلجئ بها غيرك للخضوع لمرادك. كما في قوله تعالى عن إبراهيم الخليل: (وَتَاللَّه لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ{57}فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ{58}) **الأنبياء**. وفي قصة يوسف: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ...(24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي=> عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا...(26) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)) **يوسف**. لذلك وُصِف "الكيد" في القرآن

وبعد أن أصروا على التكذيب ومعاداة المؤمنين وتعذيبهم.. أصابهم الله بالجفاف والقحط (الدُّخَان) كـ "عذاب أدنى" لعلَّهم يرجعون.. **[المستوى الثاني من إقامة "الحُجَّة الرسالية"]..**

رغم ذلك كله، فقد أصرّوا على التكذيب، وثبت أهل الحق وجهروا به وتحدُّوا به المجتمع وملاءه.. حتى انقسم الناس في المجتمع (القرية) إلى **فريقَيْن** متخاصمين في **ربّهما**: مكذبين؛ وهُم الأغلبية وبيدهم القوة.. ومؤمنِين؛ وهُم الأقلية ومستضعَفين.. **[المستوى الثالث من إقامة "الحُجَّة الرسالية"].**

حتى وصل تآمر الملأ بالمؤمنين - حسب سنة الله - إلى: إمّا قتلهم أو سجنهم أو نفيهم من القرية (الإخراج)..

وتدْخل أعمال التخطيط وتدبير الأمور بالخفاء.. تحت مصطلح قرآني هو "المكر" [265] ..

كما في قول الله **تعالى:**

﴿وَإِذۡ **يَمۡكُرُ** بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ **لِيُثۡبِتُوكَ** أَوۡ **يَقۡتُلُوكَ** أَوۡ **يُخۡرِجُوكَۚ** وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ الأنفال: ٣٠

ووصول الملأ في المجتمع إلى هذا المستوى من "المكر" بالذين آمنوا، هو الدليل على **إتمام** إقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع، وقد أصرّوا على التكذيب.. حينها، فقد **استحق** الملأ الذين كفروا العذاب الأكبر في الدنيا؛ قتلاً وأسراً بأيدي المؤمنين؛ كما هي سنة الله الدائمة المستمرة:

﴿ وَإِن كَادُواْ **لَيَسۡتَفِزُّونَكَ** مِنَ ٱلۡأَرۡضِ **لِيُخۡرِجُوكَ** مِنۡهَاۖ <u>وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا</u> ٧٦ <u>سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا</u> ٧٧ ﴾ الإسراء: ٧٦ - ٧٧

﴿<u>قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ</u> وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ التوبة: ١٤ - ١٥

[وقد فصلنا القول في "الباب الثاني" / "الطور الثالث" من سير الرسول بالرسالة]

وعندما يواجه حَمَلَة "دعوة الله" ورسالته هذه **الحالة** (الحالة الأولى):

- <u>الملأ الذين كفروا **مُصرّين** على موقف التكذيب بالحق، وتبعَهم الناسُ في المجتمع على ذلك..</u>
- <u>واستمرّ أهل الحق **بالثبات** على الحق.. **والصبر** على نتائج ذلك وتداعياته</u>.. حتى يجعل الله لهم مخرجاً؛ شرعاً أو قدراً..
- <u>وقد **أقاموا** "الحُجَّة الرسالية" **كاملة** الأركان على المجتمع؛ الملأ وعموم الناس..</u>

- في إطار تحقيق المراد بأنه: متين، أو ضعيف، أو عظيم، أو أنه في تضليل أو في ضلال أي لم يحقق المراد. **[انظر (الجزء الثالث) "مصطلحات رسالية"، مبحث (المكر والكيد)].**

265 - (المكر): تدبير أمر في خفاء. فمجاله التخطيط، ومناقشة الأساليب والأعمال لاختيار الناجع منها..=> كما في سورة الأنفال (30)، وكذلك الآيات من سورة النمل (48-52). وقد يكون المكر في الخير أو في الشر. فجاء وصف "المكر" في القرآن بأنه خير أو سيئ. وقد ذم الله تعالى المكر السيئ فقط، ولم يذم مطلق المكر، فقال تعالى في سورة فاطر: (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ{10}). (اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ..{43}).

فإن من "**سُنة الله**" العامة - في نهاية الأمر - أن ينقسم (ينصدع) الناسُ في المجتمع إلى فريقين: فريق أهل الحق لا باطل فيه، وهم المستضعفون.. وفريق أهل الباطل لاحق فيه، بقيادة الملأ، وهُم أهل القوة والسلطان..

وبالتالي، فإن الملأ الذين كفروا سيُصَعِّدون من مواقفَهم، فيلجأون إلى تدبير الخطط بالخفاء والمكائد للقضاء بشكل نهائي على "دعوة الله".. وذلك: إما **بالقتل** والتَصفية الجسدية لحَمَلتها والذين استجابوا لها.. أو **بالحبس** في السجون، أو **بالنفي** خارج القرية (الإخراج).. (266)

هذا، وحسب سنن الله؛ فإن أي خلل بالشرط السابق: **ثبات** كل فريق على **موقفه**.. تحصل نتائج أخرى ممكنة الحدوث، بحسب الشروط الجديدة، فيمْكِن:

1- أن يؤمن المدعوون جميعاً، فيصبحوا فريقاً واحداً، فيُمكِّن الله لهم جميعاً.. مثل قوم يونس **عليه السلام**.. وهي "الحالة الثانية" التي حصلت مع رسول الله وتعامل معها في المدينة المنورة.. وسنتعرّض لها في موضعها.

2- أن يُصرَّ "الفريق الكافر" بقيادة الملأ على رفض الحق.. لكن أصحاب "دعوة الله"؛ فريق أهل الحق، حصل منهم مخالفة لـ "سبيل رسول الله" والخروج عن منهجه (سنته)؛ "منهاج النبوة"، في الأعمال أو الخطاب.. فلم يثبتوا عليه ولم يصبروا.. فنتيجة ذلك هي تعسُّر السير والفشل وعدم التمكين للمؤمنين.. وهذا ما كان يخشى منه رسول الله بعد أن رفَض أهل الطائف نصرته وآذوه.. فخشي ﷺ أن يكون ذلك نتيجة "تقصير" منه في أمر الله.. فقال مناجياً ربّه: (إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي.. لك العتبى حتى ترضى)..

كما في حال حصول أحد الأشكال التالية للمخالفة لأمر الله:

✓ "الرُكون" إلى الذين ظلموا:

---

266 - كما حصل مع رسل الله - إلا يونس، **عليهم السلام جميعاً** - وكما حصل لرسول الله صالح من قومه؛ ثمود، في موقفهم النهائي من "دعوة الله"، في قوله تعالى: =>

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ٤٥

أي [قال لهم: اعبدوا الله مخلصين له الدين.. فإذا هم - في النهاية - طائفتان: طائفة مؤمنة، وأخرى كافرة يتنازعون أيهم على الحق. فأنذرهم صالح بـ "العذاب الأكبر" فاستعجلوا نزول العذاب، مستهزئين مكذبين]

قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦

أي [لِمَ تطلبون تعجيل "العذاب المدمِّر" قبل الرحمة؟ هلّا تطلبون المغفرة من الله لذنوبكم رجاء أن يرحمكم.]

قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ٤٧

أي [قالوا: تَشاءَمْنا بك وبمن دخل في دينك - وذلك من بعد أن أصابهم الله بـ "العذاب الأدنى" - قال لهم صالح: ما أصابكم الله مِن خير أو شر فهو مُقدّره عليكم ومجازيكم به، لعلكم ترجعون.. وبعد ما رأو من ثبات صالح على الحق والمؤمنون معه، أرادوا المكر به بقتله]

وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠

أي [قال بعض أولئك المفسدون لبعض: لِيَحْلِف كل واحد منكم بالله؛ لنأتينه في بيته ليلًا، فلنقتلنَّه وأهله، ثم لنقولنَّ لولي دمه: ما حضرنا قتل صالح وأهله، وإنا لصادقون فيما قلنا.]

فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ **مَكۡرِهِمۡ** أَنَّا **دَمَّرۡنَٰهُمۡ** وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ **يَتَّقُونَ** ٥٣﴾ **[النمل: 45-53]**. صدق الله العظيم

﴿ وَإِن كَادُواْ **لَيَفۡتِنُونَكَ** عَنِ ٱلَّذِيٓ **أَوۡحَيۡنَآ** إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥ ﴾ الإسراء: ٧٣ - ٧٥

✓ "المداهنة" في الحق أو "كتمان" شيء منه وعدم بيانه؛ خوفاً أو طمعاً:

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ ﴾ القلم: ٨ -٩

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ **مِيثَٰقَ** ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ **لَتُبَيِّنُنَّهُۥ** لِلنَّاسِ وَلَا **تَكۡتُمُونَهُۥ** فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧ ﴾ آل عمران: ١٨٧

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ **بَلِّغۡ** مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن **لَّمۡ تَفۡعَلۡ** فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ المائدة: ٦٧

✓ "الاستعجال" وعدم الصبر الذي يؤدي إلى مخالفة "منهاج النبوة":

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ ﴾ القلم: ٤٨ - ٤٩

✓ عدم معرفة مَن له "الأولوية" بالاهتمام والمتابعة:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ ﴾ عبس: ١ - ١٢

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ الكهف

واستدرك رسول الله ﷺ ذلك كله..

هذا، وباستمرار توفُّر شرط: **ثبات كل فريق على موقفه**.. **[وهي "الحالة الأولى"، والتي واجهها رسول الله في مكة]**.. في هذه الحالة - وحسب سنة الله العامة - يكون قد اقترب الفصل بين الفريقين؛ نصرُ الله للمؤمنين وتمكينهم؛ فَيُورثهم الله الأرض بدلاً من الفريق الأخر؛ الذين كذّبوا، بإنزال العذاب بهم.. إلا أنه حتى يحْكُم الله **جلّ وعلا** بالفصل بين الفريقين، لا بد أن يكون حَمَلَة "دعوة الله" قد استكملوا تحقيق باقي الشروط اللازمة:

6- أنهم قد أقاموا "الحُجَّة الرسالية" كاملة على المجتمع.. بركنيها الاثنين.. فبيان **حُجَّة الحق** والبرهان عليه حسب "منهج الخطاب" في القرآن، يترتَّب عليه **الهداية** لمن أراد، وإقامة **"الحُجَّة الرسالية"** على مَن رفض الحق نهائياً.. وهو عملية مستمرة يقوم بها حَمَلَة "دعوة الله" ورسالته.. وإقامة "الحُجَّة الرسالية" لها ركنان بثلاثة مستويات.. وهي باختصار:

[للتفصيل انظر (المبحث الثاني - الباب الثاني)]

الركن الأول: بالحُجَّة والبرهان (المستوى الأول)

وذلك من خلال "البلاغ المبين" لموضوع أو "محتوى الخطاب"؛ "أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، وأنه إليه يُرجَع الأمر كلّه وإليه المصير".. وحسب "منهج الخطاب".. أي بإقامة الحُجَج والبراهين - العقلية والفطرية - القاطعة على الحق.. بـ "الآيات البيّنات".. كما قال السحرة لفرعون: {قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ٧٢} [طه]

الركن الثاني: بالمواقف والأعمال (المستويان الثاني والثالث)

وهي قسمين: قسم متعلّق بعلاقة المؤمنين حَمَلَة الدعوة، بالله وبأنفسهم؛ من حيث "التزكية والتعليم".. وقسم متعلق **بعلاقة** المؤمنين بالمجتمع؛ من حيث بيان الحق والجهر به، دون أن يأخذهم في الله لومة لائم.. **ولها** خطوات أو مستويات متناسبة مع تطوُّر مواقف المجتمع وملئه من "دعوة الله" ورسالته.. في إطار معالجتها.. وآخرها "الصدع بالحق" أي الجهر بمواقف المفاصلة للكافرين حتى ينصدع (يتفرّق) الناس في المجتمع إلى فريقين: فريق حق لا باطل فيه.. وفريق باطل لا حق فيه..

7- وأن يكون حال "فريق أهل الحق" الدائم والطاغي عليهم؛ أنهم يخافون مقامهم بين يدي الله ويخافون وعيده بالعذاب لمن عصاه.. **[وهو "المستوى الثالث" من إقامة "الحُجَّة الرسالية"]..**

كما قال الله **جلّ وعلا** في حق "حَمَلَة دعوته"، في الطور الأخير قُبيل التمكين؛ طور الفصل بين "الفريقين":

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ إبراهيم.. [267]

267 - {وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا}.. فعندما يُصرّ الملأ على الكفر - وقد أقيمت عليهم "الحُجَّة الرسالية" كاملة - حينها يصل بهم الأمر؛ حسب سنن الله، إلى أن يُخيّروا الرسلَ ومن آمن معهم، بين أن يعودوا إلى دينهم أو يخرجوهم من أرضهم، وهذه سيرة الله تعالى في رُسُله وعباده، ألا ترى إلى قوله: (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا. سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) **[الإسراء:76-77]**.. وكان من فِعْل الله تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره ومكّنه في المدينة، فجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندا، يقاتلون في سبيل الله، وبهم أنزل الله وعيده بالملأ الذين كفروا من قريش، فعذّبهم بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً يوم بدر يوم الفرقان، وقد استحقوا ذلك حيث أُقيمت عليهم "الحُجَّة الرسالية" التي لا عذر لأحَد عند الله بعدها، وفوق ذلك أخرجوا رسول الله من مكة.. فضيعوا فُرَص الأمن من عذاب الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ=> فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ **[الأنفال ٣٣]**.. ولم يزَلْ الله تعالى يُرقّي رسولَه والذين آمنوا معه - في درجات إكمال الدين لله - من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكّن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان.. ولهذا قال تعالى: {فَأَوْحَى

ومن هنا، فإذا أتم حَمَلَة "دعوة الله" إقامة "الحُجَّة الرسالية" على المجتمع، بركنيها ومستوياتها الثلاثة.. واستمروا في الثبات على الحق، وحقّقوا منزلة الخوف من مقام الله..

عندها يحقق الله لهم النتائج المترتبة على كل تلك الشروط.. فيُؤْتي عملهم الشاق وجهدهم المُضْني ثماره، بحيث:

- ✓ إن الملأ الذين كذّبوا وأتباعهم، سيصيبهم عذاب أليم؛ وهو "العذاب الأكبر" في الدنيا؛ عذاب الاستئصال.. وبأيدي المؤمنين، قتلاً وأسراً.. فهم استحقوه حسب سنة الله العامة في القرى والمجتمعات:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ ﴾ الأعراف

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥ ﴾ الأنعام

- ✓ وتحقيق ذلك، يقتضي أن يَمُنّ الله بنصره وتمكينه على المؤمنين، ويُيسِّر أمر استجابة الناس لدعوة الله.. **في مجتمع** آخر غير هذا الذي بدأت فيه الدعوة وكذّبوا بها.. حينئذٍ لا بد من "الهجرة"؛ أي هجرة المؤمنين إلى المجتمع (القرية) التي آمنت ونصرت "دعوة الله" ودينه، وآوت أهله..

إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ}. كما قال تعالى: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) **[الصافات:171-173]**، وقال تعالى: (كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ) **[المجادلة:21]**.

{ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد}، "ذلك" إشارةٌ إلى إهلاكُ الظالمين وتمكين المؤمنين في الأرض، أي ذلك الأمرُ محققٌ ثابت لمن خاف مقامه بين يدي الله يوم القيامة، أو لمن خاف قيامي (الله) عليه ومراقبتي له وحفظي لأعماله. {وخاف وعيد} أي، وخشي من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي. والمعنى أن ذلك حقٌّ للمتقين كقوله: (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِالله وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) **[الأعراف:128]**، (.. وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٣ ﴾ **[النمل]. [انظر تفاسير (الطبري، القرطبي، ابن كثير، أبو السعود، وغيرهم)]**.

"فهذا الدين لا يمكن أن ينهض به إلا حَمَلةٌ يقومون بأعبائه وحسب منهاجه، فإذا وُجِد هؤلاء الحَمَلة فإنهم يكونون محلّاً لمعيّة الله وتوفيقه ونصره - وهي الدليل أنهم على الحق - لأن الله هو الذي يتولّى دينه وليس الحَمَلة، إلا أن الحَمَلة هم الذين يبذلون الأسباب متوكلين على الله، **فيُكْرمهم** الله بأن **يستعملهم** ويجعلهم **سبباً** لنصرة دينه". والحمد لله.

وهذا ما حصل مع رسول الله ﷺ: فعندما كذّب به الملأ، و"انصدع" (انفرق) المجتمع إلى فريقين متمايزين، وأراد فريق أهل الباطل؛ أصحاب القوة.. إخراج فريق المؤمنين المستضعفين من القرية.. حينها أمر الله تبارك وتعالى رسوله بالبحث عن مكان آخر غير مكة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ **وَمَنۡ حَوۡلَهَا** وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ **فَرِيقٞ** فِي ٱلۡجَنَّةِ **وَفَرِيقٞ** فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ ﴾ الشورى

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ **وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ**.. ٩٢ ﴾ الأنعام

فاستجاب رسول الله ﷺ للأمر، وبدأ يُخاطِب قبائل العرب في موسم الحج ويطلب منهم توفير الحماية له من "مكر" و "كيد" قريش.. وأن لا يمنعوه من الاستمرار في بلاغ رسالة الله وحمل دعوته للناس، كما في الرواية عن جابر رضي الله عنه:

(كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: {هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلّغ كلام ربي عزّوجل}. فأتاه رجل من همذان فقال: {ممن أنت ؟}. فقال الرجل: من همذان. فقال: { هل عند قومك من منعة ؟} قال نعم. ثم إن الرجل خشي أن يَخْفِره قومُه [أي ينقضوا عهده وميثاقه]، فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم أخبرهم، ثم آتيك مِنْ قابِل. قال: {نعم}. فانطلق، وجاء وفد الأنصار في رجب)، (268).

---

268 - **أخرجه أحمد 322/3، 339.وغيره، أنظر (صحيح السيرة النبوية) إبراهيم العلي.** كان رسول الله ﷺ يبحث عن أيّ رجل يأخذه إلى قومه ويوفّر له الحماية؛ بدلاً لأبي طالب. فلما جاءه رجل من همذان، سأله عن المنعة في قومه.. هكذا، والشرط أن يحمل الرجلُ رسولَ الله إلى قومه، لحمايته وليستمر في بلاغ كلام ربه عزّ وجل، الأمر الذي منعته قريش منه. تفصيل أكثر في الفقرة التالية.

هذا، ومن المهم هنا أن نشير إلى أنه وردت روايات كثيرة في كُتُب السيرة، حول اتصال رسول الله بقبائل العرب لطلب المَنَعَة والحماية، إلا أن أغلبها لم تثبت نسبتها لرسول الله ولو بأدنى درجات الثبوت، لأنها بدون سند، والقليل الذي ثبتت نسبته لرسول - ولو بأدنى درجات الثبوت - قد جمعه الشيخ إبراهيم العلي - رحمه الله - في كتابه النفيس "صحيح السيرة النبوية". ومن المعلوم أن ما لم يثبت نسبته لرسول الله - قولاً أو فعلاً أو إقراراً - بأدنى درجات الثبوت عند أيٍ من العلماء المعتبرين، فهو ليس من الوحي، وبالتالي يسقط الاستدلال به على الأحكام الشرعية.

هذا، وابن إسحق - رحمه الله - من أول المكثرين في جمع المغازي ورواياتها، "ومَن جاء بعده كان عيال عليه" كما قيل.. والرأي المعروف لعلماء الجرح والتعديل فيه أنه: "صدوق مُدَلِّس"، فلا يؤخَذ بروايته إلا إذا صرّح بالسماع أو بالتحديث، بعدها يُنْـقَـد سند الرواية، ويتم تقييمها. ويُرَدُّ ما رواه بالعنعنة لأنه مُكثر في التدليس. "وقد ذكره ابن حجر في المرتبة الرابعة من مراتب المدلسين وقال: مشهور بالتدليس عن الضعفاء والمجهولين وعن شر منهم، وَصَفَه بذلك أحمد والدارقطني وغيرهما". وعليه فالأصل - في الباحثين الجادّين - عدم التساهل في أخذ كل ما رواه ابن إسحاق في السيرة النبوية، بل لا بد من نقد مروياته على منهج المحدثين، وخاصة الروايات المتعلّقة بالأمور ذات الأهمية العالية والمفصلية في الدعوة. ومن المراجع المهمة في السيرة، التي اعتمد أصحابها منهج المحدّثين في نقد روايات السيرة النبوية: كتاب=> (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي. وكتاب (المجتمع المدني في عهد النبوة) - د أكرم ضياء العمري. وغيرهما.

فلم يستجب أحد من خارج مكة لطلب رسول الله.. حتى قابَل ﷺ وفداً من المدينة (ستة أفراد) ودعاهم إلى الإسلام، فآمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر، ثم عادوا إلى المدينة.. وفي موسم الحج القادم جاء وفد أكبر إلى مكة وقابلوا رسول الله وبايعهم على أن يؤمنوا ويسلموا لله.. ولمّا رجعوا إلى المدينة كتبوا إلى رسول الله أن يبعث إليهم مَن يُقرؤهم القرآن ويُصلي بهم، فبعث مصعب ابن عمير ليعلّمهم القرآن ويدعو إلى الله هناك **[انظر (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي]..**

فاستجاب أغلب أهل المدينة لدعوة الله؛ أن يعبدوه وحده.. بل، وعزموا - وقادتهم - على إيواء رسول الله والمؤمنين معه، ونصرة دين الله عزّوجل.

ولَمّا أصبح للمؤمنين دار وأنصار، وبعد سنة تقريبا أراد الله إنزال العذاب بقريش بأيدي المؤمنين؛ فكان ذلك في يوم عظيم من أيام الله؛ يوم بدر.. يوم الفرقان..

كما هي سنة الله الدائمة المستمرة في حال إخراج القوم رسولهم (حَمَلَة "دعوة الله") من قريتهم: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧ ﴾ الإسراء: ٧٦ - ٧٧

هذا، وحين تظهر الاستجابة لـ "دعوة الله" في ذلك المجتمع الجديد، عندها تقع مسؤولية جديدة على عاتق حَمَلَة "دعوة الله"، وهي العمل بجدٍ أكثر في ذلك المجتمع؛ تعليماً وتزكية للناس حتى يُصبح المَطْلب الأَوْحَد **لعموم** الناس هناك: أنهم لا يرضون إلا بالله رباً وبمحمدٍ رسولاً.. وأنهم لا يريدون إلا تطبيق شرع الله، وأن تكون "كلمة الله هي العليا"؛ فلا يريدون إلا طاعة الله واتباع رسوله.. طمعاً في رضوان الله تبارك وتعالى وجنته، وخوفاً من غضبه وعذابه في النار.. كما كان حال أهل المدينة المنورة قُبيل الهجرة.. بعد أن بعَثَ رسول الله مصعب ابن عمير إليهم..

بمعنى، أن يكون **عموم** الناس في ذلك المجتمع، مسلمين **بوصف معيّن**، وعلى **مستوى معين** من الإيمان والإسلام والعِلم والتزكية (عندهم الإرادة).. حتى يكونوا قادرين على **تحمّل أعباء** تحقيق الوصف الشرعي لـ **"الأمة المكلّفة"**؛ أن يكونوا **مُمَكّنين** في أرضهم، ولهم **سلطان** عليها، وأمانهم **بقوتهم** الذاتية (بيعة الحرب).. فيكونوا **قادرين** على تنفيذ ما **اشترطه** الله عليهم من أعمال "بعد التمكين"؛ التي بيّنتها آيات سورة الحج (عندهم القدرة).. وتقديم ما يقتضيه ذلك كله من تضحيات بالأموال والأنفُس.. مقابل رضوان الله والجنة..

﴿ ٱلَّذِينَ إِن **مَّكَّنَّٰهُمۡ** فِي ٱلۡأَرۡضِ **أَقَامُواْ** ٱلصَّلَوٰةَ **وَءَاتَوُاْ** ٱلزَّكَوٰةَ **وَأَمَرُواْ** بِٱلۡمَعۡرُوفِ **وَنَهَوۡاْ** عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾ الحج: ٤١

ثم السير قُدُماً، وحسب "المنهاج" في مرحلة ما "بعد التمكين" بضوابطه السننيّة والشرعية نحو "إخلاص (إكمال) الدين لله".

هذا، والخط العام في المعالجات الشرعية لهذه الحالة، في حق حَمَلَة "دعوة الله"، هو:

بالنسبة **للخطاب**؛ عليهم بيان الحق كاملاً والاستمرار بإقامة "الحُجَّة الرسالية" على أساس "خطاب النذارة" وبالمجادلة بالتي هي أحسن.. كل ذلك بالوحي..

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنبياء: ٤٥

والأصل في الخطاب أن يكون بآيات الله، وما تحويه من حُجَّة وبرهان على الحق:

﴿ .. وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ الأنعام: ١٩

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ الفرقان: ٥٢

أمّا الأعمال؛ فالصبر على أذى الكفار و**الإعراض** عنهم، بعدم زيادة شدة الجدال أو الردّ على أذاهم.. **والبحث** عن مجتمع **بديل** وأناس آخرين في أرض أخرى.. لنشر دعوة الله **تعالى** فيها، لعلّهم يستجيبون لدعوة الله، ويأخذون كتاب الله بقوة..

[انظر **"الباب الثاني" / "الطور الثالث" من سير الرسول بالرسالة]** ..

فبداية نصر الله **تبارك وتعالى** لحَمَلَة "دعوة الله"، أن يُيسّر لهم مَنْ يؤْمِن بدعوة الله من أهل القوة في مجتمع ما، ويَحْملهم إليه ويؤويهم.. وهي الكرامة التي ادّخرها الله **جلّ ثناؤه**، للأنصار **رضي الله عنهم** (269)..

وهنا بدأت الأمور والأحوال بالتطوّر باتجاه "الحالة الثانية" التي حصلت مع رسول الله ﷺ وتعامَل معها.

النتيجة مما سبق..

✓ حتى يستحق حَمَلَة دعوة الله" أن يَمُنّ الله **جلّ وعلا** عليهم **بنصره** و**تمكينه** في مجتمع ما.. لا بد أن يحقِّقوا **الشروط** اللازمة.. عندها، يعطيهم الله **تبارك وتعالى** النتائج المترتّبة على تلك الشروط - حسب سنن الله - فيُهيِّئ الله الظروف ويُيسَّر أمر استجابة الناس لدعوة الله بأن يعبدوه وحده مخلصين له الدين.. فيكون "المقوِّم الأول" لـ "الأمة المكلّفة" قد تحقَّق.. في ذلك المجتمع.. حينئذٍ، من الطبيعي أن يبدأ حَمَلَة دعوة الله" والمؤمنون معهم، بالسير نحو تحقيق "المقوّم الثاني": "السلطان والتمكين"، وذلك؛ إما بأن يصبحوا هم أهل القوة في المجتمع.. أو أن يصبح أهل القوة مع حَمَلَة الدعوة"..

فالذين آمنوا بالله واستجابوا لدعوته لا بد أن يكونوا هم الذين يتولّون قيادة المجتمع حتى يَعْبد الناسُ الله وحده وتكون "كلمة الله هي العليا".. ويسيروا معاً كأمة واحدة - المجتمع وقيادته - حتى إكمال الدين لله **تبارك وتعالى**.. (ويكون الدين كله لله).. كما حصل مع رسول الله ﷺ والأنصار في المدينة المنورة.

---

269 - بعد وفاة أبي طالب، تجرّأ الملأ من قريش على رسول الله وآذوه بما لم يستطيعوه من قبل.. فكان=> رسول الله ﷺ يبحث عمَّن يحميه، بدل أبي طالب، وإن كان كافراً مثله (كما في حالة الطائف وهمذان)، ليستطيع أن يستمر في تبليغ رسالة الله تعالى، إلا أن الله **تبارك وتعالى** بفضله ورحمته لم يعطِ رسوله الحماية فقط، بل أعطاه - والمؤمنين معه - أكثر من ذلك وأعظم؛ الإيواء والنصر والتمكين، فقد هيّأ له وساق إليه مَنْ يؤمن به ويتّبعه وينصره من أهل القوة: (وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{26}) الأنفال،، (..فَإِنَّ حَسْبَكَ الله هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ{62}) الأنفال.

✓ رغم أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على أن يؤمن سادة قريش (الملأ) أهل القوة، حتى يتّبعهم الناس فيسلموا، فتوجَد الأمة المسلمة.. لكن ذلك لم يحصل، بسبب عِناد الملأ وكِبْرهم.. فلم يتحقق في مكة، المقوّم الأول لـ "الأمة المكلّفة"؛ أمة مسلمة لله.. لذلك لَمْ يقُم رسولُ الله بأعمال يتقصّد بها أخذ السلطة من ملأ قريش.. بل إنه ﷺ رَفَض السلطة.. بعد أن عرضوا عليه أن يكون له رئاسة وحُكم عليهم.. لأن الأمر ليس أي سلطان وأي حُكم.. بل هو: وجود **"أمة** مسلمة" لله، لها **سلطان**.. وهو ما حقّقه الله - فعلاً - للرسول مع الأنصار؛ أهل القوة في المدينة.. وهو الحُجَّة في هذا الباب: "طلب النصرة بقصد التمكين للمسلمين".. وهو "الحالة الثانية".

الحالة الثانية : أن <u>يُؤْمن الملأ</u> ؛ أهل القوة في المجتمع (القرية)،
<u>ويُؤْمن الأتباع</u> ؛ عامة الناس.

وهذه الحالة واجهها رسول الله وتعامل معها قُبيل الهجرة إلى المدينة.. وعلى أساسها كانت الهجرة.. حيث أن أهل القوة الفعليين في مجتمع المدينة **آمنوا** بالله ورسوله واليوم الآخر - وعامة الناس تبَعٌ لهم - **وأرادوا** طاعة الله **عزّوجل** واتباع رسوله.. فبايعهم ﷺ "بيعة الحرب" على إيوائه وحمايته والمؤمنين، وحماية دين الله **تعالى**، وجعْل "كلمة الله هي العليا" والمحافظة عليها كذلك.. التزاماً بآيات سورة الإسراء وسورة الحج.. كما بيّنا فيما سبق.
وقد بيّنا أيضاً، العوامل (الحيثيات، الأسباب) المباشرة وغير المباشرة لحصول هذه الاستجابة السريعة نسبياً لـ "دعوة الله" من أهل المدينة المنورة - بعد أن رفضَتْها قريش في مكة المكرّمة رغم استمرار الدعوة ثلاث عشرة سنة - وكيف أن الله قد كافأ أهل دعوته بهذا النصر والتمكين بعد أن حقَّقوا كافة شروطه.. كما ذكرنا سابقاً.. **[انظر ("المبحث الثاني" من "الباب الثاني"]**

ونتيجة لـ "بيعة" النصرة والحرب.. فإن **الملأ** و**عامة الناس** في المدينة **انقادوا** طبيعياً للقيادة المسلمة الجديدة.. أي انقاد المجتمع - بمجموعه - للقيادة الجديدة.. وفي سياق ذلك، طلب رسول الله من الأنصار بعد "بيعة الحرب"، أن يختاروا منهم نقباء يكونون كفلاء على قومهم، للمحافظة على البيعة وعلى تعليم قومهم دينَهم.

وبذلك وُجِد "المقوِّمان"؛ الأول والثاني لـ "الأمة المكلّفة".. (كونها مسلمة، ولها السلطان والقوة الذاتية).. أي وُجِدَت عندهم **الإرادة** الجازمة و**القدرة** الذاتية الكافية.. فأعلن رسول الله ﷺ عن ميلاد "الأمة المسلمة" في المدينة المنورة.. ثم بدأت هذه الأمة الناشئة وقيادتها، **بالسير** لاستكمال خصائصها و"إكمال الدين لله"، بتطبيق ما كان يتنزّل من تشريعات ومعالجات وأحكام.. أولاً بأول على الترتيل.. وحسب "منهاج السير" بضوابطه المتعلقة بـ "مرحلة التمكين".. أي **السير** نحو تحقيق "المقوِّم الثالث" الذي تصبح به "الأمة المكلّفة" "أمة مسلمة" مكتملة الخصائص والسمات.

النتيجة مما سبق..

أمَا وأن الملأ؛ **أهل القوة** الفعليين في المدينة، **آمنوا** بالله ورسوله واليوم الآخر، وتَبِعهم عامة الناس على ذلك.. **وأرادوا - جميعاً -** طاعة الله عزّ وجل واتّباع رسوله.. فقد تحقَّق فيهم **المقوِّم الأول** لـ "الأمة المكلّفة".. فما كان من رسول الله ﷺ إلا "الطاعة الواعية" لأمر الله:

[انظر معنى "الطاعة الواعية" وتأثيرها على سير الدعوة، في (المبحث الثاني - الباب الثاني)]..

حيث **اغتنم** ﷺ هذه الفرصة، بناء على توجيهات الوحي: القرآن (آيات سورتي الإسراء والحج) والسُنة (عمل الرسول)، فأخذ منهم "بيعة الحرب".. وقد رأى فيهم القدرة على القيام بها.. **بقصد** تحقيق **المقوّمات** الأُخرى لـ "الأمة المكلّفة" بوصفها الشرعي.. **القدرة** الذاتية على نصرة دين الله وحمايته.. لذلك، لم يكن هناك حاجة لأن يقوم رسول الله بأعمال لانتزاع السلطة من الملأ.. لأنّهم هم أنفسهم آمنوا بالله واليوم الآخر.. فقبِلوا ورضوا بأن يكونوا جزءاً من الأمة المسلمة، وأن يكون رسول الله ﷺ قائدهم.

"طلب النصرة" لتمكين دين الله، لا يكون إلا مِمَّن يؤمن بالله واليوم الآخر

إن "أهل القوة" الذين يستعين بهم حَمَلَة الدعوة" للانتقال إلى "التمكين"، **يجب شرعاً** و **قدراً** - أي حسب طبائع الأمور وسنن الله المجتمعية - أن يكونوا مِمَّن استجابوا لـ "دعوة الله"؛ فيكونوا **مؤمنين** بالله ورسوله واليوم الآخر.. وهذا هو المعنى الواقعي للقول "بأن تكون **القوة** اللازمة للتمكين، **ذاتية** في المسلمين".. وذلك:

<u>**أمّا شرعاً..**</u>

إن الروايات الواردة في هذا السياق؛ الغالبية العظمى منها لم يثبت لها **سند** ولو بأدنى درجات الثبوت؛ فلا يُعتَد بها كدليل شرعي.. والقليل الذي ثبتت نسبته لرسول الله؛ ولو بأدنى درجات الثبوت.. قد جمعه بعض أهل العلم **[انظر هامش 275]**

أمّا من حيث دلالة **المتن:** فلم يثبت عنه ﷺ أنه استعان **بمشركين** بقصد أن يكون له **سلطان وتمكين** في الأرض <u>لجعل "كلمة الله هي العليا" وكلمة الذين كفروا هي السفلى</u>.. رغم حاجته الماسة لذلك، وطَلَب الله منه ﷺ بأن يدعوه ليجعل له سلطاناً نصيراً في المُدخَل الصدق..

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ الإسراء: ٨٠

والدليل الوحيد المعتبر، هو ما قام به رسول الله ﷺ - فعلاً - مع الأنصار: البيعة على نصرة رسول الله والمؤمنين وإيوائهم، ونصرة دين الله وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.. وهو الحُجَّة في هذا الباب.. فقد آمنوا ونصروا.. ولم يطلب ﷺ ذلك من غيرهم أبداً.. بل - في الحقيقة - لم يطلب ﷺ منهم ذلك، إنما هم **رضي الله عنهم** بادروا إليه [270]..

270 - (.. حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعًا فقلنا: <u>حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويَخاف. فرحل إليه سبعون رجلًا مِنّا</u> =>
<u>حتى قدموا عليه في الموسم</u>، فواعَدَنا شِعْب العقبة، فاجتمعوا عندها من رجل ورجلين، حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله على ما نبايعك؟ قال: (تبايعوني على السمع والطاعة في المنشط والكسل، وعلى الأمر

وبعد أن رأى ﷺ صدق إيمانهم وأنهم لديم القوة الذاتية فيهم.. بايعهم على نصرته والمؤمنين، ونصرة دين الله.. مقابل الجنة.. كما بيّنا سابقاً.. **[انظر التفصيل في (المبحث الثاني - الباب الثاني)]**

أمّا ما **ثبت** عنه ﷺ بعد وفاة أبي طالب، من ذهابه إلى الطائف، وعرض نفسه على القبائل في الموسم، فذلك حدث بعد ما تجرّأ الملأ من قريش على رسول الله وآذوه بما لم يستطيعوه من قبل.. فكان رسول الله ﷺ يبحث عمن يحميه، بدلاً لأبي طالب، وإن كان كافراً مثله، كما في الطائف وهمذان وسائر قبائل العرب.. ليستطيع أن يستمر في تبليغ رسالة الله، كما في الرواية عن جابر **رضي الله عنه**:

(كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: {هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلّغ كلام ربّي عزّوجل}. فأتاه رجل من همذان فقال: {ممّن أنت؟}. فقال الرجل: من همذان. فقال: {هل عند قومك من منعة؟} قال نعم. ثم إن الرجل خشي أن يَخْفِره قومُه [أي ينقضوا عهده وميثاقه]، فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم أخبرهم، ثم آتيك مِنْ قابِل. قال: {نعم}. فانطلق، وجاء وفد الأنصار في رجب).
[أخرجه أحمد 322/3، 339.وغيره، أنظر (صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي)]

أي: "هل من رجل يهاجر به إلى قومه، فيعطونه من العزة والمنعة التي يقوم معها بأمر الدعوة وتبليغ الرسالة.. ذلك أن قريشاً وملأها لم يقبلوا "دعوة الله" لهم، ومنعوه من تبليغها إلى الناس". فكان هذا هو السبب في طلب رسول الله من القبائل أن يحملوه والقيام بحمايته ونصر دعوته، بدليل أن رسول الله ﷺ كان يبحث عن أي قوم لديهم قوة، ولم يشترط عليهم أن يؤمنوا به.. فلما جاءه رجل من همذان، سأله عن المنعة في قومه.. هكذا، والشرط أن يحمل الرجلُ رسولَ الله إلى قومه، لحمايته من قريش وليستمر في بلاغ كلام ربّه **عزّوجل**، الأمر الذي منعته قريش منه.. فمُهِمَّته الأولى كرسول ﷺ هي أن يستمر في بلاغ الرسالة التي بعثه الله بها، وبيانها.. أولاً بأول، والاستقامة على أمر الله إلى أن يحكم الله **جلّ وعلا** بينه وبين قومه:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس: ١٠٨ - ١٠٩

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ هود

فواضح أن ذلك الاتصال بعموم القبائل بالموسم، كان في إطار بحثه ﷺ عمّن يرضى أن يُدْخِلَه في **جواره ليمنعه** من أذى قريش، حتى يستطيع أن يستمر في **تبليغ** رسالة الله **تعالى** - كما نصّت الرواية - أي البحث عن بديل لعَمّه أبي طالب.. حيث بعد وفاة أبي طالب، تجرّأ الملأ من قريش

بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا لله، لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني - إذا قدمت عليكم - مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة) قال: فقمنا إليه فبايعناه..)

[عن جابر، رواه أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم، وقال ابن كثير في السيرة: 2/ 196، هذا إسناد جيد على شرط مسلم، وانظر المطالب العالية باختصار: 4290، وقال رواه أبو بكر بن أبي شيبة وهو صحيح، وأبو يعلى وقال الهيثمي في المجمع: 6/ 46 رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح، واللفظ لأحمد]. [صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي].

على رسول الله ﷺ وآذوه بما لم يستطيعوه من قَبْل، حتى ضيّقوا عليه ومنعوه من بلاغ كلام الله، وحتى منعوه من الصلاة في الكعبة.. فأصبح الموقف بينه وبينهم صعباً جداً..

ومَنْ بقي من أعمامه لم يستطع أحد منهم أن يُقَدِّم له ﷺ الحماية مثل ما كان أبو طالب..

فكان رسول الله ﷺ يبحث عمّن يُدخله في **جواره ويمنعه**.. وإن كان كافراً.. "ليبلّغ كلام الله".. فأَخْذُ الجوار كان معروفاً وشائعاً عند العرب، بل ومصدر فَخْر وعزة لمَن يقوم به..

وهو نفس مَطْلبه ﷺ من أهل الطائف - ثاني القريتين - وهُم أوّل مَنْ طلب منهم الحماية [271]..

وبعد أن رفضوا طلبه قال لهم: "اكتموا عني".. ولم يستطع ﷺ العودة إلى مكة ودخولها إلا بحماية المطعم بن عدي.. كما في بعض كتب السيرة.

أمّا من جهة بحث الواقع (قدراً، طبائع الأمور وسنن الله)**..**

فإن **إيمان** مَن يُستعان بهم بقصد **التمكين والسلطان**، شرط في **حصول** التمكين، وشرط في **بقائه** واستمراره: ذلك، أن **أهل القوة** في مجتمع ما، حتى يعطوا حَمَلَة **"دعوة الله"** - أو غيرهم - السلطان ويمكِّنوهم في الأرض.. فسوف يُعرِّضون أنفسهم للهلاك أو يَخسَرون كل شيء أو يُقَتَّلون.. ثم - بعد ذلك - كيف يُتوقَّع منهم أن يتَنازَلوا عن القوة والسلطان لصالح **"**حَمَلَة الدعوة**"** أو لغيرهم، هكذا ببساطة بلا مقابل مكافئ وزيادة **!!**..

وعلى ذلك، كيف يمكن لـ **"**حَمَلَة الدعوة**"** أن يطلبوا مِمَّن هو غير مؤمن بـ **"**دعوة الله**"** أن ينصرها بلا مقابل**؟!!**.. وليس ذلك فحسب، بل إن الغاية من طلب النصرة هي جعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، ومنذ بداية التمكين.. فكيف ينصر المشركون أحداً ويعطوه القوة ويمكّنوه، وهدفه وغايته هي القضاء على الشرك الذي يمثلونه، أي القضاء عليهم.. فهذا أمر مخالف لطبائع الأمور..

---

271 - كما في الروايات الثابتة التي وردت في كتاب (صحيح السيرة النبوية) - إبراهيم العلي: =>

- (ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدة، فعمد إلى ثقيف يرجو أن يؤووه وينصروه، فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف.. فعرض عليهم نفسه، وشكا إليهم البلاء وما انتهك قومه منه، فقال أحدهم..).اهـ
- (فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام على من خالفه من قومه..). اهـ
- من حديث عائشة **رضي الله عنها** قالت: "قلت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ (قال: نعم لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت..).. **[أخرجه البخاري رقم: ٣٢٣١ ، ومسلم رقم: ١٧٩٥]**. اهـ

(وفي هذا الحديثِ تُخبِرُ عائشةُ **رَضِيَ اللهُ عنها** أنَّها سألَتِ النَّبيَّ ﷺ: هلْ مَرَّ عليه وقْتٌ وزَمانٌ كانتْ صُعوبتُه أشَدَّ عليه مِن يَومِ أُحُدٍ؟ فأخْبَرَها النَّبيُّ ﷺ أنَّه لَقيَ مِن الأذَى أشدَّ ممَّا لاقاهُ يومَ أُحدٍ.. وكان أشَدَّ ما لاقاهُ منهم يومَ العَقَبةِ: مَكانٌ مخصوصٌ في الطَّائفِ.. حيثُ عَرَضَ النَّبيُّ ﷺ الإسلامَ على زُعماءَ مِن ثَقيفٍ، فلم يَستجِبْ له أحدٌ إلى ما طَلَبَه حينئذٍ مِن الدُّخولِ في الإسلامِ أو إعطائِه العهْدَ والأمانَ، بلْ وَجَدَ ما لمْ يَتصوَّرْه مِن الجُحودِ، والإنكارِ..). **[انظر (الدرر السنية - الموسوعة الحديثية)]**.

ومن جهة ثانية، فإن مَن يُعْطي القوة والسلطة - وهو غير مؤمن بالدعوة - يستطيع أن يأخذها منهم.. إن عاجلاً أو آجلاً.. لذلك، من لوازم حصول "التمكين" واستمراره، أن القوة التي هي سبب فيه، أن تكون ذاتية في المؤمنين.. بمعنى أن يكون **أهل القوة** من **المؤمنين** بالله ورسوله واليوم الآخر.. حتى يبقى المؤمنون ممَكَّنين ويستمر لهم السلطان..

ولا شك أن رسول الله ﷺ كان مدركاً لواقع الأمر ولأبعاده جميعها؛ الشرعية منها والسننية.. التي ذكرناها وغيرها أيضاً..

وعليه، فالاعتباران السابقان - الشرعي والقدري - يُعتبران من القرائن القطعية على أنه ﷺ لم يكن ليطلب من المشركين المَنَعة والنصرة (القوة) بقصد **التمكين** في الأرض لجعل كلمة الله هي العليا.. أثناء اتصاله بالقبائل.. بل هو طلَبُ المنعة؛ أي أن **ينصروه** من قريش **ويحموه** منها (الجوار) بدلاً من أبي طالب، حتى يستمر ﷺ في بلاغ كلام الله، كما نصّت الرواية السابقة.. عن جابر..

هذا، والاعتبار الثاني (القدري)، هو أمر بديهي يدركه كل عاقل، وأولى مَن يدرك أبعاده؛ الذي هو في مركز السلطة ويملك القوة: فكيف سيقبَلون أن يخوضوا كل تلك المخاطر ويُقدِّموا التضحيات الجسام.. ثم لا ينالوا منفعة أعلى مقابل ذلك؟!.. بل كيف سيقبلون ذلك وهُم يعلمون أن الذي سيمَكِّنوه سيعمل على القضاء عليهم!!..

ومن هنا، فلا يُقدِم على مثل هذه التضحيات إلا واحد من اثنين: إمّا **مؤمن** بدعوة الله ويبتغي رضوان الله وجَنَّـته.. فاستَعَدّ للتضحية بكل شيء مقابل نُصرة دين الله ورفع راية لا إله إلا الله.. كما كان من **الأنصار** رضي الله عنهم..

أو غير مؤمن؛ **فلا تَعْنيه** "دعوة الله" ولا المؤمنين بها.. لكنّه **غير صادق** و**خبيث**؛ فيُريد أن يحقق مآربه الخاصة.. فهو صاحب القوة، فكما أعطى القوة لحَمَلَة الدعوة يستطيع أخذها منهم مرة أخرى، بعد أن يقضي منهم وطره.. إمّا مباشرة أو بعد حين..

أما العاقل الصادق من أهل القوة، فيرفض منذ البداية، مثل هذا **التعاون** الذي لن يحصل منه على منفعة أكبر من التضحيات التي سيقدّمها.. بل قد يؤدي إلى هلاكه..

وهو ما كان من موقف أحد زعماء بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ - وقد كان عاقلاً وصادقا - عندما طلب منهم رسول الله ﷺ أن يمنعوه من قريش.. كما في الرواية عند ابن اسحق، والتي ذَكَرها كثيرٌ من أهل السيرة والتاريخ، وهي ليس لها سند متّصل، فلم تثبت نسبتها لرسول الله ﷺ، فلا يُحتج بها كدليل شرعي.. لكنّي أُوْرِدها هنا كحادثة تاريخية (قصة) تُبـيِّن الموقف الطبيعي في مثل هذا الأمر: "أن تَطلُبَ من أحدٍ لا يؤمن بقضيّـتك أن ينصُرَك وقضيتك، مقابل لا شيء".. بل من شِبْه المؤكّد أنك ستَـتَخلّص منه بعد أن يحصل لك التمكين..!! .. وهذه هي الرواية:

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: «وَحَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ أَنَّهُ [أي رسول الله] أَتَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، فَدَعَاهُمْ إلَى الله عزّوجل، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ بَيْحَرَةُ بْنُ فِرَاسٍ: والله، لَوْ أَنِّي أَخَذْتُ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ، لأَكَلْتُ بِهِ الْعَرَبَ. ثُمَّ قَالَ: أَرَأَيْتَ إنْ نَحْنُ تَابَعْنَاكَ [بايعناك] عَلَى أَمْرِكَ [أن يؤمنوا به وينصروه]، ثُمَّ أَظْهَرَكَ الله عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، أَيَكُونُ لَنَا الأَمْرُ [أي الحُكم والسيادة] مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: «الأَمْرُ إلَى الله يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». قَالَ: فَقَالَ لَهُ: أَفَتُهْدَفُ نَحُورُنَا لِلْعَرَبِ دُونَكَ، فَإِذَا أَظْهَرَكَ

اللهُ كَانَ الأَمْرُ لِغَيْرِنَا! لَا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِكَ. فَأَبَوْا عَلَيْهِ..)... فَلَمَّا رَجَعَتْ بَنُو عَامِرٍ إِلَى شَيْخٍ لَهُمْ (فَقَالُوا: جَاءَنَا فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، **يَزْعُمُ** أَنَّهُ نَبِيٌّ، يَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَمْنَعَهُ وَنَقُومَ مَعَهُ، وَنَخْرُجَ بِهِ إِلَى بِلَادِنَا [272] قَالَ: فَوَضَعَ **الشَّيْخُ** يَدَيْهِ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي عَامِرٍ، هَلْ لَهَا مِنْ تَلَافٍ، هَلْ لِذُنَابَاهَا مِنْ مَطْلَبٍ، وَالَّذِي نَفْسُ فُلَانٍ بِيَدِهِ، مَا **تَقَوَّلَهَا** إِسْمَاعِيلِيٌّ قَطُّ، وَإِنَّهَا لَحَقٌّ، فَأَيْنَ رَأْيُكُمْ كَانَ عَنْكُمْ؟). انتهى.

يقصد هذا الشيخ؛ أن رسول الله كان رجلاً صادقاً، فأخذ يَلومهم لماذا لم يؤمنوا به ويصدّقوه؟!!.. أو على الأقل، لماذا لم يقبلوا بشرطه ويأتوا به؟!!.. مما يعني أن الذين قابلوا رسول الله كان همهم السيادة والحكم فقط.. حيث أدرك بَيْحَرَةُ بفطنته، أنه إذا حمَى رسول الله ومنَعَه من قريش سيدة العرب، يمكنه أن يسيطر على العرب ويَحْكُمَهم.. لكنّ رسول الله نَفَى له فهمه، وبيّن له أن ما يقصده غير ممكن؛ فقال ﷺ: «الأَمْرُ [أي الحُكم والسيادة] إِلَى اللهِ، يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»!.. فمِن فوره تراجع بَيْحَرَةُ وبيّن الموقف الطبيعي من هذا الأمر، أن مثل هذه الحماية والمَنَعَة بتضحياتها الكبيرة لا بد لها من مقابل أغلى، فَقَالَ لرسول الله: (أَفَتُهْدَفُ نُحُورُنَا لِلْعَرَبِ دُونَكَ، فَإِذَا أَظْهَرَكَ اللهُ، كَانَ الأَمْرُ لِغَيْرِنَا! لَا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِكَ).. فَأَبَوْا عَلَيْهِ.. هذا هو الموقف الطبيعي لمثل هذا الأمر: "أن تطلب من شخص أن ينصرك مقابل لا شيء.. وهو ليس مؤمناً بقضيَّتك ولا هو مهتم بها".. هذا إذا كان صادقاً فصدَقَكَ القول، أمّا إذا كان خبيثاً كاذباً.. فلربما يكون له موقف آخر، ليس في مصلحة مَنْ استعان به ولا في مصلحة دعوته..

ولا بد أن رسول الله ﷺ كان مدركاً لواقع هذا الأمر وأبعاده التي ذكرها زعماء بني عامر بن صعصعة.. وغيرها أيضاً.. ممّا **يؤكّد** أنه ﷺ لم يكن ليطلب منهم المَنَعة والنصرة بقصد **التمكين** في الأرض، وهُم مشركون.. فإمّا أن يؤمنوا بالله وينصروا دين ، والثمن المقابل: هو الجنة فقط.. وهو الثمن الذي قبِل به الأنصار رضي الله عنهم وبايعوا عليه..

لذلك لامَهم الشيخ الحكيم لماذا لم يقبلوا بشروطه ﷺ ويأتوا به، فهو رجل صادق وسيكون له شأن وذِكْر.. وأن شأنهم ذِكْرهم سيكون من شأنه وذِكْره..

لكن في تقدير الله **جلّ وعلا** كان الأنصار هم الأَوْلى بها والأجدر..

فـ ﴿...ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ.. ١٢٤﴾ الأنعام..

وعليه، فإن أهل القوة الذين يُمْكِن أن يستعين بهم حَمَلَة "دعوة الله" بقصد الانتقال إلى "التمكين" **يجب** أن يكونوا:

- ✓ مِمَّن استجابوا لـ "دعوة الله"؛ فيكونوا مؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر..

---

272 - وهو نفس ما خاطب به رسول الله جميع القبائل، كما في رواية جابر السابقة: {هل من رجل => يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلّغ كلام ربي عزّ وجلّ}، فلما جاءه رجل من همذان، سأله رسول الله عن المنعة والقوة فيهم.. ليعلم هل تكفي لحمايته من قريش، حتى يستطيع أن يبلّغ كلام الله تعالى. أما بني عامر بن صعصعة فمعروف بين العرب أنهم أهل قوة ومنعة.

✓ لا يبتغون بذلك إلا رضوان الله تعالى.. [273]

كما كانت "بيعة الحرب" مع الأنصار رضي الله عنهم.. وهي الحُجَّة في هذا الباب.. فهي ما قام به رسول الله فِعلاً وهي ما اعتمده ﷺ..
فبداية نصر الله تبارك وتعالى لـ حَمَلَة "دعوة الله" وتمكينهم في الأرض، أن يُيسّر لهم مَنْ يؤمن بدعوة الله من أهل القوة، أو ييسّر لهم أخذ القوة والسلطان:

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ الأنفال

﴿.. فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ الأنفال

الحالة الثالثة : أن يُؤْمن الملأ ؛ أهل القوة في المجتمع (القرية)، ولا يُؤْمن الأتباع؛ عامة الناس.

وهذه الحالة لم تحدث مع رسول الله ﷺ ولم يواجهها.

وهي حالة قد تكون غير مُمْكنة الوقوع في الزمن الحاضر.. بسبب سيطرة الأنظمة الجاهليّة الحديثة وقُوى الاستعمار الكافرة الخبيثة.. على حياة الناس بشكل لم يسبق له مثيل..
وإن حصلت فالحُكم عليها ومعالجتها في حينه، ولكل حادث حديث ولكل مقام مقال.. وذلك ضمن الخط الشرعي العام وهو العمل على تحقيق مقومات "الأمة المكلّفة" بوصفها الشرعي.. وعلى أساس "الطاعة الواعية" لله ورسوله.. كما بيّناها فيما سبق.

الحالة الرابعة : أن لا يُؤْمن الملأ ؛ أهل القوة في المجتمع (القرية)، ويُؤْمن الأتباع؛ عامة الناس.

وهذه الحالة لم تحدث مع رسول الله ﷺ ولم يواجهّا، لا في مكة المكرمة ولا في المدينة المنورة..

وهي تشبه ما حصل مع "أصحاب الأخدود" كما في سورة البروج أو قصة "الغلام المؤمن" في الحديث الشريف.. حيث أن أهل القوة في المجتمع ومَنْ بيدهم أزمّة الأمور (الملأ).. بقوا مصِرُّين على رفض دعوة الله وعلى عدم تحكيم شرع الله عزوجل، لكنّ عامة الناس مسلمون، ويريدون بعزيمة صادقة، أن تحكم شريعة الله حياتهم.. **بدليل** أنهم ضحّوا جميعاً بأرواحهم وبأبنائهم في سبيل ذلك.. أي، تَحقّق فيهم "المقوّم الأول" من مقومات "الأمة المكلّفة"..

---

273 - كان شرْط رسول الله على الأنصار أن لهم الجنة فقط دون الحكم. سؤال للنقاش: هل كان هذا => الشرط على أساس أن القيادة ـ في ذلك الوقت ـ لا يصلح أن تكون إلا في قريش؟ كما قال أبو بكر في سقيفة بني ساعدة: (وما تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبا وداراً).. فإذا ما حصل مع "حمَلة الدعوة" في هذا العصر نفس الحالة، هل الشرط أن تكون البيعة مع أهل القوة المؤمنين المناصرين لدعوة الله، أن لهم الجنة فقط وليس لهم من الحكم شيء؟.. أم أن الأمر شورى، فيجعل الله الحكم حيث يشاء؟.. أم يتم الاتفاق معهم على تسوية معينة؟، مثلاً، أن يكون لهم الأمر من بعد قادة "حمَلة الدعوة"، يعني خلفاء لهم.

سؤال ..

قد يقول قائل: **ألا يُشبه هذا حال المسلمين اليوم؟**.. فالناس في عمومهم مسلمون، ولا ينقصهم إلا أن تُطبّق عليهم أحكام الإسلام.. أي ينقصهم أن يكون الملأ؛ الحكام **يريدون** تطبيق الإسلام **ويقْدِرون** على ذلك.

نقول: إن هذا الفهم للواقع الحالي لعموم المسلمين غير صحيح، و "تحقيقٌ للمناط" - أي القول بأنه مثل "الحالة الرابعة" - غير صائب.. وبالتالي فإن العمل الذي يترتّب على ذلك الفهم غير صحيح ولن يؤدي إلى النتيجة المرجوّة، لأنه ليس هو العمل المطلوب:

✓ أمّا أن "تحقيق المناط" غير صائب: فعندما يكون عموم المسلمين في الأرض، في مرحلة "ما قبل التمكين"، فإن الغاية المراد تحقيقها حينئذ؛ هي إيجاد **"الأمة المكلّفة"؛ المخوّلة والقادرة على** تنفيذ شرع الله، ذات الخصائص والمقوِّمات المعينة..

فالغاية هي إذاً: تكوين و"صناعة" مسلمين - في مجتمع ما - **بمستوى معيّن** من الإيمان والتعليم والتزكية.. تكوَّنت لديهم **الإرادة** الجازمة و **القدرة** الكافية وبالتالي **العزيمة** الصادقة على تحمّل تَبِعَات أن يصبحوا أمة **بوصف معيّن،** وليس أيّ مسلمين، وأيّة أمة..

وعند النظر في واقع واقع **عموم المسلمين** الآن.. وقد عاشوا لقرن كامل في مجتمعات ليست كلمة الله هي العليا فيها، بل محكومون لأنظمة وقوانين "الجاهلية" - وهي كل القوانين التي ليس إسلامية؛ ليس مصدرها الوحي - بل وأكثر من ذلك.. فقد مرّ قرن أو أكثر، قبل ذلك.. كان الإسلام كمنهج حياة في حالة ضعف فكري ومادي.. وقد بدأت أوروبا المسيحية بالإستيقاظ فكرياً من جهالات القرون الوسطى، وبتحصيل القوة المادية والعلمية.. وبدأت في هجماتها المتكررة؛ الفكرية (المستشرقين) والعسكرية (الاستعمار).. على الإسلام كنظام حياة وكقوة سياسية تحكم مساحة واسعة من الأرض.. إلى أن تم إزالة الإسلام كقوة سياسية على الأرض بعد القضاء على آخر دولة إسلامية، في بداية القرن العشرين الميلادي..

ونتيجة لما سبق ذكره من عوامل كبرى.. وغيرها؛ ذكرناها في "وجهة البحث".. نجد أنه **لا يتوفّر** في أغلب المسلمين الآن، سِمات وطبائع **"المقوِّم الأول"** لـ "الأمة المكلّفة"، وهي: أن يكون عموم المسلمين - في مجتمع ما - على مستوى من **العلم والوعي** بأن المعنى الحقيقي والواقعي للشهادتين، الركن الأول في الإسلام؛ شهادة أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. هو: أن يكونوا **"أمة مسلمة لله"** لا **تقبل** إلا **طاعة** الله وحده، ولا تُشرك بطاعته أحداً.. ولا **تقبل** إلا **اتباع** رسول الله الخاتم محمّد ﷺ في نظام حياتها و**صياغة** أفكارها ومشاعرها، **ورعاية شؤونها** كلها؛ الداخلية والخارجية.. (إخلاص الدين لله أو إكمال الدين لله).. **[انظر "معنى لا إله إلا الله" في (المبحث الأول - الباب الأول)]**

وأن يكونوا - في عمومهم - على مستوى من **التزكية** يجعلهم مستعدين للتضحية بما يلزم من الأموال والأنفس في سبيل أن تكون "كلمة الله هي العليا" والمحافظة عليها كذلك.. حتى لو أدى ذلك إلى تحمُّل الجوع والخوف لمدة من الزمن قد تطول.. أو إلى قتل وفناء كثير من المسلمين.. كل ذلك مقابل الجنة، دون أي مكسب في الدنيا.. بمعنى أن تكون المحافظة على دين الله وجعل "كلمة الله هي العليا".. قضية مصيرية؛ قضية حياة أو موت عند عامة المسلمين.. في حالة أشبه بحالة الأمة في غزوة الأحزاب (الخندق).. في الاستعداد لها وفي أثنائها..

نعم، قد يكون - الآن - هناك أفراد أو مجموعات قليلة في الأمة تتوفّر فيهم تلك السمات للمقوّم الأول.. فالخير في الأمة إلى يوم القيامة.. لكنّهم غير فاعلين ولا مؤثّرين بالمستوى المطلوب أو الكافي، إلا أن غالبيّة **المسلمين** لا تتوفّر فيهم تلك السمات.. وهذا أمر واضح لا لبس فيه..

فرغم وجود العلماء والمعلمين والمربين والمشايخ ودور تحفيظ القرآن والتنظيمات الإسلامية المتنوعة.. والذين استمر عملهم في الأمة لعقود مديدة وأجيال عديدة.. لكن الواقع أن الغالبية العظمى من المسلمين - في مختلف المجتمعات - أصبح مفهوم الدين السائد عندهم مفهوماً "كهنوتياً": "دَعْ ما لله لله وما لقيصر لقيصر".. فصل الدين عن الحياة.. الدين الفرديّ والمحصور في المساجد والجمعيات الخيرية.. هذا هو "الدين" الذي يتبنّاه حكام المسلمين؛ وفَرَضوه على المسلمين - على مدى أجيال عديدة - بقوة القانون.. وبتأثير الإعلام.. وتحت وطأة أنظمة التعليم؛ في المدارس والجامعات..

هذا هو "الدين" السائد الآن عند عموم المسلمين، الذي هو صورة "مشوَّهة" عن دين الله الحق.. **[انظر (وجهة البحث)]**

✓ أمّا أن العمل للوصول إلى "التمكين والسلطان"؛ **"المقوّم الثاني"** لـ "الأمة المكلّفة".. دون أن يكون **"المقوّم الأول"** متحقّقاً فعلاً في المسلمين.. لن يؤدي إلى النتيجة المرجوّة، بل سيكون مصيره الفشل الذريع.. وذلك، لتعارضه مع **سنن** الله؛ **الكونية** و**الشرعية**:

- فهو - من جهة - عمل غير جائز شرعاً، لأنه مخالف لما فعله رسول الله ﷺ في التحوّل من "الاستضعاف" إلى "التمكين"، فإذا نظرنا إلى أفعال رسول الله وأقواله مع الأنصار **رضي الله عنهم** - وهي الحُجَّة في هذا الباب - نرى أنه لم يَنتقل إلى المقوم الثاني (السلطان والتمكين؛ "بيعة الحرب") إلا بعد أن تحقَّق من وجود خصائص "المقوّم الأول" في عموم أهل المدينة.. حيث **عَلِم** أن غالبية الناس في المدينة، قد أصبحوا مسلمين، وأنهم لا يريدون إلا طاعة الله واتّباع رسوله، والفوز برضوان الله والجنة.. ومستعدون للتضحية بكل شيء في سبيل ذلك.. وعندهم القوة لذلك وهم أهل الحَلَقة والقتال.. فثبَّت رسول الله ﷺ ذلك معهم بعقد "بيعة الحرب" مع زعمائهم أهل القوة، بأن يؤوه وينصروه..

بمعنى، أن رسول الله ﷺ قد **عَلِم** أن المسلمين - مهاجرين وأنصاراً - سيكون لديهم **القابلية** ولديهم **القدرة** على تحقيق شروط الله عليهم إن مكّنهم في الأرض، الشروط التي أمر الله **تعالى** بها في آيات سورة الحج؛ أن تكون "كلمة الله هي العليا".. والتي سعى رسول الله ﷺ إلى تحقيقها.. عندما هاجر إلى المدينة.

ويُمْكِن أيضاً، أن نستدل على **عدم** جواز العمل على "المقوّم الثاني" لـ "الأمة المكلّفة"، قبل أن يكون "المقوّم الأول" متحقّقاً.. برفض رسول الله ﷺ ما عَرْضَه الملأ من قريش، عندما عَرَضوا عليه - فيما عرضوا - أن يجعلوه سيداً عليهم في مكة.. لكنّه ﷺ رفض ذلك.. فالموضوع ليس أيّ تمكين وأي سلطان، بل هو التمكين بالوصف الشرعي المطلوب؛ وهو **تمكين** "أمة مسلمة" عندها **الإرادة** و **القدرة** على جعل "كلمة الله هي العليا"؛ بتطبيق رسالة الله على نفسها؛ بداية بما اشترطه الله **تعالى** من أعمال؛ كما في آيات سورة الحج.. ثم تعمل الأمة على تهيئة نفسها لتكون قادرة على حمل رسالة الله للعالمين بـ "الجهاد"؛ هدى ورحمة..

• ومن الجهة الأخرى، فإن العمل على "المقوّم الثاني" قبل أن يكون "المقوّم الأول" متحقّقاً، **يتعارض** مع **سُنن** الله الكونية (القدرية).. فمَثَل مَن يقوم به كمَثَل الذي انتقل إلى العمل في الدور الثاني في البناء قبل الانتهاء من العمل في الدور الأول وتحضيره ليتحمَّل أثقال الدور الثاني.. فسيكون مصيره الانهيار والفشل، وتضييع الإمكانات والجهود.. فبقدَر متانة **الأساس** وصلابته، يتحمَّل ثقل ما بُني عليه.. **والإيمان** بالله واليوم الآخر، والقدَر خيره وشره من الله، وأنه لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا.. والخوف من النار والطمع بالجنة.. هو **أساس** العمل الصالح، و"القوة الدافعة" لطاعة الله في المَنْشَط والمَكْرَه، والتضحية بالمال والنفس في سبيل إعلاء كلمة الله..

فتحقيق **"المقوّم الأول"** لـ "الأمة المكلّفة" - بخصائصه وسماته - في مجتمع معيّن.. يجب أن يكون هو **المَقصد الأول** لـ حَمَلَة "دعوة الله" قبل سعيهم نحو "التمكين"، أي قبل تحقيق "المقوم الثاني".. فحَمَلَة "دعوة الله" إذا سنحت لهم فرصة للتمكين في مجتمع ما، فعليهم - بداية - التأكّد بأن "المقوم الأول" مُتحقِّق فعلاً، وكما أمر الله **تعالى**.. أي أنّهم **قادرون** على تحقيق **شروط** الله إن مكّن لهم في الأرض (سورة الحج).. وإلا فهو تضييع للجهود، وتشتيت لفكر الأمة.. وقبل ذلك مخالف لمنهج رسول الله:

﴿ٱلَّذِينَ **أُخْرِجُواْ** مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن **يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ** وَلَوْلَا **دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ** بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا **وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ** إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ <u>ٱلَّذِينَ إِن **مَّكَّنَّٰهُمْ** فِى ٱلْأَرْضِ **أَقَامُواْ** ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ **وَأَمَرُواْ** بِٱلْمَعْرُوفِ **وَنَهَوْاْ** عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ</u> ﴿٤١﴾﴾ الحج: ٤٠ - ٤١

هذا، ومن حيث الأصل، فإن <u>السير الطبيعي</u> بـ "دعوة الله" وحَمْلها في مجتمع ما بقصد تحقيق الغاية منها؛ "أمة تُخلِص دينها لله" وجعْل "كلمة الله هي العليا"، يقتضي أن حَمَلَة "دعوة الله" لم يصلوا إلى **هذا** المستوى من السير بالدعوة.. أي قُبيل "التمكين".. <u>إلا وقد حقّقوا في أنفسهم شروط "التمكين" ووفّروا أسبابه، وابتعدوا عن موانعه.. حتى يصبحوا **هم أنفسهم أهلاً** لأن **يُمَكِّن** الله لهم في الأرض، حسب **سنن** الله جلّ وعلا في المؤمنين حَمَلَة دعوة الله"</u>؛ سواء "السنن الشرعية" أو "السنن الكونية".. ومنها - كما أشرنا سابقاً - وجوب الالتزام بـ **"منهاج النبوّة"**؛ أي السير على "سبيل رسول الله"؛ **خطاباً** و**أعمالاً**.. وأن تتوفر **فيهم** الخصائص اللازمة وأن تظهر **عليهم** السمات المطلوبة.. (كان خُلُقُه القرآن) [274]..فالأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده:

---

274 - انظر إلى صفات المؤمنين المؤهلين - وإن كانوا قليلاً مستضعفين في مكة - لأن يوفّقهم الله تعالى للتمكين في الأرض، ويأتمنهم على دينه وشرعه (كان خُلُقُه القرآن)، والتي ورد أغلبها في السُوَر المتعلقة بأواخر المرحلة الأولى؛ "قبل التمكين".. أو في بدايات مرحلة "التمكين": مثل وصْف المتقين في أول آيات سورة البقرة، وقبل ذلك، في وصْف أخلاق المؤمنين وسَمْتهم في سُوَر: المؤمنون، الإسراء، الأنعام، الشورى، الفرقان (عباد الرحمن)، الحج (المخبتين وغيرهم) وسورة المعارج (صفات المصلين).. وفي الآية التالية بيان جامع لشروط التمكين للمؤمنين: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا <u>فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ{13} وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي</u> =>

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٢٨

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ السجدة

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ إبراهيم

وذلك في سياق بيان الحق كاملاً.. وإقامة "الحُجَّة الرسالية" كاملة على المجتمع، بركنيها؛ بالحُجَّة والبرهان؛ "فكرة الدعوة" وحسب "منهج الخطاب".. وأيضاً، بالمواقف والأعمال التي يقتضيها الخطاب بـ "فكرة الدعوة"؛ وذلك باستمرار الثبات على الحق، والقيام بما يقتضيه من أعمال؛ (إيمان وعمل صالح)، ومنه: عدم المداهنة أو قبول "الحلول الوسط" أو الركون للذين ظلموا، وعدم استعجال النتائج الذي قد يؤدي إلى مخالفة سبيل الرسول..

وما سبق - من التزكية وإقامة "الحُجَّة الرسالية" - التزمه رسول الله ﷺ كاملاً، وذلك؛ بالاستعانة بالله والتوكل عليه والثقة به **عزّوجل**.. وبـ "الطاعة الواعية"؛ أي الوعي على مراد الله في كلامه، والوعي على الواقع الذي كان يتحرّك فيه ﷺ.. مع الصبر على أمر الله؛ القدري والشرعي..

بمعنى؛ أن المؤمنين؛ حَمَلَة "دعوة الله" بعدما يُحقِّقوا ما طلبه الله منهم: في **أنفسهم**؛ من التزكية والتعلُّم.. وفي بلاغهم "دعوة الله" **للمجتمع**؛ من إقامة "الحُجَّة الرسالية".. يُحقّق الله **تعالى** وعده لهم بالنصر والتمكين.. فالله لا يُخلِف الميعاد لأنه مالك المُلْك.. لأنه لا إله إلا الله.. والله على ما يشاء قدير.. إلا أن مشيئة الله تتحقق في الواقع الإنساني حسب سُننه المعهودة والدائمة التي قدّرها في الخلائق.. **فحين** يُحقِّق الناس كافة **مقدمات سنن الله**، ويجتنبوا **موانعها**، يحصلون على **نتائجها**.. **أي** تتحقّق مشيئة الله:

وَخَافَ وَعِيدِ{14}) إبراهيم. فهذا الوصف الجامع: (لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) هو شرط الله تعالى على حملة الرسالة - وإن كانوا أقلّة مستضعفين - حتى يوفقهم الله للتمكين في الأرض.. ويؤيده ما ورد في الآيات من سورة الحج: (إِنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الله لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ{38} أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ{39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا الله وَلَوْلَا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ الله كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ{40} الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الْأُمُورِ{41}).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ .. ﴿١١﴾ ﴾ الرعد [275]

فبعد أن يغيروا ما بأنفسهم ويحقِّقوا ما أَمَر الله به.. يغيِّر الله **تبارك وتعالى** واقعهم فيؤيّدهم بنصره وبالمؤمنين.. فيُهيّئ الظروف والأحوال ويُيسِّر قبول "مجتمع ما" لدعوة الله.. وكل ذلك بحسب سنن الله الكونية والمجتمعية..

عندها يقع على عاتق حَمَلَة الدعوة" العمل بجد واجتهاد أكثر في ذلك المجتمع، وأن يحرصوا على أن يكون عموم المسلمين فيه - وخاصة القادة والشخصيات المؤثّرة - على المستوى المطلوب من النُّضج الفكري والروحي.. حتى يُصبح الرضى بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً.. مطلباً جماهيرياً طاغياً في ذلك المجتمع، وقد نشأ هذا المطلب عن قناعة ورغبة صادقة مَبْنيّة على الوعي و**اليقين** الصادق أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله.. مفهوماً ومقتضيات.. **واليقين** بالحياة الآخرة:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا **يُؤۡمِنُونَ** حَتَّىٰ **يُحَكِّمُوكَ** فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا **يَجِدُواْ** فِيٓ أَنفُسِهِمۡ **حَرَجٗا** مِّمَّا قَضَيۡتَ **وَيُسَلِّمُواْ** تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء [276]

كما فعل رسول الله مع أهل المدينة المنورة قُبيل الهجرة لمّا بعث إليهم مصعب ابن عمير.. وقد بقي مَنْ بقي على شركهم وزعيمهم أُبَي ابن خلف، ووجود مواليهم من اليهود.

ونوضّح هنا، أن حال "التمكين" وأن تكون "كلمة الله هي العليا" **لا يلزم** منه أن يكون **جميع** آحاد الناس الذين يعيشون تحت سلطان الأمة، مسلمين، إنما يجوز أن يكون منهم غير مسلمين.. إلا أنّ عليهم الخضوع لأحكام الله في حياتهم العامة وعلاقاتهم مثل سائر الناس.. كما قرّر رسول الله ذلك في "وثيقة المدينة"..

فليست **الغاية** أن يكون **جميع** الأفراد في المجتمع مسلمين.. بل **الغاية** أن تكون "كلمة الله هي **العليا**"، ودينه هو الظاهر.. أي أن أمر الله **تعالى** وحكمه هو النافذ في حياة الناس؛ في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع علاقاتهم، وهذا يقتضي أن يكون المسلمون هم أصحاب السلطان والقوة على الأرض.. أي لهم الغلبة والحُكم.. وإن كان في الناس غير مسلمين [277]..

---

275 - انظر كتاب (الإيمان بالقدر)/ (الباب السادس: القدر والمشيئة والإرادة): مرجع سابق، على الرابط: https://drive.google.com/drive/folders/1tpCO7iftgxkUMTCm8xQrvIyfViCzNrOc?usp=sharing

276 - "العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب"، فأبرز مظاهر الإيمان ومصاديقه أن لا يحتكم الإنسان إلا لله، وأن ينفّذ حكمه راضياً خاضعاً، وفي جميع شؤون حياته..(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)) الأحزاب، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ..(٢٠٨)) البقرة.

277 - وهكذا يكون "الدين خالصاً لله": (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{1} إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{2} أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ..{3}) الزمر، وإن بقي - تحت سلطان المسلمين - بعض الناس أو كثير منهم كفاراً، ويتبعون غير شريعة الله في بعض شؤونهم الخاصة، وإن كان ذلك كذلك، فما كان إلا لأن الله تعالى سمح به، فهُم في هذه أيضاً خاضعون لأمر الله، كما هم خاضعون لأمر الله في حياتهم العامة بقوة سلطان المسلمين، فلا طاعة - على الحقيقة - إلا لله وحده. وهذا هو المقصود=>

بمعنى، أن عموم المسلمين في ذلك المجتمع قد حققوا "المقوِّم الأول" من مقوِّمات "الأمة المكلّفة"؛ "أمة رضيت بالله ربّاً وبمحمد رسولاً".. وقد حان الوقت للعمل الجاد على تحقيق "المقوِّم الثاني"؛ التمكين والسلطان.. فينبغي **التحقُّق** من جاهزيّة هذه الأمة؛ **فكرياً** و **روحياً** و **ماديّاً** وأن عندها **الإرادة** و **القدرة** وبالتالي **العزيمة** لجَعْل "كلمة الله هي العليا"؛ وأن "يكون الدين كلّه لله".. بتطبيق شريعته على نفسها.. وحَمْل رسالته بالجهاد؛ دعوة وقتالاً.. والاستعداد للتضحية بالأموال والأنفس في سبيل الله (قضية مصيرية)، وثمن ذلك هو الفوز برضى الله والجنة.. وأن يكون هذا الأمر بارزا وملموساً - خاصة - في القادة والشخصيات المؤثرة في المسلمين (بيعة الحرب).

أمة بني إسرائيل، مثال..

هذا، وقد ضرب الله **تعالى** لنا **مثلاً** واقعيّاً في القرآن الحكيم على أن **جاهزية** الأمة حاملة الرسالة شرط في أن **يُحقِّق** الله **تعالى** لهم وعده **بالتمكين** في الأرض..

انظر إلى حال بني إسرائيل مع نبيّ الله موسى **عليه السلام**، حين استعجل لقاء الله **سبحانه وتعالى** لتلقّي التوراة وما فيها من شريعة لينظِّم حياة قومه (بني إسرائيل) وقد أصبحوا أمة بقيادة جديدة، بعد أن أنقذهم الله من ظلم فرعون وقد أهلكه بِالْيَم.. وعندما سأل الله **جلّ وعلا** نبيَّه موسى لماذا استعجلت تلقّي الشريعة والأحكام؟، كأنه **سبحانه** يُعاتبه لأن قومه ليسوا جاهزين بعدُ لتلقي شريعة الله وتطبيقها، فالأَوْلى أنه بقي معهم - حتى يحين موعد لقاء الله - ليزيد في إيمانهم ويقينهم، ويُهيِّئَهم لتلقي شريعة الله وتطبيقها.. فهُم لا تزال عندهم أمراض في قلوبهم وضعف في يقينهم بربّهم؛ فقد سألوا موسى **عليه السلام** من قبلُ، أن يجعل لهم صنماً يعبدونه.. وبعد أن تركهم موسى للقاء الله **جلّ وعلا** سقطوا مِنْ أول ابتلاء وقبِلوا أن **يعبدوا** غير الله **عزّ وجل** حين اتّبعوا السامري على ضلاله.. وتمرّدوا على رسول الله هارون **عليه السلام** وكادوا أن يقتلوه.. ونقضوا عهدهم مع موسى **عليه السلام** بالثبات على طاعة الله وعبادته إلى أن يرجع إليهم.. ومما قاله موسى لهم معاتباً: "أنهم لا يزالون حديثي عهد بربهم ومع أيام الله ونَصْره لهم، ولم يَطُل عليهم الأمدُ حتى يَنسوا ويَضلوا !!".. **[انظر القصة في تفسير السعدي، سورة طه، الآيات (83 - 91) وما بعدها]**

وظهر - بعد ذلك - ضعف إيمانهم بالله واليوم الآخر، عندما أمَرَهم رسولهم وقائدهم موسى **عليه السلام** بدخول الأرض المقدسة، التي وعدهم الله بها ليعبدوه وحده مخلصين له الدين، حيث:

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ ... ٢٢ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ **فَٱفۡرُقۡ** بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ **ٱلۡفَٰسِقِينَ** ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ

بـ "إخلاص الدين لله" وجعل "كلمة الله هي العليا" و "﴿.. حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ..﴾ [الأنفال ٣٩]". وعلى هذا الأساس تُفهم السنة المشرّفة ذات العلاقة، وبقي الأمر على ذلك حتى نزلت آيات سورة براءة (التوبة) وبيّنت الأحكام النهائية في أصناف الناس المختلفة: منافقون، مشركوا العرب، وأهل الذمة.

عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ المائدة [278]..

وظهر - أيضاً - ضعف أساس "أمة" بني إسرائيل، في ما حدث معهم من بعد موسى **عليه السلام** وبعد "التيه"، عندما طلبوا من نبيّ لهم أن يجعل لهم مِلِكاً ليقاتلوا في سبيل الله ويدخلوا الأرض المقدسة، كما في قصة طالوت وجالوت في سورة البقرة، وكيف أنهم في عمومهم لم يكونوا على المستوى المطلوب من الاستعداد الروحي والفكري.. فكان لا بد من ابتلائهم وامتحانهم لغَرْبلتهم ليميز الله الخبيث من الطيّب، فنصْرُ الله لا يتنزّل إلا على الخُلَّص من عباده **[انظر القصة في تفسير السعدي]** ..الخ..

فالعبرة الواضحة هي: إن وعد الله للمؤمنين بالتمكين لهم في الأرض، مُتَحقِّق قطعاً.. لكن بعد تمثُّلهم بمقوّماته وتحقيقهم جميع شروطه.. وترك جميع موانعه..

فالأمر منوط بهم: فإن تأخروا، تأخّر التمكين حتى تتحقَّق مقوماته ومقتضياته في واقعهم.. [279]

ومن فضل الله على أمة محمد ﷺ ورحمته بهم، أن الجيل الأول؛ جيل التأسيس، جيل القدوة.. قد أخذوا العبرة.. فعَلِموا الحق واستقاموا عليه، ونصروا نبيهم وقاتلوا معه وهم أقلّة في غزوة بدر، وقالوا لرسول الله: (لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} **[24 المائدة]** ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون) [280]..

ومن هنا، فحتى ينتقل عموم المسلمين - في مجتمع ما - إلى الأمة ذات السلطان فلا بد من أن يكون **أساس الأمة**؛ الفكري والروحي.. والمجتمعي بشكل عام.. صلباً متماسكاً، ليكون كيان **الأمة** قادر على تحمُّل أعْبَاء التكاليف الثقيلة المتعلقة بها؛ من التضحية بالأموال والأنفس في الجهاد في سبيل الله، وإقامة دين الله وحدوده على القوي والضعيف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. والصبر على ذلك كله.. دون أن يتصدّع كيانها من ثِقَل التكاليف..

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ المزمل،،، **(انظر سورة المزمل في كتاب (تبيان سور القرآن). مرجع سابق)**

فالحفاظ على وحدة كيان "الأمة المكلّفة" وقوة تماسكه، هو حفاظٌ على وجودها واستمرار بقائها، والذي هو شرط في قدرتها على القيام بالتكاليف الشرعية المنوطة بها.. حتى "إكمال الدين لله".

---

278 - الجزاء من جنس العمل، فعندما رفضوا أمر الله واتبعوا أهواءهم، فقد ضلوا.. فأضلهم الله في=> الأرض. وكما هي سنة الله تعالى في المفترين على الحق، فهم عندما عبدوا العجل، ماذا قال الله تعالى في حقهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)﴾ الأعراف. فهذه هي سنة الله في المفترين، أي الذين يعلمون الحق ويَكْذبون، فيقولون بغيره ويتبعون غيره. وهذه من سنن الله الدائمة والمستمرة في الأمم حمَلة الرسالات عندما تترك الحق الذي في رسالة الله إليها، وتتبع الباطل الآتي من عند غير الله جلّ وعلا.. وأمتنا؛ الأمة الخاتمة دخلت في هذه السنة، حين اتبعت "عجل العصر": التشريعات والأنظمة من الجاهلية المعاصرة، فنالنا الذل في الحياة الدنيا، ولا يرفعه الله عنا حتى نعود إلى الدين الحق.. أو أن يمنّ الله على عباده المستضعفين، فيهيّئ عالماً ربانيّا صدّيقاً قائدا لينقذهم.

279 - للتفصيل انظر رسالة (وعد الله بالتمكين: "سنة التمكين"): على الرابط التالي:

280 - (تفسير ابن كثير). ولكن أين نحن الآن؛ أحفاد أولئك الرجال؟! هل طال علينا الأمد فغفلنا.. فأصبحنا مثل بني إسرائيل في موقفنا تجاه رسالة ربّنا؟.

النتيجة مما سبق.. في جواب السؤال

أن حال المسلمين الآن لا يشبه أبداً "الحالة الرابعة" في وصف حال "الملأ" و"الأتْباع" في المجتمع، من حيث الإيمان..

فالقول: بأن عموم المسلمين الآن مؤهلون كـ "أمة مكلّفة"، ولا ينقصهم إلا أن يكون الملأ (الحكام) **يريدون** تطبيق أحكام الإسلام **ويقدرون** على ذلك، وبالتالي **العمل** المطلوب هو إيجاد "المقوِّم الثاني": أي محاولة إيجاد السلطان بالاستعانة بأهل القوة".

إن هذا **القول** غير صائب.. **والعمل** على "المقوِّم الثاني" - في هذه الحالة - مصيره الفشل ولن يؤدي إلى النتيجة المرجوّة، فليس هو العمل المطلوب؛ شرعاً وواقعاً.. لأنه مبني على أساس غير صحيح؛ فهو مخالف لفعل رسول الله في الانتقال من الاستضعاف إلى التمكين، ومخالف لسنن الله في الواقع.. كما بيّنا.. فسيكون هدر للجهود والطاقات ومضيعة للأعمار في ما لا طائل تحته.. بل قد يكون من أسباب تأخير النصر والتمكين للأمة..

ومن هنا، فإن الوصف (تحقيق المناط) الصحيح لواقع المسلمين الآن ومن منظور "تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة"، هو:

أن المسلمين في مرحلة "ما قبل التمكين"، بمعنى أن "كلمة الله ليست العليا"..

وعليه، فالعمل المطلوب الآن؛ هو ما فعله رسول الله ﷺ في حال "ما قبل التمكين"، وهو:

أن تقوم فئة مؤمنة وتأخذ على عاتقها تحمُّل أعباء دعوة الله؛ بدعوة عموم الناس في المجتمع إلى عبادة الله **تعالى** وحده لا شريك له، على أساس "خطاب النذارة": أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه، مع بيان مصير من أجاب واتّبع، ومصير من أبى واستكبر.. ليكونوا مسلمين بوصف معيّن.. (الأمة المكلّفة)..

وبحسب ردود أفعال الناس والملأ - من خطاب "دعوة الله" ومن حَمَلتها - سوف تتوالى الأحداث وتتطوّر العلاقة بينهم.. إلى أن تستقر على حالة من تلك الحالات الأربع أو احتمال من تلك الاحتمالات الأربعة لاستجابة **الملأ** و**الأتْباع** من حيث إيمانهم أو عدم إيمانهم.. وقد تناولنا **ثلاث** حالات، منها **اثنتان** واجههما رسول الله ﷺ.. وبقيت **"الحالة الرابعة"**.. وهي: أنّ عموم المسلمين في مجتمع ما، قد تحقّقت فيهم طبائع وسمات "المقوِّم الأول" لـ "الأمة المكلّفة"، وأنّهم جاهزون الآن للانتقال إلى "المقوِّم الثاني"؛ التمكين والسلطان.. لكنّ الملأ في المجتمع؛ أهل القوة ومَنْ بيدهم أزِمّة الأمور، لا يزالون مُصرّين على رفض دعوة الله **جلّ وعلا**؛ "إخلاص الدين لله" بتحكيم شرع الله **سبحانه وتعالى** [281].

فما المطلوب من حَمَلَة دعوة الله" وسائر المؤمنين، عَمَله حينئذ ؟..

281 - شبيهة بحالة "أصحاب الأخدود"، وقد وصل بهم الأمر إلى التضحية بأرواحهم وأبنائهم في سبيل الله، لكن ما حدث لهم من إبادة جماعية لا يحدث للأمة الخاتمة بمجموعها، ويمكن أن يحصل لبعض فئاتٍ منها، أما الأمة المسلمة بمجموعها فهي باقية إلى قيام الساعة.. حتى لو اجتمعت عليها أمم الكفر كلها من أقطار الأرض.

المطلوب: أن يقوموا جميعاً بالعمل على إكمال مقومات "الأمة المكلّفة".. لإيجادها في الواقع.. حتى يستطيعوا القيام بما فرضه الله عليهم من "إكمال الدين لله" بأن يكونوا "أمة ذات السلطان".. والسلطان يلزمه قوة..

أمَا وقد رفض الملأ أهل القوة والسلطان، الإيمانَ بالله وتحكيمَ شريعته.. وأيضاً، رفضوا أن يتركوا المؤمنين أن يحْكُموا أنفسهم بشريعة الله.. عندها، لم يبقَ خيار أمام حَمَلَة "الدعوة" والمؤمنين معهم، إلا أن ينتزعوا القوة والسلطان انتزاعاً من الملأ.. لجعل كلمة الله هي العليا.. لأن وجود السلطان والقوة شرط في جعل "كلمة الله هي العليا" والمحافظة عليها كذلك.. والسلطان والقوة شرط في تحقيق الوصف الشرعي لـ "الأمة **المكلّفة" والمخوَّلة** بتنفيذ جميع أحكام الله في واقع المجتمع وجعل "كلمة الله هي العليا".. فتوفّر السلطان والقوة أمر لا بد منه - شرعاً وواقعاً - للأمة حتى يُمكِنها أن تُخلِص دينها لله (إكمال الدين لله):

﴿ .. وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ ﴾ الإسراء

إلا أن رسول الله ﷺ في الحالتين اللتين واجههما، لم يعمل على انتزاع السلطة والقوة من الملأ، لأنه لم يكن هناك حاجة لذلك؛ كما ذكرنا:

ففي الحالة الأولى؛ في مكة، غالبية أهل مكة كانوا تبعاً للملأ أهل القوة الذين كفروا من قريش.. أما المسلمون فكانوا قليلين مستضعفين، لا يحققوا "المقوم الأول"، فلا لزوم للسعي لأخذ السلطان (المقوِّم الثاني)؛ وهكذا كان موقف رسول الله.. وحتى حين عرضوا عليه الرئاسة والزعامة رفضها..
مع أن رسول الله - منذ البداية - كان حريصاً على إيمان الملأ أهل القوة من قريش، فبإيمانهم يؤمن أغلب أهل مكة.. فتوجَد "الأمة المكلّفة" بكل مقوماتها (كما حصل في المدينة لاحقاً) وينتهي الأمر.. فبقي ﷺ يُلِحّ عليهم بالدعوة حتى أن الله **جلّ ثناؤه** عاتبه على إصراره على دعوة من أُقيمت عليه "الحُجَّة الرسالية" وأصبح رفْض الحق موقفاً نهائياً له؛ استغنى عن الحق، فكان هذا هو الضابط في ترك دعوة أي شخص: إذا أُقيمت عليه "الحُجَّة الرسالية"، واستغنى عن الحق..

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ ﴾ عبس

(انظر "سورة عبس" في كتاب: (تبيان سور القرآن). مرجع سابق)

فأولئك الملأ من قريش أصروا على الكفر، وبقي عموم أهل مكة تبع لهم.. حتى أنّهم أَخْرجوا رسول الله والمؤمنين من مكة.. فلم تعد هناك فرصة لأن توجَد "الأمة المكلّفة" (المقوِّم الأول) في مكة.. فلم يسْعَ رسول الله لأخذ السلطان..

وأما في الحالة الثانية؛ في المدينة، فقد وُجِدَت "الأمة المكلّفة"، وَوُجِدَ معها السلطان.. لأن أهل القوة في المدينة هم أنفسهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وتبِعَهم عامة الناس [282].. فقبِلوا جميعاً أن ينقادوا لرسول الله ﷺ.. ثم ساروا جميعاً - الأمة الناشئة وقيادتها - في طريق "إكمال الدين لله" واستكمال خصائص "الأمة المسلمة" حسب "منهاج النبوّة" حتى تكون مؤهّلة لخلافة رسول الله ﷺ.

282- الأمر الذي كان يأمل رسول الله حدوثه في مكة، لكنه لم يحصل.

وهكذا، في كِلا تلك الحالتين لم يَسْعَ رسول الله لانتزاع السلطة والقوة من الملأ، لأنه لم يكن هناك حاجة لذلك.

هذا، وانتزاع السلطة - ليس له **طريقة شرعيّة** مُحدَّدة.. بل **شَرطه** أن تكون أساليبه وأدواته في أصلها **مباحةً**، وأن **تؤدي** إلى تحقيق **مقوّمات** "الأمة المكلّفة" **بوصفها الشرعي**، كما ذكرنا.. ومن خلال "الطاعة الواعية" لله ولرسوله..

ومن هنا، فهذا الأمر قد يأخذ أشكالاً مختلفة وأساليب متنوعة، بحسب واقع المجتمع والزمان والمكان والأحوال.. فيقتضي الأمر دراسة واقع ذلك المجتمع دراسة عميقة، لمعرفة الأسلوب المناسب والأعمال اللازمة لانتزاع السلطان ليكون المسلمون هم أصحاب القوة والسلطان في المجتمع.

وفي هذا الإطار، لا مانع من الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى، فالبحث هنا إنما هو بحث في واقع مجتمعي، وفي الأساليب المناسبة للتعامُل معه، بقصد تحقيق هدف معلوم.

وبشكل عام، فإن أساليب انتزاع السلطان وأخذ القوة، ستكون متوقّفة على تركيبة ذلك المجتمع، وعلى كيفية توزيع القوة بين فئاته المختلفة، كالقبائل أو الجيش أو بعض الأحزاب السياسية، أو الشخصيات المتنفذة أو أصحاب رؤوس الأموال المُتَـنفّـذين.. أو الدولة الحديثة بسُلُطاتها المختلفة؛ التنفيذيّة والتشريعيّة والقضائيّة والإعلام، وبأدواتها المتنوعة؛ الأمنية والعسكرية والسياسية.. الخ..

ومن تلك **الأساليب** التي قد تكون فعّالة في انتزاع السلطان وأخذ القوة من الملأ، في المجتمعات الحالية:

- ✓ الثورة المسلحة..
- ✓ الانقلاب العسكري..
- ✓ العصيان المدني..
- ✓ أو غيرها.. **[انظر موقع (ويكيبيديا؛ الموسوعة الحرة) على الشبكة]**

1- بالنسبة للثورة المسلحة، فغير جائز شرعاً أن يقوم بها حَمَلَة "دعوة الله"، للنهي الصريح الوارد في القرآن والسنة عن ذلك.. كما بيّناه سابقاً.. فلا يجوز "قبل التمكين" أن يمارس حَمَلَة "دعوة الله" الأعمال ذات الطابع العسكري لأخذ القوة والسلطان.

ومن جهة الواقع، فقد ثَبت فشل هذا الأسلوب فشلاً ذريعاً في تحقيق الأهداف، كما حصل مع الجماعات - الاسلامية وغيرها - التي تبنّت هذا الأسلوب في الزمن الحاضر والزمن السابق غير البعيد.

والسبب المباشر لفشل الثورات المسلحة، هو أن الجهة التي تقوم بها لا تكون صاحبة قرار مستقل، لأن قرارها مرهون للجهة الأخرى التي تموّلها بالمال والسلاح والعتاد.. وأيضاً، لصاحب السلطان على الأرض التي تتحرّك عليها.. فقوّتها وقدراتها ليست ذاتـيّة.

2- أما الانقلاب العسكري، فهو أسلوب غير مناسب في الزمن الحاضر، وذلك؛ بسبب السيطرة الكاملة للدولة الحديثة على جميع مفاصل الدولة ومراكز القوة فيها.. فاختراق مؤسسات الدولة أو مراكز القوة - من قِبَل حَمَلَة الدعوة - أمر شبه مستحيل..
ممكن أنه كان مناسباً لزمن سابق (في أواسط القرن السابق الميلادي)؛ في بدايات تكوُّن وتَشكُّل هذه الدول التي تحكم في بلاد المسلمين.. حيث لم تكن مستقرة نسبياً.. أما في الزمن الحاضر- ولها استقرار وسيطرة - فهو أسلوب غير ناجح في الزمن الحاضر لأنه مستحيل التنفيذ..
إلا في حالة تأثّرت تلك المؤسسات أو مراكز القوة بالدعوة إلى الله واستجابت لله ورسوله.. عندها نكون قد عُدنا إلى "الاحتمال الثاني" (الحالة الثانية): أن أهل القوة آمنوا بالله واليوم الآخِر، واتّبعوا رسول الله.. كما حصل مع الرسول في المدينة..

نذكّر هنا، بأن أهل القوة المُسْتَعَان بهم للانتقال إلى "التمكين" **يجب** أن يكونوا مِمَّن استجابوا لـ "دعوة الله"؛ فيكونوا **مؤمنين** **بالله** ورسوله واليوم الآخر.. وذلك:

- ✓ لأن هذا من **لوازم** حصول التمكين؛ أن تكون قوة المسلمين التي تمكَّنوا بها ذاتية.. حتى يبقوا ممَكَّنين.. وإلا مَن أعطاهم القوة - وليس منهم - يستطيع أَخْذَها؛ عاجلاً أم آجلاً..
- ✓ ما فعله رسول الله ﷺ مع الأنصار، وهو الحُجَّة في هذا الباب.. فلم يفعل ذلك مع غيرهم، **فلم يثبت** عنه ﷺ أنه استعان بأهل **القوة** من **المشركين** بقصد أن يكون له **سلطان وتمكين** في الأرض.. رغم حاجته الماسة لذلك، وقد طلب الله منه ﷺ بأن يدعوه ليجعل له سلطاناً نصيراً.
- ✓ من جهة الواقع، فإنّ أهل القوة في مجتمع ما، حتى ينصروا حَمَلَة دعوة الله" - أو غيرهم - ويعطوهم السلطان ويمكِّنوهم في الأرض.. فسوف يعرّضون أنفسهم للهلاك أو يخسَرون كل شيء أو يُقَتَّلون.. ثم - بعد ذلك - كيف يُتوقَّع منهم أن يتَنازَلوا عن القوة والسلطان هكذا ببساطة لصالح حَمَلَة دعوة الله"!!.. أو لغيرهم، بدون منفعة أعلى.. فهذا أمر مخالف لطبائع الأمور..

ولا بد أن رسول الله ﷺ كان مدركاً للاعتبارات السابقة.. وغيرها.. لذلك لم **يثبت** عنه ﷺ أنه استعان **بمشركين** بقصد أن يكون له **سلطان** و**تمكين** في الأرض، رغم **حاجته** الماسة لذلك، **وقد طلَبِ** الله منه ﷺ بأن يدعوه ليجعل له سلطاناً نصيراً.

3- أما العصيان المدني، فقد يكون هو أفضل الأساليب وأقواها في الزمن الحاضر.. وهو **أسلوب مُجرَّب**؛ قديماً.. وجُرِّب حديثاً في ما يُسمّى بـ "الربيع العربي".. **[انظر موقع (ويكيبيديا؛ الموسوعة الحرة) على الشبكة]**.. وقد ثبَتَت فاعليّته في التأثير على الأنظمة القائمة.. وبغض النظر عن الجِهات التي استخدمته، سواء بشكل عفوي من الناس أم بتأثير من قُوى أخرى داخلية أو خارجية.. المهم أنه كان أسلوباً فعّالاً في التأثير على الأنظمة القائمة.

ولكن، حتى ينجح هذا الأسلوب مع المؤمنين حَمَلَة "دعوة الله" - في مجتمع معيّن - ويحقِّق الغاية المطلوبة، لا بد من توفّر أمرين اثنين:

- ✓ أن يكون المُحرّك الوحيد والأوحد للمسلمين هو "فكرة الدعوة"؛ أي مفاهيم "خطاب النذارة" - لا إله إلا الله، فاعبدوه، والطمع في الجنّة والخوف من النار - أي أنهم **لا يرضون إلا** بالله ربّاً وبالإسلام ديناً.. ولا يتّبعون إلا محمداً؛ رسولاً من الله.. ابتغاء رضوان الله والجنة..

وهذا يعني أن حَمَلَة دعوة الله" قد سَبَق وعَمِلوا في ذلك المجتمع أعمالاً كبيرة وعظيمة: في بيان فكرة رسالة الله ومقتضياتها للناس، وتعريفهم بربّهم، لتعظيمه وتوقيره وتكبيره **جلّ وعلا**: (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ).. وترغيبهم بجَنّته ورضوانه، وتخويفهم من غضبه وعذابه..

وفي كشف زيف "الطاغوت" (الملأ)؛ المُطَاع أمره من دون الله **عزّوجل**، وبيان بطلان استحقاقه الطاعة، وإقامة "الحُجَّة الرسالية" عليهم.. وكشف فساد الأساس الذي تقوم عليه حياتهم المجتمعية، وأن الأساس الحق لمنهج حياتها هو الحقيقة اليقينية الكبرى؛ لا إله إلا الله..

أي أن حَمَلَة الدعوة" قد بذلوا جهوداً مضنيةً مستمرةً لا تنقطع، ليلاً ونهاراً.. في سبيل تحقيق "المقوّم الأول" لـ "الأمة المكلّفة" (283).

✓ أن يكون لهذا الحِراك قيادة فكريّة سياسيّة، واعية على فكرتها وغايتها ومنهاجها.. ومن الطبيعي أن يكون حَمَلَة دعوة الله" هم تلك القيادة.. تُوجّه الحراك بالاتجاه الصحيح، وجاهزة لأخذ زمام المبادرة عندما تحين الفرصة لذلك (المقوم الثاني)، ولكن.. **بشرط** تحقُّق "المقوّم الأول" لـ "الأمة المكلّفة" بدايةً، فالأمة المُحقّقة **لمقتضيات** التمكين وشروطه، هي الأصل:

﴿ وَإِن كَادُواْ **لَيَسْتَفِزُّونَكَ** مِنَ ٱلْأَرْضِ **لِيُخْرِجُوكَ** مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ **سُنَّةَ** مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ **لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا** ﴿٧٧﴾... وَمِنَ ٱلَّيْلِ **فَتَهَجَّدْ** بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ **عَسَىٰٓ** أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى **مُدْخَلَ صِدْقٍ** وَأَخْرِجْنِى **مُخْرَجَ صِدْقٍ** وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ **سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا** ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ **ٱلْحَقُّ** وَزَهَقَ **ٱلْبَٰطِلُ** إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ الإسراء

﴿... **وَلَيَنصُرَنَّ** ٱللَّهُ **مَن يَنصُرُهُۥٓ** إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ** فِى ٱلْأَرْضِ **أَقَامُواْ** ٱلصَّلَوٰةَ **وَءَاتَوُاْ** ٱلزَّكَوٰةَ **وَأَمَرُواْ** بِٱلْمَعْرُوفِ **وَنَهَوْاْ** عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ **لَنُخْرِجَنَّكُم** مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ **لَنُهْلِكَنَّ** ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ** ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ **ذَٰلِكَ** لِمَنْ **خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ** ﴿١٤﴾ ﴾ إبراهيم ،،،

صدق الله العظيم ..

283 - وعندما يصبح هذا هو حال عموم المسلمين - في مجتمع معين - حينئذٍ سيكون الملأ في أضعف حالاتهم.. الأمر الذي يُعزّز ويقوي خيار العصيان المدني.

المبحث الثالث : الخصائص العامة لمرحلتي السير بالرسالة

إضافة لِمَا سبق بيانه من الخط العام للسير بالدعوة، واحتمالاته الأربعة.. لا بد من بيان وتوضيح بعض الخصائص؛ الشرعية والسننية المهمة للسير بالرسالة في المجتمع في مرحلتيه؛ ما "قبل التمكين" و "بعد التمكين".. وهي من **المَعَالم** [284] البارزة والأساس على طريق "دعوة الله".. لا بد ان يأخذها "حَمَلَة الدعوة" بعين الاعتبار في سيرهم على "سبيل رسول الله":

أولاً: بشكل عام ..

إن "**منهاج النبوّة**" للسير بـ "دعوة الله" وحمل رسالته في المجتمع.. لتحقيق الغاية من الرسالة، له جانبان متلازمان ومتوازيان؛ يسيران معاً:

- ✓ "**الأعمال**"، من حيث هي نفسها **معالجات**.. ومن حيث **تتابع** القيام بها (ترتيبها)..
- ✓ "**الخطاب**": بفكرته؛ "فكرة الدعوة"، أو بمنهجه؛ "منهج الخطاب"..

وكل مرحلة وكل طور من السير، له خطابه وله أعماله.. حسب المنهاج..

وهذان الجانبان؛ كل جانب منهما فيه ما هو شرعيّ وفيه ما هو سنَني.. والمسلمون - أفراد وجماعة وأمّة - مُتَعبّدون **بالجانب الشرعيّ** للمنهاج، أي **بالمعالجات** الشرعيّة، و**بالأوصاف** و**الضوابط** الشرعية **للأفعال** و**الخطاب** الواردة في سور القرآن المجيد (الكتاب)، وكما بيّنها رسولنا الكريم ﷺ بتنزيلها على واقعه الإنساني كمعالجات له (الحكمة)، أثناء سيره بالرسالة أول مرة لتحقيق الغاية منها [285].

و**المعالجات الشرعية** - خطاباً وأعمالاً - أثناء السير بالرسالة، هي **الدّين نفسه**، بمواضيعه الكبرى**:** إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة وبياناً للمصير**..** متمثّلة بـ "فكرة الرسالة"؛ لا إله إلا الله ومقتضاها من العبوديّة لله والإسلام له وحده، **جلّ وعلا**، كما أجملتها سورة العصر..

ويتم تناولها والتعامل معها - أثناء السير بمراحله وأطواره - حسب ضوابط المنهاج؛ الشرعية والسننية.. وبحسب ردود أفعال المجتمع ومواقفهم من الرسالة.. فكل موقف وردة فعل منهم تُعالَج بما يخصّها من معالجات.. كما ذكرنا في المبحث السابق..

ومن هنا، فليس هنالك **أعمال شرعية مخصوصة**، مرتبة ترتيباً معيّناً للسير بالرسالة بقصد تحقيق الغاية منها، كما هو الحال في بعض العبادات الأخرى كالصلاة والحج مثلاً..

أمّا **الجانب السُنَنيّ** (القدريّ) لـ "المنهاج"، **فلا** يدخل في دائرة التأسّي بالرسول ﷺ لأنه ليس تكليفاً شرعيّاً.. بل هو من أمر الله القدريّ.. فموضوعه بيان **طبائع وخصائص** السير بالرسالة في المجتمع و**السنن الضابطة** لها - من البداية حتى النهاية وتحقق الغاية - فهو يضيء لحَمَلَة "دعوة

---

284 - مَعالِم: (اسم) جمع مَعْلَم،
مَعالِمُ الطّريق: العلامات التي تدلُّ على الطريق **وتميّزها** عن غيرها من الطرق،
معالِم المكان: ما **يُستدلُّ** بها على المكان من آثارٍ ونحوِها؛ معالِمُ أثريَّة.. **تميّزه** عن غيره من الأماكن،
مَعالِمُ المدينة: الأبنية ونحوها التي تشتهر بها **وتميّزها** عن غيرها من المدن.

285 - وبيان المعالجات التفصيلية للمناطات، سيكون في الجزء الثاني:(تبيان سور القرآن). حيث تُفهم سور القرآن "فهماً منهاجياً".

الله" الطبيعة السننية للواقع المجتمعي الذي يتحرّكون فيه.. من خلال فهم **التسلسل العام** للأحداث وفهم طبيعة السير ومواقف فئات الناس المختلفة من الحق.. ويُمكّنهم من **استشراف** المستقبل وتوقّع الأحداث قبل حصولها..

فـ "**الترتيب المفصّل**" للأحداث والمواقف كما حصل مع رسول الله ﷺ، أثناء حمله للرسالة في واقعه، ليس شرطاً أن يحصل مع حَمَلَة الرسالة الآن.. كما أن ما حصل مع رسل الله السابقين **بترتيبه المفصّل**، لم يحصل مع الرسول الخاتم .. فكل واقع إنساني - في زمانه ومكانه - له **ترتيب مفصّل** للأحداث عند السير فيه بالرسالة حسب "المنهاج"، لتحقيق الغاية منها..

وعليه..

✓ فليس هنالك "**ترتيب مفصّل**" لأعمال السير بالرسالة، لا **شرعيّ** ملزِم، ولا **سننيّ** واجب الحدوث.. إنما هي الخصائص والسمات (المعالم) العامة لكل مرحلة ولكل طور، وسننها الضابطة لها، وهي الأمر العام المشترك بين رسل الله جميعاً، كما بين الله **تعالى** ذلك في القرآن الكريم عند ذكر قصص الرسل والأنبياء.. ومنها ما ذكرناه من آيات سورة إبراهيم..

✓ فعند فهم "المنهاج" نبحث في الأدلة الشرعية من القرآن والسنة، عن **خطّة واضحة** أو **منهج للسير** قوامه الضوابط الشرعية والسننية، لا عن أعمال **تفصيلية** إجرائية مرتبة..

✓ نبحث عن **منهج للسير** قوامه **الأوصاف الشرعيّة** و **السنن الكونية**، يظهر فيه **الوصف المحدد** للأعمال والمعالجات.. مرتبطة بمناطاتها.. فلا **يُخرَج عنه**.. فكل "مناط" له معالجاته المتعلِّقة به.. وهناك مواقف وأعمال وردود أفعال ستصدر من المجتمع - الناس والملأ - محكومة لسنن الله.. ولكل منها معالجات شرعية وسننية يجب الالتزام بها وتحقيقها في الواقع.. وهو ما سيكون ترتيب وقوع الأحداث وحصول ردود الأفعال والمواقف - وكذلك ترتيب أعمال السير - بحسبه وعلى أساسه..

✓ فـ "**المنهاج**" إنما هو بحثٌ في **الأولويات**؛ في كيفية تلقي الرسالة (الدّين أو العبادة) أولاً بأول.. على مكث؛ مرتّلة كماً وكيفاً وبحسب الضوابط الشرعيّة والسننيّة، للسير والحركة بها، في عملية هدم وبناء مستمرة وشاملة.. **بقصد** إزالة أو تحييد العقبات الفكرية والمادية التي يضعها الملأ لإعاقة سير المؤمنين نحو بناء أمة تُخلص (تُكمل) دينها لله في جميع مجالات حياتها، وتحمل رسالة الله للناس كافة، والمحافظة عليها كذلك.. أي، "تحقيق الغاية من الرسالة والغاية من بعث الرسول بها".

✓ فالعبرة إنما هي في **الخصائص** والسمات العامة (**المعالم**) لكل مرحلة ولكل طور، **الضوابط** الشرعيّة و **الضوابط** السننيّة.. **فهي** التي لا بد من اعتبارها عند معرفة كيف سيكون السير العمليّ بالرسالة في المجتمع المعيّن.. فهي التي حَكَمَت سير رسول الله بالرسالة في واقعه **آنذاك**.. و**هي** التي تحكم السير بالرسالة و "دعوة الله" في كل واقع إنساني في أي زمان ومكان، وعلى أساسها يكون "**التتابع المفصّل**" للأحداث ولتنزيل الآيات ذات العلاقة عليها لمعالجتها.. ولكل واقع مجتمعي "ترتيل تفصيلي" لتنزيل الآيات عليه لمعالجته حتى تحقيق الغاية من الرسالة فيه.. إلا أن **الضوابط** السننيّة والشرعيّة لـ "منهاج السير" ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل.. فهي قائمة على سنن الله الدائمة المستمرة في دينه وفي خلْقه.. وهي الأمر العام المشترك بين رسل الله جميعاً،

وموضوع الاقتداء بِهَدْي الرسل السابقين وأخذ العبرة من قصصهم.. كما بين الله **تعالى** ذلك في القرآن الكريم، في سورة إبراهيم وغيرها من السور.

✓ هناك ضابط سُننيّ عام لتتابع الأحداث، كأسباب ونتائج (مسبَّبات) مثل: "أن فِعل معيّن يقتضي ردّ فعل متعلِّق به".. وهذا لا يتغيّر ولا يتأثر بالزمان والمكان والأشخاص، لأنه يقوم على **السُّنن الإلهية** المتعلّقة بالسير بالرسالات في المجتمعات.. وهي مستمرة ودائمة، لا تتغيّر ولا تتبدّل [286].

فلا بد من العلم بضوابط منهاج السير - بنوعيها الشرعيّة والسننيّة - واستخراجها من أدلتها الشرعيّة: القرآن وبيانه من السنة، ومنها السيرة النبوية.. فهي من أهم **ضمانات** عدم الخروج عن الطريق الصحيح أثناء السير بالرسالة..

ومن الضمانات أيضاً:

- **وضوح** الغاية المرادة، سواء غاية المرحلة أم الغاية العامة من الرسالة..
- **الالتزام بالأوصاف** الشرعية للخطاب والأعمال..

فيكون القيام بالأعمال والخطاب بناء على ما يلي:

✓ بقدر **مطابقتها** للوصف الشرعي،

✓ ومراعاتها **لخصائص** و**سنن** المرحلة والطور المعيّن من السير،

✓ وبقدر فاعليتها وتناسُبها (الحكمة) مع تحقيق **غاية المرحلة** من السير.. والغاية من الرسالة..

وهذا يعطي حَمَلَة الرسالة القدرة على المراجعة والتصويب **بشكل دائم** للسير بالرسالة، لتجنّب الانحراف عن "المنهاج"؛ وما يترتّب عليه من غضب الله **عزّوجل**:

(.. إن **لم يكن** بك عليَّ **غضب** فلا أبالي..) [287]..

﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣)﴾ [هود]

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ **وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** وَلَا تَتَّبِعْ **أَهْوَاءَهُمْ**.. (١٥) ﴾ [الشورى: 15]

---

286 - كما في قوله تعالى: (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ..{43}) **فصلت**. (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ{52} أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ{53}) **الذاريات**. (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {123}) الأنعام. وكما ورد => في الرواية الصحيحة عن بداية نزول الوحي: فبعد أن أخبرَ رسولُ الله ﷺ ورقة ابن نوفل خَبر ما رآهُ ((قالَ لَه ورقةُ: هذا النَّاموسُ الَّذي أُنْزِلَ علَى موسَى ﷺ، يا ليتَني فيها جذعًا، يا ليتَني أكونُ حيًّا حينَ يُخرِجُكَ قومُكَ. قالَ رسولُ الله ﷺ: (أوَ مُخرجيَّ هم) ؟!. قالَ ورقةُ: نعَم لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ بهِ إلَّا عوديَ)). **رواه الشيخان**. نقول: فهذا عمل معين (من الرسول) اقتضى رد فعل معين (من المجتمع) حسب سنن الله في حمل الرسالات في القرى والمجتمعات، وهو قانون دائم لا يتغير، كما في الآيات السابقة. ومثل هذه الأمور تُعتبر من خصائص السير بالرسالة في المجتمع ومن ضوابط تتابع الأحداث، وهي من المعالم الثابتة الهادية للسير، ودليل على أن السير في الطريق الصحيح. فلا بد من العلم بها، وفقهها، وبشموليّة.

287 - جزء من دعاء رسول الله بعد موقف أهل الطائف من دعوته لهم. **[انظر (صحيح السيرة) - ابراهيم العلي].**

فَلِتَجَنُّب الانحراف عن "المنهاج"، يلزم المراجعة والتصويب **بشكل دائم** للسير العمليّ بالرسالة في المجتمع، وذلك بتقويم كل **خطوة تُخطى** من حيث الفاعلية والإنجاز والنتيجة.. ثم تحديد الخطوة التالية من السير.. حسب "المنهاج".. وهكذا في كل طور ومرحلة.. حتى تحقيق الغاية..

وهناك معالم بارزة لكل مرحلة على طريق السير بالدعوة، فيها الهداية للطريق الصحيح.. وملاحظتها تمنع من الخروج عن الطريق وعن "سبيل رسول الله" سنشير إلى أبرزها..

ثانياً: من الخصائص العامة (المعالم) لمرحلة ما "قبل التمكين"

1- عند النظر في ما قام به رسول الله ﷺ من خطاب وأفعال في إطار السير بالرسالة في مرحلة "ما قبل التمكين"، نجد أن **الخطاب** بـ "فكرة الرسالة" في إطار "خطاب النذارة" بمستوييه الفردي والمجتمعي، ببيان أنه لا إله إلا الله (فكرة الرسالة)، مع بيان مصير من آمن واتبع، ومصير من أبى واستكبر.. وذلك، بلاغاً مبيناً؛ أي بلاغاً موجِداً للعلم لمن أراد الهداية، مقيماً لـ "الحُجَّة الرساليّة" على من أبَى.. ولتحقيق ذلك، جاء للخطاب وصف شرعيّ مُحدّد مفصّل لا يجوز الخروج عنه، فـ "منهج الخطاب" وكيفيته مُلزم لنا بتفاصيله - وكذلك ما كان خاصّاً منه **بالمرحلة** المُعيّنة - فله ثوابت وأركان لا يجوز الخروج عنها بحالٍ من الأحوال، إلاّ ما كان داخلاً في **الحكمة**، من مراعاة حال المُخاطب، ومن أنّ لكل مقامٍ مقال.. كما ذكرنا سابقاً ..

والدخول مع عموم الناس والملأ أيضاً، في "حوار" و "مجادلة" بالتي هي أحسن، على أساس "خطاب النذارة".. مع جَعْل "فكرة الرسالة" (لا إله إلا الله) أساساً لفهم كل ما يجري في الواقع من أحداث وتطورات حسب سنن الله (النظرة الإيمانية للواقع)، وهذا هو حجر الأساس في "**منهج التثبيت**" على الحق.. وجعلها أساساً في إزالة كل ما يثيره الناس من **شبهات** حول الحق (لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير) لإبقائه واضحاً بيّناً.. فيه الهداية وإقامة الحُجَّة.. وحتى يتخذوها أساساً جديداً لحياتهم..

ثم تكون "**المرونة**" في التعامل مع الواقع بـ"الأساليب" المناسبة، سواء من حيث "الخطاب" أو "الأعمال" وعلى أساس المنهاج الثابت بضوابطه الشرعية والسننية..

2- من أهم الخصائص الضابطة **للسير بالرسالة** هي: **المرحلية،** على أساس وجود "**الأمة المكلّفة**" أو عدم وجودها**..** فلكل مرحلة طبيعتها وخصائصها الشرعية والسننيّة، وبالتالي **معالجاتها** المتعلّقة بها؛ "خطاباً" و "أعمالاً".

والوصف الشرعيّ العامّ **المُلزم** للأعمال في "ما قبل التمكين"، (عدم وجود "الأمة المكلّفة") أنها ذات صبغة فكرية سياسية، وصراع فكري إيماني على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر؛ حول **الطاعة** تكون لمن، لله أم للطاغوت؟ و**الاتّباع** يكون لمَن، للرسول أم للملأ في المجتمع؟.. لذلك فإن **خطاب** الناس بـ "**فكرة الرسالة**" في إطار "**الإنذار**" (لا إله إلا الله، فاعبدوه، وبيان المصير) هو الأصل والأساس، فجاء في سور القرآن **مفصلاً** [288]..

288 - وهذا واضح تماماً في السور التي نزلت في المرحلة الأولى (السور المكيّة).انظر الجزء الثاني (تبيان سور القرآن) - السور المتعلقة بالمرحلة الأولى (ما قبل التمكين).

فلا يجوز الخروج عن **محتوى** "خطاب النذارة" وأفكاره.. وكذلك لا يجوز القيام بأعمال ذات طابع عسكري أو قتالي.. إنما هي أعمال فكرية سياسية على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر (النظرة الإيمانيّة للواقع)، تتمحور حول بلاغ "فكرة الرسالة" في إطار "الإنذار"، وإقامة "الحُجَّة الرساليّة" على المجتمع الجاهليّ وقيادته (الملأ) :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ﴾ [الفرقان: 50-52]

أي "فلا تطع الكافرين في ترك شيء مما أُرسلتَ به، بل ابذل جهدك في تبليغ الرسالة، وجاهد الكافرين بهذا القرآن جهادًا لا يخالطه فتور؛ بِأَنْ تُلْزِمَهم بِالحُجَجِ والآياتِ، وتَدْعُوَهم إلى النَّظَرِ والتفكّر لِتَتَزَلْزَلَ عَقائِدُهم، وتبيِّن فساد عَوائِدُهم وأعرافهم". **[انظر (التفسير الميسر) و (محاسن التأويل) - القاسمي]**

فخطاب عموم الناس **بـ "فكرة** الرّسالة" في إطار "خطاب **النذارة**" (فحوى الخطاب)، وبالكيفية الشرعية (منهج الخطاب):

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ..(٤٥)﴾ [الأنبياء]

هو **العمل** الأصل والأول في مرحلة "ما قبل التمكين" ويبرز عليه إقامة الحُجَّة الشرعية (الرساليّة) بمقارعة حجج الباطل ودحضها ودمغها بالحجج الحق (لله الحُجَّة البالغة)، وبيان أن فكرة الرّسالة ومقتضاها؛ "إخلاص الدين لله"، هي الحق المبين.. وقوام ذلك كله: النَّص القرآنيّ؛ آيات الله، وبيانها من السنة.. مع القيام بالأعمال - غير الماديّة - والمواقف التي تنسجم مع "فحوى الخطاب" وتمثله.

فكان الأصل في علاقة حَمَلَة دعوة الله مع المجتمع وملئه هو **خطاب** المجتمع بـ "خطاب النذارة" والرد على شبهاتهم وتلبيسهم على الحق ومحاورتهم وجدالهم بالتي هي أحسن.. لبيان وجه الحق وإقامة الحُجَّة الرسالية عليهم في كل مرة.. وهذه أبرز حكمة من تنزيل القرآن مرتلاً على قلب رسول الله..كما قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ الفرقان: ٣٢ - ٣٣

إن دعوة المجتمع ومخاطبته - بـ "فكرة الدعوة" حسب "منهج الخطاب"، وما يقتضيه من مواقف وأعمال - من شأنه أن **يكشف** "طاغوت المجتمع"؛ أي المُطَاع أمره من دون الله أو مع الله.. ويُبين **عدم استحقاقه** للطاعة **والاتباع**، على أساس بيان حقيقة أن **رعاية شؤون** الناس وتحقيق مصالحهم - في الدنيا والآخرة - وتنظيم كل جوانب حياتهم في المجتمع (عبودية المجتمع)، لا تكون إلا لله **عزّ وجل** وحده، فهو وحده الإله الحق **تبارك وتعالى** - فله وحده الخَلْق والمُلْك والأمر - وذلك **بإتباع** أمره وشرعه كما بيّنه رسوله الخاتم (لا إله إلا الله محمد رسول الله). الأمر الذي يؤدي إلى تجريد الطاغوت من الأتْباع.. وبالتالي دمغه وزهوقه. **[انظر "معنى لا إله إلا الله" في (المبحث الأول - الباب الأول)]**

فطبيعة المرحلة الأولى (ما قبل التمكين) أنها - في الأصل - مرحلة "صراع فكري سياسي" على **أساس** الإيمان بالله واليوم الآخر، **قوامه** النص القرآني؛ أي "المجاهدة بالقرآن"..

فهي أثر لـ "سنة المدافَعَة" بين أهل الحق وأهل الباطل.. لذلك كان **الخطاب** بـ "فكرة الرسالة" في إطار خطاب النذارة (لا إله إلا الله، فاعبدوه، مع بيان المصير) هو الأصل:
﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ..(٤٥)﴾ [الأنبياء]،
لذلك جاء "الخطاب" **مفصلاً** في القرآن الكريم، كما في السور المتعلّقة بهذه المرحلة.. خاصة في الطور الأول والثاني.. **[انظر (تبيان سوَر القرآن)، مرجع سابق]**
وكانت **الأعمال** تابعة للخطاب مكمِّلة له.. لذلك نجد أنّ **القليل** من **أفعاله** ﷺ جاء من باب **البيان** للقرآن، وأن الأعم الأغلب منها كان تنفيذاً والتزاماً **بالأوصاف الشرعيّة** للأعمال الواردة في القرآن، **وتطبيقاً** لها على الواقع زمن النزول.. بدءاً من طرح "خطاب النذارة" في المجتمع وبيانه، إلى تطوّر الأمر إلى صراع ومُجابهة مع طّاغوت المجتمع و ملئه.. في حال رفضوا قبول الحق..

بمعنى أن **أغلب أفعال** الرسول ﷺ - في سياق بلاغ "دعوة الله" في مرحلة "ما قبل التمكين"- ليست مما يجب التأسّي فيه بها، بل هي من باب **الأساليب** المنضبطة **بالوصف الشرعي** (المنهاج)، والمناسبة **للواقع المعيّن** (الأسلوب)، من حيث تحقيق غاية المرحلة.. فقد كانت تنفيذاً والتزاماً **بالأوصاف الشرعيّة** الواردة في الرّسالة للأعمال، **وتطبيقاً** لها على الواقع زمن النزول.. فهي من باب (الحكمة) لذلك فهي تحتاج - عند الفهم والتطبيق - إلى **علم وفقه عميق** للأحكام والأوصاف الشرعيّة - تكليفاً و وضعاً - وللسنن الربانيةّ في والأنفس والمجتمعات وحمْل الرسالات [289]..

3- وعلى ذلك، جاء الأمر **المتكرر** (من باب التأكيد) للرسول ﷺ بالمحافظة على هذه السمة؛ البلاغ المبين وإقامة الحُجَّة الرسالية.. للمرحلة، وذلك:

- ✓ بأن **يذر** الكفار أي يتركهم، وأن **يُعرض** عنهم، وأن يصفح **الصفح الجميل**، وأنه ليس عليهم **بمسيطر**، وكذلك **البراءة** مما يعبدون، وعدم **الركون** إليهم، و **الاستقامة** على ذلك، و**الصبر** على أذاهم.. وهكذا، وقد ورد ذلك في الكثير جداً من الآيات الكريمة، وبعض الأحاديث الشريفة.

---

289 - **انظر (الباب الثالث - المبحث الثاني/ الأصل العام في فهم دلالة أفعال رسول الله).** وقد بيّنا أنه عند النظر في الروايات الثابتة من سنة رسول الله ﷺ وسيرته في وصف أعماله أثناء سيره لتحقيق الغاية من => الرسالة، لا بد من العلم بالضوابط التي يكون على أساسها التفريق بين الأعمال التي هي من "المنهاج" (العبادة) وبين التي ليست من المنهاج، بل هي مما يلزم للسير حسب "المنهاج" في واقع معين، أي من الوسائل والأساليب، لأن العبرة بعموم اللفظ (النص) لا بخصوص السبب.. أي أنه، لا بد من التفريق بين ما يجب الاقتداء برسول الله فيه من الأفعال، وبين ما لا يجب. والأفعال التي يجب فيها الاقتداء لا بد من بيان "الحكم التكليفي" إن كان على الفرْض أو الندْب أو الإباحة.. وبيان "الحكم الوضعي"، أي أحكام الوضع : السبب والشرط والمانع..
وبناء على ما بيّناه - بداية البحث - من أن القرآن هو الأصل في حركة رسول الله ﷺ، وسيره بالرسالة.. فإن الأمر الجامع في ضبط هذا التفريق أو التمييز بين الأعمال، هو "الفهم المنهاجيّ" لسور القرآن الكريم، وذلك من خلال النظر إلى السورة كوحدة واحدة ودراستها "دراسةً مِنْهاجيّة" لاستكشاف واستنباط دلالتها كـ "سورة" على "المنهاج"، أي على طريقة السير بالرسالة - بمراحلها وأطوارها، بضوابطها السننيّة والشرعيّة - من البداية حتى تحقيق الغاية. وذلك من خلال بيان السورة للمعالجات التفصيلية - الشرعية والسننية، خطاباً وأعمالاً - اللازمة لمعالجة الحالة أو الموقف (مناط السورة) الذي واجهه حَمَلة الرسالة أثناء حمْلها والسير بها في المجتمع. وتفصيل ذلك أثبتناه في الجزء الثاني: "تبيان سور القرآن".

✓ **الأمر بالبلاغ** و **بالإنذار** و **بالتذكير**، بصيغ وتراكيب لغوية تفيد **الحصر والقصر** عليها، للدلالة على الآتي:

- أن الدعوة في هذه المرحلة - كما **بيّن** رسول الله ﷺ - لا تكون إلا بالخطاب الفكري (المجاهدة بالقرآن) وبالأعمال المتعلقة به فقط.. إقامة "الحُجَّة الرساليّة" على المجتمع (القرية) وملئه.
- أن مسؤولية حَمَلَة "دعوة الله" ورسالته، تتمثّل في **الاستقامة** و **الصبر** على السير حسب المنهاج **بمراحله المختلفة** و**كَمَا** أمر الله تبارك وتعالى وبيّنه رسول الله، عندها يكون الناس المدعوين هم المسؤولون عن أعمالهم في حال عدم إجابتهم دعوة الله بالعبودية له وحده، وليس حامل الرسالة، فقد أبرأ ذمته أمام الله عزّ وجل:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)﴾ [الغاشية]

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢)﴾ [النحل]

والتزم الرسول ﷺ أمْر الله بالمحافظة - طوال هذه المرحلة - على صبغة "الصراع الفكري السياسي" على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر، الذي قوامه النص القرآني؛ أي "المجاهدة بالقرآن" (سنة المدافعة).. وبـ "**كَفّ اليد**"، وألزم به المؤمنين بذلك، خلا بعض الأعمال الفردية:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) ﴾ [النساء: 77]

فقد جاء عبد الرحمن بن عوف و أصحابه رضي الله عنهم إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة. قال الرسول ﷺ:

(إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم). **[الطبري / الحاكم (صحيح السيرة) - إبراهيم العلي]**

وقد **أكّد** الرسول ﷺ ذلك للأنصار رضي الله عنهم بعد "بيعة الحرب" وقُبيل نهاية المرحلة، حين قال له بعضهم بعد أن انكشف أمرهم: "والله الذي بعثك بالحق إن شئت **لنميلنَّ** على أهل مِنى غداً **بأسيافنا؟**" فقال رسول الله ﷺ:

(لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم). **[أحمد \ البيهقي: (صحيح السيرة 155) - إبراهيم العلي]**

4- إن المعنى الواقعي للأمر بعبادة الله: "**فاعبدوه**"، هو تحقيق "**الاتّباع**" والانقياد لله ولرسوله، والتَرْك والتخلّي عن إتباع الطاغوت (تحقيق إخلاص الدين لله). لأن "**الاتّباع**" هو التطبيق العملي للإيمان، **فالمتبوع** في المجتمع هو **إله** المجتمع، لأن أمره هو النافذ وكلمته هي العليا فيه. لهذا كان **الإيمان** بالله ربّاً وإلهاً معبوداً **لا يتحقّق** إلاّ بالإيمان بالرسول **واتّباعه** وطاعته، أي تحقيق "فكرة الرّسالة" ومقتضياتها في الواقع. وهذا يعني خلع الطّاعة والاتّباع من الطاغوت

والكفر به، ممّا يعني القضاء عليه وزواله.. وعلى هذا دار الصراع بين جميع رسل الله وأنبيائه وبين الطاغوت بأشكاله وألوانه وعلى طول الزمان [290].

ومن هنا، فإنّ زيادة الأتْباع بالنسبة للفئة المؤمنة؛ حَمَلَة "دعوة الله"، ليس زيادة في العدد فقط، بل إنّ حقيقة المُـتّبِع هو المؤمن بـ "فكرة الرّسالة" المتمثِّل بها والُممثّل لها (كان خُلُقُه القرآن)، فالاتّباع في حقيقته، جعل "فكرة الرّسالة"؛ لا إله إلا الله متحقِّقة حيّة في الواقع..

فالاتّباع إذاً هو عمليّة **ضَمّ** و **صَهْر** في آنٍ واحد؛ فبعد أن ينضمّ الأفراد الجُدد إلى حَمَلَة "دعوة الله"، يَتْبع ذلك عمليّة صهرٍ لهم - بالتزكية والتعليم - في جسم حَمَلَة الدعوة وكيانهم، لتحقيق التجانس والانسجام (كمثل الجسد الواحد)، ثم وضعهم في المكان المُناسب ليُأدّوا وظيفتهم بالانسجام مع الكلّ وحسب "المنهاج".

وهذا كلّه يصبّ في رفع الكفاءة وزيادة قوّة التأثير للمؤمنين في الواقع، فهُم حَمَلَة "دعوة الله" وأصحاب الرّسالة، ممّا يقتضي أن يكون زِمام المُبادرة دائماً في أيديهم، ويجعلهم دائماً هم الذين يُديرون عمليّة التغيير وتوجيه دفتها (سيّد الموقف) ويجعل الطّاغوت وملأه في حالة دفاع عن النفس دائماً، وفي موقف المتّخذ لرَدّ الفعل فقط، وبالتالي تحقيق غايتهم في أقصر وقت وبأقلّ الخسائر المُمكنة.. ويتحقق ذلك:

- من خلال جعل القرآن الكريم - فكرته ومنهجه - هو محور الصراع..

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ﴾ [الفرقان: 52]

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ [الفرقان: 33]

- ومن خلال "منهاج التزكية والتعليم" **العمليّ**، أثناء **السير** لتحقيق الغاية من الرسالة..

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ **يَتْلُو** عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ **وَيُعَلِّمُهُمُ** الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ **وَيُزَكِّيهِمْ** إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة: 129]

- وبالإبداع في أساليب تنزيل ذلك على الواقع لمعالجته..

كما حصل مع رسول الله ﷺ والجيل الأول من هذه الأمة.

وعليه **فمقدار** التحول إلى **"الاتّـباع" لله عزّ وجل**، بالمفهوم السابق؛ (كان خُلُقُه القرآن)، هو الدال والمؤشر على بدء تحّول المجتمع الذي تعمل فيه الدعوة، من عبادة الطاغوت إلى مجتمع يُخلص العبادة **لله عزّ وجل.**

---

290 - (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً) نوح21 <=
(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)هود59
(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{96} إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُفِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ{97} يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ{98}) هود
(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا{66} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً) الأحزاب.
(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{50}) القصص ..الخ.

5- كانت التُّهمة الوحيدة والثابتة الموجهة لرسول الله والمؤمنين معه؛ أنهم يقولون: "ربُّنا الله"..

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّه ..(٤٠)﴾ [الحج: 40]

(سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرٍو، عن أشَدِّ ما صَنَعَ المُشْرِكُونَ برَسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: رَأَيْتُ عُقْبَةَ بنَ أبِي مُعَيْطٍ، جاءَ إلى النبيِّ ﷺ وهو يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِداءَهُ في عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ به خَنْقًا شَدِيدًا، فَجاءَ أبو بَكْرٍ حتّى دَفَعَهُ عنْه، فَقالَ: {أتَقْتُلُونَ رَجُلًا **أنْ يَقُولَ رَبِّيَ** اللَّهُ، وقدْ جاءَكُمْ بالبَيِّناتِ مِن رَبِّكُمْ} [غافر28]). **[صحيح البخاري 2378]**

كما هي سنة الله الجارية في مَنْ يعبد الله ويدعو إليه:

﴿..وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)..﴾ [البروج: 7-9]

فكانت السمة العامة لحال الجماعة المسلمة؛ حَمَلَة الرسالة، هي **القلة** و**الاستضعاف** و**الخوف**، وأنه بسبب **اتخاذهم** الله وحده إلهاً ورباً معبوداً **وإتباع** رسوله، **وخلْعهم** ما دونه من الأنداد والطاغوت المعبودة في مجتمعهم (فكرة الدعوة).. فلا بد من الصبر والثبات:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ **مُسْتَضْعَفُونَ** فِي الْأَرْضِ **تَخَافُونَ** أَنْ **يَتَخَطَّفَكُمُ** النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾ [الأنفال: 26]

6- بالنظر في النصوص المتعلّقة بمرحلة "ما قبل التمكين" وأدلتها لبيان "الضوابط الشرعية" **للسير** بالرسالة لتحقيق غاية هذه المرحلة، حسب "المنهاج"، نرى أنه في ما يتعلق بـحَمَلَة الدعوة أنفسهم، كان العمل على **ثلاثة محاور** معاً بالتوازي:

- ✓ المحور الأول**: تزكية وتعليم "حَمَلَة الدعوة"**: المحافظة على قوة الدافع الروحية، لتحقيق الغاية).. أن يُمثّلوا الرسالة: (كان خُلُقُه القرآن)..
- ✓ المحور الثاني**: إعداد "حَمَلَة الدعوة"**: الفكري، والمادي.. (الوعي على الهدف، ووضوح الطريق الموصل إليه شرعاً وقدراً، توفير القوة اللازمة).

ومنه النقاط الأساسية التالية:

- الفاعلية والكفاءة في التأثير (تحقيق الغاية): ومعرفة **كل ما له علاقة؛** قدراً وشرعاً، بزيادة الفاعلية والكفاءة في التأثير وتحقيق الغاية عند حَمَلَة الرسالة" من مفاهيم ومهارات ومعلومات.. وأساسه **البصيرة** على "منهاج النبوّة" عمقاً و سِعة.. والتعليم والتزكية بشكلٍ عامّ.. والوعي على المرحلة؛ طبيعتها وخصائصها.. والوعي على **واقع المجتمع** (المدعو) عمقاً وسِعَة.. وفقه "سنن الله" في حمْل الرسالات في المجتمعات.. والإبداع في إيجاد الأساليب المناسبة لتطبيق المنهاج على الواقع ومعالجته به..(الحكمة)..
- قوة وتماسك حَمَلَة الرسالة**:** وأساسها **التجانس والانسجام** والبعد عن أسباب الفرقة والتنازع (كمثل الجسد الواحد)، (كأنهم بنيان مرصوص)، (على قلب رجل واحد).. ومنه ملاحظة الروابط والعلاقات بين الأفراد قوّة وضعفاً.. والمفاهيم والمشاعر السائدة فيها (مفاهيم الأخوّة الإيمانية).. ومنه وفي إطاره تحديد آليّات اختيار **القيادة**.. وآليّات اتّخاذ **القرار..** وآليّات **الشورى**..

- الثبات والاستقامة على الأمر: ثبات حَمَلَة الرسالة" واستقامتهم على الطّريق رغم الصعوبات والعقبات، وبقائهم أقوياء مترابطين متّحدين متماسكين (واستقم كما أمرت ومن تاب معك).. ومنه، العلم بمقوّمات الثبات والنصر(منهج التثبيت، "النثبت به فؤادك") ووجوب توفرها.. والزاد على الطريق.. على أساس **"النظرة الإيمانية"** للواقع والأحداث والسنن التي تضبطهما.

✓ المحور الثالث**: إزالة العقبات من الطريق**: سواء كانت داخليّة في كيان "حَمَلَة الدعوة"، أم خارجيّة في الواقع والمجتمع الذي يعملون فيه.. والتي تُعيق أو تَحُول دون تحقيقهم غاية المرحلة.. أي، الوعي على العقبات - من شبهات أو شهوات أو كيانات - وطبيعتها والقدرة على تذليلها وإزالتها أو تحييدها من أمام حَمَلَة الرسالة عند حصولها.

وبشكل عام؛ فإن **"السير العمليّ"** بالرسالة في المجتمع الجاهلي حسب المنهاج حتى تحقيق غاية هذه المرحلة، وما يقتضيه ذلك من صبر ومصابرة **ومجاهدة** للمجتمع **بالقرآن** وعلى أساس **الإيمان**.. يُعتبر - "السير العمليّ" - هو **البيئة** أو الظرف الذي تتم فيها التزكية والتعليم بشكل **عمليّ واقعيّ** لحَمَلَة الرسالة، وهو البوتقة التي تُصهَر فيها شخصياتهم؛ العقلية والنفسية.. وفيها ينمو كيانُهم.. حتى يحققوا شروط النصر والتمكين.. ثم مقومات "الأمة المكلّفة".. والقرآن - وبيانه - هو الهادي والمُوَجِّه والمَرْجع، دائماً.

7- في مرحلة ما "قبل التمكين"، **"الخطاب"** - بفكرته ومنهجه - الموجَّه إلى المجتمع الجاهليّ الذي يدين للطّاغوت، و**"الأعمال"** التابعة للخطاب.. تدور حول محورين رئيسين، هما:

✓ الأول **: هدم الأساس الفكريّ** الذي يقوم عليه **المجتمع**، وهو عبادة الطّاغوت (كونه مرجعية)؛ أي اعتقاد وجهة نظره في الحياة وإطاعة أمره واتباع شريعته، وذلك من خلال: بيان حقيقة **الإله الحقّ**.. وتذكير النّاس بأنّ الله هو الإله الحقّ الواجب طاعته واتباع أمره (الحُجَّة الرسالية)، وكشف زيْف الطّاغوت - الآلهة المدّعاة - وبشكلً فعّال ومُؤثّر على مستوى الفكر والعلاقات والسلوك ("خطاب النذارة"، وحسب منهجه)، الأمر الذي يُؤدّي إلى الفصل بين النّاس وإلى تباين مواقفهم؛ بين **مؤمن** بالله واليوم الآخر **ومتّبع** لرسول الله **الخاتم** المبعوث رحمة للعالمين.. وبين **مكذّب** بالحق **متّبع** للطاغوت.

✓ الثاني : تقييم **العلاقات والمفاهيم السائدة** فيه**،** على **أساس** "فكرة الرّسالة" وفي إطار خطاب النذارة (لا إله إلا الله، فاعبدوه، وإليه المصير).. وعلى وجوب تحقيق العبودية الشاملة لله **تعالى** (إخلاص الدين لله).. لبيان فساد تلك المفاهيم وهدمها - "النظرة الإيمانية" إلى الواقع - وكذلك بيان أثرها **المصيري** الخطير على الأفراد والمجتمع من حيث استحقاقهم للعذاب والدمار إن رفضوا طاعة الله **عزّ وجل** (الجزاء في الدنيا وفي الآخرة).. سنّة الله في الأمم المُعْرِضة عن ذكر الله.. وأن ما يجدونه من "معيشة ضنكى" إنما هو عقوبة من الله **تعالى** لتركهم طاعة الله **تعالى** وعدم اتباع رسوله (النذارة).

لذلك، فإنه من الطبيعي، في خضم صراع الطاغوت (الملأ في المجتمع) مع المؤمنين حَمَلَة "دعوة الله"، مدافعاً عن نفسه وبقاء كيانه ومكاسبه.. أن يضع **العراقيل والعوائق** المختلفة أمام رسالة الله ودعوته لئلا تصل إلى الناس:

- **الفكرية** منها، وهي الأساس؛ متمثلة بـ "الشبهات" وبتزيين "الشهوات"..

- **السياسية** و**المادية**، المَبْنِيّة على ذلك الأساس؛ متمثلة بـ "المكر" و "الكيد".. [291]

فكان من **كيفية** حمْل رسالة الله **لإدارة** هذا الصراع والانتصار فيه، أن كلّف الله **تعالى** رسوله ﷺ القيام بالأعمال **التي من شأنها** إزالة هذه العوائق وإزالة أثرها من أمام دعوة الله:

منها ما هو متعلق **بالخطاب** لهدم الأساس الفكري لعبادة الطاغوت، وبناء الأساس الفكري لعبادة الله الإله الحق بدلاً منه (الحُجَّة الرسالية)، وإزالة اللبس بين الحق والباطل (كما هو وارد بالتفصيل في السور المكيّة).. **[انظر كتاب "تبيان سور القرآن"].**

ومنها ما هو متعلق **بالأعمال** التابعة للخطاب والمرتكزة عليه (الجهر بالقرآن أمام سادة قريش، الصلاة في الكعبة أمام الناس، وإظهار البراءة من الطاغوت وعبادته)..

ومنها أعمال لإزالة العوائق السياسية والمادية وإلغاء أثرها (مثل الهجرة إلى الحبشة، واتخاذ دار الأرقم مكان للقاء رسول الله مع أصحابه، الدخول في جوار بعض السادة).

8- إن أحكام "الولاء والبراء".. **وبراءة المؤمنين**؛ حَمَلَة "دعوة الله" من الشرك والمشركين، أحكامها مرتبطة **بمرحلة** السير بالرسالة التي هم فيها:

في هذه المرحلة؛ الأولى (**ما قبل التمكين**):

فإن البراءة من الشرك، تكون **بالبراءة** من **المعبود** المُتـّبَع (الطاغوت) ومن **دينه** (التشريعات)، دون البراءة من الأعيان أو الأفراد المشركين. كما بيّنته الآيات والسور المتعلّقة بهذه المرحلة (السور المكيّة):

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾ الكافرون: ١ - ٦

﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩ ﴾ الأنعام: ١٩

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦ ﴾ الشعراء [292]

---

291 - (المكر): تدبير أمر في خفاء. فمجاله التخطيط، ومناقشة الأساليب والأعمال لاختيار الناجع منها.. وجاء وصف "المكر" في القرآن بأنه خير أو سيئ. وقد ذم الله تعالى المكر السيئ فقط، ولم يذم مطلق المكر.=>
أما (الكيد): فهو مُعَالَجَة الشَيْءٍ بِشِدَّةٍ. فمَجاله التنفيذ أي القيام بالأعمال وتنفيذها في الواقع لتحقيق الغاية المرادة، وإلغاء تأثير (معالجة) المقاومة أو الممانعة التي تحول دون تحقيق الغاية المرادة. فـ "الكيد" هو: القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجئ بها غيرك للخضوع لمرادك. لذلك وُوصف "الكيد" في القرآن - في إطار تحقيق المراد بأنه: متين، أو ضعيف، أو عظيم، أو أنه في تضليل أو في ضلال، أي لم يحقق المراد: ﴿.. وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٨﴾ **[الأنفال]**، يعني: مُضْعِف كيدهم.

292 - فكان الأصل في الموقف من أعمال الكافرين - خاصة في أواخر مرحلة "ما قبل التمكين" (في مكة) - هو الإعراض عنهم و"الإنكار السلبي" على مواقفهم، وهو الحد الأدنى من الإنكار، كما في قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {68}) **الأنعام**. أي أن القعود معهم جائز ما لم يخوضوا في آيات =>

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ يونس

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأنعام: ٧٨ - ٧٩

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الزخرف (293)

- إلخ.. مما ورد في السور **المكيّة** حول هذا السياق..

أمّا في المرحلة الثانية؛ **"ما بعد التمكين"**:

البراءة من الشرك تكون **بالبراءة** من **المعبود** المُتـبَّع (الطاغوت) ومن **دينه** (التشريعات)، و أيضا، **البراءة** التامة من **الأفراد** العابدين المتّبعين للطاغوت، **ومفاصلتهم**.

فبعد أن توجَد "الأمّة المكلّفة" بوصفها الشرعي - التمكين والسلطان - ويوجَد القائد العام أو "ولي الأمر" الشرعيّ (الخليفة) المخوّل بإقامة دين الله وحدوده وتجييش الجيوش للجهاد في سبيل الله.. ويوجَد القاضي المسلم المخوّل بإصدار الأحكام القضائية حسب دين الله ومن شريعته.. وتأخذ الأحكام طريقها للتنفيذ الفعلي بقوة السلطان (إنّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).. في هذا الواقع تُصبح البراءة من الشرك ليس فقط بالبراءة من المعبود المُتـبّع (الطاغوت) ودينه (التشريعات)، بل وأيضا **البراءة** التامة من **الأفراد** (الأعيان) العابدين المتّبعين لغير الله ورسوله والمؤمنين، ومفاصلتهم. كما بيّـنته الآيات والسور المتعلقة بالمرحلة الثانية (السور المدنيّة):

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا **يُؤْمِنُونَ** بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ **يُوَآدُّونَ مَنْ** حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ **ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴿٢٢﴾ ﴾ المجادلة: ٢٢

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً

الله عزّ وجلّ. وهو الحكم الشرعي نفسه الذي كان في بدايات المرحلة المدنية كما في قوله تعالى: (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ الله جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً {140}) **النساء**. حتى إذا تمادوا في كفرهم (ازدادوا كفراً) نزل حكم الله تعالى النهائي بحقهم.

293 - قارن بين موقف خليل الله إبراهيم - **عليه السلام** - في الآيات السابقة من السور المكيّة، مع موقفه الذي سيرد بعد قليل في سورة الممتحنة، وهي مدنيّة.

وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ **مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ** مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦ ﴾ الممتحنة [294]

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ **حِزْبَ ٱللَّهِ** هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ المائدة

- إلخ.. مما ورد في السور المدنيّة حول هذا السياق..

وعليه، فلا بد من فهم الفرق البيّن الواضح بين المرحلتين - قبل التمكين وبعده - وبين النظرتين، وأخذه بعين الاعتبار.. وإلا تحصل أخطاء ومخالفات شرعية، لا يعلم إلا الله **تعالى**، مضاعفاتها وتداعياتها السلبية على حَمَلَة الرسالة وعلى الأمّة وعلى دين الله.

وبهذا ننتهي من بيان بعض الخصائص العامة أو المعالم لمرحلة ما "قبل التمكين" والمتعلّقة بـ "الأعمال" و "الخطاب" وبعض **السنن العامة** البارزة لمرحلة "ما قبل التمكين" للمسلمين، من السير بالرسالة الخاتمة، وننتقل إلى بيان ما هو متعلّق بالمرحلة الثانية: ما "بعد التمكين" للمسلمين في الأرض.

---

294 - مواقف خليل الله إبراهيم عليه السلام، مع قومه كانت متنوعة حسب مواقف قومه من الحق، فمَرَّة=> كان مهاجراً: { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24).. فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)} **العنكبوت**. ومرة حاجّه قومه في الله، فأقام الحُجَّة الرساليّة عليهم: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ.. (80).. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)} **الأنعام**. ومرة تبـرّأ من آلهتهم فقط كما في سورة الزخرف والأنعام (مكية)، ومرة تبـرّأ منهم ومن آلهتهم كما في سورة الممتحنة (مدنية). وقد ذُكر كل موقف في سورة مختلفة وذلك كمعالجة للحالات (المناط) المختلفة التي كان يواجهها مع قومه، والتي هي شبيهة بمواقف وحالات (مناط) كان يواجهها الرسول الخاتم مع قريش والتي جاءت تلك السور تعالجها، وقد ذكرها الله تعالى لاتخاذ العبرة والقدوة وتثبيت قلب الرسول ومن معه من المؤمنين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

نتمنى على القارئ الكريم مراجعة تفسير (سورة الكافرون) في كتاب (نظام القرآن) للفراهي الهندي، ففيه تفصيل لبيان مواقف إبراهيم عليه السلام مع قومه، وبيان ترتيب حدوثها حسب الترتيب السننيّ العام، كما هو في القرآن الكريم وذلك في إطار قيام الفراهي بالتأصيل لبيان طبيعة المرحلة والظرف الذي نزلت فيه (سورة الكافرون) من سير نبيّنا محمد بالرسالة، من أجل فهم محتوى السورة في إطار سياقها وظرفها الذي نزلت فيه.

ثالثاً: من الخصائص العامة (المعالم) لمرحلة ما "بعد التمكين"

عندما يصبح المسلمون "**أمّة مسلمة**" بوصفها الشرعيّ **الأساس**: التمكين والسلطان والأمان الذاتي (**الأمة المكلّفة**)، عندها يصبحون مكلفين بالأحكام والمعالجات الشرعية المتعلقة بواقعهم الجديد والمكلفين بها بوصفهم الجديد، أي بوصفهم **أمّة** لها سلطان على بقعة من الأرض، فعليهم أن يسيروا بحسب "المنهاج" في هذه المرحلة، وعلى بصيرة من أمرهم، سواء من حيث العلم بالمعالجات **الشرعيّة** أم من حيث الوعي على **سنن** الله **تعالى** في هذه المرحلة الجديدة (الأمّة)، كما بيّنها الوحي في كتاب الله وسنة نبيّه (الكتاب والحكمة).. وأن يستمروا على ذلك حتى يصيروا أمّة مسلمة **بكامل** خصائصها، وقد أكملت الدّين لله **تعالى**، أي العودة إلى الحال الأصل؛ "الحالة المعيارية" في تحقيق الغاية من الرسالة، والبقاء عليها.

ومرحلة النصر والتمكين للمؤمنين، وتحوّلهم إلى "أمة مسلمة" بوصفها الشرعي الأساس (الأمة المكلّفة)، تُعتبر مرحلة **تأهيل** للأمّة المسلمة الناشئة وإعدادها؛ **تزكية وتعليماً، قوّةً وتدريباً،** للسير قدماً في إكمال بنائها حتى تصير أمة مسلمة **مكتملة** الأركان والخصائص، أي أمة **مؤهلة** القيام بمهمتها التي وُجِدتْ من أجْلِها؛ إكمال الدّين لله **تعالى**.. بتطبيق **جميع** أحكام دين الله **تعالى** وشرْعه على نفسها في **جميع** شؤونها، **وبحَمْل** دعوة الله **تعالى** هدايةً ونوراً للناس كافّة، بالجهاد في سبيل الله، في الأرض كلّها وعلى مدار الزمان (الحالة المعيارية).

ومن أبرز **معالم الخط العام** في "المنهاج" لإعداد **الأمّة المسلمة** وإكمال بنائها؛ "بعد التمكين":

1- تقرير **هُويّة** الأمة ومهمتها؛ أن المسلمين أمة واحدة مسلمة لله وحده **تبارك وتعالى**.. كما أعلن ذلك رسول الله عند ميلاد الأمة ووجودها في المدينة المنورة ، وقد وثّق ذلك في "صحيفة المدينة": (هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن اتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم **أمة واحدة من دون الناس**).**(صحيح السيرة النبوية - إبراهيم العلي)**

وأنها الأمة المسلمة الخاتمة التي ما وُجدت إلا من أجل الاستمرار في مهمة الرسول الخاتم؛ إكمال الدين لله (إخلاص الدين لله) وذلك بتحمّل أعباء الرسالة الخاتمة؛ تطبيقاً على نفسها وحملها للناس كافة هدى ورحمة.. ومِنْ لازِم ذلك؛ الشهادة على الناس، و"الخلافة في الأرض" وقيادة البشرية على شرعة الله ومنهاجه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩
٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ
إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ **شُهَدَآءَ** عَلَى
ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾
الحج: ٧٧ – ٧٨

ومن هنا، فحياة هذه الأمة وروحها هي **الفكرة** التي قامت بها، وعليها، ومن أجلها.. فكرة الرسالة الخاتمة.. "لا إله إلا الله"، وكما بيّنها رسول الله ﷺ: "محمّد رسول الله".. كما قال الله **تعالى**:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ آل عمران: ١٩

﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ ﴾ آل عمران: ٨٥

وكما صحّ عن رسول الله قوله: (فما ليس من أمرنا فهو رَدٌّ).

فهي "الأمة الخاتمة" الوارثة لـ "دين الله" و "ملة الإسلام" و "شريعة الله الخاتمة" والحاملة لـ "رسالة الله الخاتمة" للبشرية ، والمهيمنة على كل الرسلات السابقة وناسخة لها..

2- **"تزكية وتعليم" الأمة؛ صَهر** الأمة بـ "فكرة الدعوة"؛ أي الإيمان بالله واليوم الآخر، (الآيات الأولى من سورة البقرة، أول سورة نزولاً في المدينة) بالتركيز على تلاوة كلام الله **تعالى** وتدبّره.. بالتعليم والإعلام.. أثناء السير حسب "المنهاج".. ومن الأمثلة على ذلك، ما رواه ابن كثير في تفسيره: (.. عَنِ ابْنَةِ الْحَارِثِ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَتْ: مَا حَفِظْتُ "ق" إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ الله ﷺ، يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ. قَالَتْ: وَكَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ ﷺ وَاحِدًا). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِهِ. وَالْقَصْدُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِهَذِهِ السُّورَةِ فِي الْمَجَامِعِ الْكِبَارِ، كَالْعِيدِ وَالْجُمَعِ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَالْمَعَادِ وَالْقِيَامِ، وَالْحِسَابِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ).

3- **على مكث**؛ ذلك أن الله ﴿..إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ يوسف

فأراد الله **عزّوجل** أن يكون تنزيل آي القرآن الكريم على قلب رسول الله **مفرّقـاً** وبحسب الضوابط الشرعيّة والسننيّة، إي على "**الترتيل**"، مراعياً شرط "وحدة كيان" الأمة، و"استطاعة" الأمة في التعلّم والتزكية والاتباع، وهي ترتقي درجات إكمال العبودية (الدّين) لله **جلّ ثناؤه**.. حسب "المنهاج".. مع **التأكيد** على الحقيقة التالية: إنه لا مصدر للقوانين، ولا مرجعيّة للتشريعات إلا دين الله الخاتم؛ الإسلام.. فهذه حقيقة واحدة قطعيّة ثابتة، لا تدرّج فيها ولا تَجزيء.. ذلك، أن لا إله إلا الله محمّد رسول الله، تعني أنه لا معبود إلا الله وبالشريعة التي أُنزلت على محمّد ﷺ أي، لا مصدر للقوانين ولا مرجع للتشريعات إلا مصدر واحد وحيد، هو الوحي: دين الله الخاتم؛ الإسلام.. (كلمة الله هي العليا). فهذه حقيقة واحدة ثابتة لا تدرّج فيها. وإن الإقرار بهذه الحقيقة والاتفاق عليها ـ ابتداءً ـ من قِبَل الأمة، هو الركن الأول في وصف الأمة الناشئة بأنها مسلمة.. فالمؤمنون **أمة** من دون الناس، بهذا الاعتبار. أما **الترتيل** أو **التدرّج** الذي ذكرنا، إنما هو في تنزيل الأحكام والمعالجات الشرعية على ما يستجدّ من أحداث ومواقف (مناط) أثناء سير هذه الأمة المسلمة الناشئة نحو إكمال دينها لله **جلّ وعلا**.. وحسب الشروط العامة التي ذكرنا [295].. وأبرزها "الاستطاعة" و المحافظة على "وحدة كيان الأمة".

295 - ونشير هنا إلى أن التدرّج (الترتيل) في تنزيل الأحكام يختلف عن النسخ في الأحكام. (فـ "النسخ" بمعنى "الإبطال والازالة" فهو إبطال حكم بحكم وآية بآية. أما "التدرج في تطبيق الحكم" فلا يُحلّ حراماً ولا يُحرّم حلالاً، وله ضوابط مثل: "تأخير البيان إلى وقت الحاجة" و "الاستطاعة" و "أحكام الوضع".. فالله تعالى أعلم بعباده وأعلم بقدراتهم وأعلم بأنهم إذا ما أُنزلت عليهم الشريعة دفعة واحدة فقد لا =>

4- **حفظ الذات**؛ اعتبار أن الأولوية القصوى هي **المحافظة** على **كيان الأمّة** ووحدته من التفسّخ أو التفرّق أو الزوال (كمثل الجسد الواحد) (البنيان المرصوص).. فالأمة هي المكلّفة بالقيام بالرسالة، تطبيقاً ودعوة.. والحفاظ على وجود المكلّف وحياته أولوية قصوى.. كما هو معلوم.
برزت هذه الأولوية حين اعتمدها رسول الله في مواقف كثيرة قوية هزت الأمة، مثل حادثة الإفك، والموقف من المنافقين في أكثر من غزوة.. منها غزوة بني قينقاع، **(انظر صحيح السير - إبراهيم العلي)**

5- **إزالة العوائق**؛ **تنقية** جسم الأمة وكيانها من "**العناصر الخبيثة**" مهما كان شكلها: **شبهات** أو **شهوات** أو **كيانات:**

أما **الشبهات والشهوات** فمهما كان مصدر إثارتها، سواء ذاتي من المسلمين أنفسهم، بسبب عدم النضوج الروحي والفكري لبعض فئاتٍ من الأمة.. أم خارجي من أعداء الله ورسوله والمسلمين - في داخل الأمة ومن خارجها - بما يشيعونه من تلبيس على الحق، فلا بد من معالجتها بالمعالجات الشرعيّة والسننيّة اللازمة حسب "المنهاج".. ويكون علاجها في خطه العام: بالبيان والكشف عن التلبيس، وبالتذكير بالله وباليوم الآخر..

وأما **الكيانات**؛ وهي الأفراد أو الجماعات الموجودة في داخل جسم الأمّة، وذات قوة وتأثير على عامة المسلمين:

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ التوبة: ٤٧

لِمَا لتلك الكيانات من علائق وعلاقات في نسيج الأمة الداخلي، فكرية أو اقتصادية أو سياسية..
لكنّها غريبة عن الأمة في فكرها وتوجهاتها، وتعارض - جهراً أو سراً - تَوجّه الأمّة نحو إكمال دينها لله تعالى:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾
التوبة: ٣٢

﴿.. وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ المائدة

فعلاجها - في خطه العام - يكون بالعمل على إضعاف تلك الكيانات الغريبة، ثم فصلها عن كيان الأمّة ونبذها أو إبطال تأثيرها بإزالة الصفة الكيانية عنها.. وذلك:

يتحملونها. والنسخ يُعتبر صورة من صور التدرّج في تنزيل الأحكام، فالنسخ جاء في معظم الأحكام المنسوخة اتباعاً لمنهجية التدرّج، وذلك مثل تحريم الربا والخمر، ومثل فرض العبادات كالصلاة والصيام، ولكن هناك أحكاماً تدرّجت فيها الشريعة ولا يقتضي ذلك نسخها، كالجهاد في سبيل الله، فبدأ بكف اليد ثم الإذن فيه ثم وجوبه، كما قال ابن تيمية والشاطبي والسيوطي وغيرهم. فلا يلزم النسخ من كل تدرّج في التشريع. هذا والتدرّج في التشريع له صور عدة). **[أنظر (التدرّج في تطبيق الشريعة الإسلامية - دراسة فقهية مقارنة) - جهاد داود]**. نقول في بحث مثل هذه الأمور تبرز أهمية الفهم والفقه لـ "أحكام الوضع"؛ من شروط وأسباب وموانع، رخصة وعزيمة، صحة وبطلان.

فكرياً، بإقامة "الحُجَّة الرسالية" عليها وكشف الفاسد من فكرها وبيان بطلانه.. كل ذلك بالوحي.. وفي العلن وعلى الملأ. وبتعبير آخر؛ إزالة ظلام باطلها بنور الوحي؛ رسالة الله جلّ ثناؤه وكما بينها رسول الله بياناً عملياً..

وسياسياً، بضرب قياداتها ونزع ثقة أتباعهم بهم، بكشف حقيقتهم وحقيقة أعمالهم لعامة الناس، وبتحميل أتباعهم مسؤولياتهم أمام الله **تعالى** وأمام الأمة.. وكشف حقيقة مواقفهم المتعارضة مع مصالح الأمة وتوجهاتها نحو الحق؛ نحو إكمال الدّين لله.. وقطع وشائجها وعلاقاتها مع الأمة.. ومع أعداء الأمة..

واقتصادياً، بتجفيف الموارد المالية..

وعسكرياً، بإعداد القوة التي تُرهب أعداء الله وأعداء الأمة المسلمة.. ثم، بتوجيه ضربة قاصمة لهم إذا اقتضى الأمر ذلك.. إذا لم تفلح كل الوسائل السابقة..

ومثال ذلك: حالة اليهود و المنافقين في المدينة المنورة.. وكيف أنه من خلال الأحداث الجارية بقوة وتسارع، وتَنزُّل الآيات والأحكام المتتابع، وسير الأمة حثيثاً نحو إكمال دينها لله.. كانت تنكشف حقيقتهم أمام الأمة وتتعرّى قياداتهم.. وكان الوحي يكشف ما تُخفيه صدورهم، ويُبيّن حقيقة قلوبهم المريضة، ويُظهر بشاعة نواياهم الخبيثة.. ويبيّن **خواصّهم** وطبائعهم الظاهرة التي يَتَميّزون بها وتكشف حقيقتهم.. وعلى أساس ذلك يذكر المعالجات اللازمة (فكرية أو سياسية أو عسكرية):

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ البقرة: ١٢٠

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ آل عمران: ١١٨

﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٠ - ٦٢

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ محمد: ٢٩ - ٣٢

.. إلخ..

ويتحقق ذلك كله، بالسير حسب "المنهاج" وتنزيل المعالجات الشرعية على مناطاتها المتعلّقة بها، حال حدوثها، وفَهْم السنن الكونية.. لجعل الأمّة المسلمة بمجموعها على بصيرة ووعي، وقوية متماسكة كالبنيان المرصوص، مع اعتبار "استطاعة الأمة" و "وحدة كيانها":

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ الأنفال: ٤٦

لجعلها أمة طيبة طاهرة عابدة لله **تبارك وتعالى** عن رضَى وحُب، تُقدّم كل ما يلزم لإكمال دينها لله وإعلاء كلمته، من تضحية وإنفاق، وجهاد وصبر.. ليس من أجل شيء إلا طمعاً في رضوان الله **تبارك وتعالى**، وابتغاءً لوجه ربّها الأعلى:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ **ٱلْمُؤْمِنِينَ** عَلَىٰ مَآ **أَنتُمْ** عَلَيْهِ حَتَّىٰ **يَمِيزَ** ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٩

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ الأنفال: ٣٦ - ٣٧

رابعاً : حقائق بارزة في قصص الرسل مع الجاهلية.. [من كتاب (في ظلال القرآن)، باختصار]

"والآن نقف وقفات قصيرة أمام الحقائق البارزة التي تعرضها قصة الرسل مع الجاهلية.. [كما عرضتها آيات سورة إبراهيم].. وهي الحقائق التي أشرنا إليها إشارات سريعة في أثناء استعراض السياق القرآني، ونرى انها تحتاج إلى وقفات أخرى أمامها مستقلة :

إننا نقف من هذه القصة على حقيقة أولية بارزة يقصها علينا الحكيم الخبير.. إن موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الإنساني موكب واحد موصول، يقوده رسل الله الكرام، داعين بحقيقة واحدة، جاهرين بدعوة واحدة، سائرين على منهج واحد.. كلهم يدعو إلى ألوهية واحدة، وربوبية واحدة وكلهم لا يدعو مع الله أحداً، ولا يتوكل على أحد غيره، ولا يلجأ إلى ملجأ سواه، ولا يعرف له سنداً إلا إياه..

فهذا الموكب الكريم من الرسل واجه البشرية الضالة ـ إذن ـ بدعوة واحدة، وعقيدة واحدة، وكذلك واجهت الجاهلية ذلك الموكب الكريم، وهذه الدعوة الواحدة بالعقيدة الواحدة، مواجهة واحدة ـ كما يعرضها السياق القرآني؛ [في سورة ابراهيم] مُغْضياً عن الزمان والمكان، مُبْرِزاً للحقيقة الواحدة الموصولة من وراء الزمان والمكان ـ وكما أن دعوة الرسل لم تتبدل، فكذلك مواجهة الجاهلية لم تتبدل! إنها حقيقة تستوقف النظر حقاً! .. إن الجاهلية هي الجاهلية على مدار الزمان.. إن الجاهلية ليست فترة تاريخية ولكنها؛ وضْع واعتقاد وتصوُّر وتجمُّع عضوي، على أساس هذه المقومات..

والجاهلية تقوم ابتداء على أساس من دينونة العباد للعباد ومن تأليه غير الله، أو من ربوبية غير الله ـ وكلاهما سواء في إنشاء الجاهلية ـ فسواء كان الاعتقاد قائماً على تعدد الآلهة أو كان قائماً

على توحيد الإله مع تعدد الأرباب - أي المتسلطين - فهو ينشئ الجاهلية بكل خصائصها الثانوية الأخرى!..

ودعوة الرسل إنما تقوم على توحيد الله وتنحية الأرباب الزائفة، وإخلاص الدين لله - أي إخلاص الدينونة لله وإفراده سبحانه بالربوبية، أي الحاكمية والسلطان - ومن ثم تصطدم اصطداماً مباشراً بالقاعدة التي تقوم عليها الجاهلية وتصبح بذاتها خطراً على وجود الجاهلية، وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام في تجمّع خاص، يأخذ أفراده من التجمُّع الجاهلي وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد، ومن ناحية القيادة، ومن ناحية الولاء.. الأمر الذي لا بد منه للدعوة الإسلامية في كل مكان وفي كل زمان ..

وعند ما يشعر التجمُّع الجاهلي - بوصفه كياناً عضوياً واحداً متسانداً - بالخطر الذي يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية كما يتهدد وجوده ذاته بتمثّل الاعتقاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له ..

فعندئذ يُسْفِر التجمُّع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام! إنها المعركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام! المعركة بين تجمعين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماماً للقاعدة التي يقوم عليها التجمُّع الآخر..

فالتجمُّع الجاهلي يقوم على قاعدة تعدد الآلهة، أو تعدد الأرباب، ومن ثم يدين فيه العباد للعباد..

والتجمُّع الإسلامي يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد ..

ولما كان التجمُّع الإسلامي إنما يأكل في كل يوم من جسم التجمُّع الجاهلي، في أول الأمر وهو في دور التكوين، ثم بعد ذلك لا بد له من مواجهة التجمُّع الجاهلي لتسَلُّم القيادة منه، وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده.. لما كانت هذه كلها حتميات لا بد منها، متى سارت الدعوة الإسلامية في طريقها الصحيح، فإن الجاهلية لا تطيق منذ البدء دعوة الإسلام.. ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام! .. إنها مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاحتياج ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد! وإذ كان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها، فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت، لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام! .. إن الجاهلية لم تخدع نفسها في حقيقة المعركة وكذلك لم يخدع الرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - أنفسهم ولا المؤمنين بهم في حقيقة المعركة ..

{.. وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ ..} **ابراهيم**

فهُم لا يقبلون من الرسل والذين آمنوا معهم، أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدتهم وبقيادتهم وبتجمعهم الخاص .

إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم، ويندمجوا في تجمعهم، ويذوبوا في هذا التجمُّع. أو أن يطردوهم بعيداً وينفوهم من أرضهم ..

ولم يقبل الرسل الكرام أن يندمجوا في التجمُّع الجاهلي، ولا أن يذوبوا فيه، ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص.. هذا التجمُّع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التي يقوم عليها التجمُّع

الجاهلي.. ولم يقولوا - كما يقول ناس ممن لا يدركون حقيقة الإسلام .. ولا حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات - : حسناً! فلنندمج في ملتهم كي نزاول دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم !!!

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي، لا بد ان يتبعه حتماً تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه ..

وليس في ذلك اختيار.. إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات.. هذا التركيب الذي يجعل التجمُّع الجاهلي حساساً بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس لله وحده وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان. كما يجعل كل عضو مسلم يتميع في المجتمع الجاهلي خادماً للتجمع الجاهلي لا خادماً لإسلامه كما يظن بعض الأغرار!..

ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى الله في جميع الأحوال. وهي أن تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر والتمكين والفصل بينهم وبين قومهم بالحق، لا يقع ولا يكون، إلا بعد تميز أصحاب الدعوة وتحيزهم وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم.. فذلك الفصل من الله لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي، ذائبون في أوضاعه عاملون في تشكيلاته.. وكل فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعد الله بالنصر والتمكين.. وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله، وهم واعون مقدِّرون ..

وأخيراً.. نقف أمام الجمال الباهر الذي يعرض فيه القرآن الكريم موكب الإيمان، وهو يواجه الجاهلية الضالة على مدار الزمان.. جمال الحق الفطري البسيط الواضح العميق، الواثق المطمئن، الرصين المكين :

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ١٠﴾ إبراهيم

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ إبراهيم

وهذا الجمال الباهر إنما ينشأ من هذا العرض الذي يجعل الرسل موكباً موحَّداً في مواجهة الجاهلية الموحَّدة ويصوّر الحقيقة الباقية من وراء الملابسات المتغيرة.. ويبرز المعالم المميزة للدعوة التي يحملها الرسل وللجاهلية التي تواجههم، من وراء الزمان والمكان، ومن وراء الأجناس والأقوام!.. ثم يتجلى هذا الجمال في كشف الصلة بين الحق الذي تحمله دعوة الرسل الكرام، والحق الكامن في كيان هذا الوجود :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.. ١٠ ﴾ إبراهيم

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا .. ١٢ ﴾ إبراهيم

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ٢٠ ﴾ إبراهيم

وهكذا تتجلى العلاقة العميقة بين الحق في هذه الدعوة، والحق الكامن في الوجود كله، ويبدو أنه حق واحد موصول بالله الحق، ثابت وطيد عميق الجذور:

﴿ ..كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ إبراهيم

وأن ما عداه هو الباطل الزائل:

﴿.. كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ إبراهيم

كذلك يتمثل ذلك الجمال في شعور الرسل بحقيقة الله ربهم وفي حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب تلك العصبة المختارة من عباده :

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ إبراهيم

وكلها لمحات من ذلك الجمال الباهر لا يملك التعبير البشري إلا أن يشير إليها كما يشار إلى النجم البعيد، لا تبلغ الإشارة مداه، ولكنها فقط تلفت العين إلى سناه.) اهـ.

هذا، والله أعلم وأجلّ وأحكم..

والحمد لله رب العالمين ..

والصلاة والسلام على سيد المرسلين مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين..

ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهرس